





323





CORNELL UNIVERSITY LIBRARY



3 1924 063 267 607

DATE DUE

~~JAN 21~~ 2004

GAYLORD

PRINTED IN U.S.A.



OLIN  
D  
17  
I13  
1900



# مَقْدَامَاتُ ابْنِ خَلْدُونِ

لكتاب العبر وديوان المبتدا والخبر في أيام العرب والعجم والبربر  
ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأَكْبَر وهو تاريخ وحيد  
عصره العلامة عبد الرحمن بن خلدون المغربي رحمه الله آمين



طبع على نفقة ملتزمه

عَبْدُ الرَّحْمَنِ مُحَمَّدٌ

مِلْتَزِمُ طَبْعِ المَصْنُوعِ الشَّرِيفِ بِمِصْرَ

صاحب المطبعة البية المصرية

بميدان الأزهر المنير بمصر





## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يقول العبد الفقير الى رحمة ربه الغني بلطفه عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي وفقه  
الله تعالى

الحمد لله الذي له العزة والجبروت وييده الملك والملكوت وله الأسماء الحسني والنعوت  
العالم فلا يعزب عنه ما تظهره النجوى أو يخفيه السكوت القادر فلا يعجزه شيء في السموات  
والارض ولا يفوت أنشأنا من الأرض نسما واستعمرنا فيها أجيالا وأما ويسر لنا منها أرزاقا  
وقسما تكنفنا الأرحام والبيوت ويكفلنا الرزق والقوت وتبلينا الأيام والوقوت وتعتورنا  
الآجال التي خط علينا كتابها الموقوت وله البقاء والثبوت وهو الحى الذى لا يموت والصلاة  
والسلام على سيدنا ومولانا محمد النبي الأسمى العربى المکتوب فى التوراة والانجيل المنعوت  
الذى تمخض لفصالة الكون قبل أن تتعاقب الآحاد والسبوت ويتباين زحل واليهاموت وشهد  
بصدقه الحمام والعنكبوت وعلى آله وأصحابه الذين لهم فى محبته واتباعه الأثر البعيد والصيت  
والشمل الجميع فى مظاهرتة ولعدوم الشمل الشيتيت صلى الله عليه وعليهم ما اتصل بالاسلام  
جده المبخوت وانقطع بالكفر حبله المبتوت وسلم كثيرا . ﴿ أما بعد ﴾ فان فن التاريخ من  
الفنون التى يتداولها الأمم والأجيال وتشد اليه الركائب والرحال وتسمو الى معرفته السوقة  
والأغفال وتتنافس فيه الملوك والأقوال ويتساوى فى فهمه العلماء والجهال إذ هو فى ظاهره  
لا يزيد على أخبار عن الأيام والدول والسوابق من القرون الأولى تنمى فيها الأقوال  
وتضرب فيها الأمثال وتطرف بها الأندية اذاغصها الاحتفال وتؤدى اليها شأن الخليفة كيف  
تقلبت بها الأحوال واتسع للدول فيها النطاق والمجال ، وعمروا الأرض حتى نادى بهم  
الارتحال ، وحان منهم الزوال ، وفى باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق وعلم  
بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق فهو لذلك أصيل فى الحكمة عريق وجدير بأن يعد فى علومها  
وخليق ، وإن فحول المؤرخين فى الاسلام قد استوعبوا أخبار الأيام وجمعوها وسطروها فى  
صفحات الدفاتر وأودعوها وخلطها المتطفلون بدسائس من الباطل وهموا فيها أو ابتدعوها  
وزخارف من الروايات المضعفة لفقوها ووضعوها واقتنى تلك الآثار الكثير ممن بعدم



واتبعوها وأدوها إلينا كما سمعوها ولم يلاحظوا أسباب الوقائع والأحوال ولم يراعوها ولا  
 رفضوا ترهات الأحداث ولا دفعوها فالتحقيق قليل وطرف التفتيح في الغالب كليل والغلط  
 والوهم نسيب للأخبار وخليل والتقليد عريق في الآدميين وسليل والتطفل على الفنون عريض  
 وطويل ومرعى الجهل بين الأنام وخيم وبيل والحق لا يقام سلطانه والباطل يقذف بشهاب  
 النظر شيطانه والناقل انما هو يمي ويتقل والبصرة تنقد الصحيح اذا تمقل والعلم يجلوها  
 صفحات الصواب ويصقل ( هذا ) وقد دون الناس في الأخبار وأكثروا وجمعوا تواريخ  
 الأمم والدول في العالم وسطروا والذين ذهبوا بفضل الشهرة والأمانة المعتبرة واستفروا  
 دواوين من قبلهم في صحفهم المتأخرة هم قليلون لا يكادون يجاوزون عدد الأنامل ولا حركات  
 العوامل مثل ابن اسحق والطبري وابن الكلبي ومحمد بن عمر الواقدي وسيف بن عمر الاسدي  
 والمسعودي وغيرهم من المشاهير المتميزين عن الجماهير وان كان في كتب المسعودي والواقدي  
 من المطنع والمغمز ما هو معروف عند الأثبات ومشهور بين الحفظة الثقات الا أن الكافة  
 اختصتهم بقبول أخبارهم واقتفاء سننهم في التصنيف واتباع آثارهم والناقد البصير قسطاس  
 نفسه في تزييفهم فيما ينقلون أو اعتبارهم فالعمران طبائع في أحواله ترجع إليها الأخبار وتحمل  
 عليها الروايات والآثار \* ثم ان أكثر التواريخ لهؤلاء عامة المناهج والمسالك لعموم  
 الدولتين صدر الاسلام في الآفاق والممالك وتناولها البعيد من الغايات في المآخذ والمتارك  
 ومن هؤلاء من استوعب ما قبل الملة من الدول والأمم والأمر العم كالمسعودي ومن نما  
 منحاه وجاء من بعدهم من عدل عن الاطلاق الى التقييد ووقف في العموم والاحاطة عن الشأو  
 البعيد فقيده شوارد عصره واستوعب أخبار أفعه وقطره واقتصر على أحداث دولته ومصره  
 كما فعل أبو حيان مؤرخ الأندلس والدولة الأموية بها وابن الرقيق مؤرخ أفريقية والدول  
 التي كانت بالقيروان ثم لم يأت من بعد هؤلاء الا مقلد وبليد الطبع والعقل أو متبلد ينسج على  
 ذلك النوال ويحتذى منه بالمثال ويذهل عما أحالته الأيام من الأحوال واستبدلت به من عوائد  
 الأمم والأجيال فيجلبون الأخبار عن الدول وحكايات الوقائع في العصور الأول صوراً قد  
 تجردت عن موادها وصفاتها انتضيت من أغمارها ومعارف تستنكر للجهل بطرفها وتلاذها  
 انما هي حوادث لم تعلم أصولها وأنواع لم تعتبر أجناسها ولا تحققت فصولها يكررون في  
 موضوعاتهم الأخبار المتداولة بأعيانها اتباعاً لمن عني من المتقدمين بشأنها ويغفلون أمر الأجيال  
 الناشئة في ديوانها بما أعوز عليهم من ترجمانها فتستعجم صحفهم عن بيانها ثم اذا تعرضوا  
 لذكر الدولة نسقوا أخبارها نسقا محافطين على نقلها وهما أو صدقا لا يتعرضون لبدايتها ولا  
 يذكرون السبب الذي رفع من رايها وأظهر من آيتها ولا علة الوقوف عند غايتها فيبقى الناظر  
 متطلعا بعد الى افتقاد أحوال مبادئ الدول ومراتبها مفتشا عن أسباب تراجيحها أو تعاقبها باحثا



عن المقنع في تباينها أو تناسبها حسبما نذكر ذلك كله في مقدمة الكتاب ثم جاء آخرون بإفراط الاختصار وذهبوا الى الاكتفاء بأسماء الملوك والاختصار مقطوعة عن الأنساب والأخبار موضوعة عليها أعداد أيامهم بحروف الغبار كما فعله ابن رشيق في ميزان العمل ومن اقتفى هذا الاثر من المهمل وليس يعتبر لهؤلاء مقال ولا يعد لهم ثبوت ولا انتقال لما أذهبوا من الفوائد وأخلوا بالمذاهب المعروفة للمؤرخين والعوائد ( ولما طالعت ) كتب القوم وسبرت غور الأئمة واليوم نهت عين القريحة من سنة الغفلة والنوم وسمت التصنيف من نفسى وأنا المفلس أحسن السوم فأنشأت في التاريخ كتابا رفعت به عن أحوال الناشئة من الأجيال حجابا وفصلته في الأخبار والاعتبار بابابا . وأبدت فيه لأولية الدول والعمران عللا وأسبابا وبنيتها على أخبار الأئمة الذين عمروا المغرب في هذه الأعصار وملأوا أكناف النواحي منه والأمصار وما كان لهم من الدول الطوال أو القصار ومن سلف من الملوك والأئصار وهم العرب والبربر اذ هما الجيلان اللذان عرف بالمغرب مأواهما وطال فيه على الأحقاب مثواهما . حتى لا يكاد يتصور فيه ما عداها . ولا يعرف أهله من أجيال الآدميين سواهما فهذبت مناحيه تهديبا وقربته لأفهام العلماء والخاصة تقريبا ، وسلكت في ترتيبه وتبويبه مسلكا غريبا ، واخترعته من بين المناحي مذهبا عجيبا ، وطريقة مبتدعة وأسلوبا ، وشرحت فيه من أحوال العمران والتمدن وما يعرض في الاجتماع الانساني من العوارض الذاتية ما يعتكك بعلى الكوائن وأسبابها ، ويعرفك كيف دخل أهل الدول من أبوابها ، حتى تنزع من التقليد يدك ، وتقف على أحوال من قبلك من الأيام والأجيال وما بعدك ( ورتبته ) على مقدمة وثلاثة كتب

( المقدمة ) في فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والاماع بمغالط المؤرخين

( الكتاب الأول ) في العمران وذكر ما يعرض فيه من العوارض الذاتية من الملك والسلطان

والكسب والمعاش والصنائع والعلوم وما لذلك من العلل والأسباب

( الكتاب الثاني ) في أخبار العرب وأجيالهم ودولهم منذ مبدأ الخليقة الى هذا العهد وفيه

الاماع ببعض من عاصرهم من الأئمة المشاهير ودولهم مثل النبط والسريانيين والفرس وبني

اسرائيل والقبط ويونان والروم والترك والافرنجة

( الكتاب الثالث ) في أخبار البربر ومن اليهم من زناتة وذكر أوليتهم وأجيالهم وما كان

لهم بديار المغرب خاصة من الملك والدول ثم كانت الرحلة الى المشرق لاجتلاء أنواره وقضاء

الفرس والسنة في مطافه ومزاره والوقوف على آثاره في دواوينه وأسفاره فأفدت ما نقص

من أخبار ملوك العجم بتلك الديار ودول الترك فيما ملوكه من الأقطار وأتبع بها ما كتبته

في تلك الأسفار وأدرجتها في ذكر المعاصرين لتلك الأجيال من أم النواحي وملوك الأمصار

والضواحي سالكا سبيل الاختصار والتلخيص مفتديا بالمرام السهل من العويص داخلا من



باب الأسباب على العموم الى الأخبار على الخصوص فاستوعب أخبار الخليفة استيعابا وذل من الحكم النافرة صعبا وأعطي لحوادث الدول عللا وأسبابا وأصبح للحكمة صوانا وللتاريخ جرابا ( ولما كان ) مشتملا على أخبار العرب والبربر من أهل المدن والوبر والاماع بمن عاصروهم من الدول الكبرى وأفصح بالذكرى والعبر في مبتدأ الأحوال وما بعدها من الخبر ﴿ سميته ﴾ كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصروهم من ذوى السلطان الاكبر ولم أترك شيئا في أولية الأجيال والدول أو تعاصر الأمم الأولى وأسباب التصرف والحول في القرون الحالية والملل وما يعرض في العمران من دولة وملة ومدينة وحله وعزة وذله وكثرة وقلة وعلم وصناعة وكسب وإضاعة وأحوال متقلبة مشاعة وبدو وحضر وواقع ومنتظر الا واستوعبت جملة وأوخت براهينه وعلله فجاء هذا الكتاب فذا بما ضمنته من العلوم الغربية والحكم المحبوبة القرية وأنا من بعدها موقن بالقصور بين أهل العصور معترف بالعجز عن المضاء في مثل هذا القضاء راغب من أهل اليد البيضاء والمعارف المتسعة القضاء النظر بعين الاتقاد لابعين الارضاء والتغمد لما يعثرون عليه بالاصلاح والاغضاء فالبضاعة بين أهل العلم مزجاء والاعتراف من اللوم منجاء والحسني من الاخوان مرتجاء والله أسأل أن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم وهو حسبي ونعم الوكيل وبعد أن استوفيت علاجه وأثرت مشكاته للمستبصرين وأذكت سراجيه وأوخت بين العلوم طريقه ومنهاجه وأوسعت في قضاء المعارف نطاقه وأدرت سياجه أتخفت بهذه النسخة منه ( ١ ) خزانة مولانا السلطان الامام المجاهد

( ١ ) قوله أتخفت بهذه النسخة منه الخ وجد في نسخة بخط بعض فضلاء المغاربة زيادة قبل قوله أتخفت وبعد قوله وأدرت سياجه ونصها التمس له الكفاء الذى يلمح بمين الاستبصار فنونه . ويلحظ بمداركة الشريعة معياره الصحيح وقانونه . ويميز رتبته في المعارف عما دونه فسرحت فكري في قضاء الوجود . وأجلت نظري ليل التهام والهجوم . بين التهام والنجوم . في العلماء الركع السجود . والخلفاء أهل الكرم والجلود . حتي وقف الاختيار بساحة الكمال . وطافت الافكار بموقف الآمال . وظفرت أيدي المساعي والاعمال بمنتهى المعارف مشرقة فيه غرر الجمال . وحدائق العلوم الوارفة الظلال . عن اليمين والشمال فأثخت مطي الافكار في عرصاتها . وجلوت محاسن الانظار على منصاتها . أو أتخفت بديوانها مقاصير ايوانها . وأطلعت كوكبا وقادا في أفق خزانتها وصوانها . ليكون آية للعقلاء يهتدون بمناره . ويعرفون فضل المدارك الانسانية في آثاره . وهي خزانة مولانا السلطان الامام المجاهد . الفاتح المامد . الى آخر النعوت المذكورة هنا ( ثم قال ) الخليفة أمير المؤمنين المتوكل على رب العالمين أبو العباس أحمد بن مولانا الامير الطاهر المقدس أنى عبد الله محمد بن مولانا الخليفة المقدس أمير المؤمنين أبي يحيى أبي بكر ابن الخلفاء الراشدين من أئمة الموحدين . الذين جددوا الدين . ونهجوا السبل للمهتدين . وبحوا آثار البغاة المفسدين . من المجسمة والمعتدين . سلالة أبي حفص الفاروق . والتبعة النامية علي تلك المغارس الزاكية والعروق . والنور المتلألئ من تلك الأشعة والبروق فأوردته من مودعها السلي . بحيث مقر الهدى . ورياض المعارف خضلة الندى . الى آخر ما ذكره هنا الا أنه لم يقيد الامامة بالفارسية لكن النسخة



الفتاح الماهد المتحلي منذ خلق التأم ولوث العثم بحلي القانت الزاهد المتوشح من زكاء المناقب  
والحامد وكرم الشماثل والشواهد بأجمل من القلائد في نحر الولائد المتناول بالعزم القوى  
الساعد والجهد الموالي المساعد والمجد الطارف والتالد ذوائب ملكهم الراسي القواعد الكريم  
المعالى والمساعد جامع أشتات العلوم والفوائد وناظم شمل المعارف الشوارد ومظهر الآيات الربانية  
في فضل المدارك الانسانية بفكره الثاقب الناقد ورأيه الصحيح المعاهد النير المذاهب والعقائد  
نور الله الواضح المرشد ونعمته العذبة الموارد ولطفه الكامن بالمرصد للشدائد ورحمته الكريمة  
المقالد التي وسعت صلاح الزمان الفاسد واستقامة المائد من الاحوال والعوائد وزهبت بالخطوب  
الأوابد وخلعت على الزمان رونق الشباب العائد وحقته التي لا يطلها انكار الجاحد ولا شبهات  
المعاند (أمير المؤمنين) أبو فارس عبد العزيز ابن مولانا السلطان الكبير المجاهد المقدس أمير  
المؤمنين أبي الحسن ابن السادة الأعلام من بني مريـن الذين جددوا الدين ونهـجوا السبيل لهـمـتدين  
ومحوا آثار البغاة المفسدين أفاء الله على الأمة ظلاله وبلغه في نصر دعوة الاسلام آماله وبعثه  
الى خزائنها المرفقة لطلبة العلم بجامع القرويين من مدينة فاس حضرة ملكهم وكرسى سلطانهم  
حيث مقر الهدى ورياض المعارف خضلة الندى وفضاء الاسرار الربانية فسيح المدى والامامة  
الكريمة الفارسية (١) العزيزة ان شاء الله بنظرها الشريف وفضلها الغني عن التعريف  
تبسط له من العناية مهادا وتفسح له في جانب القبول آمادا فتوضح بها أدلة على رسوخه  
وأشهادا في سوقها تنفق بضائع الكتاب وعلى حضرتها تعكف ركائب العلوم والآداب  
ومن مدد بصائرنا المنيرة تتأجج القرائح والالباب والله يوزعنا شكر نعمتها ويوفر لناحوظ  
المواهب من رحمته ويعيننا على حقوق خدمتها ويجعلنا من السابقين في ميدانها المجلين في  
حومتها ويضفي على أهل اياتها ومأوي من الاسلام الى حرم عمالتها لبوس حمايتها وحرمتها وهو  
سبحانه المسؤول أن يجعل أعمالنا خالصة في وجهتها بريئة من شوائب الغفلة وشبهتها وهو  
حسبنا ونعم الوكيل

﴿ المقدمة في فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والاماع لما يعرض  
للمؤرخين من المغالط والأوهام وذكر شيء من أسبابها ﴾

﴿ اعلم ﴾ أن فن التاريخ فن عزيز المذهب جم الفوائد شريف الغاية اذهو يوقفنا على أحوال  
الماضين من الأمم في أخلاقهم والأنبيا في سيرهم والملوك في دولهم وسياستهم حتى تتم فائدة الاقتداء  
المذكورة مختصرة عن هذه النسخة المنقولة من خزانة الكتب الفاسية ولم يقل فيها ثم كانت الرحلة الى  
المشرق الخ

(١) قوله الفارسية أى المنسوبة الى الأمير أبي فارس المتقدم ذكره اهـ



في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا فهو محتاج الى مأخذ متعددة ومعارف متنوعة وحسن نظر وثبت يفضيان بصاحبهما الى الحق وينكبان به عن المزلات والمغالط لائن الاخبار اذا عتمد فيها على مجرد النقل ولم تحكم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الانساني ولاقيس الغائب منها بالشاهد والحاضر بالذهاب فربما لم يؤمن فيها من العثور ومزلة القدم والحيد عن جادة الصدق وكثيرا ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل والمغالط في الحكايات والوقائع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غشا أو سميما لم يعرضوها على أصولها ولا قسوسها بأشبابها ولا سبروها بمعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات وتحكيم النظر والبصيرة في الأخبار فضلوا عن الحق وتاهوا في بيداء الوم والغلط سيما في إحصاء الاعداد من الأموال والعساكر اذا عرضت في الحكايات اذهي مظنة الكذب ومطية الهذر ولا بد من ردها الى الأصول وعرضها على القواعد وهذا كما نقل المسعودي وكثير من المؤرخين في جيوش بني اسرائيل أن موسى عليه السلام أحصاهم في التيه بعد أن أجاز من يطبق حمل السلاح خاصة من ابن عشرين فما فوقها فكانوا ستمائة ألف أوزيدون ويذهل في ذلك عن تقدير مصر والشام اتساعهما لمثل هذا العدد من الجيوش لكل مملكة من الممالك حصه من الحامية تتسع بما وتقوم بوظائفها وتضيق عما فوقها تشهد بذلك العوائد المعروفة والأحوال المألوفة ثم إن مثل هذه الجيوش البالغة الى مثل هذا العدد يعد أن يقع بينها زحف أو قتال لضيق ساحة لأرض عنها وبعدها اذا اصطفت على مدى البصر مرتين أو ثلاثا أو أزيد فكيف يقتتل بذان الفريقان أو تكون غلبة أحد الصفيين وشئ من جوانبه لا يشعر بالجانب الآخر والحاضر شهد لذلك فلما مضى أشبه بالآتي من الماء بالماء ( ولقد كان ) ملك الفرس ودولتهم أعظم من ملك بني اسرائيل بكثير يشهد لذلك ما كان من غلب بخت نصر لهم والتهامه بلادم واستيلائه على أمرهم وتخريب بيت المقدس قاعدة ملتهم وسلطانهم وهو من بعض عمال مملكة فارس سال إنه كان مرزبان المغرب من تخومها وكانت ممالكهم بالعراقين وخراسان وما وراء النهر والأبواب أوسع من ممالك بني اسرائيل بكثير ومع ذلك لم تبلغ جيوش الفرس قط مثل هذا العدد ولا قريبا منه وأعظم ما كانت جموعهم بالقادسية مائة وعشرون ألفا كلهم متبوع علي بن أبي طالب سيف قال وكانوا في أتباعهم أكثر من مائتي ألف ( وعن عائشة والزهرى ) أن جموع رستم التي زحف بها لسعد بالقادسية انما كانوا ستين ألفا كلهم متبوع وأيضا فلو بلغ نحو اسرائيل مثل هذا العدد لاتسع نطاق ملكهم وانفسح مدى دولتهم فان العملات والممالك في الدول على نسبة الحامية والقبيل القائمين بها في قلتها وكثرتها حسبما نبين في فصل الممالك من الكتاب الأول والقوم لم تتسع ممالكهم الى غير الأردن وفلسطين من الشام وبلاد يثرب وخيبر من الحجاز على ما هو المعروف وأيضا فالدى بين موسى واسرائيل انما هو أربعة



آباء على ما ذكره المحققون فانه موسى بن عمران بن يصهر بن قاهث بفتح الهاء وكسرها ابن لاوى بكسر الواو وفتحها ابن يعقوب وهو اسرائيل الله هكذا نسه في التوراة والمدة بينهما على ما نقله المسعودى قال دخل اسرائيل مصر مع ولده الأسيباط وأولادهم حين أتوا الى يوسف سبعين نفسا وكان مقامهم بمصر الى أن خرجوا مع موسى عليه السلام الى التيه مائتين وعشرين سنة تتداولهم ملوك القبط من الفراعنة ويعد أن يتشعب النسل في أربعة أجيال الى مثل هذا العدد وان زعموا أن عدد تلك الجيوش انما كان في زمن سليمان ومن بعده فبعيد أيضا اذ ليس بين سليمان واسرائيل الا أحد عشر أباً فانه سليمان بن داود بن ايشا بن عوفيد ويقال ابن عوفد بن باعز ويقال بوعز بن سلمون بن نحشون بن عمينوذب ويقال حمينا ذاب بن رم بن حصرون ويقال حصرون بن پارس ويقال بيرس بن يهوذا بن يعقوب ولا يتشعب النسل في أحد عشر من الولد الى مثل هذا العدد الذي زعموه اللهم الى المئين والآلاف فربما يكون وأما أن يتجاوز الى ما بعدهما من عقود الأعداد فبعيد واعتبر ذلك في الحاضر المشاهد والقريب المعروف تجد زعمهم باطلا ونقلهم كاذبا (والذى ثبت في الاسرائيليات) أن جنود سليمان كانت اثني عشر ألفا خاصة وأن مهرباته كانت ألفا وأربعمائة فرس مرتبطة على أبوابه هذا هو الصحيح من أخبارهم ولا يلتفت الى خرافات العامة منهم (وفي أيام سليمان عليه السلام وملكه) كان عفوان دولتهم واتساع ملكه هذا وقد نجد الكافة من أهل العصر اذا أفاضوا في الحديث عن عساكر الدول التي لعهد أوقريبا منه وتفاوضوا في الأخبار عن جيوش المسلمين أو النصارى أو أخذوا في إحصاء أموال الجبايات وخراج السلطان ونفقات المترفين وبضائع الأغنياء الموسرين توغلوا في العدد وتجاوزوا حدود العوائد وطاوعوا وساوس الأغرأب فاذا استكشفت أصحاب الدواوين عن عساكرهم واستنبطت أحوال أهل الثروة في بضائعهم وفوائدهم واستجلبت عوائد المترفين في نفقاتهم تجد معشار ما يعدونه وما ذلك الا لولوع النفس بالغرأب وسهولة التجاوز على اللسان والغفلة على المتعقب والمنتقد حتى لا يحاسب نفسه على خطأ ولا عمد ولا يظالبها في الخير بتوسط ولا عدالة ولا يرجعها الى بحث وتفتيش فيرسل عنانه ويسم في مراتع الكذب لسانه ويتخذ آيات الله هزوا ويشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله وحسبك بها صفقة خاسرة (ومن الأخبار الواهية للمؤرخين) ما ينقلونه كافة في أخبار التبابعة وملوك اليمن وجزيرة العرب أنهم كانوا يغزون من قرام باليمن الى أفريقية والبربر من بلاد المغرب وأن افريقش بن قيس بن صيفي من أعظم ملوكهم الأول وكان لعهد موسى عليه السلام أو قبله بقليل غزا أفريقية وأخن في البربر وأنه الذي سماه بهذا الاسم حين سمع رطاتهم وقال ماهذه البربرة فأخذ هذا الاسم عنه ودعوا به من حينئذ وأنه لما انصرف من المغرب حجز هناك قبائل من حمير فأقاموا بها واختلطوا بأهلها ومنهم ضهاجة وكتامة ومن هذا ذهب الطبرى والجرجاني والمسعودى



وابن الكلبي والبيلي الى أن صنهاجة وكتامة من حمير وتأباه نسابه البربر وهو الصحيح (وذكر المسعودي أيضا) أن ذا الأذعار من ملوكهم قبل افريقش وكان على عهد سليمان عليه السلام غزا المغرب ودوخه وكذلك ذكر مثله عن ياسر ابنه من بعده وأنه بلغ وادي الرمل من بلاد المغرب ولم يجد فيه مسلكا لكثرة الرمل فرجع وكذلك يقولون في تبع الآخر وهو أسعد أبو كرب وكان على عهد يستاسف من ملوك الفرس الكيانية أنه ملك الموصل وأذربيجان ولقي الترك فهزمهم وأخذهم ثم غزاهم ثانية وثالثة كذلك وأنه بعد ذلك أغزى ثلاثة من بني بلاد فارس والى بلاد الصغد من بلاد أم الترك وراء النهر والى بلاد الروم فملك الأول البلاد الى سمرقند وقطع المفازة الى الصين فوجد أخاه الثاني الذي غزا الى سمرقند قد سبقه اليها فأخذها في بلاد الصين ورجعا جميعا بالغنائم وتركوا بلاد الصين قبائل من حمير فهم بها الى هذا العهد وبلغ الثالث الى قسطنطينية فدرسها ودوخ بلاد الروم ورجع (وهذه الأخبار) كلها بعيدة عن الصحة عريقة في الوم والغلط وأشبه بأحاديث القصص الموضوعة وذلك أن ملك التبابعة انما كان بحزيرة العرب وقرارهم وكرسيهم بصنعاء اليمن وحزيرة العرب يحيط بها البحر من ثلاث جهاتها فبحر الهند من الجنوب وبحر فارس الهابط منه الى البصرة من الشرق وبحر السويس الهابط منه الى السويس من أعمال مصر من جهة المغرب كما تراه في مصور الجغرافيا فلا يجد السالكون من اليمن الى المغرب طريقا من غير السويس والمسلك هناك ما بين بحر السويس والبحر الشامي قدر مرحلتين فمادونهما ويبعد أن يمر بهذا المسلك ملك عظيم في عساكر موفورة من غير أن تصير من أعماله هذا ممتنع في العادة وقد كان بتلك الأعمال العالقة وكنعان بالشام والقيبط بمصر ثم ملك العالقة مصر وملك بنو إسرائيل الشام ولم يتقل قط أن التبابعة حاربوا أحدا من هؤلاء الأمم ولا ملكوا شيئا من تلك الأعمال وأيضا فالشقة من البحر الى المغرب بعيدة والأزودة والعلوفة للعساكر كثيرة فاذا ساروا في غير أعمالهم احتاجوا الى انتهاب الزرع والنعم وانتهاب البلاد فيما يمرون عليه ولا يكفي ذلك للازودة وللعلوفة عادة وان ثقلوا كفايتهم من ذلك من أعمالهم فلا تفي لهم الرواحل بنقله فلا بد وأن يمروا في طريقهم كلها بأعمال قد ملكوها ودوخوها لتكون الميرة منها وان قلنا ان تلك العساكر تمر بهؤلاء الأمم من غير أن تهيجهم فتحصل لهم الميرة بالمسألة فذلك أبعد وأشد امتناعا فدل على أن هذه الأخبار واهية أو موضوعة (وأما) وادي الرمل الذي يعجز السالك فلم يسمع قط ذكره في المغرب على كثرة سالكه ومن يقص طريقه من الركاب والقرى في كل عصر وكل جهة وهو على ما ذكره من الغرابة تتوفر الدواعي على نقله وأما غزوه بلاد الشرق وأرض الترك وان كانت طريقه أو سع من مسالك السويس الا أن الشقة هنا أبعد وأم فارس والروم معترضون فيها دون الترك ولم يتقل قط أن التبابعة ملكوا بلاد فارس ولا بلاد الروم وانما



كانوا يحاربون أهل فارس على حدود بلاد العراق وما بين البحرين والحيرة والجزيرة بين دجلة والفرات وما بينهما في الأعمال وقد وقع ذلك بين ذى الأذعار منهم وكيكاوس من ملوك الكيانية وبين تبع الأصغر أبو كرب ويستأسف منهم أيضا ومع ملوك الطوائف بعد الكيانية والساسانية من بعدهم بمجاوزة أرض فارس بالغزو إلى بلاد الترك والتبت وهو ممتنع عادة من أجل الأثم المعترضة منهم والحاجة إلى الأزودة والعلوفات مع بعد الشقة كما مر فلا أخبار بذلك واهية مدخولة وهي لو كانت صحيحة النقل لكان ذلك قدحا فيها فكيف وهي لم تنقل من وجه صحيح وقول ابن اسحق في خبر يثرب والأوس والخزرج ان تبعا الآخر سار إلى المشرق محمول على العراق وبلاد فارس وأما بلاد الترك والتبت فلا يصح غزوم إليها بوجه لما تقرر فلا تثقن بما يليق اليك من ذلك وتأمل الأخبار واعرضها على القوانين الصحيحة يقع لك تمحيصها بأحسن وجه والله الهادي إلى الصواب

(فصل) وأبعد من ذلك وأعرق في الوم ما يتناقله المفسرون في تفسير سورة والفجر في قوله تعالى (ألم تر كيف فعل ربك بعاد ارم ذات العباد) فيجعلون لفظة (ارم) اسما لمدينة وصف بأنها ذات عماد أى أساطين وينقلون أنه كان لعاد بن عوص بن ارم ابنان هما شديد وشداد ملكا من بعده وهلك شديد فخلص الملك لشداد ودانت له ملوكهم وسمع وصف الجنة فقال لا بنين مثلها فبني مدينة ارم في صحارى عدن في مدة ثلثمائة سنة وكان عمره تسعمائة سنة وانها مدينة عظيمة قصورها من الذهب وأساطينها من الزبرجد والياقوت وفيها أصناف الشجر والأنهار المطردة ولما تم بناؤها سار إليها بأهل مملكته حتى إذا كان منها على مسيرة يوم وليلة بعث الله عليهم صيحة من السماء فهلكوا كلهم ذكر ذلك الطبرى والثعلبي والزخشري وغيرهم من المفسرين وينقلون عن عبد الله بن قلابة من الصحابة أنه خرج في طلب ابل له فوقع عليها وحمل منها ما قدر عليه وبلغ خبره إلى معاوية فأحضره وقص عليه فبحث عن كعب الأخبار وسأله عن ذلك فقال هي ارم ذات العباد وسيدخلها رجل من المسلمين في زمانك أحمر أشقر قصير على حاجبه خال وعلى عنقه خال يخرج في طلب ابل له ثم التفت فأبصر ابن قلابة فقال هذا والله ذلك الرجل وهذه المدينة لم يسمع لها خبر من يومئذ في شيء من بقاع الأرض وصحارى عدن التي زعموا أنها بنيت فيها هي في وسط اليمن وما زال عمرانه متعاقبا والأدلاء تقص طرقه من كل وجه ولم ينقل عن هذه المدينة خبر ولا ذكرها أحد من الأخباريين ولا من الأثم ولو قالوا انها درست فيما درس من الآثار لكان أشبه الا أن ظاهر كلامهم أنها موجودة وبعضهم يقول انها دمشق بناء على أن قوم عاد ملكوها وقد ينتهي الهذيان ببعضهم إلى أنها غائبة وانما يعثر عليها أهل الرياضة والسحر مزاعم كلها أشبه بالخرافات والذي حمل المفسرين على ذلك ما اقتضته صناعة الاعراب في لفظة ذات العباد أنها



سفة إرم وحملوا العمد على الأساطين فتعين أن يكون بناء ورشح لهم ذلك قراءة ابن الزبير  
 د إرم على الاضافة من غير تنوين ثم وقفوا على تلك الحكايات التي هي أشبه بالأقاصيص  
 وضوعة التي هي أقرب الى الكذب المنقولة في عداد المضحكات والا فالعماد هي عماد الأئحية  
 الحيام وان أريد بها الأساطين فلا بدع في وصفهم بأنهم أهل بناء وأساطين على العموم  
 اشتهر من قوتهم لأنه بناء خاص في مدينة معينة أو غيرها وان أضيفت كما في قراءة ابن  
 زبير فعلى اضافة الفصيلة الى القبيلة كما تقول قريش كنانة والياس مضر وربيعة نزار وأى  
 سرورة الى هذا الحمل البعيد الذي تمحلت لتوجيهه لا مثال هذه الحكايات الواهية التي يتنزه  
 كتاب الله عن مثلها بعدها عن الصحة (ومن الحكايات) المدخولة للمؤرخين ما ينقلونه كافة  
 سبب نكبة الرشيد للبرامكة من قصة العباسة أخته مع جعفر بن يحيى بن خالد مولاه وانه  
 كلفه بمكانتهما من معارفته اياها الحمر أذن لها في عقد النكاح دون الخلوة حرصا على اجتماعهما  
 مجلسه وان العباسة تحملت عليه في التماس الخلوة به لما شغفها من حبه حتى واقعها زعموا  
 حالة سكر خملت ووشى بذلك للرشيد فاستغضب وهيأت ذلك من منصب العباسة في  
 بينها وأبويها وجلالها وانها بنت عبد الله بن عباس ليس بينها وبينه الا أربعة رجال هم أشرف  
 دين وعظما الملة من بعده والعباسة بنت محمد المهدي بن عبد الله أبي جعفر المنصور بن محمد  
 لسجاد بن علي أبي الخلفاء بن عبد الله ترجمان القرآن بن العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم  
 بنة خليفة أخت خليفة عفيفة بالملك العزيز والخلافة النبوية وصحبة الرسول وعمومته وامامة  
 الملة ونور الوحي ومهبط الملائكة من سائر جهاتها قرية عهد يداوة العروية وسداجة الدين  
 البعيدة عن عوائد الترف ومراعات الفواحش فأين يطلب الصون والعفاف اذا ذهب عنها أو  
 أين توجد الطهارة والذكاء اذا فقد من بيتها أو كيف تلحم نسبها بجعفر بن يحيى وتدنس  
 شرفها العربي بمولى من موالى العجم بملكة جده من الفرس أو بولاء جدها من عمومة  
 الرسول وأشرف قريش وغايتها أن جذبت دولتهم بضبعه وضبع أبيه واستخلصتهم ورقتهم  
 الى منازل الأشراف وكيف يسوغ من الرشيد أن يصهر الى موالى الأعاجم على بعد همته  
 وعظم آبائه ولو نظر المتأمل في ذلك نظر المنصف وقاس العباسة بآبنة ملك من عظماء ملوك  
 زمانه لاستنكف لها عن مثله مع مولى من موالى دولتها وفي سلطان قومها واستنكره ولج  
 في تكذيبه وأين قدر العباسة والرشيد من الناس وانما نكب البرامكة ما كان من استبدادهم  
 على الدولة واحتجابهم أموال الجباية حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل اليه فغلبوه  
 على أمره وشاركوه في سلطانه ولم يكن له معهم تصرف في أمور ملكه فعظمت آثارهم وبعد  
 صيتهم وعمرؤا مراتب الدولة وخططها بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم واحتازوها عن سواهم  
 من وزارة وكتابة وقيادة وحجابه وسيف وقلم يقال انه كان بدار الرشيد من ولد يحيى بن



خالد خمسة وعشرون رئيساً من بين صاحب سيف وصاحب قم زاحموا فيها أهل الدولة بالمناكب ودفعوهم عنها بالراح لمكان أبيهم يحيى من كفالة هرون ولى عهد وخليفة حتى شب في حجره ودرج من عشه وغلب على أمره وكان يدعوه يابأت فتوجه الايثار من السلطان اليهم وعظمت الدالة منهم وانبسط الجاه عندهم وانصرفت نحوهم الوجوه وخضعت لهم الرقاب وقصرت عليهم الآمال وتخطت اليهم من أقصى التخوم هدايا الملوك وتخف الأمراء وسيرت الى خزائهم في سبيل التزلف والاستئالة أموال الجباية وأفاضوا في رجال الشيعة وعطاء القرابة العطاء وطوqوم المن وكسبوا من بيوتات الاشراف المعدم وفكوا العاني ومدحوا بالممدوح به خليفتهم وأسنوا لعفاتهم الجوائز والصلات واستولوا على القرى والضيايع من الضواحي والأمصار في سائر الممالك حتى آسفوا البطانة وأحققوا الخاصة وأغصوا أهل الولاية فكشفت لهم وجوه المنافسة والحسد ودبت الى مهادم الوثير من الدولة عقارب السعاية حتى لقد كان بنو قحطبة أخوال جعفر من أعظم الساعين عليهم لم تعطفهم لما وقر في نفوسهم من الحسد عواطف الرحم ولا وزعتهم أو اصر القرابة وقرن ذلك عند مخدومهم نواشى الغيرة والاستنكاف من الحجز والأئفة وكامن الحقوق التي بعثها منهم صفائر الدالة وانتهى بها الاصرار على شأنهم الى كبار المخالفة كقصتهم في يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب أخى محمد المهدي الملقب بالنفس الزكية الخارج على المنصور ويحيى هذا هو الذى استنزله الفضل بن يحيى من بلاد الديلم على أمان الرشيد بخطه وبذل لهم فيه ألف ألف درهم على ما ذكره الطبرى ودفعه الرشيد الى جعفر وجعل اعتقاله بداره والى نظره فحبسه مدة ثم حملته الدالة على تخلية سبيله والاستبدال بحل عقاله حرماً لدماء أهل البيت بزعمه ودالة على السلطان فى حكمه \* وسأله الرشيد عنه لما وثى به اليه ففطن وقال أطلقته فأبدى له وجه الاستحسان وأسرها فى نفسه فأوجد السبيل بذلك على نفسه وقومه حتى ثل عرشهم وألقيت عليهم سماؤهم وخسفت الأرض بهم وبدارهم وذهبت سلفاً ومثلاً للآخرين أيامهم ومن تأمل أخبارهم واستقصى سير الدولة وسيرهم وجد ذلك محقق الاثر نهد الأسباب ( وانظر ) الى ما نقله ابن عبد ربه فى مقاوضة الرشيد عم جده داود بن علي فى شأن نكبتهم وما ذكره فى باب الشعراء من كتاب العقد فى معاورة الاصحى للرشيد وللفضل بن يحيى فى سمرهم تفهم أنه انما قتلهم الغيرة والمنافسة فى الاستبداد من الخليفة فمن دونه وكذلك ما تحيل به أعداؤهم من البطانة فيما دسوه للمغنين من الشعر احتيالا على إسماعه للخليفة وتحريك حفاظه لهم وهو قوله

ليت هنذا أنجزتنا ما تعد وشفت أنفسنا مما نجد

واستبدت مرة واحدة انما العاجز من لا يستبد

وأن الرشيد لما سمعها قال إى والله انى عاجز حتى بعثوا بأمثال هذه كامن غيرته وسلطوا



بهم بأس انتقامه نعوذ بالله من غلبة الرجال وسوء الحال ( وأما ) ماتموه به الحكاية من  
ماقرة الرشيد الخمر واقتران سكره بسكر الندمان فحاش لله ما علمنا عليه من سوء وأين هذا  
من حال الرشيد وقيامه بما يجب لمنصب الخلافة من الدين والعدالة وما كان عليه من صحابة  
مماء والأولياء ومحاوراته للفضيل بن عياض وابن السماك والعمري ومكاتبته سفيان الثوري  
بكائه من مواعظهم ودعائه بمكة في طوافه وما كان عليه من العبادة والمحافظة على أوقات  
سلوات وشهود الصبح لأول وقتها ( حكي ) الطبري وغيره أنه كان يصلي في كل يوم مائة ركعة  
فلة وكان يغزو عاما ويحج عاما ولقد زجر ابن أبي مريم مضحكه في سمره حين تعرض له  
بذلك في الصلاة لما سمعه يقرأ ومالي لأعبد الذي فطرني وقل والله ما أدري لم فما تمالك  
رشيد أن ضحك ثم التفت اليه مغضبا وقال يا ابن أبي مريم في الصلاة أيضا اياك اياك واقرآن  
الدين ولك ماشئت بعدها وأيضا فقد كان من العلم والسذاجة بمكان لقرب عبده من سلفه  
بتحليلين لذلك ولم يكن يسه وبين جده أبي جعفر بعيد زمن إنما خلفه غلاما وقد كان أبو  
جعفر بمكان من العلم والدين قبل الخلافة وبعدها وهو القائل لما لك حين أشار عليه بتأليف  
وطأ يا أبا عبد الله انه لم يبق على وجه الأرض أعلم مني ومك وإني قد شغلتنى الخلافة فضع  
ت للناس كتابا ينتفعون به نجيب فيه رخص ابن عباس وشدائد ابن عمر ووطئه للناس  
طئة قال مالك فوالله لتمد عمي التصنيف يومئذ ولقد أدركه ابنه المهدي أبو الرشيد هذا  
هو يتورع عن كسوة الجديد لعياله من بيت المال ودخل عليه يوما وهو بمجلسه مباشر  
لحياطين في ارقاع الخلقان من ثياب عياله فاستكف المهدي من ذلك وقال يا أمير المؤمنين  
ت كسوة العيال عامنا هذا من عطائي فقال له لك ذلك ولم يصد عنه ولا سمح بالانفاق من  
موال المسلمين فكيف يليق بالرشيد على قرب العهد من هذا الخليفة وأبوتيه وما ربي عليه  
من أمثال هذه السير في أهل بيته والنخلق بها أن يعاقر الخمر أو يحاقر بها وقد كانت حالة  
لاشراف من العرب الجاهلية في اجتناب الخمر معلومة ولم يكن الكرم شجرتهم وكان شربها  
خدمة عند الكثير منهم والرشيد وآباؤه كانوا على تبجج من اجتناب المذمومات في دينهم  
دينام والتخلق بالحامد وأوصاف الكمال ونزعات العرب ( وانظر ) ما نقله الطبري والمسعودي  
في قصة جريد بن نختيشوع الطبيب حين أحضره السمك في مائدته فخماه عنه ثم أمر صاحب  
المائدة بحمله الى منزله وفطن الرشيد وارتاب به ودرس خدمه حتى عايه يتناوله فأعد ابن  
نختيشوع للاعتذار ثلاث قطع من السمك في ثلاثة أقداح خلط احداها باللحم المعالج بالتوابل  
والبقول والبوارد والحلوى وصب على الثانية ماء مثلجا وعلى الثالثة خمر اصرفا \* وقال في الأول  
والثاني هذا طعام أمير المؤمنين ان خلط السمك بغيره أو لم يخلطه وقل في الثالث هذا طعام  
بن نختيشوع ودفعها الى صاحب المائدة حتى اذا انتبه الرشيد وأحضره للتوبيخ أحضر الثلاثة



الاقْداح فوجد صاحب الخمر قد اختلط واماع وتفتت ووجد الآخرين قد فسدا وتغيرت رايتهما فكانت له في ذلك معذرة وتبين من ذلك أن حال الرشيد في اجتناب الخمر كانت معروفة عند بطاته وأهل مائده ولقد ثبت عنه أنه عهد بحبس أبي نواس لما بلغه من انهماكه في المعاقرة حتى تاب وأقلع وأما كان الرشيد يشرب نبيذ التمر على مذهب أهل العراق وفتاويهم فيها معروفة وأما الخمر الصرف فلا سبيل الى اتهامه بها ولا تقليد الاخبار الواهية فيها فلم يكن الرجل بحيث يواقع محرما من أكبر الكبار عند أهل الملة ولقد كان أولئك القوم كلهم بمنجاة من ارتكاب السرف والترف في ملابسهم وزينتهم وسائر متناولاتهم لما كانوا عليه من خشونة البداوة وسذاجة الدين التي لم يفارقوها بعد فما ظنك بما يخرج عن الاباحة الى الحظر وعن الحلية الى الحرمة ولقد اتفق المؤرخون الطبري والمسعودي وغيرهم على أن جميع من سلف من خلفاء بني أمية وبني العباس انما كانوا يركبون بالحلية الخفيفة من الفضة في المناطق والسيوف واللباس والسروج وان أول خليفة أحدث الركوب بحلية الذهب هو المعتز بن المتوكل ثامن الخلفاء بعد الرشيد وهكذا كان حالهم أيضا في ملابسهم فما ظنك بمشاربهم ويتبين ذلك بأنهم من هذا اذا فهمت طبيعة الدولة في أولها من البداوة والغضاضة كما نشرح في مسائل الكتاب الأول ان شاء الله والله الهادي الى الصواب ويناسب هذا أوقريب منه ما يتقانونه كافة عن يحيى بن أكرم قاضي المأمون وصاحبه وأنه كان يعاقر المأمون الخمر وأنه سكر ليلة مع شربه فدفن في الريحان حتى أفاق وينشدون على لسانه

يا سيدي وأمير الناس كلهم قد جار في حكمه من كان يسقيني  
اني غفلت عن الساق فصيرني كما تراني سليب العقل والدين

وحال ابن أكرم والمأمون في ذلك من حال الرشيد وشرايهم انما كان النبيذ ولم يكن محظورا عندهم وأما السكر فليس من شأنهم وصحابته للمأمون انما كانت خلة في الدين ولقد ثبت أنه كان ينام معه في البيت ونقل من فضائل المأمون وحسن عشرته أنه اتقه ذات ليلة عطشان فقام يتحسس ويلتمس الاناء مخافة أن يوقظ يحيى بن أكرم وثبت أنها كانا يصليان الصبح جميعا فأين هذا من المعاقرة وأيضا فان يحيى بن أكرم كان من عليّة أهل الحديث وقد أثنى عليه الامام أحمد بن حنبل واسماعيل القاضي وخرج عنه الترمذي كتابه الجامع وذكر المزي الحافظ أن البخاري روى عنه في غير الجامع فالقدح فيه قدح في جميعهم وكذلك ما ينزهه الجان بالميل الى الغلمان بهتاناً على الله وفرية على العلماء ويستندون في ذلك الى أخبار القصاص الواهية التي لعلها من اقتراء أعدائه فانه كان محسودا في كماله وخلته للسلطان وكان مقامه من العلم والدين منزها عن مثل ذلك ولقد ذكر لابن حنبل ما يرميه به الناس فقال سبحان الله سبحان الله ومن يقول هذا وأنكر ذلك انكارا شديدا وأثنى عليه اسمعيل القاضي فقيل له ما كان



يقال فيه فقال معاذ الله أن تزول عدالة مثله بتكذب باغ وحاسد وقال أيضا يحيى بن أكرم  
 برأ إلى الله من أن يكون فيه شيء مما كان يرمى به من أمر الغلمان ولقد كنت أقف على سرائره  
 فأجده شديد الخوف من الله لكنه كانت فيه دعاية وحسن خلق فرمى بمارمى به وذكره ابن  
 حبان في الثقات وقال لا يشتغل بما يحكي عنه لان أكثرها لا يصح عنه ( ومن أمثال هذه  
 الحكايات ) ما نقله ابن عبد ربه صاحب العقد من حديث الزنيل في سبب اصهار المأمون إلى  
 الحسن بن سهل في بنته بوران وأنه عثر في بعض الليالي في تطوافه بسكك بغداد في زنيل مدلى  
 من بعض السطوح بمعالق وجدل مغارة القتل من الحرير فاقتعده وتناول المعالق فاهترت وذهب  
 صعدا إلى مجلس شأنه كذا ووصف من زينة فرشته وتنضيد أبيته وجمال رؤيته ما يستوقف  
 لطرف ويملك النفس وأن امرأة برزت له من خلل الستور في ذلك المجلس رائعة الجمال فتانة  
 لمحاسن خفيته ودعته إلى المدامة فلم يزل يعاقرها المجرى الصباح ورجع إلى أصحابه بمكانهم من  
 تنظاره وقد شغفته حبا بعته على الاصهار إلى أبيها وأين هذا كله من حال المأمون المعروفة في  
 يئنه وعلمه واقتفائه سنن الخلفاء الراشدين من آبائه وأخذه بسير الخلفاء الأربعة أركان  
 الملة ومناظرته للعلماء وحفظه لحدود الله تعالى في صلواته وأحكامه فكيف تصح عنه أحوال  
 لنفساق (١) المستهترين في التطواف بالليل وطروق المنازل وغشيان السمر سبيل عشاق  
 لأعراب وأين ذلك من منصب ابنة الحسن بن سهل وشرفها وما كان بدار أبيها من الصون  
 والعفاف وأمثال هذه الحكايات كثيرة وفي كتب المؤرخين معروفة وإنما يبعث على وضعها  
 والحديث بها الانهماك في اللذات المحرمة وهتك قناع المخدرات ويتعللون بالناسى بالقوم فيما  
 باتون من طاعة لذاتهم فلذلك تراهم كثيرا ما يلهجون بأشياء هذه الأخبار ويتقرون عنها عند  
 نصفهم لأوراق الدواوين ولو ائتسوا بهم في غير هذا من أحوالهم وصفات الكمال اللائقة  
 بهم المشهورة عنهم لكان خيرا لهم لو كانوا يعلمون ولقد عدلت يوما بعض الأمراء من أبناء  
 الملوك في كلفه بتعلم الغناء وولوعه بالآوتار وقلت له ليس هذا من شأنك ولا يليق بمنصبك  
 فقال لي أفلا ترى إلى ابراهيم بن المهدي كيف كان إمام هذه الصناعة ورئيس الغنين في زمانه  
 فقلت له ياسبحان الله وهلا تأسيت بأبيه أو أخيه أو مارأيت كيف قعد ذلك ابراهيم عن  
 مناصبهم فصم عن عدلى وأعرض والله يهدي من يشاء ( ومن الأخبار الواهية ) ما يذهب  
 إليه الكثير من المؤرخين والاثبات في العبيدين خلفاء الشيعة بالقيروان والقاهرة من نصهم  
 عن أهل البيت صلوات الله عليهم والظعن في نسبهم إلى اسمعيل الامام ابن جعفر الصادق  
 يعتمدون في ذلك على أحاديث لفقت للمستضعفين من خلفاء بني العباس تزلفا إليهم بالقدح  
 فيمن ناصبهم وتفنتا في السمات بعدوم حسبا تذكر بعض هذه الأحاديث في أخبارهم ويعفون

(١) المستهتر بالشيء بالفتح المولع به لا يبالي بما فعل به وشتم له والذي كثرت أباطيله اهو قاموس



عن التفتن لشواهد الواقعات وأدلة الأحوال التي اقتضت خلاف ذلك من تكذيب دعواه  
والرد عليهم فانهم متفقون في حديثهم عن مبدأ دولة الشيعة أن أبا عبد الله المحتسب لما دعا  
بكتامة للرضى من آل محمد واشتهر خبره وعلم تحويمه على عبيد الله المهدي وابنه أبي القاسم  
خشيا على أنفسهم فهربا من المشرق محل الخلافة واجتازا بمصر وأنهما خرجا من الاسكندرية  
في زى التجار ونمى خبرهما الى عيسى النوشري عامل مصر والاسكندرية فسرّح في طلبهما  
الحيلة حتى اذا أدركا خفي حالهما على تابعهما بما لبسوا به من الشارة والزي فأفلتوا الى المغرب  
وأن المعتضد أو عز الى الأغلبة أمراء أفريقية بالقيروان وبني مدرار أمراء سجلماسة بأخذ  
الآفاق عليهم وإذكاء العيون في طلبهما فغثر اليسع صاحب سجلماسة من آل مدرار على خفي  
مكانهما بيلده واعتقلهما مرضاة للخليفة هذا قبل أن تظهر الشيعة على الأغلبة بالقيروان ثم كان  
بعد ذلك ما كان من ظهور دعوتهم بالمغرب وأفريقية ثم باليمن ثم بالاسكندرية ثم بمصر  
والشام والحجاز وقسموا بني العباس في ممالك الاسلام شق الأئمة وكادوا يلجون عليهم  
مواطنهم ويزيلون من أمرهم ولقد أظهر دعوتهم ببغداد وعراقها الأمير البساسيري من موالى  
الديلم المتغلبين على خلفاء بني العباس في مغاضبة جرت بينه وبين أمراء العجم وخطب لهم على  
منابرها حولا كاملا وما زال بنو العباس يغصون بمكانهم ودولتهم وملوك بني أمية وراء البحر  
ينادون بالويل والحرب منهم وكيف يقع هذا كله لدعى في النسب يكذب في انحال الأمر  
واعتبر حال الترمطى اذ كان دعيا في انتسابه كيف تلاشت دعوته وتفرقت أتباعه وظهر  
سريعا على خبثهم ومكرهم فساءت عاقبتهم وذاقوا وبال أمرهم ولو كان أمر العبيديين كذلك  
لعرف ولو بعد مهلة

ومهما تكن عند امرئ من خليقة \* وان خالها تخفى على الناس تعلم  
فقد اتصلت دولتهم نحو امن مائين وسبعين سنة وملكوا مفهم ابراهيم عليه السلام ومصلاه  
وموطن الرسول صلى الله عليه وسلم ومدفنه وموقف الحجيج ومبطل الملائكة ثم انقرض  
أمرهم وشيعتهم في ذلك كله على أنهم ما كانوا عليه من الطاعة لهم والحب فيهم واعتقاده بنسب  
الامام اسمعيل بن جعفر الصادق ولقد خرجوا مرارا بعد ذهاب الدولة ودروس أثرها داعين  
الى بدعتهم هاتفين بأسماء صبيان من أعقابهم يزعمون استحقاقهم للخلافة ويذهبون الى  
تعينهم بالوصية من سلف قبلهم من الأئمة ولو ارتابوا في نسبهم لما ركبوا أعناق الأخطار في  
الانتصار لهم فصاحب البدعة لا يلبس في أمره ولا يشبه في بدعته ولا يكذب نفسه فيما ينتحله  
(والعجب) من القاضي أبي بكر الباقلاني شيخ النظار من المتكلمين يخرج الى هذه المقالة  
المرجوحة ويرى هذا الرأي الضعيف فان كان ذلك لما كانا عليه من الاتحاد في الدين والتعمق  
في الرافضية فليس ذلك بدافع في صدر دعوتهم وليس اثبات منتسبهم بالذى يغني عنهم من الله



سأ في كفرهم فقد قل تعالى لنوح عليه السلام في شأن ابنه إنه ليس من أهلِكَ إنه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم وقال صلي الله عليه وسلم لفاطمة يعظها يافاطمة اعلمي فلن يفي عنك من الله شيئاً ومتى عرف امرؤ قضية أو استيقن أمراً وجب عليه أن يصدع به والله يدل الحق وهو يهدي السبيل والقوم كانوا في مجال لظنون الدول بهم وتحت رقبة من لغة لتوفر شيعتهم وانتشارهم في القاصية بدعوتهم وتكرر خروجهم مرة بعد أخرى فلاذت بالانتم بالاختفاء ولم يكادوا يعرفون كما قيل

فلو تسأل الأئام ما سمي مادرت \* وأين مكاني ما عرفني مكانيا

حتى لقد سمي محمد بن اسمعيل الامام جد عبيد الله المهدي بالمكتوم سميته بذلك شيعتهم لما سوا عليه من إخفائه حذرا من المتغلبين عليهم فتوصل شيعة بنى العباس بذلك عند ظهورهم الطعن في نسبهم وازدلفوا بهذا الرأي الفائل للمستضعفين من خلفائهم وأعجب به أولياؤهم وراء دولتهم المتولون لحروبهم مع الأعداء يدفعون به عن أنفسهم وسلطانهم معرة العجز المقاومة والمدافعة لمن غلبهم على الشام ومصر والحجاز من البربر السكتامين شيعة يديين وأهل دعوتهم حتى لقد أسجل القضاة ببغداد بنفهم عن هذا النسب وشهد بذلك عندهم أعلام الناس جماعة منهم الشريف الرضي وأخوه المرتضى وابن الطحاوي ومن العلماء حامد الاسفرايني والقنبري والصيمري وابن الألفاني والأيوردي وأبو عبد الله بن النعمان فقيه الشيعة وغيرهم من أعلام الأمة ببغداد في يوم مشهود وذلك سنة ستين وأربعمائة في يوم القادر وكانت شهادتهم في ذلك على السماع لما اشتهر وعرف بين الناس ببغداد وغالبها شيعة بنى العباس الطاعنون في هذا النسب فقله الاخباريون كما سمعوه ورووه حسبا وعوه ووفى من ورائه وفي كتاب المعتضد في شأن عبيد الله الى ابن الأغل بالقيروان وابن مديار بسجلماسة أصدق شاهد وأوضح دليل على صحة نسبهم فالمعتضد أقعد بنسب أهل البيت من كل أحد والدولة والسلطان سوق للعالم تجلب اليه بضائع العلوم والصنائع وتلتبس فيه ضوال الحكم وتحدى اليه ركائب الروايات والأخبار وما نفق فيها نفق عند الكفاة فان تنزهت الدولة عن التعسف والميل والأفئ والفسفة وسلكت النهج الأئم ولم تجر ( ١ ) عن قصد السبيل نفق في سوقها الأبريز الخالص واللجين المصنوع وان ذهبت مع الأغراض والحقود وماجت بسيرة البغي والباطل نفق البهرج والزائف والناقد البصير قسطاس نظره وميزان بحثه ومدنسه ( ومثل هذا ) وأبعد منه كثيرا ما يتناجى به الطاعنون في نسب ادريس بن ادريس ابن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضوان الله عليهم أجمعين الامام بعد

( ١ ) قوله ولم تجر بضم الجيم مضارع جار أي لم تمل اهـ



أبيه بالمغرب الأقصى ويعرضون تعريض الحد بالتظن في الحمل الخلف عن ادريس الأكبر  
لراشد مولاهم قبحهم الله وأبعدهم ما أجملهم أما يعلمون أن ادريس الأكبر كان أصهاره في البر  
وأنه منذ دخل المغرب الى أن توفاه الله عز وجل عريق في البدو وأن حال البادية في مثل ذلك  
غير خافية اذ لا مكامن لهم يتأتى فيها الريب وأحوال حرمهم أجمعين برأى من جاراتهن ومسمى  
من جيرانهن لتلاصق الجدران وتطامن البنيان وعدم الفواصل بين المساكن وقد كان راشديتو  
خدمة الحرم أجمع من بعد مولاهم بمشهد من أوليائهم وشيعتهم ومراقبة من كافتهم وقد اتفق برابر  
المغرب الأقصى عامة على بيعه ادريس الأصغر من بعد أبيه وآتوه طاعتهم عن رضا واصلق وبأيعو  
على الموت الأحمر وخاضوا دونه بحار المنايا في حروبه وغزواته ولو حدثوا أنفسهم بمثل هذه الريب  
أو قرعت أسماعهم ولو من عدو كاشع أو منافق مرتاب لتخلف عن ذلك ولو بعضهم كلا والله أنه  
صدرت هذه الكلمات من بنى العباس أقتلهم ومن بنى الأغلبي عمالهم كانوا بأفريقية وولاتهم وذلك  
أنه لما فراد ادريس الأكبر الى المغرب من وقعة بيج أو عزالهادى الى الأغلبية أن يقعد والى بالمراسم  
ويذكوا عليه العيون فلم يظفروا به وخلص الى المغرب قتم أمره وظهرت دعوته وظهر الرشيد م  
بعد ذلك على ما كان من واضح مولاهم وعاملهم على الاسكندرية من دسياسة التشيع للعلوية وادها  
في نجاة ادريس الى المغرب فقتله ودس الشماخ من موالى المهدي أبيه للتحيل على قتل ادريس فأظ  
للحاق به والبراءة من بنى العباس مواليه فاشتمل عليه ادريس وخطه بنفسه وناول الشماخ في بعض  
خلواته سماسه اسكه به ووقع خبر مهلكه من بنى العباس أحسن المواقع لما رجوه من قطع أسباب  
الدعوة العلوية بالمغرب واقتلاع جرثومتها ولما تأدى اليهم خبرا لحمل الخلف لادريس فلم يكن له  
الا كلا ولا واذا بالدعوة قد عادت والشيعه بالمغرب قد ظهرت ودولتهم بادريس بن ادريس قد تجددت  
فكان ذلك عليهم أنسكى من وقع السهام وكان الفشل والهزم قد نزل بدولة الغرب عن أن يسموا  
الى القاصية فلم يكن منتهى قدرة الرشيد على ادريس الأكبر بمكانه من قاصية المغرب واشتال البر  
عليه الا التحيل في اهلاكه بالسموم فعند ذلك فزعوا الى أوليائهم من الأغلبية بأفريقية في سد  
تلك الفرجة من ناحيتهم وحسم الداء المتوقع بالدولة من قبلهم واقتلاع تلك العروق قبل أن  
تشج منهم يخاطبهم بذلك المأمون ومن بعده من خلفائهم فكان الأغلبية عن برابرة المغرب  
الأقصى أعجز ومثلها من الزبون على ملوكهم أحوج لما طرق الخلافة من انتزاع ممالك العجم على  
سندتها وامتطائهم صهوة التغلب عليها وتصريفهم أحكامها طوع أغراضهم في رجالها وجبايتها وأهل  
خططها وسائر تقضها وإبرامها كما قال شاعرهم

خليفة في قفص \* بين وصيف وبغا

يقول ما قال له \* كما تقول البيغا

نخشي هؤلاء الأمراء الأغلبية بواد السعيات وتلوا بالمعاذير فطورا باحتقار المغرب وأهله



وطورا بالارهاب بشأن ادريس الخارج به ومن قام مقامه من أعقابه يخاطبونهم بتجاوزه حدود التخوم من عمله وينفذون سكتته في تحفيهم وهداياهم ومرتفع جباياتهم تعريضا باستفحالته وتهويلا باشتداد شوكتة وتعظيما لما دفعوا اليه من مطالبته ومراسه وتهديدا بقلب الدعوة ان ألجؤا اليه وطورا يطعنون في نسب ادريس بمثل ذلك الطعن الكاذب تخفيضا لشأنه لا يبالون بصدقه من كذبه لبعد المسافة وأفن عقول من خلف من صبية بني العباس ومماليكهم العجم في القبول من كل قائل والسمع لكل ناعق ولم يزل هذا دأبهم حتى انقضى أمر الأغلبة فقرعت هذه الكلمة الشنعاء أسماع الغوغاء وصر عليها بعض الطاعنين أذنه واعتدها ذريعة الى النيل من خلفهم عند المناسفة وما لهم قبهم الله والعدول عن مقاصد الشريعة فلا تعارض فيما بين المقتطوع والمظنون وادريس ولد على فراش أبيه والولد للفراش على أن تنزيه أهل البيت عن مثل هذا من عقائد أهل الايمان فالله سبحانه قد أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا فقرأ ادريس طاهر من الدنس منزله عن الرجس بحكم القرآن ومن اعتقد خلاف هذا فقد باء بأثمه وولج الكفر من بابه وانما طنبت في هذا الرد سد الأبواب الريب ودفعها في صدر الحاسد لما سمعته أذناي من قائله المعتدى عليهم به القادح في نسبهم بفريته وينقله بزعمه عن بعض مؤرخي المغرب ممن انحرف عن أهل البيت وارتاب في الايمان بسلفهم والافالحل منزله عن ذلك معصوم منه ونفي العيب حيث يستحيل العيب عيب لسكني جادلت عنهم في الحياة الدنيا وأرجو أن يجادلوا عني يوم القيامة ( ولتعلم ) أن أكثر الطاعنين في نسبهم انما هم الحسدة لأعقاب ادريس هذامن منتم الى أهل البيت أو دخل فيهم فان ادعاء هذا النسب الكريم دعوى شرف عريض على الأئمة والأجيال من أهل الآفاق فنعرض التهمة فيه ولما كان نسب بني ادريس هؤلاء بمواظهم من فاس وسائر ديار المغرب قد بلغ من الشريرة والوضوح مبلغا لا يكاد يلحق ولا يطمع أحد في دركه اذ هو ثقل الأئمة والجيل من الخلف عن الأئمة والجيل من السلف وبيت جدم ادريس مخطط فاس ومؤسسها بين بيوتهم ومسجده لصق محلتهم ودروبهم وسيفه منتضى برأس المأذنة العظمى من قرار بلدهم وغير ذلك من آثاره التي جاوزت أخبارها حدود التواتر مرات وكادت تلحق بالعيان فاذا نظر غيرهم من أهل هذا النسب الى ما آتاهم الله من أمثالها وما عضد شرفهم النبوي من جلال الملك الذي كان لسلفهم بالمغرب واستيقن أنه بمعزل عن ذلك وأنه لا يبلغ مد أحدهم ولا نصيفه وأن غاية أمر المتيمين الى البيت الكريم ممن لم يحصل له أمثال هذه الشواهد أن يسلم لهم حالهم لأن الناس مصدقون في أنسابهم وبون ما بين العلم والظن واليقين والتسليم فاذا علم ذلك من نفسه غص بريقه وود كثير منهم لو يردونهم عن شرفهم ذلك سوقة ووضعاء حسدا من عند أنفسهم فيرجعون الى العناد وارتكاب اللجاج والبهت بمثل هذا الطعن الفائل والقول المكذوب تعللا بالمساواة في الظنة والمشابهة في تطرق الاحتمال وهيئات لهم ذلك فليس في المغرب فيما نعلمه من أهل هذا البيت الكريم من يبلغ



في صراحة نسبه ووضوحه مبالغ أعقاب ادريس هذا من آل الحسن وكبرائهم لهذا العهد بنو عمران بفاس من ولد يحيى الحوطي بن محمد بن يحيى العوام بن القاسم بن ادريس بن ادريس وهم نقباء أهل البيت هناك والسكان بيت جدم ادريس ولهم السيادة على أهل المغرب كافة حسبما نذكرهم عند ذكر الادارسة ان شاء الله تعالى (ويلحق) بهذه المقالات الفاسدة والمذاهب الفائلة ما يتناولوه ضعفة الرأى من فقهاء المغرب من القدح في الامام المهدي صاحب دولة الموحدين ونسبته الى الشعوذة والتليس فيما أتاه من القيام بالتوحيد الحق والنعي على أهل البغي قبله وتكذيبهم لجميع مدعياته في ذلك حتى فيما يزعم الموحدون أتباعه من انتسابه في أهل البيت وانما حمل الفقهاء على تكذيبه ما كمن في نفوسهم من حسده على شأنه فانهم لما رأوا من أنفسهم مناهضته في العلم والفتيا وفي الدين بزعمهم ثم امتاز عنهم بأنه متبوع الرأى مسموع القول موطن العقب تميموا ذلك عليه وغضوا منه بالقدح في مذاهبه والتكذيب لمدعياته وأيضا فكانوا يؤنسون من ملوك لمتونة أعدائه تجلة وكرامة لم تكن لهم من غيرهم لما كانوا عليه من السذاجة وانتحال الديانة فكان لحمة العلم بدولتهم مكان من الوجاهة والانصب للشورى كل في بلده وعلى قدره في قومه فأصبحوا بذلك شيعة لهم وحربا لعدوهم وتقموا على المهدي ما جاء به من خلافهم والتشريب عليهم والمناسبة لهم تشييعا للمتونة وتعصبا لدولتهم ومكان الرجل غير مكانهم وحاله على غير معتقداتهم وما ظنك برجل تقم على أهل الدولة مانعة من أحوالهم وخالف اجتهاده فقهاء فزادى في قومه ودعا الى جهادهم بنفسه فاقتلع الدولة من أصولها وجعل عاليها سافلها أعظم ما كانت قوة وأشد شوكة وأعز أنصارا وحامية وتساقطت في ذلك من أتباعه نفوس لا يحصيها الا خالقها قد بايعوه على الموت ووقوه بأنفسهم من الهلكة وتقربوا الى الله تعالى باتلاف مذهبهم في إظهار تلك الدعوة والتعصب لتلك الكلمة حتى علت على الكلم ودالت بالعدوتين من الدول وهو بحالة من التقشف والحصر والصبر على المكارة والتقل من الدنيا حتى قبضه الله وليس على شيء من الحظ والمتاع في دينه حتى الولد الذي ربما تجنح اليه النفوس وتخاذع عن تمنيهِ فليت شعري ما الذي قصد بذلك ان لم يكن وجه الله وهو لم يحصل له حظ من الدنيا في عاجله ومع هذا فلو كان قصده غير صالح لما تم أمره وانفسحت دعوته سنة الله التي قد دخلت في عبادته (وأما) انكارهم نسبه في أهل البيت فلا تعضده حجة لهم مع أنه إن ثبت أنه ادعاه وانتسب اليه فلا دليل يقوم على بطلانه لأن الناس مصدقون في أنسابهم وان قالوا ان الرياسة لا تكون على قوم في غير أهل جلدتهم كما هو الصحيح حسبما يأتي في الفصل الأول من هذا الكتاب والرجل قدرأس سائر المصادمة ودانوا باتباعه والاقبياد اليه والى عصابته من هرغة حتى تم أمر الله في دعوته فاعلم أن هذا النسب الفاطمي لم يكن أمر المهدي يتوقف عليه ولا تبعه الناس بسببه وانما كان اتباعهم له بعصبية الهرغية والمصمودية ومكانه منها ورسوخ شجرته فيها وكان ذلك النسب الفاطمي خفيا قد درس عند الناس وبقي عنده وعند عشيرته يتناقلونه بينهم فيكون



النسب الأول كأنه انسلخ منه ولبس جلدة هؤلاء وظهر فيها فلا يضره الانتساب الأول في عصبية  
 اذ هو مجهول عند أهل العصابة ومثل هذا واقع كثيرا اذ كان النسب الأول خفيا ( وانظر ) قصة عرجة  
 وجريز في رياسة بجيلة وكيف كان عرجة من الأزد ولبس جلدة بجيلة حتى تنازع مع جريز رياستهم  
 عند عمر رضى الله عنه كما هو مذکور تتفهم منه وجه الحق والله الهادى للصواب ( وقد ) كدنا أن  
 نخرج عن غرض الكتاب بالاطناب في هذه المغالط فقد زلت أقدام كثير من الأثبات والمؤرخين  
 الحفاظ في مثل هذه الأحاديث والآراء وعلقت بأفكارهم ونقلها عنهم الكافة من ضعف النظر والغفلة  
 عن القياس وتلقوها مأيضا كذلك من غير بحث ولا روية واندرجت في محفوظاتهم حتى صار فن التاريخ  
 هاهنا مختلطا وناظره مرتبكوا وعدم من مناحى العامة فاذا احتاج صاحب هذا الفن الى العلم بقواعد السياسة  
 وطبائع الموجودات واختلاف الأمم والبقاع والأعصار في السير والأخلاق والعوائد والنحل  
 والمذاهب وسائر الأحوال والاحاطة بالحاضر من ذلك ومماثلة ما بينه وبين الغائب من الوفاق أو بون  
 ما بينهما من الخلاف وتعليل المتفق منها والمختلف والقيام على أصول الدول والمملوك ومبادئ ظهورها  
 أسباب حدوثها ودواعي كونها وأحوال القائمين بها وأخبارهم حتى يكون مستوعبا لأسباب كل حادث  
 واقعا على أصول كل خبر وحينئذ يعرض خبر المتقول على ما عنده من القواعد والأصول فان وافقها  
 جرى على مقتضاها كان صحيحا والأزيفة واستغنى عنه وما استكبر القدماء علم التاريخ الاندك حتى  
 تتحله الطبرى والبخارى وابن اسحق من قبلها وأمثالهم من علماء الأئمة وقد ذهبل الكثير عن هذا  
 لسرفيه حتى صار انتحاله مجبلة واستخف العوام ومن لا رسوخ له في المعارف مطالعته وحمله والخوض  
 فيه والتطفل عليه فاختلط المرعى بالهمل واللباب بالقشر والصادق بالكاذب والى الله عاقبة الأمور  
 ( ومن الغلط ) الخفي في التاريخ الدهول عن تبدل الأحوال في الأمم والأجيال بتبدل الأعصار ومرور  
 الأيام وهو داء دوي شديد الخفاء إذ لا يقع الا بعد أقاب متطاولة فلا يكاد يتفطن له الا الآحاد من أهل  
 الخليقة ( وذلك ) أن أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج  
 مستقر انما هو اختلاف على الأيام والأزمنة وانتقال من حال الى حال وكما يكون ذلك في الأشخاص  
 والأوقات والأمصاير فكذلك يقع في الآفاق والأقطار والأزمنة والدول سنة الله التي قد خلت في عباده  
 وقد كانت في العالم أم الفرس الأولى والسرانيون والنبط والتبابعة وبنو اسرائيل والقبط وكانوا  
 على أحوال خاصة بهم في دولهم وممالكهم وسياساتهم وصنائعهم ولغاتهم واصطلاحاتهم وسائر مشاركاتهم  
 مع أبناء جنسهم وأحوال اعتبارهم للعالم تشهد بها آثارهم ثم جاء من بعدهم الفرس الثانية والروم والعرب  
 فتبدلت تلك الأحوال وانقلبت بها العوائد الى ما يجانسها أو يشابهها والى ما يباينها أو يباغضها ثم  
 جاء الاسلام بدولة مضر فانقلبت تلك الأحوال أجمع انقلابا أخرى وصارت الى ما أكثره متعارف  
 لهذا العهد يأخذه الخلف عن السلف ثم دزست دولة العرب وأيامهم وذهبت الأسلاف الذين شيدوا  
 عزمهم ومهدوا مملكتهم وصار الأمر في أيدي سواهم من العجم مثل الترك بالشرق والبربر بالمغرب والفرنجة

بالشمال فذهبت بندها بهم أم وانقلبت أحوال وعوائد نسي شأنها وأغفل أمرها (والسبب) الشائع في  
تبدل الأحوال والعوائد أن عوائد كل جيل تابعة لعوائد سلطانه كما يقال في الأمثال الحكيمية الناس على  
دين الملك وأهل الملك والسلطان إذا استولوا على الدولة والأمر فلا بد وأن يفزعوا إلى عوائد من قبلهم  
ويأخذوا الكثير منها ولا يغفلوا عوائد جيلهم مع ذلك فيقع في عوائد الدولة بعض المخالفة لعوائد الجيل  
الأول فإذا جاءت دولة أخرى من بعدهم ومزجت من عوائدهم وعوائد هاخالفت أيضا بعض الشيء  
وكانت للأولى أشد مخالفة ثم لا يزال التدرج في المخالفة حتى ينتهي إلى المباشرة بالجملة فمادت الأم والأجيال  
تتعاقب في الملك والسلطان لا تزال المخالفة في العوائد والأحوال واقعة والقياس والمحاكاة للإنسان  
طبيعة معروفة ومن الغلط غير مأمونة تخرجه مع الدهول والغفلة عن قصده وتعوج به عن مراده فربما  
يسمع السامع كثير من أخبار الماضين ولا يتفطن لما وقع من تغير الأحوال وانقلابها فيجريها لأول وهلة  
على ما عرف وقيسها بما شهد وقد يكون الفرق بينهما كثير فيقع في مهواة من الغلط (فمن هذا الباب)  
ما ينقله المؤرخون من أحوال الحجاج وأن أباه كان من المعلمين مع أن التعليم لهذا العهد من جملة الصنائع  
المعاشية البعيدة من اعتزاز أهل العصبية والمعلم مستضعف مسكين منقطع الجذم (١) فيتشوف الكثير  
من المستضعفين أهل الحرف والصنائع المعاشية إلى نيل الرتب التي ليسوا لها بأهل ويعدونهم المكنات  
لهم فتذهب بهم وساوس المطامع وربما انقطع حبلهم من أيديهم فسقطوا في مهواة الهلكة والتلف  
ولا يعلمون استحالتها في حقهم وأنهم أهل حرف وصنائع للمعاش وأن التعليم صدر الاسلام والدولتين  
لم يكن كذلك ولم يكن العلم بالجملة صناعة إنما كان نقلا لما سمع من الشارع وتعلما لما جهل من الدين  
على جهة البلاغ فكان أهل الأنساب والعصبية الذين قاموا بالملة هم الذين يعلمون كتاب الله وسنة نبيه  
صلى الله عليه وسلم على معنى التبليغ الخبري لا على وجه التعليم الصناعي اذ هو كتابهم المنزل على الرسول  
منهم وبه هدايتهم والاسلام دينهم قاتلوا عليه وقتلوا واختصوا به من بين الأمم وشرفوا فيحرصون  
على تبليغ ذلك وتفهمه للامة لا تصدم عنه لائمة الكبر ولا يزعمهم عاذل الأئمة ويشهد لذلك بعث  
النبي صلى الله عليه وسلم كبار أصحابه مع وفود العرب يعلمونهم حدود الاسلام وما جاء به من شرائع  
الدين بعث في ذلك من أصحابه العشرة فمن بعدهم فلما استقر الاسلام وشجت عروق الملة حتى تناولها  
الأمم البعيدة من أيدي أهلها واستحالت بمرور الأيام أحوالها وكثرت استنباط الأحكام الشرعية من  
النصوص لتعدد الوقائع وتلاحقها فاحتاج ذلك لقانون يحفظه من الخطأ وصار العلم ملكة يحتاج إلى  
التعلم فأصبح من جملة الصنائع والحرف كما يأتي ذكره في فصل العلم والتعليم واشتغل أهل العصبية  
بالقيام بالملك والسلطان فدفع للعلم من قام به من سوام وأصبح حرفة للمعاش وشمت أنوف  
الترفين وأهل السلطان عن التصدي للتعليم واختص انتحاله بالمستضعفين وصار منتحله محقرا عند  
أهل العصبية والملك والحجاج بن يوسف كان أبوه من سادات ثقيف وأشرافهم ومكانهم من عصبية



العرب ومناهضة قريش في الشرف ما علمت ولم يكن تعليمه للقرآن على ما هو الأمر عليه لهذا العهد من أنه حرفة للمعاش وإنما كان على ما وصفناه من الأمر الأول في الاسلام ( ومن هذا الباب ) أيضا ما يتوهمه المتصفحون لكاتب التاريخ اذا سمعوا أحوال القضاة وما كانوا عليه من الرياسة في الحروب وقود العساكر فتراعى بهم وساوس الهمم الى مثل تلك الرتب يحسبون أن الشأن في خطة القضاء لهذا العهد على ما كان عليه من قبل ويظنون بآبى عامر صاحب هشام المستبد عليه وابن عباد من ملوك الطوائف باشيلية اذا سمعوا أن آباءهم كانوا قضاة أنهم مثل القضاة لهذا العهد ولا يفتضون لما وقع في رتبة القضاء من مخالفة العوائد كما نينه في فصل القضاء من الكتاب الأول وابن آبى عامر وابن ساد كانوا من قبائل العرب القاطنين بالدولة الأموية بالأندلس وأهل عصبيتها وكان مكانهم فيها معلوماً ولم يكن نيلهم لما نالوه من الرياسة والملك بخطة القضاء كما هي لهذا العهد بل إنما كان القضاء في الأمر القديم لأهل (١) العصبية من قبيل الدولة ومواليها كما هي الوزارة لعهدنا بالمغرب وانظر خروجهم عساكر في الطوائف وتقليد عظم الأمور التي لا تقلد الا لمن له الغنى فيها بالعصبية فيغلط سامع ذلك ويحمل الأحوال على غير ما هي وأكث ما يقع في هذا الغلط ضعفاء البصائر من أهل الأندلس بعد العهد لفقدان العصبية في مواطنهم منذ أعصار بعيدة لفناء العرب ودولتهم بها وخروجهم عن ملكة أهل العصبية من البربر بقيت أنسابهم العربية محفوظة والذريعة الى العز من العصبية والتناصر متفودة بل صاروا من جملة الرعايا المتخاذلين الذين تعبدوا القهرو ورعوا للمذلة يحسبون أن أنسابهم مع سلطة الدولة هي التي يكون لهم بها التغلب والتحكم فتجد أهل الحرف والصنائع منهم متصددين لذلك ساعين دينه فأما من بأحوال القبائل والعصبية ودولهم بالعدوة الغربية وكيف يكون التغلب بين الأمم والعشائر فقلما يغلطون في ذلك ويخطئون في اعتباره ( ومن هذا الباب ) أيضاً ما يسلكه المؤرخون منذ ذكر الدول ونسب ملوكها فيذكرون اسمهم ونسبه وآباءهم وأمهاتهم ونسبه ولقبه وخاتمه وقاضيه وحاجبه ووزيره كل ذلك تقليد لمؤرخي الدولتين من غير تفتن لمقاصدهم والمؤرخون لذلك العهد كانوا يضعون تواريخهم لأهل الدولة وأبنائها متشوفون الى سير أسلافهم ومعرفة أحوالهم ليقطفوا آثارهم وينسجوا على منوالهم حتى في اصطناع الرجال من خلف دولتهم وتقليد الخطط والراتب

(١) العصبية بفتح العين التعصب وهو أن يذب الرجل عن حريم صاحبه ويشمر عن ساق الجد في نصره منسوبة الى العصبية محركة وهم أقارب الرجل من قبل أبيه لأنهم هم الذابون عن حريم من هو منتهم وهي بهذا المعنى ممدوحة وأما العصبية المذمومة في حديث الجامع الصغير ليس منا من دعا الى عصبية وليس منا من قاتل على عصبية وليس منا من مات على عصبية فهي تعصب رجال لقبيلة علي رجال قبيلة أخرى لغير ديانة كما كان يقع من قيام سعد علي حرام نسبة الى العصبية بمعنى قوم الرجل الذين يتعصبون له ولو من غير أقاربه ظالماً كان أو مظلوماً وفي الفتاوى الخيرية من موانع قبول الشهادة بالعصبية وهي أن يبغض الرجل الرجل لأنه من بني فلان أو من قبيلة كذا والوجه في ذلك ظاهر وهو ارتكاب المحرم في الحديث ليس منا من دعا الى عصبية وهو موجب للفسق ولا شهادة لمرتكبه قاله الأستاذ أبو الوفاء اهـ

لأبناء صنائعهم وذويهم والقضاة أيضا كانوا من أهل عصبية الدولة وفي عداد الوزراء كما ذكرناه لك فيحتاجون الى ذكر ذلك كله وأما حين تباينت الدول وتباعد ما بين العصور ووقف الغرض على معرفة الملوك بأنفسهم خاصة ونسب الدول بعضهم من بعض في قوتها وغلبتها ومن كان يناهضها من الأمم أو يقصر عنها فما الفائدة للمصنف في هذا العهد في ذكر الأبناء والنساء ونقش الخاتم واللقب والقاضي والوزير والحاجب من دولة قديمة لا يعرف فيها أصولهم ولا أنسابهم ولا مقاماتهم إنما حملهم على ذلك التقليد والغفلة عن مقاصد المؤلفين الأقدمين والذهول عن تحرى الأغراض من التاريخ اللهم الا ذكر الوزراء الذين عظمت آثارهم وعفت على الملوك أخبارهم كالحجاج وبنو المهلب والبرامكة وبنو سهل بن نوبخت وكافور الاخشيدي وابن أبي عامر وأمثالهم فغير نكير الاماع بآبائهم والاشارة الى أحوالهم لا تنظامهم في عداد الملوك (ولندكر) هنا فائدة نختم كلامنا في هذا الفصل بها وهي أن التاريخ إنما هو ذكر الأخبار الخاصة بعصر أو جيل (فأما) ذكر الأحوال العامة للأفان والأجيال والأعصار فهو أس للمؤرخ تنبى عليه أكثر مقاصده وتبين به أخباره وقد كان الناس يفردون بالتأليف كما فعله المسعودى فى كتاب مروج الذهب شرح فيه أحوال الأمم والآفاق لعده فى عصر الثلاثين والثلاثمائة غربا وشرقا وذكر نحلهم وعوائدهم وصف البلدان والجبال والبحار والممالك والدول وفرق شعوب العرب والعجم فصار إماما للمؤرخين يرجعون اليه وأصلا يعولون فى تحقيق الكثير من أخبارهم عليه ثم جاء البكرى من بعده ففعل مثل ذلك فى المسالك والممالك خاصة دون غيرها من الأحوال لأن الأمم والأجيال لعده لم يقع فيها كثير انتقال ولا عظيم تغير وأما لهذا العهد وهو آخر المائة الثامنة فقد اقلبت أحوال المغرب الذى نحن شاهدوه وتبدلت بالجملة واعتاض من أجيال البربر أهله على القدم بمن طرأ فيه من لدن المائة الخامسة من أجيال العرب بما كسروهم وغلبوه وانزعوا منهم عامة الأوطان وشاركوهم فيما بقي من البلدان ملكهم هذا الى ما نزل بالعمران شرف وغربا فى منتصف هذه المائة الثامنة من الطاعون الجارف الذى تحيف الأمم وذهب بأهل الجبل وطوى كثيرا من محاسن العمران ومحاها وجاء للدول على حين هرمها وبلوغ الغاية من مداها فقلص من ظلالها وفل من حدها وأوهن من سلطانها وتداعت الى التلاشى والاضمحلال أحوالها وانتقص عمران الأرض بانتقاص البشر فخربت الأمصار والمصانع ودرست السبل والمعالم وخلت الديار والمنازل وضعفت الدول والقبائل وتبدل الساكن وكأنى بالشرق قد نزل به مثل ما نزل بالمغرب لكن على نسبة ومقدار عمرانه وكأنا نادى لسان الكون فى العالم بالتحول والانتقاض فبادر بالاجابة والله وارث الأرض ومن عليها وإذا تبدلت الأحوال جملة فكأنا تبدل الخلق من أصله وتحول العالم بأسره وكأنا خلق جديد ونشأة مستأنفة وعالم محدث فاحتاج لهذا العهد من يدون أحوال الخليقة والآفاق وأجيالها والعوائد والنحل التى تبدلت لأهلها ويقفومسلك المسعودى لعصره ليكون أصلا يقتدى به من يأتى من المؤرخين من بعده (وأنا ذا كر) فى كتابى هذا ما أمكننى منه فى هذا القطر



المغربى اما صريحا أو مندرجا فى أخباره وتلويحا لا اختصاص قصدى فى التأليف بالمغرب وأحوال أجياله وأممه وذكر ممالكه ودوله دون ماسوا من الأقطار لعدم اطلاعي على أحوال المشرق وأممهم وأن الأخبار المتناقلة لا تنوفى كنهها ما أريده منه والمسدودى إنما استوفى ذلك لبعد رحلته وتقلبه فى البلاد كما ذكر فى كتابه مع أنه لما ذكر المغرب قصر فى استيفاء أحواله وفوق كل ذى علم عليم ومرد العلم كله الى الله والبشر عاجز قاصر والاعتراف متعين واجب ومن كان الله فى عونته تسرت عليه المذاهب وأنجحت له المساعي والمطالب (ونحن) آخذون بعون الله فيما رماه من أغراض التأليف والله المسدد والمعين وعليه النكلان (وقد) بقى علينا أن تقدم مقدمة فى كيفية وضع الحروف التى ليست من لغات العرب اذا عرضت فى كتابنا هذا (اعلم) أن الحروف فى النطق كما يأتى شرحه بعد هي كيفيات الأصوات الخارجة من الحنجرة تعرض من تقطيع الصوت بقرع اللهاة وأطراف اللسان مع الحنك والحلق والأضراس أو بقرع الشفتين أيضا فتتغير كيفيات الأصوات بتغير ذلك القرع وتجيء الحروف متميزة فى السمع وتتركب منها الكلمات الدالة على ما فى الضمائر وليست الامم كلها متساوية فى النطق بتلك الحروف فقد يكون لأممة من الحروف ما ليس لأممة أخرى والحروف التى نطقت بها العرب هي ثمانية وعشرون حرفا كما عرفت ونجد للعبرانيين حروفا ليست فى لغتنا وفى لغتنا أيضا حروف ليست فى لغتهم وكذلك الافرنج والترك والبربر وغير هؤلاء من العجم ثم ان أهل الكتاب من العرب اصطلاحوا فى الدلالة على حروفهم المسموعة بأوضاع حروف مكتوبة متميزة بأشخاصها كوضع ألف وباء وجيم وراء وطاء الى آخر الثمانية والعشرين واذا عرض لهم الحرف الذى ليس من حروف لغتهم بقى مهملا عن الدلالة الكتابية مغفلا عن البيان وربما يرسمه بعض الكتاب بشكل الحرف الذى يليه من لغتنا قبله أو بعده وليس ذلك بكاف فى الدلالة بل هو تغيير للحرف من أصله \* ولما كان كتابنا مشتملا على أخبار البربر وبعض العجم وكانت تعرض لنا فى أسمائهم أو بعض كلماتهم حروف ليست من لغة كتابتنا ولا اصطلاح أو ضاعنا اضطررنا الى بيانه ولم نكتف برسم الحرف الذى يليه كما قلناه لانه عندنا غير واف بالدلالة عليه فاصطلحت فى كتابي هذا على أن أضع ذلك الحرف العجمي بما يدل على الحرفين اللذين يكتفانه ليتوسط القارى بالنطق به بين مخرجي ذينك الحرفين فتحصل تأديته وانما اقتبست ذلك من رسم أهل المصحف حروف الاشمام كالصراط فى قراءة خلف فان النطق بصاحه فيها معجم متوسط بين الصاد والزاي فوضعوا الصاد ورسموا فى داخلها شكل الزاي ودل ذلك عندم على المتوسط بين الحرفين فكذلك رسمت أنا كل حرف يتوسط بين حرفين من حروفنا كالكاف المتوسط عند البربر بين الكاف الصريحة عندنا والجيم أو القاف مثل اسم بلكين فأضعها كافا أو أنقطها بنقطة الجيم واحدة من أسفل أو بنقطة القاف واحدة من فوق أو ثنتين فيدل ذلك على أنه متوسط بين الكاف والجيم أو القاف وهذا الحرف أكثر ما يجيئ فى لغة البربر وما جاء من غيره فعلى هذا القياس أضع الحرف المتوسط بين حرفين من لغتنا بالحرفين معا ليعلم القارى أنه متوسط فينطق به كذلك فنكون قد دللنا عليه ولو وضعناه برسم

الحرف الواحد عن جانبيه لكنا قد صرفناه من مخرجه الى مخرج الحرف الذي من لغتنا وغيرنا لغة  
القوم فاعلم ذلك والله الموفق للصواب بمنه وفضله

✽ الكتاب الأول في طبيعة العمران في الخليفة وما يعرض فيها من البدو والحضر والتغلب والكسب  
والمعاش والصنائع والعلوم ونحوها ومالك من العلل والاسباب ✽

(اعلم) أنه لما كانت حقيقة التاريخ أنه خبر عن الاجتماع الانساني الذي هو عمران العالم وما يعرض  
لطبيعة ذلك العمران من الاحوال مثل التوحش والتأنس والعصبيات وأصناف التغلبات للبشر بعضهم على  
بعض وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيمهم من الكسب  
والمعاش والعلوم والصنائع وسائر ما يحدث في ذلك العمران بطبيعته من الاحوال ✽ ولما كان الكذب  
متطرقا للخبر بطبيعته وله اسباب تقتضيه فمنها التشيعات للآراء والمذاهب فان النفس اذا كانت على حال  
الاعتدال في قبول الخبر أعطته حقه من التمهيص والنظر حتى تتبين صدقه من كذبه واذا خمرها تشيع  
لرأى أو نخلة قبلت ما يوافقها من الاخبار لاول وهلة وكان ذلك الميل والتشيع غطاء على عين بصيرتها  
عن الانتقاد والتمحيص فتقع في قبول الكذب ونقله ✽ ومن الاسباب المقتضية للكذب في الاخبار أيضا  
الثقة بالناقلين وتمحيص ذلك يرجع الى التعديل والتجريح (ومنها) الدهول عن المقاصد كثير من  
الناقلين لا يعرف القصد بما عين أو سمع وينقل الخبر على ما في ظنه وتخمينه فيقع في الكذب (ومنها) توم  
الصدق وهو كثير وانما يجي في الآكثر من جهة الثقة بالناقلين (ومنها) الجهل بتطبيق الاحوال على  
الوقائع لاجل ما يدخلها من التليس والتصنع فينقلها الخبر كآها وهي بالتصنع على غير الحق في نفسه  
(ومنها) تقرب الناس في الآكثر لا صحاب التجارة والمراتب بالثناء والمدح وتحسين الاحوال وإشاعة  
الذكر بذلك فيستفيض الاخبار بها على غير حقيقة فالنفوس مولعة بحب الثناء والناس متطلعون الى الدنيا  
واسبابها من جاه أو ثروة وليسوا في الآكثر براغبين في الفضائل ولا متنافسين في أهليها ✽ ومن الاسباب  
المقتضية له أيضا وهي سابقة على جميع ما تقدم الجهل بطبائع الاحوال في العمران فان كل حادث من  
الحوادث ذاتا كان أو فعلا لا بد له من طبيعة تخصه في ذاته وفيما يعرض له من أحواله فاذا كان السامع عارفا  
بطبائع الحوادث والآحوال في الوجود ومقتضياتها أعانه ذلك في تمحيص الخبر على تمييز الصدق من الكذب  
وهذا أبلغ في التمهيص من كل وجه يعرض وكثيرا ما يعرض للسامعين قبول الاخبار المستحيلة وينقلونها  
وتؤثر عنهم كما نقله المسعودي عن الاسكندر لما صدته دواب البحر عن بناء الاسكندرية وكيف اتخذ  
تابوت الخشب وفي باطنه صندوق الزجاج وغاص فيه الى قعر البحر حتى كتب صور تلك الدواب الشيطانية  
التي رآها وعمل تماثيلها من أجساد معدنية ونصبها حذاء البنيان فقرت تلك الدواب حين خرجت وعانيتها  
وتم له بناؤها في حكاية طويلة من أحاديث خرافة مستحيلة من قبل اتخاذ التابوت الزجاج ومصادمة البحر  
وأما وجه بحر مه ومن قبل أن الملوك لا تحمل أنفها على مثل هذا الغرر ومن اعتمده منهم فقد عرض نفسه



بهلكة وانتفاض العقدة واجتماع الناس الى غيره وفي ذلك اتلاف ولا ينتظرون به رجوعه من غروره  
لك طرفه عين ومن قبل أن الجن لا يعرف لها صور ولا تماثيل تختص بها انما هي قادرة على التشكل  
وما يذكر من كثرة الرؤوس الما فاما المراد به البشاعة والتهويل لأنه حقيقة (وهذه) كلها قاذحة في  
نلك الحكاية والقادح المحيل لها من طريق الوجود أبين من هذا كله وهو أن المغمس في الماء ولو كان  
في الصندوق يضيق عليه الهواء للتنفس الطبيعي وتسخن روحه بسرعة تقلبه فيفقد صاحبه الهواء  
البارد المعدل لمزاج الرئة والروح القلبي ويهلك مكانه وهذا هو السبب في هلاك أهل الحمامات اذا  
طبقت عليهم عن الهواء البارد والتدلين في الآبار والمطامير العميقة المهوى اذا سخن هواؤها  
بالعفونة ولم تداخلها الرياح فتخلخلها فان المتدلى فيها يهلك لحينه وبهذا السبب يكون موت الحوت اذا  
فرق البحر فان الهواء لا يكفيه في تعديل رثته اذ هو حار بافراط والماء الذي يعدله بارد والهواء الذي خرج  
به حار فيستولى الحار على روح الحيوان ويهلك دفعة ومنه هلاك المصعوقين وأمثال ذلك (ومن  
الأخبار) المستحيلة ما نقله السعودي أيضا في تمثال الزر زور الذي برومة تجتمع اليه الزر ازير في يوم معلوم  
من السنة حاملة للزيتون ومنه يتخذون زيتهم وانظروا بعد ذلك عن المجري الطبيعي في اتخاذ الزيت  
(ومنها) ما نقله البكري في بناء المدينة المسماة ذات الأبواب تحيط بأكثر من ثلاثين مرحلة وتشتمل على  
شجرة آلاف باب والمدن انما اتخذت للتحصن والاعتصام كما يأتي وهذه خرجت عن أن يحاط بها فلا  
يكون فيها حصن ولا معتصم وكان نقله السعودي أيضا في حديث مدينة النحاس وانها مدينة كل بنائها  
حاس بصحراء سجلها سعة ظفر بها موسى بن نصير في غزوة الى المغرب وانها مغلقة الأبواب وأن الصاعد  
يها من أسوارها اذا أشرف على الحائط صفق ورعى بنفسه فلا يرجع آخر الدهر في حديث مستحيل  
دعة من خرافات القصص وصحراء سجلها سعة قد تقضها الركاب والأدلاء ولم يقفوا هذه المدينة على خبر  
بأن هذه الأحوال التي ذكرها عنها كلها مستحيل عادة منافية للأمور الطبيعية في بناء المدن واختطاطها  
وان المعادن غاية الوجود منها أن يصرف في الآنية (١) والخرثي وأما تشييد مدينة منها فكما تراه من  
الاستحالة والبعده وأمثال ذلك كثير وتمحيصه انما هو بمعرفة طبائع العمران وهو أحسن الوجوه  
وأوثقها في تمحيص الأخبار وتمييز صدقها من كذبها وهو سابق على التمهيص بتعديل الرواة ولا يرجع  
الى تعديل الرواة حتى يعلم أن ذلك الخبر في نفسه ممكن أو ممتنع وأما اذا كان مستحيلا فلا فائدة للنظر  
في التعديل والتجريح ولقد عدا أهل النظر من المطاعن في الخبر استحالة مدلول اللفظ وتأويله أن يؤول  
بما لا يقبله العقل وانما كان التعديل والتجريح هو المعترف في صحة الأخبار الشرعية لان معظمها تكليف  
انشائية أو جب الشارع العمل بها حتى حصل الظن بصدقها وسبيل صحة الظن الثقة بالرواة بالعدالة  
والضبط (وأما الاخبار) عن الوقعات فلا بد في صدقها وصحتها من اعتبار المطابقة فذلك وجب أن  
ينظر في إمكان وقوعه وصار فيها ذلك أهم من التعديل ومقدما عليه اذ فائدة الانشاء مقتبسة منه فقط

وفائدة الخبر منه ومن الخارج بالمطابقة وإذا كان ذلك فالقانون في تمييز الحق من الباطل في الاخبار بالامكان والاستحالة أن ننظر في الاجتماع البشري الذي هو العمران ونميز ما يلحقه من الأحوال لذاته وبمقتضى طبعه وما يكون عارضا لا يعتد به وما لا يمكن أن يعرض له وإذا فعلنا ذلك كان ذلك لنا قانونا في تمييز الحق من الباطل في الاخبار والصدق من الكذب بوجه برهاني لا مدخل للشك فيه وحينئذ إذا سمعنا عن شيء من الأحوال الواقعة في العمران علمنا ما نحكم بقبوله مما نحكم بتزييفه وكان ذلك لنا معيارا صحيحا يتحرى به المؤرخون طريق الصدق والصور فيما ينقلونه وهذا هو غرض هذا الكتاب الأول من تأليفنا وكان هذا علم مستقل بنفسه فانه ذو موضوع وهو العمران البشري والاجتماع الانساني وذو مسائل وهي بيان ما يلحقه من العوارض والأحوال لذاته واحدة بعد أخرى وهذا شأن كل علم من العلوم وضعيا كان أو عقليا (واعلم) أن الكلام في هذا الغرض مستحدث الصنعة غريب النزعة غزير الفائدة أعثر عليه البحث وأدى اليه الغوص وليس من علم الخطابة الذي هو أحد العلوم المنطقية فان موضوع الخطابة إنما هو الأقوال المقنعة النافعة في استمالة الجمهور الى رأى أو صدم عنه ولا هو أياضاً من علم السياسة المدنية إذ السياسة المدنية هي تدبير المنزل أو المدينة بما يجب بمقتضى الاخلاق والحكمة ليحمل الجمهور على منهاج يكون فيه حفظ النوع وبقاؤه فقد خالف موضوعه موضع هذين الفنين اللذين ربما يشبهانه وكأنه علم مستنبط النشأة ولعمري لم أقف على الكلام في منحاها لأحد من الخليفة ما أدري لغفلتهم عن ذلك وليس الظن بهم أولعلمهم كتبوا في هذا الغرض واستوفوه ولم يصل اليها فالعلوم كثيرة والحكماء في أمم النوع الانساني متعددون وما لم يصل اليها من العلوم أكثر مما وصل فأين علوم الفرس التي أمر عمر رضي الله عنه بمحوها عند الفتح وأين علوم الكلدانيين والسريانيين وأهل بابل وما ظهر عليهم من آثارها وتائجها وأين علوم القبط ومن قبلهم وانما وصل اليها علوم أمة واحدة وهي يونان خاصة لكلف المأمون باخراجهما من لغتهم واقداره على ذلك بكثرة المترجمين وبذل الأموال فيها ولم تقف على شيء من علوم غيرهم وإذا كانت كل حقيقة متعلقة بطبيعة يصلح أن يبحث عما يعرض لها من العوارض لذاتها وجب أن يكون باعتبار كل مفهوم وحقيقة علم من العلوم يخصه لكن الحكماء لعلمهم انما لاحظوا في ذلك العناية بالثمرات وهذا انما ثمرته في الاخبار فقط كما رأيت وان كانت مسائله في ذاتها وفي اختصاصها شريفة لكن ثمرته تصحيح الاخبار وهي ضعيفة فلماذا هجره والله أعلم وما أوتيتم من العلم الا قليلا (وهذا الفن) الذي لاحظنا النظر فيه نجد منه مسائل تجري بالعرض لأهل العلوم في براهين علومهم وهي من جنس مسائله بالموضوع والطلب مثل ما يذكره الحكماء والعلماء في اثبات النبوة من أن البشر متعاونون في وجودهم فيحتاجون فيه الى الحاكم والوازع ومثل ما يذكر في أصول الفقه في باب اثبات اللغات أن الناس يحتاجون للعبارة عن المقاصد بطبيعة التعاون والاجتماع وتبيان العبارات أخف ومثل ما يذكره الفقهاء في تعليل الاحكام الشرعية بالمقاصد في أن الزنا مخلط للانساب مفسد للنوع وان القتل أياضاً مفسد للنوع وأن الظلم مؤذن بخراب العمران المفضي لفساد النوع وغير ذلك من سائر



انما صد الشريعة في الاحكام فانها كلها مبنية على المحافظة على العمران فكان لها النظر فيما يعرض له وهو ظاهر  
من كلامنا هذا في هذه المسائل الممثلة \* وكذلك أيضا يقع اليها القليل من مسائله في كلمات متفرقة لحكام  
الخليقة لكانهم لم يستوفوه (فمن كلام) الموبدان بهرام بن بهرام في حكاية اليوم التي نقلها المسعودي أيها الملك  
ان الملك لا يتم عزه الا بالشريعة والقيام لله بطاعته وانتصرفت تحت أمره ونهيه ولا قوام للشريعة الا بالملك  
لا عز للملك الا بالرجال ولا قوام للرجال الا بالمال ولا سبيل الى المال الا بالعمارة ولا سبيل للعمارة الا بالعدل  
العدل الميزان المنصوب بين الخليقة نصبه الرب وجعل له قياما وهو الملك (ومن كلام أنوشروان) في هذا  
حي بعينه الملك بالجند والجند بالمال والمال بالخراج والخراج بالعمارة والعمارة بالعدل والعدل باصلاح  
العمال واصلاح العمال باستقامة الوزراء ورأس الكل بافتقاد الملك حال رعيته بنفسه واقتداره على تأديتها  
حتى يملكها ولا تملكه (وفي الكتاب) المنسوب لارسطو في السياسة المتداول بين الناس جزء صالح منه  
لا أنه غير مستوفى ولا معطى حقه من البراهين ومختلط بغيره وقد أشار في ذلك الكتاب الى هذه  
كلمات التي نقلناها عن الموبدان وأنوشروان وجعلها في الدائرة القرية التي أعظم القول فيها وهو قوله  
لعالم بستان سياحه الدولة الدولة سلطان نحيابه الستة الستة سياسة يسوسها الملك الملك نظام يعضده الجند  
الجند أعوان يكفلهم المال المال رزق تجمععه الرعية الرعية عبيد يكتفهم العدل العدل مألوف وبه قوام  
لعالم العالم بستان ثم ترجع الى أول الكلام فبهذه ثمان كلمات حكيمية سياسية ارتبط بعضها ببعض وارتدت  
عجازها على صدورها واتصلت في دائرة لا يتعين طرفها فخر بعثوره عليها وعظم من فوائدها وأنت اذا  
أملت كلامنا في فصل الدول والملك وأعطيته حقه من النصف والتفهم عثرت في أثنائه على تفسير هذه  
كلمات وتفصيل اجمالها مستوفى بينا بأوعب بيان وأوضح دليل وبرهان أطلعنا الله عليه من غير تعليم  
ارسطو ولا افادة موبدان وكذلك تجد في كلام ابن المقفع وما يستطرد في رسائله من ذكر السياسات  
الكثير من مسائل كتابنا هذا غير مبرهنة كابرهناء انما يجيبها في الذكر على منحي الخطاب في أسلوب  
الترسل وبلاغة الكلام وكذلك حوم القاضي أبو بكر الطرطوشي في كتاب سراج الملوك وبه على أبواب  
تقريب من أبواب كتابنا هذا ومسائله لكنه لم يصادف فيه الرمية ولا أصاب الشاكلة ولا استوفى المسائل  
: لا أوضح الأدلة انما يوجب الباب للمسئلة ثم يستكثر من الأحاديث والآثار وينقل كلمات متفرقة لحكام  
الفرس مثل بزرجمهر والموبدان وحكام الهندو المأثور عن دانيال وهرمس وغيرهم من أكابر الخليقة  
ولا يكشف عن التحقيق قناعا ولا يرفع بالبراهين الطبيعية حججا انما هو نقل وترغيب شبيه بالمواعظ  
وكأنه حوم على الغرض ولم يصادفه ولا تحقق قصده ولا استوفى مسائله ونحن ألهمنا الله الى ذلك الهام  
وأعثرنا على علم جعلنا بين بكره وجهينة خبره فان كنت قد استوفيت مسائله وميزت عن سائر الصنائع  
أنظاره وأنحاءه فتوفيق من الله وهداية وان فاتني شيء في احصائه واشتبعت بغيره مسائله فلنناظر المحقق  
اصلاحه ولي الفضل لا نفي نهجت له السبيل وأوضحت له الطريق والله يهدي بنوره من يشاء (ونحن)  
الآن نبين في هذا الكتاب ما يعرض للبشر في اجتماعهم من أحوال العمران في الملك والكسب والعلوم

والصنائع بوجوده برهانية يتضح بها التحقيق في معارف الخاصة والعامة وتدفع بها الأوهام وترفع الشكوك (وقول) لما كان الانسان متميزا عن سائر الحيوانات بنحو اختصاصها بالعلوم والصنائع التي هي نتيجة الفكر الذي تميز به عن الحيوانات وشرف بوصفه على المخلوقات ومنها الحاجة الى الحكم الوازع والسلطان القاهر اذ لا يمكن وجوده دون ذلك من بين الحيوانات كلها الا ما يقال عن النحل والجراد وهذه وان كان لها مثل ذلك فيطريق الهامى لا يفكر وروية ومنها السحى في المعاش والاعتمال في تحصيله من وجوهه واكتساب أسبابه لما جعل الله فيه من الافتقار الى الغذاء في حياته وبقائه وهداه الى التماسه وطلبه قال تعالى أعطى كل شئ خلقه ثم هدى ومنها العمران وهو التنازل والتنازل في مصر أو حلة للناس بالعشير واقتضاء الحاجات لما في طباعهم من التعاون على المعاش كما سنبينه ومن هذا العمران ما يكون بدويا وهو الذي يكون في الضواحي وفي الجبال وفي الحلال المنتجة في القفار وأطراف الرمال ومنه ما يكون حضريا وهو الذي بالأمصار والقرى والمدن والمدائر للاعتصام بها والتحصن بجدرانها وله في كل هذه الأحوال أمور تعرض من حيث الاجتماع عروضا ذاتياله فلا جرم انحصر الكلام في هذا الكتاب في ستة فصول (الأول) في العمران البشري على الجملة وأصنافه وقسطه من الأرض (والثاني) في العمران البدوي وذكر القبائل والأمم الوحشية (والثالث) في الدول والخلافة والملك وذكر المراتب السلطانية (والرابع) في العمران الحضري والبلدان والأمصار (والخامس) في الصنائع والمعاش والكسب ووجوهه (والسادس) في العلوم واكتسابها وتعلمها وقد قدمت العمران البدوي لأنه سابق على جميعها كما نبين لك بعدو كذا تقديم الملك على البلدان والأمصار وأما تقديم المعاش فلا أن المعاش ضروري طبيعي وتعلم العلم كالملى أو حاجي والطبيعى أقدم من الكمالي وجعلت الصنائع مع الكسب لأنها منه ببعض الوجوه ومن حيث العمران كما نبين لك بعدو الله الموفق للصواب والمعين عليه

### ﴿ الفصل الأول من الكتاب الأول في العمران البشري على الجملة وفيه مقدمات ﴾

(الاولى) في أن الاجتماع الانساني ضروري ويعبر الحكماء عن هذا بقولهم الانسان مدنى بالطبع أي لا بد له من الاجتماع الذي هو المدنية في اصطلاحهم وهو معنى العمران وبيانه أن الله سبحانه خلق الانسان وركبه على صورة لا يصح حياتها وبقاؤها الا بالغذاء وهداه الى التماسه بفطرته وبما ركب فيه من القدرة على تحصيله الا أن قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل حاجته من ذلك الغذاء غير موفية له بمادة حياته منه ولو فرضنا منه أقل ما يمكن فرضه وهو قوت يوم من الخنطة مثلا فلا يحصل الا بعلاج كثير من الطحن والعجن والطبخ وكل واحد من هذه الأعمال الثلاثة يحتاج الى مواعين وآلات لا تتم الا بصناعات متعددة من حداد ونجار وفاخوري هب أنه يأكله جبان غير علاج فهو أيضا يحتاج في تحصيله جبالى أعمال أخرى أكثر من هذه من الزراعة والحصاد والدراس الذي يخرج الحب من غلاف السنب



ويحتاج كل واحد من هذه الى آلات متعددة وصنائع كثيرة أكثر من الأولى بكثير ويستحيل أن توفي بذلك كله أو بعضه قدرة الواحد فلا بد من اجتماع القدر الكبيرة من أبناء جنسه ليحصل القوت له ولهم فيحصل بالتعاون قدر الكفاية من الحاجة لا أكثر منهم بأضعاف وكذلك يحتاج كل واحد منهم أيضاً في الدفاع عن نفسه الى الاستعانة بأبناء جنسه لأن الله سبحانه لما ركب الطباع في الحيوانات كلها وقسم القدر بها جعل حظوظ كثير من الحيوانات العجم من القدرة أكمل من حظ الانسان فقدره الفرس مثلاً عظم بكثير من قدرة الانسان وكذا قدرة الحمار والثور و قدرة الأسد والفيل أضعاف من قدرته ولما كان العدوان طبيعياً في الحيوان جعل لكل واحد منها عضو يختص بمدافعتة ما يصل اليه من عادية غيره جعل للانسان عوضاً من ذلك كله الفكر واليد فاليد مهيئة للصنائع بخدمة الفكر والصنائع تحصل له الآلات التي تنوب له عن الجوارح المعدة في سائر الحيوانات للدفاع مثل الرماح التي تنوب عن القرون المطحقة والسيوف النائية عن الخالب الجارحة والتراس النائية عن البشرات الجاسية الى غير ذلك مما ذكره جالينوس في كتاب منافع الأعضاء فالواحد من البشر لا تقاوم قدرته قدرة واحد من الحيوانات معجم سيما المفترسة فهو عاجز عن مدافعتها وحده بالجملة ولا تنقي قدرته أيضاً باستعمال الآلات المعدة للدفاع كثرتها وكثرة الصنائع والمواعين المعدة لها فلا بد في ذلك كله من التعاون عليه بأبناء جنسه وما لم يكن هذا التعاون فلا يحصل له قوت ولا غذاء ولا تتم حياته لما ركب الله تعالى عليه من الحاجة الى الغذاء في حياته لا يحصل له أيضاً دفاع عن نفسه لفقدان السلاح فيكون فريسة للحيوانات ويعاجله الهلاك عن مدي حياته يظل نوع البشر وإذا كان التعاون حصل له القوة للغذاء والسلاح للمدافعة وتمت حكمة الله في بقائه وحفظ نوعه فاذن هذا الاجتماع ضروري للنوع الانساني والام يكمل وجودهم وما أراد الله من اعتبار عالمهم واستخلافه اياهم وهذا هو معنى العمران الذي جعلناه موضوعاً لهذا العلم وفي هذا الكلام نوع اثبات للموضوع في فنه الذي هو موضوع له وهذا وان لم يكن واجبا على صاحب الفن لما تقرر في الصناعة المنطقية أنه ليس على صاحب علم اثبات الموضوع في ذلك العلم فليس أيضاً من المنوعات عندهم فيكون اثباته من التبرعات والله الموفق بفضلته ثم ان هذا الاجتماع اذا حصل للبشر كما قررناه وتم عمران العالم بهم فلا بد من وازع يدفع بعضهم عن بعض لما في طباعهم الحيوانية من العدوان والظلم وليست آلة السلاح التي جعلت دافعة لعدوان الحيوانات العجم عنهم كافية في دفع العدوان عنهم لأنهم موجودون لجميعهم فلا بد من شيء آخر يدفع عدوان بعضهم عن بعض ولا يكون من غيرهم لقصور جميع الحيوانات عن مداركهم والهاماتهم فيكون ذلك الوازع واحداً منهم يكون له عليهم الغلبة والسلطان واليد القاهرة حتى لا يصل أحد الى غيره بعدوان وهذا هو معنى الملك وقد تبين لك بهذا أنه خاصة للانسان طبيعية ولا بد لهم منها وقديو جد في بعض الحيوانات العجم على ما ذكره الحكماء كافي النحل والجراد لما استقرى فيها من الحكم والقيادة والاتباع لرئيس من أشخاصها متميز عنهم في خلقه وجمانه إلا أن ذلك موجود لغير الانسان بمقتضى الفطرة والهداية لا بمقتضى الفكرة والسياسة أعطى كل شيء خلقه ثم هدى وتزيد الفلاسفة على هذا البرهان حيث يحاولون

اثبات النبوة بالدليل العقلي وأنها خاصة بطبيعة للانسان فيقرررون هذا البرهان الى غايته وأنه لا بد للبشر من الحكم الوازع ثم يقولون بعد ذلك وذلك الحكم يكون بشرع مفروض من عند الله يأتي به واحد من البشر وأنه لا بد أن يكون متميزاً عنهم بما يودع الله فيه من خواص هدايته ليقع التليم له والقبول منه حتى يتم الحكم فيهم وعليهم من غير انكار ولا تزييف وهذه القضية للحكماء غير برهانية كما تراه اذ الوجود وحياة البشر قد تم من دون ذلك بما يفرضه الحاكم لنفسه أو بالعصية التي يقتدر بها على قهرهم وحملهم على جادته فأهل الكتاب والمتبعون للانبياء قليلون بالنسبة الى الجوس الذين ليس لهم كتاب فانهم أكثر أهل العالم ومع ذلك فقد كانت لهم الدول والآثار فضلاً عن الحياة وكذلك هي لهم لهذا العهد في الاقاليم المنحرفة في الشمال والجنوب بخلاف حياة البشر فوضي دون وازع لهم البتة فانه يتمتع وبهذا يتبين لك غلطهم في وجوب النبوات وأنه ليس بعقلي وانما مدركه الشرع كما هو مذهب السلف من الأئمة والله ولى التوفيق والهداية

### ﴿ المقدمة الثانية ﴾

( في قسط العمران من الارض والاشارة الى بعض مافيه من الاشجار والانهار والاقاليم )  
 ( اعلم ) أنه قد تبين في كتب الحكماء الناظرين في أحوال العالم أن شكل الأرض كرى وأنها محفوفة بعنبر الماء كأنها عنبية طافية عليه فانحسر الماء عن بعض جوانبها لما أراد الله من تكوين الحيوانات فيها وعمرانها بالنوع البشرى الذى له الخلافة على سائرها وقد يتوهم من ذلك أن الماء تحت الأرض وليس بصحيح وانما تحت الطبيعى قلب الأرض ووسط كرتها الذى هو مركزها والكل يطلبه بما فيه من الثقل وما عدا ذلك من جوانبها وأما الماء المحيط بها فهو فوق الأرض وان قيل في شئ منها انه تحت الأرض فبالاضافة الى جهة أخرى منه وأما الذى انحسر عنه الماء من الأرض فهو النصف من سطح كرتها في شكل دائرة أحاط العنصر المائى بها من جميع جهاتها بحر يسمى البحر المحيط ويسمى أيضاً بالبلايه بتفخيم اللام الثانية ويسمى أوقيانوس أسماء أعجمية ويقال له البحر الأخضر والأسود ثم ان هذا المنكشف من الأرض للعمران فيه القفار والخلاء أكثر من عمرانه والخالى من جهة الجنوب منه أكثر من جهة الشمال وانما المعمور منه قطعة أميل الى الجانب الشمالى على شكل مسطح كرى ينتهى من جهة الجنوب الى خط الاستواء ومن جهة الشمال الى خط كرى ووراءه الجبال الفاصلة بينه وبين الماء العنصرى الذى بينهما سدياً جوج وما جوج وهذه الجبال مائلة الى جهة المشرق وينتهي من المشرق والغرب الى عنصر الماء أيضاً بقطعتين من الدائرة المحيطة وهذا المنكشف من الأرض قالوا هو مقدار النصف من الكرة أو أقل والمعمور منه مقدار ربعه وهو المنقسم بالاقاليم السبعة وخط الاستواء يقسم الأرض بنصفين من المغرب الى المشرق وهو طول الأرض وأكبر خط في كرتها كما أن منطقة فلك البروج ودائرة معدل النهار أكبر خط في الفلك ومنطقة البروج منقسمة بثلاثمائة وستين درجة والدرجة من مسافة الأرض خمسة وعشرون فرسخاً والفرسخ اثنا عشر ألف ذراع في ثلاثة أميال لان الميل أربعة آلاف ذراع والذراع أربعة وعشرون أصبعاً والأصبع ست جبات شعير



صفوفة ملصق بعضها الى بعض ظهرا البطن وبين دائرة معدل النهار التي تقسم الفلك بنصفين وتسامت خط الاستواء من الأرض وبين كل واحد من القطبين تسعون درجة لكن العارة في الجهة الشمالية من خط الاستواء أربع وستون درجة والباقي منها خلاء لا عمارة فيه لشدة البرد والجود كما كانت الجهة الجنوبية خلاء كلها لشدة الحر كما بين ذلك كله ان شاء الله تعالى ثم ان المخبرين عن هذا المعمور وحدوده ما فيه من الأمصار والمدن والجبال والبحار والأنهار والقفار والرمال مثل بطليموس في كتاب الجغرافيا وصاحب كتاب زجاري من بعده قسموا هذا المعمور بسبعة أقسام يسمونها الأقاليم السبعة بحدود هامة بين المشرق والمغرب متساوية في العرض مختلفة في الطول فالأقاليم الأولى أطول مما بعده وكذا الثانية الى آخرها فيكون السابغ أقصر ما اقتضاه وضع الدائرة الناشئة من انحسار الماء عن كرة الأرض وكل واحد من هذه الأقاليم عندهم منقسم بعشرة أجزاء من المغرب الى المشرق على التوالي وفي كل جزء الخبر عن حواله وأحوال عمرانه (وذكروا) أن هذا البحر المحيط يخرج منه من في جهة المغرب في الأقاليم الرابع بحر الرومي المعروف يبدأ في خليج متضايق في عرض اثني عشر ميلاً أو نحوها ما بين طنجة وطريف يسمى الزقاق ثم يذهب مشرقاً وينفسح الى عرض ستائة ميل ونهايته في آخر الجزء الرابع من الأقاليم أربع على ألف فرسخ ومائة وستين فرسخاً من مبدئه وعليه هنالك سواحل الشام وعليه من جهة الجنوب سواحل المغرب وأوطان طنجة عند الخليج ثم أفريقيا ثم برقة الى الاسكندرية ومن جهة الشمال سواحل فلسطينية عند الخليج ثم البنادقة ثم رومة ثم الافرنجة ثم الأندلس الى طريف عند الزقاق قبالة طنجة يسمى هذا البحر الرومي والشامي وفيه جزر كثيرة عامرة كبار مثل أقريطش وقرص وصقلية ميروقة وسردانية ودانية (قالوا) ويخرج منه في جهة الشمال بحر آخر ان من خليجين أحدهما مسامت فلسطينية يبدأ من هذا البحر متضايقا في عرض رمية السهم ويمر ثلاثة بحار فيتصل بالقسطنطينية ثم نفسح في عرض أربعة أميال ويمر في جريه ستين ميلاً ويسمى خليج القسطنطينية ثم يخرج من فوهة رضها ستة أميال فيمد بحر نيطش وهو بحر ينحرف من هنالك في مذهبه الى ناحية الشرق فيمر بأرض ريقلية وينتهي الى بلاد الحزرية على ألف وثلاثمائة ميل من فوهته وعليه من الجانبين أم من الروم والترك وبرجان والروس والبحر الثاني من خليجي هذا البحر الرومي وهو بحر البنادقة يخرج من بلاد الروم على سمت الشمال فاذا انتهى الى سمت الجبل انحرف في سمت المغرب الى بلاد البنادقة وينتهي الى بلاد انكلاية على ألف ومائة ميل من مبدئه وعلى حافته من البنادقة والروم وغيرهم أم ويسمى خليج البنادقة (قالوا) وينساح من هذا البحر المحيط أيضاً من الشرق على ثلاث عشرة درجة في الشمال من خط الاستواء بحر عظيم متسع يمر الى الجنوب قليلاً حتى ينتهي الى الأقاليم الأولى ثم يمر فيه مغرباً الى أن ينتهي في الجزء الخامس منه الى بلاد الحبشة والزنج والى بلاد باب المندب منه على أربعة آلاف فرسخ وخمسمائة فرسخ من مبدئه ويسمى البحر الصيني والهندي والحشي وعليه من جهة الجنوب بلاد الزنج وبلاد بربر التي ذكرها امرؤ

القيس في شعره وليسوا من البربر الذين هم قبائل المغرب ثم بلهم قد شوثم بلد سفالة وأرض الواق وواق وأم  
أخر ليس بعدهم إلا القفار والحلاء وعليه من جهة الشمال الصين من عنده مبدئه ثم الهند ثم السند ثم سواحل  
اليمن من الاحقاف وزيد وغير هاتم بلاد الزنج عند نهايته وبعدهم الحبشة (قالوا) ويخرج من هذا البحر  
الحبشي بحر آخران (أحدهما) يخرج من نهايته عند باب المندب فيبدأ متضيقا ثم يمر مستبحرا إلى ناحية  
الشمال ومغرا قليلا إلى أن ينتهي إلى مدينة القلزم في الجزء الخامس من الاقليم الثاني على ألف وأربعمائة ميل  
من مبدئه ويسمى بحر القلزم وبحر السويس وبينه وبين فسطاط مصر من هنالك ثلاث مراحل وعليه  
من جهة الشرق سواحل اليمن ثم الحجاز وجدة ثم مدين وأيلة وفاران عند نهايته ومن جهة الغرب  
سواحل الصعيد وعيذاب وسواكن وزيلع ثم بلاد الحبشة عند مبدئه وآخره عند القلزم يسامت البحر  
الرومي عند العريش وبينهما نحو ست مراحل وما زال الملوك في الاسلام وقبله يرومون خرق ما بينهما وما  
يتم ذلك (والبحر الثاني) من هذا البحر الحبشي ويسمى الخليج الأخضر يخرج ما بين بلاد السند  
والاحقاف من اليمن ويمر إلى ناحية الشمال مغرا قليلا إلى أن ينتهي إلى الأبله من سواحل البصرة في الجزء  
السادس من الاقليم الثاني على أربعمائة فرسخ وأربعين فرسخا من مبدئه ويسمى بحر فارس وعليه من  
جهة الشرق سواحل السند ومكران وكرمان وفارس والابله عند نهايته ومن جهة الغرب سواحل  
البحرين واليمامة وعمان والشحر والأحقاف عند مبدئه وفيما بين بحر فارس والقلزم جزيرة العرب كأنها  
دخلت من البر في البحر تحيط بها البحر الحبشي من الجنوب وبحر القلزم من الغرب وبحر فارس من الشرق  
وتفضى إلى العراق فيما بين الشام والبصرة على ألف وخمسمائة ميل بينهما وهنالك الكوفة والقادسية  
وبغداد وایوان كسري والخيرة ووراء ذلك أمم الأعاجم من ترك والخزر وغيرهم وفي جزيرة العرب بلاد  
الحجاز في جهة الغرب منها وبلاد اليمامة والبحرين وعمان في جهة الشرق منها وبلاد اليمن في جهة الجنوب  
منها وسواحلها على البحر الحبشي (قالوا) وفي هذا المعمور بحر آخر منقطع من سائر البحار في ناحية الشمال  
بأرض الديلم يسمى بحر جرجان وطبرستان طول ألف ميل في عرض ستمائة ميل في غربيه أذربيجان  
والديلم وفي شرقيه أرض الترك وخوارزم وفي جنوبيه طبرستان وفي شماليه أرض الخزر واللات (هذه)  
جملة البحار المشهورة التي ذكرها أهل الجغرافيا قالوا وفي هذا الجزء المعمور أنهار كثيرة أعظمها أربعة  
أنهار وهي النيل والفرات ودجلة ونهر بلخ المسمى جيحون (فأما النيل) فمبدؤه من جبل عظيم وراء خط  
الاستواء بست عشرة درجة على سمت الجزء الرابع من الاقليم الاول ويسمى جبل القمر ولا يعلم في  
الأرض جبل أعلى منه تخرج منه عيون كثيرة فيصب بعضها في بحيرة هناك وبعضها في أخرى ثم تخرج  
أنهار من البحيرتين فتصب كلها في بحيرة واحدة عند خط الاستواء على عشر مراحل من الجبل ويخرج  
من هذه البحيرة نهران يذهب أحدهما إلى ناحية الشمال على سمتة ويمر ببلاد النوبة ثم ببلاد مصر فإذا  
جاوزها تشعب في شعب متقاربة يسمى كل واحد منها خليجا وتصب كلها في البحر الرومي عند  
الاسكندرية ويسمى نيل مصر وعليه الصعيد من شرقيه والواحات من غربيه ويذهب الآخر منعظا



الى المغرب ثم يمر على ستمته الى أن يصب في البحر المحيط وهو نهر السودان وأهمهم كلهم على ضفتيه ( وأما الفرات ) فبدأه من بلاد أرمينية في الجزء السادس من الاقليم الخامس ويمر جنوباً في أرض الروم وملطية الى منبج ثم يمر بصفين ثم بالركة ثم بالكوفة الى أن ينتهي الى البطحاء التي بين البصرة واسطو ومن هناك يصب في البحر الحبشي وتنجلب اليه في طريقه أنهار كثيرة ويخرج منه أنهار أخرى تصب في دجلة ( وأما دجلة ) فبدأها عين بلاد خلاط من أرمينية أيضاً وتمر على سمت الجنوب بالموصل وأذربيجان وبغداد الى واسط فتتفرق الى خلجان كلها تصب في بحيرة البصرة وتفضي الى بحر فارس وهو في الشرق على يمين الفرات وينجلب اليه أنهار كثيرة عظيمة من كل جانب وفيما بين الفرات ودجلة من أوله جزيرة الموصل قبالة الشام من عدوتى الفرات وقبالة أذربيجان من عدوة دجلة ( وأما نهر جيحون ) فبدأه من بلخ في الجزء الثامن من الاقليم الثالث من عيون هناك كثيرة وتنجلب اليه أنهار عظام ويذهب من الجنوب الى الشمال فيمر ببلاد خراسان ثم يخرج منها الى بلاد خوارزم في الجزء الثامن من الاقليم الخامس فيصب في بحيرة الجرجانية التي أسفل مدينتها وهي مسيرة شهر في مشله واليه ينصب نهر فرغانة والشاش الآتي من بلاد الترك وعلى غربي نهر جيحون بلاد خراسان وخوارزم وعلى شرقيه بلاد بخاري وترمدوسمرقند ومن هنالك الى ماوراء بلاد الترك وفرغانة والخزلية وأم الأعاجم وقد ذكر ذلك كله بطليموس في كتابه والتريف في كتاب زجار وصور وفي الجغرافيا جميع ما في المعمور من الجبال والبحار والأودية واستوفوا من ذلك ما لا حاجة لنا به لطوله ولأن عنايتنا في الأء أكثر انماهي بالمغرب الذي هو وطن البربر وبالأوطان التي للعرب من المشرق والله الموفق

﴿ تكملة لهذه المقدمة الثانية في أن الربع الشمالي من الأرض أكثر عمرانا ﴾

من الربع الجنوبي وذكر السبب في ذلك ﴿

ونحن نري بالمشاهدة والاحبار المتواترة أن الأول والثاني من الاقليم المعمورة أقل عمرا من الباقيين وما وجد من عمرانه في تخلله الخلاء والقفار والرمال والبحر الهندي الذي في الشرق منهما وأم هذين الاقليمين وأناسيها ليست لهم الكثرة البالغة وأمصاره ومدنه كذلك والثالث والرابع وما بعدهما بخلاف ذلك فالقفار فيها قليلة والرمال كذلك أو معدومة وأمها وأناسيها تجوز الحد من الكثرة وأمصارها ومدنها تجاوز الحد عدداً والعمران فيها مندرج ما بين الثالث والسادس والجنوب خلاء كله وقد ذكر كثير من الحكماء أن ذلك لافراط الحر وقلة ميل الشمس فيها عن سمت الرءوس فلنوضح ذلك يرهانه ويتبين منه سبب كثرة العمارة فيما بين الثالث والرابع من جانب الشمال الى الخامس والسابع ( فنقول ) ان قطبي الفلك الجنوبي والشمالي اذا كانا على الأفق فهناك دائرة عظيمة تقسم الفلك بنصفين هي أعظم الدوائر المارة من المشرق الى المغرب وتسمى دائرة معدل النهار وقد تبين في موضعه من الهيئته أن الفلك الأعلى متحرك من المشرق الى المغرب حركة يومية يحرك بها سائر الافلاك التي في جوفه قهراً وهذه الحركة محسوسة وكذلك تبين أن للكواكب في أفلاكها حركة مخالفة لهذه الحركة وهي من المغرب الى المشرق ويختلف مؤداها

باختلاف حركة الكواكب في السرعة والبطء وممرات هذه الكواكب في أفلاكها توازيها كلها دائرة  
 عظيمة من الفلك الأعلى تقسمه بنصفين وهي دائرة فلك البروج منقسمة باثني عشر برجاً وهي على ما تبين  
 في موضعه مقاطعة لدائرة معدل النهار على نقطتين متقابلتين من البروج هما أول الحمل وأول الميزان فتقسمها  
 دائرة معدل النهار بنصفين نصف مائل عن معدل النهار إلى الشمال وهو من أول الحمل إلى آخر السنبلة  
 ونصف مائل عنه إلى الجنوب وهو من أول الميزان إلى آخر الحوت وإذا وقع القطبان على الأفق في جميع  
 نواحي الأرض كان على سطح الأرض خط واحد يسمت دائرة معدل النهار يمر من المغرب إلى المشرق  
 ويسمى خط الاستواء ووقع هذا الخط بالصد على ما زعموا في مبدأ الأقليم الأول من الأقاليم السبعة  
 والعمران كله في الجهة الشمالية عنه والقطب الشمالي يرتفع عن آفاق هذا المعمور بالتدريج إلى أن  
 ينتهي ارتفاعه إلى أربع وستين درجة وهناك ينقطع العمران وهو آخر الأقليم السابع \* وإذا  
 ارتفع على الأفق تسعين درجة وهي التي بين القطب ودائرة معدل النهار صار القطب على سمت الرءوس  
 وصارت دائرة معدل النهار على الأفق وبقيت ستة من البروج فوق الأفق وهي الشمالية وستة تحت  
 الأفق وهي الجنوبية والعمارة فيما بين الأربعة والستين إلى التسعين ممتعة لأن الحر والبرد حينئذ  
 لا يحصلان ممتزجين لبعده الزمان بينهما فلا يحصل التكوين فإذا الشمس تسامت الرءوس على خط  
 الاستواء في رأس الحمل والميزان ثم تميل عن المسامطة إلى رأس السرطان ورأس الجدي ويكون  
 نهاية ميلها عن دائرة معدل النهار أربعاً وعشرين درجة ثم إذا ارتفع القطب الشمالي عن الأفق مالت  
 دائرة معدل النهار عن سمت الرءوس بمقدار ارتفاعه وانخفض القطب الجنوبي كذلك بمقدار متساو  
 في الثلاثة وهو المسمى عند أهل المواقيت عرض البلد وإذا مالت دائرة معدل النهار عن سمت الرءوس  
 علت عليها البروج الشمالية مندرجة في مقدار علوها إلى رأس السرطان وانخفضت البروج الجنوبية  
 من الأفق كذلك إلى رأس الجدي لانحرافها إلى الجانبين في أفق الاستواء كما قلناه فلا يزال الأفق الشمالي  
 يرتفع حتى يصير أبعد الشمالية وهو رأس السرطان في سمت الرءوس وذلك حيث يكون عرض البلد أربعاً  
 وعشرين في الحجاز وما يليه وهذا هو الميل الذي إذا مال رأس السرطان عن معدل النهار في أفق الاستواء  
 ارتفع بارتفاع القطب الشمالي حتى صار مسامتاً فإذا ارتفع القطب أكثر من أربع وعشرين نزلت الشمس  
 عن المسامطة ولا تزال في انخفاض إلى أن يكون ارتفاع القطب أربعاً وستين ويكون انخفاض الشمس  
 عن المسامطة كذلك وانخفاض القطب الجنوبي عن الأفق مثلها فينقطع التكوين لافراط البرد والجهد  
 وطول زمانه غير ممتزج بالحر ثم إن الشمس عند المسامطة وما يقاربها تبعث الأشعة على الأرض على زوايا  
 قائمة وفيما دون المسامطة على زوايا منفرجة وحادة وإذا كانت زوايا الأشعة قائمة عظم الضوء وانتشر  
 بخلافه في المنفرجة والحادة فلماذا يكون الحر عند المسامطة وما يقرب منها أكثر منه فيما بعد لأن الضوء  
 سبب الحر والتسخين \* ثم إن المسامطة في خط الاستواء تكون مرتين في السنة عند تقاطع الحمل  
 والميزان وإذا مالت فغير بعيد ولا يكاد الحر يعتدل في آخر ميلها عند رأس السرطان والجدي الا وقد  
 صعدت إلى المسامطة فتبقى الأشعة القائمة الزوايا تلح على ذلك الأفق ويطول مكثها أو يدوم فيشتعل الهواء



حرارة ويفرط في شدتها وكذا مادامت الشمس تسامت مرتين فيما بعد خط الاستواء الى عرض أربعة وعشرين فإن الأشعة ملحة على الأفق في ذلك بقرب من الحاحها في خط الاستواء وافراط الحر يفعل في الهواء تجفيفا ويساعد على التكوين لانه اذا أفرط الحرجفت المياه والرطوبات وفسد التكوين في المعدن والحيوان والنبات اذا التكوين لا يكون الا بالرطوبة ثم اذا مال رأس السرطان عن سمت الرءوس في عرض خمسة وعشرين فما بعده نزلت الشمس عن المسامته فيصير الحر الى الاعتدال أو يميل عنه ميلا قليلا فيكون التكوين ويتزايد على التدرج الى أن يفرط البرد في شدته لقلة الضوء وكون الأشعة منفرجة الزوايا فينقص التكوين ويفسد الا أن فساد التكوين من جهة شدة الحر أعظم منه من جهة شدة البرد لأن الحر أسرع تأثيرا في التجفيف من تأثير البرد في الجماد فذلك كان العمران في الاقليم الأول والثاني قليلا وفي الثالث والرابع والخامس متوسطا لاعتدال الحر بنقصان الضوء وفي السادس والسابع كثيرا لنقصان الحر وان كيفية البرد لا تؤثر عند أولها في فساد التكوين كما يفعل الحر اذا لا تجفيف فيها الا عند الافراط بما يعرض لها حينئذ من اليبس كما بعد السابع فلهذا كان العمران في الربع الشمالي أكثر وأوفر والله أعلم \* ومن هنا أخذ الحكماء خلاء خط الاستواء وما وراءه وأورد عليهم أنه معمور بالمشاهدة والأخبار المتواترة فكيف يتم البرهان على ذلك والظاهر أنهم لم يريدوا امتناع العمران فيه بالكلية إنما أدام البرهان الى أن فساد التكوين فيه قوى بافراط الحر والعمران فيه اما ممتنع أو يمكن أقلى وهو كذلك فان خط الاستواء والذي وراءه وان كان فيه عمران كما نقل فهو قليل جدا \* وقد زعم ابن رشد أن خط الاستواء معتدل وأن ما وراءه في الجنوب بمثابة ما وراءه في الشمال فيعمر منه ما عمر من هذا والذي قاله غير ممتنع من جهة فساد التكوين وانما امتنع فيما وراء خط الاستواء في الجنوب من جهة أن العنصر المائي غمر وجه الأرض هنالك الى الحد الذي كان مقابله من الجهة الشمالية قابلا للتكوين ولما امتنع المعتدل لغلبة الماء تبعه ما سواه لأن العمران متدرج جوا يأخذ في التدرج من جهة الوجود لا من جهة الامتناع وأما القول بامتناعه في خط الاستواء فيرده النقل المتواتر والله أعلم \* ولرسم بعد هذا الكلام صورة الجغرافيا كما رسمها صاحب كتاب زجارج ثم تأخذه في تفصيل الكلام عليها الخ

### \* تفصيل الكلام على هذه الجغرافيا \*

اعلم أن الحكماء قسموا هذا المعمور كما تقدم ذكره على سبعة أقسام من الشمال الى الجنوب يسمون كل قسم منها اقليما فانقسم المعمور من الأرض كله على هذه السبعة الأقاليم كل واحد منها آخذ من الغرب الى الشرق على طوله \* فالأول منها ما من الغرب الى الشرق مع خط الاستواء بحده من جهة الجنوب وليس وراءه هنالك الا القفار والرمال وبعض عمارة ان صحت فهي كلاعمارة ويليه من جهة شماليه الاقليم الثاني ثم الثالث كذلك ثم الرابع والخامس والسادس والسابع وهو آخر العمران من جهة الشمال وليس وراء السابع الا الخلاء والقفار الى أن ينتهي الى البحر المحيط كالحال فيما وراء الاقليم الأول في جهة

الجنوب الا أن الحلاء في جهة الشمال أقل بكثير من الحلاء الذي في جهة الجنوب ثم ان أزمنة الليل والنهار تتفاوت في هذه الأقاليم بسبب ميل الشمس عن دائرة معدل النهار وارتفاع القطب الشمالي عن آفاقها فيتفاوت قوس النهار والليل لذلك وينتهي طول الليل والنهار في آخر الاقليم الأول وذلك عند حلول الشمس برأس الجدى ليل وبرأس السرطان للنهار كل واحد منهما الى ثلاث عشرة ساعة وكذلك في آخر الاقليم الثاني مما يلي الشمال فينتهي طول النهار فيه عند حلول الشمس برأس السرطان وهو منقلبها الصيفي الى ثلاث عشرة ساعة ونصف ساعة ومثله أطول الليل عند منقلبها الشتوي برأس الجدى ويبقى للاقصر من الليل والنهار ما يبقى بعد الثلاث عشرة ونصف من جملة أربع وعشرين الساعات الزمانية لمجموع الليل والنهار وهو دورة الفلك الكاملة وكذلك في آخر الاقليم الثالث مما يلي الشمال أيضا ينتهيان الى أربع عشرة ساعة وفي آخر الرابع الى أربع عشرة ساعة ونصف ساعة وفي آخر الخامس الى خمس عشرة ساعة وفي آخر السادس الى خمس عشرة ساعة ونصف وفي آخر السابع الى ست عشرة ساعة وهناك ينقطع العمران فيكون تفاوت هذه الأقاليم في الأطول من ليلا ونهارها بنصف ساعة لكل إقليم يتزايد من أوله في ناحية الجنوب الى آخره في ناحية الشمال موزعة على أجزاء هذا البعد \* وأما عرض البلدان في هذه الأقاليم فهو عبارة عن بعد ما بين سمت رأس البلد ودائرة معدل النهار الذي هو سمت رأس خط الاستواء وبمثله سواء ينخفض القطب الجنوبي عن أفق ذلك البلد ويرتفع القطب الشمالي عنه وهو ثلاثة أبعاد متساوية تسمى عرض البلد كما مر ذلك قبل \* والمتكلمون على هذه الجغرافيا قسموا كل واحد من هذه الأقاليم السبعة في طوله من المغرب الى المشرق بعشرة أجزاء متساوية ويذكرون ما شتمل عليه كل جزء منها من البلدان والأصهار والجبال والأنهار والمسافات بينها في المسالك ونحن الآن نوجز القول في ذلك ونذكر مشاهير البلدان والأنهار والبحار في كل جزء منها ونأخذ بذلك ما وقع في كتاب نزهة المشتاق الذي ألفه العلوي الادريسي الحموي الملك صقلية من الأفرنج وهو زجارج بن زجارج عندما كان نازلا عليه بصقلية بعد خروج صقلية من إمارة مالقة وكان تأليفه للكتاب في منتصف المائة السادسة وجمع له كتب جملة للمسعودي وابن خرداذبة والحوافلي والقنبري وابن اسحاق المنجم وبطليموس وغيرهم ونبدأ منها بالاقليم الأول الى آخرها والله سبحانه وتعالى يعصمنا عنه وفضله \* الاقليم الأول \* وفيه من جهة غربيه الجزائر الخالدات التي منها بدأ بطليموس يأخذ أطوال البلاد وليست في بسيط الاقليم وانما هي في البحر المحيط جزر متكررة أكبرها وأشهرها ثلاثة ويقال انها معمورة وقد بلغنا أن سفائن من الأفرنج مرت بها في أواسط هذه المائة وقتلوا منهم فغنموا منهم وسبوا وباعوا بعض أسرارهم بسواحل المغرب الأقصى وصاروا الى خدمة السلطان فلما تعلموا اللسان العربي أخبروا عن حال جزائرها وأنهم يحتفرون الأرض للزراعة بالقرون وأن الحديد مفقود بأرضهم وعيشهم من الشعير وما شيتهم المعز وقتلهم بالحجارة يرمونها الى خلف وعبادتهم السجود للشمس اذا طلعت ولا يعرفون ديننا ولم تبلغهم دعوة ولا يوقف على مكان هذه الجزائر الا بالعثور لا بالقصد اليها لان سفر السفن في البحار اتمامها هو بالرياح ومعرفة جهات



هبابها والى أين يوصل اذا مرت على الاستقامة من البلاد التي في بحر ذلك المهب واذا اختلف المهب وعلم حيث  
 وصل على الاستقامة حوذى به القلع محاذة يحمل السفينة بها على قوانين في ذلك محصلة عند النواتية  
 والملاحين الذين هم رؤساء السفن في البحر والبلاد التي في حفا في البحر الرومي وفي عدوته مكتوبة كلها  
 في صحيفة على شكل ماهي عليه في الوجود وفي وضعها في سواحل البحر على ترتيبها ومهاب الرياح وممراتها على  
 اختلافها مرسوم معها في تلك الصحيفة ويسمون الكنباص وعليها يعتمدون في أسفارهم وهذا كله  
 مفقود في البحر المحيط فذلك لا تلجج فيه السفن لانها ان غابت عن مرأى السواحل فقل أن تهتدى الى  
 الرجوع اليها مع ما ينعقد في جو هذا البحر وعلى سطح مائه من الايخرة الممانعة للسفن في مسيرها وهي  
 بعدها لا تدر كها أضواء الشمس المنعكسة من سطح الأرض فتحلبها فذلك عسر الاهتداء اليها وصعب  
 لوقوف على خبرها وأما الجزء الأول من هذا الاقليم ففيه مصب النيل الآتي من مبدئه عند جبل القمر كما  
 كرهناه ويسمى نيل السودان ويذهب الى البحر المحيط فيصب فيه عند جزيرة أوليك وعلى هذا النيل  
 مدينة سلاو وتكرور وغانة وكلها لهذا العهد في مملكة ملك مالى من أم السودان والى بلادهم تسافر تجار  
 المغرب الأقصى وبالقرب منها من شمالها بلاد لتونة وسائر طوائف الملثمين ومفاوز يحولون فيها وفي  
 جنوبي هذا النيل قوم من السودان يقال لهم لملم وهم كفار ويكتوون في وجوههم وأصداعهم وأهل غانة  
 التكرور يغيرون عليهم ويسبونهم وينعونهم للتجارة فيجلبونهم الى المغرب وكلهم عامة رقيقهم وليس  
 وراءهم في الجنوب عمران يعتبر الا أناسي أقرب الى الحيوان العجم من الناطق يسكنون الفياقي  
 الكهوف ويأكلون العشب والجوب غير مياة وريما يأكل بعضهم بعضا وليسوا في عداد البشر  
 وفواكه بلاد السودان كلها من قصور صحراء المغرب مثل توات وتكدرارين ووركلان فكان في  
 مائة فيما يقال ملك ردولة القوم من العلويين يعرفون ببني صالح وقال صاحب كتاب زجاريه انه صالح بن عبد الله  
 بن حسن بن الحسن ولا يعرف صالح هذا في ولد عبد الله بن حسن وقد ذهبت هذه الدولة لهذا العهد وصارت  
 مائة لسلطان مالى وفي شرق هذا البلد في الجزء الثالث من هذا الاقليم بلد كوكو على نهر ينبع من بعض  
 الجبال هنالك ويمر مغربا فيغوص في رمال الجزء الثاني وكان ملك كوكو قوما بنفسه ثم استولى عليها سلطان  
 مالى وأصبحت في مملكته وخربت لهذا العهد من أجل فتنة وقعت هناك نذرها عند ذكردولة مالى في  
 علمها من تاريخ البربر وفي جنوبي بلد كوكو بلاد كاتم من أم السودان وبعدهم ونغارة على ضفة النيل من  
 شماليه وفي شرق بلاد ونغارة وكاتم بلاد زغاوة وتاجرة المتصلة بأرض النوبة في الجزء الرابع من هذا الاقليم  
 وفيه يمر نيل مصر ذاهبا من مبدئه عند خط الاستواء الى البحر الرومي في الشمال ومخرج هذا النيل من  
 جبل القمر الذي فوق خط الاستواء بست عشرة درجة واختلفوا في ضبط هذه اللفظة فضببطها بعضهم  
 بفتح القاف والميم نسبة الى قمر السماء لشدة بياضه وكثرة ضوئه وفي كتاب المشترك لياقوت بضم القاف  
 وسكون الميم نسبة الى قوم من أهل الهند وكذا ضبطه ابن سعيد فيخرج من هذا الجبل عشرين تجمع  
 كل خمسة منها في بحيرة وبينهما ستة أميال ويخرج من كل واحدة من البحيرتين ثلاثة أنهار تجتمع كلها

في بطيحة واحدة في أسفلها جبل معترض يشق البحيرة من ناحية الشمال وينقسم ماؤها بقسمين فيمر  
 الغربي منه الى بلاد السودان مغربا حتى يصب في البحر المحيط ويخرج الشرق منه ذاهبا الى الشمال على بلاد  
 الحبشة والنوبة وفيما بينهما وينقسم في أعلى أرض مصر فيصب ثلاثة من جداوله في البحر الرومي عند  
 الاسكندرية ورشيد ودمياط ويصب واحد في بحيرة ملحقة قبل أن يتصل بالبحر في وسط هذا الاقليم  
 الأول وعلى هذا النيل بلاد النوبة والحبشة وبعض بلاد الواحات الى أسوان وحاضرة بلاد النوبة مدينة  
 دنقلة وهي في غربي هذا النيل وبعدها علوة وبلق وبعدهما جبل الجنادل على ستة مراحل من بلق في  
 الشمال وهو جبل عال من جهة مصر ومنخفض من جهة النوبة فينفذ فيه النيل ويصب في مهوى بعيد ص  
 مهولا فلا يمكن أن تسلكه المراكب بل يحول الوسق من مراكب السودان فيحمل على الظهر الى بلد  
 أسوان قاعدة الصعيد وكذا وسق مراكب الصعيد الى فوق الجنادل وبين الجنادل وأسوان اثنتا عشرة  
 مرحلة والواحات في غربها عدوة النيل وهي الآن خراب وبها آثار العمارات القديمة وفي وسط هذا  
 الاقليم في الجزء الخامس منه بلاد الحبشة على وادي آتي من وراء خط الاستواء ذاهبا الى أرض النوبة فيصب  
 هناك في النيل الهابط الى مصر وقدوم فيه كثير من الناس وزعموا أنه من نيل القمر وبطليموس ذكره  
 في كتاب الجغرافيا وذكر أنه ليس من هذا النيل والى وسط هذا الاقليم في الجزء الخامس ينتهي بحر  
 الهند الذي يدخل من ناحية الصين ويغمر عامة هذا الاقليم الى هذا الجزء الخامس فلا يبقى فيه عمران  
 الا ما كان في الجزائر التي في داخله وهي متعددة يقال تنتهي الى ألف جزيرة أو فيما على سواحلها الجنوبية  
 وهي آخر المعمور في الجنوب أو فيما على سواحلها من جهة الشمال وليس منها في هذا الاقليم الأول الا طرف  
 من بلاد الصين في جهة الشرق وفي بلاد اليمن وفي الجزء السادس من هذا الاقليم فيما بين البحرين الهاطين  
 من هذا البحر الهندي الى جهة الشمال وهما بحر قلزم وبحر فارس وفيما بينهما جزيرة العرب وتشتمل على بلاد  
 اليمن وبلاد الشحر في شرقها على ساحل هذا البحر الهندي وعلى بلاد الحجاز واليمامة وما اليهما كما  
 ذكره في الاقليم الثاني وما بعده فأما الذي على ساحل هذا البحر من غربيه فبلدز الع من أطراف بلاد  
 الحبشة ومجالات البجة (١) في شمال الحبشة ما بين جبل العلاقي في أعالي الصعيد وبين بحر القلزم الهابط  
 من البحر الهندي وتحت بلادز الع من جهة الشمال في هذا الجزء خليج باب المندب يضيق البحر الهابط  
 هنالك بمزاحمة جبل المندب المائل في وسط البحر الهندي تمتد مع ساحل اليمن من الجنوب الى الشمال في  
 طول اثني عشر ميلا فيضيق البحر بسبب ذلك الى أن يصير في عرض ثلاثة أميال أو نحوها ويسمى باب  
 المندب وعليه تمر مراكب اليمن الى ساحل السويس قريبا من مصر وتحت باب المندب جزيرة سواكن  
 ودهلك وبقاياته من غربيه مجالات البجة من أم السودان كما ذكرناه ومن شرقيه في هذا الجزء تهائم  
 اليمن ومنها على ساحلها بلد علي بن يعقوب وفي جهة الجنوب من بلدز الع وعلى ساحل هذا البحر من غربيه  
 قرى بربر يتلو بعضها بعضا وينعطف مع جنوبيه الى آخر الجزء السادس ويلها هنالك من جهة شرقيها

(١) قوله البجة بضم الباء وفتح الجيم ويقال أيضا البجة وأما زالع فهي زيلع اه



بلاد الزنج ثم بلاد سفالة على ساحله الجنوبي في الجزء السابع من هذا الاقليم وفي شرق بلاد سفالة من ساحله الجنوبي بلاد الواق واق متصلة الى آخر الجزء العاشر من هذا الاقليم عند مدخل هذا البحر من البحر المحيط وأما جزائر هذا البحر فكثيرة من أعظمها جزيرة سرنديب مدورة الشكل وبها الجبل المشهور يقال ليس في الأرض أعلى منه وهي قبالة سفالة ثم جزيرة القمر وهي جزيرة مستطيلة تبدأ من قبالة أرض سفالة وتذهب الى الشرق منحرفة بكثير الى الشمال الى أن تقرب من سواحل أعلى الصين ويخف بها في هذا البحر من جنوبها جزائر الواق واق ومن شرقها جزائر السيلان الى جزائر أخرى في هذا البحر كثيرة العدد وفيها أنواع الطيب والأفوية وفيها يقال معادن الذهب والزمرد وعامة أهلها على دين المجوسية وفيهم ملوك متعددون وبهذه الجزائر من أحوال العمران عجائب ذكرها أهل الجغرافيا وعلى الضفة الشمالية من هذا البحر في الجزء السادس من هذا الاقليم بلاد اليمن كلها من جهة بحر القلزم بلذب يبدو المهجم وتهامة اليمن وبعدها بلد صعدة مقر الإمامة الزيدية وهي بعيدة عن البحر الجنوبي وعن البحر الشرق وفيما بعد ذلك مدينة عدن وفي شمالها صنعاء وبعدها الى الشرق أرض الأحقاف وظفار وبعدها أرض حضرموت ثم بلاد الشحر ما بين البحر الجنوبي وبحر فارس وهذه القطعة من الجزء السادس هي التي انكشف عنها البحر من أجزاء هذا الاقليم الوسطى وينكشف بعدها قليل من الجزء التاسع وأكثر منه من العاشر فيه أعلى بلاد الصين ومن مدنه الشهيرة خانكو وقبالتها من جهة الشرق جزائر السيلان وقد تقدم ذكرها وهذا آخر الكلام في الاقليم الأول والله سبحانه وتعالى ولي التوفيق بحمده وفضله

﴿ الاقليم الثاني ﴾ وهو متصل بالأول من جهة الشمال وقبالة المغرب منه في البحر المحيط جزيرتان من الجزائر الخالدات التي مر ذكرها وفي الجزء الأول والثاني منه في الجانب الأعلى منهما أرض قنورية وبعدها في جهة الشرق أعلى أرض غانة ثم مجالات زغاوة من السودان وفي الجانب الأسفل منهما صحراء نيسر متصلة من الغرب الى الشرق ذات مفاوز تسلك فيها التجار ما بين بلاد المغرب وبلاد السودان وفيها مجالات للثمين من صنهجة وهم شعوب كثيرة ما بين كزولة ولتونة ومسرانة ولمطة ووريكة وعلى سمت هذه المفاوز شرقاً أرض فزان ثم مجالات أركار من قبائل البربر ذاهبة الى أعلى الجزء الثالث على سمتها في الشرق وبعدها من هذا الجزء بلاد كوار من أم السودان ثم قطعة من أرض الباجويين وفي أسفل هذا الجزء الثالث وهي جهة الشمال منه بقية أرض ودان وعلى سمتها شرقاً أرض سنترية وتسمى الواحات الداخلة وفي الجزء الرابع من أعلاه بقية أرض الباجويين ثم يعترض في وسط هذا الجزء بلاد الصعيد حفافي النيل الذاهب من مبدئه في الاقليم الأول الى مصبه في البحر فيمر في هذا الجزء بين الجبلين الحاجزين وهما جبل الواحات من غريبه وجبل المقطم من شرقيه وعليه من أعلاه بلاد أسناوارمنت ويتصل كذلك حفافيه الى أسبوط وقوص ثم الى صول ويفترق النيل هنالك على شعبين ينتهي الايمن منهما في هذا الجزء عند اللاهون والأيسر عند دلاص وفيما بينهما أعلى ديار مصر وفي الشرق من جبل المقطم صحارى عذاب ذاهبة في الجزء الخامس الى أن تنتهي الى بحر السويس وهو بحر القلزم الهابط من البحر الهندي في الجنوب الى

جهة الشمال وفي عدوته الشرقية من هذا الجزء أرض الحجاز من جبل يللم الى بلاد يثرب وفي وسط الحجاز مكة شرفها الله وفي ساحلها مدينة جدة تقابل بلد عيذاب في العدو الغريبة من هذا البحر وفي الجزء السادس من غربيه بلاد نجد أعلاها في الجنوب وتبالة وجرش الى عكاظ من الشمال وتحت نجد من هذا الجزء بقية أرض الحجاز وعلى سمتها في الشرق بلاد نجران وخيزر وتحتها أرض اليمامة وعلى سمت نجران في الشرق أرض سبا ومأرب ثم أرض الشحر وينتهي الى بحر فارس وهو البحر الثاني الهابط من البحر الهندي الى الشمال كما مر ويذهب في هذا الجزء الى الغرب فيمر ما بين شرقيه وجوفيه قطعة مثلثة عليها من أعلاه مدينة قلهاة وهي ساحل الشحر ثم تحتها على ساحله بلاد عمان ثم بلاد البحرين وهجر منها في آخر الجزء وفي الجزء السابع في الأعلى من غربيه قطعة من بحر فارس تتصل بالقطعة الأخرى في السادس ويعمر بحر الهند جانبه الأعلى كله وعليه هنالك بلاد السند الى بلاد مكران ويقابلها بلاد الطوبران وهي من السند أيضا فيتصل السند كله في الجانب الغربي من هذا الجزء وتحول المفاوز بينه وبين أرض الهند ويمر فيه نهره الآتي من ناحية بلاد الهند ويصب في البحر الهندي في الجنوب وأول بلاد الهند على ساحل البحر الهندي وفي سمتها شرقا بلاد بلهر أو تحتها الملتان بلاد الضم المعظم عندهم ثم الى أسفل من السند ثم الى أعلى بلاد سجستان وفي الجزء الثامن من غربيه بقية بلاد بلهر من الهند وعلى سمتها شرقا بلاد القندهار ثم بلاد ملبار وفي الجانب الأعلى على ساحل البحر الهندي وتحتها في الجانب الأسفل أرض كابل وبعدها شرقا الى البحر المحيط بلاد القنوج ما بين قشмир الداخلة وقشмир الخارجة عند آخر الاقليم وفي الجزء التاسع ثم في الجانب الغربي منه بلاد الهند الأقصى ويتصل فيه الى الجانب الشرق فيتصل من أعلاه الى العاشر وتبقى في أسفل ذلك الجانب قطعة من بلاد الصين فيهما مدينة شيغون ثم تتصل بلاد الصين في الجزء العاشر كله الى البحر المحيط والله ورسوله أعلم وبه سبحانه التوفيق وهو ولي الفضل والكرم (الاقليم الثالث) هو متصل بالثاني من جهة الشمال في الجزء الأول منه وعلى نحو الثلث من أعلاه جبل درن معترض فيه من غربيه عند البحر المحيط الى الشرق عند آخره ويسكن هذا الجبل من البربر أم لا يحصيهم الا خالقهم حسبما يأتي ذكره وفي القطعة التي بين هذا الجبل والاقليم الثاني وعلى البحر المحيط منها رباط ماسة ويتصل به شرقا بلاد سوس ونول وعلى سمتها شرقا بلاد درعة ثم بلاد سجماسة ثم قطعة من صحراء نيسر المفازة التي ذكرناها في الاقليم الثاني وهذا الجبل مطل على هذه البلاد كلها في هذا الجزء وهو قليل الثنايا والمسالك في هذه الناحية الغربية الى أن يسامت وادى ملوية فتكثر ثناياه ومسالكه الى أن ينتهي وفي هذه الناحية منه أم المصامدة ثم هنتانة ثم تينملك ثم كدميوه ثم مشكورة ثم آخر المصامدة فيه ثم قبائل صنهاك وهم صنهاجة وفي آخر هذا الجزء منه بعض قبائل زناتة ويتصل به هنالك من جوفيه جبل أوراس وهو جبل كتامة وبعده ذلك أم أخرى من البرابرة نذكرهم في أماكنهم ثم ان جبل درن هذا من جهة غربيه مطل على بلاد المغرب الأقصى وهي في جوفيه في الناحية الجنوبية منها بلاد مراکش وانمات وتادلا وعلى البحر المحيط منها رباط أسني ومدينة سلا وفي الجوف عن بلاد مراکش بلاد فاس ومكناسة وتازاو قصر كتامة



هذه هي التي تسمى المغرب الأقصى في عرف أهلها وعلى ساحل البحر المحيط منها بلدان أصيلا والعرايش في سمت هذه البلاد شرقا بلاد المغرب الأوسط وقاعدتها تلمسان وفي سواحلها على البحر الرومي بلدهنين وهران والجزائر لأن هذا البحر الرومي يخرج من البحر المحيط من خليج طنجة في الناحية الغربية من الاقليم الرابع ويذهب مشرقا فينتهي الى بلاد الشام فاذا خرج من الخليج المتضائق غير بعيد انفسح جنوبا وشمالا فدخل في الاقليم الثالث والخامس فلذا كان على ساحله من هذا الاقليم الثالث الكثير من بلاده ثم يتصل ببلاد الجزائر من شرقها بلاد بجاية في ساحل البحر ثم قسطنطينة في الشرق منها وفي آخر الجزء الأول وعلى مرحلة من هذا البحر في جنوب هذه البلاد ومرتفعا الى جنوب المغرب الأوسط بلد شير ثم بلد المسيلة ثم الزاب وقاعدتها بسكرة تحت جبل أوراس المتصل بدرن كما مر وذلك عند آخر هذا الجزء من جهة الشرق والجزء الثاني من هذا الاقليم على هيئة الجزء الأول ثم جبل درن على نحو الثلث من جنوبه ذاهبا فيه من غرب الى شرق فيقسمه بقطعتين ويغمر البحر الرومي مسافة من شماله فإلحقة لجنوبية عن جبل درن غربيها كله مفاوز وفي الشرق منها بلد غدامس وفي سمتها شرقا أرض ودان التي فيها في الاقليم الثاني كما مر والقطعة الجوفية عن جبل درن ما بينه وبين البحر الرومي في المغرب منها جبل أوراس وتبسة والأوئيس وعلى ساحل البحر بلد بونة ثم في سمت هذه البلاد شرقا بلاد أفريقية فعلى ساحل البحر مدينة تونس ثم سوسة ثم المهدية وفي جنوب هذه البلاد تحت جبل درن بلاد الجريد توزر وقفصة ونقزوة وفيما بينها وبين السواحل مدينة القيروان وجبل وسلات وسبيلة وعلى سمت هذه البلاد كلها شرقا بلد طرابلس على البحر الرومي وبازائها في الجنوب جبل دمر ونقرة من قبائل هواة متصلة بجبل درن وفي مقابلة غدامس التي مر ذكرها في آخر القطعة الجنوبية وآخر هذا الجزء في الشرق سوقة ابن مشكورة على البحر وفي جنوبها مجالات العرب في أرض ودان وفي الجزء الثالث من هذا الاقليم يمر أيضا فيه جبل درن لأنه ينعطف عند آخره الى الشمال ويذهب على سمتة الى أن يدخل في البحر الرومي ويسمى هنالك طرف أو ثان والبحر الرومي من شماله غمر طائفة منه الى أن يضائق ما بينه وبين جبل درن فالذي وراء الجبل في الجنوب وفي الغرب منه بقية أرض ودان ومجالات العرب فيها ثم زويلة ابن خطاب ثم مال وقفار الى آخر الجزء في الشرق وفيما بين الجبل والبحر في الغرب منه بلد سرت على البحر ثم خلاء وقفار تجول فيها العرب ثم اجداية ثم برقة عند منعطف الجبل ثم طامسة على البحر هنالك ثم في شرق المنعطف من الجبل مجالات هيب ورواحة الى آخر الجزء وفي الجزء الرابع من هذا الاقليم وفي الأعلى من غربيه صحارى برقيق وأسفل منها بلاد هيب ورواحة ثم يدخل البحر الرومي في هذا الجزء فيغمر طائفة منه الى الجنوب حتى يزاحم طرفه الأعلى ويبقى بينه وبين آخر الجزء وقفار تجول فيها العرب وعلى سمتها شرقا بلاد الفيوم وهي على مصب أحد الشعبين من النيل الذي يمر على الاهون من بلاد الصعيد في الجزء الرابع من الاقليم الثاني ويصب في بحيرة فيوم وعلى سمتة شرقا أرض مصر ومدينتها الشهيرة على الشعب الثاني الذي يمر بدلاص من بلاد الصعيد عند آخر الجزء الثاني ويفترق هذا الشعب

افتراقة ثانية من تحت مصر على شعبين آخرين من شطنوف وزفتي وينقسم الايمن منهم من قرمط  
بشعبين آخرين ويصب جميعها في البحر الرومي فعلي مصب الغربي من هذا الشعب بلدا سكندرية وعلى  
مصب الوسط بلدرشيد وعلي مصب الشرق بلد مياط وبين مصر والقاهرة وبين هذه السواحل البحرية  
أسافل الديار المصرية كلها محشوة عمرانا وخلجا وفي الجزء الخامس من هذا الاقليم بلاد الشام  
وأكثرها على ما أصف وذلك لان بحر القلزم ينتهي من الجنوب وفي الغرب منه عند السويس لانه في  
ممره مبتدىء من البحر الهندي الى الشمال ينعطف آخذا الى جهة الغرب فتكون قطعة من انعطافه في  
هذا الجزء طويلا فينتهي في الطرف الغربي منه الى السويس وعلى هذه القطعة بعد السويس فاران ثم جبل  
الطور ثم أيلة مدين ثم الحوراء في آخرها ومن هنالك ينعطف بساحله الى الجنوب في أرض الحجاز كما مر  
في الاقليم الثاني في الجزء الخامس منه وفي الناحية الشمالية من هذا الجزء قطعة من البحر الرومي غمرت  
كثيرا من غريبه عليها الفرما والعريش وقارب طرفها بلد القلزم فيضايق ما بينهما من هنالك وبقى شبه الباب  
مفضيا الى أرض الشام وفي غربي هذا الباب فخص التيه أرض جرداء لا تبت كانت بجالبي اسرائيل  
بعد خروجهم من مصر وقبل دخولهم الى الشام أربعين سنة كما قصه القرآن وفي هذه القطعة من البحر  
الرومي في هذا الجزء طائفة من جزيرة قبرص وبقيتها في الاقليم الرابع كان ذكره وعلى ساحل هذه القطعة  
عند الطرف المتضايق لبحر السويس بلد العريش وهو آخر الديار المصرية وعسقلان وبينهما طرف هذا  
البحر ثم تنحط هذه القطعة في انعطافها من هنالك الى الاقليم الرابع عند طرابلس وغزة وهنالك ينتهي  
البحر الرومي في جهة الشرق وعلى هذه القطعة أكثر سواحل الشام في شرقه عسقلان وبانحراف يسير  
عنها الى الشمال بلد قيسارية ثم كذلك بلد عكا ثم صور ثم صيدا ثم غزة ثم ينعطف البحر الى الشمال في الاقليم  
الرابع ويقابل هذه البلاد الساحلية من هذه القطعة في هذا الجزء جبل عظيم يخرج من ساحل أيلة من بحر  
القلزم وينذهب في ناحية الشمال منحرفا الى الشرق الى أن يجاوز هذا الجزء ويسمى جبل اللكام وكأنه  
حاجز بين أرض مصر والشام في طرفه عند أيلة العقبة التي يمر عليها الحجاج من مصر الى مكة ثم بعدها في  
ناحية الشمال مدفن الخليل عليه الصلاة والسلام عند جبل السراة يتصل من عند جبل اللكام المذكور من  
شمال العقبة ذاهبا على سمت الشرق ثم ينعطف قليلا وفي شرقه هنالك بلد الحجر وديار ثمود وتيماء ودومة  
الجندل وهي أسافل الحجاز وفوقها جبل رضوى وحصون خير في جهة الجنوب عنها وفيما بين جبل السراة  
وبحر القلزم صحراء تبوك وفي شمال جبل السراة مدينة القدس عند جبل اللكام ثم الأردن ثم طبرية وفي  
شرقيها بلاد الغور الى أذرعات وفي سمتها شرقا دومة الجندل آخر هذا الجزء وهي آخر الحجاز \* وعند  
منعطف جبل اللكام الى الشمال من آخر هذا الجزء مدينة دمشق مقابلة صيدا ويروت من القطعة  
البحرية وجبل اللكام يعترض بينها وبينها وعلى سمت دمشق في الشرق مدينة بعلبك ثم مدينة حمص في الجهة  
الشمالية آخر الجزء عند منقطع جبل اللكام وفي الشرق عن بعلبك وحمص بلد تدمر ومجالات البادية الى  
آخر الجزء وفي الجزء السلدس من أعلاه مجالات الأعراب تحت بلاد نجد واليمامة ما بين جبل العرج



الصمان الى البحرين وهجر على بحر فارس وفي أسافل هذا الجزء تحت المجالات بلاد الحيرة والقادسية  
 و غايض الفرات \* وفيما بعدها شرقي مدينة البصرة وفي هذا الجزء ينتهي بحر فارس عند عبادان والابلة (١)  
 من أسافل الجزء من شماله ويصب فيه عند عبادان نهر دجلة بعد أن ينقسم بمجاوول كثيرة وتختلط به  
 عداول أخرى من الفرات ثم تجتمع كلها عند عبادان وتصب في بحر فارس وهذه القطعة من البحر متسعة  
 أعلاه متضايقة في آخره في شرقيه وضيقة عند منتهاه مضايقة للحد الشمالي منه وعلى عدوتها الغربية منه  
 سافل البحرين وهجر والاحساء وفي غربها أخطب والصمان وبقية أرض اليمامة وعلى عدوته الشرقية  
 سافل فارس من أعلاها وهو من عند آخر الجزء من الشرق على طرف قدامت من هذا البحر مشرقا  
 وراءه الى الجنوب في هذا الجزء جبال القفص من كرمان وتحت هرمز على الساحل بلد سيراف ونجيم  
 على ساحل هذا البحر \* وفي شرقيه الى آخر الجزء وتحت هرمز بلاد فارس مثل صابور ودارا مجرد و نسا  
 اصطخر والشاهجان وشيراز وهي قاعدتها كلها وتحت بلاد فارس الى الشمال عند طرف البحر بلاد  
 خوزستان ومنها الأهواز وتستر و صدى و صابور والسوس ورام هرمز وغيرها وأرجان وهي حد  
 بين فارس وخوزستان وفي شرقي بلاد خوزستان جبال الاكراد متصلة الى نواحي أصبهان وبها  
 ما كنهم ومجالاتهم وراءها في أرض فارس وتسمى الرسوم وفي الجزء السابع في الأعلى منه من المغرب  
 بية جبال القفص ويليهما من الجنوب والشمال بلاد كرمان ومكران ومن مدنها الرودان والشيرجان  
 جيرفت ويزدشير والبحرج وتحت أرض كرمان الى الشمال بقية بلاد فارس الى حدود أصبهان ومدينة  
 صبهان في طرف هذا الجزء ما بين غربه وشماله ثم في المشرق عن بلاد كرمان وبلاد فارس أرض سجستان  
 كوهستان في الجنوب وأرض كوهستان في الشمال عنها ويتوسط بين كرمان وفارس وبين سجستان  
 كوهستان في وسط هذا الجزء الفاو العظيم القليلة المسالك لصعوبتها ومن مدن سجستان بست  
 الطاق وأما كهستان فهي من بلاد خراسان ومن مشاهير بلادها سرخس وقوهستان آخر الجزء  
 وفي الجزء الثامن من غربه وجنوبه مجالات الجلع من أم الترك متصلة بأرض سجستان من غربها وبأرض  
 كابل الهند من جنوبها وفي الشمال عن هذه المجالات جبال الغور وبلادها وقاعدتها غزنة فريضة الهند  
 وفي آخر الغور من الشمال بلاد استراباذ ثم في الشمال عنها الى آخر الجزء بلاد هراة أو سط خراسان  
 وبها اسفراين وقاشان وبوشنج ومرو الروذ والطارقان والجوزجان وتنتهي خراسان هنالك الى  
 نهر جيحون \* وعلى هذا النهر من بلاد خراسان من غربيه مدينة بلخ وفي شرقيه مدينة ترمذ  
 ومدينة بلخ كانت كرسى مملكة الترك وهذا النهر نهر جيحون مخرجه من بلاد وجر في حدود  
 بدخشان مما يلي الهند ويخرج من جنوب هذا الجزء وعند آخره من الشرق فينعطف عن قرب مغربا  
 الى وسط الجزء ويسمي هنالك نهر خرنا ب ثم ينعطف الى الشمال حتى يمر بنجراسان ويذهب على سبيله

(١) قوله الابلة بضم الهمزة والباء وتشديد اللام اه

الى أن يصب في بحيرة خوارزم في الاقليم الخامس كان ذكره ويمده عند انعطافه في وسط الجزء من الجنوب الى الشمال خمسة أنهار عظيمة من بلاد الختل والوخش من شرقيه وأنهار أخرى من جبال البتم من شرقيه أيضا وجوفي الجبل حتى يتسع ويعظم بما لا كفاء له ومن هذه الأنهار الخمسة الممددة له نهر وخشاب يخرج من بلاد التبت وهي بين الجنوب والشرق من هذا الجزء فيمر مغربا بانحراف الى الشمال الى أن يخرج الى الجزء التاسع قريبا من شمال هذا الجزء يعترضه في طريقه جبل عظيم يمر من وسط الجنوب في هذا الجزء ويذهب مشرقا بانحراف الى الشمال الى أن يخرج الى الجزء التاسع قريبا من شمال هذا الجزء فيجوز بلاد التبت الى القطعة الشرقية الجنوبية من هذا الجزء ويحول بين الترك وبين بلاد الختل وليس فيه الامسلك واحد في وسط الشرق من هذا الجزء جعل فيه الفضل بن يحيى سدا وبني فيه بابا كسديا جوج وما جوج فاذا خرج نهر وخشاب من بلاد التبت واعترضه هذا الجبل فيمر تحته في مدى بعيد الى أن يمر في بلاد الوخش ويصب في نهر جيحون عند حدود بلخ ثم يمر بها بطا الى الترمذ في الشمال الى بلاد الجوزجان وفي الشرق عن بلاد الغور فيما بينها وبين نهر جيحون بلاد الناسان من خراسان وفي العدو الشرقية هنالك من النهر بلاد الختل وأكثرها جبال وبلاد الوخش ويحدها من جهة الشمال جبال البتم تخرج من طرف خراسان غربي نهر جيحون وتذهب مشرقة الى أن يتصل طرفها بالجبل العظيم الذي خلفه بلاد التبت ويمر تحته نهر وخشاب كما قلناه فيتصل به عند باب الفضل بن يحيى ويمر نهر جيحون بين هذه الجبال وأنهار أخرى تصب فيه منها نهر بلاد الوخش يصب فيه من الشرق تحت الترمذ الى جهة الشمال ونهر بلخ يخرج من جبال البتم من مبدئه عند الجوزجان ويصب فيه من غربيه وعلى هذا النهر من غربيه بلاد آمد من خراسان وفي شرق النهر من هنالك أرض الصغد وأسرو شنة من بلاد الترك وفي شرقها أرض فرغانة أيضا الى آخر الجزء شرقا وكل بلاد الترك تحوزها جبال البتم الى شمالها وفي الجزء التاسع من غربيه أرض التبت الى وسط الجزء وفي جنوبها بلاد الهند وفي شرقها بلاد الصين الى آخر الجزء وفي أسفل هذا الجزء شمالا عن بلاد التبت بلاد الحزليجة من بلاد الترك الى آخر الجزء شرقا وشمالا ويتصل بها من غربيها أرض فرغانة أيضا الى آخر الجزء شرقا ومن شرقها أرض التغرغر من الترك الى آخر الجزء شرقا وشمالا وفي الجزء العاشر في الجنوب منه جميعا بقية الصين وأسافله وفي الشمال بقية بلاد التغرغر ثم شرقا عنهم بلاد خرخير من الترك أيضا الى آخر الجزء شرقا وفي الشمال من أرض خرخير بلاد كتمان من الترك وقبالتها في البحر المحيط جزيرة الياقوت في وسط جبل مستدير لا منفذ منه اليها ولا مسلك والصعود الى أعلاه من خارجه صعب في الغاية وفي الجزيرة حياث قتالة وحصى من الياقوت كثيرة فيحتال أهل تلك الناحية في استخراجها بما يلهمهم الله اليه وأهل هذه البلاد في هذا الجزء التاسع والعاشر فيما وراء خراسان والجبال كلها عجالات للترك أم لا تحصى وهم ظواغن رحالة أهل ابل وشاء وبقر وخيل للتاج والركوب والاء كل وطوائفهم كثيرة لا يحصى منهم الا خالقهم وفيهم مسلمون بمائلي



لاد النهر نهر جيحون ويغزون الكفار منهم الدائنين بالجوسية فيديعون رقيقهم لمن يليهم ويخرجون  
الى بلاد خراسان والهند والعراق

﴿ الاقليم الرابع ﴾ يتصل بالثالث من جهة الشمال \* والجزء الاول منه في غريه قطعة من  
البحر المحيط مستطيلة من اوله جنوبا الى آخره شمالا وعليها في الجنوب مدينة طنجة ومن هذه  
القطعة تحت طنجة من البحر المحيط الى البحر الرومي في خليج متضايق بمقدار اثني عشر ميلا ما بين  
طريف والجزيرة الخضراء شمالا وقصر الحجاز وسبتة جنوبا ويذهب مشرقا الى أن ينتهي الى وسط  
الجزء الخامس من هذا الاقليم وينفسح في ذهابه بتدرج الى أن يغمر الأربعة أجزاء وأكثر  
الخامس ويغمر عن جانبيه طرفا من الاقليم الثالث والخامس كما سنذكره ويسمى هذا البحر البحر  
الشامى أيضا وفيه جزائر كثيرة أعظمها في جهة الغرب يابسة ثم مايرقة ثم منركة ثم سردانية ثم صقلية  
وهي أعظمها ثم بلونس ثم أفریطش ثم قبرص كما نذكرها كلها في أجزاءها التي وقعت فيها ويخرج من  
هذا البحر الرومي عند آخر الجزء الثالث منه وفي الجزء الثالث من الاقليم الخامس خليج البنادقة يذهب  
الى ناحية الشمال ثم ينعطف عند وسط الجزء من جوفيه ويمر مغربا الى أن ينتهي في الجزء الثاني من  
الخامس ويخرج منه أيضا في آخر الجزء الرابع شرقا من الاقليم الخامس خليج القسطنطينية يمر في الشمال  
متضايقا في عرض رمية السهم الى آخر الاقليم ثم يفضى الى الجزء الرابع من الاقليم السادس وينعطف  
الى بحر نيطش ذاهبا الى الشرق في الجزء الخامس كله ونصف السادس من الاقليم السادس كما نذكر  
ذلك في أماكنه وعند ما يخرج هذا البحر الرومي من البحر المحيط في خليج طنجة وينفسح الى الاقليم  
الثالث يبقى في الجنوب عن الخليج قطعة صغيرة من هذا الجزء فيهما مدينة طنجة على مجمع البحرين وبعدها  
مدينة سبتة على البحر الرومي ثم قطاون ثم بارس ثم يغمر هذا البحر بقية هذا الجزء شرقا ويخرج الى  
الثالث وأكثر العمارة في هذا الجزء في شماله وشمال الخليج منه وهي كلها بلاد الأندلس الغربية منها ما بين  
البحر المحيط والبحر الرومي أولها طريف عند مجمع البحرين وفي الشرق منها على ساحل البحر الرومي  
الجزيرة الخضراء ثم مالقة ثم المنكب ثم المريّة وتحت هذه من لدن البحر المحيط غربا على مقربة منه شريش  
ثم لبلة وقيتها في جزيرة قادس وفي الشرق عن شريش ولبلة اشبيلية ثم استجة وقرطبة ومديلة ثم غرناطة  
وجيان وأبدّة ثم واديّاش وبسطة وتحت هذه شتمرية وشلب على البحر المحيط غربا وفي الشرق عنهما  
بطليوس وماردة ويابرة ثم غافق وبزجالة ثم قلعة رياح وتحت هذه أشبونة على البحر المحيط غربا على  
نهر باجة وفي الشرق عنها شترين وموزية على النهر المذكور ثم قنطرة السيف ويسامت أشبونة من  
جهة الشرق جبل الشارات يبدأ من المغرب هنالك ويذهب مشرقا مع آخر الجزء من شماله فينتهي الى  
مدينة سالم فيما بعد النصف منه وتحت هذا الجبل طليبرة في الشرق من فورة ثم طليطلة ثم وادي الحجارة  
ثم مدينة سالم وعند أول هذا الجبل فيما بينه وبين أشبونة بلد قمرية هذه غربي الأندلس \* وأما شرق  
الأندلس فعلى ساحل البحر الرومي منها بعد المريّة قرطاجنة ثم لفطة ثم دانية ثم بلنسية الى طرطوشه آخر

الجزء في الشرق وتحتها شمالا ليورقة وشقورة تتاحان بسطة وقلعة رياح من غرب الاندلس ثم مرسية شرقا ثم شاطبة تحت بلنسية شمالا ثم شقر ثم طرطوشة ثم طركونة آخر الجزء ثم تحت هذه شمالا أرض منجالة وريدة متاخمان لشقورة وطيطة من الغرب ثم فراغة شرقا تحت طرطوشة وشمالا عنها ثم في الشرق عن مدينة سالم قلعة أيوب ثم سرقسطة ثم لاردة آخر الجزء شرقا وشمالا والجزء الثاني من هذا الاقليم غمر الماء جميعه الاقطعة من غربه في الشمال فيها بقية جبل البرنات ومعناه جبل الثنايا والسالك يخرج اليه من آخر الجزء الأول من الاقليم الخامس يبدأ من الطرف المنتهى من البحر المحيط عند آخر ذلك الجزء جنوبا وشرقا ويعرف في الجنوب بانحراف الى الشرق فيخرج في هذا الاقليم الرابع منحرفا عن الجزء الأول منه الى هذا الجزء الثاني فيقع فيه قطعة منه تفضي ثناياها الى البر المتصل وتسمى أرض غشكونية وفيه مدينة خريدة وقرقشونة وعلى ساحل البحر الرومي من هذه القطعة مدينة برسلونة ثم أربونة وفي هذا البحر الذي غمر الجزء جزائر كثيرة والكثير منها غير مسكون لصغرها ففي غربه جزيرة سردانية وفي شرقيه جزيرة صقلية متسعة الاقطار يقال ان دورها سبعة ميل وبها مدن كثيرة من مشاهيرها سرقوسة وبلرم وطرابعة ومازر ومسيني وهذه الجزيرة تقابل أرض أفريقية وفيها بينهما جزيرة أعدوش ومالطة والجزء الثالث من هذا الاقليم مغمور أيضا بالبحر الاثلاث قطع من ناحية الشمال الغربية منها أرض قلورية والوسطى من أرض اكبرده والشرقية من بلاد البنادقة والجزء الرابع من هذا الاقليم مغمور أيضا بالبحر كما مرو جزائر كثيرة وأكثرها غير مسكون كافي الثالث والمعمور منها جزيرة بلونس في الناحية الغربية الشمالية وجزيرة أقريطش مستطيلة من وسط الجزء الى ما بين الجنوب والشرق منه والجزء الخامس من هذا الاقليم غمر البحر منه مثلثة كبيرة بين الجنوب والغرب ينتهي الضلع الغربي منها الى آخر الجزء في الشمال وينتهي الضلع الجنوبي منها الى نحو الثلثين من الجزء ويبقى في الجانب الشرقي من الجزء قطعة نحو الثلث يمر الشمالى منها الى الغرب منعطفا مع البحر كما قلناه وفي النصف الجنوبي منها أسافل الشام ويعرف وسطها جبل اللكام الى أن ينتهي الى آخر الشام في الشمال فينعطف من هنالك ذاهبا الى القطر الشرق الشمالى ويسمى بعد انعطافه جبل السلسلة ومن هنالك يخرج الى الاقليم الخامس ويجوز من عند منعطفه قطعة من بلاد الجزيرة الى جهة الشرق ويقوم من عند منعطفه من جهة المغرب جبال متصلة بعضها ببعض الى أن ينتهي الى طرف خارج من البحر الرومي متأخرا الى آخر الجزء من الشمالى وبين هذه الجبال ثنايا تسمى الدروب وهي التي تفضي الى بلاد الأرمن وفي هذا الجزء قطعة منها بين هذه الجبال وبين جبل السلسلة فأما الجهة الجنوبية التي قدمنا أن فيها أسافل الشام وأن جبل اللكام معترض فيها بين البحر الرومي وآخر الجزء من الجنوب الى الشمال فعلى ساحل البحر منه بلداً نظطوس في أول الجزء من الجنوب متاخمة لغزة وطرابلس على ساحله من الاقليم الثالث وفي شمال أنططوس جبة ثم اللاذقية ثم اسكندرونة ثم سلوقية وبعدها شمالا بلاد الروم وأما جبل اللكام المعترض بين البحر وآخر الجزء بحفايه فيصاقبه من بلاد الشام من أعلى الجزء



جنوباً من غريه حصن الحوائى وهو للحشيشة الاسماعيلية ويعرفون لهذا العهد بالفداوية ويسمى الحصن مصيات وهو قبالة أنظرطوس وقبالة هذا الحصن في شرق الجبل بلد سامية في الشمال عن حمص وفي الشمال عن مصيات بين الجبل والبحر بلد أنطاكية ويقابلها في شرق الجبل المعرة وفي شرقها المراغة وفي شمال أنطاكية المصيصة ثم أذنة ثم طرسوس آخر الشام ويحاذيها من غرب الجبل قنسرين ثم عين زربة وقبالة قنسرين في شرق الجبل حلب ويقابل عين زربة منبج آخر الشام وأما الدروب فعن يمينها ما بينها وبين البحر الرومى بلاد الروم التي هي لهذا العهد لتركمان وسلاطنتها ابن عثمان وفي ساحل البحر منها بلد أنطاكية والعلايا وأما بلاد الأرمين التي بين جبل الدروب وجبل السلسلة ففيها بلد مرعش وملطية والمعرة الى آخر الجزء الشمالى ويخرج من الجزء الخامس فى بلاد الأرمين نهر جيحان ونهر سيحان فى شرقه فيمر بها جيحان جنوباً حتى يتجاوز الدروب ثم يمر بطرسوس ثم بالمصيصة ثم ينعطف هابطاً الى الشمال ومغرباً حتى يصب فى البحر الرومى جنوب سلوقية ويمر نهر سيحان موازاً لنهر جيحان فيحاذى المعرة ومرعش ويتجاوز جبال الدروب الى أرض الشام ثم يمر بعين زربة ويجوز عن نهر جيحان ثم ينعطف الى الشمال مغرباً فيختلط بنهر جيحان عند المصيصة ومن غربها وأما بلاد الجزيرة التي يحيط بها منعطف جبل اللكّام الى جبل السلسلة فى جنوبها بلاد الرافضة والركة ثم حران ثم سروج والرها ثم نصيبين ثم سميساط وآمد تحت جبل السلسلة وآخر الجزء من شماله وهو أيضاً آخر الجزء من شرقه ويمر فى وسط هذه القطعة نهر الفرات ونهر دجلة يخرجان من الاقليم الخامس ويمران فى بلاد الأرمين جنوباً الى أن يتجاوزا جبل السلسلة فيمر نهر الفرات من غربى سميساط وسروج وينحرف الى الشرق فيمر بقرب الرافضة والركة ويخرج الى الجزء السادس وتعد دجلة فى شرق آمد وتنعطف قريباً الى الشرق فيخرج قريباً الى الجزء السادس وفى الجزء السادس من هذا الاقليم من غريه بلاد الجزيرة وفى الشرق منها بلاد العراق متصلة بها تنتهى فى الشرق الى قرب آخر الجزء ويعترض من آخر العراق هنالك جبل أصبهان هابطاً من جنوب الجزء منحرفاً الى الغرب فاذا انتهى الى وسط الجزء من آخره فى الشمال يذهب مغرباً الى أن يخرج من الجزء السادس ويتصل على ستمته بجبل السلسلة فى الجزء الخامس فيقطع هذا الجزء السادس بقطعتين غربية وشرقية فى الغربية من جنوبها يخرج الفرات من الخامس وفى شمالها يخرج دجلة منه أما الفرات فأول ما يخرج الى السادس يمر بقرقيسيا ويخرج من هنالك جدول الى الشمال ينساب فى أرض الجزيرة ويغوص فى نواحيها ويمر من قرقيسيا غير بعيد ثم ينعطف الى الجنوب فيمر بقرب الحابور الى غرب الرجة ويخرج منه جدول من هنالك يمر جنوباً ويبقى صفين فى غريه ثم ينعطف شرقاً وينقسم بشعوب فيمر بعضها بالكوفة وبعضها بقصر ابن هبيرة وبالجامعين وتخرج جميعاً فى جنوب الجزء الى الاقليم الثالث فيغوص هنالك فى شرق الحيرة والقادسية ويخرج الفرات من الرجة مشرقاً على ستمته الى هيت من شمالها يمر الى الزاب والانبّار من جنوبها ثم يصب فى دجلة عند بغداد وأما نهر دجلة فاذا دخل من الجزء الخامس الى هذا الجزء يمر مشرقاً على ستمته ومحاذياً لجبل السلسلة المتصل بجبل

العراق على سمتة فيمر بجزيرة ابن عمر على شمالها ثم بالموصل كذلك وتكرت وينتهي الى الحديثة فينعطف جنوبا وتبقى الحديثة في شرقه والزاب الكبير والصغير كذلك ويمر على سمتة جنوبا وفي غرب القادسية الى أن ينتهي الى بغداد ويختلط بالفرات ثم يمر جنوبا على غرب جرجرايا الى أن يخرج من الجزء الى الاقليم الثالث فتنتشر هنالك شعوبه وجداوله ثم يجتمع ويصب هنالك في بحر فارس عند عبادان وفيما بين نهر الدجلة والفرات قبل مجعهما ببغداد هي بلاد الجزيرة ويختلط بنهر دجلة بعد مفارقتة ببغداد نهر آخر يأتي من الجهة الشرقية الشمالية منه وينتهي الى بلاد النهر وان قبالة بغداد شرقا ثم ينعطف جنوبا ويختلط بدجلة قبل خروجه الى الاقليم الثالث ويبقى ما بين هذا النهر وبين جبل العراق والاعاجم بلد جولا وفي شرقها عند الجبل بلدا حوان وصيمرة وأما القطعة الغربية من الجزء فيعترضها جبل يبدأ من جبل الاعاجم مشرقا الى آخر الجزء ويسمى جبل شهر زور ويقسمها بقطعتين وفي الجنوب من هذه القطعة الصغرى بلد خوجان في الغرب والشمال عن أصهبان وتسمى هذه القطعة بلدا لهلوس وفي وسطها بلدها وند وفي شمالها بلد شهر زور غربا عند ملتقى الجبلين والدينور شرقا عند آخر الجزء وفي القطعة الصغرى الثانية طرف من بلاد أرمينية قاعدتها المراغة والذي يقابلها من جبل العراق يسمى باريا وهو مساكن للاكراد والزاب الكبير والصغير الذي على دجلة من ورائه وفي آخر هذه القطعة من جهة الشرق بلاد أذربيجان ومنها تبريز والسيلقان وفي الزاوية الشرقية الشمالية من هذا الجزء قطعة من بحر نيطنش وهو بحر الخزر وفي الجزء السابع من هذا الاقليم من غربه وجنوبه معظم بلاد الهلوس وفيها همذان وقزوين وبقيتها في الاقليم الثالث وفيها هنالك أصهبان ويحيط بهما من الجنوب جبل يخرج من غربها ويمر بالاقليم الثالث ثم ينعطف من الجزء السادس الى الاقليم الرابع ويتصل بجبل العراق في شرقه الذي مر ذكره هنالك وأنه يحيط ببلاد الهلوس في القطعة الشرقية ويهبط هذا الجبل المحيط بأصهبان من الاقليم الثالث الى جهة الشمال ويخرج الى هذا الجزء السابع فيحيط ببلاد الهلوس من شرقها وتحت هنالك قاشان ثم قم وينعطف في قرب النصف من طريقه مغربا بعض الشيء ثم يرجع مستديرا فيذهب مشرقا ومنحرفا الى الشمال حتى يخرج الى الاقليم الخامس ويشتمل على منعطفه واستدارته على بلد الري في شرقه ويبدأ من منعطفه جبل آخر يمر غربا الى آخر الجزء ومن جنوبه من هنالك قزوين ومن جانبه الشمالي وجانب جبل الري المتصل معه ذهابا الى الشرق والشمال الى وسط الجزء ثم الى الاقليم الخامس بلاد طبرستان فيما بين هذه الجبال وبين قطعة من بحر طبرستان ويدخل من الاقليم الخامس في هذا الجزء في نحو النصف من غربه الى شرقه ويعترض عند جبل الري وعند انعطافه الى الغرب جبل متصل يمر على سمتة مشرقا وبانحراف قليل الى الجنوب حتى يدخل في الجزء الثامن من غربه ويبقى بين جبل الري وهذا الجبل من عند مبدئهما بلاد جرجان فيما بين الجبلين ومنها بسطام ووراء هذا الجبل قطعة من هذا الجزء فيها بقية المفازة التي بين فارس وخراسان وهي في شرق قاشان وفي آخرها عند هذا الجبل بلاد استراباذ وحفافي هذا الجبل من شرقه الى آخر الجزء بلاد نيسابور من خراسان في جنوب الجبل وشرق المفازة بلد



يسابور ثم مرو والشاهجان آخر الجزء وفي شماله وشرق جرجان بلدمهرجان وخازرون وطوس آخر  
 لجزء شرقا وكل هذه تحت لجبل وفي الشمال عنها بلاد سواي محيط بها عند زاوية الجزء أين الشمال أو الشرق  
 فافوز معطلة وفي الجزء الثامن من هذا الاقليم وفي غربيه نهر جيحون ذاهبا من الجنوب الى الشمال  
 في عدوة الغربية ثم وامل وبلاد خراسان والظاهرية والجرجانية من بلاد خوارزم ويحيط بالزاوية  
 لغربية الجنوبية منه جبل استراباذ المعترض في الجزء السابع قبله ويخرج في هذا الجزء من غربيه ويحيط  
 بهذه الزاوية وفيها بقية بلاد هرات ويمر الجبل في الاقليم الثالث بين هرات والجوزجان حتى يتصل  
 بجبل البتم كما ذكرناه هناك وفي شرق نهر جيحون من هذا الجزء وفي الجنوب منه بلاد بخاري ثم  
 بلاد الصغد وقاعدتها سمرقند ثم بلاد أسروسنة ومنها خجندة آخر الجزء شرقا وفي الشمال عن سمرقند  
 وأسروسنة أرض يلاق ثم في الشمال عن يلاق أرض الشاش (١) الى آخر الجزء شرقا يأخذ قطعة  
 من الجزء التاسع في جنوب تلك القطعة بقية أرض فرغانة ويخرج من تلك القطعة التي في الجزء التاسع  
 نهر الشاش يمر معترضا في الجزء الثامن الى أن ينصب في نهر جيحون عند مغربه من هذا الجزء الثامن  
 في شماله الى الاقليم الخامس ويختلط معه في أرض يلاق نهر يأتي من الجزء التاسع من الاقليم الثالث من  
 تخوم بلاد النبت ويختلط معه قبل مغربه من الجزء التاسع نهر فرغانة وعلى سمت نهر الشاش جبل جبراغون  
 يبدأ من الاقليم الخامس وينعطف شرقا ومنحرفا الى الجنوب حتى يخرج الى الجزء التاسع محيطا بأرض  
 الشاش ثم ينعطف في الجزء التاسع فيحيط بالشاش وفرغانة هناك الى جنوبه فيدخل في الاقليم الثالث  
 وبين نهر الشاش وطرف هذا الجبل في وسط الجزء بلاد فاراب وبينه وبين أرض بخارى وخوارزم  
 مفافوز معطلة وفي زاوية هذا الجزء من الشمال والشرق أرض خجندة وفيها بلاد السنجاب وطران وفي  
 الجزء التاسع من هذا الاقليم في غربيه بعد أرض فرغانة والشاش أرض الخزلجية في الجنوب وأرض  
 الخليجية في الشمال وفي شرق الجزء كله أرض السكياكية ويتصل في الجزء العاشر كله الى جبل قوقيا آخر  
 الجزء شرقا على قطعة من البحر المحيط هناك وهو جبل يأجوج ومأجوج وهذه الأسم كلها من شعوب  
 الترك انتهى

❖ الاقليم الخامس ❖ الجزء الأول منه أكثره مغمور بالماء الا قليلا من جنوبه وشرقه لأن البحر  
 المحيط بهذه الجهة الغربية دخل في الاقليم الخامس والسادس والسابع عن الدائرة المحيطة بالاقليم فاما  
 المنكشف من جنوبه فقطعة على شكل مثلث متصلة من هناك بالاندلس وعليها بقيتها ويحيط بها البحر  
 من جهتين كأنهما ضلعان محيطان بزاوية المثلث ففيها من بقية غرب الاندلس سعيور على البحر عند أول  
 الجزء من الجنوب والغرب وسلمكة شرقا عنها وفي جوفها سمورة وفي الشرق عن سلمكة أيلة آخر  
 الجنوب وأرض قستالية شرقا عنها وفيها مدينة شقونية وفي شمالها أرض ليون وبرغشت ثم وراءها في  
 الشمال أرض جليقية الى زاوية القطعة وفيها على البحر المحيط في آخر الضلع الغربي بلد شنتياقو ومعناه

(١) في المشترك اقليم يلاق متصل باقليم الشاش لافصل بينهما وهو بكسر الهمزة وسكون الياء بعدها اه

يعقوب وفيها من شرق بلاد الاندلس مدينة شطلية عند آخر الجزء في الجنوب وشرقاً عن قستالية وفي شمالها وشرقها وشقة وينبلونة على سمتها شرقاً وشمالاً وفي غرب ينبلونة قسطالة ثم ناجزة فيما بينها وبين برغشت ويعترض وسط هذه القطعة جبل عظيم محاذ للبحر وللضلع الشمالي الشرق منه وعلى قرب ويتصل به وبطرف البحر عند ينبلونة في جهة الشرق الذي ذكرنا من قبل أن يتصل في الجنوب بالبحر الرومي في الاقليم الرابع ويصير حجر أعلى بلاد الاندلس من جهة الشرق وثناياه أبوابها تفضي الى بلاد غشكونية من أم الفرنج فمنها من الاقليم الرابع برشلونة وأربونة على ساحل البحر الرومي وخريدة وقرقشونة وراءهما في الشمال ومنها في الاقليم الخامس طلوشة شمالاً عن خريدة وأما المنكشف في هذا الجزء من جهة الشرق فقطعة على شكل مثلث مستطيل زاويته الحادة وراء البرنات شرقاً وفيها على البحر المحيط على رأس القطعة التي يتصل بها جبل البرنات بلديونة وفي آخر هذه القطعة في الناحية الشرقية الشمالية من الجزء أرض بنطو من الفرنج الى آخر الجزء وفي الجزء الثاني في الناحية الغربية منه أرض غشكونية وفي شمالها أرض بنطو وبرغشت وقد ذكرناهما في شرق بلاد غشكونية في شمالها قطعة أرض من البحر الرومي دخلت في هذا الجزء كالضرس مائلة الى الشرق قليلاً وصارت بلاد غشكونية في غربها داخل في جون من البحر وعلى رأس هذه القطعة شمالاً بلاد جنوة وعلى سمتها في الشمال جبل نيت جون وفي شماله وعلى سمتها أرض برغونة وفي الشرق عن طرف جنوة الخارج من البحر الرومي طرف آخر خارج منه يبق بينهما جون داخل من البر في البحر في غربيه يش وفي شرقيه مدينة رومة العظمى كرسى ملك الفرنجة ومسكن البابا بتركهم الأعظم وفيها من المباني الضخمة والهياكل الموهلة والكنائس العادية ما هو معروف الأخبار ومن عجائبها النهر الجاري في وسطها من المشرق الى المغرب مفروش قاعه ببلاط النحاس وفيها كنيسة بطرس وبولس من الحواريين وهما مدفونان بها وفي الشمال عن بلاد رومة بلاد أفر نصيصا الى آخر الجزء وعلى هذا الطرف من البحر الذي في جنوبه رومة بلاد نابلي في الجانب الشرق منه متصلة ببلد قلورية من بلاد الفرنج وفي شمالها طرف من خليج البنادقة دخل في هذا الجزء من الجزء الثالث مغرباً ومحاذياً للشمال من هذا الجزء وانتهى الى نحو الثلث منه وعليه كثير من بلاد البنادقة دخل في هذا الجزء من جنوبه فيما بينه وبين البحر المحيط ومن شماله بلاد انكلالية في الاقليم السادس وفي الجزء الثالث من هذا الاقليم في غربيه بلاد قلورية بين خليج البنادقة والبحر الرومي يحيط بهما من شرقيه يوصل من برها في الاقليم الرابع في البحر الرومي في جون بين طرفين خارجا من البحر على سمت الشمال الى هذا الجزء وفي شرق بلاد قلورية بلاد انكيدر في جون بين خليج البنادقة والبحر الرومي ويدخل طرف من هذا الجزء في الجون في الاقليم الرابع وفي البحر الرومي ويحيط به من شرقيه خليج البنادقة من البحر الرومي ذاهباً الى سمت الشمال ثم ينعطف الى الغرب محاذياً لآخر الجزء الشمالي ويخرج على سمت من الاقليم الرابع جبل عظيم يوازيه ويذهب معه في الشمال ثم يغرب معه في الاقليم السادس الى أن ينتهي قبالة خليج في شماليه في بلاد انكلالية من أم المانيين كاند كرو على هذا الخليج وبينه وبين هذا الجبل ما دام اذاهبين



الى الشمال بلاد البنادقة فاذا ذهب الى المغرب بينهما بلاد الروايات بلاد الالمانين عند طرف الخليج وفي  
الجزء الرابع من هذا الاقليم قطعة من البحر الرومي خرجت اليه من الاقليم الرابع مزرعة كلها بقطع  
من البحر ويخرج منها الى الشمال وبين كل ضرسين منها طرف من البحر في الجون بينهما وفي آخر الجزء  
شرق قطع من البحر ويخرج منها الى الشمال خليج القسطنطينية يخرج من هذا الطرف الجنوبي  
ويذهب على سمت الشمال الى أن يدخل في الاقليم السادس وينعطف من هناك عن قرب مشرقا الى  
بحر نيطش في الجزء الخامس وبعض الرابع قبله والسادس بعده من الاقليم السادس كما نذكر وبلد  
القسطنطينية في شرق هذا الخليج عند آخر الجزء من الشمال وهي المدينة العظيمة التي كانت كرسى  
القيصرية وبها من آثار البناء والضخامة ما كثرت عنه الأحداث والقطعة التي ما بين البحر الرومي  
وخليج القسطنطينية من هذا الجزء وفيها بلاد مقدونية التي كانت لليونانيين ومنها ابتداء ملكهم وفي  
شرق هذا الخليج الى آخر الجزء قطعة من أرض باطوس وأظهر هذا العهد مجالات للتركان وبها ملك  
ابن عثمان وقاعدته بهارصة وكانت من قبلهم للروم وغلبهم عليها الاثم الى أن صارت للتركان وفي الجزء  
الخامس من هذا الاقليم من غربيه وجنوبه أرض باطوس وفي الشمال عنها الى آخر الجزء بلاد عمورية  
وفي شرق عمورية نهر قباقيق الذي يمد الفرات يخرج من جبل هناك ويذهب في الجنوب حتى يخالط  
الفرات قبل وصوله من هذا الجزء الى ممره في الاقليم الرابع وهناك في غربيه آخر الجزء في مبدأ نهر  
سيحان ثم نهر جيحان غربيه الداهيين على سمتهم وقد مر ذكرهما وفي شرقه هناك مبدأ نهر الدجلة الذي يذهب  
على سمتهم وفي موازاته حتى يخالط عند بغداد وفي الزاوية التي بين الجنوب والشرق من هذا الجزء وراء  
الجبل الذي يبدأ منه نهر دجلة بلد ميفارقين ونهر قباقيق الذي ذكرناه يقسم هذا الجزء بقطعتين  
احدهما غربية جنوبية وفيها أرض باطوس كما قلنا وأسافلها الى آخر الجزء شمالا ووراء الجبل الذي  
يبدأ منه نهر قباقيق أرض عمورية كما قلناه والقطعة الثانية شرقية شمالية على الثلث في الجنوب  
منها مبدأ الدجلة والفرات وفي الشمال بلاد البيلقان متصلة بأرض عمورية من وراء جبل قباقيق  
وهي عريضة وفي آخرها عند مبدأ الفرات بلد خرشنة وفي الزاوية الشرقية الشمالية قطعة من بحر  
نيطش الذي يعمد خليج القسطنطينية \* وفي الجزء السادس من هذا الاقليم في جنوبه وغربه بلاد  
أرمينية متصلة الى أن يتجاوز وسط الجزء الى جانب الشرق وفيها بلاد أردن في الجنوب والغرب وفي  
شمالها تفليس وديبل وفي شرق أردن مدينة خلاط ثم بردعة وفي جنوبها بانحراف الى الشرق مدينة  
أرمينية ومن هناك يخرج بلاد أرمينية الى الاقليم الرابع وفيها هناك بلاد مراغة في شرق جبل الاء كراد  
المسمى بارمي وقد مر ذكره في الجزء السادس منه ويتأخم بلاد أرمينية في هذا الجزء وفي الاقليم  
الرابع قبله من جهة الشرق فيها بلاد أذربيجان وآخرها في هذا الجزء شرقا بلاد أردن على قطعة من  
بحر طبرستان دخلت في الناحية الشرقية من الجزء السابع ويسمى بحر طبرستان وعليه من شماله في  
هذا الجزء قطعة من بلاد الخزر ومم التركان ويبدأ من عند آخر هذه القطعة البحرية في الشمال جبال

يتصل بعضها ببعض على ممتد الغرب الى الجزء الخامس فتعريفه منعطفة ومحيطة ببلد ميا فارقين ويخرج  
إلى الاقليم الرابع عند آمد ويتصل بجبل السلسلة في أسافل الشام ومن هنالك يتصل بجبل الكاه  
كما مر وبين هذه الجبال الشمالية في هذا الجزء ثانيا كالأبواب تفضى من الجانبين في جنوب  
بلاد الأبواب متصلة في الشرق إلى بحر طبرستان وعليه من هذه البلاد مدينة باب الأبواب  
وتتصل بلاد الأبواب في الغرب من ناحية جنوبها ببلد أرمينية وبينهما في الشرق وبين بلاد أذربيجان  
الجنوبية بلاد الزاب متصلة إلى بحر طبرستان وفي شمال هذه الجبال قطعة من هذا الجزء في غربها  
مملكة السري في الزاوية الغربية الشمالية منها وفي زاوية الجزء كله قطعة أيضا من بحر نيطش الذي  
يمده خليج القسطنطينية وقد مر ذكره ويحفر بهذه القطعة من نيطش بلاد السري وعليها منها  
بلد أطرابدة وتتصل بلاد السري بين جبل الأبواب والجهة الشمالية من الجزء إلى أن ينتهي شرقا  
إلى جبل حاجز بينها وبين أرض الخزر وعند آخرها مدينة صول ووراء هذا الجبل الحاجز قطعة  
من أرض الخزر تنتهي إلى الزاوية الشرقية الشمالية من هذا الجزء من بحر طبرستان وآخر الجزء  
شمالا \* والجزء السابع من هذا الاقليم غربيه كله مغمور ببحر طبرستان وخرج من جنوبه في  
إلقليم الرابع القطعة التي ذكرنا هنالك أن عليها بلاد طبرستان وجبال الديلم إلى قزوين وفي  
غربي تلك القطعة متصلة بها القطعة التي في الجزء السادس من الاقليم الرابع ويتصل بها من  
شمالها القطعة التي في الجزء السادس من شرقه أينما وينكشف من هذا الجزء قطعة عند  
زاويته الشمالية الغربية يصب فيها نهر أثل في هذا البحر ويبقى من هذا الجزء في ناحية الشرق  
قطعة منكشفة من البحر هي مجالات للغز من أم الترك يحيط بها جبل من جهة الجنوب داخل  
في الجزء الثامن وينحدر في الغرب إلى مادون وسطه فينعطف إلى الشمال إلى أن يلاقى بحر  
طبرستان فيحتف به ذاهبا معه إلى بقيته في الاقليم السادس ثم ينعطف مع طرفه ويفارقه ويسمى  
هنالك جبل سياه ويذهب مغربا إلى الجزء السادس من الاقليم السادس ثم يرجع جنوبا إلى الجزء  
السادس من الاقليم الخامس وهذا الطرف منه هو الذي اعترض في هذا الجزء بين أرض السري  
وأرض الخزر واتصلت أرض الخزر في الجزء السادس والسابع حفافي هذا الجبل المسمى جبل  
سياه كما سيأتي \* والجزء الثامن من هذا الاقليم الخامس كله مجالات للغز من أم الترك وفي الجهة  
الجنوبية الغربية منه بحيرة خوارزم التي يصب فيها نهر جيحون دورها ثلثمائة ميل ويصب فيها  
أنهار كثيرة من أرض هذه المجالات وفي الجهة الشمالية الشرقية منه بحيرة عرعون دورها أربع مائة  
ميل وماؤها حلو وفي الناحية الشمالية من هذا الجزء جبل مرغار ومعناه جبل الثلج لأنه لا يذوب  
فيه وهو متصل بآخر الجزء وفي الجنوب عن بحيرة عرعون جبل من الحجر الصلد لا يثبت شيئا يسمى  
عرعون وبه سميت البحيرة وينجذب منه ومن جبل مرغار شمالا إلى البحيرة أنهار لا تنحصر عدتها فتصب  
فيها من الجانبين \* وفي الجزء التاسع من هذا الاقليم بلاد أركس من أم الترك في غرب بلاد الغز وشرق



بلاد الكيماكية ويحفظ به من جهة الشرق آخر الجزء جبل قوقيا المحيط بياجوج ومأجوج يعترض هنالك من الجنوب الى الشمال حتى يعطف أول دخوله من الجزء العاشر وقد كان دخل اليه من آخر الجزء العاشر من الاقليم الرابع قبله احتف هنالك بالبحر المحيط الى آخر الجزء في الشمال ثم انعطف مغربا في الجزء العاشر من الاقليم الرابع الى مادون نصفه وأحاط من أوله الى هنا بلاد الكيماكية ثم خرج الى الجزء العاشر من الاقليم الخامس فذهب فيه مغربا الى آخره وبقيت في جنوبيه من هذا الجزء قطعة مستطيلة الى الغرب قبل آخر بلاد الكيماكية ثم خرج الى الجزء التاسع في شرقيه وفي الأعلى منه وانعطف قريبا الى الشمال وذهب على سبيله الى الجزء التاسع من الاقليم السادس وفيه السد هنالك كما نذكره وبقيت منه القطعة التي أحاط بها جبل قوقيا عند الزاوية الشرقية الشمالية من هذا الجزء مستطيلة الى الجنوب وهي من بلاد ياجوج ومأجوج وفي الجزء العاشر من هذا الاقليم أرض ياجوج متصلة فيه كله الاقطعة من البحر المحيط غمرت طرفا في شرقيه من جنوبه الى شماله والاقطعة التي يفصلها الى جهة الجنوب والغرب جبل قوقيا حين مر فيه وما سوى ذلك فأرض ياجوج ومأجوج والله سبحانه وتعالى أعلم

﴿ الاقليم السادس ﴾ فالجزء الأول منه نهر البحر أكثر من نصفه واستدار شرقا مع الناحية الشمالية ثم ذهب مع الناحية الشرقية الى الجنوب وانتهى قريبا من الناحية الجنوبية فأنكشفت قطعة من هذه الأرض في هذا الجزء داخلية بين طرفين وفي الزاوية الجنوبية الشرقية من البحر المحيط كالجون فيه وينفسح طولاً وعرضاً وهي كلها أرض بريطانيا وفي باها بين الطرفين وفي الزاوية الجنوبية الشرقية من هذا الجزء بلاد صاقس متصلة ببلاد بنطو التي مر ذكرها في الجزء الأول والثاني من الاقليم الخامس \* والجزء الثاني من هذا الاقليم دخل البحر المحيط من غربه وشماله فمن غربه قطعة مستطيلة أكبر من نصفه الشمالي من شرق أرض بريطانيا في الجزء الأول واتصلت بها القطعة الأخرى في الشمال من غربه الى شرقه وانفسحت في النصف الغربي منه بعض الشيء وفيه هنالك قطعة من جزيرة انكلطرا وهي جزيرة عظيمة متسعة مشتملة على مدن وبها ملك ضخم وبقيتها في الاقليم السابع وفي جنوب هذه القطعة وجزيرتها في النصف الغربي من هذا الجزء بلادار مندية وبلاد افلادش متصلين بها ثم بلاد افرنسية جنوبا وغربا من هذا الجزء وبلاد برغونية شرقا عنها وكلها لأمم الأفرنجية وبلاد المانيين في النصف الشرق من الجزء فجنوبه بلاد انكلية ثم بلاد برغونية شمالاً ثم أرض لهويكة وشطونية وعلى قطعة البحر المحيط في الزاوية الشمالية الشرقية أرض أفريرة وكلها لأمم المانيين \* وفي الجزء الثالث من هذا الاقليم في الناحية الغربية بلاد مرانية في الجنوب وبلاد شطونية في الشمال وفي الناحية الشرقية بلاد انكوية في الجنوب وبلاد بلونية في الشمال يعترض بينهما جبل بلواط داخل من الجزء الرابع ويمر مغرباً بالخراف الى الشمال الى أن يقف في بلاد شطونية آخر النصف الغربي \* وفي الجزء الرابع من ناحية الجنوب أرض جثولية وتحتها في الشمال بلاد الروسية ويفصل بينهما جبل بلواط

من أول الجزء غربا إلى أن يقف في النصف الشرق وفي شرق أرض جثولية بلاد جرمانية وفي الزاوية الجنوبية الشرقية أرض القسطنطينية ومدينتها عند آخر الخليج الخارج من البحر الرومي وعند مدفعه في بحر نيطنش فيقع قطعة من بحر نيطنش في أعالي الناحية الشرقية من هذا الجزء ويمدها الخليج وبينهما في الزاوية بلاد مسينا وفي الجزء الخامس من الاقليم السادس ثم في الناحية الجنوبية عند بحر نيطنش يتصل من الخليج في آخر الجزء الرابع ويخرج على ستمه مشرقا فيمر في هذا الجزء كله وفي بعض السادس على طول ألف وثلثمائة ميل من مبدئه في عرض ستائة ميل ويبقى وراء هذا البحر في الناحية الجنوبية من هذا الجزء في غربها إلى شرقها بر مستطيل في غربه هرقلية على ساحل بحر نيطنش متصلة بأرض السيلقان من الاقليم الخامس وفي شرقه بلاد اللانية وقاعدتها سوتلى على بحر نيطنش وفي شمال بحر نيطنش في هذا الجزء غربا أرض ترخان وشرق بلاد الروسية وكلها على ساحل هذا البحر وبلاد الروسية محيطة ببلاد ترخان من شرقها في هذا الجزء من شمالها في الجزء الخامس من الاقليم السابع ومن غربها في الجزء الرابع من هذا الاقليم \* وفي الجزء السادس في غربيه بقية بحر نيطنش وينحرف قليلا إلى الشمال ويبقى بينه هنالك وبين آخر الجزء شمالا بلاد قمانية وفي جنوبه ومنفسحا إلى الشمال بما انحرف هو كذلك بقية بلاد اللانية التي كانت آخر جنوبه في الجزء الخامس وفي الناحية الشرقية من هذا الجزء متصل أرض الخزر وفي شرقها أرض برطاس وفي الزاوية الشرقية الشمالية أرض بلغار وفي الزاوية الشرقية الجنوبية أرض بلجربحوزها هناك قطعة من جبل سياه كوه المنعطف مع بحر الخزر في الجزء السابع بعده ويذهب بعدمفارقه مغربا فيجوز في هذه القطعة ويدخل إلى الجزء السادس من الاقليم الخامس فيتصل هنالك بجبل الأبواب وعليه من هنالك ناحية بلاد الخزر \* وفي الجزء السابع من هذا الاقليم في الناحية الجنوبية ما جازه جبل سياه بعدمفارقه بحر طبرستان وهو قطعة من أرض الخزر إلى آخر الجزء غربا وفي شرقها القطعة من بحر طبرستان التي يجوزها هذا الجبل من شرقها وشمالها ووراء جبل سياه في الناحية الغربية الشمالية أرض برطاس وفي الناحية الشرقية من الجزء أرض سحرب ويخناك وهم أمم الترك \* وفي الجزء الثامن والناحية الجنوبية منه كلها أرض الجوج من الترك في الناحية الشمالية غربا والأرض المنتنة وشرق الأرض التي يقال ان يأجوج ومأجوج خربوها قبل بناء السد وفي هذه الأرض المنتنة مبدأ نهر الاثل من أعظم أنهار العالم وممره في بلاد الترك ومصبه في بحر طبرستان في الاقليم الخامس في الجزء السابع منه وهو كثير الانعطاف يخرج من جبل في الأرض المنتنة من ثلاثة ينابيع تجتمع في نهر واحد ويمر على سمت الغرب إلى آخر السابع من هذا الاقليم فينعطف شمالا إلى الجزء السابع من الاقليم السابع فيمر في طرفه بين الجنوب والمغرب فيخرج في الجزء السادس من السابع ويذهب مغربا غير بعيد ثم ينعطف ثانية إلى الجنوب ويرجع إلى الجزء السادس من الاقليم السادس ويخرج منه جدول يذهب مغربا ويصب في بحر نيطنش في ذلك الجزء ويمر هو في قطعة بين الشمال والشرق في بلاد بلغار فيخرج في الجزء



السابع من الاقليم السادس ثم يعطف ثالثة الى الجنوب وينفذ في جبل سياه ويمر في بلاد الخزر ويخرج الى الاقليم الخامس في الجزء السابع منه فيصب هنالك في بحر طبرستان في القطعة التي انكشفت من الجزء عند الزاوية الغربية الجنوبية وفي الجزء التاسع من هذا الاقليم في الجانب الغربي منه بلاد خفشاخ من الترك وم ققجاق وبلاد التركس منهم أيضا وفي الشرق منه بلاد ياجوج يفصل بينهما جبل قوقيا المحيط وقد مر ذكره بيدأمن البحر المحيط في شرق الاقليم الرابع ويذهب معه الى آخر الاقليم في الشمال ويفارقه مغربا وبانحراف الى الشمال حتى يدخل في الجزء التاسع من الاقليم الخامس فيرجع الى ستمه الاول حتى يدخل في هذا الجزء التاسع من الاقليم من جنوبه الى شماله بانحراف الى المغرب وفي وسطه هناك السد الذي بناه الاسكندر ثم يخرج على ستمه الى الاقليم السابع وفي الجزء التاسع منه فيمر فيه الى الجنوب الى أن يلقى البحر المحيط في شماله ثم يعطف معه من هنالك مغربا الى الاقليم السابع الى الجزء الخامس منه فيتصل هنالك بقطعة من البحر المحيط في غربه وفي وسط هذا الجزء التاسع هو السد الذي بناه الاسكندر كما قلناه والصحيح من خبره في القرآن وقد ذكر عبدالله بن خرداذبه في كتابه في الجغرافيا أن الواثق رأى في منامه كأن السد انفتح فانتبه فزاعوبعث سلاما الترجمان فوقف عليه وجاء بخبره ووصفه في حكاية طويلة ليست من مقاصد كتابنا \* وفي الجزء العاشر من هذا الاقليم بلاد مأجوج متصلة فيه الى آخره على قطعة من هنالك من البحر المحيط أحاطت به من شرقه وشماله مستطيلة في الشمال وعريضة بعض الشيء في الشرق

\* الاقليم السابع \* والبحر المحيط قد غمرعامة من جهة الشمال الى وسط الجزء الخامس حيث يتصل بجبل قوقيا المحيط ياجوج ومأجوج فالجزء الاول والثاني مغموران بالماء الاما انكشف من جزيرة انكلطرة التي معظمها في الثاني وفي الاول منها طرف انعطف بانحراف الى الشمال وبقيتها مع قطعة من البحر مستديرة عليه في الجزء الثاني من الاقليم السادس وهي مذكورة هناك والمجاز منها الى البر في هذه القطعة سعة اثني عشر ميلا ووراء هذه الجزيرة في شمال الجزء الثاني جزيرة رسلانده مستطيلة من الغرب الى الشرق والجزء الثالث من هذا الاقليم مغمورا كثره بالبحر الاقطعة مستديرة في جنوبه وتتسع في شرقها وفيها هنالك متصل أرض فلونية التي مر ذكرها في الثالث من الاقليم السادس وأنها في شماله وفي القطعة من البحر التي تغمر هذا الجزء ثم في الجانب الغربي منها مستديرة فسيحة وتتصل بالبر من باب في جنوبها يفضي الى بلاد فلونية وفي شمالها جزيرة بوقاعة مستطيلة مع الشمال من الغرب الى المشرق والجزء الرابع من هذا الاقليم شماله كله مغمور بالبحر المحيط من المغرب الي المشرق وجنوبه منكشف وفي غربه أرض قيازك من الترك وفي شرقها بلاد طست ثم أرض رسلانده الى آخر الجزء شرقا وهي دائمة الثاوج وعمرانها قليل ويتصل ببلاد الروسية في الاقليم السادس وفي الجزء الرابع والخامس منه \* وفي الجزء الخامس من هذا الاقليم في الناحية الغربية منه بلاد الروسية وينتهي في الشمال الى قطعة من البحر المحيط التي يتصل بها جبل قوقيا كما

ذكرناه من قبل وفي الناحية الشرقية منه متصل أرض القمانيّة التي على قطعة بحريّ يطش من الجزر السادس من الاقليم السادس وينتهي الي بحيرة ظرعى من هذا الجزء وهى عذبة تنجلب اليها كثيرا من الجبال عن الجنوب والشمال وفي شمال الناحية الشرقية من هذا الجزء أرض التتارية من التركان الى آخره وفي الجزء السادس من الناحية الغربية الجنوبية متصل بلاد القمانيّة وفي وسط الناحية بحيرة عثور عذبة تنجلب اليها الا نهار من الجبال في النواحي الشرقية وهى جامدة دائما لشدة البرد الا قليلا في زمن الصيف وفي شرق بلاد القمانيّة بلاد الروسية التي كان مبدؤها في الاقليم السادس في الناحية الشرقية الشمالية من الجزء الخامس منه وفي الزاوية الجنوبية الشرقية من هذا الجزء بقية أرض بلغار التي كان مبدؤها في الاقليم السادس وفي الناحية الشرقية الشمالية من الجزء السادس منه وفي وسط هذه القطعة من أرض بلغار ومنعطف نهر أثل القطعة الاولى الى الجنوب كما مر وفي آخر هذا الجزء السادس من شماله جبل قوقيا متصل من غربه الى شرقه وفي الجزء السابع من هذا الاقليم في غربه بقية أرض يخنك من أم الترك وكان مبدؤها من الناحية الشمالية الشرقية من الجزء السادس قبله وفي الناحية الجنوبية الغربية من هذا الجزء ويخرج الى الاقليم السادس من فوقه وفي الناحية الشرقية بقية أرض سحر ثم بقية الأرض المنتنة الى آخر الجزء شرقا وفي آخر الجزء من جهة الشمال جبل قوقيا المحيط متصلا من غربه الى شرقه وفي الجزء الثامن من هذا الاقليم في الجنوبية الغربية متصل الأرض المنتنة وفي شرقها الأرض المحفورة وهى من العجائب خرق عظيم في الأرض بعيد المهي فسيح الاقطار ممتنع الوصول الى قعره يستدل على عمرانه بالدخان في النهار والنيران في الليل تضيء وتخفى وور بارؤى فيها نهري شقها من الجنوب الى الشمال وفي الناحية الشرقية من هذا الجزء البلاد الخراب المتاخمة للسد وفي آخر الشمال منه جبل قوقيا متصلا من الشرق الى الغرب وفي الجزء التاسع من هذا الاقليم في الجانب الغربي منه بلاد خفشاخ وهم قفجق يحوزها جبل قوقيا حين ينعطف من شماله عند البحر المحيط ويذهب في وسطه الى الجنوب بانحراف الى الشرق فيخرج في الجزء التاسع من الاقليم السادس ويمر معترضا فيه وفي وسطه هذا السد يأجوج ومأجوج وقد ذكرناه وفي الناحية الشرقية من هذا الجزء أرض يأجوج وراء جبل قوقيا على البحر قليلة العرض مستطيلة أحاطت به من شرقه وشماله والجزء العاشر غمر البحر جميعه هذا آخر الكلام على الجغرافيا وأقاليمها السبعة وفي خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات للعالمين

### ﴿ المقدمة الثالثة ﴾

( في المعتدل من الأقاليم والمنحرف وتأثير الهواء في ألوان البشر والكثير من أحوالهم )

( قدينا ) أن المعمور من هذا المنكشف من الأرض انما هو وسطه لا فراط الحرف في الجنوب منه والبرد في الشمال ولما كان الجانبان من الشمال والجنوب متضادين في الحرو والبرد وجب أن تتدرج الكيفية من كليهما الى الوسط فيكون معتدلا فالاقليم الرابع أعدل العمران والذي حفا فيه من الثالث والخامس أقرب



الى الاعتدال والذي يليهما من الثاني والسادس بعيدان من الاعتدال والاول والسابع أبعد بكثير فلهذا كانت العلوم والصنائع والمباني والملابس والأقوات والفواكه بل والحيوانات وجميع ما يتكون في هذه الأقاليم الثلاثة المتوسطة مخصوصة بالاعتدال وسكانها من البشر أعدل أجساما وألوانا وأخلاقا وأديانا حتى النبوات فاما توجد في الأكثر فيها ولم تقف على خبر بعثة في الأقاليم الجنوبية ولا الشمالية وذلك أن الأنبياء والرسل انما يختص بهم أكمل النوع في خلقهم وأخلاقهم قل تعالى كنتم خير أمة أخرجت للناس وذلك لستم القبول لما يأتيهم به الأنبياء من عند الله وأهل هذه الأقاليم أكمل لوجود الاعتدال لهم فتجدهم على غاية من التوسط في مساكنهم وأقواتهم وصنائعهم يتخذون البيوت المنجدة بالحجارة المنمقة بالصناعة ويتناغون في استجادة الآلات والمواعين ويذهبون في ذلك الى الغاية وتوجد لديهم المعادن الطبيعية من الذهب والفضة والحديد والنحاس والرصاص والقصدير ويتصرفون في معاملاتهم بالتقدين العزيزين ويعبدون عن الانحراف في عامة أحوالهم وهؤلاء أهل المغرب والشام والحجاز واليمن والعراقين والهند والسند والصين وكذلك الأندلس ومن قرب منها من الفرنجة والجلالقة والروم واليونانيين ومن كان مع هؤلاء أو قريبا منه في هذه الأقاليم المعتدلة ولهذا كان العراق والشام أعدل هذه كلها لأنها وسط من جميع الجهات وأما الأقاليم البعيدة من الاعتدال مثل الأول والثاني والسادس والسابع فأهلها أبعد من الاعتدال في جميع أحوالهم فبناؤهم بالطين والقصب وأقواتهم من الذرة والعشب وملابسهم من أوراق الشجر يخفضونها عليهم أو الجلود وأكثرهم عرايا من اللباس وفواكه بلادهم وأدهم أغرية التكوين مائلة الى الانحراف ومعاملاتهم بغير الحجرين الشريفين من نحاس أو حديد أو جلود يقدرونها للمعاملات وأخلاقهم مع ذلك قريبة من خلق الحيوانات العجم حتى يتقل عن الكثير من السودان أهل الأقاليم الأول أنهم يسكنون الكهوف والغياض ويأكلون العشب وأنهم متوحشون غير مستأنسين يأكل بعضهم بعضا وكذا الصقالب والسبب في ذلك أنهم لبعدهم عن الاعتدال يقرب عرض أمزجتهم وأخلاقهم من عرض الحيوانات العجم ويعبدون عن الانسانية بمقدار ذلك وكذلك أحوالهم في الديانة أيضا فلا يعرفون نبوة ولا يدينون بشريعة الا من قرب منهم من جوانب الاعتدال وهو في الأقل النادر مثل الحبشة المجاورين لليمن الدائنين بالنصرانية فيما قبل الاسلام وما بعده لهذا العهد ومثل أهل مالي وكوكو والتكرور المجاورين لأرض المغرب الدائنين بالاسلام لهذا العهد يقال انهم دانوا به في المائة السابعة ومثل من دان بالنصرانية من أم الصقالب والافرنجة والترك من الشمال ومن سوى هؤلاء من أهل تلك الأقاليم المنحرفة جنوبا وشمالا فالدین مجهول عندهم والعلم مفقود بينهم وجميع أحوالهم بعيدة من أحوال الأناسى قرية من أحوال البهائم ويخلق ما لا تعلمون ولا يعترض على هذا القول بوجود اليمن وحضر موت والأحقاف وبلاد الحجاز واليمامة وماليها من جزيرة العرب في الأقاليم الأول والثاني فان جزيرة العرب كلها أحاطت بها البحار من الجهات الثلاث كما ذكرنا فكان لرطوبتها أثر في رطوبة هوائها فتقص ذلك من اليبس والانحراف

الذي يقتضيه الحر وصار فيها بعض الاعتدال بسبب وطوبة البحر وقد توم بعض النساين بمن  
لاعلم لديه بطبائع الكائنات أن السودان هم ولد حام بن نوح اختصوا بلون السواد لدعوة كانت  
عليه من أبيه ظهر أثرها في لونه وفيما جعل الله من الرق في عقبه وينقلون في ذلك حكاية من  
خرافات القصاص ودعانوح علي ابنه حام قد وقع في التوراة وليس فيه ذكر السواد وإنما دعا عليه  
يأن يكون ولده عبيد الولد اخوته لاغير وفي القول بنسبة السواد إلى حام غفلة عن طبيعة الحر والبرد  
وأثرها في الهواء وفيما يتكون فيه من الحيوانات وذلك أن هذا اللون شمل أهل الاقليم الأول والثاني  
من مزاج هوائهم للحرارة المتضاعفة بالجنوب فان الشمس تسامت رءوسهم مرتين في كل سنة  
قرية احدهما من الأخرى فتطول المسامته عامة الفصول فيكثر الضوء لأجلها ويلح القيظ الشديد  
عليهم وتسود جلودهم لافراط الحر ونظير هذين الاقليمين فيما يقابلهما من الشمال الاقليم السابع  
والسادس شمل سكانهما أيضا البياض من مزاج هوائهم للبرد المفرط بالشمال اذ الشمس لاتزال  
بأفقهم في دائرة مرأى العين أو ما قرب منها ولا ترتفع إلى المسامته ولا ما قرب منها فيضعف الحر فيها  
ويشتد البرد عامة الفصول فتبيض ألوان أهلها وتنتهي إلى الزعورة ويتبع ذلك ما يقتضيه مزاج  
البرد المفرط من زرقة العيون وبرش الجلود وصهوبة الشعور وتوسط بينهما الاقليم الثلاثة  
الخامس والرابع والثالث فكان لها في الاعتدال الذي هو مزاج المتوسط حظ وافر والرابع أبلغها  
في الاعتدال غاية نهايته في المتوسط كما قدمناه فكان لأهله من الاعتدال في خلقهم وخلقهم ما اقتضاه  
مزاج أهويتهم وتبعه عن جانبيه الثالث والخامس وان لم يبلغا غاية المتوسط لميل هذا قليلا إلى الجنوب  
الحر وهذا قليلا إلى الشمال البارد إلا أنهما لم ينتهيا إلى الانحراف وكانت الاقاليم الأربعة منحرفة  
وأهلها كذلك في خلقهم وخلقهم فالأول والثاني للحر والسواد والسابع والسادس للبرد والبياض  
ويسمى سكان الجنوب من الاقليمين الأول والثاني باسم الحبشة والزنج والسودان أسماء مترادفة  
على الأمم المتغيرة بالسواد وان كان اسم الحبشة مختصا منهم بمن تجاه مكة واليمن والزنج بمن تجاه  
بحر الهند وليست هذه الأسماء لهم من أجل انتسابهم إلى آدمي أسود لاحام ولا غيره وقد نجد  
من السودان أهل الجنوب من يسكن الرابع المعتدل أو السابع المنحرف إلى البياض فتبيض ألوان أعقابهم  
على التدرج مع الأيام وبالعكس فيمن يسكن من أهل الشمال أو الرابع بالجنوب فتسود ألوان أعقابهم  
وفي ذلك دليل على أن اللون تابع لمزاج الهواء قال ابن سينا في أرجوزته في الطب

بالزنج حر غير الأجساد \* حتى كسا جلودها سوادا

والصقلب اكتسبت البياضا \* حتى غدت جلودها بضاضا

وأما أهل الشمال فلم يسموا باعتبار ألوانهم لأن البياض كان لونا لأهل تلك اللغة الواضحة للأسماء  
فلم يكن فيه غرابة تحمل على اعتباره في التسمية لموافقته واعتياده ووجدنا سكانه من الترك  
والصقالبة والطغرغر والخزر واللان والكثير من الأفرنجية ويأجوج ومأجوج أسماء متفرقة



وأجيا لامتعددة مسمين بأسماء متنوعة وأما أهل الأقاليم الثلاثة المتوسطة أهل الاعتدال في خلقهم وخلقهم وسيزم وكافة الأحوال الطبيعية للاعتبار لديهم من المعاش والمساكن والصنائع والعلوم والرياسات والملك فكانت فيهم النبوات والملك والدول والشرائع والعلوم والبلدان والأمصار والمباني والغراسه والصنائع القائمة وسائر الأحوال المعتدلة وأهل هذه الأقاليم التي وقفنا على أخبارهم مثل العرب والروم وفارس وبنى اسرائيل واليونان وأهل الهند والصين \* ولما رأى النسابون اختلاف هذه الأسماء بسماتها وشعارها حسبوا ذلك لأجل الأنساب فجعلوا أهل الجنوب كلهم السودان من ولد حام وارتابوا في ألوانهم فتكلفوا نقل تلك الحكاية الواهية وجعلوا أهل الشمال أو أكثرهم من ولد يافث وأكثر الأسماء المعتدلة وأهل الوسط المنتحلين للعلوم والصنائع والشرائع والسياسة والملك من ولد سام وهذا الزعم وإن صادف الحق في انتساب هؤلاء فليس ذلك بقياس مطرد انما هو أخبار عن الواقع لأن تسمية أهل الجنوب بالسودان والحشان من أجل انتسابهم إلى حام الأسود وما أدام إلى هذا الغلط الاعتقاد من أن التمييز بين الأسماء إنما يقع بالانتساب فقط وليس كذلك فان التمييز للجيل أو الأمة يكون بالنسب في بعضهم كالعرب وبنى اسرائيل والفرس ويكون بالجهة والسمة كالزنج والحبشة والصقالبة والسودان ويكون بالعوائد والشعار والنسب كالعرب ويكون بغير ذلك من أحوال الأسماء وخواصهم ومميزاتهم فتعميم القول في أهل جهة معينة من جنوب أو شمال بأنهم من ولد فلان المعروف لما شملهم من نخلة أولون أو سمة وجدت لذلك الأب انما هو من الأغاليط التي أوقع فيها الغفلة عن طبائع الأسماء كوان والجهات وأن هذه كلها تتبدل في الألقاب ولا يجب استمرارها سنة الله في عباده ولن تجد لسنة الله تبديلا والله ورسوله أعلم بغيه وأحكم وهو المولى المنعم الرؤوف الرحيم

#### ﴿ المقدمة الرابعة في أثر الهواء في أخلاق البشر ﴾

( قد رأينا ) من خلق السودان على العموم الخفة والطيش وكثرة الطرب فتجدهم مولعين بالرقص على كل توقيع موصوفين بالحرق في كل قطر والسبب الصحيح في ذلك أنه تقرر في موضعه من الحكمة أن طبيعة الفرح والسرور هي انتشار الروح الحيوانى وتفشيه وطبيعة الحزن بالعكس وهو انقباضه وتكاثفه وتقرر أن الحرارة مفشية للهواء والبخار مخلخله لئلا تزداد في كميته ولهذا يجد المنتشى من الفرح والسرور ما لا يعبر عنه وذلك بما يداخل بخار الروح في القلب من الحرارة الغريزية التي تبعثها سورة الحرق في الروح من مزاجه فيتفشى الروح وتجيء طبيعة الفرح وكذلك نجد المتنعمين بالجمامات اذا تنفسوا في هوائها واتصلت حرارة الهواء في أرواحهم فتسخنت لذلك حدث لهم فرح وربما نبعث الكثير منهم بالغناء الناشئ عن السرور ولما كان السودان ساكنين في الاقليم الحار واستولى الحر على أمزجتهم وفي أصل تكوينهم كان في أرواحهم من الحرارة على نسبة أبدانهم وإقليمهم فتكون أرواحهم بالقياس إلى أرواح أهل الاقليم الرابع أشد حرا فتكون أكثر تفشيا فتكون أسرع فرحا

وسروراوأكثر انبساطاويجىء الطيش على أثر هذه وكذلك يلحق بهم قليلا أهل البلاد البحرية لما كان هواؤها متضاعف الحرارة بما ينعكس عليه من أضواء بسيط البحر وأشعته كانت حصتهم من توابع الحرارة في الفرح والحفة موجودة أكثر من بلاد التلول والجبال الباردة وقد نجد يسيرا من ذلك في أهل البلاد الجزيرية من الأقليم الثالث لتوفر الحرارة فيها وفي هوائها لأنها عريقة في الجنوب عن الأرياف والتلول واعتبر ذلك أيضا بأهل مصر فانها في مثل عرض البلاد الجزيرية أو قريبا منها كيف غلب الفرح عليهم والحفة والغفلة عن العواقب حتى إنهم لا يدخرون أقوات سنتهم ولا شهرهم وعامة ما كلهم من أسواقهم \* ولما كانت فاس من بلاد المغرب بالعكس منها في التوغل في التلول الباردة كيف ترى أهلها مطرقين اطراق الحزن وكيف أفرطوا في نظر العواقب حتى إن الرجل منهم ليدخر قوت سنتين من جوب الحنطة ويأكل الأسواق لشراء قوته ليومه مخافة أن يرزأ شيئا من مدخره وتتبع ذلك في الأقاليم والبلدان تجد في الأخلق أثر من كفيات الهواء والله الخلاق العليم وقد تعرض المسعودي للبحث عن سبب في حفة السودان وطيشهم وكثرة الطرب فيهم وحاول تعليله فلم يأت بشيء أكثر من أنه نقل عن جالينوس ويعقوب بن اسحق الكندي أن ذلك لضعف أدمغتهم وما نشأ عنه من ضعف عقولهم وهذا كلام لا يحصل له ولا برهان فيه والله يهدي من يشاء الي صراط مستقيم

### ﴿ المقدمة الخامسة ﴾

في اختلاف أحوال العمران في الخصب والجوع وما ينشأ عن ذلك من الآثار في أبدان البشر وأخلاقهم

( اعلم ) أن هذه الأقاليم المعتدلة ليس كلها يوجد بها الخصب ولا كل سكانها في رغد من العيش بل فيها ما يوجد لأهله خصب العيش من الجوب والأدم والحنطة والفواكه لزكاء النبات واعتدال الطينة ووفور العمران وفيها الأرض الحرة التي لا تنبت زرعاً ولا عشبا بالجملة فسكانها في شظف من العيش مثل أهل الحجاز وجنوب اليمن ومثل المثلثين من صنهاجة الساكنين بصحراء المغرب وأطراف الرمال فيما بين البربر والسودان فإن هؤلاء يفقدون الجوب والأدم جملة وانما أغذيتهم وأقواتهم الألبان واللحوم ومثل العرب أيضا الجائلين في القفار فانهم وإن كانوا يأخذون الجوب والأدم من التلول الآن ذلك في الأحيين وتحت رقبة من حاميتها وعلى الأقلال لقلة وجدهم فلا يتوصلون منه الى سد الحاجة أو دونها فضلا عن الرغد والخصب وتجدهم يقتصرون في غالب أحوالهم على الألبان وتعوضهم من الحنطة أحسن معاض وتجدهم ذلك هؤلاء الفاقدين للجوب والأدم من أهل القفار أحسن حالا في جسومهم وأخلاقهم من أهل التلول المنغمسين في العيش فألو انهم أصفي وأبدانهم أنقى وأشكالهم أتم وأحسن وأخلاقهم أبعد من الانحراف وأذهانهم أثقب في المعارف والادراكات هذا أمر تشهد له التجربة في كل جيل منهم فكثير ما بين العرب والبربر فيما وصفناه وبين المثلثين وأهل



لتلول يعرف ذلك من خبره والسبب في ذلك والله أعلم أن كثرة الأغذية ورطوباتها تولد في الجسم ضلات رديئة ينشأ عنها بعد أقطارها في غير نسبة وكثرة الأخلط الفاسدة العفنة ويتبع ذلك انكساف لآلوان وقبح الأشكال من كثرة اللحم كما قلناه وتغطي الرطوبات على الأذهان والأفكار بما يصعد إلى الدماغ من أبخرتها الرديئة فتجىء البلاد والغفلة والانحراف عن الاعتدال بالجملة واعتبر ذلك في حيوان القفر ومواطن الجذب من الغزال والنعام والمهاو والزرافة والحمر الوحشية والبقر مع أمثالها من حيوان التلول والأرياف والمراعي الخصبه كيف تجد بينها بونا بعيدا في صفاء أديمها وحسن رونقها وأشكالها وتناسب أعضائها وحده مداركها فالغزال أخو المعز والزرافة أخو البعير والحمار والبقر أخو الحمار والبقر والبون بينها ما رأيت وما ذاك إلا لجل أن الحصب في التلول فعل في أبدان هذه من الفضلات الرديئة والأخلط الفاسدة مظهر عليها أثره والجوع لحيوان القفر حسن في خلقها وأشكالها ماشاء واعتبر ذلك في الآدميين أيضا فانا نجد أهل الأقاليم الخصبه العيش الكثيرة الزرع والضرع والأدم والقواكه يتصف أهلها غالبا بالبلادة في أذهانهم والحشونة في أجسامهم وهذا شأن البربر المنغمسين في الأدم والخنطة مع المتقشفين في عيشهم المقتصرين على الشعير أو الذرة مثل المصامدة منهم وأهل غمارة والسوس فتجد هؤلاء أحسن حالا في عقولهم وجسومهم وكذا أهل بلاد المغرب على الجملة المنغمسون في الأدم والبر مع أهل الأندلس المفقود بأرضهم السمن جملة وغالب عيشهم الذرة فتجد لأهل الأندلس من ذكاء العقول وخفة الأجسام وقبول التعليم ما لا يوجد لغيرهم وكذا أهل الضواحي من المغرب بالجملة مع أهل الحضر والأمصاف فإن أهل الأمصاف وان كانوا أكثرين مثلهم من الأدم ومغصبين في العيش إلا أن استعمالهم أياها بعد العلاج بالطبخ والتلطيف بما يخلطون معها فيذهب لذلك غلظها ويرق قوامها وعامة ما كلهم لحوم الضأن والدجاج ولا يغبطون السمن من بين الأدم لتفاهته فتقل الرطوبات لذلك في أغذيتهم ويخف ما تؤد به إلى أجسامهم من الفضلات الرديئة فلذلك تجد جسوم أهل الأمصاف ألطف من جسوم البادية المحشين في العيش وكذلك تجد المعودين بالجوع من أهل البادية لافضلات في جسومهم غليظة ولالطيفة \* واعلم أن أثر هذا الحصب في البدن وأحواله يظهر حتى في حال الدين والعبادة فتجد المتقشفين من أهل البادية أو الحاضرة ممن يأخذ نفسه بالجوع والتجافي عن الملاذ أحسن دينا وأقبالا على العبادة من أهل الترف والحصب بل نجد أهل الدين قليلين في المدن والأمصاف لما يعمها من القساوة والغلة المتصلة بالآكل من اللحم والأدم ولباب البر ويختص وجود العباد والزهاد لذلك بالمتقشفين في غذائهم من أهل البوادي وكذلك نجد حال أهل المدينة الواحدة في ذلك مختلفا باختلاف حالها في الترف والحصب وكذلك نجد هؤلاء المخصبين في العيش المنغمسين في طيباته من أهل البادية وأهل الحواضر والأمصاف إذا نزلت بهم السنون وأخذتهم المجاعات يسرع اليهم الهلاك أكثر من غيرهم مثل برابرة المغرب وأهل مدينة فاس ومصر فيما يبلغنا لا مثل العرب أهل القفر والصحراء ولا مثل أهل

بلاد النخل الذين غالب عيشهم التمر ولا مثل أهل أفريقية لهذا العهد الذين غالب عيشهم الشعير والزيت وأهل الأندلس الذين غالب عيشهم الذرة والزيت فإن هؤلاء وإن أخذتهم السنون والمجاعات فلا تنال منهم ماتتال من أولئك ولا يكثر فيهم الهلاك بالجوع بل ولا يندر السبب في ذلك والله أعلم أن المنغمسين في الحصب المتعودين للأدم والسمن خصوصاً كتسبب من ذلك أعمارهم وطوبى فوق رطوبتها الأصلية المزاجية حتى تجاوز حدها فادخولف بها العادة بقلة الأوقات وققدان الأدم واستعمال الحشن غير المألوف من الغذاء أسرع إلى المعى اليس والآنكماش وهو عضو ضعيف في الغاية فيسرع إليه المرض ويهلك صاحبه دفعة لانه من المقاتل فالهالكون في المجاعات إنما قتلهم الشبع المعتاد السابق للجوع الحادث اللاحق \* وأما المتعودون للعيمة وترك الأدم والسمن فلا تزال رطوبتهم الأصلية واقفة عند حدها من غير زيادة وهي قابلة لجميع الأغذية الطبيعية فلا يقع في معام بتبدل الأغذية ييس ولا انحراف فيسلمون في الغالب من الهلاك الذي يعرض لغيرهم بالحصب وكثرة الأدم في الماء كل وأصل هذا كله أن تعلم أن الأغذية واثلافها أو تركها إنما هو بالعادة فمن عود نفسه غذاء ولأمة تناوله كان له مألوفاً وصار الخروج عنه والتبدل به داء ما لم يخرج عن غرض الغذاء بالجملة كالسموم واليتوع (١) وما أفرط في الانحراف فأما ما وجد فيه التغذية والملاءمة فيصير غذاء مألوفاً بالعادة فإذا أخذ الإنسان نفسه باستعمال اللبن والبقل عوضاً عن الحنطة حتى صار له ديدناً فقد حصل له ذلك غذاء واستغنى به عن الحنطة والجوب من غير شك وكذا من عود نفسه الصبر على الجوع والاستغناء عن الطعام كما ينقل عن أهل الرياضات فإنا نسمع عنهم في ذلك أخباراً غريبة يكاد ينكرها من لا يعرفها والسبب في ذلك العادة فإن النفس إذا ألفت شيئاً صار من جبلتها وطبيعتها لأنها كثيرة التلون فإذا حصل لها اعتياد الجوع بالتدريج والرياضة فقد حصل ذلك عادة طبيعية لها وما يتوهمه الأطباء من أن الجوع مهلك فليس على ما يتوهمونه إلا إذا حملت النفس عليه دفعة وقطع عنها الغذاء بالكلية فإنه حينئذ ينحسم المعى ويناله المرض الذي يخشى معه الهلاك وأما إذا كان ذلك القدر تدريجاً ورياضة باقلال الغذاء شيئاً فشيئاً كما يفعله المتصوفة فهو بمنزلة الهلاك وهذا التدريج ضروري حتى في الرجوع عن هذه الرياضة فإنه إذا رجع به إلى الغذاء الأول دفعة خيف عليه الهلاك وإنما يرجع به كما بدأ في الرياضة بالتدريج ولقد شاهدنا من يصبر على الجوع أربعين يوماً وصلاً وأكثر \* وحضر أسياناً بمجلس السلطان أبي الحسن وقدر رفع إليه امرأتان من أهل الجزيرة الخضراء ورندة جنبستا أنفسهما عن الأكل جملة منذ سنين وشاع أمرهما ووقع اختبارهما فصحت شأنيهما واتصل على ذلك حالهما إلى أن ماتتا ورأينا كثيراً من أصحابنا أيضاً من يقتصر على حليب شاة من المعز يلتقم ثديها في بعض النهار أو عند

(١) قال في القاموس . اليتوع كصبور أو تنور كل نبات له لبن دار مسهل محرق مقطوع والمشهور منه سبعة . الشبرم واللاعية والدرطيشا والمهودا والمزابورن والنجلشت والعشر وكل اليتومات إذا استعملت في غير وجهها أهلكته



الافطار ويكون ذلك غذاءه واستدام على ذلك خمس عشرة سنة وغيرهم كثير ولا يستنكر ذلك \*  
واعلم أن الجوع أصلح للبدن من اكثار الأغذية بكل وجه لمن قدر عليه أو على الاقلال منها وأثره  
في الأجسام والعقول في صفائها وصلاحها كما قلناه واعتبر ذلك بآثار الأغذية التي تحصل عنها في الجسم  
فقد رأينا المتغذين بلحوم الحيوانات الفاخرة العظيمة الجثان تنشأ أجيالهم كذلك وهذا مشاهد في  
أهل البادية مع أهل الحاضرة وكذا المتغذون باللبان والابل ولحومها أيضا مع ما يؤثر في أخلاقهم من  
الصبر والاحتمال والقدرة على حمل الأثقال الموجود ذلك للابل وتنشأ أعمارهم أيضا على نسبة أعمار  
الابل في الصحة والغلظ فلا يطرقها الوهن ولا الضعف ولا ينالها من مضار الأغذية ما ينال غيرهم  
في شربون التنوعات لاستطلاق بطونهم غير محجوبة كالخنظل قبل طبعه والدرياس والفريون ولا ينال  
أعمارهم منها ضرر وهي لو تناولها أهل الحضرة الرقيقة أعمارهم بما نشأت عليه من لطيف الأغذية  
لكان الهلاك أسرع اليهم من طرفة العين لما فيها من السمية ومن تأثير الأغذية في الأبدان ما ذكره  
أهل الفلاحة وشاهده أهل التجربة أن الدجاج اذا غذيت بالحبوب المطبوخة في بعر الابل واتخذ  
بيضها ثم حضنت عليه جاء الدجاج منها أعظم ما يكون وقد يستغنون عن تغذيتها وطبخ الحبوب بطرح  
ذلك البعر مع البيض المحض فيجىء دجاجها في غاية العظم وأمثال ذلك كثير فاذا رأينا هذه الآثار من  
الأغذية في الأبدان فلا شك أن للجوع أيضا آثارا في الأبدان لائن الضدين على نسبة واحدة في  
التأثير وعدمه فيكون تأثير الجوع في تقاء الأبدان من الزيادات الفاسدة والرطوبات المختلطة  
الحلة بالجسم والعقل كما كان الغذاء مؤثرا في وجود ذلك الجسم والله محيط بعلمه

✽ المقدمة السادسة في أصناف المدركين للغيب من البشر بالفطرة أو بالرياضة ويتقدمه

### الكلام في الوحي والرؤيا ✽

(اعلم) أن الله سبحانه اصطفى من البشر أشخاصا فضلهم بخطابه وفطرهم على معرفته وجعلهم وسائل  
بينه وبين عبادته يعرفونهم بمصالحهم ويحرضونهم على هدايتهم ويأخذون بحجزاتهم عن النار ويدلونهم  
على طريق النجاة وكان فيما يلقىهم من المعارف ويظهره على ألسنتهم من الخوارق وأخبار الكائنات  
المغيبة عن البشر التي لا سبيل إلى معرفتها إلا من الله بوساطتهم ولا يعلمونها إلا بتعليم الله إياهم قال  
صلى الله عليه وسلم ألا وإنني لأعلم إلا ما علمني الله وأعلم أن خبرهم في ذلك من خاصيته وضرورته  
الصدق لما يتبين لك عند بيان حقيقة النبوة وعلامة هذا الصنف من البشر أن توجد لهم في حال  
الوحي غيبة عن الحاضرين معهم مع غطيظ كأنها غشي أو إنغماء في رأى العين وليست منعهما في شيء  
وانغماء في الحقيقة استغراق في لقاء الملك الروحاني بادراكهم المناسب لهم الخارج عن مدارك البشر  
بالكلية ثم ينزل إلى المدارك البشرية إما بسمع دوي من الكلام فيتفهمه أو يتمثل له صورة شخص  
يخاطبه بما جاء به من عند الله ثم تنجلي عنه تلك الحال وقد وعى ما ألقى إليه قال صلى الله عليه وسلم

وقد سئل عن الوحي أحيانا يأتي في مثل صلصلة الجرس وهو أشده على فيفصم عني وقد وعيت ما قال وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فأعنى ما يقول ويدركه أثناء ذلك من الشدة والغط ما لا يعبر عنه فى الحديث كان مما يعالج من التنزيل شدة وقالت عائشة كان ينزل عليه الوحي فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وان جبينه ليتفصد عرقا وقال تعالى إنا سئلك علىك قولاً ثقيلاً ولا أجل هذه الحالة فى تنزل الوحي كان المشركون يرمون الأنبياء بالجنون ويقولون له رءى أو تابع من الجن وإنما لبس عليهم بما شاهدوه من ظاهر تلك الأحوال ومن يضل الله فماله من هاد \* ومن علاماتهم أيضاً أنه يوجد لهم قبل الوحي خلق الخير والزكاء ومجانبة المذمومات والرجس أجمع وهذا هو معنى العصمة وكأنه مفطور على التنزه عن المذمومات والمنافرة لها وكأنها منافية لجلته وفى الصحيح أنه حمل الحجارة وهو غلام مع عمه العباس لبناء الكعبة فجعلها فى إزاره فأنكشف فسقط مغشياً عليه حتى استتر بإزاره ودعى إلى مجتمع وليمة فيها عرس ولعب فأصابه غشى النوم إلى أن طلعت الشمس ولم يحضر شيئاً من شأنهم بل نزهه الله عن ذلك كله حتى إنه بجبلته يتنزه عن المطعومات المستكرهه فقد كان صلى الله عليه وسلم لا يقرب البصل والثوم قليل له فى ذلك فقال إني أنا جى من لا تتاجون (وانظر) لما أخبر النبى صلى الله عليه وسلم خديجة رضى الله عنها بحال الوحي أول ما جاءه وأرادت اختباره فقالت اجعلنى بينك وبين ثوبك فلما فعل ذلك ذهب عنه فقالت انه ملك وليس بشيطان ومعناه أنه لا يقرب النساء وكذلك سألته عن أحب الثياب إليه أن يأتى فيها فقال البياض والخضرة فقالت انه الملك يعنى أن البياض والخضرة من ألوان الخير والملائكة والسواد من ألوان الشر والشياطين وأمثال ذلك \* ومن علاماتهم أيضاً دعائهم إلى الدين والعبادة من الصلاة والصدقة والعفاف وقد استدلت خديجة على صدقه صلى الله عليه وسلم بذلك وكذلك أبو بكر ولم يحتاج فى أمره إلى دليل خارج عن حاله وخلقته وفى الصحيح أن هرقل حين جاءه كتاب النبى صلى الله عليه وسلم يدعو إلى الاسلام أحضر من وجد يلبده من قرش وفيهم أبوسفيان ليسألهم عن حاله فكان فيما سأل أن قل لهم يأمركم فقال أبوسفيان بالصلاة والزكاة والصلة والعفاف إلى آخر ما سأل فأجابه فقال ان يكن ما تقول حقاً فهو نبى وسيملك ما تحت قدمى هاتين والعفاف الذى (١) أشار إليه هرقل هو العصمة فانظر كيف أخذ من العصمة والدعاء إلى الدين والعبادة دليلاً على صحة نبوته ولم يحتج إلى معجزة فدل على أن ذلك من علامات النبوة (ومن علاماتهم) أيضاً أن يكونوا ذوي حسب فى قومهم وفى الصحيح ما بعث الله نبيا الا فى منعة من أقومه وفى رواية أخرى فى ثروة من قومه استدركه الحاكم على الصحيحين وفى مساءة هرقل لأبى سفيان كما هو فى الصحيح قال كيف هو فيكم فقال أبوسفيان هو فينا ذو حسب فقال هرقل والرسول تبعث فى أحساب قومها ومعناه أن تكون له عصبية وشوكة تمنعه عن أذى الكفار حتى يبلغ رسالة ربه ويتم مراد الله من إكمال دينه وملته (ومن علاماتهم) أيضاً وقوع



الحوارق لهم شاهدة بصدقهم وهي أفعال يعجز البشر عن مثلها فسميت بذلك معجزة وليست من جنس مقدور العباد وأما تقع في غير محل قدرتهم وللناس في كيفية وقوعها ودلالاتها على تصديق الأنبياء خلاف فالتكلمون بناء على القول بالفاعل المختار قائلون بأنها واقعة بقدره الله لا بفعل النبي وإن كانت أفعال العباد عند المعتزلة صادرة عنهم إلا أن المعجزة لا تكون من جنس أفعالهم وليس للنبي فيها عند سائر المتكلمين إلا التحدي بها باذن الله وهو أن يستدل بها النبي صلى الله عليه وسلم قبل وقوعها على صدقه في مدعاه فإذا وقعت تنزل منزلة القول الصريح من الله بأنه صادق وتكون دلالتها حينئذ على الصدق قطعية فالمعجزة الدالة بمجموع الحارق والتحدي ولذلك كان التحدي جزأ منها (وعبارة المتكلمين) صفة نفسها وهو واحد لأنه معنى الدأى عندهم والتحدي هو الفارق بينها وبين الكرامة والسحراذ لا حاجة فيهما إلى التصديق فلا وجود للتحدي إلا إن وجد اتفاقا وإن وقع التحدي في الكرامة عندهم يحيزها وكانت لها دلالة فأنما هي على الولاية وهي غير النبوة ومن هنا منع الاستاذ أبو اسحق وغيره وقوع الحوارق كرامة فرارا من الالتباس بالنبوة عند التحدي بالولاية وقد أريناك المغايرة بينهما وأنه يتحدى بغير ما يتحدى به النبي فلا لبس على أن النقل عن الأستاذ في ذلك ليس صريحا وربما حمل على إنكار أن تقع حوارق الأنبياء لهم بناء على اختصاص كل من الفريقين بحوارق وأما المعتزلة فلما منع من وقوع الكرامة عندهم أن الحوارق ليست من أفعال العباد وأفعالهم معتادة فلا فرق وأما وقوعها على يد الكاذب تليسافهو حال أما عند الأشعرية فلا أن صفة نفس المعجزة التصديق والهداية فلو وقعت بخلاف ذلك انقلب الدليل شبهة والهداية ضلالة والتصديق كذبا واستحالت الحقائق وانقلبت صفات النفس وما يلزم من فرض وقوعه المحال لا يكون ممكنا وأما عند المعتزلة فلا أن وقوع الدليل شبهة والهداية ضلالة قبيح فلا يقع من الله وأما الحكماء فالخارق عندهم من فعل النبي ولو كان في غير محل القدرة بناء على مذهبهم في الإيجاب الدأى ووقوع الحوادث بعضها عن بعض متوقف على الأسباب والشروط الحادثة مستندة أخيرا إلى الواجب الفاعل بالذات لا بالاختيار وأن النفس النبوية عندهم لها خواص ذاتية منها صدور هذه الحوارق بقدرته وطاعة العناصر له في التكوين والنبي عندهم مجبول على التصريف في الأكوان مهما توجه إليها واستجمع لها بما جعل الله له من ذلك والخارق عندهم يقع للنبي كان للتحدي أو لم يكن وهو شاهد بصدق من حيث دلالة على تصرف النبي في الأكوان الذي هو من خواص النفس النبوية لا بأنه ينزل منزلة القول الصريح بالتصديق فذلك لا تكون دلالتها عندهم قطعية كما هي عند المتكلمين ولا يكون التحدي جزءا من المعجزة ولم يصح فارقا لها عن السحر والكرامة وفارقها عندهم عن السحر أن النبي مجبول على أفعال الخير مصروف عن أفعال الشر فلا يلزم الشر بخوارقه والساحر على الضد فأفعاله كلها شر وفي مقاصد الشر وفارقها عن الكرامة أن حوارق النبي مخصوصة كالصعود إلى السماء والنفوذ في الأجسام الكثيفة وإحياء الموتى وتكليم الملائكة والطيران في الهواء وخوارق الولي دون ذلك كتكثير القليل والحديث عن بعض المستقبل وأمثاله

مما هو قاصر عن تصريف الأنبياء ويأتى النبي بجميع خوارقه ولا يقدر هو على مثل خوارق الأنبياء وقد قرر ذلك المتصوفة فيما كتبوه في طريقتهم ولقنوه عن أخبرهم وإذا تقرر ذلك فاعلم أن أعظم المعجزات وأشرفها وأوضحها دلالة القرآن الكريم المنزل على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فإن الخوارق في الغالب تقع مغايرة للوحي الذي يتلقاه النبي ويأتى بالمعجزة شاهدة بصدقه والقرآن هو بنفسه الوحي المدعى وهو الخارق المعجز فشاهده في عينه ولا يفتقر الى دليل مغاير له كسائر المعجزات مع الوحي فهو أوضح دلالة لاتحاد الدليل والمدلول فيه وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم ما من نبي من الأنبياء الا وأتى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وانما كان الذي أوتيته وحيًا أوحى الى فأنا أرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة يشير الى أن المعجزة متى كانت بهذه المثابة في الوضوح وقوة الدلالة وهو كونها نفس الوحي كان الصدق لها أكثر لوضوحها فكثير المصدق والمؤمن وهو التابع والامة

✽ ولندكر الآن تفسير حقيقة النبوة على ما شرحه كثير من المحققين ثم نذكر حقيقة الكهانة ثم الرؤيا ثم شأن العرافين وغير ذلك من مدارك الغيب فنقول ✽

✽ اعلم ✽ أرشدنا الله وإياك أنا نشاهد هذا العالم بما فيه من الخلوقات كلها على هيئة من الترتيب والاحكام وربط الأسباب بالمسببات واتصال الاكوان بالاكوان واستحالة بعض الموجودات الى بعض لا تنقض عجائبه في ذلك ولا تنتهى غايته وأبدأ من ذلك بالعالم المحسوس الجثمانى وأولا عالم العناصر المشاهدة كيف تدرج صاعدا من الأرض الى الماء ثم الى الهواء ثم الى النار متصلا بعضها ببعض وكل واحد منها مستعد الى أن يستحيل الى ما يليه صاعدا وهابطا ويستحيل بعض الاوقات والصاعد منها ألطف مما قبله الى أن ينتهى الى عالم الأفلاك وهو ألطف من الكل على طبقات اتصل بعضها ببعض على هيئة لا يدرك الحس منها الا الحركات فقط وبها يهتدى بعضهم الى معرفة مقاديرها وأوضاعها وما بعد ذلك من وجود الدوات التى لها هذه الآثار فيها ثم انظر الى عالم التكوين كيف ابتداء من المعادن ثم النبات ثم الحيوان على هيئة بديعة من التدرج آخر أفق المعادن متصل بأول أفق النبات مثل الحشائش وما لا بذره وآخر أفق النبات مثل النخل والكرم متصل بأول أفق الحيوان مثل الخنزير والصدف ولم يوجد لها الا قوة اللمس فقط ومعنى الاتصال في هذه المكونات أن آخر أفق منها مستعد بالاستعداد القريب أن يصير أول أفق الذي بعده واتسع عالم الحيوان وتعددت أنواعه وانتهى في تدرج التكوين الى الانسان صاحب الفكر والروية ترتفع اليه من عالم القدرة الذى اجتمع فيه الحس والادراك ولم ينته الى الروية والفكر بالفعل وكان ذلك أول أفق من الانسان بعده وهذا غاية شهودنا ثم اننا نجد في العوالم على اختلافها آثارا متنوعة في عالم الحس آثار من حركات الافلاك والعناصر وفي عالم التكوين آثار من حركة النمو والادراك تشهد كلها بأن لها مؤثرا مباينا للاجسام فهو روحانى ويتصل بالمكونات لوجود اتصال هذا العالم في وجودها



وذلك هو النفس المدركة والحركة ولا بد فوقها من وجود آخر يعطيها قوى الادراك والحركة ويتصل بها أيضا ويكون ذاته ادراكا كصرفا وتعلقا محضا وهو عالم الملائكة فوجب من ذلك أن يكون للنفس استعداد للانسلاخ من البشرية الى الملكية ليصير بالفعل من جنس الملائكة وقتا من الاوقات في لحظة من اللحظات وذلك بعد أن تكمل ذاتها الروحانية بالفعل كما نذكره بعد ويكون لها اتصال بالافق الذي بعدها شأن الموجودات المرتبة كما قدمناه فلها في الاتصال جهتا العلو والسفل هي متصلة بالبدن من أسفل منها ومكتسبة به المدارك الحسية التي تستعد بها للحصول على التعقل بالفعل ومتصلة من جهة الأعلى منها بأفق الملائكة ومكتسبة به المدارك العلمية والغيبية فان عالم الحوادث موجود في تعلقاتهم من غير زمان وهذا على ما قدمناه من الترتيب المحكم في الوجود باتصال ذواته وقواه بعضها ببعض ثم ان هذه النفس الانسانية غائبة عن العيان وآثارها ظاهرة في البدن فكأنه وجميع أجزائه مجتمعة ومفترقة آلات للنفس ولقواها أما الفاعلية فالبطش باليد والمشى بالرجل والكلام باللسان والحركة الكلية بالبدن متدافعا وأما المدركة وان كانت قوى الادراك مرتبة ومرتقة الى القوة العليا منها ومن المفكرة التي يعبر عنها بالناطقة فقوى الحس الظاهرة بآلاته من السمع والبصر وسائر هارتي الى الباطن وأوله الحس المشترك وهو قوة تدرك المحسوسات مبصرة ومسموعة وملموسة وغيرها في حالة واحدة وبذلك فارقت قوة الحس الظاهر لان المحسوسات لا تزدحم عليها في الوقت الواحد ثم يؤديه الحس المشترك الى الخيال وهي قوة تمثل الشيء المحسوس في النفس كما هو مجردا عن المواد الخارجة فقط وآلة هاتين القوتين في تصريفهما البطن الأول من الدماغ مقدمه للأولى ومؤخره للثانية ثم يرتقي الخيال الى الواهمة والحافظة فالواهمة لا تدرك المعاني المتعلقة بالشخصيات كعداوة زيد وصداقة عمرو ورحمة الأب واقتراس الذئب والحافظة لا يداع المدركات كلها متخيلة وغير متخيلة وهي لها كالخزائن تحفظها لوقت الحاجة اليها وآلة هاتين القوتين في تصريفهما البطن المؤخر من الدماغ أوله للأولى ومؤخره للأخرى ثم ترتقي جميعها الى قوة الفكر وآلة البطن الأوسط من الدماغ وهي القوة التي يقع بها حركة الروية والتوجه نحو التعقل فتحرك النفس بهادئما لما ركب فيها من النزوع للتخلص من درك القوة والاستعداد الذي للبشرية وتخرج الى الفعل في تعلقها بتشبهه بالمالا الأعلى الروحاني وتصير في أول مراتب الروحانيات في إدراكها بغير الآلات الجسمانية فهي متحركة دائما ومتوجهة نحو ذلك وقد تنسلخ بالكلية من البشرية وروحانيتها الى الملكية من الأفق الأعلى من غير اكتساب بل بما جعل الله فيها من الجبلة والفطرة الأولى في ذلك \* والنفوس البشرية على ثلاثة أصناف صنف عاجز بالطبع عن الوصول الى الادراك الروحاني فينقطع بالحركة الى الجهة السفلى نحو المدارك الحسية والخيالية وتركيب المعاني من الحافظة والواهمة على قوانين محصورة وترتيب خاص يستفيدون به العلوم التصورية والتصديقية التي للفكر في البدن وكلها خيالي منحصر نطاقه إذ هو من جهة مبدئه ينتهي إلى الأوليات ولا يتجاوزها وان فسد فسد ما بعدها وهذا هو في الأغلب نطاق الادراك البشري الجسماني واليه تنتهي مدارك العلماء وفيه ترسخ أقدامهم وصنف

متوجه بتلك الحركة الفكرية نحو العقل الروحاني والادراك الذي لا يفتقر إلى الآلات البدنية بما جعل فيه من الاستعداد لذلك فيتسع نطاق ادراكه عن الأوليات التي هي نطاق الادراك الأول البشري ويسرح في فضاء المشاهدات الباطنية وهي وجدان كلها لا نطاق لها من مبدئها ولا من منتهائها وهذه مدارك العلماء الأولياء أهل العلوم الدنية والمعارف الربانية وهي الحاصلة بعد الموت لأهل السعادة في البرزخ وصنف مفطور على الانسلاخ من البشرية جملة جسمانيتهها وروحانيتهها إلى الملائكة من الأفق الأعلى ليصير في لمحظة من اللحظات ملكا بالفعل ويحصل له شهود الملائكة الأعلى في أفقهم وسماع الكلام النفساني والخطاب الإلهي في تلك اللحمة وهؤلاء الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم جعل الله لهم الانسلاخ من البشرية في تلك اللحمة وهي حالة الوحي فطرة فطرهم الله عليها وجبلة صورهم فيها وزههم عن موانع البدن وعواقبه ماداموا ملابسين لها بالبشرية بماركب في غرائزهم من القصد والاستقامة التي يحاذون بها تلك الوجهة وركز في طبائعهم رغبة في العبادة تكشف بتلك الوجهة وتسيغ نحوها فهم يتوجهون إلى ذلك الأفق بذلك النوع من الانسلاخ متى شاؤوا بتلك الفطرة التي فطروا عليها لا باكتساب ولا صناعة فلذا توجهوا وانسلخوا عن بشريتهم وتلقوا في ذلك الملائكة الأعلى ما يتلقونه وعاجوا به على المدارك البشرية منزلا في قواها لحكمة التبليغ للعبادة فتارة يسمع دويا كأنه رمز من الكلام يأخذه المعنى الذي ألقى إليه فلا يتقضى الدوى إلا وقد وعاه وفهمه وتارة يتمثل له الملك الذي يلقي إليه رجلا فيكلمه ويعي ما يقوله والتلقى من الملك والرجوع إلى المدارك البشرية وفهمه ما ألقى عليه كله كأنه في لحظة واحدة بل أقرب من لمح البصر لأنه ليس في زمان بل كلها تقع جميعا فيظهر كأنها سريعة ولذلك سميت وحيا لأن الوحي في اللغة الاسراع (واعلم) أن الأولى وهي حالة الدوى هي رتبة الأنبياء غير المرسلين على ما حققوه والثانية وهي حالة تمثيل الملك رجلا يخاطب هي رتبة الأنبياء المرسلين ولذلك كانت أكمل من الأولى وهذا معنى الحديث الذي فسره فيه النبي صلى الله عليه وسلم الوحي لما سأله الحرث بن هشام وقال كيف يأتيك الوحي فقال أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي فيفصم عني وقد وعيت ما قال وأحيانا يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعني ما يقول وإنما كانت الأولى أشد لأنهم بدأ الخروج في ذلك الاتصال من القوة إلى الفعل فيعسر بعض العسر ولذلك لما عاج فيها على المدارك البشرية اختصت بالسمع وصعب ماسواه وعند ما يتكرر الوحي ويكثر التلقى يسهل ذلك الاتصال فعند ما يعرج إلى المدارك البشرية يأتي على جميعها وخصوصا الأولى وضع منها وهو إدراك البصر وفي العبارة عن الوعي في الأولى بصيغة الماضي وفي الثانية بصيغة المضارع لطيفة من البلاغة وهي أن الكلام جاء مجيء التمثيل لحالي الوحي فمثل الحالة الأولى بالدوى الذي هو في المتعارف غير كلام وأخبر أن الفهم والوعي يتبعه غيب انقضائه فناسب عند تصوير انقضائه وانفصاله العبارة عن الوعي بالماضي المطابق للانقضاء والانتقطاع ومثل الملك في الحالة الثانية برجل يخاطب ويتكلم والكلام يساوقه الوعي فناسب العبارة بالمضارع المقضى للتجدد واعلم



أن في حالة الوحي كلها صعوبة على الجملة وشدة قد أشار إليها القرآن قال تعالى إناس لنقل عليك قولاً ثقيلاً وقالت عائشة كان مما يعانى من التنزيل شدة وقالت كان ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً ولذلك كان يحدث عنه في تلك الحالة من الغيبة والغطيظ ما هو معروف وسبب ذلك أن الوحي كإقراره مفارقة البشرية إلى المدارك الملكية وتلقى كلام النفس فيحدث عنه شدة من مفارقة الذات ذاتها وانسلاخها عنها من أقفاها إلى ذلك الأفق الآخر وهذا هو معنى الغط الذى عبر به في مبدأ الوحي في قوله فغطى حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال اقرأ فقلت ما أنا بقارئ وكذا ثانية وثالثة كما في الحديث وقد يفضى الاعتقاد بالتدريج فيه شيئاً فشيئاً إلى بعض السهولة بالقياس إلى ما قبله ولذلك كان تنزل نجوم القرآن وسوره وآيه حين كان بمكة أقصر منها وهو بالمدينة وانظر إلى ما نقل في نزول سورة براءة في غزوة تبوك وأنها نزلت كلها أو أكثرها عليه وهو يسير على ناقته بعد أن كان بمكة ينزل عليه بعض السورة من قصار المفصل في وقت وينزل الباقي في حين آخر وكذلك كان آخر ما نزل بالمدينة آية الدين وهي ما هي في الطول بعد أن كانت الآية تنزل بمكة مثل آيات الرحمن والذاريات والمدثر والضحي والفلق وأمثالها واعتبر من ذلك علامة تميز بها بين المكي والمدني من السور والآيات والله المرشد للصواب هذا حصل أمر النبوة (وأما الكهانة) فهي أيضاً من خواص النفس الانسانية وذلك أنه قد تقدم لنا في جميع ما مر أن للنفس الانسانية استعداداً للانسلاخ من البشرية إلى الروحانية التي فوقها وأنه يحصل من ذلك لحظة للبشرى صنف الأنبياء بما فطروا عليه من ذلك وتقرر أنه يحصل لهم من غير اكتساب ولا استعانة بشئ من المدارك ولا من التصورات ولا من الأفعال البدنية كلاماً أو حركة ولا بأمر من الأمور انما هو انسلاخ من البشرية إلى الملكية بالفطرة في لحظة أقرب من لمح البصر وإذا كان كذلك وكان ذلك الاستعداد موجوداً في الطبيعة البشرية فيعطي التقسيم العقلي أن هنا صنفاً آخر من البشر ناقصاً عن رتبة الصنف الأول نقصان الضد عن ضده الكامل لأن عدم الاستعانة في ذلك الإدراك ضد الاستعانة فيه وشتان ما بينهما فإذا أعطى تقسيم الوجود أن هنا صنفاً آخر من البشر مفطوراً على أن تتحرك قوته العقلية حركتها الفكرية بالارادة عند ما يعثها النزوع لذلك وهي ناقصة عنه بالجيلة فيكون لها بالجيلة عند ما يعوقها العجز عن ذلك تثبت بأمور جزئية محسوسة أو متخيلة كالأجسام الشفافة وعظام الحيوانات وسجع الكلام وما صنع من طير أو حيوان فيستديم ذلك الاحساس أو التخيل مستعيناً به في ذلك الانسلاخ الذي يقصده ويكون كالشمع له وهذه القوة التي فيهم مبدأ لذلك الإدراك هي الكهانة ولكون هذه النفوس مفطورة على النقص والقصور عن الكمال كان إدراكها في الجزئيات أكثر من الكليات ولذلك تكون الخيلة فيهم في غاية القوة لأنها آلة الجزئيات فتنفذ فيها نفوذاتاً في نوم أو يقظة وتكون عندها حاضرة عتيدة تحضرها الخيلة وتكون لها كالمراة تنظر فيها دائماً ولا يقوى الكاهن على الكمال في إدراك العقولات لأن وحيه من وحي الشيطان وأرفع أخوال هذا الصنف

أن يستعين بالكلام الذي فيه السجع والموازنة ليشغل به عن الحواس ويقوى بعض الشيء على ذلك الاتصال الناقص فيهبس في قلبه عن تلك الحركة والذي يشيعها من ذلك الأجنبي ما يقذفه على لسانه فربما صدق ووافق الحق وربما كذب لأنه يتم نقصه بأمر أجنبي عن ذاته المدركة ومباين لها غير ملائم فيعرض له الصدق والكذب جميعا ولا يكون موثوقا به وربما يفرع الى الظنون والتخمينات حرصا على الظفر بالادراك بزعمه وتمويهها على السائلين وأصحاب هذا السجع هم المخصوصون باسم الكهان لأنهم أرفع سائر أصنافهم وقد قال صلى الله عليه وسلم في مثله هذا من سجع الكهان فجعل السجع مختصا بهم بمقتضى الاضافة وقد قال لابن صياد حين سأله كاشفا عن حاله بالاختيار كيف يأتيك هذا الأمر قال يأتيني صادق وكاذب فقال خلط عليك الأمر يعني أن النبوة خاصتها الصدق فلا يعترها الكذب بحال لأنها اتصال من ذات النبي بالملاء الأعلى من غير مشيع ولا استعانة بأجنبي والكهانة لما احتاج صاحبها بسبب معجزه الى الاستعانة بالتصورات الأجنبية كانت داخلة في ادراكه والتبست بالادراك الذي توجه اليه فصار مختلطابها وطرقه الكذب من هذه الجهة فامتنع أن تكون نبوة وانما قلنا ان أرفع مراتب الكهانة حالة السجع لان معنى السجع أخف من سائر المعانيات من المراتب والسموعات وتدل خفة المعنى على قرب ذلك الاتصال والادراك والبعد فيه عن العجز بعض الشيء (وقد زعم) بعض الناس أن هذه الكهانة قد انقطعت منذ زمن النبوة بما وقع من شأن رجم الشياطين بالشهب بين يدي البعثة وأن ذلك كان لمنعهم من خبر السماء كما وقع في القرآن والكهان انما يعرفون أخبار السماء من الشياطين فبطلت الكهانة من يومئذ ولا يقوم من ذلك دليل لأن علوم الكهان كما تكون من الشياطين تكون من نفوسهم أيضا كما قررناه وأيضا فالآية انما دلت على منع الشياطين من نوع واحد من أخبار السماء وهو ما يتعلق بخبر البعثة ولم يمنعوا عما سوى ذلك وأيضا فانما كان ذلك الانقطاع بين يدي النبوة فقط ولعلها عادت بعد ذلك الى ما كانت عليه وهذا هو الظاهر لأن هذه المدارك كلها تخمد في زمن النبوة كما تخمد الكواكب والسرير عند وجود الشمس لأن النبوة هي النور الأعظم الذي يخفي معه كل نور ويذهب وقد زعم بعض الحكماء أنها انما توجد بين يدي النبوة ثم تنقطع وهكذا مع كل نبوة وقعت لان وجود النبوة لا بد له من وضع فلما يقتضيه وفي تمام ذلك الوضع تمام تلك النبوة التي دل عليها ونقص ذلك الوضع عن التمام يقتضي وجود طبيعة من ذلك النوع الذي يقتضيه ناقصة وهو معنى الكاهن على ما قررناه قبل أن يتم ذلك الوضع الكامل يقع الوضع الناقص ويقتضي وجود الكاهن إما واحدا أو متعددا فاذا تم ذلك الوضع تم وجود النبي بكامله وانقضت الأوضاع الدالة على مثل تلك الطبيعة فلا يوجد منها شيء بعد وهذا بناء على أن بعض الوضع الفلكي يقتضي بعض أثره وهو غير مسلم فلعل الوضع انما يقتضي ذلك الأثر بهيئته الخاصة ولو نقص بعض أجزائها فلا يقتضي شيئا لأنه يقتضي ذلك الأثر ناقصا كما قالوه ثم إن هؤلاء الكهان اذا عاصروا زمن النبوة فانهم عارفون بصدق النبي ودلالة معجزته لأن لهم بعض الوجدان من أمر

النبوة كالكل انسان من أمر النوم ومعقولية تلك النسبة موجودة للكاهن بأشد مما للنائم ولا يصدم عن ذلك ويوقعهم في التكذيب لا قوة المطامع في أنها نبوة لهم فيقعون في العناد كما وقع لأمية بن أبي الصلت فانه كان يطمع أن يتنبأ وكذا وقع لابن صياد ومسلمة وغيرهم فاذا غلب الايمان وانقطعت تلك الأمانى آمنوا أحسن ايمان كما وقع لطليحة الأسدي وسواد بن قارب وكان لهما في الفتوحات الاسلامية من الآثار الشاهدة بحسن الايمان (وأما الرؤيا) حقيقتها مطالعة النفس الناطقة في ذاتها الروحانية لمحة من صور الواقعات فانها عند ما تكون روحانية تكون صور الواقعات فيها موجودة بالفعل كما هو شأن الدوات الروحانية كلها وتصير روحانية بأن تتجرد عن المواد الجسمانية والمدارك البدنية وقد يقع لها ذلك بسبب النوم كما نذكر فتقتبس بها علم ما تتشوف اليه من الأمور المستقبلية وتعود به الى مداركها فان كان ذلك الاقتباس ضعيفا وغير جلي بالمحاكاة والمثال في الخيال لتخلطه فيحتاج من أجل هذه المحاكاة الى التعبير وقد يكون الاقتباس قويا يستغني فيه عن المحاكاة فلا يحتاج الى تعبير لخواصه من المثال والخيال والسبب في وقوع هذه اللمحة للنفس أنها ذات روحانية بالقوة مستكملة بالبدن ومداركه حتى تصير ذاتها تعقلا محضا ويكمل وجودها بالفعل فتكون حينئذ ذاتا روحانية مدركة بغير شيء من الآلات البدنية الا أن نوعها في الروحانيات دون نوع الملائكة أهل الأفق الأعلى الذين لم يستكملوا ذاتهم بشيء من مدارك البدن ولا غيره فهذا الاستعداد حاصل لها مادامت في البدن ومنه خاص كالذي للأولياء ومنه عام للبشر على العموم وهو أمر الرؤيا \* وأما الذي للأنبياء فهو استعداد بالانسلاخ من البشرية الى الملكية المحضة التي هي أعلى الروحانيات ويخرج هذا الاستعداد فيهم متكررا في حالات الوحي وهو عندما تخرج على المدارك البدنية ويقع فيها ما يقع من الادراك شبيها بحال النوم شبيها بينا وان كان حال النوم أدون منه بكثير فلاجل هذا الشبه عبر الشارع عن الرؤيا بأنها جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة وفي رواية ثلاثة وأربعين وفي رواية سبعين وليس العدد في جميعها مقصودا بالذات وانما المراد الكثرة في تفاوت هذه المراتب بدليل ذكر السبعين في بعض طرقه وهو للتكثير عند العرب وما ذهب اليه بعضهم في رواية ستة وأربعين من أن الوحي كان في مبتدئه بالرؤيا ستة أشهر وهي نصف سنة ومدة النبوة كلها بمكة والمدينة ثلاث وعشرون سنة فنصف السنة منها جزء من ستة وأربعين فكلام بعيد من التحقيق لانه انما وقع ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم ومن أين لنا أن هذه المدة وقعت لغيره من الأنبياء مع أن ذلك انما يعطى نسبة زمن الرؤيا من زمن النبوة ولا يعطى نسبة حقيقتها من حقيقة النبوة واذا تبين لك هذا ما ذكرناه أولا علمت أن معنى هذا الجزء نسبة الاستعداد الأول الشامل للبشر الى الاستعداد القريب الخاص بصنف الأنبياء الفطري لهم صلوات الله عليهم اذ هو الاستعداد البعيد وان كان عاما في البشر ومعه عوائق وموانع كثيرة من حصوله بالفعل ومن أعظم تلك الموانع الحواس الظاهرة فقطر الله البشر على ارتفاع حجاب الحواس بالنوم الذي هو جلي لهم فتعرض النفس عند ارتفاعه الى معرفة ما تتشوف اليه في عالم الحق فتدرك في بعض الأحيان منه لمحة يكون فيها الظفر بالمطلوب



ولذلك جعلها الشارع من البشرات فقال لم يبق من النبوة الا البشرات قالوا وما البشرات يا رسول الله قال الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح أو ترى له وأما سبب ارتفاع حجاب الحواس بالنوم فعلى ما أصفه لك وذلك أن النفس الناطقة إنما ادراكها وأفعالها بالروح الحيواني الجسماني وهو بخار لطيف مركزه بالتجويف الأيسر من القلب على ما في كتب التشريح لجالينوس وغيره وينبعث مع الدم في الشريانات والعروق فيعطي الحس والحركة وسائر الأفعال البدنية ويرتفع لطيفه الى الدماغ فيعدل من برده وتتم أفعال القوى التي في بطونه فالنفس الناطقة إنما تدرك وتعمل بهذا الروح البخاري وهي متعلقة به لما اقتضته حكمة التكوين في أن اللطيف لا يؤثر في الكثيف ولما لطف هذا الروح الحيواني من بين المواد البدنية صار محلاً لأنوار الذات المبينة له في جسمانيته وهي النفس الناطقة وصارت آثارها حاصلة في البدن بواسطة وقد كنا قد قلنا أن إدراكها على نوعين إدراك بالظاهر وهو بالحواس الخمس وإدراك بالباطن وهو بالقوى الدماغية وأن هذا الإدراك كله صارف لها عن إدراكها ما فوقها من ذواتها الروحانية التي هي مستعدة له بالفطرة ولما كانت الحواس الظاهرة جسمانية كانت معرضة للوسن والفشل بما يدركها من التعب والكلال وتفشي الروح بكثرة التصرف فخلق الله لها طلب الاستجمام لتجرد الإدراك على الصورة الكاملة وإنما يكون ذلك بانخس الروح الحيواني من الحواس الظاهرة كلها ورجوعه الى الحس الباطن ويعين على ذلك ما يغشي البدن من البرد بالليل فتطلب الحرارة الغريزية أعماق البدن وتذهب من ظاهره الى باطنه فتكون مشبعة مركبها وهو الروح الحيواني الى الباطن ولذلك كان النوم للبشر في الغالب انما هو بالليل فاذا انخس الروح عن الحواس الظاهرة ورجع الى القوى الباطنة وخفت عن النفس شواغل الحس وموانعه ورجعت الى الصورة التي في الحافظة تمثل منها بالتركيب والتحليل صور خيالية وأكثر ما تكون معتادة لانها منتزعة من المدركات المتعاهدة قريباً ثم ينزلها الحس المشترك الذي هو جامع الحواس الظاهرة فيدركها على أنحاء الحواس الخمس الظاهرة وربما التفتت النفس لفتة الى ذاتها الروحانية مع منازعتها للقوى الباطنية فتدرك بأدراكها الروحاني لانها مفطورة عليه وتقتبس من صور الأشياء التي صارت متعلقة في ذاتها حينئذ ثم يأخذ الخيال تلك الصور المدركة فيمثلها بالحقيقة أو المحاكاة في القوالب المعبودة والمحاكاة من هذه هي المحتاجة للتعبير وتصرفها بالتركيب والتحليل في صور الحافظة قبل أن تدرك من تلك اللمحة ما تدركه هي أضغاث أحلام (وفي الصحيح) أن النبي صلى الله عليه وسلم قال الرؤيا ثلاث رؤيا من الله ورؤيا من الملك ورؤيا من الشيطان وهذا التفصيل مطابق لما ذكرناه فالجلى من الله والمحاكاة الداعية الى التعبير من الملك وأضغاث الأحلام من الشيطان لانها كلها باطل والشيطان ينبوع الباطل هذه حقيقة الرؤيا وما يسببها ويشيعها من النوم وهي خواص للنفس الانسانية موجودة في البشر على العموم لا يخلو عنها أحد منهم بل كل واحد من الانسان رأى في نومه ما صدر له في يقظته مراراً غير واحدة وحصل له على القطع أن النفس مدركة للغيب في النوم ولا بدواً إذا جاز ذلك في عالم النوم فلا يمتنع في غيره من الأحوال

لان الذات المدركة واحدة وخواصها عامة في كل حال والله الهادي الى الحق بمنه وفضله  
 (فصل) ووقوع ما يقع للبشر من ذلك غالبا انما هو من غير قصد ولا قدرة عليه وانما تكون النفس  
 متشوقة لذلك الشيء فيقع لها بتلك اللمحة في النوم لأنها تقصد الى ذلك فتراه وقد وقع في كتاب الغاية  
 وغيره من كتب أهل الرياض ذكر أسماء تذكر عند النوم فتكون عنها الرؤيا فيما يتشوف اليه ويسمونها  
 الحالومية وذكر منها مسلمة في كتاب الغاية حالومية سماها حالومة الطباع التام وهو أن يقال عند النوم  
 بعد فراغ السروحة التوجه هذه الكلمات الاعجمية وهي تماغس بعد أن يسود وغداس نوفنا غداس  
 ويذكر حاجته فإنه يرى الكشف عما يسأل عنه في النوم (وحكي) أن رجلا فعل ذلك بعد رياضة  
 ليل في ما كله وذكره فتمثل له شخص يقول له أنا طبايعك التام فسأله واخبره عما كان يتشوف اليه وقد  
 وقع لي أنا بهذه الاسماء مرأى عجيبه واطلعت بها على أمور كنت أتشوف اليها من أحوالي وليس  
 ذلك بدليل على أن القصد للرؤيا يحدثها وانما هذه الحالومات تحدث استعدادا في النفس لوقوع الرؤيا  
 فاذا قوي الاستعداد كان أقرب الى حصول ما يستعدله وللشخص أن يفعل من الاستعداد ما أحب  
 ولا يكون دليلا على ايقاع المستعدله فالقدرة على الاستعداد غير القدرة على الشيء فاعلم ذلك  
 وتدبره فيما تجد من أمثاله والله الحكيم الخبير

(فصل) ثم إنا نجد في النوع الانساني أشخاصا يخبرون بالكائنات قبل وقوعها بطبيعة فيهم يتميز  
 بها صنفهم عن سائر الناس ولا يرجعون في ذلك الى صناعة ولا يستدلون عليه بأثر من النجوم  
 ولا غيرها انما تجد مداركهم في ذلك بمقتضى فطرتهم التي فطروا عليها وذلك مثل العرافين والناظرين  
 في الأجسام الشفافة كالمرآيا وطاس الماء والناظرين في قلوب الحيوانات وأكبادها وعظامها وأهل  
 الزجر في الطيور والسباع وأهل الطرق بالحصى والجبوب من الحنطة والنوى وهذه كلها موجودة في  
 عالم الانسان لا يسع أحدا جحدها ولا انكارها وكذلك المجانين يلقى على ألسنتهم كلمات من الغيب  
 فيخبرون بها وكذلك النائم والميت لأول موته أو نومه يتكلم بالغيب وكذلك أهل الرياضات من  
 المتصوفة لهم مدارك في الغيب على سبيل الكرامة معروفة \* ونحن الآن نتكلم على هذه الادراكات  
 كلها ونبتدي منها بالكهانة ثم نأتى عليها واحدة واحدة الى آخرها ونقدم على ذلك مقدمة في أن  
 النفس الانسانية كيف تستعد لادراك الغيب في جميع الأصناف التي ذكرناها وذلك أنها ذات روحانية  
 موجودة بالقوة من بين سائر الروحانيات كما ذكرناه قبل وانما تخرج من القوة الى الفعل بالبدن  
 وأحواله وهذا أمر مدرك لكل أحد وكل ما بالقوة فله مادة وصورة وصورة هذه النفس التي بها يهتم  
 وجودها هو عين الادراك والتعقل فهي توجد أولا بالقوة مستعدة للادراك وقبول الصور الكلية  
 والجزئية ثم يتم نشؤها ووجودها بالفعل بمصاحبة البدن وما يعودها بورود مدركات المحسوسة  
 عليها وما تنتزع من تلك الادراكات من المعاني الكلية فتتعقل الصور مرة بعد أخرى حتى يحصل لها  
 الادراك والتعقل بالفعل فتم ذاتها وتبقى النفس كالمحلولى والصور متعاقبة عليها بالادراك واحدة بعد

ولذلك نجد الصبي في أول نشأته لا يقدر على الادراك الذي لهما من ذاتها لا بنوم ولا بكشف ولا بغيرهما وذلك لان صورتها التي هي عين ذاتها وهي الادراك والتعقل لم يتم بعد بل لم يتم لها انتزاع الكليات ثم اذا تمت ذاتها بالفعل حصل لها ما دامت مع البدن نوعان من الادراك ادراك بآلات الجسم تؤديه اليها المدارك البدنية وادراك بذاتها من غير واسطة وهي محجوبة عنه بالانغماس في البدن والحواس وبشواغلها لان الحواس أبدا جاذبة لها الى الظاهر بما فطرت عليه أولا من الادراك الجسماني وربما تنغمس من الظاهر الى الباطن فيرتفع حجاب البدن لحظة إما بالخاصية التي هي للانسان على الاطلاق مثل النوم أو بالخاصية الموجودة لبعض البشر مثل الكهانة والطرق أو بالرياضة مثل أهل الكشف من الصوفية فتلتفت حينئذ الى الذات التي فوقها من الملاء الأعلى لما بين أقدحها وأقدحهم من الاتصال في الوجود كما قررناه قبل وتلك الدورات روحانية وهي ادراك محض وعقول بالفعل وفيها صور الموجودات وحقائقها كما مر فيتجلى فيها شيء من تلك الصور وتقتبس منها علوما وربما دفعت تلك الصور المدركة الى الخيال فيصرفه في القوالب المعتادة ثم يرجع الحس بما أدركت إما مجردا أو في قوالبه فتجربه هذا هو شرح استعداد النفس لهذا الادراك الغيبي ولزجج الى ما وعدنا به من بيان أصنافه (فأما) الناظرون في الأجسام الشفافة من المرايا وطساس المياه وقلوب الحيوان وأكبادهما وعظامها وأهل الطرق بالخصى والنوى فكلهم من قبيل الكهان الا أنهم أضغف رتبة فيه في أصل خلقهم لأن الكاهن لا يحتاج في رفع حجاب الحس الى كثير معاناة وهؤلاء يعانونه بانحصار المدارك الحسية كلها في نوع واحد منها وأشرافها البصر فيعكف على المرئي البسيط حتى يبدو له مدركه الذي تجربه عنه وربما يظن أن مشاهدة هؤلاء لما يرونه هو في سطح المرآة وليس كذلك بل لا يزالون ينظرون في سطح المرآة الى أن يغيب عن البصر ويبدو فيما بينهم وبين سطح المرآة حجاب كأنه غمام يتمثل فيه صور هي مداركهم فيشيرون اليهم بالمقصود لما يتوجهون الى معرفته من نفي أو إثبات فيجربون بذلك على نحو ما أدركوه وأما المرآة وما يدرك فيها من الصور فلا يدركونه في تلك الحال وانما ينشأ لهم بها هذا النوع الآخر من الادراك وهو نفساني ليس من ادراك البصر بل يتشكل به المدرك النفساني للحس كما هو معروف ومثل ذلك ما يعرض للناظرين في قلوب الحيوانات وأكبادهما وللناظرين في الماء والطساس وأمثال ذلك وقد شاهدنا من هؤلاء من يشغل الحس بالبخور فقط ثم بالعزائم للاستعداد ثم يجبر كما أدرك ويزعمون أنهم يرون الصور متشخصة في الهواء تحكي لهم أحوال ما يتوجهون الى ادراكه بالمثال والاشارة وغية هؤلاء عن الحس أخف من الأولين والعالم أبو الغرائب وأما الزجر فهو ما يحدث من بعض الناس من التكلم بالغيب عند سnoch طائر أو حيوان والفكر فيه بعد مغيبه وهي قوة في النفس تبعث على الحرص والفكر فيما زجر فيه من مرئي أو مسموع وتكون قوته الخيلة كما قدمناه قوة فيعثرها في البحث مستعينا بما رآه أو سمعه فيؤدي ذلك الى ادراك ما كما تفعله القوة التخيلية في النوم وعند ركود الحواس تتوسط بين المحسوس المرئي في يقظته وتجمعه مع ما عقلته فيكون عنها الرؤيا وأما المجانين فنفسهم الناطقة ضعيفة



التعلق بالبدن لفساد أمزجتهم غالباً وضعف الروح الحيواني فيها فتكون نفسه غير مستغرقة في الحواس ولا منغمسة بما فيها شغلها في نفسها من ألم التقص ومرضه وربما زاحمها على التعلق به روحانية أخرى شيطانية تتشبث به وتضعف هذه عن ممانعتها فيكون عنه التخييط فإذا أصابه ذلك التخييط إما لفساد مزاجه من فساد في ذاتها أو لمزاحمة من النفوس الشيطانية في تعلقه غاب عن حسه جملة فأدرك لحمة من عالم نفسه وانطبع فيها بعض الصور وصر فيها الخيال وربما نطق على لسانه في تلك الحال من غير ارادة النطق وادراك هؤلاء كلهم مشوب فيه الحق بالباطل لأنه لا يحصل لهم الاتصال وان فقدوا الحس الأبعد الاستعانة بالتصورات الأجنبية كما قررناه ومن ذلك يحى الكذب في هذه المدارك وأما العرافون فهم المتعلقون بهذا الادراك وليس لهم ذلك الاتصال فيسلطون الفكر على الأمر الذي يتوجهون اليه ويأخذون فيه بالظن والتخمين بناء على ما يتوهمونه من مبادئ ذلك الاتصال والادراك ويدعون بذلك معرفة الغيب وليس منه على الحقيقة (هذا تحصيل هذه الأمور) وقد تكلم عليها السعودي في مروج الذهب فما صادف تحقيقاً ولا إصابة ويظهر من كلام الرجل أنه كان بعيداً عن الرسوخ في المعارف فينقل ما سمع من أهله ومن غير أهله وهذه الادراكات التي ذكرناها موجودة كلها في نوع البشر فقد كان العرب يفرعون إلى الكهان في تعرف الحوادث ويتنافرون اليهم في الخصومات ليعرفوهم بالحق فيهم من ادراك غيبهم وفي كتب أهل الأدب كثير من ذلك واشتهر منهم في الجاهلية شق من أنمار بن زار وسطيح بن مازن بن غسان وكان يدرج كما يدرج الثوب ولا عظم فيه إلا الجمجمة ومن مشهور الحكايات عنهما تأويل رؤيا ربيعة بن مضر وما أخبر به من ملك الحبشة لليمن وملك مضر من بعدهم وظهور النبوة المحمدية في قرينش ورؤيا المويذان التي أولها سطيح لما بعث إليه بها كسرى عبد المسيح فأخبره بشأن النبوة وخراب ملك فارس وهذه كلها مشهورة وكذلك العرافون كان في العرب منهم كثير وذكرهم في أشعارهم قال

قلبت لعراف اليمامة ذاوئي \* فانك ان داويتي لطيب

وقال الآخر جعلت لعراف اليمامة حكمه \* وعراف نجدان هما شفياني

فقالا شفاك الله والله مالنا \* بما حملت منك الضلوع يدان

وعراف اليمامة هو رباح بن عجلة وعراف نجد الأبلق الأسدي (ومن هذه المدارك الغيبية) ما يصدر لبعض الناس عند مفارقة اليقظة والتباسه بالنوم من الكلام على الشيء الذي يتشوف إليه بما يعطيه غيب ذلك الأمر كما يريد ولا يقع ذلك إلا في مبادئ النوم عند مفارقة اليقظة وذهاب الاختيار في الكلام فيتكلم كأنه مجبول على النطق وغايته أن يسمعه ويفهمه وكذلك يصدر عن المقتولين عند مفارقة رؤوسهم وأوساط أبدانهم كلام يمثل ذلك ولقد بلغنا عن بعض الجبابرة الظالمين أنهم قتلوا من سجونهم أشخاصاً ليتعرفوا من كلامهم عند القتل عواقب أمورهم في أنفسهم فأعلموهم بما يستبشع وذكر مسلسلة في كتاب الغاية له في مثل ذلك أن آدمياً إذا جعل في دن مملوء

بدهن السمسم ومكث فيه أربعين يوماً يغذى بالتين والجوز حتى يذهب لحمه ولا يبقى منه إلا العروق  
 وشؤون رأسه فيخرج من ذلك الدهن خين يحف عليه الهواء يجيب عن كل شيء يسئل عنه من عواقب  
 الأمور الخاصة والعامة وهذا فعل من منا كبر أفعال السحرة لكن يفهم منه عجائب العالم الانساني ومن  
 الناس من يحاول حصول هذا المدرك الغيبي بالرياضة فيحاولون بالمجاهدة موتاً صناعياً بامانة جميع  
 القوى البدنية ثم محو آثارها التي تلونت بها النفس ثم تغذيتها بالذكر لتزداد قوة في نشأها ويحصل ذلك  
 بجمع الفكر وكثرة الجوع ومن المعلوم على القطع أنه إذا نزل الموت بالبدن ذهب الحس وحجابه  
 واطلعت النفس على ذاتها وعالمها فيحاولون ذلك بالاكتساب ليقع لهم قبل الموت ما يقع لهم بعده وتطلع  
 النفس على المغيبات ومن هؤلاء أهل الرياضة السحرية يرتاضون بذلك ليحصل لهم الاطلاع على المغيبات  
 والتصرفات في العوالم وأكثر هؤلاء في الأقاليم المنحرفة جنوباً وشمالاً خصوصاً بلاد الهند ويسمون  
 هنالك الحوكية ولهم كتب في كيفية هذه الرياضة كثيرة والأخبار عنهم في ذلك غريبة وأما المتصوفة  
 فرياضتهم دينية وعربية عن هذه المقاصد المذمومة وإنما يقصدون جمع الهمة والاقبال على الله بالكلية  
 ليحصل لهم أذواق أهل العرفان والتوحيد ويزيدون في رياضتهم إلى الجمع والجوع التغذية بالذكر فيها  
 تتم وجهتهم في هذه الرياضة لأنه إذا نشأت النفس على الذكر كانت أقرب إلى العرفان بالله وإذا عريت  
 عن الذكر كانت شيطانية وحصول ما يحصل من معرفة الغيب والتصرف لهؤلاء المتصوفة إنما هو  
 بالعرض ولا يكون مقصوداً من أول الأمر لأنه إذ لقصده ذلك كانت الوجهة فيه لغير الله وإنما هي  
 لقصده التصرف والاطلاع على الغيب وأخسر بها صفة فأنها في الحقيقة شرك قال بعضهم من آثار العرفان  
 للعرفان فقد قال الثاني فهم يقصدون بوجهتهم المعبود لشيء سواه وإذا حصل أثناء ذلك ما يحصل  
 فبالعرض وغير مقصود لهم وكثير منهم يفر منه إذا عرض له ولا يحفل به وإنما يريد الله لذاته لا لغيره  
 وحصول ذلك لهم معروف ويسمون ما يقع لهم من الغيب والحديث على الخواطر فراسة وكشفاً وما  
 يقع لهم من التصرف كرامة وليس شيء من ذلك بنكير في حقهم وقد ذهب إلى إنكاره الأستاذ أبو  
 اسحق الاسفرايني وأبو محمد بن أبي زيد المالكي في آخرين فراراً من التباس المعجزة بغيرها والمعول  
 عليه عند المتكلمين حصول التفرقة بالتحدي فهو كاف وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه  
 وسلم قال إن فيكم محدثين وإن منهم عمر وقد وقع للصحابه من ذلك وقائع معروفة تشهد بذلك في مثل  
 قول عمر رضي الله عنه ياسارية الجبل وهو سارية بن زعيم كان قائداً على بعض جيوش المسلمين بالعراق  
 أيام الفتوحات وتورط مع المشركين في معترك وم بالانهزام وكان بقربه جبل يتحيز اليه فرفع لعمر  
 ذلك وهو يخطب على المنبر بالمدينة فناداه ياسارية الجبل وسمعه سارية وهو بمكانه ورأى شخصه  
 هنالك والقصة معروفة ووقع مثله أيضاً لابي بكر في وصيته عائشة ابنته رضي الله عنها في شأن ما خلها  
 من أوسق التمر من حديثه ثم نهها على جذاذه لتحوزة عن الورثة فقال في سياق كلامه وأماها أخواك  
 وأختاك فقالت إنما هي أسماء فمن الأخرى فقال إن ذا بطن بنت خازجة أراها جارية فكانت جارية وقع

في الموطأ في باب ما لا يجوز من النحل ومثل هذه الوقائع كثيرة لهم ولمن بعدهم من الصالحين وأهل الاقتداء  
الأن أهل التصوف يقولون انه يقل في زمن النبوة إذ لا يبق للمريد حالة بخضرة النبي حتى إنهم يقولون  
إن المريد إذا جاء للمدينة النبوية يسلب حاله مادام فيها حتى يفارقها والله يرزقنا الهداية ويرشدنا  
إلى الحق

﴿ فصل ﴾ ومن هؤلاء المريدين من المتصوفة قوم بها ليل معتوهون أشبه بالمجانين من العقلاء  
وهم مع ذلك قد صحت لهم مقامات الولاية وأحوال الصديقين وعلم ذلك من أحوالهم من يفهم عنهم من  
أهل الدوق مع أنهم غير مكلفين ويقع لهم من الاخبار عن المغيبات عجائب لا أنهم لا يتقيدون بشيء  
فيطلقون كلامهم في ذلك ويأتون منه بالعجائب وربما ينكر الفقهاء أنهم على شيء من المقامات لما يرون  
من سقوط التكليف عنهم والولاية لا تحصل إلا بالعبادة وهو غلط فإن فضل الله يؤتيه من يشاء ولا  
يتوقف حصول الولاية على العبادة ولا غيرها وإذا كانت النفس الانسانية ثابتة الوجود فإله تعالى  
يخصها بما شاء من مواهبه وهؤلاء القوم لم تعد نفوسهم الناطقة ولا فسدت كحال المجانين وإنما  
فقد لهم العقل الذي يناط به التكليف وهي صفة خاصة للنفس وهي علوم ضرورية للإنسان  
يشتد بها نظره ويعرف أحوال معاشه واستقامة منزلته وكأنه إذا ميز أحوال معاشه واستقامة  
منزله لم يبق له عذر في قبول التكليف لا صلاح معاد وليس من فقد هذه الصفة بفاقد لنفسه  
ولا ذاهل عن حقيقته فيكون موجود الحقيقة معدوم العقل التكليفي الذي هو معرفة المعاش  
ولا استحالة في ذلك ولا يتوقف اصطفاء الله عباده للمعرفة على شيء من التكليف وإذا صح ذلك  
فاعلم أنه ربما يلتبس حال هؤلاء بالمجانين الذين تفسد نفوسهم الناطقة ويلتحقون بالبهائم ولك في  
تمييزهم علامات منها أن هؤلاء البهاليل تجدهم وجهة ما لا يخلون عنها أصلاً من ذكر وعبادة لكن  
على غير الشروط الشرعية لما قلناه من عدم التكليف والمجانين لا تجدهم وجهة أصلاً ومنها أنهم يخلقون  
على البله من أول نشأتهم والمجانين يعرض لهم الجنون بعدمدة من العمر لعوارض بدنية طبيعية فإذا  
عرض لهم ذلك وفسدت نفوسهم الناطقة ذهبوا بالحيلة ومنها كثرة تصرفهم في الناس بالخير والشر  
لأنهم لا يتوقفون على إذن لعدم التكليف في حقهم والمجانين لا تصرف لهم وهذا فصل انتهى  
بنا الكلام إليه والله المرشد للصواب

( فصل ) وقد يزعم بعض الناس أن هنا مدارك للغيب من دون غيبة عن الحس فمنهم المنجمون  
القائلون بالدلالات النجومية ومقتضى أوضاعها في الفلك وآثارها في العناصر وما يحصل من الامتزاج  
بين طباعها بالتناظر ويتأدى من ذلك المزاج إلى الهواء وهؤلاء المنجمون ليسوا بمن الغيب في شيء  
إنما هي ظنون حدسية وتخمينات مبنية على التأثير النجومية وحصول المزاج منه للهواء مع مزيد حدس  
يقف به الناظر على تفصيله في الشخصيات في العالم كما قاله بطليموس ونحن نبين بطلان ذلك في محله إن  
شاء الله وهو لو ثبت فغايبته حدس وتخمين وليس مما ذكرناه في شيء ومن هؤلاء قوم من العامة



استنبطوا الاستخراج الغيب وتعرف الكائنات صناعة سموها خط الرمل نسبة الى المادة التي يضعون فيها عملهم ومحصول هذه الصناعة أنهم صيروا من النقط أشكالا ذات أربع مراتب تختلف باختلاف مراتبها في الزوجية والفردية واستوائها فيهما فكانت ستة عشر شكلا لأنهن كان أزواجا كلها أو أفرادا كلها فشكلا وان كان الفرد فيهما في مرتبة واحدة فقط فأربعة أشكال وان كان الفرد في مرتبتين فستة أشكال وان كان في ثلاث مراتب فأربعة أشكال جاءت ستة عشر شكلا ميزوها كلها بأسمائها وأنواعها الى سعود ونحوس شأن الكواكب وجعلوا الهامة عشرة بيتا طبيعية بزعمهم وكأنها البروج الاثنا عشر التي للفلك والأوتاد الاربعة وجعلوا لكل شكل منها بيتا وحظوظا ودلالة على صنف من موجودات عالم العناصر يختص به واستنبطوا من ذلك فناحا ذوا به فن النجامة ونوع قضائه الا أن أحكام النجامة مستندة الى أوضاع طبيعية كازعم بطليموس وهذه انما مستندة الى أوضاع تحكمية وأهواء اتفاقية ولا دليل يقوم على شيء منها ويزعمون أن أصل ذلك من النبوات القديمة في العالم وربما نسبوها الى دانيال أو الى ادريس صلوات الله عليهم شأن الصنائع كلها وربما يدعون مشروعيتها ويحتجون بقوله صلى الله عليه وسلم كان نبي يخط فمن وافق خطه فذاك وليس في الحديث دليل على مشروعية خط الرمل كما يزعمه بعض من لا تحصيل لديه لان معنى الحديث كان نبي يخط يأتية الوحي عند ذلك الخط ولا استحالة في أن يكون ذلك عادة لبعض الأنبياء فمن وافق خطه ذلك النبي فهو ذاك أي فهو صحيح من بين الخط بما عضة من الوحي لذلك النبي الذي كانت عادته أن يأتية الوحي عند الخط وأما إذا أخذ ذلك من الخط مجردا من غير موافقة وحي فلا وهذا معنى الحديث والله أعلم فإذا أرادوا استخراج مغيب بزعمهم عمدوا الى قرطاس أو رمل أو دقيق فوضعوا النقط سطورا على عدد المراتب الاربعة ثم كرروا ذلك أربع مرات فتجيء ستة عشر سطرا ثم يطرحون النقط أزواجا ويضعون ما بقى من كل سطر زواجا كان أو فردا في مرتبته على الترتيب فتجيء أربعة أشكال يضعونها في سطر متتالية ثم يولدون منها أربعة أشكال أخرى من جانب العرض باعتبار كل مرتبة وما قبلها من الشكل الذي بازائه وما يجتمع منهما من زوج أو فرد فتكون ثمانية أشكال موضوعة في سطر ثم يولدون من كل شكلين شكلا تحتها باعتبار ما يجتمع في كل مرتبة من مراتب الشكلين أيضا من زوج أو فرد فتكون أربعة أخرى تحتها يولدون من الاربعة شكلين كذلك تحتها ثم من الشكلين شكلا كذلك تحتها ثم من هذا الشكل الخامس عشر مع الشكل الاول شكلا يكون آخر الستة عشر ثم يحكمون على الخط كله بما اقتضته أشكاله من السعودة والنحوسة بالذات والنظر والحلول والامتزاج والدلالة على أصناف الموجودات وسائر ذلك تحكما غريبا وكثرت هذه الصناعة في العمران ووضعت فيها التأليف واشتهر فيها الاعلام من المتقدمين والمتأخرين وهي كآيت تحكيم وهوى والتحقيق الذي ينبغي أن يكون نصب فكرك أن الغيوب لا تدرك بصناعة البتة ولا سبيل الى تعرفها الا لخواص من البشر المفطورين على الرجوع عن عالم الحس الى عالم الروح ولذلك يسمى المنجمون هذا الصنف كلهم بالزهريين نسبة

الى ما تقتضيه دلالة الزهرة بزعمهم في أصل مواليدهم على ادراك الغيب فالخط وغيره من هذه ان كان الناظر فيه من أهل هذه الخاصة وقصد بهذه الأمور التي ينظر فيها من النقط أو العظام أو غيرها اشغال الحس لترجع النفس الى عالم الروحانيات لحظة ما فهو من باب الطرق بالخصى والنظر في قلوب الحيوانات والمرابا الشفافة كما ذكرناه وان لم يكن كذلك وانما قصد معرفة الغيب بهذه الصناعة وأنها تفيد ذلك فهذر من القول والعمل والله يهدي من يشاء والعلامة لهذه الفطرة التي فطر عليها أهل هذا الادراك الغيبي أنهم عند توجههم الى تعرف الكائنات يعترهم خروج عن حالتهم الطبيعية كالثأوب والتمطط ومبادئ الغيبة عن الحس ويختلف ذلك بالقوة والضعف على اختلاف وجودها فيهم فمن لم توجد له هذه العلامة فليس من إدراك الغيب في شيء وإنما هو ساع في تنفيق كذبه

(فصل) ومنهم طوائف يضعون قوانين لاستخراج الغيب ليست من الطور الأول الذي هو من مدارك النفس الروحانية ولا من الحدس المبني على تأثيرات النجوم كما زعمه بطليموس ولا من الظن والتخمين الذي يحاول عليه العرافون وإنما هي مغالط يجعلونها كالمصايد لاهل العقول المستضعفة ولست أذكر من ذلك الا ما ذكره المصنفون وولع به الخواص فمن تلك القوانين الحساب الذي يسمونه حساب النيم وهو مذكور في آخر كتاب السياسة المنسوب لارسطو يعرف به الغالب من المغلوب في المتحاربين من الملوك وهو أن تحسب الحروف التي في اسم أحدهما بحسب الجمل المصطلح عليه في حروف أبجد من الواحد الى الألف آحادا وعشرات ومئين وألوف فاذا حسبت الاسم وتحصل لك منه عدد فاحسب اسم الآخر كذلك ثم اطرح كل واحد منهما تسعة تسعة واحفظ بقية هذا وبقية هذا ثم انظر بين العددين الباقيين من حساب الاسمين فان كان العددين مختلفين في الكمية وكانا معازوجين أو فردين معا فصاحب الأقل منهما هو الغالب وان كان أحدهما زوجا والآخر فردا فصاحب الأكثر هو الغالب وان كانا متساويين في الكمية وهما معازوجان فالمطلوب هو الغالب وان كانا معافرين فالطالب هو الغالب ويقال هنالك بيتان في هذا العمل اشترا بين الناس وهما

أرى الزوج والافراد يسمو أقلها \* وأكثرها عند التجالف غالب

ويغلب مطلوب اذا الزوج يستوى \* وعند استواء الفرد يغلب طالب

ثم وضعوا المعرفة مابقي من الحروف بعد طرحها بتسعة قانونا معروفا عندهم في طرح تسعة وذلك أنهم جمعوا الحروف الدالة على الواحد في المراتب الأربع وهي الدالة على الواحد وى الدالة على العشرة وهي واحد في مرتبة العشرات وق الدالة على المائة لانها واحد في مرتبة المئين وش الدالة على الألف لانها واحد في مرتبة الآلاف وليس بعد الألف عدد يدل عليه بالحروف لان الشين هي آخر حروف أبجد ثم رتبوا هذه الأحرف الأربعة على نسق المراتب فكان منها كلمة رباعية وهي ايقش ثم فعلوا ذلك بالحروف الدالة على اثنين في المراتب الثلاث وأسقطوا مرتبة الآلاف

منها لأنها كانت آخر حروف أبجد فكان مجموع حروف الاثنين في المراتب الثلاث ثلاثة حروف وهي ب الدالة على اثنين في الآحاد وك الدالة على اثنين في العشرات وهي عشرون ور الدالة على اثنين في المئين وهي مائتان وصيروها كلمة واحدة ثلاثية على نسق المراتب وهي بكر ثم فعلوا ذلك بالحروف الدالة على ثلاثة فنشأت عنها كلمة جلس وكذلك إلى آخر حروف أبجد وصارت تسع كلمات نهاية عدد الآحاد وهي ا يقش بكر جلس دمت هنت وضغ ز عند حفظ طضع مرتبة على تو إلى الأعداد ولكل كلمة منها عددها الذي هي في مرتبته فالواحد لكلمة ا يقش والاثنان لكلمة بكر والثلاثة لكلمة جلس وكذلك إلى التاسعة التي هي طضع فتكون لها التسعة فإذا أرادوا طرح الاسم بتسعة نظروا كل حرف منه في أي كلمة هو من هذه الكلمات وأخذوا عددها مكانه ثم جمعوا الأعداد التي يأخذونها بدلا من حروف الاسم فإن كانت زائدة على التسعة أخذوا ما فضل عنها وأخذوه كما هو ثم يفعلون كذلك بالاسم الآخر وينظرون بين الخارجين بما قدمناه والسرف في هذا القانون بين وذلك أن الباقي من كل عقد من عقود الأعداد بطرح تسعة انما هو واحد فكانه يجمع عدد العقود خاصة من كل مرتبة فصارت أعداد العقود كأنها آحاد فلا فرق بين الاثنين والعشرين والمائتين والألفين وكلها اثنان وكذلك الثلاثة والثلاثون والثلثمائة والثلاثة الآلاف كلها ثلاثة ثلاثة فوضعت الأعداد على التوالى دالة على أعداد العقود لا غير وجعلت الحروف الدالة على أصناف العقود في كل كلمة من الآحاد والعشرات والمئين والالوف (١) وصار عدد الكلمة الموضوع عليها نائبا عن كل حرف فيها سواء دل على الآحاد أو العشرات أو المئين فيؤخذ عدد كل كلمة عوضا من الحروف التي فيها وتجمع كلها إلى آخرها كما قلناه هذا هو العمل المتداول بين الناس منذ الأمر القديم وكان بعض من لقيناه من شيوخنا يرى أن الصحيح فيها كلمات أخرى تسعة مكان هذه ومتواليه كتواليها ويفعلون بها في الطرح بتسعة مثل ما يفعلونه بالآخرى سواء وهي هذه أرب يسقك جزلط مدوص هف تحذن عش خغ ثضظ تسع كلمات على توالى العدد ولكل كلمة منها عددها الذي في مرتبته فيها الثلاثي والرابعي والثنائي وليست جارية على أصل مطرد كما نراه لكن كان شيوخنا يقولونها عن شيخ المغرب في هذه المعارف من السيميا وأسرار الحروف والنجامة وهو أبو العباس ابن البناء ويقولون عنه أن العمل بهذه الكلمات في طرح حساب النيم أصح من العمل بكلمات ا يقش والله أعلم كيف ذلك وهذه كلها مدارك للغيب غير مستندة إلى برهان ولا تحقيق والكتاب الذي وجد فيه حساب النيم غير معزو إلى أرسطو عند المحققين لما فيه من الآراء البعيدة عن التحقيق والبرهان يشهد لك بذلك تصفحه ان كنت من أهل الرسوخ اه ومن هذه القوانين الصناعية لاستخراج الغيوب فيما يزعمون الزايرة المسماة بزايرة العالم المعزوة إلى أبي العباس سيدى أحمد السبق من أعلام المتصوفة بالمغرب كان في آخر المائة السادسة بمراكش ولعهد أبي يعقوب المنصور من ملوك الموحدين وهي غريبة العمل صناعة

(١) ( قوله ) والالوف فيه نظر لان الحروف ليس فيها ما يزيد عن الالف كما سبق في كلامه اه



وكثير من الخواص يولعون بإفادة الغيب منها بعملها المعروف الملعوز فيحرضون بذلك على حل رمزه وكشف غامضه وصورتها التي يقع العمل عندهم فيها دائرة عظيمة في داخلها دوائر متوازية للأفلاك والعناصر والمكونات والروحانيات وغير ذلك من أصناف الكائنات والعلوم وكل دائرة مقسومة بأقسام فلكها أما البروج وأما العناصر أو غيرها وخطوط كل قسم مارة إلى المركز ويسمونها الأوتار وعلى كل وتر حروف متتابعة موضوعة فمنها برشوم (١) الزمام التي هي أشكال الأعداد عند أهل الدواوين والحساب بالمغرب لهذا العهد ومنها برشوم الغبار المتعارفة في داخل الزايرة وبين الدوائر أسماء العلوم ومواضع الأكوان وعلى ظاهر الدوائر جدول متكثير البيوت والمتقاطعة طولاً وعرضاً يشتمل على خمسة وخمسين بيتاً في العرض ومائة وأحد وثلاثين في الطول جوانب منه معمورة البيوت تارة بالعدد وأخرى بالحروف وجوانب خالية البيوت ولا تعلم نسبة تلك الأعداد في أوضاعها ولا القسمة التي عينت البيوت العامرة من الحالية وحفاظ الزايرة أبيات من عروض الطويل على مروي اللام المنصوبة تتضمن صورة العمل في استخراج المطلوب من تلك الزايرة إلا أنها من قبيل الالغاز في عدم الوضوح والجلاء وفي بعض جوانب الزايرة بيت من الشعر منسوب لبعض أكابر أهل الحدثان بالمغرب وهو مالك بن وهيب من علماء أشيلية كان في الدولة اللمتونية ونص البيت

سؤال عظيم الخلق حزت فصن اذن \* غرائب شك ضبطه الجد مثلاً

وهو البيت المتداول عندهم في العمل لاستخراج الجواب من السؤال في هذه الزايرة وغيرها فإذا أرادوا استخراج الجواب عما يسهل عنه من المسائل كتبوا ذلك السؤال وقطعوه حروفاً ثم أخذوا الطالع لذلك الوقت من بروج الفلك ودرجها وعمدوا إلى الزاوية ثم إلى الوتر المكتشف فيها بالبرج الطالع من أوله ماراً إلى المركز ثم إلى محيط الدائرة قبالة الطالع فيأخذون جميع الحروف المكتوبة عليه من أوله إلى آخره والأعداد المرسومة بينهم ما يصيرونها حروفاً بحسب الجمل وقد يتقنون آحادها إلى العشرات وعشراتهما إلى المئين وبالعكس فيهما كما يقتضيه قانون العمل عندهم ويضعونها مع حروف السؤال ويضيفون إلى ذلك جميع ما على الوتر المكتشف بالبرج الثالث من الطالع من الحروف والأعداد من أوله إلى المركز فقط لا يتجاوزونه إلى المحيط ويفعلون بالأعداد ما فعلوه بالأول ويضيفونها إلى الحروف الأخرى ثم يقطعون حروف البيت الذي هو أصل العمل وقانونه عندهم وهو بيت مالك ابن وهيب المتقدم ويضعونها ناحية ثم يضربون عدد درج الطالع في أس البرج وأسهم عندهم هو بعد البرج عن آخر المراتب عكس ما عليه الأس عند أهل صناعة الحساب فإنه عندهم البعد عن أول المراتب ثم يضربونه في عدد آخر يسمونه الأس الأكبر والدور الأصلي ويدخلون بما تجمع لهم من ذلك في بيوت الجدول على قوانين معروفة وأعمال مذكورة وأدوار معدودة ويستخرجون منها حروفاً

(١) قوله برشوم أي موضوعة برشوم بضم الراء جمع رشم بالشين المعجمة اهـ

ويسقطون أخرى ويقابلون بأمعهم في حروف البيت وينقلون منه ما ينقلون الى حروف السؤال ومأمعهم يطرحون تلك الحروف بأعداد معلومة يسمونها الأدوار ويخرجون في كل دور الحرف الذي ينتهي عنده الدور يعاودون ذلك بعدد الأدوار المعينة عندهم لذلك فيخرج آخرها حروف متقطعة وتؤلف على التوالي فتصير كلمات منظومة في بيت واحد على وزن البيت الذي يقابل به العمل ورويه وهو بيت مالك بن وهيب المتقدم حسبنا نذكر ذلك كله في فصل العلوم عند كيفية العمل بهذه الزايرة \* وقد رأينا كثيرا من الخواص يتهافتون على استخراج الغيب منها بتلك الأعمال ويحسبون أن ما وقع من مطابقة الجواب للسؤال في توافق الخطاب دليل على مطابقة الواقع وليس ذلك بصحيح لأنه قد مر لك أن الغيب لا يدرك بأمر صناعي البتة وإنما المطابقة التي فيها بين الجواب والسؤال من حيث الأفهام والتوافق في الخطاب حتى يكون الجواب مستقيما أو موافقا للسؤال ووقوع ذلك بهذه الصناعة في تكسير الحروف المجتمعة من السؤال والأوتار والدخول في الجدول بالأعداد المجتمعة من ضرب الأعداد المفروضة واستخراج الحروف من الجدول بذلك وطرح أخرى ومعاودة ذلك في الأدوار المعدودة ومتابعة ذلك كله بحروف البيت على التوالي غير مستنكر وقد يقع الاطلاع من بعض الأذكياء على تناسب بين هذه الأشياء فيقع له معرفة المجهول فالتناسب بين الأشياء هو سبب الحصول على المجهول من المعلوم الحاصل للنفس وطريق لحصوله سيما من أهل الرياضة فانها تفيد العقل قوة على القياس وزيادة في الفكر وقد مر تعليل ذلك غير مرة ومن أجل هذا المعنى ينسبون هذه الزايرة في الغالب لأهل الرياضة فهي منسوبة للسبق ولقد وقعت على أخرى منسوبة لسهل بن عبدالله ولعمري انها من الأعمال الغريبة والمعاناة العجيبة والجواب الذي يخرج منها فالسر في خروجه منظوما يظهر لي إنما هو المقابلة بحروف ذلك البيت ولهذا يكون النظم على وزنه ورويه ويدل عليه أنا وجدنا أعمالا أخرى لهم في مثل ذلك أسقطوا فيها المقابلة بالبيت فلم يخرج الجواب منظوما كما تراه عند الكلام على ذلك في موضعه وكثير من الناس تضيق مداركهم عن التصديق بهذا العمل ونفوذهم إلى المطلوب فينكرونها ويحسب أنها من التخييلات والايهامات وأن صاحب العمل بها يثبت حروف البيت الذي ينظمه كما يريد بين أثناء حروف السؤال والأوتار ويفعل تلك الصناعات على غير نسبة ولا قانون ثم يحجى بالبيت ويوهم أن العمل جاء على طريقة منضبطة وهذا الحسبان توهم فاسد حمل عليه القصور عن فهم التناسب بين الموجودات والمعدومات والتفاوت بين المدارك والعقول ولكن من شأن كل مدرك انكار ما ليس في طوقه ادراكه وكيفينا في رد ذلك مشاهدة العمل بهذه الصناعة والحدس القطعي فانها جاءت بعمل مطرد وقانون صحيح لا مرية فيه عندهم يباشر ذلك بمن له ذكاء وحدس واذا كان كثير من المعايير في العدد الذي هو أوضح الواضحات يعسر على الفهم إدراكه لبعده النسبة فيه وخفاءها فما ظنك بمثل هذا مع خفاء النسبة فيه وغرابتها فلنذكر مسألة من المعايير يتضح لك بها شيء مما ذكرنا مثاله لوقيل لك خذ عددا من الدراهم واجعل

بازاء كل درهم ثلاثة من الفلوس ثم اجمع الفلوس التي أخذت واشتر بها طائرا ثم اشتر بالدرهم كلها طيورا بسعر ذلك الطائر فكم الطيور المشتراة بالدرهم فجوابه أن تقول هي تسعة لأنك تعلم أن فلوس الدرهم أربعة وعشرون وأن الثلاثة ثمنها وأن عدة أثمان الواحد ثمانية فاذا جمعت الثمن من الدرهم إلى الثمن الآخر فكان كله ثمن طائر فهي ثمانية طيور عدة أثمان الواحد وتزيد على الثمانية طائرا آخر وهو المشتري بالفلوس المأخوذة أولا وعلى سعره اشترت بالدرهم فتكون تسعة فأنت ترى كيف خرج لك الجواب لمضمر بسر التناسب الذي بين أعداد المسئلة والوهم أول ما يلقي اليك هذه وأمثالها إنما يجعله من قبيل الغيب الذي لا يمكن معرفته وظهر أن التناسب بين الأمور هو الذي يخرج مجهولها من معلومها وهذا إنما هو في الواقعات الحاصلة في الوجود أو العلم وأما الكائنات المستقبلية إذ لم تعلم أسباب وقوعها ولا يثبت لها خبر صادق عنها فهو غيب لا يمكن معرفته واذ تبين لك ذلك فلا أعمال الواقعة في الزايرة كلها إنما هي في استخراج الجواب من ألفاظ السؤال لأنها كما رأيت استنباط حروف على ترتيب من تلك الحروف بعينها على ترتيب آخر وسر ذلك إنما هو من تناسب بينهما يطلع عليه بعض دون بعض فمن عرف ذلك التناسب تيسر عليه استخراج ذلك الجواب بتلك القوانين والجواب يدل في مقام آخر من حيث موضوع ألفاظه وتراكيبه على وقوع أحد طرفي السؤال من نفي أو إثبات وليس هذا من المقام الأول بل إنما يرجع لمطابقة الكلام لما في الخارج ولا سبيل إلى معرفة ذلك من هذا الأعمال بل البشر محجوبون عنه وقد استأثر الله بعلمه والله يعلم وأتم لا تعلمون

### ﴿ الفصل الثاني ﴾

( في العمران البدوي والائم الوحشية والقبائل وما يعرض في ذلك من الأحوال وفيه أصول وتمهيدات )

### ﴿ فصل في أن أجيال البدو والحضر طبيعية ﴾

﴿ اعلم ﴾ أن اختلاف الأجيال في أحوالهم إنما هو باختلاف نحلته من المعاش فإن اجتماعهم إنما هو للتعاون على تحصيله والابتداء بما هو ضروري منه ونشيط قبل الحاجة والكمالي فمنهم من يستعمل الفلح من الغراسة والزراعة ومنهم من ينتحل القيام على الحيوان من الغنم والبقر والمعز والنحل والدود لتنتاجها واستخراج فضلاتها وهؤلاء القائمون على الفلح والحيوان تدعوهم الضرورة ولا بد إلى البدو لأنه متسع لما لا يتسع له الحواضر من المزارع والفدن والمسارح للحيوان وغير ذلك فكان اختصاص هؤلاء بالبدو أمر اضرورياً لهم وكان حينئذ اجتماعهم وتعاونهم في حاجاتهم ومعاشهم وعمرانهم من القوت والكن والدفء إنما هو بالمقدار الذي يحفظ الحياة ويحصل بلغة العيش من غير مزيد عليه للعجز عما وراء ذلك ثم إذا اتسعت أحوال هؤلاء المنتحلين للمعاش وحصل لهم ما فوق الحاجة من الغنى والرفه دعاهم ذلك إلى السكون والدعة وتعاونوا في الزائد على الضرورة واستكثروا من الأقوات والملابس



والتأنق فيها وتوسعة البيوت واختطاط المدن والأمصاير للتحضر ثم تزيد أحوال الرفقة والدعة فتجيء عوائد الترف البالغة مبالغها في التأنق في علاج القوت واستجادة المطابخ وانتقاء الملابس الفاخرة في أنواعها من الحرير والديباج وغير ذلك ومعالجة البيوت والصروح وإحكام وضعها في تنجيدها والانهاء في الصنائع في الخروج من القوة إلى الفعل إلى غاياتها فيتخذون القصور والمنازل ويجرون فيها المياه ويعالون في صرحها ويبالغون في تنجيدها ويختلفون في استجادة ما يتخذونه لمعاشهم من ملبوس أو فراش أو آنية أو ماعون وهؤلاء هم الحضرة ومعناه الحاضرون أهل الأمصاير والبلدان ومن هؤلاء من ينتحل في معاشه الصنائع ومنهم من ينتحل التجارة وتكون مكسبهم أتمى وأرفه من أهل البدو لأن أحوالهم زائدة على الضروري ومعاشهم على نسبة وجدهم فقد تبين أن أجيال البدو والحضر طبيعية لا بد منهما كما قلناه

## ٢ فصل في أن جيل العرب في الحلقة طبعى

قد قدمنا في الفصل قبله أن أهل البدو هم المنتحلون للمعاش الطبيعي من الفلاح والقيام على الأنعام وأنهم مقتصرون على الضروري من الأقوات والملابس والمساكن وسائر الأحوال والعوائد ومقصرون عما فوق ذلك من حاجى أو كالى يتخذون البيوت من الشعر والوبر أو الشجر أو من الطين والحجارة غير منجدة إنما هو قصد الاستظلال والكن لا ما وراءه وقديماً وون إلى الغيران والكهوف وأما أقواتهم فيتناولون بها يسيراً بعلاج أو بغير علاج البتة إلا مامسته النار فمن كان معاشه منهم في الزراعة والقيام بالفلاح كان المقام به أولى من الظعن وهؤلاء سكان المدائن والقرى والجبال وهم عامة البربر والأعاجم ومن كان معاشه في السائمة مثل الغنم والبقر فهم ظعن في الأغلب لا رتياد المسارح والمياه لحيواناتهم فالتقلب في الأرض أصلح بهم ويسمون شاوية ومعناه القائمون على الشاء والبقر ولا يبعدون في القفر لفقدان المسارح الطيبة وهؤلاء مثل البربر والترك وإخوانهم من التركان والصقالبة وأما من كان معاشهم في الأبل فهم أكثر ظعننا وأبعد في القفر مجالا لأن مسارح التلول ونباتها وشجرها لا يستغنى بها الأبل في قوام حياتها عن مراعى الشجر بالقفر وورود مياهه الملحة والتقلب فصل الشتاء في نواحيه فرار من أذى البرد إلى دفاء هوائه وطلب الماخض النتاج في رماله إذا لابل أصعب الحيوان فصلاً ومخاضاً وأحوجها في ذلك إلى الدفاء فاضطروا إلى إبعاد النجعة وربما ذادتهم الحامية عن التلول أيضاً فأوغلوا في القفار نفرة عن الضعة منهم فكانوا لذلك أشد الناس توحشاً وينزلون من أهل الحواضر منزلة الوحش غير المقدور عليه والمقتسر من الحيوان العجم وهؤلاء هم العرب وفي معانهم ظعون البربر و زانة بالمغرب والأكراد والترك بالمشرق إلا أن العرب أبعد نجعة وأشد بداءة لأنهم مختصون بالقيام على الأبل فقط وهؤلاء يقومون عليها وعلى الشياه والبقر معاً فقد تبين لك أن جيل العرب طبعى لا بد منه في العمران والله سبحانه وتعالى أعلم

٣ ﴿ فصل في أن البدو أقدم من الحضرة وسابق عليه وأن البادية أصل العمران والأمصار مدد لها ﴾

قد ذكرنا أن البدو هم المقتصرون على الضروري في أحوالهم العاجزون عما فوقه وأن الحضرة المعتنون بمحاجات الترف والكمال في أحوالهم وعوائدهم ولا شك أن الضروري أقدم من الحاجي والكمالي وسابق عليه لأن الضروري أصل والكمالي فرع ناشئ عنه فالبدو أصل للمدن والحضر وسابق عليهما لأن أول مطالب الإنسان الضروري ولا ينتهي إلى الكمال والترف إلا إذا كان الضروري حاصلًا غشونة البداوة قبل رقة الحضارة ولهذا نجد التمدن غاية للبدوى يجرى إليها وينتهي بسعيه إلى مقترحه منها ومتى حصل على الرياش الذي يحصل له به أحوال الترف وعوائده عاج إلى الدعة وأمكن نفسه إلى قياد المدينة وهكذا شأن القبائل المتبدية كلهم والحضرى لا يتشوف إلى أحوال البادية إلا للضرورة تدعوه إليها أولتقصير عن أحوال أهل مدينته ومما يشهد لنا أن البدو أصل للحضر ومتقدم عليه أنا إذا فتشنا أهل مصر من الأمصار وجدنا أولية أكثرهم من أهل البدو الذين بناحية ذلك المصر وفي قراه وأنهم أيسروا فسكنوا المصر وعدلوا إلى الدعة والترف الذي في الحضرة وذلك يدل على أن أحوال الحضارة ناشئة عن أحوال البداوة وأنها أصل لها فنفهمه ثم إن كل واحد من البدو والحضر متفاوت الأحوال من جنسه فرب حى أعظم من حى وقبيلة أعظم من قبيلة ومصر أوسع من مصر ومدينة أكثر عمرانا من مدينة فقد تبين أن وجود البدو متقدم على وجود المدن والأمصار وأصل لها بما أن وجود المدن والأمصار من عوائد الترف والدعة التي هي متأخرة عن عوائد الضرورة المعاشية والله أعلم

٤ ﴿ فصل في أن أهل البدو أقرب إلى الخير من أهل الحضرة ﴾

وسببه أن النفس إذا كانت على الفطرة الأولى كانت متهيئة لقبول ما يرد عليها وينطبع فيها من خير أو شر قال صلى الله عليه وسلم كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه وبقدر ما سبق إليها من أحد الخلقين تبعه عن الآخر ويصعب عليها اكتسابه فصاحب الخير إذا سبقت إلى نفسه عوائد الخير وحصلت لها ملكته تبعه عن الشر وصعب عليه طريقه وكذا صاحب الشر إذا سبقت إليه أيضا عوائده وأهل الحضرة لكثرة ما يعانون من فنون الملاذ وعوائد الترف والاقبال على الدنيا والعكوف على شهواتهم منها قد تلونت أنفسهم بكثير من مذمومات الخلق والشر وبعدت عنهم طرق الخير ومسالكه بقدر ما حصل لهم من ذلك حتى لقد ذهب عنهم مذاهب الحشمة في أحوالهم فتجد الكثير منهم يقذعن في أقوال الفحشاء في مجالسهم وبين كبرائهم وأهل عارهم لا يصدعهم عنه وازع الحشمة لما أخذتهم به عوائد السوء في التظاهر بالفواحش قولا وعملا وأهل البدو وإن كانوا مقبلين على الدنيا مثلهم إلا أنه في المقدار الضروري لا في الترف

ولافي شيء من أسباب الشهوات والذات ودواعيها فعواندهم في معاملاتهم على نسبتها وما يحصل فيهم من مذاهب السوء ومذمومات الخلق بالنسبة إلى أهل الحضرة أقل بكثير فيهم أقرب إلى الفطرة الأولى وأبعد عما ينطبع في النفس من سوء الملكات بكثرة العوائد المذمومة وقبحها فيسهل علاجهم عن علاج الحضرة وهو ظاهر وقد توضح فيما بعد أن الحضرة هي نهاية العمران وخروجه إلى الفساد ونهاية الشر والبعد عن الخير فقد تبين أن أهل البدو أقرب إلى الخير من أهل الحضرة والله يحب المتقين أولاً لا يعترض على ذلك بما ورد في صحيح البخاري من قول الحجاج لسمة بن الأء كوع وقد بلغه أنه خرج إلى سكنى البادية فقال له ارتددت على عقبيك تعربت فقال لا ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم أذن لي في البدو فاعلم أن الهجرة افترضت أول الإسلام على أهل مكة ليكونوا مع النبي صلى الله عليه وسلم حيث حل من المواطن ينصرونه ويظاهرونه على أمره ويحرسونه ولم تكن واجبة على الأعراب أهل البادية لأن أهل مكة يمسهم من عصبية النبي صلى الله عليه وسلم في المظاهرة والحراسة ما لا يمس غيرهم من بادية الأعراب وقد كان المهاجرون يستعيذون بالله من التعرب وهو سكنى البادية حيث لا تجب الهجرة وقال صلى الله عليه وسلم في حديث سعد بن أبي وقاص عند مرضه بمكة اللهم أمض لأصحابي هجرتهم ولا تردم على أعقابهم ومعناه أن يوقفهم للملازمة المدينة وعدم التحول عنها فلا يرجعوا عن هجرتهم التي ابتدؤا بها وهو من باب الرجوع على العقب في السعي إلى وجهه من الوجوه وقيل إن ذلك كان خاصاً بما قبل الفتح حين كانت الحاجة داعية إلى الهجرة لقلّة المسلمين وأما بعد الفتح وحين كثّر المسلمون واعتزوا وتكفل الله لبنية بالعصمة من الناس فإن الهجرة ساقطة حينئذ لقوله صلى الله عليه وسلم لا هجرة بعد الفتح وقيل سقط انشاؤها عمن يسلم بعد الفتح وقيل سقط وجوبها عمن أسلم وهاجر قبل الفتح والكل مجمعون على أنها بعد الوفاة ساقطة لأن الصحابة افرقوا من يومئذ في الآفاق وانتشروا ولم يبق الأفضل السكنى بالمدينة وهو هجرة فقول الحجاج لسمة حين سكن البادية ارتددت على عقبيك تعربت نعى عليه في ترك السكنى بالمدينة بالإشارة إلى الدعاء المأثور الذي قدمناه وهو قوله ولا تردم على أعقابهم وقوله تعربت إشارة إلى أنه صار من الأعراب الذين لا يهاجرون وأجاب سمة بانكار ما ألزمه من الأمرين وأن النبي صلى الله عليه وسلم أذن له في البدو ويكون ذلك خاصاً به كشهادة خزيمه وعناق أبي بردة أو يكون الحجاج إنما نعى عليه ترك السكنى بالمدينة فقط لعلمه بسقوط الهجرة بعد الوفاة وأجابه سمة بأن اغتنامه لأذن النبي صلى الله عليه وسلم أولاً وأفضل فما آثره به واختصه إلا نعى عليه فيه وعلى كل تقدير فليس دليلاً على مذمة البدو الذي عبر عنه بالتعرب لأن مشروعية الهجرة إنما كانت كما علمت لمظاهرة النبي صلى الله عليه وسلم وحراسته لا لمذمة البدو فليس في النعي على ترك هذا الواجب بالتعرب دليل على مذمة التعرب والله سبحانه أعلم وبه التوفيق

#### ٥ ﴿ فصل في أن أهل البدو أقرب إلى الشجاعة من أهل الحضرة ﴾

والسبب في ذلك أن أهل الحضرة ألقوا جنوبهم على مهاد الراحة والدعة وانغمسوا في النعيم والترف



ووكلوا أمرهم في المدافعة عن أموالهم وأنفسهم إلى واليهم والحاكم الذي يسوسهم والحامية التي تولت حراستهم واستناموا إلى الأسوار التي تحوطهم والحرز الذي يحول دونهم فلا تهيجهم هيعة ولا ينفر لهم صيد فهم غارون آمنون قد ألقوا السلاح وتوالت على ذلك منهم الأجيال وتزولوا منزلة النساء والولدان الذين هم عيال على أبي مثوام حتى صار ذلك خلقا يتنزل منزلة الطبيعة وأهل البدو لتفردهم عن المجتمع وتوحشهم في الضواحي وبعدهم عن الحامية وانتبأهم عن الأسوار والأبواب فلا يؤمنون بالمدافعة عن أنفسهم لا يكلونها إلى سوام ولا يثقون فيها بغيرهم فهم دائما يحملون السلاح ويتلفتون عن كل جانب في الطرق ويتجافون عن المهبوع الاغرار في المجالس وعلى الرجال وفوق الاقتاب ويتوجسون للنبأت والهيئات ويتفردون في القفر والبيداء مدلين يأسهم واثقين بأنفسهم قد صار لهم البأس خلقا والشجاعة سجية يرجعون إليها متى دعاهم داع أو استنفرهم صارخ وأهل الحضر مهما خالطوهم في البادية أو صاحبوهم في السفر عيال عليهم لا يملكون معهم شيئا من أمر أنفسهم وذلك مشاهد بالبيان حتى في معرفة النواحي والجهات وموارد المياه ومشارع السبل وسبب ذلك ما شرعناه وأصله أن الانسان ابن عوائده ومألوفه لا ابن طبيعته ومزاجه فالذي ألفه في الأحوال حتى صار خلقا ومملكة وعادة تنزل منزلة الطبيعة والحيلة واعتبر ذلك في الآدميين تجده كثيرا صحيحا والله يخلق ما يشاء

#### ٦ ﴿ فصل في أن معاناة أهل الحضر للأحكام مفسدة للبأس فيهم ذاهبة بالمنعة منهم ﴾

وذلك أنه ليس كل أحد مالك أمر نفسه أو الرؤساء والأمراء المالكون لأمر الناس قليل بالنسبة إلى غيرهم فمن الغالب أن يكون الانسان في ملكة غيره ولا بد فان كانت الملكة رفيقة وعادلة لا يعانى منها حكم ولا منع وصد كان من تحت يدها مدلين بما في أنفسهم من شجاعة أو جبن واثقين بعدم الوازع حتى صار لهم الادلال جبلة لا يعرفون سواها وأما اذا كانت الملكة وأحكامها بالقهر والسطوة والاختافة فتكسر حينئذ من سورة بأسهم وتذهب المنعة عنهم لما يكون من التكاسل في النفوس المضطهدة كما نبينه وقد نهى عمر سعد رضي الله عنهما عن مثلها لما أخذ زهرة بن حوية سلب الجالنوس وكانت قيمته خمسة وسبعين ألفا من الذهب وكان اتبع الجالنوس يوم القادسية فقتله وأخذ سلبه فانتزعه منه سعد وقال له هلا انتظرت في اتباعه اذنى وكتب الى عمر يستأذنه فكتب اليه عمر تعمد الى مثل زهرة وقد صلى بما صلى به وبقى عليك ما بقى من حربك وتكسر فوقه وتفسد قلبه وأمضى له عمر سلبه وأما اذا كانت الأحكام بالعقاب فمذهبة للبأس بالكلية لأن وقوع العقاب به ولم يدافع عن نفسه يكسبه المذلة التي تكسر من سورة بأسه بلا شك وأما اذا كانت الأحكام تأديبية وتعليمية وأخذت من عهد الصبا أثرت في ذلك بعض الشيء لمرباه على الخافة والانقياد فلا يكون مدلا يأسه ولهذا نجد المتوحشين من العرب أهل البدو أشد بأسا ممن تأخذهم الأحكام ونجد أيضا الذين يعانون الأحكام ومملكتهم من لدن مرباهم في التأديب والتعليم والعلوم في الصنائع والديانات ينقص ذلك من بأسهم

كثيرا ولا يكادون يدفعون عن أنفسهم عادية بوجه من الوجوه وهذا شأن طلبة العلم المنتحلين للقراءة والأخذ عن المشايخ والأئمة الممارسين للتعليم والتأديب في مجالس الوقار والهيبة فيهم هذه الأحوال وذهابها بالمنعة والبأس ولا تستنكر ذلك بما وقع في الصحابة من أخذهم بأحكام الدين والشرعة ولم ينقص ذلك من بأسهم بل كانوا أشد الناس بأسا لأن الشارع صلوات الله عليه لما أخذ المسمون عنه دينهم كان وازعهم فيه من أنفسهم لما تلى عليهم من الترغيب والترهيب ولم يكن بتعليم صناعى ولا تأديب تعليمى إنما هي أحكام الدين وآدابه المتلقاة تقلايا يأخذون أنفسهم بها بما رسخ فيهم من عقائد الايمان والتصديق فلم تزل سورة بأسهم مستحكمة كما كانت ولم تخدشها أظفار التأديب والحكم قال عمر رضى الله عنه من لم يؤدبه الشرع لأدبه الله حرصا على أن يكون الوازع لكل أحد من نفسه ويقينا بأن الشارع أعلم بمصالح العباد ولما تناقص الدين في الناس وأخذوا بالأحكام الوازعة ثم صار الشرع علما وصناعة يؤخذ بالتعليم والتأديب ورجع الناس الى الحضارة وخلق الاثقياد الى الأحكام نقصت بذلك سورة البأس فيهم فقد تبين أن الأحكام السلطانية والتعليمية مفسدة للبأس لأن الوازع فيها أجني وأما الشرعية فغير مفسدة لأن الوازع فيها ذاتي ولهذا كانت هذه الأحكام السلطانية والتعليمية مما تؤثر في أهل الحواضر في ضعف نفوسهم وخضد الشوكه منهم بمعاناتهم في وليدهم وكمولهم والبدو بمعزل عن هذه المنزلة لبعدهم عن أحكام السلطان والتعليم والآداب ولهذا قال محمد بن أبي زبيد في كتابه في أحكام المعلمين والمتعلمين أنه لا ينبغي للمؤدب أن يضرب أحدا من الصبيان في التعليم فوق ثلاثة أسواط نقله عن شريح القاضي واحتج له بعضهم بما وقع في حديث بدء الوحي من شأن الغطو وأنه كان ثلاث مرات وهو ضعيف ولا يصلح شأن الغط أن يكون دليلا على ذلك لبعده عن التعليم المتعارف والله الحكيم الخبير

#### ٧ \* فصل في أن سكنى البدو لا يكون الا للقبائل أهل العصبية \*

\* اعلم \* أن الله سبحانه ركب في طبائع البشر الخير والشر كما قال تعالى وهديناه النجدين وقال فألهمها فجورها وتقواها والشر أقرب الحلال اليه اذا أهمل في مرعى عوائده ولم يهذب الاقتداء بالدين وعلى ذلك الجمل الغفير الا من وفقه الله ومن أخلاق البشر فيهم الظلم والعدوان بعض على بعض فمن امتدت عينه الى متاع أخيه امتدت يده الى أخذه الا أن يصده وازع كما قال

والظلم من شيم النفوس فان تجد \* ذا غفلة فلعلة لا يظلم

فأما المدن والأصهار فعديوان بعضهم على بعض تدفعه الحكام والدولة بما قبضوا على أيدي من تحتهم من الكفاة أن يمتد بعضهم على بعض أو يعدو عليه فهم مكبوحو (١) بحكمة القهر والسلطان عن التظالم إلا إذا كان من الحاكم بنفسه وأما العدوان الذي من خارج المدينة فيدفعه سياج الأسوار عند الغفلة أو الغرة ليلا أو العجز عن المقاومة نهائياً أو يدفعه زياد الحامية من أعوان الدولة عند الاستعداد والمقاومة وأما أحياء البدو فيزع بعضهم عن بعض مشايخهم وكبرائهم بما وقر في

(١) قوله بحكمة بفتح الحاء والكاف

نفوس الكافة لهم من الوقار والتجلة وأما حللهم فأنما يذود عنها من خارج حامية الحى من أنجادهم وقتيائهم المعروفين بالشجاعة فيهم ولا يصدق دفاعهم وذيادهم إلا إذا كانوا عصبية وأهل نسب واحد لأنهم بذلك تشتد شوكتهم ويخشى جانبهم إذ نعمة كل أحد على نسبه وعصبته أم وما جعل الله في قلوب عباده من الشفقة ( ١ ) والنمرة على ذوى أرحامهم وقربائهم موجودة في الطبائع البشرية وبها يكون التعاضد والتناصر وتعظم رهبة العدو لهم واعتبر ذلك فيما حكاه القرآن عن إخوة يوسف عليه السلام حين قالوا لا يئيه لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذا لخاسرون والمعنى أنه لا يتوهم العدو أن يجمع وجود العصبية له وأما المتفردون في أنسابهم فقل أن تصيب أحدا منهم نعمة على صاحبه فإذا أظلم الجو بالشر يوم الحرب تسلسل كل واحد منهم يبغي النجاة لنفسه خيفة واستيحاشا من التخاذل فلا يقدر من أجل ذلك على سكنى القفر لما أنهم حينئذ طعمة لمن يلتمهم من الأمم سوام وإذا تبين ذلك في السكنى الذى تحتاج للمدافعة والحماية فمثله يتبين لك في كل أمر يحمل الناس عليه من نبوة أو إقامة ملك أو دعوة إذ بلوغ الغرض من ذلك كله إنما يتم بالقتال عليه لما في طبائع البشر من الاستعصاء ولا بد في القتال من العصبية كما ذكرناه آنفا فاتخذة إماما تقتدى به فيما نوره عليك بعد والله الموفق للصواب

#### ٨ \* فصل في أن العصبية إنما تكون من الالتحام بالنسب أو مافي معناه \*

وذلك أن صلة الرحم طبعية في البشر إلا في الأقل ومن صلتها النمرة على ذوى القربى وأهل الأرحام أن ينالهم ضم أو تصيبهم هلكة فإن القريب يجد في نفسه غضاظة من ظلم قريبه أو العدا عليه ويود لو يحول بينه وبين ما يصله من المعاطب والممالك نزعة طبيعية في البشر مذ كانوا فإذا كان النسب المتواصل بين المتناصرين قريبا جدا بحيث حصل به الاتحاد والالتحام كانت الوصلة ظاهرة فاستدعت ذلك بمجرد ما ووضوحها وإذا بعد النسب بعض الشيء فرمما تنوسى بعضها ويبقى منها شهرة فتحمل على النصرة لذوى نسبه بالأمر المشهور منه فراراً من الغضاظة التي يتوهمها في نفسه من ظلم من هو منسوب إليه بوجه ومن هذا الباب الولاء والخلق إذ نعمة كل أحد على أهل ولائه وحلفه للألفة التي تلحق النفس من اهتمام جارها أو قريبتها أو نسيبها بوجه من وجوه النسب وذلك لأجل اللحمة الحاصلة من الولاء مثل لحمة النسب أو قريابها ومن هذا تفهم معنى قوله صلى الله عليه وسلم تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم بمعنى أن النسب إنما فائدة هذا الالتحام الذى يوجب صلة الأرحام حتى تقع المناصرة والنمرة وما فوق ذلك مستغنى عنه إذ النسب أمر وهمي لا حقيقة له ونفعه إنما هو في هذه الوصلة والالتحام فإذا كان ظاهر أو اضحاحل النفوس على طبيعتها من النمرة كما قلناه وإذا كان بما يستفاد من الخبر البعيد ضعف فيه الوهم وذهبت فائدته وصار الشغل به مجانا ومن أعمال الله المنهى عنه ومن هذا الاعتبار معنى قولهم النسب علم لا ينفع وجهالة لا تضر بمعنى أن النسب إذا خرج عن الوضوح وصار من قبيل العلوم ذهبت

( ١ ) قوله النمرة والتعار بالضم فيهما والتعير الصراخ والصياح في حرب أو شر كما في القاموس



فائدة الوهم فيه عن النفس وانتفت النعمة التي تحمل عليها العصبية فلا منفعة فيه حينئذ والله سبحانه وتعالى أعلم

## ٩ \* فصل في أن الصريح من النسب إنما يوجد لمتوحشين في القفر من العرب ومن في معانم \*

وذلك لما اختصوا به من نكد العيش وشظف الأحوال وسوء المواطن حملتهم عليها الضرورة التي عينت لهم تلك القسمة وهي لما كان معاشهم من القيام على الابل وتاجها ورعايتها والابل تدعوهم الى التوحش في القفر لرعيها من شجره وتاجها في رماله كما تقدم والقفر مكان الشظف والسغب فصار لهم الفا وعادة ورييت فيه أجياهم حتى تمكنت خلقا وجيلة فلا ينزع اليهم أحد من الأئم أن يساهمهم في حالهم ولا يأنس بهم أحد من الأجيال بل لو وجد واحد منهم السبيل الى الفرار من حاله وأمكنه ذلك لما تركه فيؤمن عليهم لأجل ذلك من اختلاط أنسابهم وفسادها ولا تزال بينهم محفوظة صريحة واعتبر ذلك في مضر من قريش وكنانة وثقيف وبنى أسد وهذيل ومن جاورهم من خزاعة لما كانوا أهل شظف ومواطن غير ذات زرع ولا ضرع وبعدوا من أرياف الشام والعراق ومعادن الأدم والجوب كيف كانت أنسابهم صريحة محفوظة لم يدخلها اختلاط ولا عرف فيهم شوب \* وأما العرب الذين كانوا بالتلول وفي معادن الحصب للمراعي والعيش من حمير وكهلان مثل لحم وجدام وغسان وطيء وقضاعة وإياد فاختلطت أنسابهم وتداخلت شعوبهم ففي كل واحد من بيوتهم من الخلاف عند الناس ما تعرف وإنما جاءهم ذلك من قبل العجم ومخالطتهم وهم لا يعتبرون المحافظة على النسب في بيوتهم وشعوبهم وإنما هذا للعرب فقط \* قال عمر رضي الله تعالى عنه تعلموا النسب ولا تكونوا كنبط السواد إذا سئل أحدكم عن أصله قال من قرية كذا هذا الى مالحق هؤلاء العرب أهل الأرياف من الازدحام مع الناس على البلد الطيب والمراعي الحصينة فكثر الاختلاط وتداخلت الأنساب وقد كان وقع في صدر الاسلام الانتماء الى المواطن فيقال جند قنسرين جند دمشق جند العواصم وانتقل ذلك الى الأندلس ولم يكن لا طراح العرب أمر النسب وإنما كان لا اختصاصهم بالمواطن بعد الفتح حتى عرفوا بها وصارت لهم علامة زائدة على النسب يتميزون بها عند أمرائهم ثم وقع الاختلاط في الحواضر مع العجم وغيرهم وفسدت الأنساب بالجملة وفقدت عمرتها من العصبية فاطرحت ثم تلاشت القبائل ودرثت فدثرت العصبية بدثورها وبقي ذلك في البدو كما كان والله وارث الارض ومن عليها

## \* فصل في اختلاط الأنساب كيف يقع \*

١٠

\* اعلم \* أنه من البين أن بعضا من أهل الأنساب يسقط الى أهل نسب آخر بقرابة اليهم أو حلف أو ولاء أو لفرار من قومه بجناية أصابها فيدعى بنسب هؤلاء ويعدهم في ثمراته من النعمة والقود وحمل الديات وسائر الأحوال وإذا وجد ثمرات النسب فكانه وجدلانه لا معنى لكونه من هؤلاء ومن هؤلاء الاجريان أحكامهم وأحوالهم عليه وكأنه التحم بهم ثم انه قد يتناسى النسب الأول بطول الزمان ويذهب أهل العلم به فيخفي على الأكثر وما زالت الأنساب تسقط من شعب الى شعب ويلتحم

قوم بآخرين في الجاهلية والاسلام والعرب والعجم \* وانظر خلاف الناس في نسب آل المنذر وغيرهم يتبين لك شيء من ذلك ومنه شأن بجيلة في عرجة بن هرثة لما ولاه عمر عليهم فسألوه الاعفاء منه وقالوا هو فينا لزيق أي دخیل ولصيق وطلبوا أن يولى عليهم جريرا فسأله عمر عن ذلك فقال عرجة صدقوا يا أمير المؤمنين أنا رجل من الازد أصبت دما في قومي ولحقت بهم وانظر منه كيف اختلط عرجة ببجيلة ولبس جلدتهم ودعى بنسبهم حتى ترشح للرياسة عليهم لولا علم بعضهم بوشاحه ولو غفلوا عن ذلك وامتد الزمن لتنوسى بالجملة وعدمهم بكل وجه ومذهب فافهمه واعتبر سر الله في خلقته ومثل هذا كثير لهذا العهد ولما قبله من العهود والله الموفق للصواب بمنه وفضله وكرمه

### ( ١١ ) \* فصل في أن الرياسة لا تزال في نصابها المخصوص من أهل العصبية \*

\* اعلم \* أن كل حي أو بطن من القبائل وان كانوا عصابة واحدة لنسبهم العام فقيم أيضا عصبيات أخرى لأنساب خاصة هي أشد التحاماً من النسب العام لهم مثل عشير واحد أو أهل بيت واحد أو اخوة بني أب واحد أو مثل بني العم الأقربين أو الأبعدين فهو لاء أقعد بنسبهم المخصوص ويشاركون من سواهم من العصاب في النسب العام والنعرة تقع من أهل المخصوص ومن أهل النسب العام لأنها في النسب الخاص أشد لقرب اللحم والرياسة فيهم إنما تكون في نصاب واحد منهم ولا تكون في الكل ولما كانت الرياسة إنما تكون بالغلب وجب أن تكون عصبية ذلك النصاب أقوى من سائر العصاب ليقع الغلب بها وتم الرياسة لأهلها فإذا وجب ذلك تعين أن الرياسة عليهم لا تزال في ذلك النصاب المخصوص أهل الغلب عليهم إذ لو خرجت عنهم وصارت في العصاب الأخرى النازلة عن عصابهم في الغلب لما تمت لهم الرياسة فلا تزال في ذلك النصاب متناقلة من فرع منهم إلى فرع ولا تنتقل إلا إلى الأقوي من فروعه لما قلناه من سر الغلب لأن الاجتماع والعصبية بمثابة المزاج المتكون والمزاج في المتكون لا يصلح إذا تكافأت العناصر فلا بد من غلبة أحدها والامتياز التكويني فهذا هو سر اشتراط الغلب في العصبية ومنه تعين استمرار الرياسة في النصاب المخصوص بها كما قررناه

### ١٢ \* فصل في أن الرياسة على أهل العصبية لا تكون في غير نسبهم \*

وذلك أن الرياسة لا تكون إلا بالغلب والغلب إنما يكون بالعصبية كما قدمناه فلا بد في الرياسة على القوم أن تكون من عصبية غالبية لعصباتهم واحدة واحدة لأن كل عصبية منهم إذا أحست بغلب عصبية الرئيس لهم أقروا بالأذعان والاتباع والساقط في نسبهم بالجملة لا تكون له عصبية فيهم بالنسب إنما هو ملصق لزيق وغاية التعصب له بالولاء والحلف وذلك لا يوجب له غلبا عليهم البتة وإذا فرضنا أنه قد التحم بهم واختلط وتنوسى عهده الأول من الالتصاق ولبس جلدتهم ودعى بنسبهم فكيف له الرياسة قبل هذا الالتحام أولاً أحد من سلفه والرياسة على القوم إنما تكون

( ١١ ) هذا الفصل ساقط من النسخ الفاسية وموجود في النسخة التونسية وإثباته أولي ليطابق كلامه أول

متناقلة في منبت واحد تعين له الغلب بالعصبية فالأولية التي كانت لهذا الملصق قد عرفت فيها التصاقه من غير شك ومنعه ذلك الالتصاق من الرياسة حينئذ فكيف تنوقلت عنه وهو على حال الالتصاق والرياسة لا بد وأن تكون موروثية عن مستحقها لما قلناه من التغلب بالعصبية وقد يتشوف كثير من الرؤساء على القبائل والعصائب إلى أنساب يلجئون بها إلى الخصوصية فضيلة كانت في أهل ذلك النسب من شجاعة أو كرم أو ذكر كيف اتفق فينزعون إلى ذلك النسب ويتورطون بالدعوى في شعوبه ولا يعلمون ما يوقعون فيه أنفسهم من القبح في رياستهم والطعن في شرفهم وهذا كثير في الناس لهذا العهد فمن ذلك ما يدعيه زائدة جملة أنهم من العرب ومنه ادعاء أولاد رباب المعروفين بالحجازيين من بني عامر أحد شعوب زغبة أنهم من بني سليم ثم من الشريد منهم لحق جدم بني عامر نجاراً يصنع الحرجان ( ١ ) واختلط بهم والتحم بنسبهم حتى رأس عليهم ويسمونه الحجازي \* ومن ذلك ادعاء بني عبد القوي ابن العباس بن توجين أنهم من ولد العباس بن عبد المطلب زغبة في هذا النسب الشريف وغلط باسم العباس بن عطية أبي عبد القوي ولم يعلم دخول أحد من العباسيين إلى المغرب لأنه كان منذ أول دولتهم على دعوة العلويين أعداءهم من الأدارسة والعباسيين فكيف يسقط العباس إلى أحد من شيعة العلويين وكذلك ما يدعيه أبناء زيان ملوك تلمسان من بني عبد الواحد أنهم من ولد القاسم بن إدريس ذهاباً إلى ما اشتهر في نسبهم أنهم من ولد انقاسم فيقولون بلسانهم الزناتي أنت القاسم أي بنو القاسم ثم يدعون أن القاسم هذا هو القاسم ابن إدريس أو القاسم بن محمد بن إدريس ولو كان ذلك صحيحاً فغاية القاسم هذا أنه فر من مكان سلطانه مستجيراً بهم فكيف تتم له الرياسة عليهم في باديتهم وإنما هو غلط من قبل اسم القاسم فانه كثير الوجود في الأدارسة فتوهوا أن قاسمهم من ذلك النسب وهم غير محتاجين لذلك فان منالهم للملك والعزة إنما كان بعصيتهم ولم يكن بادعاء علوية ولا عباسية ولا شيء من الأنساب وإنما يحمل على هذا التقربون إلى الملوك بمنازعهم ومذاهبهم ويشتهر حتى يعد عن الرد \* ولقد بلغني عن يغمراسن بن زيان مؤئل سلطانهم أنه لما قيل له ذلك أنكره وقال بلغته الزناتية مامعناه أما الدنيا والملك فلنأه بغيرنا لا بهذا النسب وأمانعه في الآخرة فمردود إلى الله وأعرض عن التقرب إليه بذلك \* ومن هذا الباب ما يدعيه بنو سعد شيوخ بني يزيد من زغبة أنهم من ولد أبي بكر الصديق رضي الله عنه وبنو سلامة شيوخ بني يدلتن من توجين أنهم من سليم والزواودة شيوخ رياح أنهم من أعقاب البرامكة وكذا بنو مهني أمراء طيء بالشرق يدعون فيما بلغنا أنهم من أعقابهم وأمثال ذلك كثير ورياستهم في قومهم مانعة من ادعاء هذه الأنساب كما ذكرناه بل تعين أن يكونوا من صريح ذلك النسب وأقوى عصبياته فاعتبره واجتنب المغالط فيه ولا تجعل من هذا الباب الحاق مهدي الموحدين بنسب العلوية فان المهدي لم يكن من منبت الرياسة في هرمة قومه وإنما رأس عليهم بعد اشتهاره بالعلم والدين ودخول قبائل المصامدة في دعوته وكان مع ذلك من أهل المنابت المتوسطة فيهم والله عالم الغيب والشهادة



١٣ ﴿فصل في أن البيت والشرف بالأصالة والحقيقة لأهل العصبية ويكون لغيرهم بالمجاز والشبه﴾

وذلك أن الشرف بالحسب إنما هو بالخلال ومعنى البيت أن يعد الرجل في آبائه أشرفا من كورين يكون له بولادتهم إياه والانتساب إليهم تجلّة في أهل جلده لما وقر في نفوسهم من تجلّة سلفه وشرفهم بخلاصهم والناس في نشأتهم وتناسلهم معادن قال صلى الله عليه وسلم الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا فمعنى الحسب راجع إلى الانتساب وقد بينا أن ثمرة الانتساب وفائدها إنما هي العصبية للنصرة والتناصر فحيث تكون العصبية مرهوبة ومخشية والمنبت فيها زكي محمى تكون فائدة النسب أوضح وثمرتها أقوى وتعدد الأشراف من الآباء زائد في فائدها فيكون الحسب والشرف أصيلا في أهل العصبية لوجود ثمرة النسب وتفاوت البيوت في هذا الشرف بتفاوت العصبية لأنهم سرها ولا يكون للمنفردين من أهل الأئصار بيت إلا بالمجاز وإن توهموه فزخرف من الدعاوي وإذا اعتبرت الحسب في أهل الأئصار وجدت معناه أن الرجل منهم يعد سلفا في خلال الخير ومخالطة أهله مع الركون إلى العافية ما استطاع وهذا مغاير لسر العصبية التي هي ثمرة النسب وتعدد الآباء لكنه يطلق عليه حسب وبيت بالمجاز لعلاقة ما فيه من تعدد الآباء المتعاقبين على طريقة واحدة من الخير ومسالكة وليس حسبا بالحقيقة وعلى الإطلاق وإن ثبت أنه حقيقة فيهما بالوضع اللغوي فيكون من المشكك الذي هو في بعض مواضعه أولى وقد يكون للبيت شرف أول بالعصبية والخلال ثم ينسلكون منه لذهابها بالحضارة كما تقدم ويختلطون بالخمار ويبقى في نفوسهم وسواس ذلك الحسب يعدون به أنفسهم من أشراف البيوت أهل العصائب وليسوا منها في شيء لذهاب العصبية جملة وكثير من أهل الأئصار الناشئين في بيوت العرب أو العجم لأول عهدهم موسوسون بذلك وأكثر ما رسخ الوسواس في ذلك لبني إسرائيل فانه كان لهم بيت من أعظم بيوت العالم بالمنبت أولا لما تعدد في سلفهم من الأنبياء والرسل من لدن إبراهيم عليه السلام إلى موسى صاحب ملتهم وشريعتهم ثم بالعصبية ثانيا وما آتاه الله بها من الملك الذي وعدم به ثم انسلخوا من ذلك أجمع وضربت عليهم الذلة والمسكنة وكتب عليهم الجلاء في الأرض وانفردوا بالاستعباد للكفر الآفا من السنين وما زال هذا الوسواس مصاحباً لهم فتجدد يقولون هذا هاروني هذا من نسل يوشع هذا من عقب كالب هذا من سبط يهوذا مع ذهاب العصبية ورسوخ الذل فيهم منذ أحقاب متطاولة وكثير من أهل الأئصار وغيرهم النقطعين في أنسابهم عن العصبية يذهب إلى هذا الهذيان وقد غلط أبو الوليد بن رشد في هذا لما ذكر الحسب في كتاب الخطابة من تلخيص كتاب المعلم الأول والحسب هو أن يكون من قوم قديم نزلهم بالمدينة ولم يتعرض لما ذكرناه وليت شعري ما الذي ينفعه قدم نزلهم بالمدينة إن لم تكن له عصاية يهرب بها جانبه وتحمل غيرهم على القبول منه فكانه أطلق الحسب على تعدد الآباء فقط مع أن الخطابة إنما هي استمالة من تؤثر استمالاته وهم أهل الحل والعقد وأما من لا قدرة له البتة فلا يلتفت إليه ولا يقدر على استمالة أحد ولا يستمال هو وأهل الأئصار من الحضرة بهذه المثابة إلا أن ابن رشد ربي في جيل وبلد لم يمارسوا العصبية

ولا آنسوا أحوالها فبقى في أمر البيت والحسب على الأمر المشهور من تعديد الآباء على الإطلاق ولم  
يراجع فيه حقيقة العصبية وسرها في الخليفة والله بكل شيء عليم اهـ

١٤ ﴿ فصل في أن البيت والشرف للموالى وأهل الاصطناع إنما هو ﴾

بمواليهم بأنسابهم ﴿

وذلك أنا قدمنا أن الشرف بالاصالة والحقيقة إنما هو لأهل العصبية فإذا اصطنع أهل العصبية  
قوماً من غير نسبهم أو استرقوا العبدان والموالى والتحموا به كما قلناه ضرب معهم أولئك الموالى  
والمصطنعون بنسبهم في تلك العصبية ولبسوا جللتها كأنها عصبيتهم وحصل لهم من الانتظام في العصبية  
مساهمة في نسبها كما قال صلى الله تعالى عليه وسلم مولى القوم منهم وسواء كان مولى رقيقاً أو مولى اصطناع  
وخلف وليس نسب ولادته بنافع له في تلك العصبية إذ هي مباينة لذلك النسب وعصبية ذلك النسب  
مفقودة لذهاب سرها عند التحامه بهذا النسب الآخر وقد انه أهل عصبيتها فيصير من هؤلاء ويندرج  
فيهم فإذا تعددت له الآباء في هذه العصبية كان له بينهم شرف وبيت على نسبته في ولائهم واصطناعهم  
لا يتجاوز به إلى شرفهم بل يكون أدون منهم على كل حال وهذا شأن الموالى في الدول والخدمة كلهم  
فإنها إنما يشرفون بالرسوخ في ولاء الدولة وخدمتها وتعدد الآباء في ولايتها ألا ترى إلى موالى  
الأتراك في دولة بني العباس وإلى بني برمك من قبلهم وبني نوبخت كيف أدركوا البيت والشرف  
وبنوا المجد والاصالة بالرسوخ في ولاء الدولة فكان جعفر بن يحيى بن خالد من أعظم الناس بيتاً  
وشرفاً بالانتساب إلى ولاء الرشيد وقومه لا بالانتساب في الفرس وكذا موالى كل دولة وخدمها إنما  
يكون لهم البيت والحسب بالرسوخ في ولائها والاصالة في اصطناعها ويضمحل نسبه الأقدم من  
غير نسبها ويبقى ملغى لا عبرة به في أصالته ومجده وإنما الاعتبار بنسبه ولوائه واصطناعه إذ فيه سر العصبية  
التي بها البيت والشرف فكان شرفه مشتقاً من شرف مواليه وبنائه من بنائهم فلم ينفعه نسب ولادته  
وإنما بنى مجده نسب الولاء في الدولة ولحمة الاصطناع فيها والترتية وقد يكون نسبه الأول في لحمة عصبية  
ودولته فإذا ذهبت وصار ولاؤه واصطناعه في أخرى لم تنفعه الأولى لذهاب عصبيتها وانقطع بالثانية  
لوجودها وهذا حال بني برمك إذ المنقول أنهم كانوا أهل بيت في الفرس من سدنة بيوت النار عندهم  
ولما صاروا إلى ولاء بني العباس لم يكن بالأول اعتبار وإنما كان شرفهم من حيث ولايتهم في الدولة  
واصطناعهم وماسوى هذا قوم توسوس به النفوس الجاحمة والحقيرة له والوجود شاهد بما قلناه وإن  
أكرمكم عند الله أتقاكم والله ورسوله أعلم

١٥ ﴿ فصل في أن نهاية الحسب في القرب الواحد أربعة آباء ﴾

﴿ اعلم ﴾ أن العالم العنصرى بما فيه كائن فاسد لا من ذواته ولا من أحواله فالكمونات من المعدن  
والنبات وجميع الحيوانات الإنسان وغيره كائنة فاسدة بالمعاينة وكذلك ما يعرض لها من الأحوال  
وخصوصاً الإنسانية فالعلوم تنشأ ثم تدرس وكذا الصنائع وأمثالها والحسب من العوارض التي

تعرض للآدميين فهو كائن فاسد لا محالة وليس يوجد لأحد من أهل الخليقة شرف متصل في آباءه من لدن آدم إليه إلا ما كان من ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم كرامة به وحياطة على السرفية وأول كل شرف خارجية (١) كما قيل وهي الخروج إلى الرياسة والشرف عن الضعة والابتذال وعدم الحسب ومعناه أن كل شرف وحسب فعدمه سابق عليه شأن كل محدث ثم أن نهايته في أربعة آباء وذلك أن باني المجد عالم بما عاناه في بنائه ومحافظة على الحلال التي هي أسباب كونه وبقائه وابنه من بعده مباشرة لآبيه قد سمع منه ذلك وأخذ عنه إلا أنه مقصر في ذلك تقصير السامع بالشئ عن المعين له ثم إذا جاء الثالث كان حظه الاقتفاء والتقليد خاصة فقصر عن الثاني تقصير المقلد عن المجتهد ثم إذا جاء الرابع قصر عن طريقتهم جملة وأضاع الحلال المحافظة لبناء مجدهم واحتقرها وتوهم أن ذلك البنيان لم يكن بمعاناة ولا تكلف وإنما هو أمر وجب لهم منذ أول النشأة بمجرد انتسابهم وليس بعصاة ولا بخلال لما يرى من التجلة بين الناس ولا يعلم كيف كان حدوثها ولا سببها ويتوهم أنه النسب فقط فيربأ بنفسه عن أهل عصبيته ويرى الفضل له عليهم وثوقا بما ربي فيه من استتباعهم وجهلا بما أوجب ذلك الاستتباع من الحلال التي منها التواضع لهم والأخذ بمجامع قلوبهم فيحتقرهم بذلك فينعصون عليه ويحتقرونه ويديلون منه سواء من أهل ذلك المنبت ومن فروعه في غير ذلك العقب للاذعان لعصبيتهم كما قلناه بعد الوثوق بما يرضونه من خلاله فتنموا فروع هذا وتذوى فروع الأول وينهدم بناء بيته هذا في الملوك وهكذا في بيوت القبائل والأئمة وأهل العصبية أجمع ثم في بيوت أهل الأئمة إذا انحطت بيوت نشأت بيوت أخرى من ذلك النسب إن يشاء يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز واشترط الأربعة في الأئمة حساب إنما هو في الغالب والافقد يدثر البيت من دون الأربعة ويتلاشى وينهدم وقد يتصل أمرها إلى الخامس والسادس إلا أنه في الخطاط وذهاب واعتبار الأربعة من قبل الأجيال الأربعة بان ومباشرة ومقلد وهادم وهو أقل ما يمكن وقد اعتبرت الأربعة في نهاية الحسب في باب المدح والثناء قال صلى الله عليه وسلم إنما الكريم بن الكريم بن الكريم يوسف بن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم إشارة إلى أنه بلغ الغاية من المجد وفي التوراة مامعناه أنا الله ربك طائق غيور مطالب بذنوب الآباء للبنين على الثواب وعلى الروابع وهذا يدل على أن الأربعة الأئمة غاية في الأنساب والحسب ومن كتاب الأغانى في أخبار عزيز الغواني أن كسرى قال للنعمان هل في العرب قبيلة تشرف على قبيلة قال نعم قال بأي شيء قال من كان له ثلاثة آباء متوالية رؤساء ثم اتصل ذلك بكمال الرابع فالبيت من قبيلته وطلب ذلك فلم يجده إلا في آل حذيفة بن بدر الفزارى ومبيت قيس وآل ذى الجدين بيت شيبان وآل الأشعث بن قيس من كندة وآل حاجب بن زرارة وآل قيس بن عاصم المنقري من بني تميم فجمع هؤلاء الرهط ومن تبعهم من عشائهم وأقعد لهم الحكام والعدول فقام

(١) قوله خارجية أى حالة خارجية كذا بهامش اهـ



حذيفة بن بدر ثم الأشعث بن قيس لقرايته من النعمان ثم بسطام بن قيس بن شيبان ثم حاجب بن زرارة ثم قيس بن عاصم وخطبوا واثروا فقال كسرى كلهم سيد يصلح لموضعه وكانت هذه البيوتات هي المذكورة في العرب بعد بني هاشم ومعهم بيت بني النديان من بني الحرث بن كعب بيت اليماني وهذا كله يدل على أن الأربعة الآباء نهاية في الحسب والله أعلم

١٦ ﴿ فصل في أن الأئمة الوحشية أقدر على التغلب ممن سواها ﴾

﴿ اعلم ﴾ أنه لما كانت البداوة سببا في الشجاعة كما قلناه في المقدمة الثالثة لاجرم كان هذا الجيل الوحشي أشد شجاعة من الجيل الآخر فهم أقدر على التغلب وانتزاع ما في أيدي سواهم من الأئمة بل الجيل الواحد يختلف أحواله في ذلك باختلاف الأعصار فكلما نزلوا الأرياف وتفشكوا النعيم والفواغند الحصب في المعاش والنعيم نقص من شجاعتهم بمقدار ما نقص من توحشهم وبدوتهم واعتبر ذلك في الحيوانات العجم بدواجن الطباء والبقر الوحشية والحمر إذا زال توحشها بمخالطة الأدميين وأخضب عيشها كيف يختلف حالها في الانتهاض والشدة حتى في مشيتها وحسن أديمها وكذلك الآدمي المتوحش إذا أنس وألف وسببه أن تكون السجاي والطبائع إنما هو عن المألوفات والعوائد وإذا كان الغلب للأئمة إنما يكون بالاقدام والبسالة فمن كان من هذه الأجيال أعرق في البداوة وأكثر توحشا كان أقرب إلى التغلب على سواه إذا تقاربا في العدد وتكافأ في القوة والعصبية وانظر في ذلك شأن مضر مع من قبلهم من حمير وكنان السابقين إلى الملك والنعيم ومع ربيعة المتوطنين أرياف العراق ونيمة لما بقي مضر في بدوتهم وتقدمهم الآخرون إلى خصب العيش وغضارة النعيم كيف أرهفت البداوة حدهم في التغلب فغلبهم على ما في أيديهم وانتزعوه منهم وهذا حال بني طيء وبني عامر ابن صعصعة وبني سليم بن منصور من بعدهم لما تأخروا في باديتهم عن سائر قبائل مضر واليمن ولم يلتبسوا بشيء من دنياهم كيف أمسكت حال البداوة عليهم قوة عصبيتهم ولم يخلفها مذهب الترف حتى صاروا أغلب على الأئمة منهم وكذا كل حي من العرب يلي نعيما وعيشا خصباً دون الحي الآخر فإن الحي المتبدى يكون أغلب له وأقدر عليه إذا تكافأ في القوة والعدد سنة الله في خلقه

١٧ ﴿ فصل في أن الغاية التي تجرى إليها العصبية هي الملك ﴾

وذلك لأننا قدمنا أن العصبية بها تكون الحماية والمدافعة والمطالبة وكل أمر يجتمع عليه وقدمنا أن الأدميين بالطبيعة الانسانية يحتاجون في كل اجتماع إلى وازع وحاكم يزع بعضهم عن بعض فلا بد أن يكون متغلبا عليهم بتلك العصبية والا لم تتم قدرته على ذلك وهذا التغلب هو الملك وهو أمر زائد على الرياسة لأن الرياسة إنما هي سودد وصاحبها متبوع وليس له عليهم قهر في أحكامه وأما الملك فهو التغلب والحكم بالقهر وصاحب العصبية إذا بلغ إلى رتبة طلب ما فوقها فاذا بلغ رتبة السودد والاتباع ووجد السبيل إلى التغلب والقهر لا يتركه لأنه مطلوب للنفس ولا يتم اقتدارها عليه إلا بالعصبية التي

يكون بها متبوعا فالتغلب الملكي غاية للعصية كما رأيت ثم ان القبيل الواحد وان كانت فيه بيوتات متفرقة وعصبيات متعددة فلا بد من عصية تكون أقوى من جميعها تغلبها وتستبعبها وتلتحم جميع العصبيات فيها وتصير كأنها عصية واحدة كبرى والا وقع الافتراق المفضي الى الاختلاف والتنازع ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ثم اذا حصل التغلب بتلك العصية على قومها طلبت بطبعها التغلب على أهل عصية أخرى بعيدة عنها فان كافأتهما أو مانعتها كانوا أقنالا وأنظارا لكل واحدة منهما التغلب على حوزتها وقومها شأن القبائل والأمم المفرقة في العالم وان غلبتها واستتبعتها التحمت بها أيضا وزادت قوتها في التغلب الى قوتها وطلبت غاية من التغلب والتحكم أعلى من الغاية الأولى وأبعد وهكذا دائما حتى تكفي بقوتها قوة الدولة فان أدركت الدولة في هزيمها ولم يكن لها مانع من أولياء الدولة أهل العصبيات استولت عليها وانتزعت الأمر من يدها وصار الملك أجمع لها وان انتهت الى قوتها ولم يقارن ذلك هرم الدولة وإنما عارن حاجتها الى الاستظهار بأهل العصبيات انتظمتها الدولة في أوليائها تستظهرها على ما يعين من مقاصدها وذلك ملك آخر دون الملك المستبد وهو كما وقع للترك في دولة بني العباس ولصنهاجة وزناطة مع كتامة ولبنى حمدان مع ملوك الشيعة من العلوية والعباسية فقد ظهر أن الملك هو غاية العصية وأنها اذا بلغت الى غايتها حصل للقبيلة الملك اما بالاستبداد أو بالمظاهرة على حسب ما يسعه الوقت المقارن لذلك وان عاقبها عن بلوغ الغاية عوائق كما نبينه وقفت في مقامها الى أن يقضى الله بأمره

### ١٨ فصل في أن من عوائق الملك حصول الترف وانغماس القبيل في النعيم

وسبب ذلك أن القبيل اذا غلبت بعصيتها بعض الغلب استولت على النعمة بمقداره وشاركت أهل النعم والخصب في نعمتهم وخصبهم وضربت معهم في ذلك بسهم وحصه بمقدار غلبها واستظهار الدولة بها فان كانت الدولة من القوة بحيث لا يطمع أحد في انتزاع أمرها ولا مشاركتها فيه أذعن ذلك القبيل لولايتها والقنوع بما يسوغون من نعمتها ويشركون فيه من جبايتها ولم تسم آملهم الى شيء من منازع الملك ولا أسبابه إنما همتهم النعيم والكسب وخصب العيش والسكون في ظل الدولة الى الدعة والراحة والأخذ بمذاهب الملك في المباني والملابس والاستكثار من ذلك والتأنيق فيه بمقدار ما حصل من الرياش والترف وما يدعو اليه من توابيع ذلك فتذهب خشونة البداوة وتضعف العصية والبسالة ويتنعمون فيما آتاهم الله من البسطة وتنشأ بنوهم وأعقابهم في مثل ذلك من الترف عن خدمة أنفسهم وولاية حاجاتهم ويستنكفون عن سائر الأمور الضرورية في العصية حتى يصير ذلك خلقا لهم وسجية فتتقص عصبيتهم وبسالتهم في الأجيال بعدم بتعاقبها الى أن تنقرض العصية فيأذنون بالانقراض وعلى قدر ترفهم ونعمتهم يكون اشراقهم على الفناء فضلا عن الملك فان عوارض الترف والفرق في النعيم كاسر من سورة العصية التي بها التغلب واذا انقرضت العصية قصر القبيل عن المدافعة والحماية

فضلا عن المطالبة والتهمتهم الأم سوام فقد تبين أن الترف من عوائق الملك والله يؤتي ملكه من يشاء

### ١٩ \* فصل في أن من عوائق الملك حصول المذلة للقبيل والانتقاد الى سوام \*

وسبب ذلك أن المذلة والانتقاد كاسران لسورة العصبية وشدتها فان انتقادهم ومذلتهم دليل على فقدانها فمارعوا للمذلة حتى عجزوا عن المدافعة ومن عجز عن المدافعة فأولى أن يكون عاجزا عن المقاومة والمطالبة واعتبر ذلك في بني اسرائيل لما دعاهم موسى عليه السلام الى ملك الشام وأخبرهم بأن الله قد كتب لهم ملكها كيف عجزوا عن ذلك وقالوا ان فيها قوما جارين وانا لن ندخلها حتى يخرجوا منها أي يخرجهم الله تعالى منها بضرب من قدرته غير عصيتنا وتكون من معجزاتك يا موسى ولما عزم عليهم لجوا وارتكبوا العصيان وقالوا له اذهب أنت وربك فقاتلا وما ذلك إلا لما آتسوا من أنفسهم من العجز عن المقاومة والمطالبة كما تقتضيه الآية وما يؤثر في تفسيرها وذلك بما حصل فيهم من خلق الانتقاد ومارعوا من الدل للقبط أحقابا حتى ذهبت العصبية منهم جملة مع أنهم لم يؤمنوا حق الايمان بما أخبرهم به موسى من أن الشام لهم وأن العاقلة الذين كانوا باريحاء فريستهم بخم من الله قدره لهم فأقصر واعن ذلك وعجزوا تعويلا على ما علموا من أنفسهم من العجز عن المطالبة لما حصل لهم من خلق المذلة وطعنوا فيما أخبرهم به نبينهم من ذلك وما أمرهم به فعاقبهم الله بالتيه وهو أنهم تاهوا في قعر من الأرض ما بين الشام ومصر أربعين سنة لم يأتوا فيها العمران ولا نزلوا مصر ولا خالطوا بشرا كما قصه القرآن لغلظة العاقلة بالشام والقبط بمصر عليهم لعجزهم عن مقاومتهم كازعموه ويظهر من مساق الآية ومفهومها أن حكمة ذلك التيه مقصودة وهي فناء الجيل الذين خرجوا من قبضة الدل والقهر والقوة وتخلقوا به وأفسدوا من عصيتهم حتى نشأ في ذلك التيه جيل آخر عزيز لا يعرف الأحكام والقهر ولا يسأم بالمذلة فنشأت لهم بذلك عصبية أخرى اقتدروا بها على المطالبة والتغلب ويظهر لك من ذلك أن الأربعين سنة أقل مما يأتى فيها فناء جيل ونشأة جيل آخر سبحانه الحكيم العليم وفي هذا أوضح دليل على شأن العصبية وأنها هي التي تكون بها المدافعة والمقاومة والحماية والمطالبة وأن من قندها عجز عن جميع ذلك كله ويلحق بهذا الفصل فيما يوجب المذلة للقبيل شأن المغارم والضرائب فان القبيل المغارمين ما أعطوا اليد من ذلك حتى رضوا بالمذلة فيه لأن في المغارم والضرائب ضيما ومذلة لا تحتملها النفوس إلا إذا استهوته عن القتل والتلف وأن عصيتهم حينئذ ضعيفة عن المدافعة والحماية ومن كانت عصبيته لا تدفع عنه الضيم فكيف له بالمقاومة والمطالبة وقد حصل له الانتقاد للدل والمذلة عاتقة كما قدمناه ومنه قوله صلى الله عليه وسلم في شأن الحرث لما رأى سكة المحران في بعض دور الانصار ما دخلت هذه دار قوم إلا دخلهم الدل فهو دليل صريح على أن المغرم موجب للمذلة هذا إلى ما يصحب ذل المغارم من خلق المكر والحديعة بسبب ملكة القهر فاذا رأيت القبيل بالمغارم في ربة من الدل فلا تطمعن لها بملك آخر الدهر ومن هنا يتبين لك غلط من يزعم أن زناة بالمغرب كانوا شأوية يؤدون المغازم لمن كان على



عهدهم من الملوك وهو غلط فاحش كما رأيت إذ لو وقع ذلك لما استتب لهم ملك ولا تمت لهم دولة وانظر فيما قاله شهربراز ملك الباب لعبد الرحمن بن ربيعة لما أطل عليه وسأل شهربراز أمانه على أن يكون له فقال أنا اليوم منكم يدي في أيديكم وصعري معكم فرحبا بكم وبارك الله لنا ولكم وجزيتنا اليكم النصر لكم والقيام بما تحبون ولا تذلونا بالجزية فتوهونا لعدوكم فاعتبر هذا فيما قلناه فانه كاف

## ٢٠ \* فصل في أن من علامات الملك التنافس في الخلال الحميدة وبالعكس \*

لما كان الملك طبيعيا للانسان لما فيه من طبيعة الاجتماع كما قلناه وكان الانسان أقرب الى خلال الخير من خلال الشر بأصل فطرته وقوته الناطقة العاقلة لأن الشرا إنما جاءه من قبل القوى الحيوانية التي فيه وأما من حيث هو إنسان فهو الى الخير وخاله أقرب والملك والسياسة إنما كان له من حيث هو إنسان لأنها خاصة للانسان لا للحيوان فاذن خلال الخير فيه هي التي تناسب السياسة والملك اذا الخير هو المناسب للسياسة وقد ذكرنا أن المجد له أصل ينبت عليه ويتحقق به حقيقته وهو العصية والعشير وفرع يتم وجوده ويكمله وهو الخلال واذا كان الملك غاية للعصية فهو غاية لفروعها ومتماتها وهي الخلال لأن وجوده دون متماته كوجود شخص مقطوع الأعضاء أو ظهوره عريانا بين الناس واذا كان وجود العصية فقط من غير انتحال الخلال الحميدة نقصا في أهل البيوت والأحساب فما ظنك بأهل الملك الذي هو غاية لكل مجد ونهاية لكل حسب وأيضا فالسياسة والملك هي كفالة للخلق وخلافة الله في العباد لتنفيذ أحكامه فيهم وأحكام الله في خلقه وعباده انما هي بالخير ومرعاة المصالح كما تشهد به الشرائع وأحكام البشر انما هي من الجهل والشیطان بخلاف قدرة الله سبحانه وقدره فانه فاعل للخير والشر معا ومقدرهما اذا فاعل سواه فمن حصلت له العصية الكفيلة بالقدرة وأونست منه خلال الخير المناسبة لتنفيذ أحكام الله في خلقه فقد تمها للخلافة في العباد وكفالة الخلق ووجدت فيه الصلاحية لذلك وهذا البرهان أو ثبوت من الأول وأصح مبنى فقد تبين أن خلال الخير شاهدة بوجود الملك لمن وجدت له العصية فاذا نظرنا في أهل العصية ومن حصل لهم الغلب على كثير من النواحي والأهم فوجدناهم يتنافسون في الخير وخاله من الكرم والعفو عن الزلات والاحتمال من غير القادر والقرى للضيوف وحمل الكل وكسب المعدم والصبر على المكروه والوفاء بالعهد وبذل الأموال في صون الأعراض وتعظيم الشريعة واجلال العلماء الحاملين لها والوقوف عند ما يحددونه لهم من فعل أو ترك وحسن الظن بهم واعتقاد أهل الدين والتبرك بهم ورغبة الدعاء منهم والحياء من الأكابر والمشايخ وتوقيرهم واجلالهم والانقياد الى الحق مع الداعي اليه وإنصاف المستضعفين من أنفسهم والتبذل في أحوالهم والانقياد للحق والتواضع للمسكين واستماع شكوى المستغيثين والتدين بالشرائع والعبادات والقيام عليها وعلى أسبابها والتجافي عن الغدر والمكر والخديعة ونقض العهد وأمثال ذلك علمنا أن هذه خلق السياسة قد حصلت لديهم واستحقوا بها أن يكونوا ساسة لمن تحت أيديهم أو على العموم وأنه خير ساقه الله تعالى

اليهم مناسب لعصيتهم وغلبهم وليس ذلك سدى فيهم ولا وجد عبثا منهم والملك أنسب المراتب والخيرات لعصيتهم فعلمنا بذلك أن الله تأذن لهم بالملك وساقه اليهم وبالعكس من ذلك اذا تأذن الله بانقراض الملك من أمة حملهم على ارتكاب المذمومات وانتحال الرذائل وسلوك طرقها فتفقد الفضائل السياسية منهم جملة ولا تزال في انتقاص الى أن يخرج الملك من أيديهم ويتبدل به سواهم ليكون نعياع عليهم في سلب ما كان الله قد آتاهم من الملك وجعل في أيديهم من الخير واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا واستقر ذلك وتبعه في الأمم السابقة تجد كثيرا مما قلناه ورسمناه والله يخلق ما يشاء ويختار (واعلم) أن من خلال الكمال التي يتنافس فيها القبائل أو ولو العصبية وتكون شاهدة لهم بالملك اكرام العلماء والصالحين والاشراف وأهل الاحساب وأصناف التجار والغرباء وإنزال الناس منازلهم وذلك أن اكرام القبائل وأهل العصبية والعشائر لمن ينأهضهم في الشرف ويحاذيهم جبل العشيرة والعصبية ويشاركهم في اتساع الجاه أمر طبيعي يحمل عليه في الأكثر الرغبة في الجاه أو الخافة من قوم المسكرم أو التماس مثلها منه وأما أمثال هؤلاء ممن ليس لهم عصبية تتقى ولا جاه يرتجى فيندفع الشك في شأن كرامتهم ويتمحض القصد فيهم أنه للمجد وانتحال الكمال في الحلال والاقبال على السياسة بالكلية لأن اكرام أقتاله وأمثاله ضروري في السياسة الخاصة بين قبيله ونظرائه واكرام الطارين من أهل الفضائل والخصوصيات كمال في السياسة العامة فالصالحون للدين والعلماء للجال يهيم في اقامة مراسم الشريعة والتجار للترغيب حتى تعم المنفعة بما في أيديهم والغرباء من مكارم الاخلاق وإنزال الناس منازلهم من الانصاف وهو من العدل فيعلم بوجود ذلك من أهل عصبية انتماءهم للسياسة العامة وهي الملك وأن الله قد تأذن بوجودها فيهم لوجود علاماتها ولهذا كان أول ما يذهب من القبيل أهل الملك اذا تأذن الله تعالى بسلب ملكهم وسلطانهم اكرام هذا الصنف من الخلق فاذا رأيتهم قد ذهب من أمة من الأمم فاعلم أن الفضائل قد أخذت في الزوال عنهم وارتقب زوال الملك منهم واذا أراد الله بقوم سوء فلا مرد له والله تعالى أعلم

٢١ ﴿ فصل في أنه اذا كانت الامة وحشية كان ملكها أوسع ﴾

وذلك لأنهم أقدر على التغلب والاستبداد كما قلناه واستعباد الطوائف لقدرتهم على محاربة الأمم سواهم ولا أنهم يتنزلون من الأهلين منزلة المفترس من الحيوانات العجم وهؤلاء مثل العرب وزناتة ومن في معانهم من الأكراد والتركمان وأهل الشام من صنهجة وأيضاً هؤلاء المتوحشون ليس لهم وطن يرتأفون منه ولا بلدي يحنحون اليه فنسبة الاقطار والمواطن اليهم على السواء فلماذا لا يقتصرون على ملكة قطرهم وما جاورهم من البلاد ولا يقفون عند حدود أقطارهم بل يطفرون الى الأقاليم البعيدة ويتغلبون على الأمم النائية وانظر ما يحكي في ذلك عن عمر رضي الله عنه لما بويع وقام يحرض الناس على العراق فقال إن الحجاز ليس لكم بدار الا على النجعة ولا يقوي عليه أهله الا بذلك أين القراء المهاجرون عن موعد

الله سيروا في الأرض التي وعدكم الله في الكتاب أن يورثكموها فقال ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون واعتبر ذلك أيضاً بحال العرب السالفة من قبل مثل التبابعة وحمير كيف كانوا يخطون من اليمن إلى المغرب مرة وإلى العراق والهند أخرى ولم يكن ذلك لغير العرب من الأئمة وكذا حال الملثمين من المغرب لما نزعوا إلى الملك طفرؤا من الأقليم الأول ومجالاتهم منه في جوار السودان إلى الأقليم الرابع والخامس في ممالك الأندلس من غير واسطة وهذا شأن هذه الأئمة الوحشية فلذلك تكون دولتهم أوسع نطاقاً وأبعد من مراكزها نهاية والله يقدر الليل والنهار وهو الواحد القهار لا شريك له

٢٢ \* فصل في أن الملك إذا ذهب عن بعض الشعوب من أمة فلا بد من عوده إلى شعب آخر منها مادامت لهم العصبية \*

والسبب في ذلك أن الملك إنما حصل لهم بعد سورة الغلب والاذعان لهم من سائر الأئمة سواء فیتعين منهم المبشرون للأمر الحاملون لسرير الملك ولا يكون ذلك لجميعهم لما هم عليه من الكثرة التي يضيق عنها نطاق المراحة والغيرة التي تجدد أنوف كثير من المتطاولين للرتبة فإذا تعين أولئك القائمون بالدولة انغمسوا في النعيم وغرقوا في بحر الترف والخصب واستعبدوا إخوانهم من ذلك الجيل وأنفقوا في وجوه الدولة ومذاهبها وبقى الدين بعدوا عن الأمر وكبحوا عن المشاركة في ظل من عز الدولة التي شاركوها بنسبهم وبمنجاة من الهرم لبعدهم عن الترف وأسبابه فإذا استولت على الأولين الأيام وأباد غرضاءهم الهرم فطبختهم الدولة وأكل الدهر عليهم وشرب بما أرفه النعيم من حدهم واشتفت غريزة الترف من مائهم وبلغوا غايتهم من طبيعة التمدن الانساني والتغلب السياسي ( شعر )

كدود القز ينسج ثم يفنى \* بمركز نسجه في الانعكاس

كانت حينئذ عصبية الآخرين موفورة وسورة غلبهم من الكسرة محفوظة وشارتهم في الغلب معلومة فتسمو آمالهم إلى الملك الذي كانوا ممنوعين منه بالقوة الغالبة من جنس عصبيتهم وترفع المنازعة لما عرف من غلبهم فيستولون على الأمر ويصير اليهم وكذا يتفق فيهم مع من بقى أيضاً منبذاعنه من عشائر أمتهم فلا يزال الملك ملجأ في الأئمة إلى أن تنكسر سورة العصبية منها أو يفنى سائر عشائر هاسنة الله في الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين واعتبر هذا بما وقع في العرب لما انقرض ملك عاد قام به من بعدهم إخوانهم من عمود ومن بعدهم إخوانهم العالقة ومن بعدهم إخوانهم من حمير ومن بعدهم إخوانهم التبابعة من حمير أيضاً ومن بعدهم الأذواء كذلك ثم جاءت الدولة لمضر وكذا الفرس لما انقرض أمر الكينية ملك من بعدهم الساسانية حتى تأذن الله بانقراضهم أجمع بالاسلام وكذا اليونانيون انقرض أمرهم وانتقل إلى إخوانهم من الروم وكذا البربر بالمغرب لما انقرض أمر مغراوة وكتامة الملوك الأول منهم رجع إلى ضهاجة ثم الملثمين من بعدهم ثم المصامدة ثم من بقى من شعوب زناتة



وهكذا سنة الله في عباده وخلقه وأصل هذا كله إنما يكون بالعصية وهي متفاوتة في الأجيال والملك يخلقه الترف ويذهبه كما سندر به بعد فاذا انقرضت دولة فأنما يتناول الأمر منهم من له عصبية مشاركة لعصبيتهم التي عرف لها التسليم والاقنياد وأنس منها الغلب لجميع العصبيات وذلك إنما يوجد في النسب القريب منهم لأن تفاوت العصبية بحسب ما قرب من ذلك النسب التي هي فيه أو بعد حتى إذا وقع في العالم تبديل كبير من تحويل ملة أو ذهاب عمران أو ما شاء الله من قدرته حينئذ يخرج عن ذلك الجيل إلى الجيل الذي يأذن الله بقيامه بذلك التبديل كما وقع لمضر حين غلبوا على الأمم والدول وأخذوا الأمر من أيدي أهل العالم بعد أن كانوا مكبوحين عنه أحقابا

٢٣ . فصل في أن الغلوب مولع أبدا بالاعتداء بالغالب في شعاره وزيه ونخلته وسائر أحواله وعوائده

والسبب في ذلك أن النفس أبدا تعتقد الكمال فيمن غلبها وانقادت إليه إما لنظره بالكمال بما وقر عندها من تعظيمه أو لما تغالط به من أن انقيادها ليس لغلب طبيعي إنما هو لكمال الغالب فاذا غالطت بذلك واتصل لها حصل اعتقادا فاتحلت جميع مذاهب الغالب وتشبهت به وذلك هو الاعتداء أو لما تراه والله أعلم من أن غلب الغالب لها ليس بعصية ولا قوة بأس وإنما هو بما انتحلته من العوائد والمذاهب تغالط أيضا بذلك عن الغلب وهذا راجع للأول ولذلك ترى الغلوب يتشبه أبدا بالغالب في ملبسه ومركبه وسلاحه في اتخاذها وأشكالها بل وفي سائر أحواله وانظر ذلك في الأبناء مع آبائهم كيف تجدم متشبهين بهم دائما وما ذلك إلا لاعتقادهم الكمال فيهم وأنظر إلى كل قطر من الأقطار كيف يغلب على أهله زي الحامية وجند السلطان في الأكر كثر لأنهم الغالبون لهم حتى أنه إذا كانت أمة تجاوز أخرى ولها الغلب عليها فيسرى اليهم من هذا التشبه والاعتداء حظ كبير كما هو في الأندلس لهذا العهد مع أم الجلالة فانك تجدم يتشبهون بهم في ملابسهم وشاراتهم والكثير من عوائدهم وأحوالهم حتى في رسم التماثيل في الجدران والمصانع والبيوت حتى لقد يستشعر من ذلك الناظر بعين الحكمة أنه من علامات الاستيلاء والامر لله وتأمل في هذا سر قولهم العامة على دين الملك فانه من بابه أن الملك غالب لمن تحت يده والرعية مقتدون به لاعتقاد الكمال فيه اعتقاد الأبناء بآبائهم والمتعلمين بمعلميهم والله العليم الحكيم وبه سبحانه وتعالى التوفيق

٢٤ . فصل في أن الأمة إذا غلبت وصارت في ملك غيرها أسرع إليها الفناء

والسبب في ذلك والله أعلم ما يحصل في النفوس من التكاسل إذا ملك أمرها عليها وصارت بالاستعباد آلة لسواها وعالة عليهم فيقصر الأمل ويضعف التناسل والاعتبار أنما هو عن جدة الأمل وما يحدث عنه من النشاط في القوى الحيوانية فاذا ذهب الأمل بالتكاسل وذهب ما يدعو إليه من الأحوال وكانت العصبية ذاهبة بالغلب الحاصل عليهم تناقص عمر انهم وتلاشت مكاسبهم ومساعدتهم وعجزوا عن المدافعة

عن أنفسهم بما خضع الغلب من شوكتهم فاصبحوا مغلبين لكل متغلب طعمة لكل آكل وسواء كانوا حصلوا على غايتهم من الملك أو لم يحصلوا وفيه والله أعلم سر آخر وهو أن الانسان رئيس بطبعه بمقتضى الاستخلاف الذي خلق له والرئيس إذا غلب على رياسته وكبح عن غاية عزه تكاسل حتى عن شبع بطنه وري كبده وهذا موجود في أخلاق الاناسى ولقد يقال مثله في الحيوانات المفترسة وأنها لا تسافد إذا كانت في ملكة الآدميين فلا يزال هذا القبيل المملوك عليه أمره في تناقض واضمحلال إلى أن يأخذهم الفناء والبقاء لله وحده واعتبر ذلك في أمة الفرس كيف كانت قدملاآت العالم كثرة ولما فنيت حاميتهم في أيام العرب بقى منهم كثير وأكثر من الكثير يقال أن سعدا أحصى من وراء المدائن فكانوا مائة ألف وسبعة وثلاثين ألفا منهم سبعة وثلاثون ألفا رب بيت ولما تحصوا في ملكة العرب وقبضة القهر لم يكن بقاؤهم إلا قليلا ودرثوا كأن لم يكونوا ولا تحسبن أن ذلك لظلم نزل بهم أو عدوان شملهم فملكه الاسلام في العدل ما علمت وإنما هي طبيعة في الانسان إذا غلب على أمره وصار آلة لغيره ولهذا إنما تدع للرق في الغالب أم السودان لنقص الانسانية فيهم وقرهم من عرض الحيوانات العجم كإفلقناه أو من يرجو بانتظامه في ربة الرق حصول رتبة أو إفادة مال أو عز كما يقع للمالك الترك بالشرق والعلاج من الجلالة والافرنجة بالاندلس فإن العادة جارية باستخلاص الدولة لهم فلا يأنفون من الرق لما يأمولونه من الجاه والرتبة باصطفاء الدولة والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

### ٢٥ ﴿ فصل في أن العرب لا يتغلبون إلا على البسائط ﴾

وذلك أنهم بطبيعة التوحش الذي فيهم أهل اتهاب وغيث ينتهبون ما قدروا عليه من غير مغالبة ولا ركوب خطر ويفرون إلى منتجعهم بالقفر ولا يذهبون إلى المزارعة والحاربة إلا إذا دفعوا بذلك عن أنفسهم فكل معقل أو مستصعب عليهم فهم تاركوه إلى ما يسهل عنه ولا يعرضون له والقبائل المتنعة عليهم بأوعار الجبال بمنجاة من عيشتهم وفسادهم لأنهم لا يتسمنون اليهم الهضاب ولا يركبون الصعاب ولا يحاولون الخطر وأما البسائط متى اقتدروا عليها فقد ان الحامية وضعف الدولة فهي نهب لهم وطعمة لأن كلهم يرددون عليهم الغارة والنهب والزحف لسهولتها عليهم إلى أن يصبح أهلها مغلبين لهم ثم يتعاورونهم باختلاف الأيدي وإنحراف السياسة إلى أن يقرض عمرانهم والله قادر على خلقه وهو الواحد القهار لا رب غيره

### ٢٦ ﴿ فصل في أن العرب إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب ﴾

والسبب في ذلك أنهم أمة وحشية باستحكام عوائد التوحش وأسبابه فيهم فصار لهم خلقا وجلة وكان عندهم ملذوذ لما فيه من الخروج عن ربة الحكم وعدم الانقياد للسياسة وهذه الطبيعة منافية للعمران ومناقضة له فغاية الأحوال العادية كلها عندهم الرحلة والتغلب وذلك مناقض للسكون الذي به العمران ومناف له فالجبر مثلا إنما حاجتهم إليه لتنصبه أنافي للقدر فيقلونه من الباني ويخربونها عليه

ويعدون لذلك والحشب أيضا انما حاجتهم اليه ليحمر وابه خيامهم ويتخذوا الاوتاد منه ليوتمهم فيخربون السقف عليه لذلك فصارت طبيعة وجودهم منافية للبناء الذي هو أصل العمران هذا في حالهم على العموم وأيضا فطبيعتهم اتهاب ما في أيدي الناس وأن رزقهم في ظلال رماحهم وليس عندهم في أخذ أموال الناس حديتهم اليه بل كلما مدت أعينهم إلى مال أو متاع أو ماعون اتهبوه فاذا تم اقتدارهم على ذلك بالتغلب والملك بطلت السياسة في حفظ أموال الناس وخرب العمران وأيضا فلانهم يتلفون على أهل الأعمال من الصنائع والحرف أعمالهم لا يرون لها قيمة ولا قسطا من الاجر والثمن والأعمال كما سذكروه هي أصل المكاسب وحقيقتها واذا فسدت الأعمال وصارت مجانا ضعفت الآمال في المكاسب واقتبضت الأيدي عن العمل وابتذع السالكين وفسد العمران وأيضا فانهم ليست لهم عناية بالأحكام وزجر الناس عن المفاسد ودفاع بعضهم عن بعض انما همهم ما يأخذونه من أموال الناس نهباً أو مغرماً فاذا توصلوا إلى ذلك وحصلوا عليه أعرضوا عما بعده من تسديد أحوالهم والنظر في مصالحهم وقهر بعضهم عن أغراض المفاسد وربما فرضوا العقوبات في الأموال حرصا على تحصيل الفائدة والحماية والاستكثار منها كما هو شأنهم وذلك ليس بمعن في دفع المفاسد وزجر المتعرض لها بل يكون ذلك زائدا فيها لاستسهال الغرم في جانب حصول الغرض فتبقى الرعايا في ملكتهم كأنها فوضى دون حكم والفوضى مهلكة للبشر مفسدة للعمران بما ذكرناه من أن وجود الملك خاصة طبيعية للانسان لا يستقيم وجودهم واجتماعهم الا بها وتقدم ذلك أول الفصل وأيضا فهم متنافسون في الرياسة وقل أن يسلم أحد منهم الأمر لغيره ولو كان أباه أو أخاه أو كبير عشيرته الا في الاقل وعلى كره من أجل الحياء فيتعدد الحكماء منهم والأمراء وتختلف الأيدي على الرعية في الحماية والأحكام فيفسد العمران وينتقض قال الاعرابي الوافد على عبد الملك لما سأله عن الحجاج وأراد الثناء عليه عنده بحسن السياسة والعمران فقال تركته يظلم وحده وانظر الى ما ملكوه وتغلبوا عليه من الأوطان من لدن الخليفة كيف تفوض عمرانه وأقر رسا كنه وبدلت الأرض فيه غير الأرض فليمن قرارهم خراب الا قليلا من الأمصار وعراق العرب كذلك قد خرب عمرانه الذي كان للفرس أجمع والشام لهذا العهد كذلك وأفريقية والمغرب لما جاز اليها بنو هلال وبنو سليم منذ أول المائة الخامسة وتمرسوا بها لثلاثمائة وخمسين من السنين قد لحق بها وعادت بسائطه خرابا كلها بعد أن كان ما بين السودان والبحر الرومي كله عمرانا تشهد بذلك آثار العمران فيه من المعالم وتماثيل البناء وشواهد القري والمدائر والله يرث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين

٢٧ ﴿ فصل في أن العرب لا يحصل لهم الملك الا بصيغة دينية من نبوة  
أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة ﴾

والسبب في ذلك أنهم خلقت التوحش الذي فيهم أصعب الأمم انقيادا بعضهم لبعض للغلبة والآنفة وبعد الهمة والمنافسة في الرياسة فقلما تجتمع أهواؤهم فاذا كان الدين بالنبوة أو الولاية كان الوازع لهم



من أنفسهم وذهب خلق الكبر والمنافسة منهم فسيل انقيادهم واجتماعهم وذلك بما يشملهم من الدين المذهب للغلظة والافقة الوازع عن التحاسد والتنافس فاذا كان فيهم النبي أو الولي الذي يعيهم على القيام بأمر الله وينهب عنهم مذمومات الأخلاق ويأخذهم بمحمودها ويؤلف كلمتهم لظهار الحق تم اجتماعهم وحصل لهم التغلب والملك وهم مع ذلك أسرع الناس قبولاً للحق والهدى لسلامة طباعهم من عوج الملكات وبراءتهم من ذم الأخلاق الا ما كان من خلق التوحش القريب المعاناة المتهى لقبول الخير يبقائه على الفطرة الأولى وبعده عما ينطبع في النفوس من قبيح العوائد سوء الملكات فان كل مولود يولد على الفطرة كما ورد في الحديث وقد تقدم

٢٨ ﴿ فصل في أن العرب أبعد الأئمة عن سياسة الملك ﴾

والسبب في ذلك أنهم أكثر بدادة من سائر الأئمة وأبعد مجالاً في القفر وأغنى عن حاجات التلول وجوبها لا عتيادهم الشظف وخشونة العيش فاستغنوا عن غيرهم فصعب انقياد بعضهم لبعض لا يلافهم ذلك وللتوحش ورئيسهم محتاج اليهم غالباً للعصية التي بها المدافعة فكان مضطراً إلى إحسان ملكتهم وترك مراعاتهم لئلا يختل عليه شأن عصبية فيكون فيها هلاكاً وهلاكهم وسياسة الملك والسلطان تقتضي أن يكون السائس وازعاً بالقهر والا لم تستقم سياسته وأيضاً فان من طبيعتهم كما قدمناه أخذ ما في أيدي الناس خاصة والتجافي عما سوي ذلك من الأحكام بينهم ودفاع بعضهم عن بعض فاذا ملكوا أمة من الأئمة جعلوا غاية ملكهم الانتفاع بأخدماء أيديهم وتركوا ما سوي ذلك من الأحكام بينهم وربما جعلوا العقوبات على المفاصد في الأموال حرصاً على تكثير الجبايات وتحصيل الفوائد فلا يكون ذلك وازعاً وربما يكون باعثاً بحسب الأغراض الباعثة على المفاصد واستهانة ما يعطى من ماله في جانب غرضه فتتنامو المفاصد بذلك ويقع تخريب العمران فتبقى تلك الأئمة كأنها فوضى مستطيلة أيدي بعضها على بعض فلا يستقيم لها عمران وتخرب سريعاً شأن الفوضى كما قدمناه فبعدت طباع العرب لذلك كله عن سياسة الملك وانما يصيرون إليها بعد انقلاب طباعهم وتبدلها بصيغة دينية تمحو ذلك منهم وتجعل الوازع لهم من أنفسهم وتحملهم على دفاع الناس بعضهم عن بعض كما ذكرناه واعتبر ذلك بدولتهم في الملة لما شيد لهم الدين أمر السياسة بالشريعة وأحكامها المراعية لمصالح العمران ظاهر أو باطن وتتابع فيها الخلفاء عظم حينئذ ملكهم وقوى سلطانهم كان رسمهم اذ أراى المسلمين مجتمعين للصلاة يقول كل عمر كبدي يعلم الكلاب الآداب ثم أنهم بعد ذلك انقطعت منهم عن الدولة أجيال نبذوا الدين ففسدوا السياسة ورجعوا إلى قفرهم وجعلوا شأن عصبيتهم مع أهل الدولة يعدم عن الانقياد واعطاء النصفه فتوحشوا كما كانوا ولم يبق لهم من اسم الملك الا أنهم من جنس الخلفاء ومن جيلهم ولما ذهب أمر الخلافة وانمحي رسمها انقطع الأئمة من جملة من أيديهم وغلب عليهم العجم دونهم وأقاموا بادية في قفارهم لا يعرفون الملك ولا سياسته بل قد يجهل الكثير منهم أنهم قد كان لهم ملك في القديم وما كان في القديم لا أحد من

الأم في الخليفة ما كان لا يجيأهم من الملك ودول عاد وثمود والعاقلة وحمير والتبابعة شاهدة بذلك ثم دولة مضر في الاسلام بني أمية وبني العباس لكن بعد عهدهم بالسياسة لما نسوا الدين فرجعوا الى أصلهم من البداوة وقد يحصل لهم في بعض الأحيان غلب على الدول المستضعفة كما في المغرب لهذا العهد فلا يكون مآله وغايته الا تخريب ما يستولون عليه من العمران كما قدمناه والله يؤتي ملكه من يشاء

## ٢٩ ﴿ فصل في أن البوادي من القبائل والعصائب مغلوبون لأهل الأمصار ﴾

قد تقدم لنا أن عمران البادية ناقص عن عمران الحواضر والأمصار لأن الأمور الضرورية في عمران ليس كلها موجودة لأهل البدو وإنما توجد لديهم في مواطنهم أمور الفلح وموادها معدومة ومعظمها الصنائع فلا توجد لديهم بالكلية من نجار وخياط وحداد وأمثال ذلك مما يقيم لهم ضروريات معاشهم في الفلح وغيره وكذا الدنانير والدرهم مفقودة لديهم وإنما بأيديهم أعواضها من مغل الزراعة وأعيان الحيوان أو فضلاته ألباناً وأوباراً وأشعاراً وأوهاباً مما يحتاج اليه أهل الأمصار فيعوضونهم عنه بالدنانير والدرهم لأن حاجتهم الى الأمصار في الضروري وحاجة أهل الأمصار اليهم في الحاجي والكمالي فهم محتاجون الى الأمصار بطبيعة وجودهم فماداموا في البادية ولم يحصل لهم ملك ولا استيلاء على الأمصار فهم محتاجون الى أهلها ويتصرفون في مصالحهم وطاعتهم متى دعوا الى ذلك وطالبوهم به وإن كان في المصر ملك كان خضوعهم وطاعتهم لغلب الملك وإن لم يكن في المصر ملك فلا بد فيه من رئاسة ونوع استبداد من بعض أهله على الباقيين والانتقص عمرانته وذلك الرئيس يحملهم على طاعته والسعي في مصالحه اما طوعاً يذل المال لهم ثم يديهم ما يحتاجون اليه من الضروريات في مصره فيستقيم عمرانهم واما كرهاً ان تمت قدرته على ذلك ولو بالتغريب بينهم حتى يحصل له جانب منهم يغالب به الباقيين فيضطر الى طاعته بما يتوقعون لذلك من فساد عمرانهم وربما لا يسعهم مفارقة تلك النواحي الى جهات أخرى لأن كل الجهات معمورة بالبدو الذين غلبوا عليها ومنعوا من غيرهم فلا يجد هؤلاء ملجأ الاطاعة المصروفة بالضرورة مغلوبون لأهل الأمصار والله قاهر فوق عباده وهو الواحد الاحد القهار

## ﴿ الفصل الثالث من الكتاب الأول في الدول العامة والملك والخلافة والمراتب

السلطانية وما يعرض في ذلك كله من الأحوال وفيه قواعد ومتممات ﴾

## ١ ﴿ فصل في أن الملك والدولة والعامة إنما يحصل بالقبيل والعصبة ﴾

وذلك أنّا قررنا في الفصل الأول أن المغالبة والمناعة إنما تكون بالعصبة لما فيها من النعمة والتذاثر واستماتة كل واحد منهم دون صاحبه ثم أن الملك منصب شريف ملذوذ يشتمل على جميع الخيرات الدنيوية والشهوات البدنية والملذذ النفسانية فيقع فيه التنافس غالباً وقل أن يسلمه أحد لصاحبه الا اذا غلب عليه فتقع المنازعة وتفضى الى الحرب والقتال والمغالبة وشيء منها لا يقع الا بالعصبة كما ذكرناه آنفاً

وهذا الأمر بعيد عن أفهام الجمهور بالجملة ومتناسون له لأنهم نسوا عهد تمهيد الدولة منذ أولها واطال  
أمد مديها في الحضارة وتعاقبهم فيها جيلا بعد جيل فلا يعرفون ما فعل الله أول الدولة انما يدركون أصحاب  
الدولة وقد استحكت صبغتهم ووقع التسليم لهم والاستغناء عن العصبية في تمهيد أمرهم ولا يعرفون  
كيف كان الأمر من أوله ومآل في أولهم من المتاعب دونه وخصوصا أهل الأندلس في نسيان هذه العصبية  
وأثرها لطول الأمد واستغنائهم في الغالب عن قوة العصبية بما تلاشى وطنهم وخلامن العصائب  
والله قادر على ما يشاء وهو بكل شيء عليم وهو حسبنا ونعم الوكيل

## ٢ ﴿ فصل في أنه اذا استقرت الدولة وتمهدت فقد تستغنى عن العصبية ﴾

والسبب في ذلك أن الدول العامة في أولها يصعب على النفوس الانقياد لها لا بقوة قوية من الغلب  
للغلبة وأن الناس لم يألفوا ملكها ولا اعتادوه فاذا استقرت الرياسة في أهل النصاب الخصوص بالملك  
في الدولة وتوارثوه واحدا بعد آخر في أعقاب كثيرين ودول متعاقبة نسيت النفوس شأن الأولية  
واستحكمت لأهل ذلك النصاب صبغة الرياسة ورسخ في العقائد الانقياد لهم والتسليم وقاتل الناس  
معهم على أمرهم قتالهم على العقائد الايمانية فلم يحتاجوا حينئذ في أمرهم الى كبير عصابة بل كان طاعتها كتاب  
الله لا يدل ولا يعلم خلافه ولا أمر ما يوضع الكلام في الامامة آخر الكلام على العقائد الايمانية كأنه من  
جملة عقودها ويكون استظهارهم حينئذ على سلطانهم ودولتهم الخصوصية اما بالموالى والمصطفين الذين  
نشؤا في ظل العصبية وغيرها واما بالعصائب الخارجين عن نسبها الداخلين في ولايتها ومثل هذا وقع  
لبني العباس فان عصبية العرب كانت فسدت لعهد دولة المعتصم وابنه الواثق واستظهارهم بعد ذلك انما  
كان بالموالى من العجم والترك والديلم والسلجوقية وغيرهم ثم تغلب العجم الاولياء على النواحي  
وتقلص ظل الدولة فلم تكن تعدو أعمال بغداد حتى زحف اليها الديلم وملكوها وصار  
الخلائق في حكمهم ثم انقض أمرهم وملك السلجوقية من بعدهم فصاروا في حكمهم ثم انقض  
أمرهم وزحف آخر التتار فقتلوا الخليفة ومحو رسم الدولة وكذا ضهاجة بالمغرب فسدت  
عصبيتهم منذ المائة الخامسة أو ما قبلها واستمرت لهم الدولة متقلصة الظل بالمهدية وبجاية والقلعة  
وسائر ثغور أفريقية وورما تترى بتلك الثغور من نازعهم الملك واعتصم فيها والسلطان والملك مع ذلك  
مسلم لهم حتى تأذن الله بانقراض الدولة وجاء الموحدون بقوة قوية من العصبية في المصامدة فمحو آثارهم  
وكذا دولة بني أمية بالأندلس لما فسدت عصبيتها من العرب استولى ملوك الطوائف على أمرها  
واقتسموا خططها وتنافسوا بينهم وتوزعوا ممالك الدولة واتزى كل واحد منهم على ما كان في ولايته  
وشمخ بأنفه وبلغهم شأن العجم مع الدولة العباسية فلقبوا بألقاب الملك ولبسوا شارته وأمنوا ممن  
ينقض ذلك عليهم أو غيره لأن الأندلس ليس بدار عصائب ولا قبائل كما سذكره واستمر لهم  
ذلك كما قال ابن شرف



مما يزهدي في أرض أندلس \* أسماء معتصم فيها ومعتضد  
ألقاب مملكة في غير موضعها \* كالمريحكي انتفاخ صورة الأسد

فاستظهروا على أمرهم بالموالى والمصطنعين والطراء على الأندلس من أهل العدو من قبائل البربر  
وزناته وغيرهم اقتداء بالدولة في آخر أمرها في الاستظهار بهم حين ضعفت عصبية العرب واستبد ابن  
أبى عامر على الدولة فكان لهم دول عظيمة استبد كل واحد منها بجانب من الأندلس وحظ كبير  
من الملك على نسبة الدولة التي اقتسموها ولم يزالوا في سلطانهم ذلك حتى جاز اليهم البحر المراتبون أهل  
العصبية القوية من لمتونة فاستبدلوا بهم وأز الوهم عن مراكرهم وعوا آثارهم ولم يقدر واعلى مدافعهم  
لفقدان العصبية لديهم فهذه العصبية يكون تمهيد الدولة وحمايتها من أولها وقد ضل الطرطوشى أن حامية  
الدول باطلاقهم الجند أهل العطاء المفروض مع الأهلة ذكر ذلك في كتابه الذى سماه سراج الملوك  
وكلامه لا يتناول تأسيس الدول العامة في أولها وإنما هو مخصوص بالدول الأخيرة بعد التمهيد واستقرار  
الملك في النصاب واستحكام الصبغة لاهله فالرجل إنما أدرك الدولة عند هرمها وخلق جدتها ورجوعها  
إلى الاستظهار بالموالى والصنائع ثم إلى المستخدمين من ورأئهم بالأجر على المدافعة فانه إنما أدرك دول  
الطوائف وذلك عند اختلال دولة بنى أمية وانقراض عصبيتها من العرب واستبداد كل أمير بقطره  
وكان في إيالة المستعين بن هود وابنه المظفر أهل سرقسطة ولم يكن بقى لهم من أمر العصبية شئ  
لاستيلاء الترف على العرب منذ ثلثمائة من السنين وهلاكهم ولم ير الأسطانا مستبدا بالملك عن عشائره  
قد استحكمت له صبغة الاستبداد منذ عهد الدولة وبقية العصبية فهو لذلك لا ينازع فيه ويستعين على أمره  
بالأجراء من المرتزقة فأطلق الطرطوشى القول في ذلك ولم يتفطن لكيفية الأمر منذ أول الدولة وأنه  
لا يتم إلا أهل العصبية فتفطن أنت له وافهم سر الله فيه والله يؤتى ملكه من يشاء

### ٣ · فصل في أنه قد يحدث لبعض أهل النصاب المسمى دولة تستغنى عن العصبية \*

وذلك أنه إذا كان لعصبية غلب كثير على الأئمة والأجيال وفي نفوس القائمين بأمره من أهل القاصية  
اذعان لهم واثقياد فاذا نزع اليهم هذا الخارج وانتدع عن مقر ملكه ومنبت عزه اشتملوا عليه وقاموا  
بأمره وظاهره على شأنه وعنوا بتمهيد دولته يرجون استقراره في نصابه وتناوله الأمر من يد أعياصه  
وجزائه لهم على مظاهرتهم باصطفائهم لرتب الملك وخططه من وزارة أو قيادة أو ولاية ثم ولا يطمعون  
في مشاركته في شئ من سلطانه تسليما لعصبية واثقياد لما استحكم له ولقومه من صبغة الغلب في العالم وعقيدة  
إيمانية استقرت في الأذعان لهم فلورامو هامة أو دونه لزلزلت الأرض زلزالها وهذا كالموقع للادارسة  
بالمغرب الأقصى والعبيدين بأفريقية ومصر لما انتدب الطالبيون من المشرق إلى القاصية وابتعدوا عن  
مقر الخلافة وسموا إلى طلبها من أيدي بنى العباس بعد أن استحكمت الصبغة لبنى عبد مناف لبنى أمية  
أولاً ثم لبنى هاشم من بعدهم فخرجوا بالقاصية من المغرب ودعوا لأنفسهم وقام بأمرهم البرابرة مرة بعد

أخرى فأوربة ومغيلة لئلا دراسة وكتامة وصنهاجة وهوارة للعبيدين فشيروادولتهم وهدوا بعصائهم أمرهم واقتطعوامن ممالك العباسيين المغرب كله ثم أفريقية ولم يزل ظل الدولة يتقلص وظل العبيدين يمتد إلى أن ملكوا مصر والشام والحجاز وقاسموهم في الممالك الإسلامية شق الابلمة وهؤلاء البرابرة القائمون بالدولة مع ذلك كلهم مسلمون للعبيدين أمرهم مذعنون لملكهم وانما كانوا يتنافسون في الرتبة عندهم خاصة تسليما لما حصل من صبغة الملك لبني هاشم ولما استحك من الغلب لقريش ومضر على سائر الأئمة فلم يزل الملك في أعقابهم إلى أن انقرضت دولة العرب بأسرها والله يحكم لامعشب حكمه

٤ ﴿ فصل في أن الدول العامة الاستيلاء العظيمة الملك أصلها الدين امامن نبوة أو دعوة حق ﴾

وذلك لأن الملك انما يحصل بالتغلب والتغلب انما يكون بالعصية واتفاق الأهواء على المطالبة وجمع القلوب وتأليفها انما يكون بمعونة من الله في إقامة دينه قال تعالى لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألقت بين قلوبهم وسره أن القلوب إذا تداعت إلى أهواء الباطل والميل إلى الدنيا حصل التنافس وفشا الخلاف وإذا انصرف إلى الحق ورفضت الدنيا والباطل وأقبلت على الله اتحدت وجهها فذهب التنافس وقل الخلاف وحسن التعاون والتعاقد واتسع نطاق الكلمة لذلك فعظمت الدولة كما نبين لك بعد إن شاء الله سبحانه وتعالى وبه التوفيق لأرب سواه

٥ ﴿ فصل في أن الدعوة الدينية تزيد الدولة في أصلها قوة على قوة العصبية التي كانت لها من عددها ﴾

والسبب في ذلك كما قدمناه أن الصبغة الدينية تذهب بالتنافس والتحاسد الذي في أهل العصبية وتفرد الوجهة إلى الحق فاذا حصل لهم الاستبصار في أمرهم لم يقف لهم شيء لأن الوجهة واحدة والمطلوب متساو عندهم وهم مستميتون عليه وأهل الدولة التي هم طالبوها وإن كانوا أضعافهم فأغراضهم متباينة بالباطل وتخادهم لتقية الموت حاصل فلا يقاومونهم وإن كانوا أكثر منهم بل يغلبون عليهم ويعاجلهم الفناء بما فيهم من الترف والنل كما قدمناه وهذا كما وقع للعرب صدر الاسلام في الفتوحات فكانت جيوش المسلمين بالقادسية واليرموك بضعا وثلاثين ألفا في كل معسكر وجموع فارس مائة وعشرين ألفا بالقادسية وجموع هرقل على ما قاله الواقدي أربع مائة ألف فلم يقف للعرب أحد من الجانبين وهزموا وغلبوا على ما بأيديهم وأعتبر ذلك أيضا في دولة لمتونة ودولة الموحدين فقد كان بالمغرب من القبائل كثير ممن يقاومهم في العدد والعصية أو يشف عليهم إلا أن الاجتماع الديني ضاعف قوة عصبيتهم بالاستبصار والاستماتة كما قلناه فلم يقف لهم شيء وأعتبر ذلك اذا حالت صبغة الدين وفسدت كيف ينتقض الأمر ويصير الغلب على نسبة العصبية وحدها دون زيادة الدين فتغلب الدولة من كان تحت يدها من العصاب المكافئة لها أو الزائدة القوة عليها الذين غلبتهم بمضاعفة الدين لقوتها ولو كانوا أكثر عصبية منها وأشد بدواة وأعتبر هذا في الموحدين مع زناثة لما كانت زناثة أبدى من المصامدة وأشد توحشا وكان

للمصامدة الدعوة الدينية باتباع المهدي فلبسوا صبغتها وتضاعفت قوة عصبيتهم بها فغلبوا على زناته أولاً واستبعوهم وان كانوا من حيث العصبية والبداءة أشد منهم فلما خلوا عن تلك الصبغة الدينية انتقضت عليهم زناته من كل جانب وغلبوهم على الأمر واتزعوه منهم والله غالب على أمره

### ٦ \* فصل في أن الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم \*

وهذا لما قدمناه من أن كل أمر تحمل عليه الكافة فلا بد له من العصبية وفي الحديث الصحيح كما مر ما بعث الله نبياً إلا في منعة من قومه وإذا كان هذا في الأنبياء وهم أولى الناس بخرق العوائد فما ظنك بغيرهم أن لا تخرق له العادة في الغلب بغير عصبية وقد وقع هذا ابن قسي شيخ الصوفية وصاحب كتاب خلع النعلين في التصوف ثار بالأندلس داعياً إلى الحق وسمي أصحابه بالمرابطين قبيل دعوة المهدي فاستتب له الأمر قليلاً لشغل المتونة بما دهمهم من أمر الموحدين ولم تكن هناك عصائب ولا قبائل يدفعونه عن شأنه فلم يلبث حين استولى الموحدون على المغرب أن أذعن لهم ودخل في دعوتهم وتابعهم من معقله بحصن أركش وأمكنهم من ثغره وكان أول داعية لهم بالأندلس وكانت ثورته تسمى ثورة المرابطين ومن هذا الباب أحوال الثوار القائمين بتغيير المنكر من العامة والفقهاء فإن كثيراً من المتحلين للعبادة وسلوك طرق الدين يذهبون إلى القيام على أهل الجور من الأمراء داعين إلى تغيير المنكر والنهي عنه والأمر بالمعروف ورجاء في الثواب عليه من الله فيكثر أتباعهم والمتشبثون بهم من الغوغاء والدهماء ويعرضون أنفسهم في ذلك للمهالك وأكثرهم يهلكون في تلك السبيل مآذورين غير مأجورين لأن الله سبحانه وتعالى لم يكتب ذلك عليهم وإنما أمر به حيث تكون القدرة عليه قال صلى الله عليه وسلم من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فليسهان فإن لم يستطع فليقلبه وأحوال الملوك والدول راسخة قوية لا يزعزحها ويهدم بناءها إلا المطالبة القوية التي من وراءها عصبية القبائل والعشائر كما قدمناه وهكذا كان حال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في دعوتهم إلى الله بالعشائر والعصائب وهم المؤيدون من الله بالكون كله لو شاء لكنه إنما أجرى الأمور على مستقر العادة والله حكيم عليم فاذا ذهب أحد من الناس هذا المذهب وكان فيه محقق صر به الانفراد عن العصبية فطاح في هوة الهلاك وأما إن كان من المتلبسين بذلك في طلب الرياسة فأجدر أن تعوقه العوائق وتقطع به المهالك لأنه أمر الله لا يتم الإرضاء وإعانتة والإخلاص له والنصيحة للمسلمين ولا يشك في ذلك مسلم ولا يرتاب فيه ذو بصيرة وأول ابتداء هذه النزعة في الملة ببغداد حين وقعت فتنة طاهر وقتل الأمين وأباطم المأمون بخراسان عن مقدم العراق ثم عهد لعلي بن موسى الرضا من آل الحسين فكشف بنو العباس عن وجه النكير عليه وتداعوا للقيام وخلع طاعة المأمون والاستبدال منه وبويع إبراهيم بن المهدي فوق المهرج ببغداد وانطلقت أيدي الزعرة بها من الشطار والحريية على أهل العافية والصون وقطعوا السبيل وامتلات أيديهم من نهاب الناس وباعوها علانية في الأسواق



واستعدى أهلها الحكم فلم يعدوهم فتوافر أهل الدين والصالح على منع الفساق وكف عاديهم وقام  
 ببغداد رجل يعرف بخالد الدريوس ودعا الناس إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فأجابه خلق  
 وقاتل أهل الزعارة فغلّبهم وأطلق يده فيهم بالضرب والتنكيل ثم قام من بعده رجل آخر من سواد  
 أهل بغداد يعرف بسهل ابن سلامة الانصاري ويكنى أبا حاتم وعلق مصحفاً في عنقه ودعا الناس إلى الأمر  
 بالمعروف والنهي عن المنكر والعمل بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم فاتبعه كافة الناس من  
 بين شريف ووضيع من بني هاشم فمن دونهم ونزل قصر طاهر واتخذ الديوان وطاف ببغداد ومنع كل  
 من أخاف المارة ومنع الخفارة لأولئك الشطار وقال له خالد الدريوس أنا لأعيب على السلطان فقال له  
 سهل لسكني أقاتل كل من خالف الكتاب والسنة كائن من كان وذلك سنة إحدى ومائتين وجيز له  
 إبراهيم بن المهدي العساكر فغلبه وأسرّه وانحل أمره سرّياً وذهب ونجا بنفسه ثم اقتدى بهذا العمل  
 بعد كثير من الموسوسين يأخذون أنفسهم بأقامة الحق ولا يعرفون ما يحتاجون إليه في إقامته من العصبية  
 ولا يشعرون بمغبة أمرهم ومآل أحوالهم والذي يحتاج إليه في أمر هؤلاء المداواة إن كانوا من أهل  
 الجنون وأما التنكيل بالقتل أو الضرب إن أحدثوا هرجاء أو أذاعة السخرية منهم وعدم من جملة  
 الصفاةين وقد ينتسب بعضهم إلى الفاطمي المنتظر بما بأنه هو أو بأنه داع له وليس مع ذلك على علم من  
 أمر الفاطمي ولا ما هو وأكثر المتحليين لمثل هذا تجدهم موسوسين أو مجانين أو ملبسين يطلبون بمثل  
 هذه الدعوة رئاسة امتلات بها جوارحهم وعجزوا عن التوصل إليها بشيء من أسبابها العادية فيحسبون  
 أن هذا من الأسباب البالغة بهم إلى ما يؤملونه من ذلك ولا يحسبون ما ينالهم فيه من الهلكة فيسرع  
 إليهم القتل بما يحدثونه من الفتنة وتسوء عاقبة مكرهم وقد كان لأول هذه المائة خرج بالسوس رجل  
 من المتصوفة يدعى التوبذري عمداً إلى مسجد ماسة بساحل البحر هنالك وزعم أنه الفاطمي المنتظر  
 تلبساً على العامة هنالك بما ملاقلوبهم من الحدثنان بانتظاره هنالك وإن من ذلك المسجد يكون أصل  
 دعوته قتهافت عليه طوائف من عامة البربر تهافت الفراش ثم خشي رؤساؤهم اتساع نطاق الفتنة  
 فدرس إليه كبير المصامدة يومئذ عمر السكسيوى من قتله في فراشه وكذلك خرج في غمارة أيضاً أول  
 هذه المائة رجل يعرف بالعباس وادعى مثل هذه الدعوة واتبع نعيقه الارذلون من سفهاء تلك القبائل  
 وغمارهم وزحف إلى بادس من أمصارهم ودخلها عنوة ثم قتل لأربعين يوماً من ظهور دعوته ومضى  
 في الهالكين الأولين وأمثال ذلك كثير والغلط فيه من الغفلة عن اعتبار العصبية في مثلها وأما أن كان  
 التلبس فأحرى أن لا يتم له أمر وأن ييؤء بأثمه وذلك جزاء الظالمين والله سبحانه وتعالى أعلم وبه  
 التوفيق لأرب غيره ولا معبود سواه

## ٧ ﴿ فصل في أن كل دولة لها حصة من الممالك والأوطان لا تزيد عليها ﴾

والسبب في ذلك أن عصابة الدولة وقومها القائمين بها الممهدين لها لا بد من توزيعهم حصصاً على الممالك

والثغور التي تصير اليهم ويستولون عليها لحمايتهم من العدو وإمضاء أحكام الدولة فيها من جباية وورع وغير ذلك فإذا توزعت العصابات كلهم على الثغور والممالك فلا بد من نفاد عددهم وقد بلغت الممالك حينئذ إلى حد يكون ثغر الدولة وتحمالوطنها ونطاقا لمركز ملكها فإن تكلفت الدولة بعد ذلك زيادة على ما يبدها بقي دون حامية وكان موضعها لا تنهاز الفرصة من العدو المجاور ويعود وبال ذلك على الدولة بما يكون فيه من التجاسر وخرق سياج الهيبة وما كانت العصابة موقورة ولم ينفد عددها في توزيع الحصص على الثغور والنواحي بقي في الدولة قوة على تناول ما وراء الغاية حتى ينفصح نطاقها إلى غايتها والعلة الطبيعية في ذلك هي قوة العصبية من سائر القوى الطبيعية وكل قوة يصدر عنها فعل من الأفعال فشأنها ذلك في فعلها والدولة في مركزها أشد مما يكون في الطرف والنطاق وإذا انتهت إلى النطاق الذي هو الغاية عجزت وأقصرت عما وراءه شأن الأشعة والأشوار إذا انبعثت من المراكز والدوائر المنفسحة على سطح الماء من النقر عليه ثم إذا أدركها الهرم والضعف فأنما تأخذ في الانقاص من جهة الأطراف ولا يزال المركز محفوظا إلى أن يتأذن الله بانقراض الأبرجعة حينئذ يكون انقراض المركز وإذا غلب على الدولة من مركزها فلا ينفعها بقاء الأطراف والنطاق بل تضمحل لوقتها فإن المركز كالقلب الذي تنبعث منه الروح فإذا غلب القلب وملك انهزم جميع الأطراف وانظر هذا في الدولة الفارسية كان مركزها المدائن فما غلب المسلمون على المدائن انقراض أمر فارس أجمع ولم ينفع زددجرد ما بقي بيده من أطراف ممالكه وبالعكس من ذلك الدولة الرومية بالشام لما كان ركزها القسطنطينية وغلبهم المسلمون بالشام تحيزوا إلى مركزهم بالقسطنطينية ولم يضرهم انتزاع الشام من أيديهم فلم يزل ملكهم متصلا بها إلى أن تأذن الله بانقراضه وانظر أيضا شأن العرب أول الإسلام لما كانت عصائبهم موفورة كيف غلبوا على ما جاورهم من الشام والعراق ومصر لا أسرع وقت ثم تجاوزوا ذلك إلى ما وراءه من السند والحبيشة وأفريقية والمغرب ثم إلى الأندلس فلما تفرقوا حصصا على الممالك والثغور ونزلوها حامية ونفذ عددهم في تلك التوزيعات أقصروا عن الفتوحات بعدوا انتهى أمر الإسلام ولم يتجاوز تلك الحدود ومنها تراجعت الدولة حتى تأذن الله بانقراضها وكذا كان حال الدول من بعد ذلك كل دولة على نسبة القائمين بها في القلة والكثرة وعند نفاد عددهم بالتوزيع ينقطع لهم الفتح والاستيلاء سنة الله في خلقه

#### ٨ ﴿ فصل في أن عظم الدولة واتساع نطاقها وطول أمدها على نسبة القائمين بها في القلة والكثرة ﴾

والسبب في ذلك أن الملك إنما يكون بالعصبية وأهل العصبية هم الحامية الذين ينزلون بممالك الدولة وأقطارها وينقسمون عليها إما كان من الدولة العامة قبيلها وأهل عصابتها أكثر كانت أقوى وأكثر ممالك وأوطانا وكان ملكها أوسع لذلك واعتبر ذلك بالدولة الإسلامية لما ألف الله كلمة العرب على الإسلام وكان عدد المسلمين في غزوة تبوك آخر غزوات النبي صلى الله عليه وسلم مائة ألف وعشرة آلاف من مضروقه حطان ما بين فارس وراجل إلى من أسلم منهم بعد ذلك إلى الوفاة فلما توجهوا للطلب ما في

أيدي الأمم من الملك لم يكن دونه حمى ولا وزر فاستبيح حمى فارس والروم أهل الدولتين العظيمنتين في العالم لعهدهم والترك بالمشرق والافرنجة والبربر بالمغرب والقوط بالأندلس وخطوا من الحجاز إلى السوس الأقصى ومن اليمن إلى الترك بأقصى الشمال واستولوا على الأقاليم السبعة ثم انظر بعد ذلك دولة صنهاجة والموسدين مع العبيدين قبلهم لما كان قبيل كتامة القائمين بدولة العبيدين أكثر من صنهاجة ومن المصامدة كانت دولتهم أعظم فملكوا أفريقية والمغرب والشام ومصر والحجاز ثم انظر بعد ذلك دولة زناتة لما كان عددهم أقل من المصامدة قصر ملكهم عن ملك الموحدين لقصور عددهم عن عدد المصامدة منذ أول أمرهم ثم اعتبر بعد ذلك حال الدولتين لهذا العهد زناتة بني مرين وبني عبد الواد لما كان عدد بني مرين لأول ملكهم أكثر من بني عبد الواد كانت دولتهم أقوى منها وأوسع نطاقاً وكان لهم عليهم الغلب مرة بعد أخرى يقال إن عدد بني مرين لأول ملكهم كان ثلاثة آلاف وأن بني عبد الواد كانوا ألفاً إلا أن الدولة بالرقة وكثرة التابع كثرت من أعدادهم وعلى هذه النسبة في أعداد المتغلبين لأول الملك يكون إتساع الدولة ووقوتها وأما طول أمدتها أيضاً فعلى تلك النسبة لأن عمر الحادث من قوة مزاجه ومزاج الدول إنما هو بالعصية فإذا كانت العصية قوية كان المزاج تابعاً لها وكان أمد العمر طويلاً والعصية إنما هي بكثرة العدد ووفوره كما قلناه والسبب الصحيح في ذلك أن النقص إنما يبدوا في الدولة من الأطراف فإذا كانت ممالكها كثيرة كانت أطرافها بعيدة عن مركزها وكثيرة وكل نقص يقع فلا بد له من زمن فتكثر أزمان النقص لكثرة الممالك واختصاص كل واحد منها بنقص وزمان فيكون أمدتها طويلاً وانظر ذلك في دولة العرب الإسلامية كيف كان أمدتها أطول الدول لابنو العباس أهل المركز ولا بنو أمية المستبدون بالأندلس ولم ينقص أمر جميعهم إلا بعد الأربعمائة من الهجرة ودولة العبيدين كان أمدتها قريباً من مائتين وثمانين سنة ودولة صنهاجة دونهم من لدن تقليد مع الدولة أمر أفريقية لبلكين ابن زيري في سنة ثمان وخمسين وثلثمائة إلى حين إستيلاء الموحدين على القلعة وبجاية سنة سبع وخمسين وخمسمائة ودولة الموحدين لهذا العهد تناهز مائتين وسبعين سنة وهكذا نسب الدول في أعمارها على نسبة القائمين بها سنة الله التي قد خللت في عبادته

#### ٩ ﴿ فصل في أن الأوطان الكثيرة القبائل والعصائب قل أن تستحكم فيها دولة ﴾

والسبب في ذلك اختلاف الآراء والأهواء وأن وراء كل رأى منها وهوى عصبية تمنع دونها فيكثر الاتقاض على الدولة والخروج عليها في كل وقت وإن كانت ذات عصبية لأن كل عصبية ممن تحت يدها تظن في نفسها منعة وقوة وانظر ما وقع من ذلك بأفريقية والمغرب منذ أول الإسلام ولهذا العهد فإن ساكن هذه الأوطان من البربر أهل قبائل وعصبيات فلم يغن فيهم الغلب الأول الذي كان لابن أبي صرح عليهم وعلى الافرنجة شيئاً وعاودوا بعد ذلك الثورة والردة مرة أخرى وعظم الأتخان



من المسلمين فيهم ولما استقر الدين عندهم عادوا الى الثورة والخروج والاخذ بدين الخوارج مرات عديدة قال ابن أبي زيد ارتدت البرابرة بالمغرب اثنتي عشرة مرة ولم تستقر كلفة الاسلام فيهم الا لعهد ولاية موسى بن نصير فما بعده وهذا معنى ما ينقل عن عمر أن أفريقية مفرقة لقلوب أهلها إشارة الى ما فيها من كثرة العصابات والقبائل الحاملة لهم على عدم الاذعان والانتقاد ولم يكن العراق لذلك العهد بتلك الصفة ولا الشام إنما كانت حاميتهم فارس والروم والسكافة دهماء أهل مدن وأمصار فلما غلبهم المسلمون على الأمر وانتزعوه من أيديهم لم يبق فيهم ائمان ولا مشاق والبربر قبائلهم بالمغرب أكثر من أن تحصى وكلهم بادية وأهل عصابات وعشائر وكما هلكت قبيلة عادت الأخرى مكانها وإلى دينهم من الخلاف والردة فطال أمر العرب في تهديد الدولة بوطن أفريقية والمغرب وكذلك كان الأمر بالشام لعهد بني إسرائيل كان فيه من قبائل فلسطين وكنعان وبني عيصو وبني مدين وبني لوط والروم ويونان والعمالة والكركش والنبط من جانب الجزيرة والموصل ما لا يحصى كثرة وتنوعا في العصبية فصعب على بني إسرائيل تهديد دولتهم ورسوخ أمرهم واضطرب عليهم الملك مرة بعد أخرى وسرى ذلك الخلاف اليهم فاختلفوا على سلطانهم وخرجوا عليه ولم يكن لهم ملك موطن سائر أيامهم إلى أن غلبهم الفرس ثم يونان ثم الروم آخر أمرهم عند الجلاء والله غالب على أمره وبالعكس هذا أيضا الأوطان الحالية من العصبية يسهل تهديد الدولة فيها ويكون سلطانها وازعالة المخرج والانتقاض ولا تحتاج الدولة فيها إلى كثير من العصبية كما هو الشأن في مصر والشام لهذا العهد اذهى خلوا من القبائل والعصبية كان لم يكن الشام معدنا لهم كما قلناه فلذلك مصر في غاية الدعة والرسوخ لقلة الخوارج وأهل العصابات إنما هو سلطان ورعية ودولتها قائمة بملوك الترك وعصائبهم يغلبون على الأمر واحدا بعدوا واحد وينتقل الأمر فيهم من منبت إلى منبت والخلافة مسماة للعباسي من أعقاب الخلفاء يعداد وكذا شأن الأندلس لهذا العهد فان عصبية ابن الأحمر سلطانها لم تكن لأول دولتهم بقوة ولا كانت كرات إنما يكون أهل بيت من بيوت العرب أهل الدولة الأموية بقوا من ذلك القلة وذلك أن أهل الأندلس لما انقرضت الدولة العربية منه وملكهم البربر من المتونة والموحدين سئمو املكهم وثقلت وطأتهم عليهم فأشربت القلوب بغضام وأمكن الموحدون والسادة في آخر الدولة كثير من الحصول للطاغية في سبيل الاستظهار به على شأنهم من تملك الحضرة مرا كش فاجتمع من كان بقي به من أهل العصبية القديمة معادن من بيوت العرب تجافى بهم النبت عن الحاضرة والأمصار بعض الشيء ورسخوا في العصبية مثل ابن هود وابن الأحمر وابن مردنيش وأمثالهم فقام ابن هود بالأمر ودعا بدعوة الخلافة العباسية بالمشرق وحمل الناس على الخروج على الموحدين فبنذوا اليهم العهد وأخرجوهم واستقل ابن هود بالأمر بالأندلس ثم سما ابن الأحمر للأمر وخالف ابن هود في دعوته فدعاه هؤلاء لابن أبي حفص صاحب أفريقية من الموحدين وقام بالأمر وتناوله بعصابة قليلة من قرابته كانوا يسمون الرؤساء ولم يحتج لأكثر منهم لقلة العصابات بالأندلس وأنها سلطان ورعية ثم استظهر بعد ذلك على الطاغية

بمن يحيز اليه البحر من أعياص زناتة فصاروا معه عصابة على المشاغرة والرباط ثم ساء صاحب المغرب من ملوك زناتة أمل في الاستيلاء على الأندلس فصار أولئك الأعياص عصابة ابن الأحمر على الامتناع منه إلى أن تأكل أمره ورسخ وألقته النفوس وعجز الناس عن مطالبة وورثه أعقابه لهذا العهد فلا تظن أنه بغير عصابة فليس كذلك وقد كان مبدؤه بعصابة لأنها قليلة وعلى قدر الحاجة فإن قطر الأندلس لقلة العصاب والقبائل فيه يغنى عن كثرة العصابة في التغلب عليهم والله غني عن العالمين

#### ١٠ \* فصل في أن من طبيعة الملك الانفراد بالمجد \*

وذلك أن الملك كما قدمناه إنما هو بالعصبة والعصبة متألفة من عصابات كثيرة تكون واحدة منها أقوى من الأخرى كلها فتغلبها وتستولى عليها حتى تصيرها جميعا في ضمنها وبذلك يكون الاجتماع والغلب على الناس والدول وسره أن العصبة العامة للقبيل هي مثل المزاج لمتكون والمزاج إنما يكون عن العناصر وقد تبين في موضعه أن العناصر إذا اجتمعت متكافئة فلا يقع منها مزاج أصلا بل لابد أن تكون واحدة منها هي الغالبة على الكل حتى تجمعها وتؤلفها وتصيرها عصابة واحدة شاملة لجميع العصاب وهي موجودة في ضمنها وتلك العصبة الكبرى إنما تكون لقوم أهل بيت ورياسة فيهم ولا بد أن يكون واحد منهم رئيسا لهم غالب عليهم فيتعين رئيسا للعصبات كلها الغلب منبته لجمعها وإذا تعين له ذلك من الطبيعة الحيوانية خلق الكبر والألفة فيأنف حينئذ من المساهمة والمشاركة في استباعهم والتحكم فيهم ويحيى خلق التآله الذي في طباع البشر مع ما تقتضيه السياسة من انفراد الحاكم فساد الكل باختلاف الحكم لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فتجدع حينئذ أنوف العصبات ويفلج شكائهم عن أن يسمو إلى مشاركته في التحكم وتقرع عصبيتهم عن ذلك ويفرد به ما استطاع حتى لا يترك لأحدهم في الأمر لاناقة ولا جملا فينفرد بذلك المجد بكليته ويدفعهم عن مساهمته وقديمت ذلك للأول من ملوك الدولة وقد لا يتم إلا للثاني والثالث على قدر ممانعة العصبات وقوتها لأنه أمر لابد منه في الدول سنة الله التي قد خلت في عباده والله تعالى أعلم

#### ١١ \* فصل في أن من طبيعة الملك الترف \*

وذلك أن الأمة إذا تغلبت وملكت ما بأيدي أهل الملك قبلها كثر رياسها ونعمتها فتكثر عوائدهم ويتجاوزون ضرورات العيش وخشوتهم إلى نوافله ورقته وزينته ويذهبون إلى اتباع من قبلهم في عوائدهم وأحوالهم وتصير لتلك النوافل عوائد ضرورية في تحصيلها وينزعون مع ذلك إلى رقة الأحوال في المطاعم والملابس والفرش والآنية ويتفاخرون في ذلك ويفخرون فيه غيرهم من الأمم في أكل الطيب ولبس الأنيق وركوب الفاره ويناغى خلفهم في ذلك سلفهم إلى آخر الدولة وعلى قدر ملكهم يكون حظهم من ذلك وترفيه فيه إلى أن يبلغوا من ذلك الغاية التي للدولة أن تبلغها بحسب قوتها وعوائدهم من قبلها سنة الله في خلقه والله تعالى أعلم

## ١٢ \* فصل في أن من طبيعة الملك الدعة والسكون \*

وذلك أن الأمة لا يحصل الملك إلا بالمطالبة والمطالبة غايتها الغلب والملك وإذا حصلت الغاية انقضى السعي إليها ( قال الشاعر )

عجبت لسعي الدهر بيني وبينها \* فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر  
فاذا حصل الملك أقصروا عن المتاعب التي كانوا يتكلفونها في طلبه وآثروا الراحة والسكون والدعة  
ورجعوا إلى تحصيل ثمرات الملك من المباني والمساكن والملابس فينبون القصور ويحرون المياه ويغرسون  
الرياض ويستمتعون بأحوال الدنيا ويؤثرون الراحة على المتاعب ويتأثقون في أحوال الملابس  
والمطاعم والآنية والفرش ما استطاعوا ويألفون ذلك ويورثونه من بعدهم من أجيالهم ولا يزال  
ذلك يتزايد فيهم إلى أن يتأذن الله بأمره وهو خير الحاكمين والله تعالى أعلم

## ١٣ \* فصل في أنه إذا استحكمت طبيعة الملك من الانفراد بالمجد

وحصول الترف والدعة أقبلت الدولة على الهرم \*

وبيانه من وجوه \* الأول أنها تقتضي الانفراد بالمجد كما قلناه ومهما كان المجد مشتركا بين العصابة  
وكان سعيهم له واحدا كانت همهم في التغلب على الغير والذب عن الحوزة أسوة في طموحها وقوة  
شكائهم ومرامهم إلى العز جميع وهم يستطيعون الموت في بناء مجدهم ويؤثرون الهلكة على فسادهم وإذا  
انفرد الواحد منهم بالمجد قرع عصبيتهم وكبح من أعتهم واستأثروا بمال دولتهم فتكسلوا عن الغزو  
وفشل ربحهم وزعموا المذلة والاستعباد ثم ربي الجيل الثاني منهم على ذلك يحسبون ما ينالهم من العطاء  
أجرا من السلطان لهم على الحماية والمعونة لا يجرى في عقولهم سواه وقل أن يستأجر أحد نفسه على  
الموت فيصير ذلك وهنا في الدولة وخضدا من الشوك وتقبل به على مناحي الضعف والهرم لفساد العصبية  
بذهاب البأس من أهلها \* الوجه الثاني أن طبيعة الملك تقتضي الترف كما قدمناه فتكثر عوائدهم وتزيد  
نققاتهم على أعطياتهم ولا يفي دخلهم بخرجهم فالفقير منهم يهلك والمترف يستغرق عطاءه بترفه ثم يزداد  
ذلك في أجيالهم المتأخرة إلى أن يقصر العطاء كله عن الترف وعوائده وتمسهم الحاجة وتطالبهم  
ملوكهم بحصر نفقاتهم في الغزو والحروب فلا يجدون وليجة عنها فيوقعون بهم العقوبات ويتزعجون  
ما في أيدي الكثير منهم يستأثرون به عليهم أو يؤثرون به أبناءهم وصنائع دولتهم فيضعفونهم لذلك  
عن إقامة أحوالهم ويضعف صاحب الدولة بضعفهم وأيضا إذا كثرت الترف في الدولة وصار عطاؤهم  
مقصرا عن حاجاتهم ونفقاتهم احتاج صاحب الدولة الذي هو السلطان إلى الزيادة في أعطياتهم حتى  
يسد خللهم ويريح عائلهم والجباية مقدارها معلوم ولا تزيد ولا تنقص وإن زادت بما يستحدث من  
المكوس فيصير مقدارها بعد الزيادة محدودا فإذا وزعت الجباية على الأعطيات وقد حدثت فيها الزيادة  
لكل واحد بما حدث من ترفهم وكثرة نفقاتهم نقص عدد الحامية حيثئذ عما كان قبل زيادة الأعطيات



ثم يعظم الترف وتكثر مقادير الاعطيات لذلك فينقص عدد الحامية وثالثا ورابعا إلى أن يعود  
العسكر إلى أقل الأعداد فتضعف الحماية لذلك وتسقط قوة الدولة ويتجاسر عليها من يجاورها من الدول  
أو من هو تحت يديها من القبائل والعصائب ويأذن الله فيها بالفناء الذي كتبه على خليقته وأيضا فالترف  
مفسد للخلق بما يحصل في النفس من ألوان الشر والسفسفة وعوائدها كما يأتي في فصل الحضارة فتذهب  
منهم خلال الخير التي كانت علامة على الملك ودليلا عليه ويتصفون بما يناقضها من خلال الشر فيكون علامة  
على الادبار والانقراض بما جعل الله من ذلك في خليقته وتأخذ الدولة مبادئ العطب وتتضعع أحوالها  
وتنزل بها أمراض مزمنة من الهرم إلى أن يقضى عليها \* الوجه الثالث أن طبيعة الملك تقتضى الدعة كما  
ذكرناه وإذا اتخذوا الدعة والراحة مألفا وخلقوا صار لهم ذلك طبيعة وجبلة شأن العوائد كلها وإيلافها  
فتربى أجيالهم الحادثة في غضارة العيش ومهاد الترف والدعة وينقلب خلق التوحش وينسون عوائد  
البداءة التي كان بها الملك من شدة البأس وتعود الاقتباس ركوب البيداء وهداية القفر فلا يفرق بينهم وبين  
السوقة من الحضرة إلا في الثقافة والشارة فتضعف حمايتهم ويذهب بأسهم وتنخس شوكتهم ويعود  
وبالذات على الدولة بما تلبس به من ثياب الهرم ثم لا يزالون يتلونون بعوائد الترف والحضارة والسكون  
والدعة ورقة الحاشية في جميع أحوالهم وينغمسون فيها وهم في ذلك يعدون عن البداءة والحشونة  
وينسلخون عنها شيئا فشيئا وينسون خلق البسالة التي كانت بها الحماية والمدافعة حتى يعودوا عيالا على  
حامية أخرى إن كانت لهم واعتبر ذلك في الدول التي أخبارها في الصحف لديك تجد ما قلته لك من ذلك  
صحيا من غير ريبه وربما يحدث في الدولة إذا طرقتها هذا الهرم بالترف والراحة أن يتخير صاحب الدولة  
أنصارا وشيعة من غير جلدتهم ممن تعود الحشونة فيتخذهم جندا يكون أصبر على الحرب وأقدر على  
معاناة الشدائد من الجوع والشظف ويكون ذلك دواء للدولة من الهرم الذي عساه أن يطرقها حتى  
يأذن الله فيها بأمره وهذا كما وقع في دولة الترك بالشرق فإن غالب جندها الموالى من الترك فتتخير  
ملوكهم من أولئك المماليك المجلوبين اليهم فرسانا وجندا فيكونون أجرا على الحرب وأصبر على  
الشظف من أبناء المماليك الذين كانوا قبلهم وربوا في ماء النعيم والسلطان وظله وكذلك في دولة  
الموحدين بأفريقية فإن صاحبها كثير ما يتخذ أجناده من زناته والعرب ويستكثر منهم ويترك أهل الدولة  
المتعودين للترف فتستجد الدولة بذلك عمرا آخر سالما من الهرم والله وارث الأرض ومن عليها

#### ١٤ \* فصل في أن الدولة لها أعمال طبيعية كما للأشخاص \*

إعلم أن العمر الطبيعي للأشخاص على مازعم الأطباء والمنجمون مائة وعشرون سنة وهي سنة القمر  
الكبرى عند المنجمين ويختلف العمر في كل جيل بحسب القرائن فيزيد عن هذا وينقص منه فتكون  
أعمار بعض أهل القرائن مائة تامة وبعضهم خمسين أو ثمانين أو سبعين على ما تقتضيه أدلة القرائن عند  
الناظرين فيها وأعمار هذه الملة ما بين الستين إلى السبعين كما في الحديث ولا يزيد على العمر الطبيعي الذي

هو مائة وعشرون إلا في الصور النادرة وعلى الأوضاع الغريبة من الفلك كما وقع في شأن نوح عليه السلام  
وقليل من قوم عاد وثور وأما أعمار الدول أيضا وإن كانت تختلف بحسب القرانات إلا أن الدولة في  
الغالب لا تعدو أعمار ثلاثة أجيال والجيل هو عمر شخص واحد من العمر الوسط فيكون أربعين الذي  
هو انتهاء النمو والنشوء إلى غايته قال تعالى حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة ولهذا قلنا أن عمر الشخص  
الواحد هو عمر الجيل ويؤيد ما ذكرناه في حكمة التيه الذي وقع في بني إسرائيل وأن المقصود بالاربعين  
فيه فناء الجيل الأحياء ونشأة جيل آخر لم يعدوا الذل ولا عرفوه فدل على اعتبار الأربعة في عمر  
الجيل الذي هو عمر الشخص الواحد وإنما قلنا أن عمر الدولة لا يعدو في الغالب ثلاثة أجيال لأن الجيل  
الأول لم يزلوا على خلق البداوة وخشوتها وتوحشها من تنظيف العيش والبسالة والاقتراس والاشتراك  
في المجد فلا تزال بذلك سورة العصبية مخفوفة فيهم فخدم مرهف وجانبهم مرهوب والناس لهم مغلوبون  
والجيل الثاني تحول حالهم بالملك والترفة من البداوة إلى الحضارة ومن الشظف إلى الترف والحصب  
ومن الاشتراك في المجد إلى انفراد الواحد به وكسل الباقين عن السعي فيه ومن عز الاستطالة إلى ذل  
الاستكانة فتتكسر سورة العصبية بعض الشيء وتؤنس منهم المهانة والخضوع ويبقى لهم الكثير من  
ذلك بما أدركوا الجيل الأول وباشروا أحوالهم وشاهدوا من اعتزازهم وسعيهم إلى المجد ومرامهم في  
المدافعة والحماية فلا يسعهم ترك ذلك بالكلية وإن ذهب منه ما ذهب ويكونون على رجاء من مراجعة الأحوال  
التي كانت للجيل الأول أو على ظن من وجودها فيهم وأما الجيل الثالث فينسبون عهد البداوة والخشونة  
كأن لم تكن ويفقدون حلاوة العز والعصبية بما هم فيه من ملكة القهر ويبلغ فيهم الترف غايته بما تبكوه  
من النعيم وغضارة العيش فيصرون عيالا على الدولة ومن جملة النساء والولدان المحتاجين للمدافعة عنهم  
وتسقط العصبية بالجملة وينسون الحماية والمدافعة والمطالبة ويلبسون على الناس في الشارة والري وركوب  
الخيول وحسن الثقافة عوهم بها وهم في الأكرأجبن من النساء على ظهورها فاذا جاء الطالب لهم لم  
يقاوموا مدافعتهم فيحتاج صاحب الدولة حينئذ إلى الاستظهار بسواهم من أهل النجدة ويستكثر بالموالي  
ويصططع من يغني عن الدولة بعض الغناء حتى يتأذن الله بانقرضها فتذهب الدولة بما حملت فهذه كما تراه  
ثلاثة أجيال فيها يكون هرم الدولة وتخلقها ولهذا كان انقراض الحسب في الجيل الرابع كما مر في أن المجد  
والحسب إنما هو في أربعة آباء وقد أتيناك فيه يبرهان طبيعي كاف ظاهر مبني على ما مهدناه قبل من المقدمات  
فتأمله فلن تعدد وجه الحق إن كنت من أهل الانصاف وهذه الأجيال الثلاثة عمرها مائة وعشرون سنة  
على ما مر ولا تعدد الدول في الغالب هذا العمر بتقريب قبله أو بعده إلا أن عرض لها عرض آخر من فقدان  
المطالب فيكون الهرم حاصلا مستوليا والطالب لم يحضرها ولو قد جاء الطالب لما وجد مدافعا فاذا جاء  
أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون فهذا العمر للدولة بمثابة عمر الشخص من التزايد إلى سن  
الوقوف ثم إلى سن الرجوع ولهذا يجري على السنة الناس في المشهور أن عمر الدولة مائة سنة وهذا معناه  
فاعتبره واتخذ منه قانونا يصح لك عدد الآباء في عمود النسب الذي تريده من قبل معرفة السنين الماضية

إذا كنت قد استربت في عددم وكانت السنون الماضية منذ أولهم محصلة لديك فعد لكل مائة من السنين ثلاثة من الآباء فإن نفدت على هذا القياس مع نفود عددم فهو صحيح وإن نقصت عنه بحيل فقد غلط عددم بزيادة واحد في عمود النسب وإن زادت بمثله فقد سقط واحد وكذلك تأخذ عدد السنين من عددم إذا كان محصلا لديك فتأمله تجده في الغالب صحيحا والله يقدر الليل والنهار

### ١٥ ﴿ فصل في انتقال الدولة من البداوة إلى الحضارة ﴾

إعلم أن هذه الأقطار طبيعية للدول فإن الغلب الذي يكون به الملك إنما هو بالعصبية وبما يتبعها من شدة البأس وتعود الاقتراس ولا يكون ذلك غالبا إلا مع البداوة فطور الدولة من أولها بداوة ثم إذا حصل الملك تبعه الرفه واتساع الأحوال والحضارة إنما هي تفنن في الترف وأحكام الصنائع المستعملة في وجوهه ومذاهبه من المطابخ والملابس والمباني والفرش والأبنية وسائر عوائد المنزل وأحواله فلكل واحد منها صنائع في استجادته والتأنق فيه تختص به ويتلو بعضها بعضا وتتكثر باختلاف ما تزرع إليه النفوس من الشهوات والملاذ والتنعيم بأحوال الترف وماتلون به من العوائد فصار طور الحضارة في الملك يتبع طور البداوة ضرورة لضرورة تبعية الرفه للملك وأهل الدول أبدأ يقلدون في طور الحضارة وأحوالها للدولة السابقة قبلهم فأحوالهم يشاهدون ومنهم في الغالب يأخذون ومثل هذا وقع للعرب لما كان الفتح وملكوا فارس والروم واستخدموا بناتهم وأبناءهم ولم يكونوا لذلك العهد في شيء من الحضارة فقد حكى أنه قدم لهم المرقق فكانوا يحسبونه رقعا وعثروا على الكافور في خزائن كسرى فاستعملوه في عيניהم ملحا وأمثال ذلك فلما استعبدوا أهل الدول قبلهم واستعملوهم في منعمهم وحاجات منازلهم واختاروا منهم المهرة في أمثال ذلك والقومة عليه أفادوهم علاج ذلك والقيام على عمله والتفنن فيه مع ما حصل لهم من اتساع العيش والتفنن في أحواله فبلغوا الغاية في ذلك وتطوروا بطور الحضارة والترف في الأحوال واستجادة المطاعم والشارب والملابس والمباني والأسلحة والفرش والآنية وسائر الماعون والحرث وكذلك أحوالهم في أيام البهاة والولائم وليالي الأعراس فأتوا من ذلك وراء الغاية وانظر ما نقله السعودي والطبري وغيرهما في أعراس المأمون بيور ان بنت الحسن بن سهل وما بذل أبوها لحاشية المأمون حين وافاه في خطبتها إلى داره بفم الصلح وركب إليها في السفين وما أنفق في أملاكها وما نحلها المأمون وأنفق في عرسها تنفق من ذلك على العجب فمنه أن الحسن بن سهل ثري يوم الاملاك في الصنيع الذي حضره حاشية المأمون فنثر على الطبقة الاولى منهم بنادق المسك ملثوثة على الرقاع بالضياع والعقار مسوغة لمن حصلت في يده يقع اكل واحد منهم مأداه اليه الاتفاق والبخت وفرق على الطبقة الثانية بدر الدنانير في كل بدرة عشرة آلاف وفرق على الطبقة الثالثة بدر الدرام كذلك بعد أن أنفق في مقامة المأمون بداره أضعاف ذلك ومنه أن المأمون أعطاها في مهرها ليلة زفافها ألف حصاة من الياقوت وأوقد



شموع العنبر في كل واحدة مائة من وهو رطل وثلاثان (١) وبسطا لها فرشاً كان الحصر منها منسوجاً بالذهب مكللاً بالدرواليقوت وقال المأمون حين رآه قاتل الله أبانواس كانه أبصر هذا حيث يقول في صفة الحجر

كأن صغرى وكبرى من فواقعها \* حصاء در على أرض من الذهب  
وأعد بدار الطبخ من الحطب لليلة الوليمة نقل مائة وأربعين بغلامدة عام كامل ثلاث مرات في كل يوم وفي  
الحطب اللتين وأوقدوا الجريد يصبون عليه الزيت وأوعز إلى النواتية باحضار السفن لاجازة الخواص  
من الناس بدجلة من بغداد إلى قصور الملك بمدينة المأمون لحضور الوليمة فكانت الحراقات (٢)  
المعدة لذلك ثلاثين ألفاً أجازوا الناس فيها آخر يات نهارهم وكثير من هذا وأمثاله وكذلك عرس المأمون  
ابن ذى النون بطييط نقله ابن بسام في كتاب الذخيرة وابن جبان بعد أن كانوا كلهم في الطور الأول من  
البدوة عاجزين عن ذلك جملة لفقدان أسبابه والقائمين على صنائعه في غضاضتهم وسذاجتهم يذكر أن الحجاج  
أولم في اختتان بعض ولده فاستحضر بعض الدهاقين يسأله عن ولائم الفرس وقال أخبرني بأعظم صنيع  
شهدته فقال له نعم أيها الأمير شهدت بعض مرازمة كسرى وقد صنع لأهل فارس صنيعاً أحضر فيه صحاف  
الذهب على أخونة الفضة أرباعاً على كل واحد وتحمله أربع وصائف ويجلس عليه أربعة من الناس فإذا طعموا  
اتبعوا أربعهم المائدة بصحائفها ووصائفها فقال الحجاج يا غلام انحر الجزر وأطعم الناس وعلم أنه لا يستقل  
بهذه الأبهة وكذلك كان \* ومن هذا الباب أعطية بني أمية وجوائزهم فأنما كان أكثرها الأبل أخذاً  
بمذاهب العرب وبدادتهم ثم كانت الجوائز في دولة بني العباس والعبيديين من بعدم ما علمت من أحوال  
المال وتخوت الثياب واعداد الخيل بما كبا وهكذا كان شأن كتامة مع الأغالبة بافريقية وكذا بنى طنج  
بمصر وشأن ملتونة مع ملوك الطوائف بالأندلس والموحدين كذلك وشأن زناتة مع الموحدين وهلم  
جرا تنتقل الحضارة من الدول السالفة إلى الدول الخالفة فانتقلت حضارة الفرس للعرب بنى أمية وبنى  
العباس وانتقلت حضارة بنى أمية بالأندلس إلى ملوك المغرب من الموحدين وزناتة لهذا العهد وانتقلت  
حضارة بنى العباس إلى الديلم ثم إلى الترك ثم إلى السلجوقية ثم إلى الترك المماليك بمصر والتتر بالعراقين  
وعلى قدر عظم الدولة يكون شأنها في الحضارة إذا أمور الحضارة من توابع الترف والترف من توابع  
الثروة والنعمة والثروة والنعمة من توابع الملك ومقدار ما يستولى عليه أهل الدولة فعلى نسبة الملك  
يكون ذلك كله فاعتبره وتفهمه وتأمله تجده صحيحاً في العمران والله وارث الأرض ومن عليها  
وهو خير الوارثين

#### ١٦ \* فصل في أن الترف يزيد الدولة في أولها قوة إلى قوتها \*

والسبب في ذلك أن القبيل إذا حصل لهم الملك والترف كثرت النسل والولد والعمومية فكثرت العصابة

(١) قوله وثلاثان الذي في كتب اللغة أن المزر رطل وقيل رطلان ولم يوجد في النسخة التونسية الثلاثان اهـ

(٢) الحراقات بالفتح جمع حراقة سفينة فيها مراعى نار يرمى بها العدو اهـ مختار

واستكثروا أيضا من الموالى والصنائع وربيت أجيالهم في جو ذلك النعيم والرفه فازدادوا بهم عددا إلى عديم وقوة إلى قوتهم بسبب كثرة العصاب حينئذ بكثر العدد فاذا ذهب الجيل الأول والثاني وأخذت الدولة في الهرم لم تستقل أولئك الصنائع والموالى بأنفسهم في تأسيس الدولة وتمهيد ملكها لأنهم ليس لهم من الأمر شيء إنما كانوا عيالا على أهلها ومعونة لها فاذا ذهب الأصل لم يستقل الفرع بالرسوخ فيذهب ويتلاشى ولا تبقى الدولة على حالها من القوة واعتبر هذا بما وقع في الدولة العربية في الاسلام كان عدد العرب كما قلناه لعهد النبوة والخلافة مائة وخمسين ألفا أو ما يقاربها من مضر وقحطان ولما بلغ الترف مبالغته في الدولة وتوفر غوم بتوفر النعمة واستكثر الخلفاء من الموالى والصنائع بلغ ذلك العدد إلى أضعافه يقال أن المعتصم نازل عمورية لما افتتحها في تسعة آلاف ولا يعد مثل هذا العدد أن يكون صحيحا إذا اعتبرت حاميتهم في الثغور الدانية والقاصية شرقا وغربا إلى الجند الحاملين سرير الملك والموالى والمصطنعين وقال المسعودي أحصى بنو العباس بن عبد المطلب خاصة أيام المأمون للاتفاق عليهم فكانوا ثلاثين ألفا بين ذكران وأنثى فانظر مبالغ هذا العدد لا تقل من من مائتي سنة واعلم أن سببه الرفه والنعيم الذي حصل للدولة وربى فيه أجيالهم ولا تعدد العرب لأول الفتح لم يبلغ هذا ولا قريبا منه والله الخلاق العليم

#### ١٧ \* فصل في أطوار الدولة واختلاف أحوالها وخلق أهلها باختلاف الأطوار \*

(اعلم) أن الدولة تنتقل في أطوار مختلفة وحالات متجددة ويكتسب القائمون بها في كل طور خلقا من أحوال ذلك الطور لا يكون مثله في الطور الآخر لأن الخلق تابع بالطبع لمزاج الحال الذي هو فيه وحالات الدولة وأطوارها لا تعدو في الغالب خمسة أطوار الطور الأول طور الظفر بالبيعة وغلب المدافع والممانع والاستيلاء على الملك وانتراعه من أيدي الدولة السالفة قبلها فيكون صاحب الدولة في هذا الطور أسوة قومه في اكتساب المجد وجباية المال والمدافعة عن الحوزة والحماية لا ينفردونهم بشيء لأن ذلك هو مقتضى العصبية التي وقع بها الغلب وهي لم تزل بعد بحالها الطور الثاني طور الاستبداد على قومه والافراد دونهم بالملك وكبحهم عن التطاول للمساهمة والمشاركة ويكون صاحب الدولة في هذا الطور معنيا باصطناع الرجال واتخاذ الموالى والصنائع والاستكثار من ذلك لجدع أنوف أهل عصبية وعشيرته المقاسمين له في نسبة الضاربين في الملك بمثل سهمه فهو يدافعهم عن الأمر ويصد عن موارده ويردهم على أعقابهم أن يخلصوا إليه حتى يقر الأمر في نصابه ويفرد أهل بيته بما ينبت من مجده فيعاني من مدافعهم ومغالبتهم مثل ما عاناه الأولون في طلب الأمر أو أشد لأن الأولين دافعوا الأجانب فكان ظهورهم على مدافعهم أهل العصبية بأجمعهم وهذا يدافع الأقارب لا يظهره على مدافعهم إلا الأقل من الأبعد فيركب صعبان الأمر الطور الثالث طور الفراغ والدعة لتحصيل ثمرات الملك مما تنزع طباع البشر إليه من تحصيل المال وتخليد الآثار وبعد الصيت فيستفرغ وسعه في

الجباية وضبط الدخل والخرج وإحصاء النفقات والقصد فيها وتشديد المباني الحافلة والمصانع العظيمة والأمصار المتسعة والهياكل المرتفعة واجازة الوفود من أشرف الأمم ووجوه القبائل وبث المعروف في أهله هذا مع التوسعة على صنائعه وحاشيته في أحوالهم بالمال والجاه واعراض جنوده وإدراج أرزاقهم وانصافهم في أعطياتهم لكل هلال حتى يظهر أثر ذلك عليهم في ملابسهم وشكهم وشاراتهم يوم الزينة فيباهي بهم الدول المسالمة ويرهب الدول الحاربة وهذا الطور آخر أطوار الاستبداد من أصحاب الدولة لأنهم في هذه الأطوار كلها مستقلون بآرائهم بأنهم لعزم موضعون الطرق لمن بعدهم الطور الرابع طور القنوع والمسالم ويكون صاحب الدولة في هذا قانعاً بما بنى أولوه سداً لظناره من الملوك وأقتاله مقلد لماضين من سلفه فيتبع آثارهم حدو النعل بالنعل ويقنئ طرقهم بأحسن مناهج الاقتداء ويرى أن في الخروج عن تقليد فساد أمره وأنهم أبصر بما بنوا من مجده الطور الخامس طور الاسراف والتبذير ويكون صاحب الدولة في هذا الطور متلفاً لما جمع أولوه في سبيل الشهوات والملاذو والكرم على بطائته وفي مجالسه واصطناع أخذان السوء وخضراء الدمن وتقليد عظيمات الأمور التي لا يستقلون بحملها ولا يعرفون ما يأتون ويذرون منها مستفسداً لكبار الأولياء من قومه وصنائع سلفه حتى يضطغوا عليه ويتخاذلوا عن نصرته مضيعاً من جنده بما أنفق من أعطياتهم في شهواته وحجب عنهم وجهه مباشرة وتفقدته فيكون مغرباً لما كان سلفه يؤسسونه وها دماً لما كانوا يبنون وفي هذا الطور تحصل في الدولة طبيعة الهرم ويستولى عليها المرض المزمن الذي لا تكاد تخلص منه ولا يكون لها معبر إلى أن تنقرض كما نبينه في الأحوال التي نسردها والله خير الوارئين

### ١٨ \* فصل في أن آثار الدولة كلها على نسبة قوتها في أصلها \*

والسبب في ذلك أن الآثار إنما تحدث عن القوة التي بها كانت أولاً وعلى قدرها يكون الأثر فمن ذلك مباني الدولة وهياكلها العظيمة فأنما تكون على نسبة قوة الدولة في أصلها لأنها لا تتم إلا بكثرة الفعلة واجتماع الأيدي على العمل والتعاون فيه فإذا كانت الدولة عظيمة فسيحة الجوانب كثيرة الممالك والرايا كان الفعلة كثيرين جداً وحشروا من آفاق الدولة وأقطارها قتم العمل على أعظم هياكله ألا ترى إلى مصانع قوم عاد وثمود وما قصه القرآن عنهما وانظر بالمشاهدة إيوان كسرى وما اقتدر فيه الفرس حتى إنه عزم الرشيد على هدمه وتخريبه فتكأدعنه وشرع فيه ثم أدركه العجز وقصة إستشارته ليحيى بن خالد في شأنه معروفة فانظر كيف تقدر دولة على بناء لا تستطيع أخرى على هدمه مع بون ما بين الهدم والبناء في السهولة تعرف من ذلك بون ما بين الدولتين وانظر إلى بلاط الوليد بدمشق وجامع بني أمية بقرطبة والقنطرة التي على واديها وكذلك بناء الحنايا لجلب الماء إلى قرطاجنة في القناة الراكبة عليها وآثار شرشال بالمغرب والأهرام بمصر وكثير من هذه الآثار الماثلة للعيان تعلم منه اختلاف الدول في القوة والضعف واعلم أن تلك الأفعال للأقدمين إنما كانت بالهندام واجتماع الفعلة وكثرة الأيدي عليها



فبذلك شيدت تلك الهياكل والمصانع ولا تتوهم ماتتوهمه العامة أن ذلك لعظم أجسام الأقدمين عن أجسامنا في أطرافها وأقطارها فليس بين البشر في ذلك كبير بون كما تجد بين الهياكل والآثار ولقد ولع القصاص بذلك وتغالوا فيه وسطروا عن عاد وحمود والعاقلة في ذلك أخبارا عريقة في الكذب من أغربها ما يحكون عن عوج ( ١ ) بن عناق رجل من العاقلة الذين قاتلهم بنو إسرائيل في الشام زعموا أنه كان لطوله يتناول السمك من البحر ويشويه إلى الشمس ويزيدون إلى جهلهم بأحوال البشر الجهل بأحوال الكواكب لما اعتقدوا أن للشمس حرارة وانها شديدة فيا قرب منها ولا يعلمون أن الحر هو الضوء وأن الضوء فيا قرب من الأرض أكثر لا انعكاس الأشعة من سطح الأرض بمقابلة الضوء فتتضاعف الحرارة هنالجل ذلك وإذا تجاوزت مطارح الأشعة المنعكسة فلا حر هنالك بل يكون فيه البرد حيث مجارى السحاب وأن الشمس في نفسها لا حارة ولا باردة وإنما هو جسم بسيط مضى لامزاج له وكذلك عوج بن عناق هو فيما ذكره من العاقلة أو من الكنعانيين الذين كانوا فريسة بني إسرائيل عند فتحهم الشام وأطوال بني إسرائيل وجسماتهم لذلك العبدقية من هياكلنا يشهد لذلك أبواب بيت المقدس فانها وإن خربت وجددت لم تزل المحافظة على أشكالها ومقادير أبوابها وكيف يكون التفاوت بين عوج وبين أهل عصره بهذا المقدار وإنما شار غلظتهم في هذا أنهم استعظموا آثار الأمم ولم يفهموا حال الدول في الاجتماع والتعاون وما يحصل بذلك وبالهندام من الآثار العظيمة فصر فوه إلى قوة الأجسام وشدتها بعظم هياكلها وليس الأمر كذلك وقد زعم المسعودي ونقله عن الفلاسفة مزعما لا مستند له إلا التحكم وهو أن الطبيعة التي هي جيلة للأجسام لما برأ الله الخلق كانت في تمام الكرة ونهاية القوة والكمال وكانت الأعمار أطول والأجسام أقوى لكمال تلك الطبيعة فان طرو الموت إنما هو بانحلال القوى الطبيعية فاذا كانت قوية كانت الأعمار أزيد فكان العالم في أولية نشأته تام الأعمار كامل الأجسام ثم لم يزل يتناقص لنقصان المادة إلى أن بلغ إلى هذه الحال التي هو عليها ثم لا يزال يتناقص إلى وقت الانحلال وانقراض العالم وهذا رأى لا وجه له إلا التحكم كما تراهم وليس له علة طبيعية ولا سبب برهاني ونحن نشاهد مساكن الأولين وأبوابهم وطرقهم فيما أحدثوه من البنيان والهياكل والديار والمساكن كديار حمود والمنحوتة في الصلد من الصخرة بيوتا صغارا وأبوابها ضيقة وقد أشار صلى الله عليه وسلم إلى أنها ديارهم ونهى عن استعمال مياههم وطرح ما عجن به وأهرق وقال لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم ما أصابهم وكذلك أرض عاد ومصر والشام وسائر بقاع الأرض شرقا وغربا والحق ما قررناه ومن آثار الدول أيضا حالها في الأعراس والولائم كما ذكرناه في وليمة بوران وصنيع الحجاج وابن ذى النون وقد مر ذلك كله ومن آثارها أيضا عطايا الدول وإنما تكون على نسبتها ويظهر ذلك فيها ولو أشرفت على الهرم فان

( ١ ) قوله ابن عناق الذي في القاموس في باب الجيم عوج بن عوق بالواو والمشهور علي السنة الناس عنق

المهمم التي لا أهل الدولة تكون على نسبة قوة ملكهم وغلبهم للناس والمهم لا تزال مصاحبة لهم إلى  
 انقراض الدولة واعتبر ذلك بجوائز ابن ذي يزن لو فدق ريش كيف أعطاهم من أرتال الذهب والفضة  
 والأعبد والوصائف عشرا عشرًا ومن كرش الغنم واحدة وأضعف ذلك بعشرة أمثاله لعبد المطلب  
 وإنما ملكه يومئذ قرارة اليمن خاصة تحت استبداد فارس وإنما حمله على ذلك همه نفسه بما كان لقومه  
 التابعة من الملك في الأرض والغلب على الأمم في العراقيين والهند والمغرب وكان الصنهاجيون بأفريقية  
 أيضا إذا أجازوا الوفد من أمراء زناتة الوافدين عليهم فإنما يعطونهم المال أحمالا والكساء تحوتا  
 مملوءة والحمالان جنائب عديدة وفي تاريخ ابن الرقيق من ذلك أخبار كثيرة وكذلك كان عطاء  
 البرامكة وجوائزهم ونفقاتهم وكانوا إذا كسبوا معدما فأنما هو الولاية والنعمة آخر الدهر لا العطاء الذي  
 يستنفده يوم أو بعض يوم وأخبارهم في ذلك كثيرة مسطورة وهي كلها على نسبة الدول جارية هذا جوهر  
 الصقلي الكاتب قائد جيش العبيديين لما ارتحل إلى فتح مصر استعد من القيروان بألف حمل من المال  
 ولا تنتهي اليوم دولة إلى مثل هذا وكذلك وجد بخط أحمد بن محمد بن عبد الحميد عمل بما يحمل إلى بيت المال  
 ببغداد أيام المأمون من جميع النواحي نقلته من جراب الدولة (غلات السواد) سبع وعشرون ألف ألف  
 درهم مرتين وثمانمائة ألف درهم ومن الحلل التجارية مائتا حلة ومن طين الختم مائتان وأربعون رطلا  
 ﴿كنكر﴾ أحد عشر ألف ألف درهم مرتين وستمائة ألف درهم ﴿كوردجلة﴾ عشرون ألف ألف  
 درهم وثمانية دراهم ﴿حلاوان﴾ أربعة آلاف ألف درهم مرتين وثمانمائة ألف درهم ﴿الأهواز﴾ خمسة  
 وعشرون ألف درهم مرة ومن السكر ثلاثون ألف رطل ﴿فارس﴾ سبعة وعشرون ألف  
 ألف درهم ومن ماء الورد ثلاثون ألف درة ومن الزيت الأسود عشرون ألف رطل ﴿كرمان﴾  
 أربعة آلاف ألف درهم مرتين ومائتا ألف درهم ومن المتاع الياني خمسمائة ثوب ومن التمر عشرون  
 ألف رطل ﴿مكران﴾ أربع مائة ألف درهم مرة (السند وما يليه) أحد عشر ألف ألف درهم مرتين  
 وخمسمائة ألف درهم ومن العود الهندي مائة وخمسون رطلا ﴿سجستان﴾ أربعة آلاف ألف درهم  
 مرتين ومن الثياب المعينة ثلثمائة ثوب ومن الفانيذ عشرون رطلا ﴿خراسان﴾ ثمانية وعشرون ألف  
 ألف درهم مرتين ومن نقر الفضة ألفانقرة ومن البراذين أربعة آلاف ومن الرقيق ألف رأس ومن  
 المتاع عشرون ألف ثوب ومن الأهليلج ثلاثون ألف رطل ﴿جرجان﴾ اثناعشر ألف ألف درهم  
 مرتين ومن الأبريسم ألف شقة ﴿قومس﴾ ألف ألف درهم مرتين وخمسمائة ألف من نقر الفضة  
 ﴿طبرستان والروبان ونهاوند﴾ ستة آلاف ألف درهم مرتين وثلثمائة ألف ومن الفرش الطبرى  
 ستمائة قطعة ومن الأكسية مائتان ومن الثياب خمسمائة ثوب ومن المناديل ثلثمائة ومن الجامات ثلثمائة  
 ﴿الري﴾ اثنا عشر ألف ألف درهم مرتين ومن العسل عشرون ألف رطل ﴿همدان﴾ أحد  
 عشر ألف ألف درهم مرتين وثلثمائة ألف ومن رب الرمانين ألف رطل ومن العسل اثناعشر ألف  
 رطل (ما بين البصرة والكوفة) عشرة آلاف ألف درهم مرتين وسبعمائة ألف درهم (ماسبدان)

والدينار (١) أربعة آلاف ألف درهم مرتين (شهرزور) ستة آلاف ألف درهم مرتين وسبعائة ألف درهم (الموصل ومالها) أربعة وعشرون ألف ألف درهم مرتين ومن العسل الأبيض عشرون ألف ألف رطل (اذريجان) أربعة آلاف ألف درهم مرتين (الجزيرة وما يليها من أعمال الفرات) أربعة وثلاثون ألف ألف درهم مرتين ومن الرقيق ألف رأس ومن العسل اثنا عشر ألف زق (٢) ومن البزاة عشرة ومن الأوكسية عشرون ﴿أرمينية﴾ ثلاثة عشر ألف ألف درهم مرتين ومن القسط المحفور عشرون ومن الزم خمسة مائة وثلاثون رطلا ومن السايح السور ماهي عشرة آلاف رطل ومن الصويخ عشرة آلاف رطل ومن البغال مائتان ومن المهرة ثلاثون ﴿فسرين﴾ أربع مائة ألف دينار ومن الزيت ألف حمل ﴿دمشق﴾ أربع مائة ألف دينار وعشرون ألف دينار ﴿الأردن﴾ سبعة وتسعون ألف دينار ﴿فلسطين﴾ ثلثمائة ألف دينار وعشرة آلاف دينار ومن الزيت ثلثمائة ألف رطل ﴿مصر﴾ ألف ألف دينار وتسعمائة ألف دينار وعشرون ألف دينار ﴿برقة﴾ ألف ألف درهم مرتين ﴿أفريقية﴾ ثلاثة عشر ألف ألف درهم مرتين ومن البسط مائة وعشرون ﴿اليمن﴾ ثلثمائة ألف دينار وسبعون ألف دينار سوى المتاع ﴿الحجاز﴾ ثلثمائة ألف دينار انتهى وأما الأندلس فإذ ذكروه اثقات من مؤرخيها أن عبد الرحمن الناصر خلف في بيوت أمواله خمسة آلاف ألف دينار مكررة ثلاث مرات يكون جملتها بالقناطر خمسمائة ألف قنطار \* ورأيت في بعض تواريخ الرشيد أن المحمول إلى بيت المال في أيامه سبعة آلاف قنطار وخمسمائة قنطار في كل سنة فاعتبر ذلك في نسب الدول بعضها من بعض ولا تنكرن ما ليس بعمود عندك ولا في عصرك شيء من أمثاله فتضيق حوصلتك عند ملتقط الممكنات فكثير من الخواص إذا سمعوا أمثال هذه الأخبار عن الدول السالفة بادربالانكار وليس ذلك من الصواب فإن أحوال الوجود والعمران متفاوتة ومن أدرك من هارتية سفلى أو وسطى فلا يحصر المدارك كلها فيها ونحن إذا اعتبرنا ما ينقل لنا عن دولة بني العباس وبني أمية والعباسيين وناسبتنا الصحيح من ذلك والذي لا شك فيه بالذي نشاهده من هذه الدول التي هي أقل بالنسبة إليها وجدنا بينها بونا وهو لما بينهما من التفاوت في أصل قوتها وعمران ممالكها فالآثار كلها جارية على نسبة الأصل في القوة كما قدمناه ولا يسعنا إنكار ذلك عنها إذ كثير من هذه الأحوال في غاية الشهرة والوضوح بل فيها ما يلحق بالمستفيض والتواتر وفيها المعايين والمشاهد من آثار البناء وغيره فخذ من الأحوال المنقولة مراتب الدول في قوتها أو ضعفها وضخامتها أو صغرها واعتبر ذلك بما نقصه عليك من هذه الحكاية المستطرفة وذلك أنه ورد بالمغرب لعبد السلطان أبي عنان من ملوك بني مرين رجل ومن مشيخة

(١) قوله والدينار الظاهر أنها الدينور وفي الترجمة التركية ما سندان وريان اه

(٢) قوله ومن البزاة الخ في التركية ومن السكر عشرة صناديق اه



طبعة يعرف بابن بطوطة ( ١ ) كان رحل منذ عشرين سنة قبلها إلى المشرق وتقلب في بلاد العراق واليمن والهند ودخل مدينة دهلي حاضرة ملك الهند وهو السلطان محمد شاه واتصل بملكها لذلك العهد وهو فيروز جوه وكان له منه مكان واستعمله في خطة القضاء بمذهب المالكية في عمله ثم انقلب إلى المغرب واتصل بالسلطان أبي عنان وكان يحدث عن شأن رحلته وما رأى من العجائب بمالك الأرض وأكثر ما كان يحدث عن دولة صاحب الهند ويأتي من أحواله بما يستغربه السامعون مثل أن ملك الهند اذا خرج الى السفر أحصى أهل مدينته من الرجال والنساء والولدان وفرض لهم رزق ستة أشهر تدفع لهم من عطائه وأنه عند رجوعه من سفره يدخل في يوم مشهود يبرز فيه الناس كافة إلى صحراء البلد ويطوفون به وينصب أمامه في ذلك الحفل منجنيقات على الظهر ترمي بهاشكائر الدراهم والدنانير على الناس إلى أن يدخل إيوانه وأمثال هذه الحكايات فتناجي الناس بتكذيبه \* ولقيت أيامئذ وزير السلطان فارس بن وردار البعيد الصيت فقاوضته في هذا الشأن وأريته إنكار أخبار ذلك الرجل لما استفاض في الناس من تكذيبه فقال لي الوزير فارس إياك أن تستنكر مثل هذا من أحوال الدول بما أنك لم تره فتكون كابن الوزير الناشئ في السجن وذلك أن وزيراً اعتقله سلطانه ومكث في السجن سنين ربي فيها ابنه في ذلك الحبس فلما درك وعقل سأل عن اللحم الذي كان يتغذى به فقال له أبوه هذا لحم الغنم فقال وما الغنم فيصفها له أبوه بشيئها ونعوتها فيقول يا أبت تراها مثل الفأر فينكر عليه ويقول أين الغنم من الفأر وكذا في لحم الابل والبقر إذ لم يعاين في محبسه من الحيوانات إلا الفأر فيحسبها كلها أبناء جنس الفأر وهذا كثير ما يعتري الناس في الأخبار كما يعتريهم الوسواس في الزيادة عند قصد الأغراب كما قدمناه أول الكتاب فليرجع الانسان إلى أصوله وليكن مهيمنا على نفسه ومميزا بين طبيعة الممكن والمتنع بصريح عقله ومستقيم فطرته فما دخل في نطاق الامكان قبله وما خرج عنه رفضه وليس مرادنا الامكان العقلي المطلق فان نطاقه أوسع شئ فلا يفرض حدا بين الوقعات وإنما مرادنا الامكان بحسب المادة التي للشئ فاننا اذا أنظرنا أصل الشئ ووجنسه وصفه ومقدار عظمه وقوته أجرينا الحكم من نسبة ذلك على حواله وحكمنا بالامتناع على ما خرج من نطاقه وقل رب زدني علما وأنت أرحم الراحمين والله سبحانه وتعالى أعلم

#### ١٩ ﴿ فصل في استظهار صاحب الدولة على قومه وأهل عصبته بالموالي والمصطنعين ﴾

( إعلم ) أن صاحب الدولة إنما يتم أمره كما قلناه بقومه فهم عصابته وظهر أؤه على شأنه وبهم يقارع الخوارج على دولته ومنهم من يقلد أعمال مملكته ووزارة دولته وجباية أموالهم أعوانه على الغلب وشركاؤه في الأمر ومساهموه في سائر مهماته هذا مادام الطور الأول للدولة كما قلناه فإذا جاء الطور الثاني وظهر الاستبداد عنهم والانفراد بالمجدود افهم عنه بالراح صاروا في حقيقة الأمر من بعض أعدائه

( ١ ) كان ابتداء رحلة ابن بطوطة سنة ٧٢٥ وانهائها سنة ٧٥٤ وهي عجيبة ومختصرة نحو ٧ كرايس اهـ

واحتاج في مدافعهم عن الأمر وصدمهم عن المشاركة إلى أولياء آخرين من غير جلدتهم يستظهرهم عليهم ويتولاهم دونهم فيكونون أقرب إليه من سائرهم وأخص به قربا واصطناعا وأولى ايثارا وجاها لما أنهم يستमितون دونه في مدافعة قومه عن الأمر الذي كان لهم والرتبة التي ألفوها في مشاركتهم فيستخلصهم صاحب الدولة حينئذ ويخصهم بمزيد التكرمة والايثار ويقسم لهم مثل مال الكثير من قومه ويقدمهم جليل الأعمال والولايات من الوزارة والقيادة والحباية وما يختص به لنفسه وتكون خالصة له دون قومه من ألقاب المملكة لأنهم حينئذ أولياؤه الأقربون ونصحاؤه المخلصون وذلك حينئذ مؤذن باهتمام الدولة وعلامة على المرض المزمن فيها الفساد العصبية التي كان بناء الغلب عليها ومرض قلوب أهل الدولة حينئذ من الاتمهان وعداوة السلطان فيضطغنون عليه ويتربصون به الدوائر ويعود وبال ذلك على الدولة ولا يطمع في برئهم من هذا الداء لأن ماضى يتأكد في الأ عقاب إلى أن يذهب وسمها واعتبر ذلك في دولة بني أمية كيف كانوا إنما يستظهرون في حروبهم وولاية أعمالهم برجال العرب مثل عمرو بن سعد بن أبي وقص وعبيد الله بن زياد بن أبي سفيان والحجاج بن يوسف والمهلب بن أبي صفرة وخالد بن عبد الله القسري وابن هبيرة وموسى بن نصير وبلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري ونصر ابن سيار وأمثالهم من رجالات العرب وكذا صدر من دولة بني العباس كان الاستظهار فيهم أيضا برجالات العرب فلما صارت الدولة للأفراد بالمجد وكبح العرب عن التطاول للولايات صارت الوزارة للعجم والصنائع من البرامكة وبني سهل بن نوح وبني طاهر ثم بني بويه وموالي الترك مثل بعاو وصيف وأتامش وباكنك وابن طولون وأبنائهم وغير هؤلاء من موالى العجم فتكون الدولة لغير من مهدها والعز لغير من اجتلبه سنة الله في عباده والله تعالى أعلم

## ٢٠ \* فصل في أحوال الموالى والمصطنعين في الدول \*

إعلم أن المصطنعين في الدول يتفاوتون في الالتحام بصاحب الدولة بتفاوت قديمهم وحديثهم في الالتحام بصاحبها والسبب في ذلك أن المقصود في العصبية من المدافعة والمغالبة إنما يتم بالنسب لأجل التناصر في ذوي الأرحام والقرى والتخاذل في الأجانب والبعداء كما قدمناه والولاية والمخالطة بالرق أو بالحلف تنزل منزلة ذلك لأن أمر النسب وإن كان طبيعياً فإنما هو وهمي والمعنى الذي كان به الالتحام إنما هو العشرة والمدافعة وطول الممارسة والصحة بالمربى والرضاع وسائر أحوال الموت والحياة وإذا حصل الالتحام بذلك جاءت النعرة والتناصر وهذا ما شاهد بين الناس واعتبر مثله في الاصطناع فإنه يحدث بين المصنع ومن اصطنعه نسبة خاصة من الوصلة تنزل هذه المنزلة وتؤكدها اللحمة وإن لم يكن نسب فثمرات النسب موجودة فإذا كانت هذه الولاية بين القبيل وبين أوليائهم قبل حصول الملك لهم كانت عروقاتها وشج وعقائدها أصح ونسبها أصرح لوجبهما أحدهما أنهم قبل الملك أسوة في حالهم فلا يتميز النسب عن الولاية إلا عند الأقل منهم فيتزولون منهم منزلة ذوى قرابتهم وأهل أرحامهم وإذا اصطنعواهم

بعد الملك كانت مرتبة الملك مميزة للسيد عن المولى ولأهل القرابة عن أهل الولاية والاصطناع لما تقتضيه أحوال الرياسة والملك من تميز الرتب وتفاوتها فتميز حالاتهم ويتزلون منزلة الأجانب ويكون الالتحام بينهم أضعف والتناصر لذلك أبعد وذلك أنقص من الاصطناع قبل الملك \* الوجه الثاني أن الاصطناع قبل الملك يعدده عن أهل الدولة بطول الزمان ويخفى شأن تلك اللحمة ويظن بها في أكثر النسب فيقوى حال العصبية وأما بعد الملك فيقرب العهد ويستوي في معرفته إلا أكثر فتبين اللحمة وتتميز عن النسب فتضعف العصبية بالنسبة إلى الولاية التي كانت قبل الدولة واعتبر ذلك في الدول والرياسات تجده فكل من كان اصطناعه قبل حصول الرياسة والملك لمصطنعه تجده أشد إلتحاما به وأقرب قرابة إليه ويتزل منه منزلة آبائه وإخوانه وذوي رحمه ومن كان إصطناعه بعد حصول الملك والرياسة لمصطنعه لا يكون له من القرابة واللحمة مالا أولين وهذا ما شاهد بالعيان حتى إن الدولة في آخر عمرها ترجع إلى استعمال الأجانب واصطناعهم ولا يبنى لهم مجد كما بناه المصطنعون قبل الدولة لقرب العهد حينئذ بأولييتهم ومشاركة الدولة على الانقراض فيكونون منحطين في مهاوي الضعة وإنما يحمل صاحب الدولة على اصطناعهم والعدول إليهم عن أوليائهم الأقدمين وصنائعها الأولين ما يعتريهم في أنفسهم من العزة على صاحب الدولة وقلة الخضوع له ونظرة بما ينظره به قبيله وأهل نسبه لتأكد اللحمة منذ العصور المتطاولة بالمرى والاتصال بأبائهم وسلف قومهم والانتظام مع كبراء أهل بيته فيحصل لهم بذلك دالة عليه واعتزاز فينافرهم بسببها صاحب الدولة ويعدل عنهم إلى استعمال سوامم ويكون عهد استخلاصهم واصطناعهم قريبا فلا يبلغون رتب المجد ويقفون على حالهم من الخارجية وهكذا شأن الدول في أواخرها وأكثر ما يطلق إسم الصنائع والأولياء على الأولين وأما هؤلاء المحدثون فخدم وأعوان والله ولي وهو على كل شيء وكيل

## ٢١ \* فصل فيما يعرض في الدول من حجر السلطان والاستبداد عليه \*

إذا استقر الملك في نصاب معين ومنبت واحد من القبيل القائمين بالدولة وانفردوا به ودفخوا سائر القبيل عنه وتداوله بنوم واحد بعد واحد بحسب الترشيح فربما حدث التغلب على المنصب من وزرائهم وحاشيتهم وسببه في الأكثر ولاية صبي صغير أو مضعف من أهل المنبت يترشح للولاية بعهد أبيه أو بترشيح ذويه وخوله ويؤنس منه العجز عن القيام بالملك فيقوم به كافلة من وزراء أبيه وحاشيته ومواليه أو قبيله ويوري بحفظ أمره عليه حتى يؤنس منه الاستبداد ويجعل ذلك ذريعة للملك فيحجب الصبي عن الناس ويعوده اللذات التي يدعوه إليها ترف أحواله ويسيمه في مراعيها متى أمكنه وينسيه النظر في الأمور السلطانية حتى يستبد عليه وهو بما عوده يعتقد أن حظ السلطان من الملك إنما هو جلوس السريرو وإعطاء الصفقة وخطاب التهويل والعقود مع النساء خلف الحجاب وأن الحل والربط والأمر والنهي ومباشرة الأحوال الملوكية وتفقداهما من النظر في الجيش والمال والثغور إنما



هو للوزير ويسلمه في ذلك الى أن تستحكم له صبغة الرياسة والاستبداد ويتحول الملك اليه ويؤثر به عشيرته وأبناءه من بعده كما وقع لبني بويه والترك وكافور الأخشيدى وغيرهم بالشرق وللمنصور بن أبي عامر بالأندلس وقد يتفطن ذلك المحجور المقلب لشأنه فيحاول على الخروج من ربة الحجر والاستبداد ويرجع الملك الى نصابه ويضرب على أيدي المتغلبين عليه اما بقتل أو برفع عن الرتبة فقط الآن ذلك في النادر الاقل لأن الدولة اذا أخذت في تغلب الوزراء والأولياء استمر لها ذلك وقل أن تخرج عنه لأن ذلك انما يوجد في الأكرثر عن أحوال الترف ونشأة أبناء الملك منغمسين في نعيمه قد نسوا عهد الرجولة وألفوا أخلاق الدايات والأظآر ورؤوا عليها فلا يزعون الى الرياسة ولا يعرفون استبداد من تغلب انما هم في القنوع بالأبهة والتفنن في الذات وأنواع الترف وهذا التغلب يكون للموالى والمصطنعين عند استبداد عشير الملك على قومهم وانفرادهم به دونهم وهو عارض للدولة ضرورى كما قدمناه وهذان مرضان لا براء للدولة منهما الا في الأقل النادر والله يؤتى ملكه من يشاء وهو على كل شيء قدير

## ٢٢ \* فصل في أن المتغلبين على السلطان لا يشاركونه في اللقب الخاص بالملك \*

وذلك أن الملك والسلطان حصل لأوليّه منذ أول الدولة بعصية قومه وعصيته التي استتبعتهم حتى استحكمت له ولقومه صبغة الملك والغلب وهي لم تزل باقية وبها تحفظ رسم الدولة وبقاؤها وهذا التغلب وان كان صاحب عصية من قبيل الملك أو الموالى والصنائع فعصيته مندرجة في عصية أهل الملك وتابعة لها وليس له صبغة في الملك وهو لا يحاول في استبداده انتزاع الملك ظاهرا وانما يحاول انتزاع ثمراته من الأمر والنهي والحل والعقد والإبرام والنقض يوم فيها أهل الدولة أنه متصرف عن سلطانه منفذ في ذلك من وراء الحجاب لا حكمه فهو يتجافى عن سمات الملك وشاراته وألقابه جهده ويبعد نفسه عن التهمة بذلك وإن حصل له الاستبداد لأنه مستتر في استبداده ذلك بالحجاب الذي ضربه أو ولوه على أنفسهم عن القبيل منذ أول الدولة ومغالط عنه بالنيابة ولو تعرض لشيء من ذلك لنفسه (١) عليه أهل العصية وقبيل الملك وحاولوا الاستئثار به دونه لأنه لم تستحكم له ذلك صبغة تحملهم على التسليم له والانقياد فيه لك لا أول وهلة وقد وقع مثل هذا لعبد الرحمن بن الناصر بن المنصور ابن أبي عامر حين سما الى مشاركة هشام وأهل بيته في لقب الخلافة ولم يقنع بما قنع به أبوه وأخوه من الاستبداد بالحل والعقد والمراسم المتتابعة فطلب من هشام خليفته أن يعهده بالخلافة فنفس ذلك عليه بنو مروان وسائر قریش وبايعوا لابن عم الخليفة هشام محمد بن عبد الجبار بن الناصر وخرجوا عليهم وكان في ذلك خراب دولة العامريين وهلاك المؤيد خليفتهم واستبدل منه سواه من أعياص الدولة الى آخرها واختلت مراسم ملكهم والله خير الوارثين

(١) قوله لنفسه بفتح اللام والنون وكسر الفاء يقال نفس عليه الشيء كقبح لم يره أهله كافي القاموس

الملك منصب طبيعي للانسان لا نأقده بينا أن البشر لا يمكن حياتهم ووجودهم الا باجتاعهم وتعاونهم على تحصيل قوتهم وضروراتهم واذا اجتمعوا دعت الضرورة إلى المعاملة واقتضاء الحاجات ومد كل واحد منهم يده إلى حاجته يأخذها من صاحبه لما في الطبيعة الحيوانية من الظلم والعدوان بعضهم على بعض ويمانه الآخر عنها بمقتضى الغضب والآفة ومقتضى القوة البشرية في ذلك فيقع التنازع المفضي إلى المقاتلة وهي تؤدي إلى الهرج وسفك الدماء وازهاب النقوس المفضي ذلك إلى انقطاع النوع وهو مما خصه الباري سبحانه بالمحافظة فاستحال بقاؤهم فوضى دون حاكم يزع بعضهم عن بعض واحتاجوا من أجل ذلك إلى الوازع وهو الحاكم عليهم وهو بمقتضى الطبيعة البشرية الملك القاهر المتحكم ولا بد في ذلك من العصبية لما قدمناه من أن المطالبات كلها والمدافعات لا تتم الا بالعصبية وهذا الملك كما تراه منصب شريف تتوجه نحوه المطالبات ويحتاج إلى المدافعات ولا يتم شئ من ذلك الا بالعصبية كما مر والعصبية متفاوتة وكل عصبية فلها تحكم وتغلب على من يليها من قومها وعشيرها وليس الملك لكل عصبية وانما الملك على الحقيقة لمن يستعد الرعية ويحجب الأموال ويبعث البعوث ويحمي الثغور ولا تكون فوق يده يد قاهرة وهذا معنى الملك وحقيقته في المشهور فمن قصرت به عصبيته عن بعضها مثل حماية الثغور أو جباية الأموال أو بعث البعوث فهو ملك ناقص لم تتم حقيقته كما وقع لكثير من ملوك البربر في دولة الأغلبة بالقيروان وملوك العجم صدر الدولة العباسية ومن قصرت به عصبيته أيضا عن الاستعلاء على جميع العصبية والضرب على سائر الأيدي وكان فوقه حكم غيره فهو أيضا ملك ناقص لم تتم حقيقته وهؤلاء مثل أمراء النواحي ورؤساء الجهات الذين تجمعهم دولة واحدة وكثيرا ما يوجد هذا في الدولة المتسعة النطاق أعنى توجد ملوك على قومهم في النواحي القاصية يدينون بطاعة الدولة التي جمعهم مثل ضهاجة مع العبيدين وزناتة مع الأمويين تارة والعبيدين تارة أخرى ومثل ملوك العجم في دولة بني العباس ومثل أمراء البربر وملوكهم مع الفرنجة قبل الاسلام ومثل ملوك الطوائف من الفرس مع الاسكندر وقومه اليونانيين وكثير من هؤلاء فاعتبره تجده والله القاهر فوق عباده

اعلم أن مصلحة الرعية في السلطان ليست في ذاته وجسمه من حسن شكله أو ملاحه وجهه أو عظم جثثانه أو اتساع أوجوده أو ثقب ذهنه وإنما مصلحتهم فيه من حيث إضافته اليهم فان الملك والسلطان من الأمور الاضافية وهي نسبة بين منتسبين فحقيقة السلطان أنه الملك للرعية القائم في أمورهم عليهم فالسلطان من له رعية والرعية من لها سلطان والصفة التي لها من حيث إضافته لهم هي التي تسمى الملكة وهي كونه يملكهم فاذا كانت هذه الملكة وتوابعها من الجودة بمكان حصل المقصود

من السلطان على آتم الوجوه فانها ان كانت جميلة صالحة كان ذلك مصلحة لهم وان كانت سيئة متعسفة كان ذلك ضررا عليهم واهلا كلهم ويعود حسن الملكة الى الرفق فان الملك اذا كان قاهرا باطشا بالعقوبات متباعنا عورات الناس وتعديد ذنوبهم شملهم الخوف والذل ولاذوا منه بالكذب والمكر والخديعة فتخلقوا بها وفسدت بصائرهم وأخلاقهم وربما خذلوه في مواطن الحروب والمدافعات ففسدت الحماية بفساد النيات وربما أجمعوا على قتله لذلك ففسد الدولة ويخرب السياج وان دام أمره عليهم وقهره فسدت العصبية لما قلناه أولا وفسد السياج من أصله بالعجز عن الحماية وإذا كان رفيقا بهم متجاوزا عن سيئاتهم استناموا اليه ولاذوا به وأشربوا محبته واستماتوا دونه في محاربة أعدائه فاستقام الأمر من كل جانب وأما توابع حسن الملكة فهي النعمة عليهم والمدافعة عنهم فلمدافعة بها تتم حقيقة الملك وأما النعمة عليهم والاحسان لهم فمن جملة الرفق بهم والنظر لهم في معاشهم وهي أصل كبير في التجب إلى الرعية واعلم أنه كلما تكون ملكة الرفق فيمن يكون يقظا شديدا لكاء من الناس وأكثر ما يوجد الرفق في الغفل والمتغفل وأقل ما يكون في اليقظ أنه يكلف الرعية فوق طاقتهم لنفوذ نظره فيما وراء مداركهم وإطلاعه على عواقب الأمور في مبادئها بألمعيته فيهلكون لذلك قال صلى الله عليه وسلم سيروا على سير أضعفكم ومن هذا الباب اشتراط الشارع في الحاكم قلة الافراط في الذكاء ومأخذه من قصة زياد بن أبي سفيان لما عزلته عمر عن العراق وقال لم عزلتني يا أمير المؤمنين ألعجز أم لحيانة فقال عمر لم أعزلك لو احدة منهما ولكني كرهت أن أحمل فضل عقلك على الناس فأخذ من هذا أن الحاكم لا يكون مفرط الذكاء والكيس مثل زياد بن أبي سفيان وعمرو ابن العاص لما يتبع ذلك من التعسف وسوء الملكة وحمل الوجود على ما ليس في طبعه كما يأتي في آخر هذا الكتاب والله خير المالكين وتقرر من هذا أن الكيس والذكاء عيب في صاحب السياسة لأنه افراط في الفكر كما أن البلادة افراط في الجود والطر فان مذمومان من كل صفة إنسانية والمحمود هو التوسط كما في الكرم مع التبذير والبخل وكفي الشجاعة مع الهوج والجنون وغير ذلك من الصفات الانسانية ولهذا يوصف الشديد الكيس بصفات الشيطان فيقال شيطان ومتشيطان وأمثال ذلك والله يخلق ما يشاء وهو العليم القدير

## ٢٥ \* فصل في معنى الخلافة والامامة \*

لما كانت حقيقة الملك أنه الاجتماع الضروري للبشر ومقتضاه التغلب والقهر للذات هما من آثار الغضب والحيوانية كانت أحكام صاحبه في الغالب جائزة عن الحق مجحفة بمن تحت يده من الخلق في أحوال دنياهم لجملة إياهم في الغالب على ما ليس في طوقهم من أغراضه وشهواته ويختلف ذلك باختلاف المقاصد من الخلف والسلف منهم فتعسر طاعته لذلك وتجيء العصبية المفضية إلى المهرج والقتل فوجب أن يرجع في ذلك إلى قوانين سياسية مفروضة يسلمها الكافة وينقادون إلى أحكامها كما كان ذلك



للفرس وغيرهم من الأمم وإذا خلت الدولة من مثل هذه السياسة لم يستتب أمرها ولا يتم استيلاؤها سنة الله في الدين خلوا من قبل فإذا كانت هذه القوانين مفروضة من العقلاء وأكابر الدولة وبصرائها كانت سياسة عقلية وإذا كانت مفروضة من الله بشارع يقررها ويشرعها كانت سياسة دينية نافعة في الحياة الدنيا وفي الآخرة وذلك أن الخلق ليس المقصود بهم دنياهم فقط فانها كلها عبس وباطل إذ غايتها الموت والفناء والله يقول أحسبتم أنما خلقناكم عبثا فآلئكم مصود بهم إنما هو دينهم المقضى إلى السعادة في آخرتهم صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض فجاءت الشرائع بحملهم على ذلك في جميع أحوالهم من عبادة ومعاملة حتى في الملك الذي هو طبيعي للاجتماع الانساني فأجرتة على منهاج الدين ليكون الكل عوطا بنظر الشارع فما كان منه بمقتضى القهر والتغلب وإهمال القوة والغضبية في مرعائها فجور وعدوان ومذموم عنده كما هو مقتضى الحكمة السياسية وما كان منه بمقتضى السياسة وأحكامها فمذموم أيضا لأنه نظر بغير نور الله ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور لأن الشارع أعلم بمصالح الكافة فيما هو مغيب عنهم من أمور آخرتهم وأعمال البشر كلها عائدة عليهم في معادهم من ملك أو غيره قال صلى الله عليه وسلم إنما هي أعمالكم ترد عليكم وأحكام السياسة إنما تطلع على مصالح الدنيا فقط يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا ومقصود الشارع بالناس صلاح آخرتهم فوجب بمقتضى الشرائع حمل الكافة على الأحكام الشرعية في أحوال دنياهم وآخرتهم وكان هذا الحكم لأهل الشريعة وهم الأنبياء ومن قام فيه مقامهم وهم الخلفاء فقد تبين لك من ذلك معنى الخلافة وأن الملك الطبيعي هو حمل الكافة على مقتضى الغرض والشهوة والسياسي هو حمل الكافة على مقتضى النظر العقلي في جلب المصالح الدنيوية ودفع المضار والخلافة هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الآخروية والدنيوية الراجعة إليها إذاً أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به فافهم ذلك واعتبره فيما نورده عليك من بعد والله الحكيم العليم

## ٢٦ \* فصل في اختلاف الأئمة في حكم هذا المنصب وشروطه \*

وإذا قد بينا حقيقة هذا المنصب وأنه نيابة عن صاحب الشريعة في حفظ الدين وسياسة الدنيا به تسمى خلافة وإمامة والقائم به خليفة وإماما فأمّا تسميته إماما فتشبيها بإمام الصلاة في اتباعه والافتدائه به ولهذا يقال الإمامة الكبرى وأمّا تسميته خليفة فلكونه يخلف النبي في أمته فيقال خليفة باطلاق وخليفة رسول الله واختلف في تسميته خليفة الله فأجازه بعضهم اقتباسا من الخلافة العامة التي للآدميين في قوله تعالى إني جاعل في الأرض خليفة وقوله جعلكم خلائف الأرض ومنع الجمهور منه لأن معنى الآية ليس عليه وقد نهى أبو بكر عنه لما دعى به وقال لست خليفة الله ولكني خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولأن الاستخلاف إنما هو في حق الغائب وأما الحاضر فلا ثم إن نصب الامام واجب قد عرف وجوبه في الشرع باجماع الصحابة والتابعين لأن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عند وفاته بادروا إلى بيعته أبي بكر رضي

الله عنه وتسليم النظر اليه في أمورهم وكذا في كل عصر من بعد ذلك ولم تترك الناس فوضى في عصر من  
الاعصار واستقر ذلك إجماعاً دالاً على وجوب نصب الامام وقد ذهب بعض الناس إلى أن مدرك وجوبه  
العقل وأن الاجتماع الذي وقع إنما هو قضاء بحكم العقل فيه قالوا وإنما وجب بالعقل لضرورة الاجتماع للبشر  
واستحالة حياتهم ووجودهم منفردين ومن ضرورة الاجتماع التنازع لازدحام الأغراض فلم يكن  
الحاكم الوازع أفضى ذلك إلى المخرج المؤذن بهلاك البشر وانقطاعهم مع أن حفظ النوع من مقاصد  
الشرع الضرورية وهذا المعنى بعينه هو الذي لحظه الحكماء في وجوب النبوات في البشر وقد نهى على  
فساده وأن إحدى مقدماته أن الوازع إنما يكون بشرع من الله تسلم له الكفاية تسليم إيمان واعتقاد وهو  
غير مسلم لأن الوازع قد يكون بسطوة الملك وقهر أهل الشوكة ولو لم يكن شرع كما في أمم الجوس وغيرهم  
ممن ليس له كتاب أو لم تبلغه الدعوة أو تقول يكفي في رفع التنازع معرفة كل واحد بتحرير الظلم عليه بحكم  
العقل فادعائهم أن ارتفاع التنازع إنما يكون بوجود الشرع هناك ونصب الامام هنا غير صحيح بل كما يكون  
بنصب الامام يكون بوجود الرؤساء أهل الشوكة أو بامتناع الناس عن التنازع والتظام فلا ينهض دليلهم  
العقل المبني على هذه المقدمة فدل على أن مدرك وجوبه إنما هو بالشرع وهو الاجتماع الذي قدمناه وقد  
شد بعض الناس فقال بعدم وجوب هذا النص رأساً لا بالعقل ولا بالشرع منهم الأصم من المعزلة وبعض  
الخوارج وغيرهم والواجب عند هؤلاء إنما هو إمضاء أحكام الشرع فإذا توافقت الأئمة على العدل  
وتنفيذ أحكام الله تعالى لم يحتج إلى إمام ولا يجب نصبه وهؤلاء معجوجون بالاجماع والذي حملهم على  
هذا المذهب إنما هو الفرار عن الملك ومذاهبه من الاستطالة والتغلب والاستمتاع بالنيل المار أو  
الشرعية ممتلئة بدم ذلك والنعي على أهله ومرغبة في رفضه واعلم أن الشرع لم يذم الملك لذاته ولا حظر  
القيام به وإنما ذم المفسد الناشئة عنه من القهر والظلم والتمتع بالذات ولا شك أن في هذه مفسد محظورة  
وهي من توابعه كما أثني على العدل والصفة وإقامة مراسيم الدين والذب عنه وأوجب بازائها الثواب وهي  
كلها من توابع الملك فإذا إنما وقع الدم للملك على صفة وحال دون حال أخرى ولم يذمه لذاته ولا طلب تركه  
كما ذم الشهوة والغضب من المكلفين وليس مراده تركهما بالكلية لدعاية الضرورة إليها وإنما المراد  
تصريفها على مقتضى الحق وقد كان لداود وسليمان صلوات الله وسلامه عليهما الملك الذي لم يكن لغيرهما  
وهما من أنبياء الله تعالى وأكرم الخلق عنده ثم تقول لهم إن هذا الفرار عن الملك بعدم وجوب هذا  
النصب لا يغيثكم شيئاً لأنكم موافقون على وجوب إقامة أحكام الشريعة وذلك لا يحصل إلا بالعصبية  
والشوكة والعصبية مقتضية بطبعها للملك فيحصل الملك وإن لم ينصب إمام وهو عين ما قررتم عنه وإذا  
تقرر أن هذا النص واجب باجماع فهو من فروض الكفاية وراجع إلى اختيار أهل العقد والحل  
فيتعين عليهم نصبه ويجب على الخلق جميعاً طاعته لقوله تعالى أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر  
منكم وأما شروط هذا النص فهي أربعة العلم والعدالة والكفاية وسلامة الخواس والأعضاء مما  
يؤثر في الرأي والعمل واختلف في شرط خامس وهو النسب القرشي فأما اشتراط العلم فظاهر لانه إنما

يكون منفذاً لأحكام الله تعالى إذا كان علمائها ومالم يعلمها لا يصح تقديمه لها ولا يكفي من العلم إلا أن يكون مجتهداً لأن التقليد نقص والامامة تستدعي الكمال في الأوصاف والأحوال وأما العدالة فلا أنه منصب ديني ينظر في سائر المناصب التي هي شرط فيها فكان ولي أباشترطها فيه ولا خلاف في اتقاء العدالة فيه بفسق الجوارح من ارتكاب المحظورات وأمثالها وفي اتقائها بالبدع الاعتقادية خلاف وأما الكفاية فهو أن يكون جريئاً على إقامة الحدود واقتحام الحروب بصيرابها كفيلاً بحمل الناس عليها عارفاً بالعصية وأحوال الدهاء قوي على معاناة السياسة ليصح له بذلك ما جعل إليه من حماية الدين وجهاد العدو وإقامة الأحكام وتدير المصالح وأما سلامة الخواص والأعضاء من النقص والعطلة كالجنون والعمى والصمم والحرس وما يؤثر فقد من الأعضاء في العمل كفقْد اليدين والرجلين والاثني عشر فتشترط السلامة منها كلها التأثير ذلك في تمام عمله وقيامه بما جعل إليه وإن كان إماماً يشين في المنظر فقط كفقْد إحدى هذه الأعضاء فشرط السلامة منه شرط كمال ويلحق بفقدان الأعضاء المنع من التصرف وهو ضربان ضرب يلحق بهذه في اشتراط السلامة منه شرط وجوب وهو القهر والعجز عن التصرف جملة بالأسر وشبهه وضرب لا يلحق بهذه وهو الحجر باستيلاء بعض أعوانه عليه من غير عصيان ولا مشاققة فينتقل النظر في حال هذا المستولي فإن جرى على حكم الدين والعدل وحميد السياسة جاز إقراره وإلا استنصر المسلمون بمن يقبض يده عن ذلك ويدفع عنته حتى ينفذ فعل الخليفة وأما النسب القرشي فلا جماع الصحابة يوم السقيفة على ذلك واحتجت قریش على الأنصار لما هو أيوماً بيعة سعد بن عباد وقالوا منا أمير ومنكم أمير بقوله صلى الله عليه وسلم الأئمة من قریش وبأن النبي صلى الله عليه وسلم أوصانا بأن نحسن إلى عسكنم وتجاوز عن مسيئكم ولو كانت الامارة فيكم لم تكن الوصية بكم ففجوا الأنصار ورجعوا عن قولهم منا أمير ومنكم أمير وعدلوا عما كانوا هموا به من بيعة سعد لذلك وثبت أيضاً في الصحيح لا يزال هذا الأمر في هذا الحى من قریش وأمثال هذه الأدلة كثيرة إلا أنه لما ضعف أمر قریش وتلاشت عصبيتهم بما نالهم من الترف والنعيم وبما أنفقته الدولة في سائر أقطار الأرض عجزوا بذلك عن حمل الخلافة وتغلبت عليهم الأعاجم وصار الحل والعقد لهم فاشتبه ذلك على كثير من المحققين حتى ذهبوا إلى نفي اشتراط القرشية وعولوا على ظواهر في ذلك مثل قوله صلى الله عليه وسلم اسمعوا وأطيعوا وإن ولي عليكم عبد حبشي ذو زبينة وهذا لا تقوم به حجة في ذلك فإنه خرج مخرج التمثيل والفرض للبالغة في إيجاب السمع والطاعة ومثل قول عمر لو كان سالم مولى حذيفة حياً لوليت له أو لما دخلتني فيه الظنة وهو أيضاً لا يفيد ذلك لما علمت أن مذهب الصحابي ليس بحجة وأيضاً فولى القوم منهم وعصية الولاء حاصلة لسالم في قریش وهي الفائدة في اشتراط النسب ولما استعظم عمر أمر الخلافة ورأى شروطها كأنها مفقودة في ظنه عدل إلى سالم لتوفر شروط الخلافة عنده فيه حتى من النسب المفيد للعصية كأنه ذكر ولم يبق إلا صراحة النسب فرآه غير محتاج إليه إذ الفائدة في النسب إنما هي العصية وهي حاصلة من الولاء فكان ذلك حرصاً من عمر رضي



الله عنه على النظر للمسلمين وتقليد أمرهم لمن لا تلحقه فيه لائمة ولا عليه فيه عهدة ومن القائلين بنى  
 اشتراط القرشية القاضي أبو بكر الباقلاني لما أدرك عليه عصبية قریش من التلاشي والاضمحلال  
 واستبداد ملوك العجم على الخلفاء فأسقط شرط القرشية وان كان موافقا لرأى الخوارج لما رأى  
 عليه حال الخلفاء لعهدده وبقى الجمهور على القول باشتراطها وصحة الامامة للقرشي ولو كان عاجزا عن القيام  
 بامور المسلمين ورد عليهم سقوط شرط الكفاية التي يقوي بها على أمره لانه اذا ذهبت الشوكة بذهاب  
 العصبية فقد ذهبت الكفاية واذا وقع الاخلال بشرط الكفاية تطرق ذلك أيضا الى العلم والدين  
 وسقط اعتبار شروط هذا المنصب وهو خلاف الاجماع ولنتكلم الآن في حكمة اشتراط النسب ليتحقق  
 به الصواب في هذه المذاهب فنقول أن الأحكام الشرعية كلها لا بد لها من مقاصد وحكم تشتمل عليها  
 وتشرع لأجلها ونحن اذا بحثنا عن الحكمة في اشتراط النسب القرشي ومقصد الشارع منه لم يقتصر  
 فيه على التبرك بوصلة النبي صلى الله عليه وسلم كما هو في المشهور وان كانت تلك الوصلة موجودة والتبرك  
 بها حاصل لكن التبرك ليس من المقاصد الشرعية كما علمت فلا بد إذن من المصلحة في اشتراط النسب  
 وهي المقصودة من مشروعيتها واذا سبرنا وقسمنا لم نجد بها الاعتبار العصبية التي تكون بها الحماية  
 والمطالبة ويرتفع الخلاف والفرقة بوجودها لصاحب المنصب فتسكن إليه الملة وأهلها وينتظم  
 جبل الألفة فيها وذلك أن قریشا كانوا عصبية مضر وأصلهم وأهل الغلب منهم وكان لهم على سائر مضر  
 العزة بالكثرة والعصبية والشرف فكان سائر العرب يعترف لهم بذلك ويستكينون لغلبهم فلو جعل  
 الأمر في سواهم لتوقع إفراق الكلمة بمخالفتهم وعدم إتيانهم ولا يقدر غيرهم من قبائل مضر أن يردم  
 عن الخلاف ولا يحملهم على الكثرة فتفترق الجماعة وتختلف الكلمة والشارع عذر من ذلك حريص على  
 اتفاقهم ورفع النزاع والشتات بينهم لتحصل اللحمة والعصبية وتحسن الحماية بخلاف ما إذا كان الأمر في  
 قریش لا أنهم قادرون على سوق الناس بعصا الغلب إلى ما يراهم فلا يخشى من أحد خلاف عليهم ولا فرقة  
 لا أنهم كفيلون حينئذ بدفعها ومنع الناس منها فاشتراط نسبها القرشي في هذا المنصب وهم أهل العصبية القوية  
 ليكون أبلغ في انتظام الملة واتفاق الكلمة وإذا انتظمت كلمتهم انتظمت بانتظامها كلمة مضر أجمع فأدع  
 لهم سائر العرب وانقادت الأمم سواهم إلى أحكام الملة ووطئت جنودهم قاصية البلاد كما وقع في أيام الفتوحات  
 واستمر بعدها في الدولتين إلى أن اضمحل أمر الخلافة وتلاشت عصبية العرب ويعلم ما كان لقریش من  
 الكثرة والتغلب على بطون مضر من مارس أخبار العرب وسيرهم وتفطن لذلك في أحوالهم وقد ذكر  
 ذلك ابن اسحاق في كتاب السير وغيره فاذا ثبت أن اشتراط القرشية إنما هو لدفع النزاع بما كان لهم  
 من العصبية والغلب وعلمنا أن الشارع لا يخص الأحكام بحيل ولا عصر ولا أمة علمنا أن ذلك إنما هو من  
 الكفاية فرددناه اليها وطردها العلة المشتملة على المقصود من القرشية وهي وجود العصبية فاشتراطنا في  
 القائم بأمور المسلمين أن يكون من قوم أولى عصبية قوية غالبية على من معها لعصرها ليستبوعا من سواهم  
 وتجتمع الكلمة على حسن الحماية ولا يعلم ذلك في الاقطار والآفاق كما كان في القرشية إذ الدعوة الاسلامية

التي كانت لهم كانت عامة وعصبية العرب كانت وافية بها فغلبوا سائر الأئمة وإما يخص لهذا العهد كل قطر بمن تكون له فيه العصبية الغالبة وإذا نظرت سر الله في الخلافة لم تعد هذا لأنه سبحانه إنما جعل الخليفة نائباً عنه في القيام بأمور عباده ليحملهم على مصالحهم ويردهم عن مضارهم وهو مخاطب بذلك ولا مخاطب بالأمر إلا من له قدرة عليه ألا ترى ما ذكره الامام ابن الخطيب ( ١ ) في شأن النساء وأنهن في كثير من الأحكام الشرعية جعلن تبعاً للرجال ولم يدخلن في الخطاب بالوضع وإنما دخلن عنده بالقياس وذلك لما لم يكن لهن من الأمر شيء وكان الرجال قوامين عليهن اللهم إلا في العبادات التي كل أحد فيها قائم على نفسه فخاطبن فيها بالوضع لا بالقياس ثم أن الوجود شاهد بذلك بأنه لا يقوم بأمرأة أو جيل إلا من غلب عليهم وقل أن يكون الأمر الشرعي مخالفاً للأمر الوجودي والله تعالى أعلم

### ٢٧ \* فصل في مذهب الشيعة في حكم الامامة \*

( اعلم ) أن الشيعة لغة هم الصحب والاتباع ويطلق في عرف الفقهاء والمتكلمين من الخلف والسلف على أتباع علي وبنيه رضي الله عنهم ومذهبهم جميعاً متفقين عليه أن الامامة ليست من المصالح العامة التي تفوض إلى نظر الأمة ويتعين القائم بها بتعيينهم بل هي ركن الدين وقاعدة الاسلام ولا يجوز لشيء إغفاله ولا تفويضه إلى الأمة بل يجب عليه تعيين الامام لهم ويكون معصوماً من الكبائر والصغائر وأن علياً رضي الله عنه هو الذي عينه صلوات الله وسلامه عليه بنصوص يتقونها ويؤولونها على مقتضى مذهبهم لا يعرفها جهابذة السنة ولا نقلة الشيعة بل أكثرها موضوع أو مطعون في طريقه أو بعيد عن تأويلاتهم الفاسدة وتنقسم هذه النصوص عندهم إلى جلي وخفي فالجلي مثل قوله من كنت مولاه فعلي مولاه قالوا ولم تطرد هذه الولاية إلا في علي ولهذا قل له عمر أصبحت مولى كل مؤمن ومؤمنة ومنها قوله أقضاكم على ولا معنى للامامة إلا القضاء بأحكام الله وهو المراد بأولي الأمر الواجبة طاعتهم بقوله أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم والمراد الحكم والقضاء ولهذا كان حكماً في قضية الامامة يوم السقيفة دون غيره ومنها قوله من يبايعني على روجه وهو وصي وولي هذا الأمر من بعدى فلم يبايعه إلا علي ومن الخفي عندهم بعث النبي صلى الله عليه وسلم علياً للقراءة سورة براءة في الموسم حين أزلت فانه بعث بها أولاً بكر ثم أوحى إليه ليلغه رجل منك أو من قومك فبعث علياً ليكون القاريء المبلغ قالوا وهذا يدل على تقديم علي وإيضافهم يعرف أنه قدم أحد علياً وأما أبو بكر وعمر فقدم عليهما في غزاتين أسامة بن زيد مرة وعمر وبن العاص أخرى وكلها هذه أدلة شاهدة بتعيين علي للخلافة دون غيره فمنها ما هو غير معروف ومنها ما هو بعيد عن تأويلهم ثم منهم من يرى أن هذه النصوص تدل على تعيين علي وتشخيصه وكذلك تنتقل منه إلى من بعده وهؤلاء هم الأمامية ويتبرؤن من الشيخين حيث لم يقدموا علياً وبايعوه بمقتضى هذه النصوص ويغمصون في امامتهما ولا يلتفت إلى نقل القدح فيهما من غلاتهم فهو مردود عندنا

( ١ ) قوله الامام ابن الخطيب هو الفخر الرازي قاله نصر اه

وعندهم ومنهم من يقول أن هذه الأدلة إنما اقتضت تعيين علي بالوصف لا بالشيخ والناس مقصرون حيث لم يضعوا الوصف موضعه وهؤلاء هم الزيدية ولا يترؤن من الشيخين ولا يغمصون في أمامتهما مع قولهم بأن عليا أفضل منهما لكنهم يجوزون إمامة المفضول مع وجود الأفضل ثم اختلفت نقول هؤلاء الشيعة في مساق الخلافة بعد علي فمنهم من ساقها في ولد فاطمة بالنص عليهم واحدا بعد واحد على ما يذكر بعده هؤلاء يسمون الأمامية نسبة إلى مقالتهم باسقاط معرفة الامام وتعيينه في الايمان وهي أصل عندهم ومنهم من ساقها في ولد فاطمة لكن بالاختيار من الشيوخ ويشترط أن يكون الامام منهم عالما زاهدا جوادا شجاعا ويخرج داعيا إلى إمامته وهؤلاء هم الزيدية نسبة إلى صاحب المذهب وهو زيد بن علي بن الحسين السبط وقد كان يناظر أخاه محمدا الباقر على اشتراط الخروج في الامام فيلزمه الباقر أن لا يكون أبوهم من العابدين إماما لأنه لم يخرج ولا تعرض للخروج وكان مع ذلك يعنى عليه مذاهب المعتزلة وأخذة إياها عن واصل بن عطاء ولما ناظر الامامية زيدا في إمامة الشيخين ورأوه يقول بامامتهما ولا يترأ منهما رفضوه ولم يجعلوه من الأئمة وبذلك سموا رافضة ومنهم من ساقها بعد علي وابنيه السبطين على اختلافهم في ذلك إلى أخيهما محمد بن الحنفية ثم إلى ولده وهم الكيسانية نسبة إلى كيسان مولاه وبين هذه الطوائف اختلافات كثيرة تركناها إختصارا ومنهم طوائف يسمون الغلاة تجاوزوا حد العقل والايمان في القول بالوهمية هؤلاء الأئمة أماعلى أنهم بشر اتصفوا بصفات الالهية أو أن الاله حل في ذاته البشرية وهو قول بالحلول يوافق مذهب النصاري في عيسى صلوات الله عليه ولقد حرق على رضى الله عنه بالنار من ذهب فيه إلى ذلك منهم وسخط محمد بن الحنفية المختار بن أبي عبيد لما بلغه مثل ذلك عنه فصرح ببعثته والبراءة منه وكذلك فعل جعفر الصادق رضى الله تعالى عنه بمن بلغه مثل هذا عنه ومنهم من يقول إن كمال الامام لا يكون لغيره فاذا مات انتقلت روحه إلى إمام آخر ليكون فيه ذلك الكمال وهو قول بالتناسخ ومن هؤلاء الغلاة من يقف عند واحد من الأئمة لا يتجاوزة إلى غيره بحسب من يعين لذلك عندهم وهؤلاء هم الواقفية فبعضهم يقول هو حي لم يميت إلا أنه غائب عن أعين الناس ويستشهدون لذلك بقصة الخضر قيل مثل ذلك في علي رضى الله عنه وأنه في السحاب والرعد صوته والبرق في سوطه وقالوا مثله في محمد بن الحنفية وأنه في جبل رضوي من أرض الحجاز وقال شاعرهم

ألا ان الأئمة من قريش \* ولاية الحق أربعة سواء

علي والثلاثة من بنيه \* هم الأسياط ليس بهم خفاء

فيسبط سبط إيمان وبر \* وسبط غيبته كربلاء

وسبط لا يذوق الموت حتى \* يقود الجيش يقدمه اللواء

تغيب لا يرى فيهم زمانا \* برضوى عنده غسل وماء

وقال مثله غلاة الامامية وخصوصا الاثني عشرية منهم يزعمون أن الثاني عشر من أئمتهم وهو محمد



ابن الحسن العسكري ويلقبونه المهدي دخل في سرداب بدارهم بالحلة وتغيب حين اعتقل مع أمه وغاب هنالك وهو يخرج آخر الزمان فيملا الأرض عدلا يشيرون بذلك إلى الحديث الواقع في كتاب الترمذي في المهدي وم إلى الآن ينتظرونه ويسمون المنتظر لذلك ويقفون في كل ليلة بعد صلاة المغرب يباب هذا السرداب وقد قدموا مراكبهم يتفون باسمه ويدعون للخروج حتى تشبك النجوم ثم ينفضون ويرجئون الأمر إلى الليلة الآتية وهم على ذلك لهذا العهد وبعض هؤلاء الواقفية يقول إن الامام الذي فات يرجع إلى حياته الدنيا ويشهد بذلك عما وقع في القرآن الكريم من قصة أهل الكهف والذي مر على قرية وقتل بنو إسرائيل حين ضرب بعظام البقرة التي أمروا بذبحها ومثل ذلك من الخوارق التي وقعت على طريق المعجزة ولا يصح الاستشهاد بها في غير مواضعها وكان من هؤلاء السيد الحميري ومن شعره في ذلك

إذا ما المرء شاب له قذال \* وعالله المواشط بالحضاب  
فقد ذهبت بشاشته وأودي \* فقم يا صاح نك على الشاب  
إلى يوم توب الناس فيه \* إلى دنيا هو قبل الحساب  
فليس بعائد ما فات منه \* إلى أحد إلى يوم الاياب  
أدين بأن ذلك دين حق \* وما أنا في النشور بندي ارياب  
كذلك الله أخبر عن أناس \* حيوا من بعد درس في التراب

وقد كفنا مؤنة هؤلاء الغلاة أئمة الشيعة فانهم لا يقولون بها ويطلبون احتجاجاتهم عليها وأما الكيسانية فساقوا الامامة من بعد محمد بن الحنفية إلى ابنه أبي هاشم وهؤلاء الهاشمية ثم افرقوا منهم من ساقها بعده إلى أخيه علي ثم إلى ابنه الحسن بن علي وآخرون يزعمون أن أبا هاشم لم مات بارض السراة منصرفا من الشام أوصى إلى محمد بن علي بن عبد الله بن عباس وأوصى محمد إلى ابنه ابراهيم المعروف بالامام وأوصى ابراهيم إلى أخيه عبد الله بن الحارثية الملقب بالسفاح وأوصى هو إلى أخيه عبد الله أبي جعفر الملقب بالمنصور وانتقلت في ولده بالنص والعهد واحداً بعد واحد إلى آخرهم وهذا مذهب الهاشمية القائم بدولة بني العباس وكان منهم أبو مسلم وسليمان بن كثير وأبو سلمة الخلال وغيرهم من شيعة العباسية وربما يعضدون ذلك بأن حقهم في هذا الأمر يصل إليهم من العباس لأنه كان حيا وقت الوفاة وهو أولى بالوراثة بعصية العمومة وأما الزيدية فساقوا الامامة على مذهبهم فيها وإنها باختيار أهل الحل والعقد بالنص فقالوا بامامة علي ثم ابنه الحسن ثم أخيه الحسين ثم ابنه علي بن العباس ثم ابنه زيد بن علي وهو صاحب هذا المذهب وخرج بالكوفة داعيا إلى الامامة فقتل وصلب بالكناسة وقال الزيدية بامامة ابنه يحيى من بعده فمضى إلى خراسان وقتل بالجوزجان بعد أن أوصى إلى محمد بن عبد الله بن حسن ابن الحسن السبط ويقال له النفس الزكية فخرج بالحجاز وتلقب بالمهدي وجاءته عساكر المنصور فقتل وعهد إلى أخيه ابراهيم فقام بالبصرة ومعه عيسى بن زيد بن علي فوجه إليهم المنصور عساكره فهزم

وقتل إبراهيم وعيسى وكان جعفر الصادق أخبرهم بذلك كله وهي معدودة في كراماته وذهب آخرون  
 منهم إلى أن الامام بعد محمد بن عبد الله النفس الزكية هو محمد بن القاسم بن علي بن عمرو وهو أخو زيد  
 ابن علي فخرج محمد بن القاسم بالطالقان فقبض عليه وسيق إلى المعتصم فحبسه ومات في حبسه وقال آخرون  
 من الزيدية أن الامام بعد يحيى بن زيد هو أخوه عيسى الذي حضر مع إبراهيم بن عبد الله في قتاله مع  
 المنصور ونقلوا الامامة في عقبه وإليه انتسب دعي الزنج كما نذكره في أخبارهم وقال آخرون من الزيدية  
 أن الامام بعد محمد بن عبد الله أخوه إدريس الذي فر إلى المغرب ومات هناك وقام بأمره ابنه إدريس  
 واختط مدينة فاس وكان من بعده عقبه ملوكا بالمغرب إلى أن انقرضوا كما نذكره في أخبارهم وبقى  
 أمر الزيدية بعد ذلك غير منتظم وكان منهم الداعي الذي ملك طبرستان هو الحسن بن زيد بن محمد بن  
 اسماعيل بن الحسن بن زيد بن علي بن الحسين السبط وأخوه محمد بن زيد ثم قام بهذه الدعوة في الديلم  
 الناصر الأتروش منهم وأسلموا على يده وهو الحسن بن علي بن الحسن بن علي بن عمرو وهو أخو زيد  
 ابن علي فكانت لبنية بطبرستان دولة وتوصل الديلم من نسبهم إلى الملك والاستبداد على الخلفاء ببغداد  
 كما نذكر في أخبارهم \* وأما الامامية فساقوا الامامة من علي الرضا إلى ابنه الحسن بالوصية ثم إلى أخيه الحسين  
 ثم إلى ابنه علي زين العابدين ثم إلى ابنه محمد الباقر ثم إلى ابنه جعفر الصادق ومن هنا افترقوا فرقتين فرقة  
 ساقوها إلى ولده اسمعيل ويعرفونه بينهم بالامام وهم الاسماعيلية وفرقة ساقوها إلى ابنه موسى الكاظم  
 وهم الاثناعشرية لو قوفهم عند الثاني عشر من الأئمة وقولهم بغيته إلى آخر الزمان كما مر فاما الاسماعيلية  
 فقالوا بامامة اسماعيل الامام بالنص من أبيه جعفر وفائدة النص عليه عندهم وإن كان قد مات قبل أبيه إنما هو  
 بقاء الامامة في عقبه كقصه هرون مع موسى صلوات الله عليهم ما قالوا ثم انتقلت الامامة من اسماعيل إلى ابنه  
 محمد المكتوم وهو أول الأئمة المستورين لأن الامام عندهم قد لا يكون له شوكة فيستتر وتكون دعائه  
 ظاهرين إقامة للحجة على الخلق وإذا كانت له شوكة ظهر وأظهر دعوته قالوا وبعد محمد المكتوم ابنه جعفر  
 الصادق بعده ابنه محمد الحبيب وهو آخر المستورين وبعده ابنه عبد الله المهدي الذي أظهر دعوته أبو عبد الله  
 الشيعي في كتامة وتتابع الناس على دعوته ثم أخرجه من معتقله بسجلماسة وملك القيروان والمغرب وملك  
 بنوه من بعده مصر كما هو معروف في أخبارهم ويسمى هؤلاء الاسماعيلية نسبة إلى القول بامامة اسمعيل  
 ويسمون أيضا بالباطنية نسبة إلى قولهم بالامام الباطن أي المستور ويسمون أيضا الملحدة لما في ضمن  
 مقالاتهم من الاتحاد ولهم مقالات قديمة ومقالات جديدة دعا إليها الحسن ابن محمد الصباح في آخر المائة  
 الخامسة وملك حصونا بالشام والعراق ولم تزل دعوته فيها إلى أن توزعها الهلاك بين ملوك الترك  
 بمصر وملوك التتر بالعراق فانقرضت ومقالة هذا الصباح في دعوته مذكورة في كتاب الملل والنحل  
 للشهرستاني وأما الاثناعشرية فربما خصوا باسم الامامية عند المتأخرين منهم فقالوا بامامة موسى الكاظم  
 ابن جعفر الصادق لوفاء أخيه الأكبر اسمعيل الامام في حياة أبيهما جعفر فنص على امامة موسى هذا  
 ثم ابنه علي الرضا الذي عهد إليه المأمون ومات قبله فلم يتم له أمر ثم ابنه محمد التقي ثم ابنه علي الهادي ثم ابنه

محمد الحسن العسكري ثم ابنه محمد المهدي المنتظر الذي قدمناه قبل وفي كل واحدة من هذه المقالات للشيعية اختلاف كثير الآن هذه أشهر مذاهبهم ومن أراد استيعابها ومطالعتها فعليه بكتاب الملل والنحل لابن حزم والشهرستاني وغيرهما ففيها بيان ذلك والله يضل من يشاء ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم وهو العلي الكبير

٢٨ ﴿ فصل في انقلاب الخلافة إلى الملك ﴾

اعلم أن الملك غاية طبيعية للعصية ليس وقوعه عنها باختيار إنما هو بضرورة الوجود وترتيبه كما قلناه من قبل وأن الشرائع والديانات وكل أمر يحمل عليه الجمهور فلا بد فيه من العصية إذ المطالبة لا تتم إلا بها كما قدمناه فالعصية ضرورة للملة وبوجودها يتم أمر الله منها وفي الصحيح ما بعث الله نبيا إلا في منعة من قومه ثم وجدنا الشارع قد ذم العصية وندب إلى إطراحها وتركها فقال إن الله أذهب عنكم عبية الجاهلية (١) ونفخها بالآباء أتم بنو آدم وآدم من تراب وقال تعالى إن أكرمكم عند الله أتقاكم ووجدناه أيضا قد ذم الملك وأهله ونعى على أهله أحوالهم من الاستمتاع بالخلاو والأسراف في غير القصد والتسكب عن صراط الله وإنما حض على الألفة في الدين وحذر من الخلاف والفرقة واعلم أن الدنيا كلها وأحوالها عند الشارع مطية للأخرة ومن فقد المطية فقد الوصول وليس مراده فيما ينهي عنه أو يذمه من أفعال البشر أو يندب إلى تركها هاله بالكلية أو اقتلعه من أصله وتعطيل القوى التي ينشأ عليها بالكلية إنما قصده تصريفها في أغراض الحق جهد الاستطاعة حتى تصير المقاصد كلها حقا وتتحد الوجهة كما قال صلى الله عليه وسلم من كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه فلم يذم الغضب وهو يقصد نزع من الإنسان فانه لو زالت منه قوة الغضب لفقد منه الانتصار للحق وبطل الجهاد واعلاء كلمة الله وإنما يذم الغضب للشيطان وللأغراض الذميمة فإذا كان الغضب لذلك كان الغضب في الله والله كان ممدوحا وهو من شئنا الله صلى الله عليه وسلم وكذا ذم الشهوات أيضا ليس المراد بظاها بالكلية فإن من بطلت شهوته كان نقصا في حقه وإنما المراد بتصريفها فيما أبيع له باشتاله على المصالح ليكون الإنسان عبدا متصرفا طوع الإاوامر الإلهية وكذا العصية حيث ذمها الشارع وقال لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم فإنما مراده حيث تكون العصية على الباطل وأحواله كما كانت في الجاهلية وأن يكون لا حذغ فيها أو حق على أحد لأن ذلك محبان من أفعال العقلاء وغير نافع في الآخرة التي هي دار القرار فاما إذا كانت العصية في الحلق وإقامة أمر الله فأمر مطلوب ولو بطل لبطلت الشرائع اذ لا يتم قوامها إلا بالعصية كما قلناه من قبل وكذا الملك لما ذمه الشارع لم يذم منه الغلب بالحق وقهر الكافة على الدين ومراعاة المصالح وإنما ذمه لما فيه من التغلب بالباطل وتصريف الآدميين طوع الأغراض

(١) عبية بضم العين وكسرهما وكسر الموحدة مشددة وتشديد الياء الكبر والفخر والنخوة اهـ



والشهوات كما قلناه فلو كان الملك مخلصاً في غلبه للناس أنه لله ولحملهم على عبادة الله وجهاد عدوه لم يكن ذلك مذموماً وقد قال سليمان صلوات الله عليه رب هب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي لما علم من نفسه أنه يعزل عن الباطل في النبوة والملك ولما لقي معاوية عمر بن الخطاب رضي الله عنهما عند قدومه إلى الشام في أبيه الملك وزيه من العديد والعدة استنكر ذلك وقال أكرهوية يامعاوية فقال يا أمير المؤمنين أنا في نزع تجاه العدو وبنائهم إلى مباحاتهم بزينة الحرب والجهاد حاجة فصكت ولم يخطئه لما احتج عليه بمقصد من مقاصد الحق والدين فلو كان القصد فض الملك من أصله لم يقنع هذا الجواب في تلك الكسروية وانتحاله بل كان يحرض على خروجه عنها بالجملة وإنما أراد عمر بالكسروية ما كان عليه أهل فارس في ملكهم من ارتكاب الباطل والظلم والبغي وسلوك سبله والغفلة عن الله وأجابه معاوية بأن القصد بذلك ليس كسروية فارس وباطلهم وإنما قصده بها وجه الله فسكت وهكذا كان شأن الصحابة في رفض الملك وأحواله ونسيان عوائده حذرهم من التباسها بالباطل فلما استحضر رسول الله صلى الله عليه وسلم استخلف أبا بكر على الصلاة إذ هي أهم أمور الدين وارتضاء الناس للخلافة وهي حمل الكافة على أحكام الشريعة ولم ينجر للملك ذكر لما أنه مظنة للباطل ونحلة يومئذ لأهل الكفر وأعداء الدين فقام بذلك أبو بكر ما شاء الله متبعاً سنن صاحبه وقاتل أهل الردة حتى اجتمع العرب على الإسلام ثم عهد إلى عمر فافتق أثره وقاتل الأئمة فمليهم وأذن للعرب في انتزاع ما بأيديهم من الدنيا والملك فغلبوهم عليه وانتزعوه منهم ثم صارت إلى عثمان بن عفان ثم إلى علي رضي الله عنهما والكل متبرؤن من الملك متنبكون عن طريقه وأكذلك لديهم ما كانوا عليه من غضاضة الإسلام وبداءة العرب فقد كانوا أبعد الأئمة عن أحوال الدنيا وترفعها لا من حيث دينهم الذي يدعوهم إلى الزهد في النعيم ولا من حيث بدائهم ومواطنهم وما كانوا عليه من خشونة العيش وشظفه الذي ألفوه فلم تكن أمة من الأئمة أسغب عيشاً من مضربها كانوا بالحجاز في أرض غير ذات زرع ولا ضرع وكانوا ممنوعين من الأرياف وجوبها بعدد واختصاصها بمن وليها من ربيعة واليمن فلم يكونوا يتناولون إلى خصبها ولقد كانوا كثيراً ما يكلون العقارب والخنافس ويفخرون بأكل العلهز وهو وبر الابل يمهونه بالحجارة في الدم ويطبخونه وقرىبان هذا كانت حال قریش في مطاعهم ومساكنهم حتى إذا اجتمعت عصبية العرب على الدين بما أكرمهم الله من نبوة محمد صلى الله عليه وسلم زحفوا إلى أم فارس والروم وطلبوا ما كتب الله من الأرض بوعد مصدق فابتزوا ملكهم واستباحوا دنياهم فزخرت بحار الرفه لديهم حتى كان الفارس الواحد يقسم له في بعض الغزوات ثلاثون ألفاً من الذهب أو نحوها فاستولوا من ذلك على ما لا يأخذه الحصر وهم مع ذلك على خشونة عيشهم فكان عمر يرفع ثوبه بالجلد وكان على يقول يا صفراء ويا بيضاء غري غري وكان أبو موسى يتجافى عن أكل الدجاج لأنه لم يعدها للعرب لقلتها يومئذ وكانت المناخل مفقودة عندهم بالجملة وإنما كانوا يأكلون الحنطة بنخالها ومكاسهم مع هذا أنهم ما كانت لأحد من أهل العالم \* قال المسعودي في أيام عثمان اقتنى الصحابة الضياع والمال فكان له يوم قتل عند خازنه خمسون ومائة ألف دينار وألف ألف

درهم وقيمة ضياعه بوادي القرى وحنين وغيرهما مائة ألف دينار وخلف إيلاو خيلا كثيرة وبلغ الثمن الواحد من متروك الزبير بعد وفاته خمسين ألف دينار وخلف ألف فرس وألف أمة وكانت غلة طلحة من العراق ألف دينار كل يوم ومن ناحية السراة أكثر من ذلك وكان على مربي عبد الرحمن بن عوف ألف فرس وله ألف بعير وعشرة آلاف من الغنم وبلغ الربع من متروكه بعد وفاته أربعة وثمانين ألفا وخلف يزيد بن ثابت من الفضة والذهب ما كان يكسر بالفؤس غير ما خلف من الأموال والضياع بمائة ألف دينار وبني الزبير داره بالبصرة وكذلك بني بمصر والسكوفة والاسكندرية وكذلك بني طلحة داره بالكوفة وشيد داره بالمدينة وبنائها بالحص والآخر والساج وبني سعد بن أبي وقاص داره بالعقيق ورفع سمكها وأوسع فضاءها وجعل على أعلاها شرفات وبني المقداد داره بالمدينة وجعلها بحصص الظاهر والباطن وخلف يعلى بن منبه خمسين ألف دينار وعقار وغير ذلك ما قيمته ثلثمائة ألف درهم اه كلام المسعودي فكانت مكاسب القوم كما تراه ولم يكن ذلك منعياع عليهم في دينهم اذهي أموال حلال لانها غنائم وفيه ولم يكن تصرفهم فيها بأسراف وإنما كانوا على قصد في أحوالهم كما قلناه فلم يكن ذلك بقادح فيهم وان كان الاستكثار من الدنيا مذموما فإنا يرجع الى ما أثرنا اليه من الاسراف والخروج به عن القصد واذ كان حالهم قصدا ونفقاتهم في سبل الحق ومذاهبه كان ذلك الاستكثار عونا لهم على طرق الحق واكتساب الدار الآخرة فلما تدرجت البداوة والغضاضة الى نهايتها وجاءت طبيعة الملك التي هي مقتضى العصبية كما قلناه وحصل التغلب والقهر كان حكم ذلك الملك عندهم حكم ذلك الرفه والاستكثار من الأموال فلم يصرفوا ذلك التغلب في باطل ولا خرجوا به عن مقاصد الديانة ومذاهب الحق ولما وقعت الفتنة بين علي ومعاوية وهي مقتضى العصبية كان طريقهم فيها الحق والاجتهاد ولم يكونوا في محاربتهم لغرض ديني أو لا يثار باطل أو لا تستعار حقد كما قد يتوهمه متوهم وينزع اليه ملحد وإنما اختلف اجتهدهم في الحق وسفه كل واحد نظر صاحبه باجتهاده في الحق فاقتتلوا عليه وإن كان المصيب عليا فلم يكن معاوية قائما فيها بقصد الباطل وإنما قصد الحق وأخطأ والكل كانوا في مقاصدهم على حق ثم اقتضت طبيعة الملك الانفراد بالمجد واستئثار الواحد به ولم يكن لمعاوية أن يدفع ذلك عن نفسه وقومه فهو أمر طبيعي ساقته العصبية بطبيعتها واستشعرته بنو أمية ومن لم يكن على طريقة معاوية في اقتفاء الحق من أتباعهم فاعصوا صوابه واستماتوا دونه ولو حملهم معاوية على غير تلك الطريقة وخالفهم في الانفراد بالامر لوقع في اقتراق الكلمة التي كان جمعها وتأليفها أهم عليه من أمر ليس وراءه كبير مخالفة وقد كان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يقول اذارأى القاسم بن محمد بن أبي بكر لو كان لي من الأمر شيء أوليته الخلافة ولو أراد أن يعهد اليه لفعل ولكنه كان يخشى من بني أمية أهل الحل والعقد لما ذكرناه فلا يقدر أن يحول الأمر عنهم لثلاث تقع الفرقة وهذا كله إنما حمل عليه منازع الملك التي هي مقتضى العصبية فالملك اذا حصل وفرضا أن الواحد انفرده وصرفه في مذاهب الحق ووجوهه لم يكن في ذلك تكبر عليه ولقد انفراد سليمان وأبو داود صلوات الله عليهما بملك بني اسرائيل لما اقتضته طبيعة الملك فيهم من الانفراد به

وكانوا ما علمت من النبوة والحق وكذلك عهد معاوية الى يزيد خوفا من افتراق الكلمة بما كانت بنو أمية لم يرضوا لتسليم الامر الى من سواهم فلو قد عهد الى غيره اختلفوا عليه مع أن ظنهم كان به صالحا ولا يرتاب أحد في ذلك ولا يظن بمعاوية غيره فلم يكن ليعهد اليه وهو يعتقد ما كان عليه من الفسق حاشا لله لمعاوية من ذلك وكذلك كان مروان بن الحكم وابنه وان كانوا ملوكا فهم يكن مذهبهم في الملك مذهب أهل البطالة والبغي انما كانوا متحررين لمقاصد الحق جهدهم الا في ضرورة تحملهم على بعضها مثل خشية افتراق الكلمة الذي هو أهم لديهم من كل مقصد يشهد لذلك ما كانوا عليه من الاتباع والافتداء وما علم السلف من أحوالهم فقد احتج مالك في الموطأ بعمل عبد الملك وأما مروان فكان من الطبقة الأولى من التابعين وعدلهم معروفة ثم تدرج الأمر في ولد عبد الملك وكانوا من الدين بالمكان الذي كانوا عليه وتوسطهم عمر ابن عبد العزيز ففرع الى طريقة الخلفاء الأربعة والصحابة جهده ولم يهمل ثم جاء خلفهم واستعملوا طبيعة الملك في أغراضهم الدنيوية ومقاصدهم ونسوا ما كان عليه سلفهم من تحري القصد فيها واعتماد الحق في مذاهبها فكان ذلك مادعا للناس الى أن نعو عليهم أفعالهم وأدوا بالدعوة العباسية منهم وولى رجالها الأمر فكانوا من العدالة بمكان وصرفو الملك في وجوه الحق ومذاهبه ما استطاعوا حتى جاء بنو الرشيد من بعده فكان منهم الصالح والطالح ثم أفضى الأمر الى بنينهم فاعطوا الملك والترفع حقه وانغمسوا في الدنيا وباطلها وبنذوا الدين وراءهم ظهر يافتأذن الله بحربهم وانزع الأمر من أيدي العرب جملة وأمكن سوام منه والله لا يظلم مثقال ذرة ومن تأمل سير هؤلاء الخلفاء والملوك واختلافهم في تحري الحق من الباطل علم محمة ما قلنا وقد حكي المسعودي مثله في أحوال بني أمية عن أبي جعفر المنصور وقد حضر عمومته وذكروا بني أمية فقال أما عبد الملك فكان جبارا لا يبالي بما صنع وأما سليمان فكان همه بطنه وفرجه وأما عمر فكان أعور بين عميان وكان رجل القوم هشام قال ولم يزل بنو أمية ضابطين لما مهد لهم من السلطان يحوطونه ويصونون ما وهب الله لهم منه مع تسنهم معالي الأمور ورفضهم دينياتها حتى أفضى الأمر الى أبنائهم المترفين فكانت همتهم قصد الشهوات وركوب اللذات من معاصي الله جهلا باستدراجهم وأما لمكرهم مع إطراحهم صيانة الخلافة واستخفافهم بحق الرياسة وضعفهم عن السياسة فسلبهم الله العز والبسم الذل ونقي عنهم النعمة ثم استحضر عبد الله (١) ابن مروان فقص عليه خبره مع ملك النوبة لما دخل أرضه فارأى أيام السفاح قال أقت مليا ثم أتاني ملكهم فقعده على الأرض وقد بسطت لي فرش ذات قيمة فقلت له ما منعك من القعود على ثيابنا فقال إني ملك وحق لكل ملك أن يتواضع لعظمة الله إذ أرفعه الله ثم قال لي لم تشربون الخمر وهي محرمة عليكم في كتابكم فقلت اجترأ على ذلك عبيدنا وأتباعنا قال فلم تطؤون الزرع بدوايكم والفساد محرم عليكم قلت فعل ذلك عبيدنا وأتباعنا يجهلهم قال فلم تلبسون الديباج والذهب والحريز وهو محرم عليكم في كتابكم قلت ذهب منا

(١) قوله عبد الله كذا في النسخة التونسية وبعض الفاسية وفي بعضها عبد الملك وأظنه تصحيفا قاله نصر



الملك وانتصرنا بقوم من العجم دخلوا في ديننا فلبسوا اذلك على الكره منا فأطرق ينكت بيده في الأرض ويقول عبدنا وأتباعنا وأعاجم دخلوا في ديننا ثم رفع رأسه إلى وقال ليس كما ذكرت بل أنتم قوم استحللتم ما حرم الله عليكم وأنتم ما عنتمهم وظلمتم فيما ملككم فلبسكم الله العز والبسم الدل بذنوبكم والله تقيمة لم تبلغ غايتها فيكم وأنا خائف أن يحل بكم العذاب وأنتم يلبس فينا في معكم وإنما الضيافة ثلاث فقرودما احتجت إليه وارتحل عن أرضي فتعجب المنصور وأطرق فقدتين لك كيف انقلبت الخلافة إلى الملك وأن الأمر كان في أوله خلافة ووازع كل أحد فيها من نفسه وهو الدين وكانوا يؤثرونه على أمور دنياهم وإن أفضت إلى هلاكهم وحدهم دون الكافة فهذا عثمان لما حصر في الدار جاءه الحسن والحسين وعبد الله بن عمرو ابن جعفر وأمثالهم يريدون المدافعة عنه فأبى ومنع من سل السيوف بين المسلمين مخافة الفارقة وحفظا للألفة التي بها حفظ الكلمة ولو أدى إلى هلاكه وهذا على أشار عليه المغيرة لأول ولايته باستبقاء الزبير ومعاوية وطلحة على أعمالهم حتى يجتمع الناس على بيعته وتتفق الكلمة وله بعد ذلك ما شاء من أمره وكان ذلك من سياسة الملك فأبى فرار آمن الغش الذي ينافيه الاسلام وغدا عليه المغيرة من الغداة فقال لقد أشرت عليك بالأئمة ثم عدت إلى نظري فعمت أنه ليس من الحق والنصيحة وأن الحق فيما رأيته أنت فقال على لا والله بل أعلم أنك نصحتني بالأئمة وغششتني اليوم ولكن منعتني مما أشرت به زائد الحق وهكذا كانت أحوالهم في اصلاح دينهم بفساد دنياهم ونحن

نرفع دنيانا بتمزيق ديننا \* فلا ديننا يبقى ولا ما نرفع

فقد رأيت كيف صار الأمر إلى الملك وبقيت معاني الخلافة من تحرى الدين ومذاهبه والجرى على منهاج الحق ولم يظهر التغير إلا في الوازع الذي كان ديننا ثم انقلب عصبية وسيقا وهكذا كان الأمر لعهد معاوية ومروان وابنه عبد الملك والصدر الأول من خلفاء بني العباس إلى الرشيد وبعض ولده ثم ذهبت معاني الخلافة ولم يبق إلا اسمها وصار الأمر ملكا بحتا وجرت طبيعة التغلب إلى غايتها واستعملت في أغراضها من القهر والتغلب في الشهوات والملاذ وهكذا كان الأمر لولد عبد الملك ولما جاء بعد الرشيد من بني العباس واسم الخلافة باقيا فيهم لبقاء عصبية العرب والخلافة والملك في الطورين ملتبس بعضهما ببعض ثم ذهب رسم الخلافة وأثرها بذهاب عصبية العرب وفناء جيلهم وتلاشي أحوالهم وبقي الأمر ملكا بحتا كما كان الشأن في ملوك العجم بالمشرق يدينون بطاعة الخليفة تبركا والملك بجميع ألقابه ومناحيه لهم وليس للخليفة منه شيء وكذلك فعل ملوك زناتة بالمغرب مثل صنهاجة مع العبيدين ومغراوة وبني يفرن أيضا مع خلفاء بني أمية بالأندلس والعبيدين بالقيروان فقد تبين أن الخلافة قد وجدت بدون الملك أو لا ثم التبت معانيها واختلطت ثم انفرد الملك حيث افترقت عصبية من عصبية الخلافة والله مقدر الليل والنهار وهو الواحد القهار

اعلم أن البيعة هي العهد على الطاعة كائن المدايع يعاهد أميره على أنه يسلم له النظر في أمر نفسه وأموال المسلمين لا ينارعه في شيء من ذلك ويطيعه فيما يكلفه من الأمر على المنشط والمكروه وكانوا إذا بايعوا الأمير وعقدوا عهده جعلوا أيديهم في يده تأكيذا للعهد فأشبه ذلك فعل البائع والمشتري فسمى بيعة مصدر باع وصارت البيعة مصاحفة بالأيدي هذا مدلولها في عرف اللغة ومعهود الشرع وهو المراد في الحديث في بيعة النبي صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة وعند الشجرة وحيث أورد هذا اللفظ ومنه بيعة الخلفاء ومنه أيمان البيعة كائن الخلفاء يستخلفون على العهد ويستوعبون الأيمان كلها لذلك فسمى هذا الاستيعاب أيمان البيعة وكان الإكراه فيها أكثر وأغلب ولهذا لما أفتى مالك رضي الله عنه بسقوط يمين الإكراه أنكرها الولاية عليه ورأوها دحة في أيمان البيعة ووقع ما وقع من محنة الإمام رضي الله عنه وأما البيعة المشهورة لهذا العهد فهي تحية الملوك الكسروية من تقبيل الأرض أو اليد أو الرجل أو الذيل أطلق عليها اسم البيعة التي هي العهد على الطاعة مجازاً لما كان هذا الخضوع في التحية والتزام الآداب من لوازم الطاعة وتوابعها وغلب فيه حتى صارت حقيقة عرفية واستغنى بها عن مصاحفة أيدي الناس التي هي الحقيقة في الأصل لما في المصاحفة لكل أحد من التنزل والابتدال المنافين للرياسة وصون المنصب الملوكي إلا في الأقل ممن يقصد التواضع من الملوك فيأخذ به نفسه مع خواصه ومشاهير أهل الدين من رعيته فافهم معنى البيعة في العرف فانه أكيد على الإنسان معرفته لما يلزمه من حق سلطانه وإمامه ولا تكون أفعاله عبثاً ومجاناً واعتبر ذلك من أفعالك مع الملوك والله القوي العزيز

إعلم أن أقدمنا الكلام في الإمامة ومشروعيتها لما فيها من المصلحة وأن حقيقتها النظر في مصالح الأمة لدينهم وديارهم فهو وليهم والأئمة عليهم ينظر لهم ذلك في حياته وتبع ذلك أن ينظر لهم بعد مماته ويقوم لهم من يتولى أمورهم كما كان هو يتولاها ويتقون بنظرهم في ذلك كما وثقوا به فيما قبل وقد عرف ذلك من الشرع باجماع الأمة على جوازها وانعقادها إذ وقع بعهد أبي بكر رضي الله عنه لعمر بن الخطاب الصحابة وأجازوه وأوجبوا على أنفسهم طاعة عمر رضي الله عنه وعنهم وكذلك عهد عمر في الشوري إلى الستة بقية العشرة وجعل لهم أن يختاروا للمسلمين فقوض بعضهم إلى بعض حتى أفضى ذلك إلى عبد الرحمن بن عوف فاجتهدوا ناظر المسلمين فوجدوا متفقين على عثمان وعلى فآثر عثمان بالبيعة على ذلك لموافقته إياه على لزوم الاقتداء بالشيخين في كل ما يعين دون اجتهاده فانهقد أمر عثمان لذلك وأوجبوا طاعته والملازمة الصحابة حاضرون للأولى والثانية ولم ينكره أحد منهم فدل على أنهم متفقون على صحة هذا العهد عارفون بمشروعيته والاجماع حجة كما عرف ولايتهم الإمام في هذا الأمر وان عهد إلى أبيه أو ابنه لأنه مأمون على النظر لهم في حياته فأولى أن لا يحتمل فيها تبعة بعد مماته خلافاً لمن قال باتهامه في الولد والوالد أو لمن خصص

قوله البيعة بفتح الموحدة أما بكسرها على وزن شيعه بسكون الياء فهما معبد النصارى اهـ

التهمة بالولد دون الوالد فانه بعيد عن الظنة في ذلك كله لاسيما اذا كانت هناك داعية تدعو اليه من اثار مصلحة أو توقع مفسدة فتنتفي الظنة عند ذلك رأسا كما وقع في عهد معاوية لابنه يزيد وان كان فعل معاوية مع وفاق الناس له حجة في الباب والذي دعاه معاوية لا يثار ابنه يزيد بالعهد دون من سواه انما هو مراعاة المصلحة في اجتماع الناس واتفاق أهو أهم باتفاق أهل الحل والعقد عليه حينئذ من بنى أمية اذ بنو أمية يومئذ لا يرضون سواهم وهم عصابة قريش وأهل الملة أجمع وأهل الغلب منهم فأثره بذلك دون غيره ممن يظن أنه أولى بها وعدل عن الفاضل إلى المفضول حرصا على الاتفاق واجتماع الأهواء الذي شأنه أهم عند الشارع وإن كان لا يظن بمعاوية غير هذا فعدالته وتجنبته مانعة من سوى ذلك وحضور أكبر الصحابة لذلك وسكوتهم عنه دليل على انتفاء الريب فيه فليسوا ممن يأخذهم في الحق هو اداة وليس معاوية ممن تأخذ العزة في قبول الحق فانهم كلهم أجل من ذلك وعدالتهم مانعة منه وفرار عبدالله بن عمر من ذلك انما هو محمول على تورعه من الدخول في شيء من الأمور مباحا كان ومحظورا كما هو معروف عنه ولم يبق في الخالفة لهذا العهد الذي اتفق الجمهور الا ابن الزبير وندبوا المخالف معروف ثم أنه وقع مثل ذلك من بعد معاوية من الخلفاء الذين كانوا يتحرون الحق ويعملون به مثل عبدالله الملك وسليمان بن أمية والسفاح والمنصور والمهدي والرشيد من بني العباس وأمثالهم ممن عرفت عدالتهم وحسن رأيهم للمسلمين والنظر لهم ولا يعاب عليهم اثاراً بنائهم وإخوانهم وخروجهم عن سنن الخلفاء الأربعة في ذلك فشأنهم غير شأن أولئك الخلفاء فانهم كانوا على حين لم تحدث طبيعة الملك وكان الوازع دينيا فعند كل أحد وازع من نفسه فعهدوا إلى من يرتضيه الدين فقط وآثاروه على غيره ووكلوا كل من يسمو إلى ذلك إلى وازعه وأمان من بعدهم من لدن معاوية فكانت العصبية قد أشرفت على غايتها من الملك والوازع الديني قد ضعف واحتيج إلى الوازع السلطاني والعصبي فلوعهد إلى غير من يرتضيه العصبية لردت ذلك العهد وانتقض أمره سريعا وصارت الجماعة إلى الفرقة والاختلاف \* سأل رجل عليا رضي الله عنه ما بال المسلمين اختلفوا عليك ولم يختلفوا على أبابكر وعمر فقال لأن أبابكر وعمر كانا واليين على مثلتي وأنا اليوم وال على مثلك يشير إلى وازع الدين أفلا تري إلى المأمون لما عهد إلى علي بن موسى بن جعفر الصادق وسماه الرضا كيف أنكرت العباسية ذاك وتقضوا بيعته وبايعوا لعمه ابراهيم بن المهدي وظهر من المهرج والخلاف وانقطاع السبل وتعدد الثوار والخوارج ما كاد أن يسطم الأمر حتى بادر المأمون من خراسان إلى بغداد وورد أمرهم لمعاهده فلا بد من اعتبار ذلك في العهد فالعصور تختلف باختلاف ما يحدث فيها من الأمور والقبائل والعصبيات وتختلف باختلاف المصالح ولكل واحد منها حكم يخصه لطفامن الله بعباده وأما أن يكون القصد بالعهد حفظ التراث على الأبناء فليس من المقاصد الدينية اذ هو أمر من الله يخص به من يشاء من عباده ينبغي أن تحسن فيه النية ما أمكن خوفا من العبث بالمنصب الدينية والملك لله يؤتيه من يشاء \* وعرض هنا أمور تدعو الضرورة إلى بيان الحق فيها \* فالأول منها ما حدث في يزيد من الفسق أيام خلافته فإياك أن تظن بمعاوية رضي الله عنه أنه علم ذلك من يزيد فانه أعدل من ذلك



وأفضل بل كان يعذله أيام حياته في سماع الغناء وينهاه عنه وهو أقل من ذلك وكانت مذاهبهم فيه مختلفة ولما حدث في يزيد ما حدث من الفسق اختلف الصحابة حينئذ في شأنه فمنهم من رأى الخروج عليه ونقض بيعته من أجل ذلك كما فعل الحسين وعبد الله بن الزبير رضي الله عنهما ومن اتبعهما في ذلك ومنهم من أباه لما فيه من إثارة الفتنة وكثرة القتل مع العجز عن الوفاء به لأن شوكة يزيد يومئذ هي عصاة بني أمية وجمهور أهل الحل والعقد من قريش وتستتبع عصبية مضر أجمع وهي أعظم من كل شوكة ولا تطاق مقاومتهم فأقصر واعن يزيد بسبب ذلك وأقاموا على الدعاء بهدايته والراحة منه وهذا كان شأن جمهور المسلمين والكل مجتهدون ولا ينكر على أحد من الفريقين فقا صدم في البر وتحرق الحق معروفة وفقنا الله للاقتداء بهم والأمر الثاني هو شأن العهد من النبي صلى الله عليه وسلم وماتدعيه الشيعة من وصيته لعلي رضي الله عنه وهو أمر لم يصح ولا نقله أحد من أئمة النقل والذي وقع في الصحيح من طلب الدواة والقرطاس لكتب الوصية وأن عمر منع من ذلك فدليل واضح على أنه لم يقع وكذا قول عمر رضي الله عنه حين طعن وسئل في العهد فقال أن أعهد فقد عهد من هو خير مني يعني أبا بكر وأن أترك فقد ترك من هو خير مني يعني النبي صلى الله عليه وسلم يسألانه عن شأنهما في العهد فأبى علي من ذلك وقال أنه حين دعاه للدخول إلى النبي صلى الله عليه وسلم يسألانه عن شأنهما في العهد فأبى علي من ذلك وقال أنه ان منعنا منها فلانطمع فيها آخر الدهر وهذا دليل على أن عليا علم أنه لم يوص ولا عهد إلى أحد وشبهة الامامية في ذلك إنما هي كون الامامة من أركان الدين كما يزعمون وليس كذلك وإنما هي من المصالح العامة المفوضة إلى نظر الخلق ولو كانت من أركان الدين لكان شأنها شأن الصلاة ولكن يستخلف فيها كما استخلف أبا بكر في الصلاة وكان يشتهر كما شتهر أمر الصلاة واحتجاج الصحابة على خلافة أبي بكر بقياسها على الصلاة في قولهم ارتضاه رسول الله صلى الله عليه وسلم لدينا أفلا نرضاه لدينا دليل على أن الوصية لم تقع ويدل ذلك أيضا على أن أمر الامامة والعهد بهما لم يكن بهما كما هو اليوم/ وشأن العصبية المراعاة في الاجتماع والافتراق في مجاري العادة لم يكن يومئذ بذلك الاعتبار لأن أمر الدين والاسلام كان كله بخوارق العادة من تأليف القلوب عليه واستماتة الناس دونه وذلك من أجل الأحوال التي كانوا يشاهدونها في حضور الملائكة لنصرهم وتردد خبر السماء بينهم وتجدد خطاب الله في كل حادثة تتلى عليهم فلم يحتج إلى مراعاة العصبية لما شمل الناس من صبغة الانقياد والاذعان وما يستفزه من تتابع المعجزات الخارقة والأحوال الالهية الواقعة والملائكة المترددة التي وجعوا منهم ودهشوا من تتابعها فكان أمر الخلافة والملك والعهد والعصبية وسائر هذه الأنواع مندرجات في ذلك القبيل كما وقع فلما انحسر ذلك المدد بذهاب تلك المعجزات ثم ببناء القرون الذين شاهدوها فاستحالت تلك الصبغة قليلا قليلا وذهبت الخوارق وصار الحكم للعادة كما كان فاعتبر أمر العصبية ومجاري العوائد فيما ينشأ عنها من المصالح والمفاسد وأصبح الملك والخلافة والعهد بهما من المهمات الأكدية كما زعموا ولم يكن ذلك من قبل فانظر كيف كانت الخلافة لعهد النبي صلى الله عليه وسلم غير مهمة فلم يعهد فيها ثم تدرجت

الأهمية زمان الخلافة بعض الشيء بما دعت الضرورة اليه في الحماية والجهاد وشأن الردة والفتوحات فكانوا بالخيار في الفعل والترك كما ذكرنا عن عمر رضي الله عنه ثم صارت اليوم من أهم الأمور للآلفة على الحماية والقيام بالمصالح فاعتبرت فيها العصبية التي هي سر الوازع عن الفرقة والتخاذل ومنشأ الاجتماع والتوافق الكفيل بمقاصد الشريعة وأحكامها \* والأمر الثالث شأن الحروب الواقعة في الاسلام بين الصحابة والتابعين فاعلم أن اختلافهم إنما يقع في الأمور الدينية وينشأ عن الاجتهاد في الأدلة الصحيحة والمدارك المعتبرة والمجتهدون اذا اختلفوا فان قلنا أن الحق في المسائل الاجتهادية واحد من الطرفين ومن لم يصادفه فهو مخطيء فلن جهته لا تتعين باجماع فيبقى الكل على احتمال الاصابة ولا يتعين المخطيء منها والتأيم مدفوع عن الكل اجماعا وان قلنا أن الكل حق وأن كل مجتهد مصيب فأحرى بنفي الخطأ والتأيم وغاية الخلاف الذي بين الصحابة والتابعين أنه خلاف اجتهاد في مسائل دينية ظنية وهذا حكمه والذي وقع من ذلك في الاسلام إنما هو واقعة على مع معاوية ومعه الزبير وعائشة وطلحة وواقعة الحسين مع يزيد وواقعة ابن الزبير مع عبد الملك فأما واقعة على فان الناس كانوا عند مقتل عثمان مفترقين في الأمصار فلم يشهدوا بيعة على والذين شهدوا فمنهم من بايع ومنهم من توقف حتى يجتمع الناس ويتفقوا على إمام كسعد وسعيد وابن عمرو وأسامة بن زيد والغيرة بن شعبة وعبد الله بن سلام وقدامة بن مظعون وأبي سعيد الخدري وكعب بن عجرة وكعب بن مالك والنعمان بن بشير وحسان بن ثابت ومسلمة بن مخلد وفضالة بن عبيد وأمثالهم من أكابر الصحابة والذين كانوا في الأمصار عدلوا عن بيعته أيضا إلى الطلب بدم عثمان وتركوا الأمر فوضى حتى يكون شورى بين المسلمين لمن يولونه وظنوا بعلى هوادة في السكوت عن نصر عثمان من قتليه لافي الملائمة عليه فحاش لله من ذلك ولقد كان معاوية اذا صرح بعلامته إنما يوجهها عليه في سكوته فقط ثم اختلفوا بعد ذلك فرأى على أن يبعته قد انعقدت ولزمت من تأخر عنها باجتماع من اجتمع عليها بالمدينة دار النبي صلى الله عليه وسلم وموطن الصحابة وأرجأ الأمر في المطالبة بدم عثمان إلى اجتماع الناس واتفاق الكلمة فيتمكن حينئذ من ذلك ورأى الآخرون أن يبعته لم تنعقد لا فراق الصحابة أهل الحل والعقد بالآفاق ولم يحضر إلا قليل ولا تكون البيعة الا باتفاق أهل الحل والعقد ولا تلزم بعقد من تولاهم من غيرهم أو من القليل منهم وأن المسلمين حينئذ فوضى فيطالبون أو لا بدم عثمان ثم يجتمعون على امام وذهب إلى هذا معاوية وعمر بن العاص وأم المؤمنين عائشة والزبير وابنه عبد الله وطلحة وابنه محمد وسعد وسعيد والنعمان بن بشير ومعاوية ابن خديج ومن كان على رأيهم من الصحابة الذين تخلفوا عن بيعة على بالمدينة كما ذكرنا الآن أهل العصر الثاني من بعدهم اتفقوا على انعقاد البيعة على ولزومها للمسلمين أجمعين وتصويب رأيه فيما ذهب اليه وتعين الخطأ من جهة معاوية ومن كان على رأيه وخصوصا طلحة والزبير لا تتقاضهما على على بعد البيعة له فيما نقل مع دفع التأيم عن كل من الفريقين كالشأن في المجتهدين وصار ذلك اجماعا من أهل العصر الثاني على أحد قولي أهل العصر الأول كما هو معروف ولقد سئل على رضي الله عنه عن قتلى الجمل وصفين فقال والذي

نفسى بيده لا يموتن أحدهما هؤلاء وقلبه نقي الادخل الجنة يشير الى الفريقين ثقله الطبرى وغيره فلا يقعن عندك ريب فى عدالة أحدهم ولا قدح فى شئ من ذلك فهم من علمت وأقوالهم وأفعالهم إنما هى عن المستندات وعدالتهم مفروغ منها عند أهل السنة الا قولاً للمعزلة فيمن قاتل علياً لم يلتفت اليه أحد من أهل الحق ولا عرج عليه وإذا نظرت بعين الانصاف عذرت الناس أجمعين فى شأن الاختلاف فى عثمان واختلاف الصحابة من بعد وعلمت أنها كانت فتنة ابتلى الله بها الأمة بينا المسلمون قد أذهب الله عنهم وملكهم أرضهم وديارهم ونزلوا الأمصار على حدودهم بالبصرة والكوفة والشام ومصر وكان أكثر العرب الذين نزلوا هذه الأمصار جفاة لم يستكثروا من صحبة النبي صلى الله عليه وسلم ولا هذبهم سيرته وآدابه ولا رتاضوا بخلقه مع ما كان فيهم فى الجاهلية من الجفاء والعصية والتفاخر والبعد عن سكينة الايمان وإذابهم عند استفحال الدولة قد أصبحوا فى ملكة المهاجرين والأنصار من قريش وكنانة وثقيف وهذيل وأهل الحجاز ويثرب السابقين الأولين إلى الايمان فاستكفوا من ذلك وغصوبه لما يرون لأنفسهم من التقدم بأنسابهم وكثرتهم ومصادمة فارس والروم مثل قبائل بكر ابن وائل وعبد القيس بن ربيعة وقبائل كندة والازد من اليمن وتيم وقيس من مضر فصاروا إلى الغرض من قريش والأئمة عليهم والتمريض فى طاعتهم والتعلل فى ذلك بالتظلم منهم والاستعداد عليهم والطعن فيهم بالعجز عن السوية والعدول فى القسم عن التسوية وفشت المقالة بذلك وانتهت إلى المدينة وهم من علمت فأعظموه وأبلغوه عثمان فبعث إلى الأمصار من يكشف له الخبر بعث ابن عمر ومحمد ابن مسلمة وأسامة بن زيد وأمثالهم فلم ينكروا على الأمر شيئاً ولا رأوا عليهم طعنوا وأدوا ذلك كما علموه فلم يقطع الطعن من أهل الأمصار وما زالت الشناعات تنمو ورمى الوليد بن عقبة وهو على الكوفة بشرب الخمر وشهد عليه جماعة منهم وحده عثمان وعزله ثم جاء إلى المدينة من أهل الأمصار يسألون عزل العمال وشكوا إلى عائشة وعلى والزبير وطلحة وعزل لهم عثمان بعض العمال فلم تنقطع بذلك ألسنتهم بل وفد سعيد بن العاصى وهو على الكوفة فلما رجع اعترضوه بالطريق وردوه معزولاً ثم انتقل الخلاف بين عثمان ومن معه من الصحابة بالمدينة ونقموا عليه امتناعه عن العزل فأبى إلا أن يكون على جرحه ثم نقلوا النكير إلى غير ذلك من أفعاله هو متمسك بالاجتهاد وهم أيضاً كذلك ثم تجمع قوم من الغوغاء وجاءوا إلى المدينة يظهرن طلب النصفة من عثمان وهم يضمرون خلاف ذلك من قتله وفيهم من البصرة والكوفة ومصر وقام معهم فى ذلك على وعائشة والزبير وطلحة وغيرهم يحاولون تسكين الأمور ورجوع عثمان إلى رأيهم وعزل لهم عامل مصر فانصرفوا قليلاً ثم رجعوا وقد لبسوا بكتاب مدلس يزعمون أنهم لقوه فى يد حامله إلى عامل مصر بأن يقتلهم وحلف عثمان على ذلك فقالوا مكنامن مروان فانه كاتبك خلف مروان فقال عثمان ليس فى الحكم أكثر من هذا فحاصروه بداره ثم بيتوه على حين غفلة من الناس وقتلوه وانفتح باب الفتنة فلكل من هؤلاء عذر فيما وقع وكلهم كانوا مهتمين بأمر الدين ولا يضيعون شيئاً من تعلقاته ثم نظروا بعد هذا الواقع واجتهدوا والله



مطلع على أحوالهم وعالم بهم ونحن لا نظن بهم إلا خير لما شهدت به أحوالهم ومقالات الصادق فيهم وأما الحسين فإنه لما ظهر فسق يزيد عند الكافة من أهل عصره بعثت شيعة أهل البيت بالكوفة للحسين أن يأتيهم فيقوموا بأمره فرأى الحسين أن الخروج على يزيد متعين من أجل فسقه لاسيما من له القدرة على ذلك وظنها من نفسه بأهليته وشوكته فأما الأهلية فكانت كما ظن وزيادة وأما الشوكة فغلط رحمه الله فيها لأن عصبية مضر كانت في قريش وعصبية قريش في عبد مناف وعصبية عبد مناف إنما كانت في أمية تعرف ذلك لهم قريش وسائر الناس ولا ينكرونه وإنما نسي ذلك أول الإسلام لما شغل الناس من الدهول بالحوارق وأمر الوحي وتردد الملائكة لنصرة المسلمين فأغفلوا أمور عوائدهم ودهبت عصبية الجاهلية ومنازعها ونسيت ولم يبق إلا العصبية الطبيعية في الحماية والدفاع ينتفع بها في إقامة الدين وجهاد المشركين الذين فيها محكم والعادة معزولة حتى إذا انقطع أمر النبوة والحوارق المهولة تراجع الحكم بعض الشيء للعوائد فعادت العصبية كما كانت ولما كانت وأصبحت مضر أطوع لبني أمية من سواهم بما كان لهم من ذلك قبل (فقد) تبين لك غلط الحسين لأنه في أمر دينوي لا يضره الغلط فيه وأما الحكم الشرعي فلم يغلط فيه لأنه منوط بظنه وكان ظنه القدرة على ذلك ولقد عدله ابن عباس وابن الزبير وابن عمرو وابن الحنفية أخوه وغيره في مسيره إلى الكوفة وعلماوا غلظه في ذلك ولم يرجع عما هو بسبيله لما أراه الله وأما غير الحسين من الصحابة الذين كانوا بالحجاز ومع يزيد بالشام والعراق ومن التابعين لهم فرأوا أن الخروج على يزيد وإن كان فاسقا لا يجوز لما ينشأ عنه من المهرج والدماء فاقصروا عن ذلك ولم يتابعوا الحسين ولا أنكروا عليه ولا أئموه لأنه مجتهد وهو أسوة المجتهدين ولا يذهب بك الغلط أن تقول بتأيم هؤلاء بمخالفة الحسين وقعودهم عن نصرته فاتهم أكثر الصحابة وكانوا مع يزيد ولم يروا الخروج عليه وكان الحسين يستشهد بهم وهو يقاتل بكر بلاء على فضله وحقه ويقول سلوا جابر بن عبد الله وأبا سعيد الخدري وأنس بن مالك وسهل بن سعد وزيد بن أرقم وأمثالهم ولم ينكر عليهم قعودهم عن نصرته ولا تعرض لذلك لعلمه أنه عن اجتهاد منهم كما كان فعله عن اجتهاد منه وكذلك لا يذهب بك الغلط أن تقول بتصويب قتله لما كان عن اجتهاد وإن كان هو على اجتهاد ويكون ذلك كما يجد الشافعي والمالكي الحنفى على شرب النبيذ واعلم أن الأمر ليس كذلك وقتاله لم يكن عن اجتهاد هؤلاء وإن كان خلافه عن اجتهادهم وإنما انفرد بقتاله يزيد وأصحابه ولا تقول إن يزيد وإن كان فاسقا ولم يجز هؤلاء الخروج عليه فأفعاله عندهم صحيحة واعلم أنه إنما ينفذ من أعمال الفاسق ما كان مشروعا وقتال البغاة عندهم من شرطه أن يكون مع الإمام العادل وهو مفقود في مسئلتنا فلا يجوز قتال الحسين مع يزيد ولا يزيد بل هي من فعلاته المؤكدة لفسقه والحسين فيها شهيد مثاب وهو على حق واجتهاد والصحابة الذين كانوا مع يزيد على حق أيضا واجتهاد وقد غلط القاضي أبو بكر بن العربي المالكي في هذا فقال في كتابه الذي سماه بالعواصم والقواصم ما معناه أن الحسين قتل بشرع جده وهو غلط حملته عليه غفلة عن اشتراط الإمام العادل ومن أعدل من الحسين في زمانه في امامته وعدالته في

قتال أهل الآراء وأما ابن الزبير فإنه رأى في قيامه مارآه الحسين وظن كما ظن وغلظه في أمر الشوكة أعظم لأن بني أسد لا يقاومون بني أمية في جاهلية ولا اسلام والقول بتعين الخطأ في جهة مخالفة كما كان في جهة معاوية مع علي لا سبيل لأن الاجماع هنالك قضى لنا به ولم نجد ههنا وأما يزيد فعين خطاه فسقه وعبد الملك صاحب ابن الزبير أعظم الناس عدالة وناهيك بعدالته احتجاج مالك بفعله وعدول ابن عباس وابن عمر إلى بيعته عن ابن الزبير وهم معه بالحجاز مع أن الكثير من الصحابة كانوا يرون أن بيعه ابن الزبير لم تنعقد لأنه لم يحضرها أهل العقد والحل كيعة مروان وابن الزبير على خلاف ذلك والكل مجتهدون محمولون على الحق في الظاهر وان لم يتعين في جهة منها والقتل الذي زل به بعد تقرير ما قررناه يحجى على قواعد الفقه وقوانينه مع أنه شهيد مثاب باعتبار قصده وتحريره الحق هذا هو الذي ينبغي أن تحمل عليه أفعال السلف من الصحابة والتابعين فهم خيار الأمة وإذا جعلناهم عرضة للقدح فمن الذي يختص بالعدالة والنبي صلى الله عليه وسلم يقول خير الناس قرني ثم الذين يلونهم مرتين أو ثلاثاً ثم يفشو الكذب فجعل الخيرة وهي العدالة مختصة بالقرن الأول والذي يليه فإياك أن تعود نفسك أو لسانك التعرض لأحد منهم ولا تشوش قلبك بالريب في شيء مما وقع منهم والتمس لهم مذاهب الحق وطرقه ما استطعت فهم أولى الناس بذلك وما اختلفوا إلا عن بينة وما قاتلوا أو قتلوا إلا في سبيل جهاد أو إظهار حق واعتقد مع ذلك أن إختلافهم رحمة لمن بعدهم من الأمة ليقصدى كل واحد بمن يختار منهم ويجعله امامه وهاديه ودليله فافهم ذلك وتبين حكمة الله في خلقه وأكوانه واعلم أنه على كل شيء قدير واليه الملجأ والمصير والله تعالى أعلم

لما تبين أن حقيقة الخلافة نيابة عن صاحب الشرع في حفظ الدين وسياسة الدنيا فصاحب الشرع متصرف في الأمرين أما في الدين فبمقتضى التكليف الشرعية الذي هو مأمور بتبليغها وحمل الناس عليها وأما سياسة الدنيا فبمقتضى رعايته لمصالحهم في العمران البشرية وقد قدمنا أن هذا العمران ضروري للبشر وأن رعاية مصالحه كذلك لئلا يفسدان أهملت وقد قدمنا أن الملك وسطوته كاف في حصول هذه المصالح نعم إنما تكون أكل إذا كانت بالأحكام الشرعية لأنه أعلم بهذه المصالح فقد صار الملك يندرج تحت الخلافة إذا كان إسلامياً ويكون من توابعها وقد ينفرد إذا كان في غير الملة وله على كل حال مراتب خادمة ووظائف تابعة تتعين خططا وتوزع على رجال الدولة ووظائف فيقوم كل واحد بوظيفته حسبما يعينه الملك الذي تكون يده عالية عليهم فيتم بذلك أمره ويحسن قيامه بسلطانه وأما المنصب الخلافي وإن كان الملك يندرج تحته بهذا الاعتبار الذي ذكرناه فتصرفه الديني يختص بخطط ومراتب لا تعرف إلا للخلفاء الاسلاميين فلنذكر الآن الخطط الدينية المختصة بالخلافة ونرجع إلى الخطط الملوكية السلطانية فاعلم أن الخطط الدينية الشرعية من الصلاة والفتيا والقضاء والجهاد والحسبة كلها

مندرجة تحت الامامة الكبرى التي هي الخلافة فكأنها الامام الكبير والاصل الجامع وهذه كلها متفرعة عنها وداخله فيها العموم نظر الخلافة وتصرفها في سائر أحوال الملة الدينية والدنيوية وتنفيذ أحكام الشرع فيها على العموم فأما إمامة الصلاة فهي أرفع هذه الخطط كلها وأرفع من الملك بخصوصه المندرج معها تحت الخلافة ولقد يشهد لذلك استدلال الصحابة في شأن أبي بكر رضي الله عنه باستخلافه في الصلاة على استخلافه في السياسة في قولهم ارتضاه رسول الله صلى الله عليه وسلم لدينا أفلا نرضاه لدينا فلو أن الصلاة أرفع من السياسة لما صح القياس وإذا ثبت ذلك فاعلم أن المساجد في المدينة صنفان مساجد عظيمة كثيرة الغاشية معدة للصلوات المشهودة وأخرى دونها مختصة بقوم أو محلة وليست للصلوات العامة فأما المساجد العظيمة فأمرها راجع إلى الخليفة أو من يفوض إليه من سلطان أو وزير أو قاض فينصب لها الامام في الصلوات الخمس والجمعة والعيد والحسوفين والاستسقاء وتعين ذلك هو إنما من طريق الأولى والاستحسان ولثلايفات الرعايا عليه في شيء من النظر في المصالح العامة وقد يقول بالوجوب في ذلك من يقول بوجوب إقامة الجمعة فيكون نصب الامام لها عنده واجبا \* وأما المساجد المختصة بقوم أو محلة فأمرها راجع إلى الجيران ولا تحتاج إلى نظر خليفة ولا سلطان وأحكام هذه الولاية وشروطها والمولى فيها معروف في كتب الفقه ومبسوطة في كتب الأحكام السلطانية لما ورد في غيره فلا نطول بذكرها ولقد كان الخلفاء الأولون لا يقلدونهم الغير من الناس وانظر من طعن من الخلفاء في المسجد عند الأذان بالصلاة وترصدهم لذلك في أوقاتها يشهد ذلك بما شرتهم لها وإنهم لم يكونوا يستخلفون فيها وكذا كان رجال الدولة الأموية من بعدم استئثارها واستعظاما لرتبتها يحكي عن عبد الملك أنه قال الحاجة قد جعلت لك حجابة باني إلا عن ثلاثة صاحب الطعام فإنه يفسد بالتأخير والأذان بالصلاة فإنه داع إلى الله والبريد فإن في تأخير فساد القاصية فما جاءت طبيعة الملك وعوارضه من الغلظة والترفع عن مساواة الناس في دينهم ودنياهم استنابوا في الصلاة فكانوا يستأثرون بها في الأحياء وفي الصلوات العامة كالعديدين والجمعة أشادة وتوابعها فعل ذلك كثير من خلفاء بني العباس والعبيدين صدر دولتهم وأما الفتيا فللخليفة تفحص أهل العلم والتدريس ورد الفتيا إلى من هو أهل لها وإعانتة على ذلك ومنع من ليس أهلها وزجره لأنهم من مصالح المسلمين في أديانهم فتجب عليه مراعاتها لئلا يتعرض لذلك من ليس له بأهل فيفضل الناس وللمدرس الانتصاب لتعليم العلم وبثه والجلوس لذلك في المساجد فإن كانت من المساجد العظام التي للسلطان الولاية عليها والنظر في أئمتها كما مر فلا بد من استئذانه في ذلك وإن كانت من مساجد العامة فلا يتوقف ذلك على إذن على أنه ينبغي أن يكون لكل أحد من المفتين والمدرسين زاجر من نفسه يمنع عن التصدي لما ليس له بأهل فيسدل به المستهدى ويضل به المسترشد وفي الأثر أجرؤ كم على الفتيا أجرؤ كم على جرائم جهنم فالسلطان فيهم لذلك من النظر ما توجه المصلحة من إجازة أو رد \* وأما القضاء فهو من الوظائف الداخلة تحت الخلافة لانه منصب الفصل بين الناس في الخصومات حسبما للتداعي وقطعا للتنازع إلا أنه بالأحكام الشرعية المتلقاة من الكتاب والسنة فكان



لذلك من وظائف الخلافة ومندرجا في عمومها وكان الخلفاء في صدر الاسلام يباشرونه بانفسهم ولا يجعلون القضاء إلى من سواهم وأول من دفعه إلى أميره وفوضه فيه عمر رضي الله عنه فولى أبا الدرداء معه بالمدينة وولى شريحا بالبصرة وولى أبا موسى الأشعري بالكوفة وكتب له في ذلك الكتاب المشهور الذي تدور عليه أحكام القضاة وهي مستوفاة فيه يقول (أما بعد) فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة فافهم إذا أدى إليك فانه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذه وآس بين الناس في وجهك ومجلسك وعدلك حتى لا يطمع شريف في حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك البيضة على من ادعى واليمين على من أنكر والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحا أحل حراما أو حرم حلالا ولا يمنعك قضاء قضيته أمس فراجعت اليوم فيه عقلك وهديت فيه لرشدك أن ترجع إلى الحق فإن الحق قديم ومراجعة الحق خير من التبادي في الباطل الفهم الفهم فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة ثم اعراف الأئمة والأشياء وقس الأمور بنظائرها واجعل لمن ادعى حقا غائبا أو يئنه أمدينتهى إليه فإن أحضر بينته أخذت له بحقه والا استحللت القضية عليه فان ذلك أتق للشك وأجلى للعلماء المسلمون عدول بعضهم على بعض المجاودا في حد أو مجر باعليه شهادة زور أو ظنينا في نسب أو ولاء فإن الله سبحانه عفا عن الإيمان وذر أبا لينات وإياك والقلق والضجر والتأفف بالخصوم فان استقرار الحق في مواطن الحق يعظم الله به الأجر ويحسن به الذكر والسلام انتهى كتاب عمر وإنما كانوا يقلدون القضاء لغيرهم وإن كان مما يتعلق بهم لقيامهم بالسياسة العامة وكثرة أشغالها من الجهاد والفتوحات وسد الثغور وحماية البيضة ولم يكن ذلك مما يقوم به غيرهم لعظم العناية فاستحقوا القضاء في الوقعات بين الناس واستخلفوا فيه من يقوم به تخفيفا على أنفسهم وكانوا مع ذلك إنما يقلدونه أهل عصبيتهم بالنسب أو الولاء ولا يقلدونه لمن بعد عنهم في ذلك وأما أحكام هذا المنصب وشروطه فمعروفة في كتب الفقه وخصوصا كتب الأحكام السلطانية إلا أن القاضي إنما كان له في عصر الخلفاء الفصل بين الخصوم فقط ثم دفع لهم بعد ذلك أمور أخرى على التدرج بحسب اشتغال الخلفاء والملوك بالسياسة الكبرى واستقر منصب القضاء آخر الأمر على أنه يجمع مع الفصل بين الخصوم إستيفاء بعض الحقوق العامة للمسلمين بالنظر في أموال المحجور عليهم من المجانين واليتامى والفلسين وأهل السفه وفي وصايا المسلمين وأوقافهم وتزويج الأيتام عند فقد الأولياء على رأى من رآه والنظر في مصالح الطرقات والأبنية وتصفح الشهود والأمناء والنواب واستيفاء العلم والخبرة فيهم بالعدالة والجرج ليصل له الوثوق بهم وصارت هذه كلها من تعلقات وظيفته وتوابع ولايته وقد كان الخلفاء من قبل يجعلون للقاضي النظر في المظالم وهي وظيفة ممتزجة من سطوة السلطنة ونصفه القضاء وتحتاج إلى علو يد وعظيم رهبة تقمع الظالم من الخصمين وتزجر المتعدى وكأنه يعضى معجز القضاة أو غيرهم عن امضائه ويكون نظره في البيئات والتقارير واعتماد الأمارات والقرائن وتأخير الحكم إلى استجلاء الحق وحمل الخصمين على الصلح واستخلاف الشهود وذلك أوسع من نظر القاضي \* وكان الخلفاء الأولون يباشرونها بأنفسهم إلى أيام المهتدي من بني العباس

وربما كانوا يجعلونها لقضائهم كما فعل عمر رضي الله عنه مع قاضيه أبي ادريس الخولاني وكما فعله المأمون ليحيى بن أكرم والمعتصم لأحمد بن أبي دواد وربما كانوا يجعلون للقاضي قيادة الجهاد في عساكر الطوائف وكان يحيى بن أكرم يخرج أيام المأمون بالطائفة إلى أرض الروم وكذا منذر ابن سعيد قاضي عبد الرحمن الناصر من بني أمية بالأندلس فكانت تولية هذه الوظائف انما تكون للخلفاء أو من يجعلون ذلك له من وزير مفوض أو سلطان متغلب وكان أيضا النظر في الجرائم وإقامة الحدود في الدولة العباسية والأموية بالأندلس والعبيدين بمصر والغرب راجعا إلى صاحب الشرطة وهي وظيفة أخرى دينية كانت من الوظائف الشرعية في تلك الدول توسع النظر فيها عن أحكام القضاء قليلا فيجعل التهمة في الحكم مجالا ويفرد العقوبات الزاجرة قبل ثبوت الجرائم ويقيم الحدود الثابتة في عالها ويحكم في القود والقصاص ويقيم التعزير والتأديب في حق من لم ينته عن الجريمة ثم تنوسى شأن هاتين الوظيفتين في الدول التي تنوسى فيها أمر الخلافة فصار أمر المظالم راجعا إلى السلطان كان له تفويض من الخليفة أو لم يكن وانقسمت وظيفة الشرطة قسمين منها وظيفة التهمة على الجرائم وإقامة حدودها ومباشرة القطع والقصاص حيث يتعين ونصب لذلك في هذه الدول حاكم يحكم فيها بموجب السياسة دون مراعاة الأحكام الشرعية ويسمى تارة باسم والي وتارة باسم الشرطة وبقى قسم التعازير وإقامة الحدود في الجرائم الثابتة شرعا جتمع ذلك للقاضي مع ما تقدم وصار ذلك من توابع وظيفته وولايته واستقر الأمر لهذا العهد على ذلك وخرجت هذه الوظيفة عن أهل عصبية الدولة لأن الأمر لما كان خلافة دينية وهذه الخطئة من مراسم الدين فكانوا لا يولون فيها إلا من أهل عصبيتهم من العرب ومواليهم بالخلف أو بالرق أو بالاصطناع ممن يوثق بكفايته أو غناؤه فيما يدفع إليه \* ولما انقرض شأن الخلافة وطورها وصار الأمر كله ملكا أو سلطانا صارت هذه الخطط الدينية بعيدة عنه بعض الشيء لأنها ليست من ألقاب الملك ولا مراسمه ثم خرج الأمر جملة من العرب وصار الملك لسواهم من أم الترك والبربر فازدادت هذه الخطط الخلافية بعد عنهم بمنحاهما وعصبيتها وذلك أن العرب كانوا يرون أن الشريعة دينهم وأن النبي صلى الله عليه وسلم منهم وأحكامه وشرائعه نحلتهم بين الأئمة وطريقهم وغيرهم لا يرون ذلك إنما يولونها جانباً من التعظيم لما كانوا بالملّة فقط فصاروا يقلدونها من غير عصبائهم ممن كان تأهل لها في دول الخلفاء السالفة وكان أولئك المتأهلون لما أخذهم ترف الدول مندمئين من سنين قد نسوا عهد البداوة وخشوتها والتبسوا بالحضارة في عوائد ترفهم ودعتهم وقلة الممانعة عن أنفسهم وصارت هذه الخطط في الدول الملوكية من بعد الخلفاء مختصة بهذا الصنف من المستضعفين في أهل الأمصار ونزل أهلها عن مراتب العز لفقدهم الأهلية بأنسابهم وما هم عليه من الحضارة فلحقهم من الاحتقار ما لحق الحضرة المنغمسين في الترف والدعة البعداء عن عصبية الملك الذين هم عيال على الحامية وصار اعتبارهم في الدولة من أجل قيامها بالملّة وأخذها بأحكام الشريعة لما أنهم الحاملون للأحكام المقتدون بها ولم يكن إثارهم في الدولة حينئذ كرامالندواتهم وانما هو لما يتلمح من التجمل بمكانهم في مجالس الملك لتعظيم الرتب الشرعية

ولم يكن لهم فيها من الحل والعقد شيء وإن حضروه فحضور رسمي لاحقيقة وراءه اذ حقيقة الحل والعقد إنما هي لأهل القدرة عليه فمن لا قدرة له عليه فلا حل له ولا عقد لديه اللهم الأخذ الأحكام الشرعية عنهم وتلقى الفتاوى منهم فنعيم والله الموفق وربما يظن بعض الناس أن الحق فيما وراء ذلك وإن فعل الملوك فيما فعلوه من اخراج الفقهاء والقضاة من الشورى رجوع وقد قال صلى الله عليه وسلم العلماء ورثة الأنبياء فاعلم أن ذلك ليس كما ظنه وحكم الملك والسلطان إنما يجري على ما تقتضيه طبيعة العمران والا كان بعيدا عن السياسة فطبيعة العمران في هؤلاء لا تقضى لهم شيئا من ذلك لأن الشورى والحل والعقد لا تكون إلا لصاحب عصبية يقتدر بها على حل أو عقد أو فعل أو ترك وأما من لا عصبية له ولا يملك من أمر نفسه شيئا ولا من حمايتها وإنما هو عيال على غيره فأى مدخل له في الشورى أو أى معنى يدعو إلى اعتباره فيها اللهم الأشوراه فيما يعلمه من الأحكام الشرعية فوجوده في الاستفتاء خاصة وأما شوراه في السياسة فهو بعيد عنها لفقدانه العصبية والقيام على معرفة أحوالها وأحكامها وإنما أكرامهم من تبرعات الملوك والأمراء الشاهدة لهم بحميل الاعتقاد في الدين وتعظيم من ينتسب إليه بأى جهة انتسب وأما قوله صلى الله عليه وسلم العلماء ورثة الأنبياء فاعلم أن الفقهاء في الأغلب لهذا العهد وما احتف به إنما حملوا الشريعة أقوالا في كيفية الأعمال في العبادات وكيفية القضاء في المعاملات ينصونها على من يحتاج إلى العمل بها هذه غاية أكابرهم ولا يتصفون إلا بالآقل منها وفي بعض الأحوال والسلف رضوان الله عليهم وأهل الدين والورع من المسلمين حملوا الشريعة اتصافا بها وتحققا بآدابها فمن حملها اتصافا وتحققا دون نقل فهو من الوارثين مثل أهل رسالة القشيري ومن اجتمع له الأمران فهو العالم وهو الوارث على الحقيقة مثل فقهاء التابعين والسلف والأئمة الأربعة ومن اقتنى طريقهم وجاء على أثرهم وإذا انفرد واحد من الأئمة بأحد الأمرين فالعابد أحق بالورثة من الفقيه الذى ليس بعابد لأن العابد ورث صفة والفقيه الذى ليس يعابد لم يرث شيئا إنما هو صاحب أقوال ينصها علينا في كيفية العمل وهؤلاء أكثر فقهاء عصرنا إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل مام

﴿العدالة﴾ وهى وظيفة دينية تابعة للقضاء ومن مواد تصريفه وحقيقة هذه الوظيفة القيام عن اذن القاضى بالشهادة بين الناس فيما لهم وعليهم تحملا عند الاشهاد وأداء عند التنازع وكتبا في السجلات تحفظ به حقوق الناس وأملاهم وديونهم وسائر معاملاتهم وشرط هذه الوظيفة الاتصاف بالعدالة الشرعية والبراءة من الجرح ثم القيام بكتب السجلات والعقود من جهة عباراتها وانتظام فصولها ومن جهة أحكام شروطها الشرعية وعقودها فيحتاج حينئذ إلى ما يتعلق بذلك من الفقه ولاجل هذه الشروط وما يحتاج اليه من المراتن ( ١ ) على ذلك والممارسة له اختص ذلك ببعض العدول وصار الصنف القائمون به كأنهم يختصون بالعدالة وليس كذلك وإنما العدالة من شروط اختصاصهم بالوظيفة ويجب على القاضى تصفح أحوالهم والكشف عن سيرهم رعاية لشرط العدالة فيهم وأن لا يهمل ذلك لما يتعين

(١) قوله المراتن في كتب اللغة مرن على الشيء مدونا ومرونة ومرانة تعودده وأستمر عليه اه



عليه من حفظ حقوق الناس فالعهدة عليه في ذلك كله وهو ضامن دركه واذ اتعين هؤلاء لهذه الوظيفة عمت الفائدة في تعيين من تخفى عدالته على القضاة بسبب اتساع الأمصار واشتباه الأحوال واضطرار القضاة إلى الفصل بين المتنازعين بالبينات الموثوقة فيقولون غالباً في الوثوق بها على هذا الصنف ولهم في سائر الأمصار دكاكين ومصاطب يختصون بالجلوس عليها فيتعاهد بهم أصحاب المعاملات للشهاد وتقييده بالكتاب وصار مدلول هذه اللفظة مشتركة بين هذه الوظيفة التي تبين مدلولها وبين العدالة الشرعية التي هي أخت الجرح وقد يتواردان ويفترقان والله تعالى أعلم ﴿ الحسبة والسكة ﴾ أما الحسبة فهي وظيفة دينية من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي هو فرض على القائم بأمور المسلمين يعين لذلك من يراه أهلاً له فيتعين فرضه عليه ويتخذ الأعداء على ذلك ويبحث عن المنكرات ويعزز ويؤدب على قدرها ويحمل الناس على المصالح العامة في المدينة مثل المنع من المضايقة في الطرقات ومنع الجمالين وأهل السهول من الاكثار في الحمل والحكم على أهل المباني المتداعية للسقوط بهدمها وإزالة ما يتوقع من ضررها على السابلة والضرب على أيدي المعلمين في المسكاتب وغيرها في الإبلاغ في ضربهم للصبيان المتعلمين ولا يتوقف حكمه على تنازع أو استعداد بل له النظر والحكم فيما يصل إلى علمه من ذلك ويرفع إليه وليس له امضاء الحكم في الدعاوى مطلقاً بل فيما يتعلق بالغش والتدليس في المعاش وغيرها وفي السكاكيل والموازين وله أيضاً حمل الماطلين على الانصاف وأمنال ذلك مما ليس فيه سماع بينة ولا إنفاذ حكم وكأنها أحكام يره القاضى عنها العموم وسهولة أغراضها فتدفع إلى صاحب هذه الوظيفة ليقوم بها فوضعها على ذلك أن تكون خادمة لمنصب القضاء وقد كانت في كثير من الدول الإسلامية مثل العبيدين بمصر والمغرب والأمويين بالأندلس داخلية في عموم ولاية القاضى يولى فيها اختياره ثم ما انفردت وظيفة السلطان عن الخلافة وصار نظره عاماً في أمور السياسة اندرجت في وظائف الملك وأفردت بالولاية ﴿ وأما السكة ﴾ فهي النظر بالنقود المتعامل بها بين الناس وحفظها مما يداخلها من الغش أو النقص إن كان يتعامل بها عدداً أو ما يتعلق بذلك ويوصل إليه من جميع الاعتبارات ثم في وضع علامة السلطان على تلك النقود بالاستجادة والخلوص برسم تلك العلامة فيها من خاتم حديد اتخذ لذلك ونقش فيه نقوش خاصة به فيوضع على الدينار بعد أن يقدر ويضرب عليه بالمطرقة حتى ترسم فيه تلك النقوش وتكون علامة على جودته بحسب الغاية التي وقف عندها السبك والتخليص في متعارف أهل القطر ومذاهب الدولة الحاكمة فإن السبك والتخليص في النقود لا يقف عند غاية وإنما ترجع غايته إلى الاجتهاد فإذا وقف أهل أفق أو قطر على غاية من التخليص وقفوا عندها وسموها إماماً وعبارة يعتبرون به نقودهم وينتقدونها بمماثلته فإن نقص عن ذلك كان زيفاً والنظر في ذلك كله لصاحب هذه الوظيفة وهي دينية بهذا الاعتبار فتندرج تحت الخلافة وقد كانت تندرج في عموم ولاية القاضى ثم أفردت لهذا العهد كما وقع في الحسبة هذا آخر الكلام في الوظائف الخلافية وبقيت منها وظائف ذهبت بذهاب ما ينظر فيه وأخرى صارت سلطانية فوظيفة الامارة والوزارة والحرب والخراج صارت

تكلم عليها سلطانية في أما كتبها بعد وظيفة الجهاد ووظيفة الجهاد بطلت بطلانه إلا في قليل من الدول  
يعارسونه ويدرجون أحكامه غالبا في السلطانيات وكذا نقابة الأتساب التي يتوصل بها إلى الخلافة أو  
الحق في بيت المال قد بطلت لدثور الخلافة ورسومها وبالجملة قد اندرجت رسوم وظائفها في رسوم  
الملك والسياسة في سائر الدول لهذا العهد والله مصرف الأمور كيف يشاء

### ٣٣ فصل في اللقب بأمر المؤمنين وأنه من سمة الخلافة وهو محدث منذ عهد الخلفاء

وذلك أنه لما بويع أبو بكر رضي الله عنه كان الصحابة رضي الله عنهم وسائر المسلمين يسمونه خليفة  
رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يزل الأمر على ذلك إلى أن هلك فلما بويع لعمر بعده إليه كانوا يدعونه  
خليفة خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانهم استتقلوا هذا اللقب بكثرة وطول إضافته وأنه يتزايد  
فيما بعد دائما إلى أن ينتهي إلى الهجنة ويذهب منه التميز بتعدد الإضافات وكثرتها فلا يعرف فكانوا  
يعدلون عن هذا اللقب إلى ماسواه مما يناسبه ويدعى به مثله وكانوا يسمون قواد البعوث باسم الأمير  
وهو فعيل من الأماره وقد كان الجاهلية يدعون النبي صلى الله عليه وسلم أمير مكة وأمير الحجاز وكان  
الصحابة أيضا يدعون سعد بن أبي وقاص أمير المؤمنين لآمارته على جيش القادسية وهم معظم المسلمين يومئذ  
وانفق أن دعا بعض الصحابة عمر رضي الله عنه بأمر المؤمنين فاستحسنه الناس واستصوبوه ودعوه به  
يقال أن أول من دعاه بذلك عبد الله بن جحش وقيل عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة وقيل يريد جاء  
بافتح من بعض البعوث ودخل المدينة وهو يسأل عن عمر يقول أين أمير المؤمنين وسمعا أصحابه  
فاستحسنوه وقالوا أصبث والله اسمه انه والله أمير المؤمنين حقا فدعوه بذلك وذهب لقباله في الناس  
وتوارثه الخلفاء من بعده سمة لا يشار كهم فيها أحد سائر دولة بني أمية ثم إن الشيعة خصوا عليه باسم  
الامام نعتاله بالامامة التي هي أخت الخلافة وتعرف أيضا بذهبهم في أنه أحق بالامامة الصلاة من أبي بكر لما هو  
مذهبهم وبدعتهم فخصوه بهذا القلب ولمن يسوقون إليه منصب الخلافة من بعده فكانوا كلهم يسمون  
بالامام ماداموا يدعون لهم في الخفاء حتى إذا استولوا على الدولة يحولون القلب فيمن بعده إلى أمير المؤمنين  
كما فعله شيعة بني العباس فانهم مازالوا يدعون أئمتهم بالامام إلى إبراهيم الذي جهروا بالدعاء له وعقدوا  
الرايات للحرب على أمره فلما هلك دعى أخوه السفاح بأمر المؤمنين وكذا الرافضة بأفريقية فانهم مازالوا  
يدعون أئمتهم من ولد إسماعيل بالامام حتى انتهى الأمر إلى عبيد الله المهدي وكانوا أيضا يدعونه بالامام  
ولابنه أبي القاسم من بعده فلما استوثق لهم الأمر دعوا من بعدهما بأمر المؤمنين وكذا الأدارسة بالمغرب  
كانوا يلقبون إدريس بالامام وابنه إدريس الأصغر كذلك وهكذا شأنهم وتوارث الخلفاء هذا  
اللقب بأمر المؤمنين وجعلوه سمة لمن يملك الحجاز والشام والعراق الموطن التي هي ديار العرب ومراكز  
الدولة وأهل الملة والفتح وازداد لذلك في عنقوان الدولة وبذخ القلب آخر للخلفاء يتميز به بعضهم عن  
بعض لما في أمير من الاشتراك بينهم فاستحدث ذلك بنو العباس حجابا لأسمائهم الأعلام عن امتنانها في

ألسنة السوقه وصونا لها عن الابتدال فتلقبوا بالسفاح والمنصور والمهدي والهادي والرشيد إلى آخر الدولة واقتنى أثرهم في ذلك العبيديون بأفريقية ومصر وتجاو بنو أمية عن ذلك بالمشرق قبلهم مع الغضاضة والسداجة لان العروبية ومنازعاتهم تفارقهم حينئذ ولم يتحول عنهم شعار البداوة إلى شعار الحضارة وأما بالاندلس فتلقبوا أكسلفهم مع ما علموه من أنفسهم من القصور عن ذلك بالقصور عن ملك الحجاز أصل العرب والملة والبعد عن دار الخلافة التي هي مركز العصية وأنهم انما منعوا بامارة القاصية أنفسهم من مهالك بني العباس حتى اذا جاء عبد الرحمن الداخل الآخر منهم وهو الناصر بن محمد بن الأمير عبد الله ابن محمد بن عبد الرحمن الأوسط أول المائة الرابعة واشتهر ما نال الخلافة بالمشرق من الحجز واستبداد الموالي وعيشتهم في الخلفاء بالعزل والاستبدال والقتل والسمل ذهب عبد الرحمن هذا إلى مثل مذاهب الخلفاء بالمشرق وأفريقية وتسمى بأمير المؤمنين وتلقب بالناصر لدين الله وأخذت من بعده عادة ومذهب لقن عنه ولم يكن لأبائه وسلف قومه واستمر الحال على ذلك إلى أن انقرضت عصية العرب أجمع وذهب رسم الخلافة وتغلب الموالي من العجم على بني العباس والصنائع على العبيدين بالقاهرة وصنهاجة على أمراء أفريقية وزناتة على المغرب وملوك الطوائف بالاندلس على أمر بني أمية واقتسموه وافترق أمر الاسلام فاختلف مذاهب الملوك بالمغرب والشرق في الاختصاص باللقاب بعد أن تسما جميعا باسم السلطان \* فأما ملوك المشرق من العجم فكان الخلفاء يخصوصهم باللقاب تشريفية حتى يستشعر منها انقيادهم وطاعتهم وحسن ولايتهم مثل شرف الدولة وعضد الدولة وركن الدولة ومعز الدولة ونصير الدولة ونظام الملك وبهاء الدولة وذخيرة الملك وأمثال هذه وكان العبيديون أيضا يخصوصون بها أمراء صنهاجة فلما استبدوا على الخلافة قنعوا بهذه الألقاب وتجاووا عن ألقاب الخلافة أدبامعها وعدولا عن سماتها المختصة بها شأن المتغلبين المستبدين كما قلناه قبل ونزع المتأخرون أعاجم المشرق حين قوى استبدادهم على الملك وعلا كهيم في الدولة والسلطان وتلاشت عصية الخلافة واضمحلت بالجملة إلى انتحال الألقاب الخاصة بالملك مثل الناصر والمنصور زيادة على الألقاب يخصوصون بها قبل هذا الانتحال مشعرة بالخروج عن رتبة الولاء والاصطناع بما أضافوها إلى الدين فقط فيقولون صلاح الدين أسد الدين نور الدين \* وأما ملوك الطوائف بالاندلس فاقسموا ألقاب الخلافة وتوزعوها لقوة استبدادهم عليها بما كانوا من قبيلها وعصبيتها فتلقبوا بالناصر والمنصور والمعتمد والمظفر وأمثالها كما قال ابن أبي شرف ينعي عليهم

بما يزهدي في أرض أندلس \* أسماء معتمد فيها ومعتمد

ألقاب مملكة في غير موضعها \* كالمريحي اتفا بصورة الأسد

وأما صنهاجة فاقصروا على الألقاب التي كان الخلفاء العبيديون يلقبون بها للتبويه مثل نصير الدولة ومعز الدولة واتصل لهم ذلك لما أدالوا من دعوة العبيدين بدعوة العباسيين ثم بعدت الشقة بينهم وبين الخلافة ونسوا عهدا ففسوا هذه الألقاب واقتصروا على اسم السلطان وكذا شأن ملوك



مغراوة بالمغرب لم ينتحلوشياً من هذه الألقاب إلا اسم السلطان جرياً على مذاهب البداوة والغضاضة ولما حى رسم الخلافة وتعطل دستها وقام بالمغرب من قبائل البربر يوسف بن تاشفين ملك لمتونة فملك العدوتين وكان من أهل الخير والاعتداء نزعته بهمته إلى الدخول في طاعة الخليفة تكميلاً لمراسم دينه فغاطب المستظهر العباسي وأوفد عليه يبعته عبد الله بن العربي وابنه القاضي أبابكر من مشيخة أشبيلية يطلبان توليته إياه على المغرب وتقليده ذلك فاقبلوا إليه بعهد الخلافة له على المغرب واستشعار زيهم في لبوسه ورتبته وخطبه فيه بأمر المؤمنين تشریفاله واختصاصاً فاتخذها لقباً ويقال أنه كان دعى له بأمر المؤمنين من قبل أديامع رتبة الخلافة لما كان عليه هو وقومه المرابطون من انتحال الدين واتباع السنة وجاء المهدي على أثرهم داعياً إلى الحق آخذاً بمذاهب الأشعرية ناعياً على أهل المغرب عدو لهم عنها إلى تقليد السلف في ترك التأويل لظواهر الشريعة وما يؤل إليه ذلك في التجسيم كما هو معروف من مذهب الأشعرية وسمي أتباعه الموحدين تعريضاً بذلك النكير وكان يرى رأى أهل البيت في الامام المعصوم وأنه لا بد منه في كل زمان يحفظ بوجوده نظام هذا العالم فسمى بالامام لما قلناه أولاً من مذاهب الشيعة في ألقاب خلفائهم وأردف بالمعصوم شارة إلى مذهبه في عصمة الامام وتزعمه عند اتباعه عن أمير المؤمنين أخذاً بمذاهب المتقدمين من الشيعة ولما فيها من مشاركة الأئمة والولدان من أعقاب أهل الخلافة يومئذ بالشرق ثم انتحل عبد المؤمن ولي عهده اللقب بأمر المؤمنين وجرى عليه من بعده خلفاء بني عبد المؤمن وآل أبي حفص من بعدهم استشاراه عن سوام لما دعى إليه شيخهم المهدي من ذلك وأنه صاحب الأمر وأولياؤه من بعده كذلك دون كل أحد لا تنفاه عصبية قریش وتلاشيها فكان ذلك دأبهم ولما انتقض الأمر بالمغرب وانتزعه زنادة ذهب أولهم مذاهب البداوة والسذاجة واتباع لمتونة في انتحال اللقب بأمر المؤمنين أديامع رتبة الخلافة التي كانوا على طاعتها لبني عبد المؤمن أولاً ولبنی أبي حفص من بعدهم ثم نزع المتأخرون منهم إلى اللقب بأمر المؤمنين وانتحلوه لهذا العهد استبلاغاً في منازع الملك وتتميماً لمذاهبه وسماته والله غالب على أمره

#### ٣٤ ﴿ فصل في شرح اسم البابا والبطرك في الملة النصرانية واسم الكوهن عند اليهود ﴾

(إعلم) أن الملة لا بد لها من قائم عند غيبة النبي يحملهم على أحكامها وشرائعها ويكون كالخليفة فيهم للنبي فيما جاء به من التكليف والنوع الانساني أيضاً بما تقدم من ضرورة السياسة فهم للاجتماع البشري لا بد لهم من شخص يحملهم على مصالحهم ويزعمهم عن مفاسدهم بالقهر وهو المسمى بالملك والملة الإسلامية لما كان الجهاد فيها مشروعاً والعموم لدعوة وحمل الكافة على دين الاسلام طوعاً أو كرهاً اتخذت فيها الخلافة والملك لتوجه الشوكة من القائمين بها إليهم معا وأما ما سوى الملة الإسلامية فلم تكن دعوتهم عامة ولا الجهاد عندهم مشروعاً إلا في المدافعة فقط فصار القائم بأمر الدين فيها لا يعنيه شيء من سياسة الملك وإنما وقع الملك لمن وقع منهم بالعرض ولا أمر غير ديني وهو ما اقتضته لهم العصبية لما فيها من الطلب للملك بالطبع لما قدمناه لأنهم

غير مكلفين بالتغلب على الأمم كافي الملة الإسلامية وإمام مطلوبون بإقامة دينهم في خاصتهم ولذلك بقي بنو إسرائيل من بعد موسى ويوشع صلوات الله عليهما نحو أربعين سنة لا يعتنون بشيء من أمر الملك انما همهم إقامة دينهم فقط وكان القائم به بينهم يسمى الكوهن كانه خليفة موسى صلوات الله عليه يقيم لهم أمر الصلاة والقربات ويشترطون فيه أن يكون من ذرية هرون صلوات الله عليه لأن موسى لم يعقب ثم اختاروا الإقامة السياسية التي هي للبشر بالطبع سبعين شيخا كانوا يتلون أحكامهم العامة والكوهن أعظم منهم رتبة في الدين وأبعد عن شعب الأحكام واتصل ذلك فيهم إلى أن استحكمت طبيعة العصبية وتمحضت الشوكة للملك فغلبوا الكنعانيين على الأرض التي أورشليم الله بيت المقدس وماجاورها كما بين لهم على لسان موسى صلوات الله عليه فخارتهم أم الفلسطينيين والكنعانيين والأرمن وأردن وعمان ومأرب وورياستهم في ذلك راجعة إلى شيوخهم وأقموا على ذلك نحو من أربعين سنة ولم تكن له صولة الملك وخير بني إسرائيل من مطالبة الأمم فطلبوا على لسان شمويل من أنبيائهم أن يأذن الله لهم في تمليك رجل عليهم فولى عليهم طالوت وغلب الأمم وقتل جالوت ملك الفلسطينيين ثم ملك بعده داود ثم سليمان صلوات الله عليهما واستفحل ملكه وامتد إلى الحجاز ثم أطراف اليمن ثم إلى أطراف بلاد الروم ثم افترق الأسباط من بعد سليمان صلوات الله عليه بمقتضي العصبية في الدول كما قدمناه إلى دولتين كانت أحدهما بالجزيرة والموصل للأسباط العشرة والآخرى بالقدس والشام لبني يهوذا وبنامين ثم غلبهم تختنصر ملك بابل على ما كان بأيديهم من الملك أو الأسباط العشرة ثم نانيا بن يهوذا وبيت المقدس بعد اتصال ملكهم نحو ألف سنة وخرب معبدهم وأحرق توراتهم أمات دينهم ونقلهم إلى أصهان وبلاد العراق إلى أن ردهم بعض ملوك الكيانية من الفرس إلى بيت المقدس من بعد سبعين سنة من خروجهم فبنوا المسجد وأقاموا أمر دينهم على الرسم الأول للكهنة فقط والملك للفرس ثم غلب الاسكندر وبنو يونان على الفرس وصار اليهود في ملكتهم ثم فشل أمر اليونانيين فاعترز اليهود عليهم بالعصبية الطبيعية ودفعوهم عن الاستيلاء عليهم وقام بملكهم الكهنة الذين كانوا فيهم من بني حشمنى وقتلوا يونان حتى انقرض أمرهم وغلبهم الروم فصاروا تحت أمرهم ثم رجعوا إلى بيت المقدس وفيها بنو هيردوس أصهار بني حشمنى وبقيت دولتهم فحاصروهم مدة ثم افتحوها عنوة وأخشوا في القتل والهدم والتحريق وخربو بيت المقدس وأجلوهم عنها إلى روما وما وراءها وهو الخراب الثاني للمسجد ويسميه اليهود بالجلوة الكبرى فلم يقيم لهم بعدها ملك لفقدان العصبية منهم وبقوا بعد ذلك في ملكة الروم ومن بعدهم يقيم لهم أمر دينهم الرئيس عليهم المسمى بالكوهن \* ثم جاء المسيح صلوات الله وسلامه عليه بما جاء به من الدين والنسخ لبعض أحكام التوراة وظهرت على يديه الخوارق العجيبة من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى واجتمع عليه كثير من الناس وآمنوا به وأكثرهم الحواريون من أصحابه وكانوا اثني عشر وبعث منهم رسلا إلى الآفاق داعين إلى ملته وذلك أيام أوغسطس أول ملوك القيصرية وفي مدة هيردوس ملك اليهود الذي انتزع الملك من بني حشمنى أصهاره

فحده اليهود وكذبوه وكاتب هيردوس ملكهم ملك القياصرة أو غسطس يغريه به فأذن لهم في قتله ووقع ما تلاه القرآن من أمره وافترق الحواريون شيئا ودخل أكثرهم بلاد الروم داعين إلى دين النصرانية وكان بطرس كبيرهم فنزل برومة دار ملك القياصرة ثم كتبوا الانجيل الذي أنزله على عيسى صلوات الله عليه في نسخ أربع على اختلاف رواياتهم فكتب متى انجيله في بيت المقدس بالعبرانية ونقله يوحنا بن زبدي منهم إلى اللسان اللطيني وكتب لوقا منهم انجيله باللطيني إلى بعض أكابر الروم وكتب يوحنا بن زبدي منهم انجيله برومة وكتب بطرس انجيله باللطيني ونسبه إلى مرقاس تلميذه واختلفت هذه النسخ الأربعة من الانجيل مع أنها ليست كلها وحيا صر فابل مشوبة بكلام عيسى عليه السلام وبكلام الحواريين وكلها موعظة وقصص والأحكام فيها قليلة جدا واجتمع الحواريون الرسل لذلك العهد برومة ووضعوا قوانين الملة النصرانية وصيروها بيد اقليمنطس تلميذ بطرس وكتبوا فيها عدد الكتب التي يجب قبولها والعمل بها فمن شريعة اليهود القديمة التوراة وهي خمسة أسفار وكتاب يوشع وكتاب القضاة وكتاب راعوث وكتاب يهوذا وأسفار الملوك أربعة وسفر بنيامين وكتب المقاييس لابن كربون ثلاثة وكتاب عزرا الامام وكتاب أوشير وقصة هامان وكتاب أيوب الصديق ومزامير داود عليه السلام وكتب ابنه سليمان عليه السلام خمسة ونبوات الأنبياء الكبار والصغار ستة عشر وكتاب يشوع بن شارخ وزير سليمان ومن شريعة عيسى صلوات الله عليه المتلقاة من الحواريين نسخ الانجيل الأربعة وكتب القتاليقون سبع رسائل وثامنها الايريكييس في قصص الرسل وكتاب بولس أربع عشرة رسالة وكتاب اقليمنطس وفيه الأحكام وكتاب أبو غالميس وفيه رؤيا يوحنا ابن زبدي واختلف شأن القياصرة في الأخذ بهذه الشريعة تارة وتعظيم أهلها ثم تركها أخرى والتسلط عليهم بالقتل والبغى إلى أن جاء قسطنطين وأخذها واستمروا عليها وكان صاحب هذا الدين والمقيم لمراسمه يسمونه البطرك وهو رئيس الملة عندهم وخليفة المسيح فيهم يبعث نوابه وخلفاءه إلى ما بعد عنه من أم النصرانية ويسمونه الأسقف أي نائب البطرك ويسمون الامام الذي يقيم الصلوات ويغنيهم في الدين بالتقسييس ويسمون المنقطع الذي حبس نفسه في الخلوة للعبادة بالراهب وأكثر خلواتهم في الصوامع وكان بطرس الرسول رأس الحواريين وكبير التلاميذ برومة يقيم بها دين النصرانية إلى أن قتله نيروز خامس القياصرة فيمن قتل من البطارقة والأساقفة ثم قام بخلافته في كرسي رومة أريوس وكان مرقاس الانجيلي بالاسكندرية ومصر والمغرب داعيا سبع سنين فقام بعده حنانيا وتسمى بالبطرك وهو أول البطارقة فيها وجعل معه اثني عشر قساعلى أنه إذا مات البطرك يكون واحد من الاثني عشر مكانه ويختار من المؤمنين واحدا مكان ذلك الثاني عشر فكان أمر البطارقة إلى القسوس ثم لما وقع الاختلاف بينهم في قواعد دينهم وعقائده واجتمعوا ببنقية أيام قسطنطين لتحرير الحق في الدين واتفق ثلثائة وثمانية عشر من أساقفتهم على رأى واحد في الدين فكتبوه وسموه الامام وصيروه أصلا يرجعون إليه وكان فيما كتبوه أن البطرك القائم بالدين لا يرجع في تعيينه



إلى اجتهد الأئمة كما قرره حنايا تلميذ مرقس وأبطلوا ذلك الرأي وإنما يقدم عن ملأ واختيار من أئمة المؤمنين ورؤسائهم فبقى الأمر كذلك ثم اختلفوا بعد ذلك في تقرير قواعد الدين وكانت لهم مجتمعات في تقريره ولم يختلفوا في هذه القاعدة فبقى الأمر فيها على ذلك واتصل فيهم نيابة الأساقفة عن البطرك وكان الأساقفة يدعون البطرك بالأب أيضاً تعظيماً له فاشتبه الاسم في أعصار متطاولة يقال آخرها بطركية هرقل بالاسكندرية فأرادوا أن يميزوا البطرك عن الأسقف في التعظيم فدعوه البابا ومعناه أبو الآباء وظهر هذا الاسم أول ظهوره بمصر على مازعم جرجيس بن العميد في تاريخه ثم نقلوه إلى صاحب الكرسي الأعظم عندهم وهو كرسي رومة لأنه كرسي بطرس الرسول كما قدمناه فلم يزل سمة عليه إلى الآن ثم اختلفت النصارى في دينهم بعد ذلك وفيما يعتقدونه في المسيح وصاروا طوائف وفرقا واستظهروا بملوك النصرانية كل على صاحبه فاختلف الحال في العصور في ظهور فرقة دون فرقة إلى أن استقرت لهم ثلاث طوائف هي فرقتهم ولا يلتفتون إلى غيرها وهم الملكية واليعقوبية والنسطورية ولم نر أن نسخم أوراق الكتاب بذكر مذاهب كفرهم فهي على الجملة معروفة وكلها كفر كما صرح به القرآن الكريم ولم يبق بيننا وبينهم في ذلك جدال ولا استدلال إنما هو الاسلام أو الجزية أو القتل ثم اختصت كل فرقة منهم ببطرك فبطرك رومة اليوم المسمى بالبابا على رأي الملكية ورومة للافرنجة وملكهم قائم بتلك الناحية وبطرك المعاهدين بمصر على رأي اليعقوبية وهو ساكن بين ظهرانيهم والحبشة يدينون بدينهم ولبطرك مصر فيهم أساقفة ينوبون عنه في إقامة دينهم هنالك واختص اسم البابا ببطرك رومة لهذا العهد ولا تسمى اليعاقبة بطركهم بهذا الاسم وضبط هذه اللفظة بياءين موحدين من أسفل والنطق بها مفخمة والثانية مشددة ومن مذاهب البابا عند الافرنجة أنه يحضهم على الانقياد للملك واحد يرجعون اليه في اختلافهم واجتماعهم تخرجهم من اقتراق الكلمة ويتحرى به العصية التي لا فوقها منهم لتكون يده عالية على جميعهم ويسمونه الأبرذور وحرفه الوسط بين الذال والطاء المعجمتين ومباشره يضع التاج على رأسه للتبرك فيسمى المتوج ولعله معنى لفظة الأبرذور وهذا ملخص ما أوردناه من شرح هذين الاسمين للذين هما البابا والكوهن والله يضل من يشاء ويهدي من يشاء

### ٣٥ \* فصل في مراتب الملك والسلطان وألقابهما \*

اعلم أن السلطان في نفسه ضعيف يحمل أُمراً ثقيلاً فلا بد له من الاستعانة بأبناء جنسه وإذا كان يستعين بهم في ضرورة معاشه وسائر مهنته فما ظنك بسياسة نوعه ومن استرعاه الله من خلقه وعباده وهو محتاج إلى حماية الكافة من عدوم بالدفاع عنهم وإلى كف عدوان بعضهم على بعض في أنفسهم بامضاء الأحكام الوازنة فيهم وكف العدوان عليهم في أموالهم بأصلاح سابلتهم وإلى حملهم على مصالحهم وما تعمهم به البلوي في معاشهم ومعاملاتهم من تفقد المعاش والمكايل والموازين حذر من التعنيف وإلى

النظر في السكة بحفظ النقود التي يتعاملون بها من الغش وإلى سياستهم بما يريد من الانقياد له والرضا بمقاصده منهم وانفراده بالمجدد منهم فيتحمل من ذلك فوق الغاية من معاناة القلوب قال بعض الأشراف من الحكماء لمعاناة ثقل الجبال من أما كنهاون على من معاناة قلوب الرجال ثم أن الاستعانة إذا كانت بأولي القربى من أهل النسب أو الترية أو الإصطناع القديم للدولة كانت أكمل لما يقع في ذلك من مجانسة خلقهم لخلقهم فتم المشاكلة في الاستعانة قال تعالى واجعل وزيراً من أهلي هرون أخي أشدد به أزرى وأشركه في أمرى وهو إمام أن يستعين في ذلك بسيفه أو قلمه أو رأيه أو معارفه أو بحجابه عن الناس أن يزدحموا عليه فيشغلوه عن النظر في مهماتهم أو يدفع النظر في الملك كله ويعول على كفايته في ذلك واضطلاعه فلذلك قد توجد في رجل واحد وقد تفرق في أشخاص وقد يتفرع كل واحد منهما إلى فروع كثيرة كالقلم يتفرع إلى قلم الرسائل والمحاطبات وقلم الصكوك والاقطاعات وإلى قلم المحاسبات وهو صاحب الجباية والعطاء وديوان الجيش وكالسيف يتفرع إلى صاحب الحرب وصاحب الشرطة وصاحب البريد وولاية الثغور \* ثم اعلم أن الوظائف السلطانية في هذه الملة الإسلامية مندرجة تحت الخلافة لا شأن لمنصب الخلافة على الدين والدنيا كما قدمناه فالأحكام الشرعية متعلقة بجميعها وموجودة لكل واحدة منها في سائر وجوهها العموم تعلق الحكم الشرعي بجميع أفعال العباد والفقيه ينظر في مرتبة الملك والسلطان وشروط تقليدها إستبداد على الخلافة وهو معنى السلطان أو تعويضاً عنها وهو معنى الوزارة عند كياي وفي نظره في الأحكام والأموال وسائر السياسات مطلقاً أو مقيداً أو في موجبات العزل إن عرضت وغير ذلك من معاني الملك والسلطان وكذا في سائر الوظائف التي تحت الملك والسلطان من وزارة أو جباية أو ولاية لا بد للفقيه من النظر في جميع ذلك كما قدمناه من انساب حكم الخلافة الشرعية في الملة الإسلامية على رتبة الملك والسلطان إلا أن كلامنا في وظائف الملك والسلطان ورتبته إنما هو بمقتضى طبيعة العمران ووجود البشر لا بما يخصها من أحكام الشرع فليس من غرض كتابنا كما علمت فلا نحتاج إلى تفصيل أحكامها الشرعية مع أنها مستوفاة في كتب الأحكام السلطانية مثل كتاب القاضي أبي الحسن الماوردي وغيره من أعلام الفقهاء فإن أردت استيفاءها فاعليك بمطالعها هنالك وإما تكلمنا في الوظائف الخلافية وأفردناها لنميز بينها وبين الوظائف السلطانية فقط لا لتحقيق أحكامها الشرعية فليس من غرض كتابنا وإنما تتكلم في ذلك بما تقتضيه طبيعة العمران في الوجود الانساني والله الموفق

﴿الوزارة﴾ وهي أم الخطط السلطانية والرتب الملوكية لأن إسمها يدل على مطلق الاعانة فإن الوزارة مأخوذة إما من الموازنة وهي المعاونة أو من الوزر وهو الثقل كأنه يحمل مع مفاعله أوزاره وأثقاله وهو راجع إلى المعاونة المطلقة وقد كنا قد علمنا في أول الفصل أن أحوال السلطان وتصرفاته لا تعدو أربعة لأنها إما أن تكون في أمور حماية الكافة وأسبابها من النظر في الجند والسلاح والحروب وسائر أمور الحماية والمطالبة وصاحب هذا هو الوزير المتعارف في الدول القديمة بالمشرق ولهذا العهد

بالمغرب وأما أن تكون في أمور مخاطباته لمن بعد عنه في المكان أو في الزمان وتنفيذه الأوامر فيمن هو محجوب عنه وصاحب هذا هو الكاتب وإما أن تكون في أمور جباية المال وانفاقه وضبط ذلك من جميع وجوهه أن يكون بمضيعة وصاحب هذا هو صاحب المال والجباية وهو المسمى بالوزير لهذا العهد بالمشرق وأما أن يكون في مدافعة الناس ذوي الحاجات عنه أن يزدحموا عليه فيشغلوه عن فهمه وهذا راجع لصاحب الباب الذي يحجبه فلا تعدو أحواله هذه الأربعة بوجه وكل خطة أو رتبة من رتبة الملك والسلطان فإليها يرجع إلا أن الأرفع منها ما كانت الاعانة فيه عامة فيما تحت يد السلطان من ذلك الصنف إذ هو يقتضي مباشرة السلطان دائماً ومشاركته في كل صنف من أحوال ملكه وأما ما كان خاصاً ببعض الناس أو ببعض الجهات فيكون دون الرتبة الأخرى كقيادة ثغراً أو ولاية جباية خاصة أو النظر في أمر خاص كحسبة الطعام أو النظر في السكة فإن هذه كلها نظر في أحوال خاصة فيكون صاحبها تبعاً لأهل النظر العام وتكون رتبته مرؤسة لا أولئك وما زال الأمر في الدول قبل الإسلام هكذا حتى جاء الإسلام وصار الأمر خلافة فذهبت تلك الخطط كلها بذهاب رسم الملك إلى ما هو طبيعي من المعاونة بالرأى والمفاوضة فيه فلم يمكن زواله إذ هو أمر لا بد منه فكان صلى الله عليه وسلم يشاور أصحابه ويفاوضهم في مهماته العامة والخاصة ويخص مع ذلك أبا بكر بخصوصيات أخرى حتى كان العرب الذين عرفوا الدول وأحوالها في كسرى وقيصرو والنجاشي يسمون أبا بكر وزيره ولم يكن لفظ الوزير يعرف بين المسلمين لنذهب رتبة الملك بسداجة الإسلام وكذا عمر مع أبي بكر وعلي وعثمان مع عمر وأما حال الجباية والانفاق والحسبان فلم يكن عندهم رتبة لأن القوم كانوا عرباً أميين لا يحسنون الكتاب والحساب فكانوا يستعملون في الحساب أهل الكتاب أو أفراداً من موالي العجم ممن يحيده وكان قليلاً فيهم وأما أشرفهم فلم يكونوا يجيدونه لأن الأمية كانت صفتهم التي امتازوا بها وكذا حال المخاطبات وتنفيذ الأمور لم تكن عندهم رتبة خاصة للأمية التي كانت فيهم والأمانة العامة في كتمان القول وتأديته ولم تخرج السياسة إلى اختياره لأن الخلافة إنما هي دين ليست من السياسة الملكية في شيء وأيضاً فلم تكن الكتابة صناعة فيستجد الخليفة أحسنها لأن الكل كانوا يعبرون عن مقاصدهم بأبلغ العبارات ولم يبق إلا الخط فكان الخليفة يستنيب في كتابته متى عن له من يحسنه \* وأما مدافعة ذوي الحاجات عن أبوابهم فكان محظوراً بالشريعة فلم يفعلوه فلما انقلبت الخلافة إلى الملك وجاءت رسوم السلطان وألقابه كان أول شيء بدى به في الدولة شأن الباب وسده دون الجمهور بما كانوا يخشون على أنفسهم من اغتيال الخوارج وغيرهم كما وقع بعمر وعلي ومعاوية وعمرو بن العاص وغيرهم مع ما في فتحه من ازدحام الناس عليهم وشغلهم بهم عن المهمات فاتخذوا من يقوم لهم بذلك ومموه الحاجب وقد جاء أن عبد الملك لما ولي حاجبه قال له قد وليتك حجابة باني الأذن ثلاثة المؤذن للصلاة فانه داعي الله وصاحب البريد فأمر ما جاء به وصاحب الطعام لئلا يفسد ثم استفحل الملك بعد ذلك فظهر المشاور والمعين في أمور القبائل والعصائب واستئلافهم وأطلق عليه اسم الوزير ولقي أمر الحسبان في



الموالي والذميين واتخذ للسجلات كاتب مخصوص حوطة على أسرار السلطان أن تشتهر ففسد سياسته مع قومه ولم يكن بمثابة الوزير لأنه إنما احتيج له من حيث الخط والكتاب لا من حيث اللسان الذي هو الكلام إذ اللسان لذلك العهد على حاله لم يفسد فكانت الوزارة لذلك أرفع رتبهم يومئذ هذا في سائر دولة بني أمية فكان النظر للوزير عاما في أحوال التدبير والمفاوضات وسائر أمور الحماية والمطالبات وما يتبعها من النظر في ديوان الجند وفرض العطاء بالأهله وغير ذلك فلما جاءت دولة بني العباس واستفحل الملك وعظمت مراتبه وارتفعت عظم شأن الوزير وصارت إليه النيابة في انفاذ الحل والعقد وتعينت مرتبته في الدولة وعنت لها الوجوه وخضعت لها الرقاب وجعل لها النظر في ديوان الحسبان لما تحتاج إليه خطته من قسم الاعطيات في الجند فاحتاج إلى النظر في جمعه وتفريقه وأضيف إليه النظر فيه ثم جعل له النظر في القلم والترسيل لصون أسرار السلطان ولحفظ البلاغة لما كان اللسان قد فسد عند الجمهور وجعل الخاتم لسجلات السلطان ليحفظها من الذباع والشياع ودفع إليه فصار اسم الوزير جامعا لخططي السيف والقلم وسائر معاني الوزارة والمعاونة حتى لقد دعى جعفر بن يحيى بالسلطان أيام الرشيد إشارة إلى عموم نظره وقيامه بالدولة ولم يخرج عنه من الرتب السلطانية كلها إلا الحجابة التي هي القيام على الباب فلم تكن له لاستنكافه عن مثل ذلك ثم جاء في الدولة العباسية شأن الاستبداد على السلطان وتعاور فيها استبداد الوزارة مرة والسلطان أخرى وصار الوزير إذا استبدحت حاجة إلى استنابة الخليفة إياه لذلك لتصح الأحكام الشرعية وتجي على حالها كما تقدم فانقسمت الوزارة حينئذ إلى وزارة تنفيذ وهي حال ما يكون السلطان قائما على نفسه وإلى وزارة تفويض وهي حال ما يكون الوزير مستبدا عليه ثم استمر الاستبداد وصار الأمر للملوك العجم وتعطل رسم الخلافة ولم يكن لأولئك المتغلبين أن ينتحلوا ألقاب الخلافة واستنكفوا من مشاركة الوزراء في اللقب لأنهم خول لهم فقسموا بالامارة والسلطان وكان المستبد على الدولة يسمى أمير الأمراء أو بالسلطان إلى ما يحليه به الخليفة من ألقابه كما تراهم في ألقابهم وتركوا اسم الوزارة إلى من يتولاها للخليفة في خاصته ولم يزل هذا الشأن عندهم إلى آخر دولتهم وفسد اللسان خلال ذلك كله وصارت صناعة ينتحلها بعض الناس فامتهنت وترفع الوزراء عنها لذلك ولائهم عجم وليست تلك البلاغة هي المقصودة من لسانهم فتخير لها من سائر الطبقات واختصت به وصارت خادمة للوزير واختص اسم الأمير بصاحب الحروب والجند وما يرجع إليها ويده مع ذلك عالية على أهل الرتب وأمره نافذ في الكل أمانيا أو استبدادا واستمر الأمر على هذا ثم جاءت دولة الترك آخر أبعصر فرأوا أن الوزارة قد ابتذلت بترفع أولئك عنها ودفعها لمن يقوم بها للخليفة المحجور ونظره مع ذلك متعقب بنظر الأمير فصارت مرؤسة ناقصة فاستنكف أهل هذه الرتبة العالية في الدولة عن اسم الوزارة وصار صاحب الأحكام والنظر في الجند يسمى عندهم بالنائب لهذا العهد وبقي اسم الحاجب في مدلوله واختص اسم الوزير عندهم بالنظر في الجباية \* وأما دولة بني أمية بالاندلس فأنفوا اسم الوزير في مدلوله أول الدولة ثم قسموا خطته أصنافا وأفردوا لكل صنف وزيرا فجعلوا لحسبان

المال وزيراً ولترسيل وزيراً وللنظر في حوائج المتظلمين وزيراً وللنظر في أحوال أهل الثغور وزيراً وجعل لهم بيت يجلسون فيه على فرش منضدة لهم وينفذون أمر السلطان هناك كل فيما جعل له وأفرد للتردد بينهم وبين الخليفة واحد منهم ارتفع عنهم بمباشرة السلطان في كل وقت فارتفع مجلسه عن مجالسهم وخصوه باسم الحاجب ولم يزل الشأن هذا إلى آخر دولتهم فارتفعت خطة الحاجب ومرتبتة على سائر الرتب حتى صار ملوك الطوائف ينتحلون لقبها فأكثرهم يؤمّنون يسمى الحاجب كإنذاره ثم جاءت دولة الشيعة بأفريقية والقيروان وكان للقائمين بها رسوخ في البداوة فأغفلوا أمر هذه الخطط أولاً وتنقيح أسمائها حتى أدركت دولتهم الحضارة فصاروا إلى تقليد الدولتين قبلهم ووضع أسمائها كما تراه في أخبار دولتهم ولما جاءت دولة الموحدين من بعد ذلك أغفلت الأمر أولاً للبداوة ثم صارت إلى انتحال الأسماء والألقاب وكان اسم الوزير في مدلوله ثم اتبعوا دولة الأمويين وقلدوها في مذاهب السلطان واختاروا اسم الوزير لمن يحجب السلطان في مجلسه ويقف بالوفود والداخلين على السلطان عند الحدود في تحيتهم وخطابهم والآداب التي تلزم في الكون بين يديه ورفعا خطة الحجابة عنه ماشاءوا ولم يزل الشأن ذلك إلى هذا العهد \* وأما في دولة الترك بالشرق فيسمون هذا الذي يقف بالناس على حدود الآداب في اللقاء والتحية في مجالس السلطان والتقدم بالوفود بين يديه الدويدار ويضيفون إليه استتباع كاتب السرو وأحباب البريد المتصرفين في حاجات السلطان بالقاصية وبالخضرة وحالهم على ذلك لهذا العهد والله مولى الأمور لمن يشاء

\* الحجابة \* قد قدمنا أن هذا اللقب كان مخصوصاً في الدولة الأموية والعباسية بمن يحجب السلطان عن العامة ويغلق بابه دونهم أو يفتح لهم على قدره في مواقيته وكانت هذه منزلة يومئذ عن الخطط مرؤسة لها إذ الوزير متصرف فيها بما يراه وهكذا كانت سائر أيام بني العباس وإلى هذا العهد فهي بمصر مرؤسة لصاحب الخطة العليا المسمى بالنائب \* وأما في الدولة الأموية بالأندلس فكانت الحجابة لمن يحجب السلطان عن الخاصة والعامة ويكون واسطة بينه وبين الوزراء فمن دونهم فكانت في دولتهم ربيعة غاية كآتره في أخبارهم كابن حديد وغيره من حجابهم ثم لما جاء الاستبداد على الدولة اختص المستبد باسم الحجابة لشرفها فكان المنصور بن أبي عامر وأبناءؤه كذلك ولما بدوا في مظاهر الملك وأطواره جاء من بعدهم من ملوك الطوائف فلم يتركوا لقبها وكانوا يعدونه شرفاً لهم وكان أعظمهم ملكاً بعد انتحال ألقاب الملك وأسمائه لا بدله من ذكر الحاجب وذو الوزارتين يعنون به السيف والقلم ويدلون بالحجابة على حجابة السلطان عن العامة والخاصة وبذو الوزارتين على جمعه لخطى السيف والقلم ثم لم يكن في دول المغرب وأفريقية ذكر لهذا الاسم للبداوة التي كانت فيهم وربما يوجد في دولة العبيديين بمصر عند استعظامها وحضارتها لأنه قليل \* ولما جاءت دولة الموحدين لم تستمكن فيها الحضارة الداعية إلى انتحال الألقاب وتمييز الخطط وتعيينها بالأسماء إلا آخر فلم يكن عندهم من الرتب إلا الوزير فكانوا أولاً يخصون بهذا الاسم الكاتب المتصرف المشارك للسلطان في خاص أمره كابن

عطية وعبد السلام الكومى وكان له مع ذلك النظر في الحساب والأشغال المالية ثم صار بعد ذلك اسم الوزير لأهل نسب الدولة من الموحدين كابن جامع وغيره ولم يكن اسم الحاجب معروفاً في دولتهم يومئذ (وأما بنو أبي حفص بأفريقية) فكانت الرياسة في دولتهم أولاً والتقديم لوزير الرأي والمشورة وكان يخص باسم شيخ الموحدين وكان له النظر في الولايات والعزل وقود العساكر والحروب واختص الحسبان والديوان برتبة أخرى ويسمى متوليها بصاحب الأشغال ينظر فيها النظر المطلق في الدخل والخرج ويحاسب ويستخلص الأموال ويعاقب على التفريط وكان من شرطه أن يكون من الموحدين واختص عندهم القلم أيضاً بمن يجيد الترسيل ويؤمن على الأسرار لأن الكتابة لم تكن من متحل القوم ولا الترسيل بلسانهم فلم يشترط فيه النسب واحتاج السلطان لاتساع ملكه وكثرة المرتزقين بداره إلى قهر مان خاص بداره أحواله يحرمها على قدرها وترتيبها من رزق وعطاء وكسوة ونفقة في المطابخ والاصطبلات وغيرها وحصر الذخيرة وتنفيذ ما يحتاج إليه في ذلك على أهل الجباية فخصوه باسم الحاجب وربما أضافوا إليه كتابة العلامة على السجلات إذا اتفق أنه يحسن صناعة الكتابة وربما جعلوه لغيره واستمر الأمر على ذلك وحجب السلطان نفسه عن الناس فصار هذا الحاجب واسطة بين الناس وبين أهل الرتب كلهم ثم جمع له آخر الدولة السيف والحرب ثم الرأي والمشورة فصارت الحطة أرفع الرتب وأوعبها للخطط ثم جاء الاستبداد والحجر مدة من بعد السلطان الثاني عشر منهم ثم استبد بعد ذلك حفيده السلطان أبو العباس على نفسه وأذهب آثار الحجر والاستبداد بأذهاب خطة الجباية التي كانت سداً إليه وبأشهر أموره كلها بنفسه من غير استعانة بأحد والأمر على ذلك لهذا العهد

﴿ وأما دولة زناتة بالمغرب ﴾ وأعظمها دولة بني مرين فلا أثر لاسم الحاجب عندهم وأما رياسة الحرب والعساكر فهي الوزير ورتبة القلم في الحسبان والرسائل راجعة إلى من يحسنها من أهلها وإن اختصت ببعض البيوت المصطنعين في دولتهم وقد تجمع عندهم وقد تفرق وأما باب السلطان وحجبه عن العامة فهي رتبة عندهم فيسمى صاحبها عندهم بالمزوار ومعناه المتقدم على الجنادرية المتصرفين بباب السلطان في تنفيذ أوامره وتصريف عقوباته وإنزال سطواته وحفظ المعتقلين في سجونهم والعريف عليهم في ذلك فالباب له وأخذ الناس بالوقوف عند الحدود في دار العامة راجع إليه فكانت وزارة صغرى

﴿ وأما دولة بني عبد الواد ﴾ فلا أثر عندهم لشيء من هذه الألقاب ولا تمييز الخطط لبدواة دولتهم وقصورها وإنما يخصون باسم الحاجب في بعض الأحوال منفذاً لخاص بالسلطان في داره كما كان في دولة بني أبي حفص وقد يجمعون له الحسبان والسجل كما كان فيها حملهم على ذلك تقليد الدولة بما كانوا في تبعها وقائمين بدعوتها منذ أول أمرهم

﴿ وأما أهل الأندلس لهذا العهد ﴾ فالخصوص عندهم بالحسبان وتنفيذ حال السلطان وسائر الأمور المالية يسمونه بالوكيل وأما الوزير فكانوا وزيراً لأنه قد يجمع له الترسيل والسلطان عندهم يضع



خطه على السجلات كلها فليس هناك خطة العلامة كما لغيرهم من الدول  
 ﴿وأما دولة الترك بمصر﴾ فاسم الحاجب عندهم موضوع لحاكم من أهل الشوكة وهم الترك  
 ينفذ الأحكام بين الناس في المدينة وهم متعددون وهذه الوظيفة عندهم تحت وظيفة النيابة التي لها الحكم  
 في أهل الدولة وفي العامة على الإطلاق وللنائب التولية والعزل في بعض الوظائف على الأحيان ويقطع  
 القليل من الأرزاق ويثبتها وتنفذ أوامره كما تنفذ المراسم السلطانية وكان له النيابة المطلقة عن السلطان  
 وللحجاب الحكم فقط في طبقات العامة والجنود عند الترافع إليهم وإجبار من أبي الانقياد للحكم وطورهم  
 تحت طور النيابة والوزير في دولة الترك هو صاحب جباية الأموال في الدولة على اختلاف أصنافها من  
 خراج أو مكس أو جزية ثم في تصريفها في الانفاقات السلطانية أو الجرايات المقدرة له مع ذلك التولية  
 والعزل في سائر العمال المباشرين لهذه الجباية والتنفيذ على اختلاف مراتبهم وتباين أصنافهم ومن عوائدهم  
 أن يكون هذا الوزير من صنف القبط القائمين على ديوان الحسبان والجباية لاختصاصهم بذلك في  
 مصر منذ عصور قديمة وقد يوليها السلطان بعض الأحيان لأهل الشوكة من رجالات الترك أو أبناءهم  
 على حسب الداعية لذلك والله مدبر الأمور ومصرفها بحكمته لا إله إلا هو رب الأولين والآخرين

### ﴿ ديوان الأعمال والجبايات ﴾

إعلم أن هذه الوظيفة من الوظائف الضرورية للملك وهي القيام على أعمال الجبايات وحفظ حقوق  
 الدولة في الدخل والخرج وإحصاء العساكر بأسمائهم وتقدير أرزاقهم وصرف أعطياتهم في أبنائهم  
 والرجوع في ذلك إلى القوانين التي يرتبها قومة تلك الأعمال وقهارة الدولة وهي كلها مسطورة في كتاب  
 شاهد بتفاصيل ذلك في الدخل والخرج مبنى على جزء كبير من الحساب لا يقوم به إلا المهرة من أهل تلك  
 الأعمال ويسمى ذلك الكتاب بالديوان وكذلك مكان جلوس العمال المباشرين لها ويقال إن أصل  
 هذه التسمية أن كسرى نظريوما إلى كتاب ديوانه وهم يحسبون على أنفسهم كأنهم يحادثون فقال ديوانه  
 أي مجانين بلغة الفرس فسمى موضعهم بذلك وحذفت الهاء لكثرة الاستعمال تخفيفاً فقل ديوان ثم نقل  
 هذا الاسم إلى كتاب هذه الأعمال المتضمن للقوانين والحسابات وقيل أنه اسم للشياطين بالفارسية  
 سمى الكتاب بذلك لسرعة نفوذهم في فهم الأمور ووقوفهم على الجلي منها والخفي وجمعهم لما شدوا تفرق ثم  
 نقل إلى مكان جلوسهم لتلك الأعمال وعلى هذا فيتناول اسم الديوان كتاب الرسائل ومكان جلوسهم بباب  
 السلطان على ما يأتي بعد وقد تفرده هذه الوظيفة بناظر واحد ينظر في سائر هذه الأعمال وقد يفر دكل  
 صنف منها بناظر كما يفر في بعض الدول النظر في العساكر واقطاعاتهم وحسبان أعطياتهم أو غير ذلك  
 على حسب مصطلح الدولة وما قرره أو لوها واعلم أن هذه الوظيفة إنما تحدث في الدول عند تمكن الغلب  
 والاستيلاء والنظر في أعطاف الملك وفنون التمديد وأول من وضع الديوان في الدولة الإسلامية عمر  
 رضي الله عنه يقال لسبب ما أتى به أبو هريرة رضي الله عنه من البحرين فاستكثره وتعبوا في قسمه

فسموا إلى احصاء الاموال وضبط العطاء والحقوق فأشار خالد بن الوليد بالديوان وقال رأيت ملوك الشام يدنون ققبل منه عمرو قيل بل أشار عليه به الهرمزان لما رأيته البعوت بغير ديوان قليل له ومن يعلم بغية من يغيب منهم فان من تخلف أخل بمكانه وإنما يضبط ذلك الكتاب فثبت لهم ديوانا وسأل عمر عن اسم الديوان فعمله ولما اجتمع ذلك أمر عقيل بن أبي طالب ومخرمة بن نوفل وجبير بن مطعم وكانوا من كتاب قريش فكتبوا ديوان العساكر الاسلامية على ترتيب الأتساب مبتدأ من قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وما بعدها الأقرب فالأقرب هكذا كان ابتداء ديوان الجيش وروى الزهري عن سعيد بن المسيب أن ذلك كان في المحرم سنة عشرين وأما ديوان الخراج والجبايات فبقي بعد الاسلام على ما كان عليه من قبل ديوان العراق بالفارسية وديوان الشام بالرومية وكتاب الدواوين من أهل العهد من الفريقين ولما جاء عبد الملك بن مروان واستحال الأمر ملكا وانتقل القوم من غضاضة البدوة إلى رونق الحضارة ومن سداجة الأمية إلى حذق الكتابة وظهر العرب ومواليهم مهرة في الكتاب والحساب فأمر عبد الملك وسليمان بن سعد والى الأردن لعده أن ينقل ديوان الشام إلى العربية فأكملها لسنة من يوم ابتدائه ووقف عليه سرحون كاتب عبد الملك فقال لكتاب الروم اطلبوا العيش في غير هذه الصناعة فقد قطعها الله عنكم وأما ديوان العراق فأمر الحجاج كاتبه صالح بن عبد الرحمن وكان يكتب بالعربية والفارسية ولقن ذلك عن زاذان فروخ كاتب الحجاج قبله ولما قتل زاذان في حرب عبد الرحمن الأشعث استخلف الحجاج صالحا هذا مكانه وأمره أن ينقل الديوان من الفارسية إلى العربية ففعل وزعم لذلك كتاب الفرس وكان عبد الحميد بن يحيى يقول لله در صالح ما أعظم منته على الكتاب ثم جعلت هذه الوظيفة في دولة بني العباس مضافة إلى من كان له النظر فيه كما كان شأن بني برمك وبني سهل بن نوبخت وغيرهم من وزراء الدولة وأما ما يتعلق بهذه الوظيفة من الأحكام الشرعية مما يختص بالجيش أو بيت المال في الدخل والخرج وتميز النواحي بالصلح والعنوة وفي تقليد هذه الوظيفة لمن يكون وشروط الناظر فيها والكتابت وقوانين الحسابات فأمر راجع إلى كتب الأحكام السلطانية وهي مسطورة هنالك وليست من غرض كتابنا وإنما تكلم فيها من حيث طبيعة الملك الذي نحن بصدد الكلام فيه وهذه الوظيفة جزء عظيم من الملك بل هي ثالثة أركانها لأن الملك لا بد له من الجند والمال والمخاطبة لمن غاب عنه فاحتاج صاحب الملك إلى الأعوان في أمر السيف وأمر القلم وأمر المال فينفرد صاحبها بذلك بجزء من رياسة الملك وكذلك كان الأمر في دولة بني أمية بالأندلس والطوائف بعدهم وأما في دولة الموحدين فكان صاحبها إنما يكون من الموحدين يستقل بالنظر في استخراج الأموال وجمعها وضبطها وتعقب نظر الولاية والعمال فيها ثم تنفيذها على قدرها وفي مواقيتها وكان يعرف بصاحب الأشغال وكان ربما يأمها في الجهات غير الموحدين ممن يحسنها ولما استبد بنو أبي حفص بأفريقية وكان شأن الجالية من الأندلس ققدم عليهم أهل البيوتات وفيهم من كان يستعمل ذلك في الأندلس مثل بني سعيد أصحاب القلعة جوار غرناطة المعروفين ببني أبي الحسن فاستكفوا

بهم في ذلك وجعلوا لهم النظر في الاشغال كما كان لهم بالاندلس ودالوا فيها بينهم وبين الموحدين ثم استقل بها أهل الحسبان والكتاب وخرجت عن الموحدين ثم لما استغلظ أمر الحاجب ونفذ أمره في كل شأن من شؤون الدولة تعطل هذا الرسم وصار صاحبه رؤسًا للحاجب وأصبح من جملة الجباة وذهبت تلك الرياسة التي كانت له في الدولة \* وأما دولة بني مرين لهذا العهد فحسبان العطاء والخراج مجموع لواحد وصاحب هذه الرتبة هو الذي يصحح الحسابات كلها ويرجع إلى ديوانه ونظره معقب بنظر السلطان أو الوزير وخطه معتبر في صحة الحسبان في الخراج والعطاء هذه أصول الرتب والخطط السلطانية وهي الرتب العالية التي هي عامة النظر ومباشرة للسلطان \* وأما هذه الرتبة في دولة الترك فمتنوعة وصاحب ديوان العطاء يعرف بنظر الجيش وصاحب المال مخصوص باسم الوزير وهو الناظر في ديوان الجباة العامة للدولة وهو أعلى رتب الناظرين في الأموال لأن النظر في الأموال عندهم يتنوع إلى رتب كثيرة لانفساح دولتهم وعظمة سلطانهم واتساع الأموال والجبايات عن أن يستقل بضبطها الواحد من الرجال ولو بلغ في الكفاية مبالغه فتعين للنظر العام منها هذا الخصوص باسم الوزير وهو مع ذلك رديف لمولى من موالى السلطان وأهل عصبته وأرباب السيوف في الدولة يرجع نظر الوزير إلى نظره ويحتد جهده في متابعتها ويسمى عندها أستاذ الدولة وهو أحد الأئراء الأكبر في الدولة من الجنود وأرباب السيوف ويتبع هذه الخطة خطط عندهم أخرى كلها راجعة إلى الأموال والحسبان مقصورة النظر على أمور خاصة مثل ناظر الخاص وهو المباشر لأموال السلطان الخاصة به من أقطاعه أو سهمانه من أموال الخراج وبلاد الجباة مما ليس من أموال المسلمين العامة وهو تحت يد الأمير أستاذ الدار وإن كان الوزير من الجنود فلا يكون لأستاذ الدار نظر عليه ونظر الخاص تحت يد الخازن لأموال السلطان من ممالكه المسمى خازن الدار لاختصاص وظيفتهما بمال السلطان الخاص هذا بيان هذه الخطة بدولة الترك بالمشرق بعد ما قدمناه من أمرها بالمغرب والله مصرف الأمور لأرب غير

### ❖ ديوان الرسائل والكتابة ❖

هذه الوظيفة غير ضرورية في الملك لاستغناء كثير من الدول عنها رأساً كما في الدول العريقة في البداوة التي لم يأخذها تهذيب الحضارة ولا استحكام الصنائع وإنما كد الحاجة إليها في الدولة الإسلامية شأن اللسان العربي والبلاغة في العبارة عن المقاصد فصار الكتاب يؤدي كنه الحاجة بأبلغ من العبارة اللسانية في الأكثر وكان الكاتب للأمر يكون من أهل نسبه ومن عظماء قبيله كما كان للخلفاء وأمراء الصحابة بالشام والعراق لعظم أمانتهم وخلوص أسرارهم فلم يفسد اللسان وصار صناعة اختص بمن يحسنه وكانت عند بني العباس رفيعة وكان الكاتب يصدر السجلات مطلقة ويكتب في آخرها اسمه ويختم عليها بخاتم السلطان وهو طابع منقوش فيه اسم السلطان أو شارته يغمس في طين أحمر مذاب بالماء ويسمى



طين الختم ويطبع به على طرفي السجل عند طيه والصاقه ثم صارت السجلات من بعدهم تصدر باسم السلطان ويضع الكاتب فيها علامته أولا أو آخرها على حسب الاختيار في محلها وفي لفظها ثم قد تنزل هذه الخطة بارتفاع المكان عند السلطان لغير صاحبها من أهل المراتب في الدولة أو استبداد وزير عليه فتصير علامة هذا الكتاب ملغاة الحكم بعلامة الرئيس عليه يستدل بها في كتب صورة علامته المعهودة والحكم لعلامة ذلك الرئيس كما وقع آخر الدولة الحفصية لما ارتفع شأن الحجابة وصار أمرها إلى التفويض ثم الاستبداد صار حكم العلامة التي للكاتب ملغى وصورتها ثابتة اتباعا لما سلف من أمرها فصار الحاجب يرسم للكاتب إمضاء كتابه ذلك بخط يصنعه ويتخير له من صيغ الانفاذ ما شاء فيأتمر الكاتب له ويضع العلامة المعتادة وقد يختص السلطان بنفسه بوضع ذلك إذا كان مستبدا بأمره قائما على نفسه في رسم الأمر للكاتب ليضع علامته ومن خطط الكتابة التوقيع وهو أن يجلس الكاتب بين يدي السلطان في مجالس حكمه وفصله ويوقع على القصص المرفوعة إليه أحكامها والفصل فيها متلقاة من السلطان بأوجز لفظ وأبلغه فاما أن تصدر كذلك وأما أن يخذو الكاتب على مثالها في سجل يكون بيد صاحب القصة ويحتاج الموقع إلى عارضة من البلاغة يستقيم بها توقيعه وقد كان جعفر بن يحيى يوقع في القصص بين يدي الرشيد ويرحم بالقصة إلى صاحبها فكانت توقيعاته يتنافس البلغاء في تحصيلها للوقوف فيها على أساليب البلاغة وفنونها حتى قيل أنها كانت تباع كل قصة منها بدينار وهكذا كان شأن الدرل

\* واعلم أن صاحب هذه الخطة لا بد أن يتخير من أرفع طبقات الناس وأهل المروءة والحشمة منهم وزيادة العلم وعارضة البلاغة فانه معرض للنظر في أصول العلم لما يعرض في مجالس الملوك ومقاصد أحكامهم من أمثال ذلك مع ما تدعو إليه عشرة الملوك من القيام على الآداب والتخلق بالفضائل مع ما يضطر إليه في الترسيل وتطبيق مقاصد الكلام من البلاغة وأسرارها وقد تكون الرتبة في بعض الدول مستندة إلى أرباب السيوف لما يقتضيه طبع الدولة من البعد عن معانات العلوم لأجل سدا جراحة العصبية فيختص السلطان أهل عصبية بخطوط دولته وسائر رتبته فيقلد المال والسيف والكتابة منهم فأما رتبة السيوف فتستغنى عن معاناة العلم وأما المال والكتابة فيضطر إلى ذلك للبلاغة في هذه والحسبان في الأخرى فيختارون لها من هذه الطبقة ما دعت إليه الضرورة ويقلدونه إلا أنه لا تكون يد آخر من هذه العصبية غالبية على يده ويكون نظره متصرفا عن نظره كما هو في دولة الترك لهذا العهد بالشرق فان الكتابة عندهم وإن كانت لصاحب الانشاء إلا أنه تحت يد أمير من أهل عصبية السلطان يعرف بالدوידار وتعويل السلطان ووثوقه به واستنামته في غالب أحواله إليه وتعويله على الآخر في أحوال البلاغة وتطبيق المقاصد وكتمان الأسرار وغير ذلك من توابعها وأما الشروط العترة في صاحب هذه الرتبة التي يلاحظها السلطان في اختياره وانتقائه من أصناف الناس فهي كثيرة وأحسن من استوعبها عبد الحميد الكاتب في رسالته إلى الكتاب وهي أما بعد حفظكم الله يا أهل صناعة الكتابة وحاطكم ووقفكم

وأرشدكم فان الله عز وجل جعل الناس بعد الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ومن بعد الملوك المكرمين أصنافا وإن كانوا في الحقيقة سواء وصرفهم في صنوف الصناعات وضروب المحاولات إلى أسباب معاشهم وأبواب أرزاقهم فجعلكم معشر الكتاب في أشرف الجهات أهل الأدب والروآت والعلم والرزانة بكم ينتظم للخلافة محاسنها وتستقيم أمورها وبصنائحكم يصلح الله للخلاق سلطانهم وتعمر بلدانهم لا يتغنى الملك عنكم ولا يوجد كاف إلا منكم فوقكم من الملوك موقع أسماعهم التي بها يسمعون وأبصارهم التي بها يبصرون وألسنتهم التي بها ينطقون وأيديهم التي بها يبطشون فامتعم الله بما خصكم من فضل صناعته ولا تزع عنكم ما أضفاه من النعمة عليكم وليس أحد من أهل الصناعات كلها أحوج إلى اجتماع خلال الخير المحموده وخصال الفضل المذكورة المعدودة منكم أيها الكتاب إذا كنتم على ما يأتي في هذا الكتاب من صفته فان الكاتب يحتاج من نفسه ويحتاج منه صاحبه الذي يثق به في مهمات أموره أن يكون حليما في موضع الحلم فيها في موضع الحكم مقداما في موضع الاقدام مجاما في موضع الاحجام مؤثرا للعفاف والعدل والانصاف كتمو ما لا سرار وفياعند الشدائد عالما بما يأتي من النوازل يضع الأمور مواضعها والطوارق في أما كتبها قد نظرت في كل فن من فنون العلم فأحكمه وإن لم يحكمه أخذته بمقدار ما يكتفي به يعرف بغريزة عقله وحسن أدبه وفضل تجربته ما يرد عليه قبل وروده وعاقبه ما يصدر عنه قبل صدوره فيعدل كل أمر عدته وعتاده ويهيئ لكل وجه هيئته وعادته فتنافسوا يا معشر الكتاب في صنوف الآداب وتفقهوا في الدين وابدؤا بعلم كتاب الله عز وجل والفرائض ثم العربية فانها ثقاف ألسنتكم ثم أجيدوا الخط فانه حلية كتبكم وارووا الأشعار واعرفوا غريبها ومعانيها وأيام العرب والعجم وأحاديثها وسيرها فان ذلك معين لكم على ما تسمو اليه هممكم ولا تضيعوا النظر في الحساب فانه قوام كتاب الخراج وارغبوا بأنفسكم عن المطامع سنيها ودينها وسفاه الأمور وعماقرها فانها مذلة للرقاب مفسدة للكتاب ونزهوا صناعته عن الدناءة واربوا بأنفسكم عن السعاية والنميمة وما فيه أهل الجهالات واياكم والكبر والسخف والعظمة فانها عداوة محبلة من غير احنة وتحابوا في الله عز وجل في صناعته وتواصوا عليها بالذي هو أليق لأهل الفضل والعدل والنبل من سلفكم وان بنا الزمان برجل منكم فاعطفوا عليه وواسوه حتى يرجع اليه حاله ويثوب اليه أمره وان أقعد أحدكم الكبر عن مكسبه ولقاء اخوانه فزوروه وعظموه وشاوروه واستظروا بفضل تجربته وقديم معرفته وليكن الرجل منكم على من اصطنعه واستظهر به ليوم حاجته اليه أحوط منه على ولده وأخيه فان عرضت في الشغل محمدا فلا يصرفها إلا إلى صاحبه وإن عرضت مذمة فليحملها هو من دونه وليحذر السقطة والزلة والملل عند تغير الحال فان العيب اليكم معشر الكتاب أسرع منه إلى الغراء وهو لكم أفسد منه لها فقد علمتم أن الرجل منكم إذا صحبه من يبدل له من نفسه ما يجب له عليه من حقه فواجب عليه أن يعتقده من وفائه وشكره واحتماله وخيره ونصيحته وكتان سره وتدير أمره ما هو جزاء لحقه ويصدق ذلك تبعاله عند الحاجة اليه والاضطرار إلى ماله فيه فاستشعروا ذلك وفقكم الله من أنفسكم في حالة

الرخاء والشدّة والحِرمان والمواساة والاحسان والسراء والضراء فنعمت الشيمة هذه من وسَمِ بهامَن  
أهل هذه صناعة الشريفة وإذا ولى الرجل منكم أو صير اليه من أمر خلق الله وعياله أمر فليراقب الله  
عز وجل وليؤثر طاعته وليكن على الضعيف رفيقا وللْمُظْلوم منصفًا فإن الخلق عيال الله وأحبهم اليه  
أرْقَقَهُمْ بَعْيَالَهُ ثُمَّ لِيَكُن بِالْعَدْلِ حَاجًا وَلَا أَشْرَافَ مَكْرَ مَا وَلَّى مَوْفِرًا وَلِلْبَلَادِ عَامِرًا وَلِلرَّعِيَةِ مُتَأَلِّفًا وَعَنْ  
أَذَاهُ مُتَخَلِّفًا وَلِيَكُن فِي مَجْلِسِهِ مَتَوَاضِعًا حَلِيمًا وَفِي سَجَلَاتِهِ خَرَجُهُ وَاسْتِقْضَاءُ حَقُّوقِهِ رَفِيقًا وَإِذَا حَبِبَ  
أَحَدُكُمْ رَجُلًا فَلْيَخْتَبِرْ خَلَاتِقَهُ فَإِذَا عَرَفَ حَسَنَهَا وَقَبِيحَهَا أَغَانَهُ عَلَى مَا يُوَاقِقُهُ مِنَ الْحَسَنِ وَاحْتَالَ عَلَى  
صَرْفِهِ عَمَائِهِ وَاهٍ مِنَ الْقَبِيحِ بِالطُّفِ حِيلَةٌ وَأَجْمَلُ وَسِيلَةٌ وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ سَائِسَ الْبَهِيمَةِ إِذَا كَانَ بِصِيرَا  
بِسَائِسَتِهَا التَّمَسُّ مَعْرِفَةُ أَخْلَاقِهَا فَإِنْ كَانَتْ رَمَوْحًا لَمْ يَهْجُبْهَا إِذَا رَكِبَهَا وَإِنْ كَانَتْ شَبُوبًا اتَّقَاهَا مِنْ بَيْنِ  
يَدَيْهَا وَإِنْ خَافَ مِنْهَا شَرُّهُ دَانَتْ وَقَاهَا مِنْ نَاحِيَةِ رَأْسِهَا وَإِنْ كَانَتْ حُرُوقًا نَمَعَ بِرَفَقٍ هَوَاهَا فِي طَرَقِهَا فَإِنْ  
اسْتَمَرَّتْ عَظْفُهَا يَسِيرًا فَيَسْلُسُ لَهُ قِيَادُهَا وَفِي هَذَا الْوَصْفِ مِنَ السِّيَاسَةِ دَلَائِلُ لِمَنْ سَاسَ النَّاسَ وَعَامَلَهُمْ  
وَجَرَبَهُمْ وَدَاخَلَهُمْ وَالْكَاتِبُ لِفَضْلِ أَدَبِهِ وَشَرِيفِ صَنْعَتِهِ وَلَطِيفِ حِيلَتِهِ وَمُعَامَلَتِهِ لِمَنْ يَحَاوِلُهُ مِنَ النَّاسِ  
وَبِنَظَرِهِ وَيَفْهَمُ عَنْهُ أَوْ يَخَافُ سَطْوَتَهُ أَوْ لِي بِالرَّفَقِ لِصَاحِبِهِ وَمِدَارِ اتِّهَاتِهِ وَتَقْوِيمِ أَوْدِهِ مِنْ سَائِسِ الْبَهِيمَةِ  
الَّتِي لَا تَخِيرُ جَوَابًا وَلَا تَعْرِفُ صَوَابًا وَلَا تَفْهَمُ خَطَابًا لَا يَقْدِرُ مَا يَصِيرُهَا إِلَيْهِ صَاحِبُهَا الرَّكْبُ عَلَيْهَا إِلَّا فَارَقُوا  
رَحِمَ اللَّهُ فِي النَّظَرِ وَاعْمَلُوا مَا أَمَكُنْكُمْ فِيهِ مِنَ الرُّوْيَةِ وَالْفِكْرِ تَأْمَنُوا بِأَذْنِ اللَّهِ مَنْ حَبَّتْ مَوَاهِجُ النُّبُوَّةِ  
وَالِاسْتِقْثَالِ وَالْجَفْوَةِ وَيَصِيرُ مِنْكُمْ إِلَى الْمَوَافَقَةِ وَتَصِيرُ مِنْكُمْ إِلَى الْمَوَافَقَةِ وَالشَّقَّةُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ وَلَا يَجَاوِزُنِ  
الرَّجُلُ مِنْكُمْ فِي هَيْئَةٍ مَجْلِسِهِ وَمَلْبَسِهِ وَمَرْكَبِهِ وَمَطْعَمِهِ وَمَشْرَبِهِ وَنَبَالِهِ وَخَدْمِهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ فَنُونِ أَمْرِهِ  
قَدَرِ حَقِّهِ فَإِنَّكُمْ مَعَ مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ مِنْ شَرَفِ صَنْعَتِكُمْ خَدْمَةً لَا تَحْمِلُونَ فِي خَدْمَتِكُمْ عَلَى التَّقْصِيرِ وَحِفْظَةٍ  
لَا تَحْمِلُ مِنْكُمْ أَفْعَالُ التَّضْيِيعِ وَالتَّبْذِيرِ وَاسْتَعِينُوا عَلَى عَفَاكُمْ بِالْقَصْدِ فِي كُلِّ مَا ذَكَرْتُمْ لَكُمْ وَقَصَصْتُمْ  
عَلَيْكُمْ وَاحْذَرُوا مَتَالِفَ السَّرَفِ وَسُوءَ عَاقِبَةِ التَّرَفِ فَانْهَمَا يَعْقِبَانِ الْفَقْرَ وَيَذْلَانِ الرِّقَابَ وَيُفْضِحَانِ  
أَهْلَهُمَا وَلَا سِيَّامَا الْكِتَابَ وَأَرْبَابَ الْآدَابِ وَلَا أُمُورَ أَشْيَاءِهِ وَبَعْضُهَا دَلِيلٌ عَلَى بَعْضٍ فَاسْتَدْلُوا عَلَى مَوْثِقِ  
أَعْمَالِكُمْ بِمَا سَبَقَتْ إِلَيْهِ تَجَرِبَتُكُمْ ثُمَّ اسْلُكُوا مِنْ مَسَالِكِ التَّبْذِيرِ أَوْ نَحْبِهَا حَاجَةً وَأَصْدَقَهَا حَاجَةً وَأَحْمَدُهَا  
عَاقِبَةً وَاعْمَلُوا أَنَّ لِلتَّبْذِيرِ آفَةً مُتَلَفَةً وَهُوَ الْوَصْفُ الشَّاعِلُ لِصَاحِبِهِ عَنْ انْفِادِ عَمَلِهِ وَرَوِيَّتِهِ فَلْيَقْصِدِ الرَّجُلُ  
مِنْكُمْ فِي مَجْلِسِهِ قَصْدَ الْكَافِي مِنْ مَنْطِقِهِ وَلِيُوجِزْ فِي ابْتِدَائِهِ وَجَوَابِهِ وَلِيَأْخُذْ بِمَجَامِعِ حُجَجِهِ فَإِنْ ذَلِكَ  
مُصْلِحٌ لِفَعْلِهِ وَمُدْفَعٌ لِلشَّاعِلِ عَنْ أَكْثَارِهِ وَلِيَضْرَعْ إِلَى اللَّهِ فِي صَلَةِ تَوْفِيقِهِ وَامْدَادِهِ بِتَسْديدِهِ مَخَافَةَ  
وَقُوعِهِ فِي الْغَلْطِ الْمُضْرِبِ بَدْنَهُ وَعَقْلَهُ وَآدَابَهُ فَإِنَّهُ إِنْ ظَنَّ مِنْكُمْ ظَانًا أَوْ قَالَ قَائِلًا إِنْ أَلْدَى بَرَزَ مِنْ جَمِيلِ  
صَنْعَتِهِ وَقُوَّةِ حَرَكَتِهِ إِنَّمَا هُوَ بِفَضْلِ حِيلَتِهِ وَحَسَنِ تَدْبِيرِهِ فَقَدْ تَعَرَّضَ بِحَسَنِ ظَنِّهِ أَوْ مَقَالَتِهِ إِلَى أَنْ يَكْلَهُ  
اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى نَفْسِهِ فَيَصِيرُ مِنْهَا إِلَى غَيْرِ كَافٍ وَذَلِكَ عَلَى مَنْ تَأَمَّلَهُ غَيْرُ خَافٍ وَلَا يَقُولُ أَحَدُكُمْ أَنَّهُ أَبْصَرَ  
بِالْأُمُورِ وَأَحْمَلُ لَعَبِ التَّدْبِيرِ مِنْ مِرَاقِقِهِ فِي صَنْعَتِهِ وَمُصَاحَبِهِ فِي خَدْمَتِهِ فَإِنَّ أَعْقَلَ الرَّجُلَيْنِ عِنْدَ ذِي  
الْأَلْبَابِ مَنْ رَمَى بِالْعَجَبِ وَرَأَاهُ ظَهَرَ وَرَأَى أَنَّ أَصْحَابَهُ أَعْقَلَ مِنْهُ وَأَجْمَلَ فِي طَرِيقَتِهِ وَعَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ



الفريقين أن يعرف فضل نعم الله جل ثناؤه من غير اغترار برأيه ولا تزكية لنفسه ولا يكثر على أخيه أو نظيره وصاحبه وعشيرته وحمد الله واجب على الجميع وذلك بالتواضع لعظمته والتذلل لعزته والتحدث بنعمته (وأنا أقول) في كتابي هذا ما سبق به المثل من تلزمه النصيحة يلزمه العمل وهو جوهر هذا الكتاب وغرة كلامه بعد الذي فيه من ذكر الله عز وجل فلذلك جعلته آخره وتممته به تولانا الله وإياكم يامعشر الطلبة والكتبة بما يتولى به من سبق علمه باسعاده وارشاده فان ذلك إليه ويده والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته اهـ ﴿الشرطة﴾ ويسمى صاحبها لهذا العهد بأفريقية الحاكم وفي دولة أهل الأندلس صاحب المدينة وفي دولة الترك الوالي وهي وظيفة مرؤسة لصاحب السيف في الدولة وحكمه نافذ في صاحبها في بعض الأحيان وكان أصل وضعها في الدولة العباسية لمن يقيم أحكام الجرائم في حال استبدائها أو لائم الحدود بعد استيفائها فان التهم التي تعرض في الجرائم لا نظر للشرع الا في استيفاء حدودها وللسياسة النظر في استيفاء موجباتها باقرار يكرهه عليه الحاكم إذا احتفت به القرائن لما توجه المصلحة العامة في ذلك فكان الذي يقوم بهذا الاستبداء وباستيفاء الحدود بعده إذا تنزه عنه القاضي يسمى صاحب الشرطة وربما جعلوا اليه النظر في الحدود والدماء باطلاق وأفردوها من نظر القاضي ونزهاها هذه المرتبة وقلدوها كبار القواد وعظماء الخاصة من مواليهم ولم تكن عامة التنفيذ في طبقات الناس إنما كان حكمهم على الدهماء وأهل الريب والضرب على أيدي الرعاع والفجرة ثم عظمت نهايتها في دولة بني أمية بالأندلس ونوعت إلى شرطة كبرى وشرطة صغرى وجعل حكم الكبرى على الخاصة والدهماء وجعل له الحكم على أهل المراتب السلطانية والضرب على أيديهم في الظلمات وعلى أيدي أقاربهم ومن اليهم من أهل الجاه وجعل صاحب الصغرى مخصوصا بالعامة ونصب لصاحب الكبرى كرسي ياب دار السلطان ورجال يتبوؤن المقاعد بين يديه فلا يرحون عنها إلا في تصريفه وكانت ولايتها للأكابر من رجالات الدولة حتى كانت ترشيحا للوزارة والحجابه وأما في دولة الموحدين بالمغرب فكان لها حظ من التنويه وإن لم يجعلوها عامة وكان لا يليها إلا رجالات الموحدين وكبرائهم ولم يكن له التحكم على أهل المراتب السلطانية ثم فسد اليوم منصبها وخرجت عن رجال الموحدين وصارت ولايتها لمن قام بها من المصطنعين وأما في دولة بني مرين لهذا العهد بالمشرق فولايته في بيوت من مواليهم وأهل اصطناعهم وفي دولة الترك بالمشرق في رجالات الترك أو أعقاب أهل الدولة قبلهم من الكرديتخير ونهملها في النظر بما يظهر منهم من الصلافة والمضاء في الأحكام لقطع مواد الفساد وحسم أبواب الدعارة وتخريب مواطن الفسوق وتفريق مجامعهم مع إقامة الحدود الشرعية والسياسية كما تقتضيه رعاية المصالح العامة في المدينة والله مقلب الليل والنهار وهو العزيز الجبار والله تعالى أعلم

﴿قيادة الأساطيل﴾ وهي من مراتب الدولة وخططها في ملك المغرب وأفريقية ومرؤسة لصاحب السيف وتحت حكمه في كثير من الأحوال ويسمى صاحبها في عرفهم الملند بتفخيم اللام منقولاً من

لغة الافرنجية فانه اسمها في اصطلاح لغتهم وإنما اختصت هذه المرتبة بملك أفريقية والمغرب لأنهما جميعا على ضفة البحر الرومي من جهة الجنوب وعلى عدوته الجنوبية بلاد البربر كلهم من سبتة إلى الاسكندرية إلى الشام وعلى عدوته الشمالية بلاد الأندلس والافرنجية والصقالبة والروم إلى بلاد الشام أيضا ويسمى البحر الرومي والبحر الشامي نسبة إلى أهل عدوته والساكسون بسيف هذا البحر وسواحلها من عدوته يعانون من أحواله مالا تعانية أمة من أم البحار فقد كانت الروم والافرنجية والقوط بالعدوة الشمالية من هذا البحر الرومي وكانت أكثر حروبهم ومتاجرم في السفن فكانوا مهرة في ركوبه والحرب في أساطيله ولما أسف من أسف منهم إلى ملك العدو الجنوبية مثل الروم إلى أفريقية والقوط إلى المغرب أجازوا في الأساطيل وملكوه وتغلبوا على البربر بها وانتزعوا من أيديهم أمراها وكان لهم بها المدن الحافلة مثل قرطاجنة وسيطة وجولاء ومرناق وشرشال وطنجة وكان صاحب قرطاجنة من قبلهم يحارب صاحب رومة ويبحث الأساطيل لحربه مشحونة بالعساكر والعدد فكانت هذه عادة لأهل هذا البحر الساكنين حقا فيه معروفة في القديم والحديث ولما ملك المسلمون مصر كتب عمر ابن الخطاب إلى عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن صف لي البحر فكتب اليه إن البحر خلق عظيم يركبه خلق ضعيف ودود على عود فأوعز حينئذ بمنع المسلمين من ركوبه ولم يركبه أحد من العرب الا من اقتات على عمر في ركوبه ونال من عقابه كما فعل بعرجة بن هرثة الأزدى سيد بحيلة لما أغراه عمان فبلغه غزوه في البحر فأنكر عليه وعنفه أنه ركب البحر للغزو ولم يزل الشأن ذلك حتى إذا كان لعهد معاوية أذن للمسلمين في ركوبه والجهاد على أعواده والسبب في ذلك أن العرب كانوا لبدأوتهم لم يكونوا أول الأمر مهرة في ثقافته وركوبه والروم والافرنجية لما رستهم أحواله ومرباهم في القلب على أعواده من نوا عليه وأحكموا الدربة بثقافته فلما استقر الملك للعرب وشمخ سلطانهم وصارت أم العجم خولا لهم وتحت أيديهم وتقرب كل ذي صنعة اليهم بمبلغ صناعته واستخدموا من النواتية في حاجاتهم البحرية أمما وتكارت ممارستهم للبحر وثقافته استحدثوا بصراء بها فشرهوا إلى الجهاد فيه وأنشؤا السفن فيه والشواني وشحنوا الأساطيل بالرجال والسلاح وأمطوها العساكر والمقاتلة لمن وراء البحر من أم الكفر واختصوا بذلك من ممالكهم وثغورهم ما كان أقرب لهذا البحر وعلى حافته مثل الشام وأفريقية والمغرب والأندلس وأوعز الخليفة عبد الملك إلى حسان بن النعمان عامل أفريقية باتخاذ دار الصناعة بتونس لانشاء الآلات البحرية حرصا على مراسم الجهاد ومنها كان فتح صقلية أيام ريادة الله الأول ابن ابراهيم ابن الأغلب على يد أسد بن الفرات شيخ الفتيان وفتح قوصرة أيضا في أيامه بعد أن كان معاوية بن حديج أغزى صقلية أيام معاوية بن أبي سفيان فلم يفتح الله على يديه وفتح على يد ابن الأغلب وقتله أسد ابن الفرات وكانت من بعد ذلك أساطيل أفريقية والأندلس في دولة العبيديين والأمويين تتعاقب إلى بلادها في سبيل الفتنة فتجوس خلال السواحل بالافساد والتخريب وانتهى أسطول الأمم لئس أيام عبد الرحمن

الناصر إلى مائتي مركب أو نحوها وأسطول أفريقية كذلك مثله أو قريبا منه وكان قائد الأساطيل بالأندلس بن رماحس ومرفؤها للحط والاقلاع بحماية والمرية وكانت أساطيلها مجتمعة من سائر الممالك من كل بلد تتخذ فيه السفن أسطول يرجع نظره إلى قائد من النواتية يدبر أمر حربه وسلاحه ومقاتلته ورئيس يدبر أمر جريته بالريخ أو بالمجازيف وأمرار سائه في مرفئه فاذا اجتمعت الأساطيل لغزو ومحتفل أو غرض سلطان مهم عسكرت بمرقها المعلوم وشحنها السلطان برجاله وانجاد عساكره ومواليه وجعلهم لنظر أمير واحد من أعلى طبقات أهل مملكته يرجعون كلهم إليه ثم يسرحهم لوجههم وينتظر إياهم بالفتح والغنيمة وكان المسلمون لعهد الدولة الإسلامية قد غلبوا على هذا البحر من جميع جوانبه وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه فلم يكن للأمم النصرانية قبل بأساطيلهم بشئ من جوانبه وامتطوا ظهره للفتح سائر أيامهم فكانت لهم المقامات المعروفة من الفتح والغنائم وملكوا سائر الجزائر المنقطعة عن السواحل فيه مثل ميورقة ومنورقة ويايسة وسردانية وصقلية وقوصرة ومالطة وإقريطش وقبرص وسائر ممالك الروم والافرنج وكان أبو القاسم الشيعي وأبناءؤه يغزون أساطيلهم من المهدية جزيرة جنوة فتقلب بالظفر والغنيمة وافتتح مجاهد العامري صاحب دانية من ملوك الطوائف جزيرة سردانية في أساطيله سنة خمس وأربعمائة وارتجعها النصارى لوقتها والمسلمون خلال ذلك كله قد تغلبوا على كثير من لجة هذا البحر وسارت أساطيلهم فيهم جائية وذاهبة والعساكر الإسلامية تبحر والبحر في الأساطيل من صقلية إلى البر الكبير المقابل لها من الدولة الشمالية فتوقع ملوك الافرنج وتشحن في ممالكهم كواقع في أيام بني الحسين ملوك الصقلية القائمين فيها بدعوة العبيديين وانحازت أم النصرانية بأساطيلهم إلى الجانب الشمالي الشرقي منه من سواحل الافرنجة والصقلية وجزائر الرومانية لا يعدونها وأساطيل المسلمين قد ضريت عليهم ضراء الأسد على فريسته وقد ملأت الأساطيل من سيط هذا البحر عدة وعددا واختلفت في طرقه سلما وحربا فلم تسبح للنصرانية فيه ألواح حتى إذا أدركت الدولة العبيدية والاموية الفشل والوهن وطرقها الاعتدال مد النصارى أيديهم إلى جزائر البحر المتوسط مثل صقلية وإقريطش ومالطة فملكوها ثم ألحوا على سواحل الشام في تلك الفترة وملكوا الرابلس وعسقلان وصور وعكا واستولوا على جميع الثغور بسواحل الشام وغلبوا على بيت المقدس وبنوا عليه كنيسة لاظهار دينهم وعبادتهم وغلبوا بني خزرون على طرابلس ثم على قابس وصفاقس ووضعوا عليهم الجزية ثم ملكوا المهدية مقر ملوك العبيديين من يد أعقاب بلكين ابن زيري وكانت لهم في المائة الخامسة الكثرة بهذا البحر وضعف شأن الأساطيل في دولة مصر والشام إلى أن انقطع ولم يعتنوا بشئ من أمره لهذا العهد بعد أن كان لهم به في الدولة العبيدية عناية تجاوزت الحد كما هو معروف في أخبارهم فبطل رسم هذه الوظيفة هنالك وبقيت بأفريقية والمغرب فصار تحت تصرفها وكان الجانب الغربي من هذا البحر لهذا العهد موفور الأساطيل ثابت القوة لم يتحيفه عدو ولا كانت لهم به كلفة فكان قائد الأسطول به لعهد تونة بني ميمون رؤساء جزيرة قادس ومن أيديهم أخذها عبد المؤمن بتسليمهم وطاعتهم وانتهى عدد أساطيلهم إلى



المائة من بلاد العدوتين جميعاً \* ولما استفحلت دولة الموحدين في المائة السادسة وملكوا العدوتين أقاموا خطة هذا الأسطول على أتم ما عرف وأعظم ما عهد وكان قائد أسطولهم أحمد الصقلي أصله من صديغار الوطنين بحزيرة جربة من سروي كيش أسره النصراني من سواحله وأوربي عندهم واستخلصه صاحب صقلة واستكفاه ثم هلك وولى ابنه فأسخطه ببعض النزعات وخشى على نفسه ولحق بتونس ونزل على السيد بها من بني عبد المؤمن وأجاز إلى مرا كاش فتلقيه الخليفة يوسف بن عبد المؤمن بالبرة والكرامة وأجزل الصلة وقلده أمراً أساطيله فجلى في جهاد أمم النصرانية وكانت له آثار وأخبار ومقامات مذكورة في دولة الموحدين وانتهت أساطيل المسلمين على عهده في الكثرة والاستجادة إلى ما لم تبلغه من قبل ولا من بعده فإما عهد ناه و لما قام صلاح الدين يوسف بن أيوب ملك مصر والشام لعهدده باسترجاع ثغور الشام من أمم النصرانية وتطهير بيت المقدس من رجس الكفر وبنائه تتابعت أساطيلهم الكفرية بالمدد لتلك الثغور من كل ناحية قريبة لبيت المقدس الذي كانوا قد استولوا عليه فأمدمهم بالعدد والأقوات ولم تقاومهم أساطيل الاسكندرية لاستمرار الغلب لهم في ذلك الجانب الشرق من البحر وتعد أساطيلهم فيه وضعف المسلمين منذ زمان طويل عن ممانعتهم هناك كما أشرنا إليه قبل فإو فد صلاح الدين على أبي يعقوب المنصور سلطان المغرب لعهدده من الموحدين رسوله عبد الكريم ابن منقذ من بيت بني منقذ ملوك شيرز وكان ملكهما من أيديهم وأبقى عليهم في دولته فبعث عبد الكريم منهم هذا إلى ملك المغرب طالباً بمدد الأساطيل لتجول في البحرين أساطيل الكفرة وبين مرامهم من إمداد النصرانية بثغور الشام وأصحبه كتابه إليه في ذلك من إنشاء الفاضل اليبساني يقول في افتتاحه فتح الله لسيدنا أبواب المناجخ والميامن حسبما نقله العماد الأصفهاني في كتاب الفتح القدسي فنقم عليهم المنصور تجافهم عن خطابه بأمر المؤمنين وأسر هافى نفسه وحملهم على مناهج البر والكرامة وردم إلى مرسلهم ولم يجبه إلى حاجته من ذلك وفي هذا دليل على اختصاص ملك المغرب بالأساطيل وما حصل للنصرانية في الجانب الشرق من هذا البحر من الاستطالة وعدم عناية الدول بعصر والشام لذلك العهد وما بعده لشأن الأساطيل البحرية والاستعداد منها للدولة ولما هلك أبو يعقوب المنصور واعتلت دولة الموحدين واستولت أمم الجلائقة على أكثر من بلاد الأندلس وألجؤ المسلمين إلى سيف البحر وملكوا الجزائر التي بالجانب الغربى من البحر الرومى قويت ريحهم في بسط هذا البحر واشتدت شوكتهم وكثرت فيه أساطيلهم وتراجعت قوة المسلمين فيه إلى المساواة معهم كما وقع لعهد السلطان أبي الحسن ملك زناتة بالمغرب فان أساطيله كانت عند مرامه الجهاد مثل عدة النصرانية وعديدهم ثم تراجعت عن ذلك قوة المسلمين في الأساطيل لضعف الدولة ونسيان عوائد البحر بكثرة العوائد البدوية بالمغرب وانقطاع العوائد الأندلسية ورجع النصارى فيه إلى دينهم المعروف من الدربة فيه والمران عليه والبصر بأحواله وغلب الأتم في لجته وعلى أعواده وصار المسلمون فيه كالأجانب الا قليلا من أهل البلاد الساحلية لهم المران عليه لو وجدوا كثرة من الانصار والأعوان أو قوة

من الدولة تستجيش لهم أعوانا وتوضح لهم في هذا الغرض مسلكا أوبقيت الرتبة لهذا العهد في الدولة الغربية محفوظة والرسم في معاناة الأساطيل بالانشاء والركوب معهودا لماعساه تدعواليه الحاجة من الأعراض السلطانية في البلاد البحرية والمسامون يستهبون الرمح على الكفر وأهله فمن المشتهرين أهل المغرب عن كتب الحدثان أنه لا بد للمسلمين من الكرة على النصرانية وافتتاح ما وراء البحر من بلاد الافرنجة وأن ذلك يكون في الأساطيل والله ولي المؤمنين وهو > بنا ونعم الوكيل

### ٣٦ فصل في التفاوت بين مراتب السيف والقلم في الدول ❦

(اعلم) أن السيف والقلم كلاهما آلة لصاحب الدولة يستعين بهما على أمره الآن الحاجة في أول الدولة إلى السيف مادام أهلها في تمهد أمرهم أشد من الحاجة إلى القلم لأن القلم في تلك الحال خادم فقط منفذ للحكم السلطاني والسيف شريك في المعونة وكذلك في آخر الدولة حيث تضعف عصبيتها كما ذكرناه ويقل أهلها بما ينالهم من الهرم الذي قد مناه فتحتاج الدولة إلى الاستظهار بأرباب السيوف وتقوي الحاجة اليهم في حماية الدولة والمدافعة عنها كما كان شأن أول الأمر في تمهيدها فيكون للسيف منزلة على القلم في الحالتين ويكون أرباب السيف حينئذ أوسع جاها وأكثر نعمة وأبني إقطاعا وأما في وسط الدولة فيستغني صاحبها بعض الشيء عن السيف لأنه قد تمهد أمره ولم يبق همه إلا في تحصيل ثمرات الملك من الجباية والضبط ومباهاة الدول وتنفيذ الأحكام والقلم هو المعين له في ذلك فتعظم الحاجة إلى تصرفه وتكون السيوف مهمة في مضاجع انغمادها إلا إذا نابت نائبة أودعيت إلى سد فرجة وماسوى ذلك فلا حاجة إليها فتكون أرباب الأقلام في هذه الحاجة أوسع جاها وأعلى رتبة وأعظم نعمة وثروة وأقرب من السلطان مجلسا وأكثر اليه ترددا وفي خلواته نجيا لأنه حينئذ آتاه التي بها يستظهر على تحصيل ثمرات ملكه والنظر في أعطافه وتثقيف أطرافه والمباهاة بأحواله ويكون الوزراء حينئذ وأهل السيوف مستغني عنهم مبعدين عن باطن السلطان حذرين على أنفسهم من بوارده وفي معنى ذلك ما كتب به أبو مسلم للمنصور حين أمره بالقدوم أما بعد فإنه مما حفظناه من وصايا الفرس أخوف ما يكون الوزراء إذا سكنت الدهماء سنة الله في عبادته والله سبحانه وتعالى أعلم

### ٣٧ فصل في شارات الملك والسلطان الخاصة به ❦

(اعلم) أن للسلطان شارات وأحوالا تقتضيها الأبهة والبذخ فيختص بها ويتميز بانتحالها عن الرعية والبطانة وسائر الرؤساء في دولته فلنذكر ما هو مشتهر منها بمبلغ المعرفة وفوق كل ذي علم عليم ﴿الآلة﴾ فمن شارات الملك اتخاذ الآلة من نشر الألوية والرايات وقرع الطبول والنفخ في الأبواق والقرون وقد ذكرنا رسطو في الكتاب المنسوب إليه في السياسة أن السرفي ذلك أرباب العدو في الحرب فإن الأصوات الهائلة لها تأثير في النفوس بالروعة ولعمري أنه أمر وجداني في مواطن الحرب يجده كل أحد من نفسه وهذا السبب الذي ذكره أرسطو أن كان ذكره فهو صحيح ببعض

الاعتبارات وأما الحق في ذلك فهو أن النفس عند سماع النغم والأصوات يدركها الفرح والطرب بلا شك فيصيب مزاج الروح نشوة يستسهل بها الصعب ويستमित في ذلك الوجه الذي هو فيه وهذا موجود حتى في الحيوانات العجم بانفعال الابل بالخداء والحيل بالصفير والصريح كما علمت ويزيد ذلك تأثير إذا كانت الأصوات متناسبة كافي الغناء وأنت تعلم ما يحدث لسامعه من مثل هذا المعنى ولا أجل ذلك تتخذ العجم في مواطن حروبهم الآلات الموسيقية (١) لأطبالا ولا بوقا فيحرق المغنون بالسلطان في موكبه بالآتهم ويغنون فيحركون نفوس الشجعان بضربهم إلى الاستماتة ولقد رأينا في حروب العرب من يتغنى أمام الموكب بالشعر ويضطرب فتجيش همم الأبطال بما فيها ويسارعون إلى مجال الحرب وينبعث كل قرن إلى قرنه وكذلك زناتة من أمم المغرب يتقدم الشاعر عندهم أمام الصفوف ويتغنى فيحرك بغنائه الجبال الرواسي ويبعث على الاستماتة من لا يظن بها ويسمون ذلك الغناء تاصوكايت وأصله كله فرح يحدث في النفس فتنبعث عنه الشجاعة كما تنبعث عن نشوة الخمر بما يحدث عنها من الفرح والله أعلم

﴿وأما﴾ تكثير الرايات وتلوينها وإطالتها بالقصد به التهويل لآ أكثر مما يحدث في النفوس من التهويل زيادة في الأقدام وأحوال النفوس وتلويناتها غريبة والله الخلاق العليم ثم أن الملوك والدول يختلفون في اتخاذ هذه الشارات فمنهم أكثر ومنهم مقلد بحسب اتساع الدولة وعظمتها فأما الرايات فلها شعار الحروب من عهد الخليفة ولم تزل الأئم تعقدها في مواطن الحروب والغزوات ولعبد النبي صلى الله عليه وسلم ومن بعده من الخلفاء وأما قرع الطبول والنفخ في الأبواق وكان المسلمون لأول الملة متجافين عنه تنزها عن غلظة الملك ورفضاً لآحواله واحتقاراً لآبهته التي ليست من الحق في شيء حتى إذا انقلبت الخلافة ملكاً وتجبجوا زهرة الدنيا ونعيمها ولا بسهم الموالي من الفرس والروم أهل الدولة السالفة وأروهم ما كان أولئك ينتحلونه من مذاهب البذخ والترف فكان مما استحسناه اتخاذ الآلة فأخذوها وأذنوا العالم في اتخاذها تنويعاً بالملك وأهله فكثيراً ما كان العامل صاحب الثغر أو قائد الجيش يعقده الخليفة من العباسيين أو العبيديين لواءه ويخرج إلى بعثه أو عمله من دار الخليفة أو داره في موكب من أصحاب الرايات والآلات فلا يميز بين موكب العامل والخليفة إلا بكثرة الآلوية وقلتها أو بما اختص به الخليفة من الألوان لرايته كالسواد في رايات بني العباس فان راياتهم كانت سوداً حزاناً على شهدائهم من بني هاشم ونعيان بني أمية في قتلهم ولذلك سمو المسودة ولما افترق أمر الهاشمين وخرج الطالبيون على العباسيين في كل جهة وعصر ذهبوا إلى مخالفتهم في ذلك فأخذوا الرايات بيضاء وسموا المبيضة لذلك سائر أيام العبيديين ومن خرج من الطالبيين في ذلك العهد بالمشرق كالداعي بطبرستان وداعي صعدة أو من دعا إلى بدعة الرافضة من غيرهم كالقرامطة ولما نزع المأمون عن لبس السواد وشعاره

(١) قوله الموسيقية وفي نسخة الموسيقى وهي صحيحة لأن الموسيقى بكسر القاف بين المنحنيين اسم للنغم والآلات وتوقيهما ويقال فيهما موسيقى ويقال لضارب الآلة موسيقار انظر أول سفينة الشيخ محمد شهاب



في دولته عدل إلى لون الحضرة فجعل رايته خضراء وأما الاستكثار منها فلا ينتهي إلى حد وقد كانت آلة العبيدين لما خرج العزيز إلى فتح الشام خمسمائة من البنود وخمسمائة من الأبقار وأما ملوك البربر بالمغرب من صنهاجة وغيرها فلم يختصوا بلون واحد بل وشوها بالذهب واتخذوها من الحرير الخالص ملونة واستمروا على الأذن فيها العالهم حتى إذا جاءت دولة الموحدين ومن بعدهم من زناتة قصرُوا الآلة من الطبول والبنود على السلطان وحظروها على من سواه من عماله وجعلوا لها موكبا خاصا يتبع أثر السلطان في مسيره يسمى الساقة وفيه بين مكث ومقلل باختلاف مذاهب الدول في ذلك فمنهم من يقتصر على سبع من العدد تترك بالسبعة كما هو في دولة الموحدين وبني الأحمر بالأندلس ومنهم من يبلغ العشرة والعشرين كما هو عند زناتة وقد بلغت في أيام السلطان أبي الحسن فيما أدركناه مائة من الطبول ومائة من البنود ملونة بالحرير منسوجة بالذهب ما بين كبير وصغير ويأذنون للولادة والعمال والقواد في اتخاذ راية واحدة صغيرة من الكتان بيضاء وطويل صغير أيام الحرب لا يتجاوزون ذلك وأما دولة الترك لهذا العهد بالشرق فيتخذون أولاراية واحدة عظيمة وفي رأسها خصلة كبيرة من الشعر يسمونها الشالشي والجتر وهي شعار السلطان عندهم ثم تتعدد الرايات ويسمونها السناجق واحدها سنجق وهي الراية بلسانهم وأما الطبول فيألفون في الاستكثار منها ويسمونها الكوسات ويديحون لكل أمير أوقافاً وعسكر أن يتخذ من ذلك ما يشاء إلا الجتر فإنه خاص بالسلطان وأما الجلالقة لهذا العهد من أمم الأفرنجية بالأندلس فأكثر شأنهم اتخاذ الأتوية القليلة ذاهبة في الجوصعدا ومعها قرع الأوتار من الطنابير ونفخ الغيطات يذهبون فيها مذهب الغناء وطريقه في مواطن حروبهم هكذا يبلغنا عنهم وعن وراءهم من ملوك العجم ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألستكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين

﴿ السرير ﴾ وأما السرير والمنبر والتخت والكرسي وهو أعواد منصوبة أو أرائك منضدة لجلوس السلطان عليها مرتفعا عن أهل مجلسه أن يساويهم في الصعيد ولم يزل ذلك من سنن الملوك قبل الإسلام وفي دول العجم وقد كانوا يجلسون على أسرة الذهب وكان لسليمان بن داود صلوات الله عليهما وسلامه كرسي وسرير من عاج معشى بالذهب إلا أنه لا تأخذه الدول إلا بعد الاستفحاح والترف شأن الأبهة كلها كما قلناه وأما في أول الدولة عند البداوة فلا يتشوفون إليه \* وأول من اتخذ في الإسلام معاوية واستأذن الناس فيه وقال لهم إني قد بدنت فأذنوا له فاتخذ وأتبعه الملوك المسلمون فيه وصار من منازع الأبهة ولقد كانت عمرو بن العاص بمصر يجلس في قصره على الأرض مع العرب ويأتيه المقوقس إلى قصره ومعه سرير من الذهب محمول على الأيدي لجلوسه شأن الملوك فيجلس عليه وهو أمامه ولا يغيرون عليه وفاء له بما اعتقد معهم من النعمة واطراحا لأبهة الملك ثم كان بعد ذلك لبني العباس والعبيدين وسائر ملوك الإسلام شرقا وغربا من الأسرة والمنابر والتخوت ما عفا عن الأكرسة والقياصرة والله مقلب الليل والنهار ﴿ السكة ﴾ وهي الختم

على الدنانير والدرهم المتعامل بهما بين الناس بطابع حديد ينقش فيه صور أو كلمات مقبولة ويضرب بها على الدينار أو الدرهم فتخرج رسوم تلك النقوش عليها ظاهرة مستقيمة بعد أن يعتبر عيار النقدمن ذلك الجنس في خلوصه بالسبك مرة بعد أخرى وبعد تقدير أشخاص الدرهم والدنانير بوزن معين صحيح يصطلح عليه فيكون التعامل بها عددا وإن لم تقدر أشخاصها يكون التعامل بها وزنا ولفظ السكة كان إسماللطابع وهي الحديد المتخذة لذلك ثم نقل إلى أثرها وهي النقوش الماثلة على الدنانير والدرهم ثم نقل إلى القيام على ذلك والنظر في استيفاء حاجاته وشروطه وهي الوظيفة فصار علما عليها في عرف الدول وهي وظيفة ضرورية للملك إذ بها يتميز الخالص من المغشوش بين الناس في النقود وعند المعاملات ويتقون في سلامتها الغش بختم السلطان عليها بتلك النقوش المعروفة وكان ملوك العجم يتخذونها وينقشون فيها تماثيل تكون مخصوصة بهما مثل تمثال السلطان لعهدها أو تمثيل حصن أو حيوان أو مصنوع أو غير ذلك ولم يزل هذا الشأن عند العجم إلى آخر أمرهم \* ولما جاء الاسلام أغفل ذلك لسداجة الدين وبدادة العرب وكانوا يتعاملون بالذهب والفضة وزنا وكانت دنانير الفرس ودرهمهم بين أيديهم يردونها في معاملتهم إلى الوزن ويتصارفون بهما بينهم إلى أن تفاحش الغش في الدنانير والدرهم لغفلة الدولة عن ذلك وأمر عبد الملك الحجاج على ما نقل سعيد بن المسيب وأبو الزناد بضرب الدرهم وتمييز المغشوش من الخالص وذلك سنة أربع وسبعين وقال المدائني سنة خمس وسبعين ثم أمر بصرفها في سائر النواحي سنة ست وسبعين وكتب عليها الله أحد الله الصمد ثم ولي ابن هبيرة العراق أيام يزيد بن عبد الملك فجود السكة ثم بالغ خالد القسري في تجويدها ثم يوسف بن عمر بعده وقيل أول من ضرب الدنانير والدرهم مصعب بن الزبير بالعراق سنة سبعين بأمر أخيه عبد الله لما ولي الحجاز وكتب عليها في أحد الوجين بركة الله وفي الآخر إسم الله ثم غيرها الحجاج بعد ذلك بسنة وكتب عليها اسم الحجاج وقدر وزنها على ما كانت استقرت أيام عمر وذلك أن الدرهم كان وزنه أول الاسلام ستة دوانق والمثقال وزنه درهم وثلاثة أسباع درهم فتكون عشرة دراهم بسبعة مثاقيل وكان السبب في ذلك أن أوزان الدرهم أيام الفرس كانت مختلفة وكان منها على وزن المثقال عشرون قيراطا ومنها إثنا عشر ومنها عشرة فلما احتيج إلى تقديره في الزكاة أخذ الوسط وذلك إثنا عشر قيراطا فكان المثقال درهما وثلاثة أسباع درهم وقيل كان منها البغلي ثمانية دوانق والطبري أربعة دوانق والمغربى ثمانية دوانق واليمنى ستة دوانق فأمر عمر أن ينظر الأغلب في التعامل فكان البغلي والطبري وهما إثنا عشر دانقا وكان الدرهم ستة دوانق وإن زدت ثلاثة أسباعه كان مثقالا وإذا نقصت ثلاثة أعشار المثقال كان درهما فلما رأى عبد الملك اتخاذ السكة لصيانة النقدين الجارين في معاملة المسلمين من الغش فعين مقدارها على هذا الذي استقر لعهده عمر رضي الله عنه واتخذ طابع الحديد واتخذ فيه كلمات لاصور الآن العرب كان الكلام والبلاغة أقرب مناجيهم وأظهرها مع أن الشرع ينهى عن الصور فلما فعل ذلك استمر بين الناس في أيام الملة كلها وكان الدينار والدرهم على شكلين مدورين والكتابة عليهما في دوائر متوازية يكتب فيها من أحد الوجين

أسماء الله تهليلا وتحميذا وصلاة على النبي وآله وفي الوجه الثاني التاريخ واسم الخليفة وهكذا أيام  
العباسيين والبيديين والامويين وأما صنهاجة فلم يتخذوا سكة الا آخر الأئمة اتخذها منصور صاحب  
بجاية ذكر ذلك ابن حماد في تاريخه ولما جاءت دولة الموحدين كان مما سن لهم المهدي اتخاذ سكة الدرهم  
مربع الشكل وأن يرسم في دائرة الدينار شكل مربع في وسطه ويملا من أحد الجانبين تهليلا وتحميذا  
ومن الجانب الآخر كتب في السطور باسمه واسم الخلفاء من بعده ففعل ذلك الموحدون وكانت سكتهم على  
هذا الشكل لهذا العهد ولقد كان المهدي فيما ينقل ينعت قبل ظهوره بصاحب الدرهم والمربع نعت  
بذلك المتكلمون بالحدثان من قبله المخبرون في ملاحظهم عن دولته وأما أهل المشرق لهذا  
العهد فسكتهم غير مقدرة وإنما يتعاملون بالدينار والدرهم وزنا بالصنجات المقدرة بعدة منها  
ولا يطبعون عليها بالسكة نقوش الكلمات بالتهليل والصلاة واسم السلطان كما يفعله أهل المغرب  
ذلك تقدير العزيز العليم ( ولنختم الكلام ) في السكة بذكر حقيقة الدرهم والدينار الشرعيين  
وبيان حقيقة مقدارهما وذلك أن الدينار والدرهم مختلفا السكة في المقدار والموازين بالآفاق والائصار  
وسائر الأعمال والشرع قد تعرض لذكرهما وعلق كثيرا من الأحكام بهما في الزكاة والائسكة  
والحدود وغيرهما فلا بد لهما عنده من حقيقة ومقدار معين في تقدير تجري عليهما أحكامه دون غير الشرعي  
منهما فاعلم أن الاجماع منعقد منذ صدر الاسلام وعهد الصحابة والتابعين أن الدرهم الشرعي هو  
الذي وزن العشرة منه سبعة مثاقيل من الذهب والاقية منه أربعين درهما وهو على هذا سبعة أعشار  
الدينار ووزن المثقال من الذهب اثنتان وسبعون حبة من الشعير فالدرهم الذي هو سبعة أعشاره خمسون  
حبة وخمسة حبة وهذه التقادير كلها ثابتة بالاجماع فان الدرهم الجاهلي كان بينهم على أنواع أحودها الطبري  
وهو ثمانية دوانق والبغلي وهو أربعة دوانق فجعلوا الشرعي بينهما وهو ستة دوانق فكانوا يوجبون  
الزكاة في مائة درهم بغليه ومائة طبرية خمسة دراهم وسطا وقد اختلف الناس هل كان ذلك من موضع  
عبد الملك أو اجماع الناس بعد عليه كما ذكرناه ذلك الخطام في كتب معالم السنن والماوردي في الأحكام  
السلطانية وأنكره المحققون من المتأخرين لما يلزم عليه أن يكون الدينار والدرهم شرعيان مجهولين  
في عهد الصحابة ومن بعدهم مع تعلق الحقوق الشرعية بهما في الزكاة والائسكة والحدود وغيرهما كما  
ذكرناه والحق أنهما كانا معلومى المقدار في ذلك العصر لجريان الأحكام يومئذ بما يتعلق بهما من الحقوق  
وكان مقدارهما غير مشخص في الخارج وإنما كان متعارفا بينهم بالحكم الشرعي على المقدار في مقدارهما  
وزنهما حتى استفحل الاسلام وعظمت الدولة ودعت الحال إلى تشخيصهما في المقدار والوزن كما هو  
عند الشرع ليستريحوا من كلفة التقدير وقارن ذلك أيام عبد الملك فشخص مقدارهما وعينه في الخارج  
كما هو في الذهب ونقش عليهما السكة باسمه وتاريخه أثر الشهادتين الايمانيتين وطرح النقود الجاهلية  
رأسا حتى خلصت ونقش عليها سكة وتلاشى وجودها فهذا هو الحق الذي لا يحيد عنه ومن بعد ذلك وقع  
اختيار أهل السكة في الدول على مخالفة المقدار الشرعي في الدينار والدرهم واختلفت في كل الاقطار والآفاق



ورجع الناس إلى تصور مقاديرها الشرعية ذهنا كما كان في الصدر الأول وصار أهل كل أفق يستخرجون الحقوق الشرعية من سكتهم بمعرفة النسبة التي بينها وبين مقاديرها الشرعية وأما وزن الدينار باثنين وسبعين حبة من الشعير الوسط فهو الذي نقله المحققون وعليه الإجماع إلا ابن حزم خالف ذلك وزعم أن وزنه أربعة وثمانون حبة نقل ذلك عنه القاضي عبد الحق ورده المحققون وعده وهما غلطا وهو الصحيح والله يحق الحق بكلماته وكذلك تعلم أن الأوقية الشرعية ليست هي المتعارفة بين الناس لأن المتعارفة مختلفة باختلاف الأقطار والشرعية متحدة ذهنا لا اختلاف فيها والله خلق كل شيء فقدره تقديرا

﴿ الخاتم ﴾ وأما الخاتم فهو من الخطط السلطانية والوظائف الملوكية والختم على الرسائل والصكوك معروف للملوك قبل الإسلام وبعده وقد ثبت في الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم أراد أن يكتب إلى قيصر فقبل له أن العجم لا يقبلون كتابا إلا أن يكون مختوما فاتخذ خاتما من فضة ونقش فيه محمد رسول الله ﴿ قال البخاري جعل الثلاث كلمات في ثلاثة أسطر وختم به وقال لا ينقش أحدهم مثله قال وتختم به أبو بكر وعمر وعثمان ثم سقط من يد عثمان في بئر أريس وكانت قليلة الماء فلم يدرك قعرها بعد واغتم عثمان وتطير منه وصنع آخر على مثله وفي كيفية نقش الخاتم والختم به وجوه وذلك أن الخاتم يطلق على الآلة التي تجعل في الأصبع ومنه تختم إذا لبسه ويطلق على النهاية والتام ومنه ختمت الأمر إذا بلغت آخره وختمت القرآن كذلك ومنه خاتم النبيين وخاتم الأمر ويطلق على السداد الذي يسد به الأمر وأنى والدنان ويقال فيه ختام ومنه قوله تعالى ختامه مسك وقد غلط من فسر هذا بالنهاية والتام قال لأن آخر ما يجدونه في شراهم ريح المسك وليس المعنى عليه وإنما هو من الختام الذي هو السداد لأن الخمر يجعل لها في الدن سداد الطين أو القار يحفظها ويطيب عرفها وذوقها فبولغ في وصف خمر الجنة بأن سدادها من المسك وهو أطيب عرفا وذوقا من القار والطين المعهودين في الدنيا فإذا صح إطلاق الخاتم على هذه كلها صح إطلاقه على أثرها الناشئ عنها وذلك أن الخاتم إذا نقشت به كلمات أو أشكال ثم غمس في مداف من الطين أو مداد ووضع على صفح القرطاس بقي أكثر الكلمات في ذلك الصفح وكذلك إذا طبع به على جسم لين كالشمع فإنه يبقى نقش ذلك المكتوب مرتسفا فيه وإذا كانت كلمات وارتسمت فقد يقرأ من الجهة اليسرى إذا كان النقش على الاستقامة من اليمين وقد يقرأ من الجهة اليمنى إذا كان النقش من الجهة اليسرى لأن الختم يقلب جهة الخط في الصفح عما كان في النقش من يمين أو يسار فيحتمل أن يكون الختم بهذا الخاتم بغمسه في المداد أو الطين ووضع على الصفح فتنتقش الكلمات فيه ويكون هذا من معنى النهاية والتام بمعنى صحة ذلك المكتوب ونفوذه كأن الكتاب إنما يتم العمل به بهذه العلامات وهو من دونها ملغي ليس بتمام وقد يكون هذا الختم بالخط آخر الكتاب أو أوله بكلمات منتظمة من تحميد أو تسييح أو باسم السلطان أو الأمير أو صاحب الكتاب من كان أول شيء من نعوته يكون ذلك الخط علامة على صحة الكتاب ونفوذه ويسمى ذلك في المتعارف

علامة ويسمى ختما تشبيها له بأثر الخاتم الأصنى في النقش ومن هذا خاتم القاضي الذي يعث به للخصوم أى علامته وخطته الذى ينفذهما أحكامه ومنه خاتم السلطان أو الخليفة أى علامته قال الرشيدليجي بن خالد لما أراد أن يستوزر جعفر أو يستبدل به من الفضل أخيه فقال لا ينيها يحيى يأبى إني أردت أن أحول الخاتم من معنى الى شمالي فكفى له بالخاتم عن الوزارة لما كانت العلامة على الرسائل والصكوك من وظائف الوزارة لعهدهم ويشهد لصحة هذا الاطلاق ما نقله الطبرى أن معاوية أرسل إلى الحسن عند مرأوده إياه في الصلح صحيفة بيضاء ختمت على أسفلها وكتب إليه أن اشترط في هذه الصحيفة التى ختمت أسفلها ما شئت فهو لك ومعنى الختم هنا علامة في آخر الصحيفة بخط أو غيره ويحتمل أن يختم به في جسم لين فتنقش فيه جروفه ويجعل على موضع الحزم من الكتاب إذا حزم وعلى المودعات وهو من السداد كما مروى في الوجهين آثار الخاتم فيطلق عليه خاتم وأول من أطلق الختم على الكتاب أى العلامة معاوية لأنه أمر لعمر بن الزبير عند زياد بالكوفة بمائة ألف ففتح الكتاب وصير المائة مائتين ورفع زياد حسابه فأنكرها معاوية وطلب بها عمرو حبسه حتى قضائها عنه أخوه عبد الله واتخذ معاوية عند ذلك ديوان الخاتم ذكره الطبرى وقال آخره وحزم الكتب ولم تكن تحزم أى جعل لها السداد وديوان الختم عبارة عن الكتاب القائمين على إيقاد كتب السلطان والختم عليها إما بالعلامة أو بالحزم وقد يطلق الديوان على مكان جلوس هؤلاء الكتاب كما ذكرناه في ديوان الأعمال والحزم للكتب يكون إما بدس الورق كما في عرف كتاب المغرب وإما بلصق رأس الصحيفة على ما تنطوى عليه من الكتاب كما في عرف أهل المشرق وقد يجعل على مكان الدس أو اللصاق علامة يؤمن معها من فتحه والاطلاع على ما فيه فأهل المغرب يجعلون على مكان الدس قطعة من الشمع ويختمون عليها بخاتم نقش فيه علامة لذلك فيرسم النقش في الشمع وكان في المشرق في الدول القديمة يختم على مكان اللصق بخاتم منقوش أيضا قد غمس في مداف من الطين معد لذلك صبغه أحمر فيرسم ذلك النقش عليه وكان هذا الطين في الدولة العباسية يعرف بطين الختم وكان يجب من سيراف فيظهر أنه مخصوص به فهذا الخاتم الذى هو العلامة المكتوبة أو النقش للسداد والحزم للكتب خاص بديوان الرسائل وكان ذلك للوزير في الدولة العباسية ثم اختلفت العرف وصار لمن إليه الترسل وديوان الكتاب في الدولة ثم صاروا في دول المغرب يعدون من علامات الملك وشاراته الخاتم للأصبع فيستجدون صوغه من الذهب ويرصعونه بالفصوص من الياقوت والفيروزج والزمرد ويلبسه السلطان شارة في عرفهم كما كانت البردة والقضيب في الدولة العباسية والمظلة في الدولة العبيدية والله مصرف الأمور بحكمه

﴿ الطراز ﴾ من أبهة الملك والسلطان ومذاهب الدول أن ترسم أسماؤهم أو علامات تختص بهم في طراز أثوابهم المعدة للباسهم من الحرير أو الديباج أو الابريسم تعتبر كتابة خطها في نسج الثوب الحاما وسدى بخيط الذهب أو ما يخالف لون الثوب من الخيوط الملونة من غير الذهب على ما يحكمه الصانع في

تقدير ذلك ووضعه في صناعة نسجهم فتصير الثياب الملوكية معلمة بذلك الطراز قصدا للتنويه بلا بسهام من السلطان فمن دونه أو التنويه عن يختصه السلطان بلبوسه اذا قصد تشريفه بذلك أو ولايته لو وظيفة من وظائف دولته وكان ملوك العجم من قبل الاسلام يجعلون ذلك الطراز بصور الملك وأشكالهم أو أشكال وصور معينة لذلك ثم اعتاض ملوك الاسلام عن ذلك بكتب أسمائهم مع كلمات أخرى تجرى مجرى الفال أو السجلات وكان ذلك في الدولتين من أمية الأمور وأغنى الأحوال وكانت الدور المعدة لنسج أثوابهم في قصورهم تسمى دور الطراز لذلك وكان القائم على النظر فيها يسمى صاحب الطراز ينظر في أمور الصياغ والآلة والحاك فيها وأجراء أرزاقهم وتسهيل آلائهم ومشارفة أعمالهم وكانوا يقدون ذلك لحواص دولتهم وثقات مواليتهم وكذلك كان الحال في دولة بني أمية بالأندلس والطوائف من بعدهم وفي دولة العبيدين بمصر ومن كان على عهدهم من ملوك العجم بالمشرق ثم لما ضاق نطاق الدول عن الترف والتفنن فيه لضيق نطاقها في الاستيلاء وتعددت الدول تعطلت هذه الوظيفة والولاية عليها من أكثر الدول بالجملة \* ولما جاءت دولة الموحدين بالمغرب بعد بني أمية أول المائة السادسة ولم يأخذوا بذلك أول دولتهم لما كانوا عليه من منازع الديانة والسداجة التي لقنوها عن إمامهم محمد بن تومرت المهدي وكانوا يتورعون عن لباس الحرير والذهب فسقطت هذه الوظيفة من دولتهم واستدرك منها أعقابهم آخر الدولة طر فلم يكن بتلك النباهة وأما لهذا العهد فأدركنا بالمغرب في الدولة المرينية لعنفوانها وشموخار سما جليل القنوه من دولة ابن الأحمر معاصرهم بالأندلس واتباع هو في ذلك ملوك الطوائف فأثني منه بلحة شاهدة بالاثرة \* وأما دولة الترك بمصر والشام لهذا العهد فقيه من الطرز تحرير آخر على مقدار ملكهم وعمران بلادهم الآن ذلك لا يصنع في دورهم وقصورهم وليست من وظائف دولتهم وإنما ينسج ما تطلبه الدولة من ذلك عند صناعه من الحرير ومن الذهب الخالص ويسمونه المزركش لفظة أعجمية ويرسم اسم السلطان أو الأمير عليه ويعده الصانع لهم فيما يعدونه للدولة من طرف الصناعة اللاتقة بها والله مقدر الليل والنهار وهو خير الوارئين

### ✽ الفساطيط والسياج ✽

اعلم أن من شارات الملك وترفه اتخاذ الألبسة والفساطيط والفازات من ثياب الكتان والصوف والقطن بجدل الكتان والقطن فيها هي بها في الأسفار وتنوع منها الألوان ما بين كبير وصغير على نسبة الدولة في الثروة واليسار وإنما يكون الأمر في أول الدولة في بيوتهم التي جرت عادتهم باتخاذها قبل الملك وكان العرب لعهد الخلفاء الأولين من بني أمية إنما يسكنون بيوتهم التي كانت لهم خياما من الوبر والصوف ولم تزل العرب لذلك العهد بادين إلا الأقل منهم فكانت أسفارهم لغزواتهم وحروبهم بظعونهم وسائر حللهم وأحيائهم من الأهل والوالد كما هو شأن العرب لهذا العهد وكانت عساكرهم لذلك كثيرة الحلل بعيدة ما بين المنازل متفرقة الأحياء يغيب كل واحد منها عن نظر صاحبه



من الأخرى كشأن العرب ولذلك ما كان عبد الملك يحتاج إلى ساقية تحشد الناس على أثره أن يقيموا إذا ظعن ونقل أنه استعمل في ذلك الحجاج حسين أشار به روح بن زنباع وقصته في احراق فساطيط روح وخيامه لأول ولايته حين وجدهم مقيمين في يوم رحيل عبد الملك قصة مشهورة ومن هذه الولاية تعرف رتبة الحجاج بين العرب فانه لا يتولى إرادتهم على الظعن الا من يأمن بؤادر السفهاء من أحيائهم بماله من العصبية الحائلة دون ذلك ولذلك اختصه عبد الملك بهذه الرتبة ثقة بغنائه فيها بعصبية وصرامته فلما تفننت الدولة العربية في مذاهب الحضارة والبذخ وزلوا المدن والأمصا وانتقلوا من سكنى الخيام إلى سكنى القصور ومن ظهر الخف إلى ظهر الحافر اتخذوا للسكنى في أسفارهم ثياب الكتان يستعملون منها يوتا مختلفة الأشكال مقدرة الأمثال من القوراء والمستطيلة والربعة ويختفلون فيها بابلغ مذاهب الاحتفال والزينة ويدير الأمير والقائد للعساكر على فساطيطه وفازاته من بينهم سياجا من الكتان يسمى في المغرب بلسان البربر الذي هو لسان أهله أفرأك بالكاف التي بين الكاف والقف ويختص به السلطان بذلك القطر لا يكون لغيره \* وأما في المشرق فيتخذ كل أمير وان كان دون السلطان ثم جنحت الدعة بالنساء والولدان إلى المقام بقصورهم ومنازلهم خفف لذلك ظهرهم وتقاربت الساح بين منازل العسكر واجتمع الجيش والسلطان في معسكر واحد يحصره البصر في بسيطة زهوا أنيقا لا اختلاف ألوانه واستمر الحال على ذلك في مذاهب الدول في بذخها وترفها وكذا كانت دولة الموحدين وزناة التي أظلتنا كان سفرهم أول أمرهم في بيوت سكنهم قبل الملك من الخيام والقياطن حتى إذا أخذت الدولة في مذاهب الترف وسكنى القصور عادوا إلى سكنى الأخبية والفساطيط وبلغوا من ذلك فوق ما أرادوه وهو من الترف بمكان الآن العساكر به تصير عرضة للبيات لاجتماعهم في مكان واحد تشملهم فيه الصيحة ولحفهم من الأهل والولد الذين تكون لاستماتة دونهم فيحتاج في ذلك إلى تحفظ آخر والله القوى العزيز

### ﴿ المقصورة للصلاة والدعاء في الخطبة ﴾

وهما من الأمور الخلافية ومن شارات الملك الاسلامي ولم يعرف في غير دول الاسلام \* فأما البيت المقصورة من المسجد لصلاة السلطان فيتخذ سياجا على الحراب فيحوزة وما يليه فأول من اتخذها معاوية بن أبي سفيان حين طعنه الخارجي والقصة معروفة أو قيل أول من اتخذها مروان بن الحكم حين طعنه اليماني ثم اتخذها الخلفاء من بعدها وصارت سنة في تمييز السلطان عن الناس في الصلاة وإنما هي تحدث عند حصول الترف في الدول والاستفحال شأن أحوال الأبهة كلها وما زال الشأن ذلك في الدول الاسلامية كلها وعند اقتراق الدولة العباسية وتعدد الدول بالمشرق وكذا بالاندلس عند انقراض الدولة الأموية وتعدد ملوك الطوائف وأما المغرب فكان بنو الأغل يتخذونها بالقيروان ثم الخلفاء العبيديون ثم ولاتهم على المغرب من صنهاجة بنو باديس بفاس وبنو حماد بالقلعة

ثم ملك الموحدون سائر المغرب والأندلس ومحو ذلك الرسم على طريقة اليداة التي كانت شعارهم ولما استفحلت الدولة وأخذت بمحظها من الترف وجاء أبو يعقوب المنصور ثالث ملوكهم فاتخذ هذه المقصورة وبقيت من بعده سنة لملوك المغرب والأندلس وهكذا كان الشأن في سائر الدول سنة الله في عباده \* (وأما الدعاء على المنابر) في الخطبة فكان الشأن أولا عند الخلفاء ولاية الصلاة بأنفسهم فكانوا يدعون لذلك بعد الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم والرضاعن أصحابه وأول من اتخذ المنبر عمرو بن العاص لما بنى جامع بمصر وأول من دعا للخليفة على المنبر ابن عباس دعا لعلي رضي الله عنهما في خطبته وهو بالبصرة عامل له عليها فقال اللهم انصر عليا على الحق واتصل العمل على ذلك فيما بعد وبعد أخذ عمرو بن العاص المنبر بلغ عمر بن الخطاب ذلك فكتب إليه عمر بن الخطاب أما بعد فقد بلغني إنك اتخذت منبر اترقى به على رقاب المسلمين أو ما يكفيك أن تكون قائما والمسلمون تحت عقبك فعزمت عليك إلا ما كسرتة فلما حدثت الأئمة وحدث في الخلفاء المانع من الخطبة والصلاة استتابوا فيهما فكان الخطيب يشيد يذكر الخليفة على المنبر تنويها باسمه ودعاء له بما جعل الله مصلحة العالم فيه ولائ تلك الساعة مظنة للإجابة ولما ثبتت عن السلف في قولهم من كانت له دعوة صالحة فليضعها في السلطان وكان الخليفة يفرد بذلك فلما جاء الحجر والاستبداد وصار المتغلبون على الدول كثيرا ما يشاركون الخليفة في ذلك يشاد باسمهم عقب اسمه وذهب ذلك بذهاب تلك الدول وصار الأمر إلى اختصاص السلطان بالدعاء له على المنبر دون من سواه وحظر أن يشاركه فيه أحد أو يسموا إليه كثيرا ما يغفل الماهدون من أهل الدول هذا الرسم عند ما تكون الدولة في أسلوب الغضاضة ومناحي البداءة في التغافل والخشونة ويقنعون بالدعاء على الأبهام والاحمال لمن ولي أمور المسلمين ويسمون مثل هذه الخطبة إذا كانت على هذا المنحى عباسية يعنون بذلك أن الدعاء على الاحمال إنما يتناول العباسي تقليدا في ذلك لما سلف من الأمراء ولا يخفون بما وراء ذلك من تعيينه والتصريح باسمه \* يخفي أن يغمر اسن ابن زياد ما هدد دولة بني عبدالواد لما غلبه الأمير أبوزكريا يحيى بن أبي حفص على تلمسان ثم بداله في إعادة الأمر إليه على شروط شرطها كأن فيها ذكر اسمه على منابر عمله فقال يغمر اسن تلك أعوادهم يذكرون عليها من شأوا وكذلك يعقوب بن عبد الحق ما هدد دولة بني مرين حضره رسول المستنصر الخليفة بتونس من بني أبي حفص وثالث ملوكهم وتخلف بعض أيامه عن شهود الجمعة فقبل له لم يحضر هذا الرسول كراهية لخلو الخطبة من ذكر سلطانه فأذن في الدعاء له وكان ذلك سبباً لا خذم بدعوته وهكذا شأن الدول في بدايتها وتمكنها في الغضاضة والبداءة فإذا انتهت عيون سياستهم ونظروا في أعطاف ملكهم واستتموا شيات الحضارة ومعاني البذخ والأبهة انتحلوا جميع هذه السمات وتفننوا فيها وتجاروا إلى غايتها وأنفوا من المشاركة فيها وجزعوا من افتقادها وخلو دولتهم من آثارها والعالم بستان والله على كل شيء رقيب

إعلم أن الحروب وأنواع المقاتلة لم تزل واقعة في الخليفة منذ برأها الله وأصلها ارادة انتقام بعض البشر من بعض ويتعصب لكل منها أهل عصبية فاذا تدامر والدلك وتوافقت الطائفتان احداها تطلب الانتقام والاخرى تدافع كانت الحرب وهو أمر طبيعي في بشر لا تخلو عنه أمة ولا جيل وسبب هذا الانتقام في الأئم أكثر ما غيرة ومنافسة وإما عدوان وإما غضب لله ولدينه وإما غضب للملك وسعى في تمجيد نفسه فالأول أكثر ما يجري بين القبائل المجاورة والعشائر المتناظرة والثاني هو العدوان أكثر ما يكون من الأئم الوحشية الساكنين بالقفر كالعرب والترك والتركان والأئم كراد وأشباههم لائهم جعلوا أرزاقهم في رماحهم ومعاشهم فيما بأيدي غيرهم ومن دافعهم عن متاعه آذنوه بالحرب ولا بغية لهم فيما وراء ذلك من رتبة ولا ملك وانما همهم ونصب أعينهم غلب الناس على ما في أيديهم والثالث هو المسمى في الشريعة بالجهاد والرابع هو حروب الدول مع الخارجين عليها والمائعين لطاعتها فهذه أربعة أصناف من الحروب الصنفان الأولان منها حروب بغي وفتنة والصنفان الآخران حروب جهاد وعدل وصفة الحروب الواقعة بين الخليفة منذ أول وجودهم على نوعين نوع بالزحف صفوفاً ونوع بالكر والفر أما الذي بالزحف فهو قتال العجم كلهم على تعاقب أجيالهم وأما الذي بالكر والفر فهو قتال العرب والبربر من أهل المغرب وقتال الزحف أو ثق وأشد من قتال الكر والفر وذلك لأن قتال الزحف ترتب فيه الصفوف وتسوى كما تسوى القداح أو صفوف الصلاة ويمشون بصفوفهم إلى العدو وقدما فلذلك تكون أثبت عند المصارع وأصدق في القتال وأرهب للعدو لانه كالحائط الممتد والقصر المشيد لا يطعم في ازالتة وفي التزليل ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص أى يشد بعضهم بعضاً بالثبات وفي الحديث الكريم المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً ومن هنا يظهر لك حكمة ايجاب الثبات وتحريم التولى في الزحف فان المقصود من الصف في القتال حفظ النظام كما قلناه فمن ولي العدو ظهره فقد أدخل بالمصاف وباء باثم الهزيمة ان وقعت وصار كأنه جرها على المسلمين وأمكن منهم عدوهم فعظم الذنب لعموم المفسدة وتعميدها إلى الدين بخرق سياجه فعد من الكبار ويظهر من هذه الأدلة أن قتال الزحف أشد عند الشارع وأما قتال الكر والفر فليس فيه من الشدة والأمن من الهزيمة ما في قتال الزحف إلا أنهم يتخذون وراءهم في القتال مصافاً ثابتاً يلجؤون إليه في الكر والفر ويقوم لهم مقام قتال الزحف كما نذكره بعد ثم أن الدول القديمة الكثيرة الجنود المتسعة الممالك كانوا يقسمون الجيوش والعساكر أقساماً يسمونها كراديس ويسوون في كل كردوس صفوفه وسبب ذلك أنه لما كثرت جنودهم الكثرة البالغة وحشدوا من قاصية النواحي استدعى ذلك أن يجعل بعضهم بعضاً اذا اختلطوا في مجال الحرب واعتوروا مع عدوهم الطعن والضرب فيخشى من تدافعهم فيما بينهم لأجل النكراء وجهل بعضهم ببعض فلذلك كانوا يقسمون العساكر جموعاً ويضمون المتعارفين بعضهم لبعض ويرتبونها قريبا



من الترتيب الطبيعي في الجهات الأربع ورئيس العساكر كلها من سلطان أوقا تدفى القلب ويسمون هذا الترتيب التعبئة وهو مذكور في أخبار فارس والروم والدولتين صدر الاسلام فيجعلون بين يدي الملك عسكرا منفردا بصوفه متميزا بقائده ورايته وشعاره ويسمونه المقدمة ثم عسكرا آخر من ناحية اليمين عن موقف الملك وعلى سمتة يسمنونه الميمنة ثم عسكرا آخر من ناحية الشمال كذلك يسمنونه اليسرة ثم عسكرا آخر من وراء العسكر يسمنونه الساقة ويقف الملك وأصحابه في الوسط بين هذه الأربع ويسمون موقفه القلب فإذا تم لهم هذا الترتيب المحكم إما في مدى واحد للبصر أو على مسافة بعيدة أكثرها اليوم واليومان بين كل عسكرين منهما أو كيفما أعطاه حال العساكر في القلة والكسرة حينئذ يكون الزحف من بعد هذه التعبئة وانظر ذلك في أخبار الفتوحات وأخبار الدولتين بالمشرق وكيف كانت العساكر لعهد عبد الملك تتخلف عن رحيله لبعده المدى في التعبئة فاحتيج لمن يسوقها من خلفه وعين لذلك الحجاج بن يوسف كما أشرنا إليه وكما هو معروف في أخباره وكان في الدولة الأموية بالاندلس أيضا كثير منه وهو مجهول فيما دينا لنا إنما أدركنا دولا قليلة العساكر لا تنتهي في مجال الحرب إلى التناكر بل أكثر الجيوش من الطائفتين معا يجمعهم لدينا حلة أو مدينة ويعرف كل واحد منهم قرنه ويناديه في حومة الحرب باسمه ولقبه فاستغني عن تلك التعبئة

﴿ فصل ﴾ ومن مذاهب أهل الكرو والفر في الحروب ضرب المصاف وراء عسكرهم من الجمادات والحيوانات العجم فيتخذونها ملجأ للخيالة في كرمهم وفروهم يطلبون به ثبات المقاتلة ليكون أدوم للحرب وأقرب إلى التغلب وقد يفعله أهل الزحف أيضا ليزيدهم ثباتا وشدة فقد كان الفرس وهم أهل الزحف يتخذون القيلة في الحروب ويحملون عليها أبراجا من الخشب أمثال الصروح مشحونة بالمقاتلة والسلاح والرايات ويصفونها وراءهم في حومة الحرب كأنهم حصون فتقوى بذلك نفوسهم ويزداد وثوقهم وانظر ما وقع من ذلك في القادسية وأن فارس في اليوم الثالث اشتدوا بها على المسلمين حتى اشتدت رجالات من العرب فخالطوهم وبعجوها بالسيوف على خراطينها فنفرت ونكست على أعقابها إلى مرابطاتها بالمدائن فخفام عسكر فارس لذلك وانهمزوا في اليوم الرابع وأما الروم وملوك القوط بالاندلس وأكثر العجم فكانوا يتخذون لذلك الأسيرة ينصبون للملك سريره في حومة الحرب ويخف به خدمه وحاشيته وجنوده من هوزعيم بالاستماتة دونه وترفع الرايات في أركان السرير ويحدق به سياج آخر من الرماة والرجالة فيعظم هيكل السرير ويصير فئة للمقاتلة وملجأ للكر والفر وجعل ذلك الفرس أيام القادسية وكان رستم جالسا في أعلى سرير نصبه لجلوسه حتى اختلفت صفوف فارس وخالطه العرب في سريره ذلك فتحول عنه إلى الفراط و قتل وأما أهل الكرو والفر من العرب وأكثر الأمم البدوية والرجالة فيصفون لذلك إبلهم والظهر الذي يحمل ظعائنهم فيكون فئة لهم ويسمونهم الجبودة وليس أمة من الأمم إلا وهي تفعل ذلك في حروبها وتراه أوثق في الجولة وآمن من الغرة والهزيمة وهو أمر مشاهد وقد أغفلته الدول لعهدنا بالجملة واعتاضوا عنه بالظهر الحامل الأثقال والفساطيط يجعلونها

ساقية من خلفهم ولا تغني غناء الفيلة والابل فصارت العساكر بذلك عرضة للهزائم ومستشعرة للفرار في المواقف وكان الحرب أول الاسلام كله زحفاً وكان العرب إنما يعرفون الكر والفر لكن حملهم على ذلك أول الاسلام أمران أحدهما أن عدوهم كانوا يقاتلون زحفاً فيضطرون إلى مقاتلتهم بمثل قتالهم الثاني أنهم كانوا مستميتين في جهادهم لما رغبوا فيه من الصبر ولما رسخ فيهم من الايمان والزحف إلى الاستماتة أقرب وأول من أبطل الصف في الحروب وصار إلى التعبئة كراديس مروان بن الحكم في قتال الضحاك الخارجي والحيري بعده قال الطبري لما ذكر قتال الحيري فولى الخوارج عليهم شيبان ابن عبدالعزيز الشكري ويلقب أبا الدلفاء وقتلهم مروان بعد ذلك بالكراديس وأبطل الصف من يومئذ انتهت فتنوسى قتال الزحف بإبطال الصف ثم تنوسى الصف وزاء المقاتلة بما داخل الدول من الترف وذلك أنها حينما كانت بدوية وسكنام الخيام كانوا يستكثرون من الابل وسكنى النساء والولدان معهم في الأحياء فلما حصلوا على ترف الملك وألفوا سكنى انقصروا والحواضر وتركوا شأن البادية والقفر نسوا لذلك عهد الابل والطعائن وصعب عليهم اتخاذها فغلبوا النساء في الأسفار وحملهم الملك والترف على اتخاذ الفساطيط والأخبية فاقتصرروا على الظهر الحامل للائتمال والأبنية ( ١ ) وكان ذلك صفتهم في الحرب ولا يغني كل الغناء لأنه لا يدعو إلى الاستماتة كما يدعو اليها الأهل والمال فيخف الصبر من أجل ذلك وتصرفهم الهيئات وتخرم صفوفهم

﴿ فصل ﴾ ولما ذكرناه من ضرب المصاف وراء العساكر وتأكيده في قتال الكر والفر صار ملوك المغرب يتخذون طائفة من الافرنج في جندهم واختصوا بذلك لأن قتال أهل وطنهم كله بالكر والفر والسلطان يتأكد في حقه ضرب المصاف ليكون رداً للمقاتلة أمامه فلا بد وأن يكون أهل ذلك الصف من قوم متعودين للثبات في الزحف والأجفأوا على طريقة أهل الكر والفر فانهزم السلطان والعساكر بأجفأهم فاحتاج الملوك بالمغرب أن يتخذوا جنداً من هذه الأمة المتعودة للثبات في الزحف وهم الافرنج ويرتبون مصافهم المحدث بهم منها هذا على ما فيه من الاستعانة بأهل الكر وانما استخفوا ذلك للضرورة التي أرينا كما من تخوف الأجفأ على مصاف السلطان والافرنج لا يعرفون غير الثبات في ذلك لان عاداتهم في القتال الزحف فكانوا أقوم بذلك من غيرهم مع أن الملوك في المغرب إنما يفعلون ذلك عند الحرب مع أمم العرب والبربر وقتالهم على الطاعة وأما في الجهاد فلا يستعينون بهم حذراً من عمالاتهم على المسامحة هذا هو الواقع بالمغرب لهذا العهد وقد أبدينا سببه والله بكل شيء عليم

﴿ فصل ﴾ وبلغنا أن أمم الترك لهذا العهد قتالهم مناضلة بالسهم وأن تعبئة الحرب عندهم بالمصاف وأنهم يقسمون بثلاثة صفوف يضربون صفاً وراء صف ويترجلون عن خيولهم ويفرغون سهامهم

( ١ ) ( قوله ) اللائتمال والأبنية مراده بالأبنية الخيام كما يدل له قوله في فصل الخندق الآتي قريباً اذا زلوا أنبياً وضروهم اهـ

بين أيديهم ثم يتناضلون جلوسا وكل صف ردء للذي أمامه أن يكبسهم العدو إلى أن يتهيا النصر لاحدى الطائفتين على الأخرى وهى تعبئة محكمة غريبة

﴿فصل﴾ وكان من مذاهب الأول في حروبهم حفر الخنادق على معسكرهم عندما يتقاربون للزحف حذرا من معرفة البيات والهجوم على العسكر بالليل لما في ظلمته ووحشته من مضاعفة الخوف فيلوذ الجيش بالفرار وتجد النفوس في الظلمة سترا من عاره فاذا تساوا في ذلك أرجف العسكر ووقعت الهزيمة فكانوا لذلك يحتفرون الخنادق على معسكرهم إذا نزلوا وضربوا أبنيتهم ويديرون الحفائر نطاقا عليهم من جميع جهاتهم حرصا أن يخالطهم العدو بالبيات فيتخاذلوا وكانت للدول في أمثال هذا قوة وعليه اقتدار باحتشاد الرجال وجمع الأيدي عليه في كل منازلهم بما كانوا عليه من وفور العمران وضخامة الملك فلما خرب العمران وتبعه ضعف الدول وقلة الجنود وعدم الفعلة نسي هذا الشأن جملة كأنه لم يكن والله خير القادرين وانظر وصية على رضى الله عنه وتحريضه لأصحابه يوم صفين تجد كثيرا من علم الحرب ولم يكن أحد أبصر بها منه قال في كلام له فسووا صفوفكم كالبيان المرصوص وقدموا الدارع وأخروا الحاسر وعضوا على الأضراس فانه أنبي للسيوف عن الهام والتووا على أطراف الرماح أصون للأسنة وعضوا الأبصار فانه أربط للجأش وأسكن للقلوب واخفتوا الأصوات فانه أطرد للفشل وأولى بالوقر وأقيموا رايانكم فلا تملوها ولا تجعلوها إلا بأيدي شجعانكم واستعينوا بالصدق والصبر فانه بقدر الصبر ينزل النصر وقال الأشر يومئذ يحرض الأزد عضوا على النواجذ من الأضراس واستقبلوا اتقوم بهامكم وشدوا شدة قوم موتورين يثأرون بآبائهم أو اخوانهم حناقا على عدوم وقد وطنوا على الموت أنفسهم لئلا يسبقوا بوتر ولا يلحقهم في الدنيا عار وقد أشار إلى كثير من ذلك أبو بكر الصيرفي شاعر لمتونة وأهل الأندلس في كلمة يمدح بها تاشفين بن على بن يوسف ويصف ثباته في حرب شهدا ويذكره بأمور الحرب في وصايا وتحذيرات تنبهك على معرفة كثير من سياسة الحرب يقول فيها

يا أيها الملاء الذى يتقنع \* من منكم الملك الهمام الأروع  
ومن الذى غدر العدو به دجى \* فانقض كل وهو لا يتزعزع  
تمضى الفوارس والطعان يصدها \* عنه ويدمرها الوفاء فترجع  
والليل من وضع الترائك انه \* صبح على هام الجيوش يلمع  
أنى فزعت يابنى صنهاجة \* واليكمو في الروع كان المفزع  
إنسان عين لم يصبه منكم \* حزن وقلب أسلمته الأضلع  
وصدقوا عن تاشفين وانه \* لعقابه لو شاء فيكم موضع  
ما أنتموا إلا أسود خفية \* كل لكل كريمة مستطلع



ياتاشفين أقم لجيشك عذره \* بالليل والغدر الذى لا يدفع  
( ومنها فى سياسة الحرب )

أهديك من أدب السياسة مابه \* كانت ملوك الفرس قبلك تولع  
لاأنتى أدرى بها لكنها \* ذكرى تحض المؤمنين وتنفع  
والبس من الخلق المضاعفة التى \* وصى بها صنع الصنائع تبع  
والهندوانى الرقيق فانه \* أمضى على حد الدلاص وأقطع  
واركب من الخيل السوابق عدة \* حصنا حصينا ليس فيه مدفع  
خندق عليك إذا ضربت محلة \* سنان تتبع ظافرا أوتتبع  
والواد لاتعبره وانزل عنده \* بين العدو وبين جيشك يقطع  
واجعل مناجزة الجيوش عشية \* ووراءك الصدق الذى هو أمنع  
وإذا تضايقت الجيوش بمعرك \* ضحك فأطراف الرماح توسع  
واصدمه أول وهلة لاتكترث \* شياً فاظهار النكول يضعضع  
واجعل من الطلاع أهل شهامة \* للصدق فيهم شيمة لاتخدع  
لاتسمع الكذاب جاءك مرجفا \* لا أرى للكذاب فيما يصنع

قوله واصدمه أول وهلة لاتكترث البيت يخالف لما عليه الناس فى أمر الحرب فقد قال عمر لأبي  
عبيد بن مسعود الثقفى لما ولاه حرب فارس والعراق فقال له اسمع وأطع من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم  
وأشركهم فى الأمر ولا تجيبن مسرعاً حتى يتبين فانها الحرب ولا يصلح لها إلا الرجل المكث الذى يعرف  
الفرصة والكف وقال له فى أخرى إنه لن يمنعنى أن أوامر سليطا إلا سرعتته فى الحرب وفى التسرع فى  
الحرب إلا عن بيان ضياع والله لو لاذلك لأمرته لكن الحرب لا يصلحها إلا الرجل المكث هذا كلام  
عمر وهو شاهد بان الشاغل فى الحرب أولى من الخوف حتى يتبين حال تلك الحروب وذلك عكس  
ما قاله الصيرفى إلا أن يريد أن الصدم بعد البيان فله وجه والله تعالى أعلم

( فصل ) ولا وثوق فى الحرب بالظفر وإن حصلت أسبابه من العدة والعديد وإما الظفر فيها والغلب  
من قبيل البخت والاتفاق وبيان ذلك أن أسباب الغلب فى الأمر كثر مجتمعة من أمور ظاهرة وهى الجيوش  
ووفورها وكال الأسلحة واستجاداتها وكثرة الشجعان وترتيب المصاف ومنه صدق القتال وما جرى  
مجرى ذلك ومن أمور خفية وهى أمان خدع البشر وحيلهم فى الأرجاف والتشاييع التى يقع بها التخذيل  
وفى التقدم إلى الأمر كن المرتفعة ليكون الحرب من أعلى فيتوهم المنخفض لذلك وفى الكون فى  
الغياض ومطمئن الأرض والتوارى بالكدر عن العدو حتى يتداولهم العسكر دفعة وقد تورطوا  
فيتلمسون إلى النجاة وأمثال ذلك وأما أن تكون تلك الأسباب الخفية أموراً سماوية لا قدرة للبشر  
على اكتسابها تلقى فى القلوب فيستولى الرعب عليهم لا جلا فتختل مرا كزهم فتقع الهزيمة وأكثر ماتقع

الهزائم عن هذه الأسباب الخفية لكثرة ما يعتمد لكل واحد من الفريقين فيها حرصا على الغلب فلا بد من وقوع التأثير في ذلك لأحدهما ضرورة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم الحرب خدعة ومن أمثال العرب رب حيلة أنفع من قبيلة فقد تبين أن وقوع الغلب في الحروب غالباً عن أسباب خفية غير ظاهرة ووقوع الأشياء عن الأسباب الخفية هو معنى البخت كما تقرر في موضعه فاعتبره وتفهم من وقوع الغلب عن الأمور السماوية كما شرعناه معنى قوله صلى الله عليه وسلم نصرت بالرعب مسيرة شهر وما وقع من غلبه للمشركين في حياته بالعدد القليل وغلب المسلمين من بعده كذلك في الفتوحات فإن الله سبحانه وتعالى تكفل لنبيه بالقاء الرعب في قلوب الكافرين حتى يستولى على قلوبهم فيهنز موامعة لرسوله صلى الله عليه وسلم فكان الرعب في قلوبهم سبباً للهزائم في الفتوحات الإسلامية كلها إلا أنه خفي عن العيون \* وقد ذكر الطرطوشي أن من أسباب الغلب في الحروب أن تفضل عدة الفرسان المشاهير من الشجعان في أحد الجانبين على عدتهم في الجانب الآخر مثل أن يكون أحد الجانبين فيه عشرة أو عشرون من الشجعان المشاهير وفي الجانب الآخر ثمانية أو ستة عشر فالجانب الزائد ولو بواحد يكون له الغلب وأعاد في ذلك وأبدى وهو راجع إلى الأسباب الظاهرة التي قدمنا وليس بصحيح وإنما الصحيح المعتبر في الغلب حال العصبية أن يكون في أحد الجانبين عصبية واحدة جامعة لكلهم وفي الجانب الآخر عصاب متعددة لأن العصاب إذا كانت متعددة يقع بينهما من التخاذل ما يقع في الواحدان المتفرقين الفاقدين للعصبية إذ تنزل كل عصابة منهم منزلة الواحدة ويكون الجانب الذي عصابته متعددة لا يقاوم الجانب الذي عصابته واحدة لأجل ذلك فتفهمه واعلم أنه أصبح في الاعتبار مما ذهب إليه الطرطوشي ولم يحمله على ذلك الأنسيان شأن العصبية في حلة وبلدة وإنهم إنما يرون ذلك الدفاع والحماية والمطالبة إلى الواحدان والجماعة الناشئة عنهم لا يعتبرون في ذلك عصبية ولا نسباً وقد بينا ذلك أول الكتاب مع أن هذا وأمثاله على تقدير صحته إنما هو من الأسباب الظاهرة مثل اتفاق الجيش في العدة وصدق القتال وكثرة الأسلحة وما أشبهها فكيف يجعل ذلك كفيلاً بالغلب ونحن قد قررنا لك الآن أن شيئاً منها لا يعارض الأسباب الخفية من الحيل والخداع ولا الأمور السماوية من الرعب والخذلان الإلهي فافهمه وتفهم أحوال الكون والله مقدر الليل والنهار

(فصل) ويلحق بمعنى الغلب في الحروب وأن أسبابه خفية وغير طبيعية حال الشهرة والصيت فقل أن تصادف موضعاً في أحد من طبقات الناس من الملوك والعلماء والصالحين والمتحلين للفضائل على العموم وكثير ممن اشتهر بالشر وهو بخلافه وكثير ممن تجاوزت عنه الشهرة وهو أحق بها وأهلها وقد تصادف موضعاً تكون طبقات على صاحبها والسبب في ذلك أن الشهرة والصيت إنما هما بالآخبار والآخبار يدخلها الذهول عن المقاصد عند التافل ويدخلها التعصب والتشيع ويدخلها الأوهام ويدخلها الجهل بمطابقة الحكايات للأحوال الخفاها بالتلبيس والتصنع أو لجهل الناقل ويدخلها التقرب لأصحاب التجارة والمراتب الدنيوية بالثناء والمدح وتحسين الأحوال وإشاعة الذكر بذلك والنفوس مولعة بحب الثناء

والناس متطاولون إلى الدنيا وأسبابها من جاه أو ثروة وليسوا في الآء كثر براغبين في الفضائل ولا منافسين في أهلها وأين مطابقة الحق مع هذه كلها فتختل الشهرة عن أسباب خفية من هذه وتكون غير مطابقة وكل ما حصل بسبب خفي فهو الذي يعبر عنه بالبخت كما تقرر والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

### ٣٩ \* فصل في الجباية وسبب قلتها وكثرتها \*

إعلم أن الجباية أول الدولة تكون قليلة الوزائع كثيرة الجملة وآخر الدولة تكون كثيرة الوزائع قليلة الجملة والسبب في ذلك أن الدولة إن كانت على سنن الدين فليست إلا المغارم الشرعية من الصدقات والخراج والجزية وهي قليلة الوزائع لأن مقدار الزكاة من المال قليل كما علمت وكذا زكاة الحبوب والماشية وكذا الجزية راجع جميع المغارم الشرعية وهي حدود لا تتعدى وإن كانت على سنن التغلب والعصبية فلا بد من البداوة في أولها كما تقدم والبداوة تقتضي المسامحة والمكارمة وخفض الجناح والتجافي عن أموال الناس والغفلة عن تحصيل ذلك إلا في النادر فيقل ذلك مقدار الوظيفة الواحدة والوزيعة التي تجمع الأموال من مجموعها وإذا قلت الوزائع والوظائف على الرعايا نشطوا للعمل ورغبوا فيه فيكثر الاعتمار ويتزايد محصول الاغتباط بقلة المعرم وإذا كثر الاعتمار كثرت أعداد تلك الوظائف والوزائع فكثرت الجباية التي هي جملة ما إذا استمرت الدولة واتصلت وتماقب ملوكها واحد بعدواحد واتصفوا بالكيس وذهب شر البداوة والسذاجة وخلقها من الاغضاء والتجافي وجاء الملك العضوض والحضارة الداعية إلى الكيس وتخلق أهل الدولة حينئذ بخلق التحذلق وتكثرت عوائدهم وحوائجهم بسبب ما انغمسوا فيه من النعيم والترف فيكثرون الوظائف والوزائع حينئذ على الرعايا والأكرة والفلاحين وسائر أهل المغارم ويزيدون في كل وظيفة ووزيعة مقدار اعظيما لتكثرت لهم الجباية ويضعون المكوس على المبايعات وفي الأبواب كما نذكر بعد ثم تدرج الزيادات فيها بمقدار بعد مقدار لتدرج عوائد الدولة في الترف وكثرة الحاجات والانفاق بسببه حتى تشغل المغارم على الرعايا وتهمضم وتصير عادة مفروضة لأن تلك الزيادة تدرجت قليلا قليلا ولم يشعر أحد بمن زادها على التعيين ولا من هو واضعها إنما ثبتت على الرعايا في الاعتمار لذهاب الأمل من نفوسهم بقلة النفع إذا قابل بين نفعه ومغارمه وبين ثمرته وفائده فتقبض كثير من الأيدي عن الاعتمار جملة فتتقص جملة الجباية حينئذ بنقصان تلك الوزائع منها ويزيدون في مقدار الوظائف إذا رأوا ذلك التقص في الجباية ويحسبونه جبرا لما نقص حتى تنتهي كل وظيفة ووزيعة إلى غاية ليس وراءها نفع ولا فائدة لكثرة الانفاق حينئذ في الاعتمار وكثرة المغارم وعدم وفاء الفائدة المرجوة به فلا تزال الجملة في نقص ومقدار الوزائع والوظائف في زيادة لما يعتقدونه من جبر الجملة بها إلى أن ينتقص العمران بذهاب الآمال من الاعتمار ويعود وبال ذلك على الدولة لأن فائدة الاعتمار عائدة إليها وإذا فهمت ذلك علمت أن أقوى الأسباب في الاعتمار تقليل مقدار الوظائف على المعتمرين ما أمكن فبذلك تنبسط النفوس إليه لثقتها بأدراك المنفعة



فيه والله سبحانه وتعالى مالك الأمور كلها ويده ملكوت كل شيء

#### ٤٠ \* فصل في ضرب المكوس أو آخر الدولة \*

إعلم أن الدولة تكون في أولها بدوية كما قلنا فتكون لذلك قليلة الحاجات لعدم الترف وعوائده فيكون خرجها وإنفاقها قليلا فيكون في الجباية حينئذ وفاء بأزيد منها بل يفضل منها كثير عن حاجتهم ثم لا تلبث أن تأخذ بدين الحضارة في الترف وعوائدها وتجري على نهج الدول السابقة قبلها فيكثر لذلك خراج أهل الدولة ويكثر خرج السلطان خصوصا كثرة بالغة بنفقته في خاصته وكثرة عطائه ولا تنق بذلك الجباية فتححتاج الدولة إلى الزيادة في الجباية لما تحتاج إليه الحامية من العطاء والسلطان من النفقة فيزيد في مقدار الوظائف والوزائع أولا كما قلناه ثم يزيد الخراج والحاجات والتدريج في عوائد الترف وفي العطاء للحامية ويدرك الدولة الهرم وتضعف عصابتها عن جباية الأموال من الأعمال والقاصية فتقل الجباية وتكثر العوائد ويكثر بكثرتها أرزاق الجند وعطاؤهم فيستحدث صاحب الدولة أنوعا من الجباية يضر بها على البياعات ويفرض لها قدرا معلوما على الأثمان في الأسواق وعلى أعيان السلع في أموال المدينة وهو مع هذا مضطر لذلك بمادعاه إليه ترف الناس من كثرة العطاء مع زيادة الجيوش والحامية وربما يزيد ذلك في أواخر الدولة زيادة بالغة فتكسد الأسواق لفساد الآمال ويؤذن ذلك باختلال العمران ويعود على الدولة ولا يزال ذلك يتراد إلى أن تضمحل وقد كان وقع منه بأمصار المشرق في أخريات الدولة العباسية والعبيدية كثير وفرضت المغارم حتى على الحاج في الموسم وأسقط صلاح الدين أيوب تلك الرسوم جملة وأغاضها بآثار الخير وكذلك وقع بالأندلس لعهد الطوائف حتى عارسه يوسف بن تاشفين أمير المرابطين وكذلك وقع بأمصار الجريد بأفريقية لهذا العهد حين استبد بها رؤساؤها والله تعالى أعلم

#### ٤١ \* فصل في أن التجارة من السلطان مضرّة بالرعايا مفسدة للجباية \*

( اعلم ) أن الدولة إذا ضاقت جبايتها بما قدمناه من الترف وكثرة العوائد والنفقات وقصر الحاصل من جبايتها على الوفاء بحاجتها ونفقاتها واحتاجت إلى مزيد المال والجباية فتارة توضع المكوس على بياعات الرعايا وأسواقهم كما قدمنا ذلك في الفصل قبله وتارة بالزيادة في ألقاب المكوس إن كان قد استحدث من قبل وتارة بمقاسمة العمال والجباة وامتلاك عظامهم لما يرون أنهم قد حصلوا على شيء طائل من أموال الجباية لا يظهره الحساب وتارة باستحداث التجارة والفلاحة للسلطان على تسمية الجباية لما يرون التجار والفلاحين يحصلون على الفوائد والغلات مع يسارة أموالهم وأن الأرباح تكون على نسبة رؤس الأموال فيأخذون في اكتساب الحيوان والنبات لاستغلاله في شراء البضائع والتعرض بها لحالة الأسواق ويحسبون ذلك من إدراج الجباية وتكثير الفوائد وهو غلط عظيم وإدخال الضرر على الرعايا من وجوه متعددة فأولا مضايقة الفلاحين والتجار في شراء الحيوان والبضائع وتيسير

أسباب ذلك فإن الرعايا متكافئون في اليسار متقاربون ومن أحمه بعضهم بعضا تنتهي إلى غاية موجودهم أو تقرب وإذا راقهم السلطان في ذلك وماله أعظم كثير منهم فلا يكاد أحدهم يحصل على غرضه في شيء من حاجاته ويدخل على النفوس من ذلك غم ونكد ثم أن السلطان قد ينزع الكثير من ذلك إذا تعرض له غضا أو بأيسر ممن أو لا يجد من يناقشه في شرائه فيخس منه على بائعه ثم إذا حصل فوائد الفلاحة ومغلاها كله من زرع أو حرير أو عسل أو شكر أو غير ذلك من أنواع الغلات وحصلت بضائع التجارة من سائر الأنواع فلا ينتظرون به حوالة الأسواق والانفاق البياعات لما يدعوم إليه تكاليف الدولة فيكلفون أهل تلك الأصناف من تاجر أو فلاح بشراء تلك البضائع ولا يرضون في أثمانها إلا القيم وأزيد فيستوعبون في ذلك ناض أموالهم وتبقى تلك البضائع بأيديهم عروضا جامدة ويمكثون عطلا من الإدارة التي فيها كسبهم ومعاشهم وربما تدعوم الضرورة إلى شيء من المال فيبيعون تلك السلع على كساد من الأسواق بأخس ممن وربما تكرر ذلك على التاجر والفلاح منهم بما يذهب رأس ماله فيقعده عن سوقه ويتعدد ذلك ويتكرر ويدخل به على الرعايا من العنت والمضايقة وفساد الأرباح ما يقبض آملهم عن السعي في ذلك جملة ويؤدي إلى فساد الجباية فإن معظم الجباية إنما هي من الفلاحين والتجار لا سيما بعد وضع المكوس ونحو الجباية بها فإذا انقبض الفلاحون عن الفلاحة وقعد التجار عن التجارة ذهبت الجباية جملة أو دخلها النقص المتفاحش وإذا قايس السلطان بين ما يحصل له من الجباية وبين هذه الأرباح القليلة وجدها بالنسبة إلى الجباية أقل من القليل ثم أنه ولو كان مفيدا فيذهب له بحظ عظيم من الجباية فيما يعاينيه من شراء أو بيع فإنه من البعيدين يوجد فيه من المكس ولو كان غيره في تلك الصفقات لكان تكسبها كلها حصلا من جهة الجباية ثم فيه التعرض لأهل عمرانه واختلال الدولة بفسادهم ونقصه فإن الرعايا إذا قعدوا عن تشمير أموالهم بالفلاحة والتجارة نقصت وتلاشت بالنفقات وكان فيها اتلاف أحوالهم فافهم ذلك وكان الفرس لا يملكون عليهم الأمن أهل بيت المملكة ثم يختارونه من أهل الفضل والدين والأدب والسخاء والشجاعة والكرم ثم يشترطون عليه مع ذلك العدل وأن لا يتخذ صنعة فيضرب بحيرانه ولا يتاجر فيحب غلاء الأسعار في البضائع وأن لا يستخدم العبيد فإنهم لا يشيرون بخير ولا مصلحة \* واعلم إن السلطان لا ينمي ماله ولا يدر موجوده إلا للجباية وأدراها إنما يكون بالعدل في أهل الأموال والنظر لهم بذلك فبذلك تنبسط آمالهم وتنشرح صدورهم للأخذ في تشمير الأموال وتنميها فتعظم منها جباية السلطان وأما غير ذلك من تجارة أو فلاح فأنما هو مضرة عاجلة للرعايا وفساد للجباية ونقص للعمارة وقد ينتهي الحال بهؤلاء المنسلخين للتجارة والفلاحة من الأمراء والتغلبين في البلدان أنهم يتعرضون لشراء الغلات والسلع من أربابها الواردين على بلدهم ويفرضون لذلك من الثمن ما يشاؤون ويبيعونها في وقتها لمن تحت أيديهم من الرعايا بما يفرضون من الثمن وهذه أشد من الأولى وأقرب إلى فساد الرعية واختلال أحوالهم وربما يحمل السلطان على ذلك من يداخله من هذه الأصناف أعني التجار والفلاحين لما هي صناعته التي نشأ عليها فيحمل السلطان

على ذلك ويضرب معه بسهم لنفسه ليحصل على غرضه من جمع المال سر يعاسي مع ما يحصل له من التجارة بلامعروم ولا مكس فانها أجدر بنمو الأموال وأسرع في تثيره ولا يفهم ما يدخل على السلطان من الضرر بنقص جبايته فينبغي للسلطان أن يحذر من هؤلاء ويعرض عن سعاتهم المضرة بجبايته وسلطانه والله يلهمنا رشد أنفسنا وينفعنا بصلاح الأعمال والله تعالى أعلم

## ٤٢ \* فصل في أن ثروة السلطان وحاشيته إنما تكون في وسط الدولة \*

والسبب في ذلك أن الجباية في أول الدولة تنوزع على أهل القبيل والعصبة بمقدار غنائمهم وعصبيتهم ولائاً الحاجة اليهم في تمهيد الدولة كما قلناه من قبل فرئيسهم في ذلك متجاف لهم عما يسبون اليه من الجباية معتاض عن ذلك بما هو يروم من الاستبذاد عليهم فله عليهم عزة وله اليهم حاجة فلا يطير في سهمانه من الجباية الا الاقل من حاجته فتجد حاشيته لذلك وأذيله من الوزراء والكتاب والموالي مملقين في الغالب وجاههم متقلص لانه من جاءه مخدومهم ونطاقه قد ضاق بمن يزاحمه فيه من أهل عصبيته فاذا استفحلت طبيعة الملك وحصل لصاحب الدولة الاستبذاد على قومه قبض أيديهم عن الجبايات الا ما يطير لهم بين الناس في سهمانهم وتقل حظوظهم اذ ذاك لقلعة غنائمهم في الدولة بما انكبح من أعتهم وصار الموالي والصنائع مساهمين لهم في القيام بالدولة وتمهيد الامر فينفرد صاحب الدولة حينئذ بالجباية أو معظمها ويحتوى على الأموال ويحتجها بالنفقات في مهمات الأحوال فتكثر ثروته وتمتلى خزائنه ويتسع نطاق جاهه ويعتز على سائر قومه فيعظم حال حاشيته وذويه من وزير وكاتب وحاجب ومولى وشرطي ويتسع جاههم ويقتنون الأموال ويتأثلون بها ثم إذا أخذت الدولة في الهرم تلاشى العصبة وفناء القبيل الماهدين للدولة احتاج صاحب الامر حينئذ إلى الاعوان والأئصار لكثرة الخوارج والمنازعين والثوار وتوهم الانتفاض فصار خراجهم لظهوره وأعوانه وهم أرباب السيوف وأهل العصبية وأنفق خزائنه وحاصله في مهمات الدولة وقلت مع ذلك الجباية لما قدمناه من كثرة العطاء والاتفاق فيقل الخراج وتشتد حاجة الدولة إلى المال فيتقلص ظل النعمة والترف عن الخواص والحجاب والكتاب بتقلص الجاه عنهم وضيق نطاقه على صاحب الدولة ثم تشتد حاجة صاحب الدولة إلى المال وتنفق أبناء البطانة والحاشية ما تأثله آباؤهم من الأموال في غير سبيلها من اعانة صاحب الدولة ويقبلون على غير ما كان عليه آباؤهم وسلفهم من المناجحة ويرى صاحب الدولة أنه أحق بتلك الأموال التي اكتسبت في دولة سلفه وبجاههم فيصطلمها وينزعها منهم لنفسه شيئاً وواحد بعد واحد على نسبة رتبهم وشكر الدولة لهم ويعود وبال ذلك على الدولة بفناء حاشيتها ورجالاتها وأهل الثروة والنعمة من بطاتها ويتقوض بذلك كثير من مباني المجد بعد أن يدعمه أهله ويرفعوه وانظر ما وقع من ذلك لوزراء الدولة العباسية في بني قحطبة وبني برمك وبني سهل وبني طاهر وأمثالهم ثم في الدولة الأموية بالأندلس عند انحلالها أيام الطوائف في



بني شهيد وبني أبي عبدة وبني حدير وبني برد وأمثالهم وكذا في الدولة التي أدرناها لعهدنا سنة الله التي قد خلت في عباده

﴿فصل﴾ ولما يتوقعه أهل الدولة من أمثال هذه المعاطب صار الكثير منهم ينزعون إلى الفرار عن الرتب والتخلص من ربة السلطان بما حصل في أيديهم من مال الدولة إلى قطر آخرون انه أنهلهم وأسلم في انفاقه وحصول ثمرته وهو من الأغلاط الفاحشة والأوهام المفسدة لأحوالهم وديانهم واعلم ان الخلاص من ذلك بعد الحصول فيه عسير تمتنع فان صاحب هذا الغرض إذا كان هو الملك نفسه فلا تمكنه الرعية من ذلك طرفة عين ولأهل العصبية المزاحمون له بل في ظهور ذلك منه هدم للملكه واتلاف لنفسه بمجاري العادة بذلك لأن ربة الملك يعسر الخلاص منها سيما عند استفحال الدولة وضيق نطاقها وما يعرض فيها من البعد عن المجد والحلال والتخلق بالشر وأما إذا كان صاحب هذا الغرض من بطانة السلطان وحاشيته وأهل الرتب في دولته فقل أن يخفى بينه وبين ذلك أما أولا فلما يراه الملوك أن ذويهم وحاشيتهم بل وسائر رعاياهم بمالك لهم مطلعون على ذات صدورهم فلا يسمحون بحل ربتهم من الخدمة ضنا بأسرارهم وأحوالهم أن يطلع عليها أحد وغيره من خدمته لسواهم ولقد كان بنو أمية بالأندلس يمنعون أهل دولتهم من السفر لفريضة الحج لما يتوهمونه من وقوعهم بأيدي بني العباس فلم يحج سائر أيامهم أحد من أهل دولتهم وما أيسح الحج لأهل الدول من الأندلس إلا بعد فراغ شأن الأموية ورجوعها إلى الطوائف وأما ثانيا فلا أنهم وإن سمحوا بحل ربتهم هو فلا يسمحون بالتجافي عن ذلك المال لما يرون أنه جزء من مالهم كما يرون أنه جزء من دولتهم اذ لم يكتسب إلا بها وفي ظل جاهها فتحوم نفوسهم على انتزاع ذلك المال والتفامه كما هو جزء من الدولة ينتفعون به ثم إذا توهمنا انه خلص بذلك المال إلى قطر آخرو هو في النادر الأقل فتمتد إليه أعين الملوك بذلك القطر ويتزعونه بالارهاب والتخويف تعريضا أو بالقهر ظاهرا لما يرون أنه مال الجباية والدول وأنه مستحق للانفاق في المصالح وإذا كانت أعينهم تمتد إلى أهل الثروة واليسار المكتسبين من وجوه المعاش فأحرى بها أن تمتد إلى أموال الجباية والدول التي تجد السبيل اليه بالشرع والعادة ولقد حاول السلطان أبو يحيى زكريا بن أحمد اللحياني تاسع أو عاشر ملوك الحفصيين بأفريقية الخروج عن عهدة الملك والالحاق بمصر فرارا من طلب صاحب الثغور الغربية لما استجمع لغزو تونس فاستعمل اللحياني الرحلة إلى ثغر طرابلس يورى بتمهيده وركب السفين من هنالك وخلص إلى الاسكندرية بعد أن حمل جميع ما وجدته بيت المال من الصامت والذخيرة وباع كل ما كان بخزائنها من المتاع والعقار والجوهر حتى الكتب واحتمل ذلك كله إلى مصر ونزل على الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة سبع عشرة من المائة الثامنة فأكرم نزلهم ورفع مجلسه ولم يزل يستخلص ذخيره شيئا فشيئا بالتعريض إلى أن حصل عليها ولم يبق معاش ابن اللحياني إلا في جرابه التي فرض له إلى أن هلك سنة ثمان وعشرين حسبنا ذكره في أخباره فهذا وأمثاله من جملة الوسواس الذي يعترى أهل الدول لما يتوقعونه من ملوكهم من المعاطب

وإنما يخلصون أن اتفق لهم الخلاص بأنفسهم وما يتوهمونه من الحاجة فغلط ووهو والذي حصل لهم من الشهرة بخدمة الدول كاف في وجدان المعاش لهم بالجزايات السلطانية أو بالجاه في انتحال طرق الكسب من التجارة والفلاحة والدول أنساب لكن

النفس راغبة إذا رغبتها \* وإذا ترد إلى قليل تقنع

والله سبحانه هو الرزاق وهو الموفق بعنه وفضله والله أعلم

### ٤٣ \* فصل في أن نقص العطاء من السلطان نقص في الجباية \*

والسبب في ذلك أن الدولة والسلطان هي السوق الأعظم للعالم ومنه مادة العمران فإذا احتجن السلطان الأموال أو الجبايات أو فقدت فلم يصرفها في مصارفها قل حينئذ ما بأيدي الحاشية والحامية وانقطع أيضاً كان يصل منهم لحاشيتهم وذويهم وقلت نفقاتهم جملة وهو معظم السواد ونفقاتهم أكثر مادة للأسواق من سواهم فيقع الكساد حينئذ في الأسواق وتضعف الأرباح في المتاجر فيقل الخراج لذلك لأن الخراج والجباية إنما تكون من الاعتمار والمعاملات ونفاق الأسواق وطلب الناس للفوائد والأرباح ووبال ذلك عائد على الدولة بالنقص لقلة أموال السلطان حينئذ بقلة الخراج فإن الدولة كما قلناه هي السوق الأعظم أم الأسواق كلها وأصلها ومادتها في الدخل والخرج فإن كسدت وقلت مصارفها فأجدر بما بعدها من الأسواق أن يلحقها مثل ذلك وأشد منه وأيضاً للمال إنما هو متردد بين الرعية والسلطان منهم إليه ومنه إليهم فإذا حبسه السلطان عنده فقدته الرعية سنة الله في عباده

### ٤٤ \* فصل في أن الظلم مؤذن بخراب العمران \*

إعلم أن العدوان على الناس في أموالهم ذاهب بآمالهم في تحصيلها واكتسابها لما يرونه حينئذ من أن غايتها ومصيرها انتهابها من أيديهم وإذا ذهبت آمالهم في اكتسابها وتحصيلها انقبضت أيديهم عن السعي في ذلك وعلى قدر الاعتداء ونسبته يكون انقباض الرعايا عن السعي في الاكتساب فإذا كان الاعتداء كثيراً عاماً في جميع أبواب المعاش كان القعود عن الكسب كذلك لذهابها به بالآمال جملة بدخوله من جميع أبوابها وإن كان الاعتداء يسيراً كان الانقباض عن الكسب على نسبته والعمران ووفوره ونفاق أسواقه إنما هو بالأعمال وسعى الناس في المصالح والمكاسب ذاهبين وجائين فإذا قعد الناس عن المعاش وانقبضت أيديهم عن المكاسب كسدت أسواق العمران وانتقضت الأحوال وابتدع الناس في الآفاق من غير تلك الآيالة في طلب الرزق فيما خرج عن نطاقها خفف ساكن القطر وخلت دياره وخربت أمصاره واختل باختلاله حال الدولة والسلطان لما أنها صورة للعمران تفسد بفساد مادتها ضرورة وانظر في ذلك ما حكاه المسعودي في أخبار الفرس عن الموبدان صاحب الدين عندهم أيام بهرام ابن بهرام وما عرض به للملك في انكار ما كان عليه من الظلم والغفلة عن عائدته على الدولة بضرر المثال في ذلك على لسان اليوم حين سمع الملك أصواتها وسأله عن فهم كلامها فقال له إن يوماً ذكر أروم

نكاح يوم أثى وأنها شرطت عليه عشرين قرية من الخراب في أيام بهرام قبل شرطها وقال لها إن دامت أيام الملك أقطعتك ألف قرية وهذا أسهل مرأى فتنبه الملك من غفلته وخالها بالموذبان وسأله عن مراده فقال له أيها الملك إن الملك لا يتم عزه إلا بالشرعية والقيام لله بطاعته والتصرف تحت أمره ونهيه ولا أقوام للشرعية إلا بالملك ولا عز للملك إلا بالرجال ولا أقوام للرجال إلا بالمال ولا سبيل إلى المال إلا بالعمارة ولا سبيل للعمارة إلا بالعدل والعدل الميزان المنصوب بين الخليفة ونصبه الرب وجعل له قياما وهو الملك وأنت أيها الملك عمدت إلى الضياع فانتزعتها من أربابها وعمارها وهم أرباب الخراج ومن تؤخذ منهم الأموال وأقطعتها للحاشية والخدم وأهل البطالة فتركوا العمارة والنظر في العواقب وما يصلح الضياع وسومحوا في الخراج لقربهم من الملك ووقع الحيف على من بقي من أرباب الخراج وعمار الضياع فأنجلوا عن ضياعهم وخلوا ديارهم وآووا إلى ما تعذر من الضياع فسكنوها فقلت العمارة وخربت الضياع وقلت الأموال وهلك الجنود والرعية وطمع في ملك فارس من جاورهم من الملوك لعلمهم بانقطاع المواد التي لا تستقيم دعائم الملك إلا بها فلما سمع الملك ذلك أقبل على النظر في ملكه وانتزعت الضياع من أيدي الخاصة وردت على أربابها وحملوا على رسومهم السالفة وأخذوا في العمارة وقوى من ضعف منهم فعمرت الأرض وأخصبت البلاد وكثرت الأموال عند جباة الخراج وقويت الجنود وقطعت مواد الأعداء وشحنت الثغور وأقبل الملك على مباشرة أموره بنفسه فحسنت أيامه وانتظم ملكه فتفهم من هذه الحكاية أن الظلم مخرب للعمران وأن عائدة الخراب في العمران على الدولة بالفساد والانتقاص ولا تنظر في ذلك إلى أن الاعتداء قديوم جديلا مصابا العظيمة من الدول التي بها لم يقع فيها خراب واعلم أن ذلك إنما جاء من قبل المناسبة بين الاعتداء وأحوال أهل المصر فلما كان المصريون كبارا وعمرانه كثيرا وأحواله متمتعة بما لا ينحصر كان وقوع النقص فيه بالاعتداء والظلم يسير لأن النقص إنما يقع بالتدريج فإذا خفي بكثرة الأحوال واتساع الأعمال في المصر لم يظهر أثره إلا بعد حين وقد تذهب تلك الدولة المعتدية من أصلها قبل خراب المصر وتجيء الدولة الأخرى فترقع مجدها وتجبر النقص الذي كان خفيا فيه فلا يكاد يشعر به إلا أن ذلك في الأقل النادر والمراد من هذا أن حصول النقص في العمران عن الظلم والعدوان أمر واقع لا بد منه لما قدمناه وبالله عائد على الدول ولا تحسبن الظلم إنما هو أخذ المال أو الملك من يد مالكه من غير عوض ولا سبب كما هو المشهور بل الظلم أعم من ذلك وكل من أخذ ملك أحد أو غصبه في عمله أو طالبه بغير حق أو فرض عليه حق لم يفرضه الشرع فقد ظلمه فجأة الأموال بغير حقها ظلمة والمعتدون عليها ظلمة والمنتهبون لها ظلمة والممانعون لحقوق الناس ظلمة وغصاب الأموال على العموم ظلمة وبال ذلك كله عائد على الدولة بخراب العمران الذي هو مادتها لا ذهابه الأموال من أهله واعلم أن هذه هي الحكمة المقصودة للشارع في تحريم الظلم وهو ما ينشأ عنه من فساد العمران وخرابه وذلك مؤذن بانقطاع النوع البشري وهي الحكمة العامة المراجعة للشرع في جميع مقاصده الضرورية الخمسة من حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال فلما كان الظلم



كأريت مؤذنا بقطع النوع لما أدى اليه من تخريب العمران كانت حكمة الحظ فيه موجودة فكان  
تخريبه مهما وأدلت من القرآن والسنة كثيراً أكثر من أن يأخذها قانون الضبط والحصر ولو كان كل  
واحد قادر عليه لوضع بازائه من العقوبات الزاجرة ما وضع بازاء غيره من المفسدات للنوع التي يقدر  
كل أحد على اقترافها من الزنا والقتل والسكر إلا أن الظلم لا يقدر عليه إلا من يقدر عليه لأنه إنما يقع من  
أهل القدرة والسلطان فيولغ في ذمه وتكرير الوعيد فيه عسى أن يكون الوازع فيه للقادر عليه في نفسه  
ومار بكم بظلام للعبيد \* ولا تقولن أن العقوبة قد وضعت بازاء الحراية في الشرع وهي من ظلم القادر  
لأن المحارب زمن حرابته قدرا فإن في الجواب عن ذلك طريقين أحدهما أن تقول العقوبة على ما يقترفه  
من الجنائيات في نفس أو مال على ما ذهب اليه كثير وذلك إنما يكون بعد القدرة عليه والمطالبة بجنايته  
وأما نفس الحراية فهي خلو من العقوبة الطريق الثاني أن تقول المحارب لا يوصف بالقدرة لأننا إنما  
نعني بقدرة الظالم اليد المبسوطة التي لا تعارضها قدرة فهي المؤذنة بالحرب وأما قدرة المحارب فأنما هي  
إخافة يجعلها ذريعة لاختلال أموال والمدافعة عنها بيد الكل موجودة شرعا وسياسة فليست من القدر  
المؤذن بالحرب والله قادر على ما يشاء

﴿ فصل ﴾ ومن أشد الظلمات وأعظمها في إفساد العمران تكليف الأعمال وتسخير الرعايا  
بغير حق وذلك أن الأعمال من قبيل الممولات كما سنبين في باب الرزق لأن الرزق والكسب إنما  
هو قيم أعمال أهل العمران فإذا مساعهم وأعمالهم كلها ممولات ومكاسبهم بل لا مكاسب لهم سواها  
فإن الرعية المعتمدين في العارة إنما معاشهم ومكاسبهم من اعتمادهم ذلك فذا كفوا العمل في غير شأنهم  
واتخذوا سخرياً في معاشهم بطل كسبهم واغتصبوا قيمة عملهم ذلك وهو متمولهم فدخل عليهم الضرر  
وذهب لهم حظ كبير من معاشهم بل هو معاشهم بالجملة وإن تكرر ذلك عليهم أفسد آمالهم في  
العارية وقعدوا عن السعي فيها جملة فأدى ذلك إلى انتقاض العمران وتخريبه والله سبحانه  
وتعالى أعلم وبه التوفيق

﴿ فصل ﴾ وأعظم من ذلك في الظلم وفساد العمران والدولة التسليط على أموال الناس بشراء  
ما بين أيديهم بأبغس الأثمان ثم فرض البضائع عليهم بأرفع الأثمان على وجه الغصب والاكراه في الشراء  
والبيع ورمات فرض عليهم تلك الأثمان على النواحي والتأجيل فيتعلمون في تلك الخسارة التي تلحقهم  
بما تحدثهم المطامع من جبر ذلك بحالة الأسواق في تلك البضائع التي فرضت عليهم بالغلاء إلى بيعها  
بأبغس الأثمان وتعود خسارة ما بين الصفتين على رؤس أموالهم وقد يعم ذلك أصناف التجار  
المقيمين بالمدينة والواردين من الآفاق في البضائع وسائر السوق وأهل الدكاكين في المأكول  
والفواكه وأهل الصنائع فيما يتخذ من الآلات والموازين فتشمل الخسارة سائر الأصناف  
والطبقات وتتوالى على الساعات وتححف رؤس الأموال ولا يجدون عنها وليجة إلا التعود عن  
الأسواق لذهاب رؤس الأموال في جبرها بالأرباح ويتثاقل الواردون من الآفاق لشراء البضائع

ويبيعها من أجل ذلك فتكسد الأسواق ويبطل معاش الرعايا لأن عامتهم من البيع والشراء وإذا كانت الأسواق عطلا منها بطل معاشهم وتنقص جباية السلطان أو تفسد لأن معظمها من أوسط الدولة وما بعدها إنما هو من المكوس على البياعات كما قدمناه ويؤول ذلك إلى تلاشي الدولة وفساد عمران المدينة ويتطرق هذا الخلل على التدريج ولا يشعر به هذا ما كان بأمثال هذه الذرائع والأسباب إلى أخذ الأموال وأما أخذها مجانا والعدوان على الناس في أموالهم وحرمتهم ودمائهم وأسرارهم وأعراضهم فهو يفضي إلى الخلل والفساد دفعة وتنقض الدولة سرعيا بما ينشأ عنه من الهرج المفضي إلى الانتقاص ومن أجل هذه المفاسد حظر الشرع ذلك كله وشرع المكايسة في البيع وحظر أكل أموال الناس بالباطل سدا لأبواب المفاسد المفضية إلى انتقاص العمران بالهرج أو بطلان المعاش واعلم أن الداعي لذلك كله إنما هو حاجة الدولة والسلطان إلى الاكثار من المال بما يعرض لهم من الترف في الأحوال فتكثر نفقاتهم ويعظم الخروج ولا يبقى به الدخل على القوانين المعتادة يستحدثون ألفاها ووجوها يوسعونها الجباية لين لهم الدخل بالخرج ثم لا يزال الترف يزيد والخرج بسببه يكثر والحاجة إلى أموال الناس تشتد ونطاق الدولة بذلك يزيد إلى أن تنمحي دائرتها ويذهب برسمها ويغلبها طلبها والله أعلم

#### ٤٥ \* فصل في الحجاب كيف يقع في الدول وأنه يعظم عند الهرم \*

إعلم أن الدولة في أول أمرها تكون بعيدة عن منازع الملك كما قدمناه لأنه لا بد لها من العصبية التي به يتم أمرها ويحصل استيلائها والبداءة هي شعار العصبية والدولة إن كان قيامها بالدين فانه بعيد عن منازع الملك وإن كان قيامها بغير الغلب فقط فالبداءة التي بها يحصل الغلب بعيدة أيضا عن منازع الملك ومذاهبه فإذا كانت الدولة في أول أمرها بدوية كان صاحبها على حال الغضاضة والبداءة والقرب من الناس وسهولة الاذن فاذا رسخ عزه وصار إلى الانفراد بالمجد واحتاج إلى الانفراد بنفسه عن الناس للحديث مع أوليائه في خواص شؤنه لما يكثر حينئذ من محاشيته فيطلب الانفراد من العامة ما استطاع ويتخذ الاذن ببابه على من لا يؤمنه من أوليائه وأهل دولته ويتخذ حاجباً له عن الناس يقيمه ببابه لهذه الوظيفة ثم إذا استفحل الملك وجاءت مذاهبه ومنازعه استحال خلق صاحب الدولة إلى خلق الملك وهي خلق غريبة مخصوصة يحتاج مباشرها إلى مداراتها ومعاملتها بما يجب لها وربما جهل تلك الخلق منهم بعض من يباشرهم فوق فيما لا يرضيهم فسخطوه وصار إلى حالة الانتقام منه فانفرد بمعرفة هذه الآداب الخواص من أوليائهم وحجبا غير أولئك الخاصة عن لقاءهم في كل وقت حفظا على أنفسهم من معاينة ما يسخطهم وعلى الناس من التعرض لعقابهم فصار لهم حجاب آخر أخص من الحجاب الأول يفضي إليهم منه خواصهم من الأولياء ويحجب دونه من سوامم من العامة والحجاب الثاني يفضي إلى مجالس الأولياء ويحجب دونه من سوامم من العامة والحجاب الأول يكون في أول الدولة كما ذكرنا كما حدث لأيام معاوية وعبد الملك وخلفاء بني أمية وكان القائم على ذلك الحجاب يسمى عندهم

الحاجب جري على مذهب الاشتقاق الصحيح ثم لما جاءت دولة بني العباس وجدت الدولة من الترف والعز ما هو معروف وكمثل خلق الملك على ما يجب فيها فدعا ذلك إلى الحاجب الثاني وصار اسم الحاجب أخص به وصار يباب الخلفاء داران للعباسية دار الخاصة ودار العامة كما هو مسطور في أخبارهم ثم حدث في الدول حجاب ثالث أخص من الأولين وهو عند محاولة الحجر على صاحب الدولة وذلك أن أهل الدولة وخواص الملك إذا نصبوا الأبناء من الألقاب وحاولوا الاستبداد عليهم فأول ما يبده ذلك المستبد أن يحجب عنه بطانة ابنه وخواص أوليائه ويوهمه أن في مباشرتهم إياه خرق حجاب الهيبة وفساد قانون الأدب ليقطع بذلك لقاء الغير ويعوده ملابسة أخلاقه هو حتى لا يتبدل به سواه إلى أن يستحكم الاستيلاء عليه فيكون هذا الحجاب من دواعيه وهذا الحجاب لا يقع في الغالب إلا أواخر الدولة كما قدمناه في الحجر ويكون دليلاً على هرم الدولة ونفاد قوتها وهو مما يخشاه أهل الدول على أنفسهم لأن القائمين بالدولة يحاولون على ذلك بطباعهم عندهم الدولة وذهاب الاستبداد من أعقاب ملوكهم لما ركب في النفوس من حجة الاستبداد بالملك وخصوصاً مع الترشيح لذلك وحصول دواعيه ومبادئه

#### ٤٦ \* فصل في انقسام الدولة الواحدة بدولتين \*

إعلم أن أول ما يقع من آثار الهرم في الدولة انقسامها وذلك أن الملك عندما يستفحل ويبلغ أحوال الترف والنعيم إلى غايتها ويستبد صاحب الدولة بالمجد وينفرد به يأنف حينئذ عن المشاركة ويصير إلى قطع أسبابها ما استطاع باهلاك من استراب به من ذوى قرابته المرشحين لمنصبه فربما ارتاب المساهمون له في ذلك بانفسهم ونزعوا إلى القاصية اليهم من يلحق بهم مثل حالهم من الاغترار والاسترابة ويكون نطاق الدولة قد أخذ في التضيق ورجع عن القاصية فيستبد ذلك النازع من القربة فيها ولا يزال أمره يعظم بتراجع نطاق الدولة حتى يقاسم الدولة أو يكاد وانظر ذلك في الدولة الإسلامية العربية حين كان أمرها حريزاً مجتمعاً وانطاقها ممتداً في الاتساع وعصبية بني عبد مناف واحدة غالبية على سائر مضر فلم ينبض عرق من الخلاف سائر أيامه إلا ما كان من بدعة الخوارج المستميتين في شأن بدعتهم لم يكن ذلك لنزعة ملك ولا رياسة ولم يتم أمرهم لمزاحمتهم العصبية القوية ثم لما خرج الأمر من بني أمية واستقل بنو العباس بالأمر وكانت الدولة العربية قد بلغت الغاية من الغلب والترف وأذنت بالتقلص عن القاصية نزع عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس قاصية دولة الإسلام فاستحدث بها ملوكاً واقتطعها عن دولتهم وصير الدولة دولتين ثم نزع ادريس إلى المغرب وخرج به وقام بأمره وأمر ابنه من بعده البربرية من أوروبا ومغيلة وزناقة واستولى على ناحية الغربيين ثم ازدادت الدولة تقلصاً فاضطرب الأغلبية في الامتناع عليهم ثم خرج الشيعة وقام بأمرهم كتامة وصنهاجة واستولوا على إفريقية والمغرب ثم مصر والشام والحجاز وغلبوا على الأدارسة وقسموا الدولة دولتين أخريين وصارت الدولة العربية ثلاث دول دولة بني العباس بمركز العرب وأصلهم ومادتهم الإسلام



ودولة بني أمية المجددين بالاندلس ملكهم القديم وخلافتهم بالمشرق ودولة العبيدين بأفريقية ومصر والشام والحجاز ولم تزل هذه الدولة إلى أن كان انقراضها متقارباً وأجمعوا وكذلك انقسمت دولة بني العباس بدول أخرى وكان بالقاصية بنو سان فيما وراء النهر وخراسان والعلوية في الديلم وطبرستان وآل ذلك إلى استيلاء الديلم على العراقيين وعلى بغداد والخلفاء ثم جاء السلجوقية فملكوا جميع ذلك ثم انقسمت دولتهم أيضاً بعد الاستفحال كما هو معروف في أخبارهم وكذلك اعتبره في دولة صنهاجة بالمغرب وأفريقية لما بلغت إلى غايتها أيام باديس بن المنصور خرج عليه عمه حماد واقتطع بمالك العرب لنفسه ما بين جبل أوراس إلى تلمسان ومالوية واختط القلعة بجبل كتامة حيال المسيلة ونزلها واستولى على مركزهم أشير بجبل تيطرى واستحدث ملكاً آخر قسماً لملك آل باديس وبقي آل باديس بالقيروان وماليها ولم يزل ذلك إلى أن انقرض أمرها جميعاً وكذلك دولة الموحدون لما تقلص ظلها تار بأفريقية بنو أبي حفص فاستقلوا بها واستحدثوا ملكاً لا أعقابهم بنو أحيا ثم لما استفحل أمرهم واستولى على الغاية وخرج على الممالك الغربية من أعقابهم الأمير أبو بكر يحيى ابن السلطان أبي اسحق إبراهيم رابع خلفائهم واستحدث ملكاً بجاية وقسطنطينية وماليها ورثه بنوه وقسموا به الدولة قسمين ثم استولى على كرسي الحضرة بتونس ثم انقسم الملك ما بين أعقابهم ثم عاد الاستيلاء فيهم وقدينتهى الانقسام إلى أكثر من دولتين وثلاثة وفي غير أعيان الملك من قومه كما وقع في ملوك الطوائف بالاندلس وملوك العجم بالمشرق وفي ملك صنهاجة بأفريقية فقد كان لا خرد دولتهم في كل حصن من حصون أفريقية نأثر مستقل بأمره كما تقدم ذكره وكذلك حال الجريد والزاب من أفريقية قبيل هذا العهد كما نذكره وهكذا شأن كل دولة لا بد وأن يعرض فيها عوارض الهرم بالتلف والدعة وتقلص ظل الغلب فيقتسم أعيانها أو من يغلب من رجال دولتها الأمر ويتعدد فيها الدولة والله وارث الأرض ومن عليها

### ﴿ فصل في أن الهرم إذا نزل بالدولة لا يرتفع ﴾

٤٧

قد قدمنا ذكر العوارض المؤذنة بالهرم وأسبابه واحداً بعد واحد وبيننا أنها تحدث للدولة بالطبع وأنها كلها أمور طبيعية لها وإذا كان الهرم طبيعياً في الدولة كان حدوثه بمثابة حدوث الأمور الطبيعية كما يحدث الهرم في المزاج الحيواني والهرم من الأمراض المزمنة التي لا يمكن دواؤها ولا ارتفاعها لما أنه طبيعي والأمور الطبيعية لا تتبدل وقدينتبه كثير من أهل الدول بمن له يقظة في السياسة فيرى ما نزل بدولتهم من عوارض الهرم ويظن أنه ممكن الارتفاع فيأخذ نفسه بتلافي الدولة وإصلاح مزاجها عن ذلك الهرم ويحسبه أنه لحقها بتقصير من قبله من أهل الدولة وغفلتهم وليس كذلك فإنها أمور طبيعية للدولة والعوائد المانعة له من تلافيا والعوائد منزلة طبيعية أخرى فإن من أدرك مثلاً بأه وأكثراً أهل بيته يلبسون الحرير والديباج ويتحلون بالذهب في السلاح والمراكب ويحتجون عن الناس في المجالس والصلوات فيمكنه مخالفة سلفه في ذلك إلى الخشونة في اللباس والزى والاختلاط بالناس إذا العوائد حينئذ

تمنعه وتقبس عليه مرتكبه ولو فعله لم يبالجنون والوسواس في الخروج عن العوائد دفعة وخشى عليه عائدة ذلك وعاقبته في سلطانه وانظر شأن الأنبيا في انكار العوائد وخالقتها لولا التأييد الإلهي والنصر السماوي وربما تكون العصبية قد ذهبت فتكون الأبهة تعوض عن موقعها من النفوس فاذا أزيلت تلك الأبهة مع ضعف العصبية تجاسرت الرعايا على الدولة بذهاب أو هام الأبهة فتتدرب الدولة بتلك الأبهة ما أمكنها حتى ينقضي الأمر وربما يحدث عند آخر الدولة قوة تؤم أن الهرم قد ارتفع عنها ويومض ذبا لها إيماضة الحمود كما يقع في الديال المشتعل فانه عند مقاربة انطفائه يومض إيماضة تؤم أنها اشتعال وهي انطفاء فاعتبر ذلك ولا تغفل سر الله تعالى وحكمته في اطراد وجوده على ما قدر فيه ولكل أجل كتاب

#### ٤٨ ﴿ فصل في كيفية طرق الحلل للدولة ﴾

اعلم أن مبنى الملك على أساسين لا بد منهما فالأول الشوكة والعصبية وهو المعبر عنه بالجنود والثاني المال الذي هو قوام أولئك الجنود وإقامة ما يحتاج اليه الملك من الأحوال والحلل إذ طرق الدولة طرقها في هذين الأساسين فلنذكر أولاً طرق الحلل في الشوكة والعصبية ثم نرجع إلى طرقها في المال والجباية واعلم أن تمهيد الدولة وتأسيسها كما قلناه إنما يكون بالعصبية وأنه لا بد من عصبية كبرى جامعة للعصائب مستتبعة لها وهي عصبية صاحب الدولة الخاصة من عشيرة وقبيلة فاذا جاءت الدولة طبيعة الملك من الترف وجدع أنوف أهل العصبية كان أول ما يجمع أنوف عشيرته وذوي قرباه المقاسمين له في اسم الملك فيستبد في جدع أنوفهم بما بلغ من سوادهم ويأخذهم الترف أيضاً أكثر من سواهم لمكانهم من الملك والعز والغلب فيحيط بهم هادمان وهما الترف والقهر ثم يصير القهر آخر إلى القتل لما يحصل من مرض قلوبهم عند رسوخ الملك لصاحب الأمر في قلب غيرته منهم إلى الخوف على ملكه فيأخذهم بالقتل والاهانة وسلب النعمة والترف الذي تعودوا الكثير منه فيهلكون ويقولون وتفسد عصبية صاحب الدولة منهم وهي العصبية الكبرى التي كانت تجمع العصائب وتستتبعها فتتحل عروتها وتضعف شكيמתها وتستبدل عنها بالبطالة من موالى النعمة وصنائع الاحسان وتتخذ منهم عصبية إلا أنها ليست مثل تلك الشدة الشكيمية لفقدان الرحم والقرابة منها وقد كنا قدمنا أن شأن العصبية وقوتها إنما هي بالقرابة والرحم لما جعل الله في ذلك فينفرد صاحب الدولة عن العشير والأنصار الطبيعية ويحس بذلك أهل العصائب الأخرى فيتجاسرون عليه وعلى بطائته تجاسر طبيعياً فيهلكهم صاحب الدولة ويتبعهم بالقتل واحداً بعد واحد ويقتل الآخر من أهل الدولة في ذلك الأول مع ما يكون قد نزل بهم من مهلكة الترف الذي قدمنا فيستولى عليهم الهلاك بالتلف والقتل حتى يخرجوا عن صبغة تلك العصبية وينشوا بعزتها وشورتها ويصيروا أوجز على الحماية ويقولون لذلك فقتل الحامية التي تنزل بالأطراف والثلغور فيتجاسر الرعايا على بعض الدعوة في الأطراف ويبادر الخوارج على الدولة من الأعياص وغيرهم إلى تلك الأطراف لما يرجون حينئذ من حصول غرضهم بمبايعة أهل القاصية لهم

وأمنهم من وصول الحامية اليهم ولا يزال ذلك يتدرج ونطاق الدولة يتضاق حتى تصير الخوارج في أقرب الأماكن إلى مركز الدولة وربما انقسمت الدولة عند ذلك بدولتين أو ثلاثة على قدر قوتها في الأصل كما قلناه ويقوم بأمرها غير أهل عصبيتها الكنعانية إذا كان أهل عصبيتها ولغلبهم المعهود واعتبر هذا في دولة العرب في الاسلام انتهت أولاً إلى الأندلس والهند والصين وكان أمر بني أمية نافذاً في جميع العرب بعصبة بني عبد مناف حتى لقد أمر سليمان بن عبد الملك من دمشق بقتل عبد العزيز بن موسى بن نصير بقرطبة قتل ولم يرد أمره ثم تلاشت عصبية بني أمية بما أصابهم من الترف فانقرضوا وجاء بنو العباس فغضوا من أعنة بني هاشم وقتلوا الطالبين وشردهم فأخذت عصبية عبد مناف وتلاشت وتجاثر العرب عليهم فاستبد عليهم أهل القاصية مثل بني الأغلب بأفريقية وأهل الأندلس وغيرهم وانقسمت الدولة ثم خرج بنو ادريس بالمغرب وقام البربر بأمرهم إذا كانا للعصبة التي لهم وأمناء أن تصلهم مقاتلة أو حامية للدولة فإذا خرج الدعاة آخر فيتغلبون على الأطراف والقاصية وتحصل لهم هناك دعوة وملك تنقسم به الدولة وربما يزيد ذلك متى زادت الدولة تقلصاً إلى أن ينتهي إلى المركز وتضعف البطانة بعد ذلك بما أخذ منها الترف فهلك وتضمحل وتضعف الدولة المنقسمة كلها وربما طال أمد لها بعد ذلك فتستغنى عن العصبية بما حصل لها من الصبغة في نفوس أهل أقاليمها وهي صبغة الانقياد والتسليم منذ السنين الطويلة التي لا يعقل أحد من الأجيال مبدأها ولا أوليتها فلا يعقلون إلا التسليم لصاحب الدولة فيستغنى بذلك عن قوة العصاب ويكنى صاحبها بما حصل لها في تمهيد أمرها الاجراء على الحامية من جندى ومرترق ويعضد ذلك ما وقع في النفوس عامة من التسليم فلا يكاد أحد أن يتصور عصياناً أو خروجاً إلا والجمهور منكرون عليه مخالفون له فلا يقدر على التصدي لذلك ولو جهد جهده وربما كانت الدولة في هذا الحال أسلم من الخوارج والمنازعة لاستحكام صبغة التسليم والانقياد لهم فلا تكاد النفوس تحدث سرها بمخالفة ولا يختلج في ضميرها انحراف عن الطاعة فيكون أسلم من المخرج والانتقاد الذي يحدث من العصاب والعشائر ثم لا يزال أمر الدولة كذلك وهي تتلاشى في ذاتها شأن الحرارة الغريزية في البدن العادم للغذاء إلى أن تنتهي إلى وقتها المقدور ولكل أجل كتاب ولكل دولة أمد والله يقدر الليل والنهار وهو الواحد القهار \* وأما الخلل الذي يتطرق من جهة المال فاعلم أن الدولة في أولها تكون بدوية كما مر فيكون خلق الرفق بالرعايا والقصد في النفقات والتعفف عن الأموال فتتجافى عن الامعان في الجباية والتدخل في الكيس في جميع الأموال وحسبان العمال ولاداعية حينئذ إلى الاسراف في النفقة فلا تحتاج الدولة إلى كثرة المال ثم يحصل الاستيلاء ويعظم ويستفحل الملك فيدعو إلى الترف ويكثر الانفاق بسببه فتعظم نفقات السلطان وأهل الدولة على العموم بل يتعدى ذلك إلى أهل المصر ويدعو ذلك إلى الزيادة في إعطيات الجند وأرزاق أهل الدولة ثم يعظم الترف فيكثر الاسراف في النفقات وينتشر ذلك في الرعية لأن الناس على دين ملوكها وعوائدها ويحتاج السلطان إلى ضرب المكوس على أثمان البياعات في الأسواق لإدارة الجباية لما يراه من ترف المدينة الشاهد عليهم بالرفه ولما يحتاج هو إليه من نفقات



سلطانه أرزاق جنده ثم تزيد عوائد الترف فلا تنى بها المكوس وتكون الدولة قد استنفحت في الاستطالة والقهر لمن تحت يدها من الرعايا فتمد أيديهم إلى جمع المال من أموال الرعايا من مكس أو تجارة أو نقد في بعض الأحوال بشبهة أو بغير شبهة ويكون الجندي ذلك الطور قد تجاسر على الدولة بما لحقها من الفشل والهرم في العصبية فتوقع ذلك منهم وتداوى بسكينة العطايا وكثرة الانفاق فيهم ولا تجد عن ذلك وليجة وتكون جباة الأموال في الدولة قد عظمت ثروتهم في هذا الطور بكثرة الجباية وكونها بأيديهم وبما اتسع لذلك من جاههم فيتوجه فيهم باحتجان الأموال من الجباية وتفشو السعاية فيهم بعضهم من بعض للمنافسة والحقد فتعمهم النكبات والمصادرات واحدا واحدا إلى أن تذهب ثروتهم وتتلاشى أحوالهم ويفقد ما كان للدولة من الأبهة والجمال بهم وإذا اصطلمت نعمتهم تجاوزتهم الدولة إلى أهل الثروة من الرعايا سوام ويكون الوهن في هذا الطور قد لحق الشوكة وضعفت عن الاستطالة والقهر فتتصرف سياسة صاحب الدولة حينئذ إلى مداراة الأمور ببذل المال ويراه أرفع من السيف لقلعة غنائها فتعظم حاجته إلى الأموال الزيادة على النفقات وأرزاق الجنود ولا يغنى فيما يريد ويعظم الهرم بالدولة ويتجاسر عليها أهل النواحي والدولة تنحل عراها في كل طور من هذه إلى أن تفضى إلى الهلاك وتتعرض من الاستيلاء الكل فان قصدها طالب انتزعها من أيدي القائمين بها والابقيت وهي تتلاشى إلى أن تضمحل كالذبال في السراج إذا فنى زيته وطفى والله مالك الأمور ومدير الأكو ان لا اله إلا هو

#### ٤٩ فصل في حدوث الدولة وتجددها كيف يقع

إعلم أن نشأة الدولة وبدايتها إذا أخذت الدولة المستقرة في الهرم والانتقاص يكون على نوعين أما بأن يستبد ولاة الأعمال في الدولة بالقاصية عند ما يتقلص ظلها عنهم فيكون لكل واحد منهم دولة يستجدها لقومه وما يستقر في نصابه يرثه عنه أبناءه أو مواليه ويستفحل لهم الملك بالتدريج مجور بما يزدحمون على ذلك الملك ويتقارعون عليه ويتنازعون في الاستئثار به ويغلب منهم من يكون له فضل قوة على صاحبه ويتزع ما في يده كما وقع في دولة بني العباس حين أخذت دولتهم في الهرم وتقلص ظلها عن القاصية واستبد بنو سامان بما وراء النهر وبنو حمدان بالموصل والشام وبنو طولون بمصر وكا وقع بالدولة الأموية بالاندلس واقترب ملكها في الطوائف الذين كانوا ولايتها في الأعمال وانقسمت دولها وملوكها أورثوها من بعدهم من قرابتهم أو مواليتهم وهذا النوع لا يكون بينهم وبين الدولة المستقرة حرب لأنهم مستفرون في رياستهم ولا يطمعون في الاستيلاء على الدولة المستقرة بحرب وإنما الدولة أدركها الهرم وتقلص ظلها عن القاصية ومجزت عن الوصول إليها والنوع الثاني بأن يخرج على الدولة خارج ممن يجاورها من الأمم والقبائل إما بدعوة يحمل الناس عليها كما أشرنا إليه أو يكون صاحب شوكة وعصبية كبيرا في قومه قد استفحل أمره فيسمو بهم إلى الملك وقد حدثوا به أنفسهم بما حصل لهم من الاعتزاز على الدولة المستقرة وما نزل بها من الهرم فيتعين له ولقومه الاستيلاء عليها ويمارسونها

بالمطالبة الى أن يظفروا بها ويزنون (١) أمرها كما يتبين والله سبحانه وتعالى أعلم

٥٠ ﴿ فصل في أن الدولة المستجدة إنما تستولى على الدولة

المستقرة لا بالمطالبة بالمناجاة ﴾

قد ذكرنا أن الدولة الحادثة المتجددة نوعان نوع من ولاية الأطراف إذا تقلص ظل الدولة عنهم وانحسر تيارها وهؤلاء لا يقع منهم مطالبة للدولة في الأثر أكثر كما قدمناه لأن قصارهم القنوع بما في أيديهم وهو نهاية قوتهم والنوع الثاني نوع الدعاة والحوارج على الدولة وهؤلاء لا بد لهم من المطالبة لأن قوتهم وافية بها فإن ذلك إنما يكون في نصاب يكون له من العصبية والاعتزاز ما هو كفاء ذلك وواف به فيقع بينهم وبين الدولة المستقرة حروب سجال تتكرر وتصل إلى أن يقع لهم الاستيلاء والظفر بالمطوب ولا يحصل لهم في الغالب ظفر بالمناجزة والسبب في ذلك أن الظفر في الحروب إنما يقع كما قدمناه بأموال نفسانية وهمية وإن كان العدو السلاح وصدق القتال كفيلا به لكنه قاصر مع تلك الأمور الوهمية كما مر ولذلك كان الخداع من أنفع ما يستعمل في الحرب وأكثر ما يقع الظفر به وفي الحديث الحرب خدعة والدولة المستقرة قد صيرت العوائد المألوفة طاعتها ضرورية واجبة كما تقدم في غير موضع فتكثر بذلك العوائق لصاحب الدولة المستجدة ويكثر من هم أتباعه وأهل شوكته وإن كان الأقربون من بطانته على بصيرة في طاعته وموازرتة إلا أن الآخرين أكثر وقد داخلهم الفشل بتلك العقائد في التسليم للدولة المستقرة فيحصل بعض الفتور منهم ولا يكاد صاحب الدولة المستجدة يقاوم صاحب الدولة المستقرة فيرجع إلى الصبر والمطالبة حتى يتضح هرم الدولة المستقرة فتضمحل عقائد التسليم لها من قومه وتنبعث منهم الهمم لصدق المطالبة معه فيقع الظفر والاستيلاء وأيضا فالدولة المستقرة كثيرة الرزق بما استحكم لهم من الملك وتوسع من النعيم والذات واختصوا به دون غيرهم من أموال الجباية فيكثر عندهم ارتباط الخيول واستجادة الأسلحة وتعظم فيهم الأبهة الملكية ويفيض العطاء بينهم من ملوكهم إختيارا واضطارا فيرهبون بذلك كله عدوهم وأهل الدولة المستجدة بمعزل عن ذلك لما هم فيه من البداوة وأحوال الفقر والخصاصة فيسبق إلى قلوبهم أوهام الرعب بما يلغهم من أحوال الدولة المستقرة ويحرمون عن قتالهم من أجل ذلك فيصير أمرهم إلى المطالبة حتى تأخذ المستقرة مأخذها من الهرم ويستحكم الخلل فيها في العصبية والجباية فينتهز حينئذ صاحب الدولة المستجدة فرصته في الاستيلاء عليها بعد حين منذ المطالبة سنة الله في عباده وأيضا فأهل الدولة المستجدة كلهم مباينون للدولة المستقرة بأنسابهم وعوائدهم وفي سائر مناحيهم ثم هم مفارقون لهم ومنابدون بما وقع من هذه المطالبة وبطمعهم في الاستيلاء عليه فتتمكن المباعدة بين أهل الدولتين سرا وجها ولا يصل إلى أهل الدولة المستجدة خبر عن أهل الدولة المستقرة يصيبون منه غرة (٢) باطنا وظاهرا لا تقطاع المداخلة

(١) قوله ويزنون في نسخة ويرفون من الرفو بالراء والفاء اهـ (٢) قوله غرة بكسر الغين أى غفلة اهـ

بين الدولتين فيقيمون على المطالبة وهم في إحجام وينكفون عن المناجزة حتى يأذن الله بزوال الدولة المستقرة وفناء عمرها ووفور الخلل في جميع جهاتها واتضح لأهل الدولة المستجدة مع الأيام ما كان يخفى منهم من هزمها وتلاشيها وقد عظمت قوتهم بما اقتطعوه من أعمالها ونقصوه من أطرافها فتنبعث همهم يد أو واحدة للمناجزة ويذهب ما كان بث في عزائمهم من التوهات وتنتهي المطالبة إلى حدها ويقع الاستيلاء آخر بالمعاجلة واعتبر ذلك في دولة بني العباس حين ظهورها حين قام الشيعة بخراسان بعد انعقاد الدعوة واجتماعهم على المطالبة عشرين أو يزيدو حينئذ تم لهم الظفر واستولوا على الدولة الأموية وكذا العلوية بطبرستان عند ظهور دعوتهم في الديلم كيف كانت مطاولتهم حتى استولوا على تلك الناحية ثم لما انقضى أمر العلوية وسما الديلم إلى ملك فارس والعراقيين فمكثوا سنين كثيرة يطاولون حتى اقتطعوا أصهبان ثم استولوا على الخليفة ببغداد وكذا العبيديون أقام داعيتهم بالمغرب أبو عبد الله الشيعي يدعى كتامة من قبائل البربر عشرين ويزيد تطاول بني الأغلب بأفريقية حتى ظفر بهم واستولوا على المغرب كله وسموا إلى ملك مصر فمكثوا ثلاثين سنة أو نحوها في طلبها يجزون إليها العساكر والأساطيل في كل وقت وعجىء المدد لمداغتهم برا وبحرا من بغداد والشام وملوكوا الاسكندرية والقيوم والصعيد وتخطت دعوتهم من هنالك إلى الحجاز وأقيمت بالحرمين ثم نازل قائدهم جوهر الكاتب بعساكره مدينة مصر واستولى عليها واقتلع دولة بني طنج من أصولها واختطف القاهرة فجاء الخليفة بعد المعز لدين الله ففرها لستين سنة أو نحوها منذ استيلائهم على الاسكندرية وكذا السلجوقية ملوك الترك لما استولوا على بني سامان وأجازوا من وراء النهر مكثوا نحو من ثلاثين سنة يطاولون بني سبكتكين بخراسان حتى استولوا على دولته ثم زحفوا إلى بغداد فاستولوا عليها وعلى الخليفة بها بعد أيام من الدهر وكذا التتر من بعدهم خرجوا من المفازة أعوام سبعة عشر وستائة فلم يتم لهم الاستيلاء الا بعد أربعين سنة وكذا أهل المغرب خرج به المرابطون من ثلثون على ملوكهم مغراوة فطاولوهم سنين ثم استولوا عليه ثم خرج الموحدون بدعوتهم على ثلثون فمكثوا نحو من ثلاثين سنة يحاربونهم حتى استولوا على كرسيمهم بمراكش وكذا بنو مرين من زناتة خرجوا على الموحدين فمكثوا يطاولونهم نحو من ثلاثين سنة واستولوا على فاس واقتطعوها وأعمالها من ملكهم ثم أقاموا في محاربتهم ثلاثين أخرى حتى استولوا على كرسيمهم بمراكش حسبما نذكر ذلك كله في تواريخ هذه الدول فهكذا حال الدول المستجدة مع المستقرة في المطالبة والمطاوله سنة الله في عبادته ولن تجد لسنة الله تبديلا ولا يعارض ذلك بما وقع في الفتوحات الاسلامية وكيف كان استيلائهم على فارس والروم لثلاث أو أربع من وفاة النبي صلى الله عليه وسلم واعلم أن ذلك إنما كان معجزة من معجزات نبينا صلى الله عليه وسلم سرها استماتة المسلمين في جهاد عدوهم استبعادا بالايمان وما أوقع الله في قلوب عدوهم من الرعب والتخاذل فكان ذلك كله خارقا للعادة المقررة في مطاوله الدول المستجدة للمستقرة وإذا كان ذلك خارقا فهو من معجزات نبينا صلوات الله المتعارف ظهورها في الملة الاسلامية والمعجزات لا يقاس عليها الأمور



العادية ولا يعترض بها والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

### ٥١ ﴿ فصل في وفور العمران آخر الدولة وما يقع فيها من كثرة الموتان والمجاعات ﴾

( اعلم ) أنه قد تقرر لك فيما سلف أن الدولة في أول أمرها لا بد لها من الرفق في ملكتها والاعتدال في إنالتها أما من الدين إن كانت الدعوة دينية أو من المكارمة والمحاسنة التي تقتضيها البداوة الطبيعية للدول وإذا كانت الملكة رقيقة محسنة انبسطت آمال الرعايا وانتشطوا للعمران وأسبابه فتوفروا ويكثر التناسل وإذا كان ذلك كله بالتدريج فأنما يظهر أثره بعد جيل أو جيلين في الأقل وفي انقضاء الجيلين تشرف الدولة على نهاية عمرها الطبيعي فيكون حينئذ العمران في غابة الوفور والنماء ولا تقولن إنه قد مر لك أن أواخر الدولة يكون فيها الاجحاف بالرعايا وسوء الملكة فذلك صحيح ولا يعارض ما قلناه لأن الاجحاف وإن حدث حينئذ وقلت الجبايات فأنما يظهر أثره في تناقص العمران بعد حين من أجل التدرج في الأمور الطبيعية أن المجاعات والموتان تكثر عند ذلك في أواخر الدول والسبب فيه أما المجاعات فلقبض الناس أيديهم عن الفلاح في الأثر كثير بسبب ما يقع في آخر الدولة من العدوان في الأموال والجبايات أو الفتن الواقعة في انتقاص الرعايا وكثرة الحوارج لهرم الدولة فيقل احتكاك الزرع غالباً وليس صلاح الزرع وثمرته بمستمر الوجود ولا على وتيرة واحدة فطبيعة العالم في كثرة الأمطار وقلتها مختلفة والمطر يقوى ويضعف ويقل ويكثر والزرع والثمار والضرع على نسبه الآن الناس واثقون في أقواتهم بالاحتكار فاذا فقد الاحتكار عظم توقع الناس للمجاعات فعلاً الزرع وعجز عنه أولو الخصاصة فهلكوا وكان بعض السنوات والاحتكار مفقود فشمّل الناس الجوع وأما كثرة الموتان فلها أسباب من كثرة المجاعات كما ذكرناه أو كثرة الفتن لاختلال الدولة فيكثر الهرج والقتل أو وقوع الوباء وسببه في الغالب فساد الهواء بكثرة العمران لكثرة ما يخالطه من العفن والرطوبات الفاسدة وإذا فسد الهواء وهو غذاء الروح الحيواني وما لا يسه دائماً فيسرى الفساد إلى مزاجه فان كان الفساد قويا وقع المرض في الرئة وهذه هي الطواعين وأمرها خصوصاً بالرئة وإن كان الفساد دون القوى والكثير فيكثر العفن ويتضاعف فتكثر الحميات في الأمزجة وتمرض الأبدان وتهلك وسبب كثرة العفن والرطوبات الفاسدة في هذا كله كثرة العمران ووفوره آخر الدولة لما كان في أوائلها من حسن الملكة ورققها وقلة المعرم وهو ظاهر ولهذا تبين في موضعه من الحكمة أن تخلل الخلاء والقفر بين العمران ضروري ليكون تموج الهواء يذهب بما يحصل في الهواء من الفساد والعفن بمخالطة الحيوانات ويأتي بالهواء الصحيح ولهذا يضافان الموتان يكون في المدن الموفورة العمران أكثر من غيرها بكثير كمصر بالشرق وفاس بالمغرب والله يقدر ما يشاء

### ٥٢ ﴿ فصل في أن العمران البشري لا بد له من سياسة ينتظم بها أمره ﴾

اعلم أنه قد تقدم لنا في غير موضع أن الاجتماع للبشر ضروري وهو معنى العمران الذي نتكلم

فيه وأنه لا بد لهم في الاجتماع من وازع حاكم يرجعون اليه وحكمه فيهم تارة يكون مستند إلى شرع منزل من عند الله يوجب انقيادهم اليه إيمانهم بالشواب والعقاب عليه الذي جاء به مبلغه وتارة إلى سياسة عقلية يوجب انقيادهم اليها ما يتوقعونه من ثواب ذلك الحاكم بعدم معرفته بمصالحهم فلا أولى يحصل نفعها في الدنيا والآخرة لعلم الشارع بالمصالح في العاقبة ولمراته نجاة العباد في الآخرة والثانية إنما يحصل نفعها في الدنيا فقط وما تسمعه من السياسة المدنية فليس من هذا الباب وإنما معناه عند الحكماء ما يجب أن يكون عليه كل واحد من أهل ذلك المجتمع في نفسه وخلقه حتى يستغنوا عن الحكم رأساً ويسمون المجتمع الذي يحصل فيه ما يسمى من ذلك بالمدنية الفاصلة والقوانين المراقبة في ذلك بالسياسة المدنية وليس مرادهم السياسة التي يحمل عليها أهل الاجتماع بالمصالح العامة فإن هذه غير تلك وهذه المدنية الفاصلة عند نادرة أو بعيدة الوقوع وإنما يتكلمون عليها على جهة الفرض والتقدير ثم إن السياسة العقلية التي قدمناها تكون على وجهين \* أحدهما يراعى فيها المصالح على العموم ومصالح السلطان في استقامة ملكه على الخصوص وهذه كانت سياسة الفرس وهي على جهة الحكمة وقد أغنانا الله تعالى عنها في الملة ولعهد الخلافة لأن الأحكام الشرعية مغنية عنها في المصالح العامة والخاصة والآفات وأحكام الملك مندرجة فيها \* الوجه الثاني أن يراعى فيها مصلحة السلطان وكيف يستقيم له الملك مع القهر والاستطالة وتكون المصالح العامة في هذه تبعاً وهذه السياسة التي يحمل عليها أهل الاجتماع التي لسائر الملوك في العالم من مسلم وكافر الآن ملوك المسلمين يجرون منها على ما تقتضيه الشريعة الإسلامية بحسب جهدهم فقوانينها إذا جمعت من أحكام شرعية وآداب خلقية وقوانين في الاجتماع طبيعية وأشياء من مراعاة الشوكه والعصبية ضرورية والاقتداء فيها بالشرع أو لا ثم الحكماء في آدابهم والملوك في سيرهم ومن أحسن ما كتب في ذلك وأودع كتاب طاهر بن الحسين لابنه عبد الله ابن طاهر لما ولاه المأمون الرقة ومصر وما بينهما فكتب إليه أبوه طاهر كتابه المشهور عهد إليه فيه وصاه بجميع ما يحتاج إليه في دولته وسلطانه من الآداب الدينية والخلقية والسياسة الشرعية والملوكية وحثه على مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم بما لا يستغنى عنه ملك ولا سوقة \* ونص الكتاب (بسم الله الرحمن الرحيم) أما بعد فعليك بتقوى الله وحده لا شريك له وخشيته ومراقبته عز وجل ومزايله سخطه واحفظ رعيته في الليل والنهار والزم ما ألبسك الله من العافية بالله كرمعادهك وما أنت صائر إليه وموقوف عليه ومسئول عنه والعمل في ذلك كله بما يعصمك الله عز وجل وينجيك يوم القيامة من عقابه وأليم عذابه فإن الله سبحانه قد أحسن إليك وأوجب الرأفة عليك بمن استرعاك أمرهم من عباده وأزملك العدل فيهم والقيام بحقه وحدوده عليهم والذب عنهم والدفع عن حريمهم ومنصبهم والحقن لدمائهم والأمن لسرهم وإدخال الراحة عليهم ومؤاخذك بما فرض عليك وموافقك عليه وسائك عنه ومثيبك عليه بما قدمت وأخرت ففرغ لذلك فهمك وعقلك وبصرك ولا يشغلك عنه شاغل وأنهرأس أمرك وملاك شأنك وأول ما يوفقك الله عليه وليكن أول ما تنزله نفسك وتنسب إليه فعملك المواظبة على ما فرض الله عز وجل عليك

من الصلوات الخمس والجماعة عليها بالناس قلبك وتوابعها على سننها من إسباغ الوضوء لها وافتتاح ذكر الله عز وجل فيها ورتل في قراءتك وتمكن في ركوعاتك وسجودك وتشهدك ولتصرف في رأيك ونيك واحضض عليه جماعة ممن معك وتحت يدك وادأب عليها فامها كما قل الله عز وجل تنهى عن الفحشاء والمنكر ثم أتبع ذلك بالأخذ بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم والمثابرة على خلائقه واقتفاء أثر السلف الصالح من بعده وإذا ورد عليك أمر فاستعن عليه باستخارة الله عز وجل وتقواه وبلزوم ما أنزل الله عز وجل في كتابه من أمره ونهيه وحلاله وحرامه واثبات ما جاءت به الآثار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قم فيه بالحق لله عز وجل ولا تملن عن العدل فيما أحبت أو كرهت لقريب من الناس أو لبعيد وآثر الفقه وأهله والدين وحملته وكتاب الله عز وجل والعاملين به فإن أفضل ما يزين به المرء التفقه في الدين والطلب له والحث عليه والعرفه بما يتقرب به إلى الله عز وجل فانه الدليل على الخير كله والقائد إليه والآمر به والناهي عن المعاصي والموبقات كلها ومع توفيق الله عز وجل يزداد المرء معرفة وإجلاله ودركا للدرجات العلى في المعاد مع ما في ظهوره للناس من التوقير لا مترك والهيبة لسلطانك والآنسة بك والثقة بعدك وعليك بالاقتصاد في الأمور كلها فليس شيء أبين نفعاً ولا أخص أمناً ولا أجمع فضلاً منه والقصد داعية إلى الرشد والرشد دليل على التوفيق والتوفيق قائد إلى السعادة وقوام الدين والسنن الهادية بالاقتصاد وكذا في دنياك كلها ولا تقصر في طلب الآخرة والآجر والأعمال الصالحة والسنن المعروفة ومعالم الرشد والاعانة والاستكثار من البر والسعي له إذا كان يطلب به وجه الله تعالى ومرضاه ومراقبة أولياء الله في دار كرامته أما تعلم أن القصد في شأن الدنيا يورث العز ويحص من الذنوب وأنت لن تحوط نفسك من قاتل ولا تنصلح أمورك بأفضل منه فأنه واحتد به تتم أمورك وترد مقدرتك ويصلح عامتك وخاصتك وأحسن ظنك بالله عز وجل تستقم لك رعيتك والتمس الوسيلة إليه في الأمور كلها تستدم به النعمة عليك ولا تتهم أحد من الناس فيما توليه من عملك قبل أن تكشف أمره فإن إيقاع التهم بالبراء والظنون السيئة بهم آثم آثم فاجعل من شأنك حسن الظن بأصحابك واطرد عنك سوء الظن بهم وارفضه فيهم يعنيك ذلك على استطاعتهم ورياضتهم ولا تتخذن عدو الله الشيطان في أمرك معمدافانه إنما يكتفى بالقليل من وهنك ويدخل عليك من الغم بسوء الظن بهم ما ينقص لداذة عيشك واعلم أنك تجد بحسن الظن قوة وراحة وتكتفى به ما أحبت كفايته من أمورك وتدعوه به الناس إلى محبتك والاستقامة في الأمور كلها ولا يمنعك حسن الظن بأصحابك والرافقة برعيتك أن تستعمل المسئلة والبحث عن أمورك والمباشرة لأمور الأولياء وحيطة الرعية والنظر في حوائجهم وحمل مؤناتهم أيسر عندك مما سوي ذلك فانه أقوم للدين وأحيى للسنة وأخلص نيتك في جميع هذا وتفرد بتقويم نفسك تفرد من يعلم أنه مسؤول عما صنع ومجزى بما أحسن ومؤاخذ بما أساء فإن الله عز وجل جعل الدنيا حرزاً وعزاً ورفع من اتبعه وعزه وأسلك بمن تسوسه وترعاه نهج الدين وطريقه الأهدى وأقم حدود الله تعالى في أصحاب الجرائم على قدر منازلهم وما استحقوه ولا تعطل



ذلك ولا تهاون به ولا تؤخر عقوبة أهل العقوبة فإن في تفريطك في ذلك ما يفسد عليك حسن ظنك واعترم على أمرك في ذلك بالسنن المعروفة وجانب البدع والشبهات يسلم لك دينك وتتم لك مروءتك وإذا عاهدت عهدا فأوف به وإذا وعدت الخير فأنجزه وأقبل الحسنة وادفع بها وانمض عن عيب كل ذي عيب من رعيتك واشدد لسانك عن قول الكذب والزور وانمض أهل النميمة فإن أول فساد أمورك في عاجلها وآجلها تقريب الكذوب والجراءة على الكذب لأن الكذب رأس المآثم والزور والنميمة خاتمها لأن النميمة لا يسلم صاحبها وقائد لها لا يسلم له صاحب ولا يستقيم له أمر واجب أهل الصلاح والصدق وأعن الإشراف بالحق وأعن الضعفاء وصل الرحم وابتغ بذلك وجه الله تعالى وإعزاز أمره والتمس فيه ثوابه والدار الآخرة واجتنب سوء الأهواء والجور واصرف عنهما رأيك وأظهر براءتك من ذلك لرعيتك وأنعم بالعدل سياستهم وقم بالحق فيهم وبالمعرفة التي تنتهي بك إلى سبيل الهدى واملك نفسك عند الغضب وآثر الحلم والوقر وإياك والحدة والطيش والغرور فيما أنت بسبيله وإياك أن تقول أنا مسلم أفعل ما أشاء فإن ذلك سريع إلى نقص الرأي وقلة اليقين لله عز وجل وأخلص لله وحده النية فيه واليقين واعلم أن الملائكة لله سبحانه وتعالى يؤتية من يشاء ويترعه ممن يشاء ولن تجد تغير النعمة وحلول النعمة إلى أحد أسرع منه إلى جهلة النعمة من أصحاب السلطان والمبسوط لهم في الدولة إذا كفروا نعم الله وإحسانه واستطالوا بما أعطاهم الله عز وجل من فضله ودع عنك شر نفسك ولتكن ذخائر كنعوزك التي تدخر وتكبر البر والتقوى واستصلاح الرعية وعمارة بلادهم والتفقد لأموالهم والحفظ لدمائهم والاعانة للمهوفهم واعلم أن الأموال إذا اكتنرت وادخرت في الخزائن لا تنمو وإذا كانت في صلاح الرعية واعطاء حقوقهم وكف الأذى عنهم نمت وزكت وصلحت به العامة وترتبت به الولاية وطاب به الزمان واعتقد فيه العز والمنفعة فليكن كنز خزائنك تفريق الأموال في عمارة الإسلام وأهله ووفرمه على أولياء أمير المؤمنين قبلك حقوقهم وأوف من ذلك حصصهم وتعهدهما يصلح أمورهم ومعاشهم فانك إذا فعلت قرت النعمة لك واستوجبت المزيد من الله تعالى وكنت بذلك على جباية أموال رعيتك وخراجك أقدر وكان الجمع لما شملهم من عدلك وإحسانك أسلس لطاعتك وطب نفسا بكل ما أردت واجهد نفسك فيما حددت لك في هذا الباب وليعظم حقلك فيه وإما يتيقن من المال ما أنفق في سبيل الله وفي سبيل حقه واعرف للشاكرين حقهم وأثمهم عليه وإياك أن تنسيك الدنيا وغرورها هول الآخرة فتهاون بما يحق عليك فإن التهاون يورث التفريط والتفريط يورث البوار وليكن عملك لله عز وجل وفيه وارج الثواب فإن الله سبحانه قد أسبغ عليك فضله واعتصم بالشكر وعليه فاعتمد يزدك الله خيرا واحسانا فإن الله عز وجل يشيب بقدر شكر الشاكرين واحسان المحسنين ولا تحقرن ذنبا ولا تملأن حاسدا ولا ترحمن فاجرا ولا تصلن كفورا ولا تدهنن عدوا ولا تصدقن نماما ولا تأمنن عدوا ولا توالين فاسقا ولا تتبعن غاويا ولا تحمدن مرأيا ولا تحقرن إنسانا ولا تردن سائلا فقيرا ولا تحسنن باطلا ولا تلاحظن مضحكا ولا تخلفن وعدا ولا تنهبن نفرا

ولا تظهرن غضبا ولا تباينن رجاء ولا تمشين مرحا ولا تزكين سفيا ولا تفرطن في طلب الآخرة ولا ترفع للناس عينا ولا تغمض عن ظالم رهبة منه أو محابة ولا تطلبن ثواب الآخرة في الدنيا وأكثر مشاورة الفقهاء واستعمل نفسك بالحلم وخذ عن أهل التجارب وذوى العقل والرأى والحكمة ولا تدخلن في مشورتك أهل الرفه والبخل ولا تسمعن لهم قولا فإن ضررهم أكثر من نفعهم وليس شيء أسرع فسادا لما استقبلت فيه أمر رعيته من الشخ واعلم أنك إذا كنت حريصا كنت كثير الاخذ قليل العطية إذا كنت كذلك لم يستقم أمرك الا قليلا فإن رعيته إن ماتت تعد على محبتك بالكف عن أموالهم وترك الحور عليهم ووال من صفالك من أوليائك بالاتصال اليهم وحسن العطية لهم واجتنب الشخ واعلم أنه أول ما عصى به الانسان ربه وأن العاصي بمنزلة الحرى وهو قول الله عز وجل ومن يوق شخ نفسه فأولئك هم المفلحون فسهل طريق الجود بالحق واجعل للمسلمين كلهم في بيتك حظا ونصيبا وأيقن أن الجود أفضل أعمال العباد فأعده لنفسك خلقا وارض به عملا ومذهبا وتفقد الجند في دواوينهم ومكاتيبهم وأدر عليهم أرزاقهم ووسع عليهم في معاشهم يذهب الله عز وجل بذلك فاقتهم فيقوى لك أمرهم وتزيد قلوبهم في طاعتك وأمرك خلوصا وانشراحا وحسب ذى السلطان من السعادة أن يكون على جنده ورعيته رحمة في عدله وعطيته وانصافه وعنايته وشقيقته وبره وتوسعته فذلل مكروه أحد البابين باستشعار فضل الباب الآخر ولزوم العمل به تلق إن شاء الله تعالى به نجاحا وصلاحا وفلاحا واعلم أن القضاء من الله تعالى بالمكان الذى ليس له به شيء من الأمور لانه ميزان الله الذى يعدل عليه أحوال الناس في الأرض وباقامة العدل في القضاء والعمل تصلح أحوال الرعية وتأمين السبل وينتصف المظلوم وتأخذ الناس حقوقهم وتحسن المعيشة ويؤدى حق الطاعة ويررق من الله العافية والسلامة ويقم الدين ويجرى السنن والشرائع في مجاريها واشتد في أمر الله عز وجل وتورع عن النطق وامض لاقامة الحدود وأقلل العجلة وأبعد عن الضجر والقلق واقنع بالقسم وانتفع بتجربتك وانتبه في صحتك واسدد في منطقك وأنصف الخصم وقف عند الشبهة وأبلغ في الحجة ولا يأخذك في أحد من رعيته محابة ولا محاملة ولا لومة لائم وثبت وتأان وراقب وانظر وتفكر وتدبر واعتبر وتواضع لربك وارفق بجميع الرعية وسلط الحق على نفسك ولا تسرعن إلى سفك الدماء فإن الدماء من الله عز وجل بمكان عظيم إنها كلها بغير حقها وانظر هذا الخراج الذى استقامت عليه الرعية وجعله الله للاسلام عز اورفعته ولائهله توسعة ومنعة ولعدوه كبتا وغيظا ولأهل الكفر من معاديبهم ذلا وصغارا فوزعه بين أصحابه بالحق والعدل والتسوية والعموم ولا تدفعن شيئا منه عن شريف لشرفه ولا عن غنى لغناه ولا عن كاتب لك ولا لآدم من خاصتك ولا حاشيتك ولا تأخذن منه فوق الاحتمال له ولا تكلف أمرافيه شططا واحمل الناس كلهم على مر الحق فإن ذلك أجمع لألفتهم والزم ارضاء العامة واعلم أنك جعلت بولايتك خازنا وحافظا ورعايا وإنما سمى أهل عملك رعيته لأنك راعيهم وقيمهم فخدمهم ما أعطوك من عفوم ونفذه في قوام أمرهم وصلاحتهم وتقديم أودهم واستعمل عليهم أولى الرأى والتدبير والتجربة والخبرة بالعلم والعدل بالسياسة والعفاف ووسع عليهم في الرزق فإن ذلك من الحقوق اللازمة لك فيما تفقدت وأسند اليك

فلا يشغلك عنه شاغل ولا يصرفك عنه صارف فانك متى آثرته وقتت فيه بالواجب استدعيت به زيادة النعمة من ربك وحسن الأحدث في عملك واستجرت به المحبة من رعيتك وأعنت على الصلاح فدرت الخيرات بيلدك وفشت العارة بناحيك وظهر الخصب في كورك وكثر خراجك وتوفرت أموالك وقويت بذلك على ارتباط جندك وارضاء العامة بافاضة العطاء فيهم من نفسك وكنت محمود السياسة مرضى العدل في ذلك عند عدوك وكنت في أمورك كلها اذ اعدل وقوة وعدة فتنافس فيها ولا تقدم عليها شيئا تحمد عاقبة أمرك إن شاء الله تعالى واجعل في كل كورة من عملك أمينا يخبرك خبر عمالك ويكتب إليك بسيرهم وأعمالهم حتى كأنك مع كل عامل في عمله معاين لا موره كلها وإذا أردت أن تأمرهم بأمر فانظر في عواقب ما أردت من ذلك فان رأيت السلامة فيه والعافية وجوت فيه حسن الدفاع والصنع فأمنه وإلا فتوقف عنه وراجع أهل البصر والعلم به ثم خذ فيه عدته فانه ربما نظر الرجل في أمره وقد أتاه على ما يهوى فأغواه ذلك وأعجبه فان لم ينظر في عواقبه أهلكه ونقض عليه أمره فاستعمل الحزم في كل ما أردت وباشره بعدعون الله عز وجل بالقوة وأكثر من استخارة ربك في جميع أمورك وافرغ من عمل يومك ولا تؤخره وأكثر مباشرته بنفسك فان لغد أمور أو حوادث تلبيك عن عمل يومك الذي أخرت واعلم أن اليوم إذا مضى ذهب بما فيه فاذا أخرت عمله اجتمع عليك عمل يومين فيشغلك ذلك حتى ترضى منه وإذا مضيت لكل يوم عمله أرحت بدنك ونفسك وجمعت أمر سلطانك وانظر أحرار الناس وذوى الفضل منهم ممن يلو ت صفاء طويتهم وشهدت مودتهم لك ومظاهرتهم بالنصح والمحافظة على أمرك فاستخلصهم وأحسن اليهم وتعاهد أهل البيوتات ممن قد دخلت عليهم الحاجة واحتمل مؤنتهم وأصلح حالهم حتى لا يجدوا الخلتهم منافرا وأفرد نفسك بالنظر في أمور الفقراء والمساكين ومن لا يقدر على رفع مظلمته إليك والمحتقر الذي لا علم له بطلب حقه فسل عنه أخفى مسئلة وكل بأمثاله أهل الصلاح في رعيتك وممرهم برفع حوائجهم وخلالهم لتنظر فيما يصلح الله به أمرهم وتعاهد ذوى البأساء ويتاماهم وأراملهم واجعل لهم أرزاقا من بيت المال اقتداء بأمر المؤمنين أعزه الله تعالى في العطف عليهم والصلة لهم ليصلح الله بذلك عيشهم ويرزقك به بركة وزيادة وأجر للأمراء من بيت المال وقدم حملة القرآن منهم والحافظين لأكثره في الجرائد على غيرهم وانصب لمرضى المسلمين دورا تأويهم وقواما يرفقون بهم وأطباء يعالجون أسقامهم وأسعفهم بشهواتهم ما لم يؤد ذلك إلى سرف في بيت المال واعلم أن الناس إذا أعطوا حقوقهم وفضل أمانتهم لم تبرهم ورماتهم المتصفح لأموال الناس لكثرة ما يرده عليه ويشغل ذكره وفكره منها ما يناله به مؤنة ومشقة وليس من يرغب في العدل ويعرف محاسن أموره في العاجل وفضل ثواب الآجل كالذي يستقرى ما يقر به إلى الله تعالى ويلتمس رحمته وأكثر الاذن للناس عليك وأرهم وجهك وسكن حراسك واخفض لهم جناحك واظهر لهم بشرتك ولن لهم في المسئلة والنطق واعطف عليهم بجهودك وفضلك وإذا أعطيت فاعط بسباحة وطيب نفس والتماس الصنيعة والاجر من غير تكدير ولا امتنان فان العطية على ذلك تجارة مربحة إن شاء الله تعالى واعتبر بما تري من أمور الدنيا ومن مضى من قبلك



من أهل السلطان والرياسة في القرون الحالية والائمه البائدة ثم اعتصم في أحوالك كلها بالله سبحانه وتعالى والوقوف عند محبته والعمل بشريعته وسنته وبإقامة دينه وكتابه واجتنب ما فارق ذلك وخالفه ودعا إلى سخط الله عز وجل واعرف ما تجمع عمالك من الأموال وما ينفقون منها ولا تجمع حراما ولا تنفق اسرافا أو أكثر مجالسة العلماء ومشاورتهم ومخالطتهم وليكن هوذا اتباع السنن وإقامتها وإيثار مكارم الأخلاق ومقاتلتها وليكن أكرم دخلائك وخاصتك عليك من إزار أي عيال لم تمنعه هيبتك من إنهاء ذلك إليك في ستر وإعلامك بما فيه من النقص فان أولئك أنصح أوليائك ومظاهريك لك وانظر عمالك الذين بحضرتك وكتابك فوقت لكل رجل منهم في كل يوم وقتا يدخل فيه بكتبه ومؤامراته وما عنده من حوائج عمالك وأمور الدولة ورعيته ثم فرغ لما يورد عليك من ذلك سمعك وبصرك وفهمك وعقلك وكرر النظر فيه والتدبير له فما كان موافقا للحق والحزم فامضه واستخر الله عز وجل فيه وما كان مخالفا لذلك فاصرفه إلى المسئلة عنه والتثبت ولا تمن على رعيته ولا غيرهم بمعروف تؤتيه إليهم ولا تقبل من أحد إلا الوفاء والاستقامة والعون في أمور المساهين ولا تضعن المعروف إلا على ذلك وتفهم كتابي إليك وأمعن النظر فيه والعمل به واستعن بالله على جميع أمورك واستخره فان الله عز وجل مع الصالح وأهله وليكن أعظم سيرتك وأفضل رغبتك ما كان لله عز وجل رضا ولدينه نظاما ولأهله عزا وتمكينا وللملة والذمة عدلا وصلاحا وأنا أسأل الله عز وجل أن يحسن عونك وتوفيقك ورشدك وكلاءتك والسلام \* وحدث الأخباريون أن هذا الكتاب لما ظهر وشاع أمره أعجب به الناس واتصل بالمأمون فلما قريء عليه قل ما بقي أبو الطيب يعني طاهرا شيئا من أمور الدنيا والدين والتدبير والرأي والسياسة وصلاح الملك والرعية وحفظ السلطان وطاعة الخلفاء وتقويم الخلافة الا وقد أحكمه وأوصى به ثم أمر المأمون فكتب به إلى جميع العمال في النواحي ليقتدوا به ويعملوا بما فيه هذا أحسن ما وقفت عليه في هذه السياسة والله أعلم

### ٥٣ \* فصل في أمر الفاطمي وما يذهب اليه الناس في شأنه وكشف الغطاء عن ذلك \*

(اعلم) أن المشهور بين الكافة من أهل الاسلام على ممر الأعصار أنه لا بد في آخر الزمان من ظهور رجل من أهل البيت يؤيد الدين ويظهر العدل ويتبعه المسمون ويستولون على الممالك الاسلامية ويسمى بالمهدي ويكون خروج الدجال وما بعده من أشراط الساعة الثابتة في الصحيح على أثره وان عيسى ينزل من بعده فيقتل الدجال أو ينزل معه فيساعده على قتله ويأتي بالمهدي في صلاته ويحتجون في الباب بأحاديث خرجها الأئمة وتكلم فيها المنكرون لذلك وربما عارضوها ببعض الأخبار وللمتصوفة المتأخرين في أمر هذا الفاطمي طريقة أخرى ونوع من الاستدلال وربما يعتمدون في ذلك على الكشف الذي هو أصل طرائقهم \* ونحن الآن نذكر هنا الأحاديث الواردة في هذا الشأن ومال المنكرين فيها من المطاعن ومالهم في انكارهم من المستند ثم تتبعه بذكر كلام المتصوفة ورأيهم

ليتين لك الصحيح من ذلك ان شاء الله تعالى فنقول ان جماعة من الأئمة خرجوا أحاديث المهدي منهم الترمذي وأبوداود البزار وابن ماجه والحاكم والطبراني وأبو يعلى الموصلي وأسندوها إلى جماعة من الصحابة مثل علي وابن عباس وابن عمر وطلحة وابن مسعود وأبي هريرة وأنس وأبي سعيد الخدري وأم حبيبة وأم سلمة وثوبان وقرّة بن اياس وعلى الهلالى وعبدالله بن الحرث بن جزء بأسانيد ربما يعرض لها المنكرون كأن ذكره إلا أن المعروف عند أهل الحديث أن الجرح مقدم على التعديل فإذا وجدنا طعنا في بعض رجال الأسانيد بغفلة أو بسوء حفظ أو ضعف أو سوء رأى تطرق ذلك إلى صحة الحديث وأوهن منها ولا نقول مثل ذلك ربما تطرق إلى رجال الصحيح فان الاجماع قد اتصل في الامة على تلقيها بالقبول والعمل بما فيها وفي الاجماع أعظم حماية وأحسن دفع وليس غير الصحيحين بمثابة في ذلك فقد نجد مجالا للكلام في أسانيدهما ما نقل عن أئمة الحديث في ذلك \* ولقد توغل أبو بكر بن أبي خيثمة على ما نقل السهيلي عنه في جمعه للأحاديث الواردة في المهدي فقال ومن أغربها اسنادا ما ذكره أبو بكر الاسكاف في فوائد الاخبار مسندا إلى مالك بن أنس عن محمد بن المنكدر عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من كذب بالمهدي فقد كفر ومن كذب بالرجال فقد كفر وقل في طلوع الشمس من مغربها مثل ذلك فيما أحسب وحسبك هذا غلو والله أعلم بصحة طريقه إلى مالك بن أنس على ان أبا بكر الاسكاف عندهم متهم وضاع \* وأما الترمذي فخرج هو وأبوداود بسنديهما إلى ابن عباس من طريق عاصم بن أبي النجود أحد القراء السبعة إلى زر بن حبيش عن عبدالله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم لو لم يبق من الدنيا الا يوم لطول الله ذلك اليوم حتى يبعث الله فيه رجلا مني أو من أهل بيتي يواطىء اسمه اسمي واسم أبيه اسم أبي هذا لفظ أبي داود وسكت عليه وقال في رسالته المشهورة ان ما سكت عليه في كتابه فهو صالح ولفظ الترمذي لا تذهب الدنيا حتى يملك العرب رجل من أهل بيتي يواطىء اسمه اسمي وفي لفظ آخر حتى يلي رجل من أهل بيتي وكلاهما حديث حسن صحيح ورواه أيضا من طريق موقوف على أبي هريرة وقال الحاكم رواه الثوري وشعبة وزائدة وغيرهم من أئمة المسلمين عن عاصم قال وطرق عاصم عن زر عن عبدالله كلها صحيحة على ما أصلته من الاحتجاج باخبار عاصم ادهو امام من أئمة المسلمين انتهى إلا أن عاصم قال فيه أحمد بن حنبل كان رجلا صالحا قارئا للقرآن خيرا ثقة والأعمش أحفظ منه وكان شعبة يختار الأعمش عليه في تثبيت الحديث وقال العجلي كان يختلف عليه في زروا بن وائل يشير بذلك إلى ضعف روايته عنهما وقال محمد بن سعد كان ثقة إلا أنه كثير الخطأ في حديثه وقال يعقوب بن سفيان في حديثه اضطراب وقال عبد الرحمن بن أبي حاتم قلت لأبي ان أبا زرعة يقول عاصم ثقة فقال ليس محله هذا وقد تكلم فيه ابن علية فقال كل من اسمه عاصم سبيء الحفظ وقال أبو حاتم محله عندي محل الصدق صالح الحديث ولم يكن بذلك الحافظ واختلف فيه قول النسائي وقال ابن خراش في حديثه نكرة وقال أبو جعفر العجلي لم يكن فيه الا سوء الحفظ وقال الدارقطني في حفظه شئء وقال يحيى القطان ما وجدت رجلا اسمه عاصم

الاوجدته ردىء الحفظ وقال أيضا سمعت شعبة يقول حدثنا عاصم بن أبي النجود وفي الناس ما فيها  
 وقال الذهبي ثبت في القراءة وهو في الحديث دون الثبت صدوق فهم وهو حسن الحديث وان احتج  
 أحد بان الشيخين أخرجهما فنقول أخرجهما مقرونا بغيره لأصلا والله أعلم \* وخرج أبو داود في الباب  
 عن علي رضي الله عنه من رواية قطن بن خليفة عن القاسم بن أبي مرة عن أبي الطفيل عن علي عن النبي  
 صلى الله عليه وسلم قال لو لم يبق من الدهر إلا يوم أبعث الله رجلا من أهل بيتي يملؤها عدلا كما ملئت  
 جورا وقطن بن خليفة وإن وثقه أحمد ويحيى بن القطان وابن معين والنسائي وغيرهم إلا أن العجلي  
 قال حسن الحديث وفيه تشيع قليل وقال ابن معين مرة ثقة شيعي وقال أحمد بن عبد الله بن يونس  
 كنا نخر على قطن وهو مطروح لا نكتب عنه وقال مرة كنت أمر به وأدعته مثل الكلب وقال الدارقطني  
 لا يحتج به وقال أبو بكر بن عياش ما تركت الرواية عنه إلا لسوء مذهبه وقال الجرجاني زائع غير ثقة  
 انتهى وخرج أبو داود أيضا بسنده إلى علي رضي الله عنه عن مروان بن المغيرة عن عمر بن أبي قيس عن  
 شعيب بن أبي خالد عن أبي إسحاق النسي قال قال علي ونظر ابنه الحسن أن ابني هذا سيد كما سماه رسول الله  
 صلى الله عليه وسلم سيخرج من صلبه رجل يسمى باسم نبيكم يشبهه في الخلق ولا يشبهه في الخلق بعلاء  
 الأرض عدلا وقال هرون حدثنا عمر بن أبي قيس عن مطرف بن طريف عن أبي الحسن عن هلال بن  
 عمر سمعت عليا يقول قال النبي صلى الله عليه وسلم يخرج رجل من وراء النهر يقال له الحرث على مقدمته رجل  
 يقال له منصور يوطئ أو تمكن لآل محمد كما كنت قریش لرسول الله صلى الله عليه وسلم وجب على كل  
 مؤمن نصره أو قال اجابته سكت أبو داود وعليه السلام وقال في موضع آخر في هرون هو من ولد الشيعة  
 وقال السلمي فيه نظر وقال أبو داود في عمر بن أبي قيس لا بأس به في حديثه خطأ وقال الذهبي صدوق  
 له أو هام وأما أبو إسحاق الشيعي وإن خرج عنه في الصحيحين فقد ثبت أنه اختلط آخر عمره وروايته  
 عن علي منقطعة وكذلك رواية أبي داود عن هرون بن المغيرة \* وأما السند الثاني فأبو الحسن فيه  
 وهلال بن عمر مجهولان ولم يعرف أبو الحسن إلا من رواية مطرف بن طريف عنه انتهى وخرج  
 أبو داود أيضا عن أم سلمة وكذا ابن ماجه والحاكم في المستدرک من طريق علي بن نفيذ عن سعيد بن  
 المسيب عن أم سلمة قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول المهدي من ولد فاطمة ولفظ الحاكم  
 سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر المهدي فقال نعم هو حق وهو من بني فاطمة ولم يتكلم عليه  
 بتصحيح ولا غيره وقد ضعفه أبو جعفر العقيلي وقال لا يتابع علي بن نفيذ عليه ولا يعرف إلا به وخرج  
 أبو داود أيضا عن أم سلمة من رواية صالح أبي الخليل عن صاحب له عن أم سلمة قال يكون اختلاف  
 عند موت خليفة فيخرج رجل من أهل المدينة هاربا إلى مكة فيأتيه ناس من أهل مكة فيخرجونه  
 وهو كاره فيأيعونه بين الركن والمقام فيبعث إليه بعث من الشام فيخسف بهم بالبداء بين مكة والمدينة  
 فإذا رأى الناس ذلك أتاه أبدال أهل الشام وعصائب أهل العراق فيأيعونه ثم ينشأ رجل من قریش  
 أخواله كلب فيبعث اليهم بعثا فيظهرون عليهم وذلك بعث كلب والحية لمن لم يشهد غنيمة كلب فيقسم



المال ويعمل في الناس بسنة نبهم صلى الله عليه وسلم ويلقى الاسلام بجرانه على الأرض فلبث سبع سنين وقال بعضهم تسع سنين ثم رواه أبو داود من رواية أبي الخليل عن عبد الله بن الحرث عن أم سلمة فتيين بذلك المبهمة في الاسناد الأول وورجاله رجال الصحيحين لا مطعن فيهم ولا مغمز وقد يقال أنه من رواية قتادة عن أبي الخليل وقاتدة مدلس وقد عنعنه والمدلس لا يقبل من حديثه إلا ما صرح فيه بالسماع مع أن الحديث ليس فيه تصريح بذكر المهدي نعم ذكره أبو داود في أبيه وخرج أبو داود أيضا وتابعه الحاكم عن أبي سعيد الخدري من طريق عمران القطان عن قتادة عن أبي بصرة عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم المهدي مني أجلى الجبهة أفنى الأنف يملأ الأرض قسطا وعدلا كما ملئت ظلما وجورا يملك سبع سنين هذا لفظ أبي داود وسكت عليه ولفظ الحاكم المهدي من أهل البيت أشم الأنف أفنى أجلى يملأ الأرض قسطا وعدلا كما ملئت جورا وظلما يعيش هكذا وبسط يساره وأصبعين من يمينه السبابة والابهام وعقد ثلاثة قال الحاكم هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه وعمران القطان مختلف في الاحتجاج به إنما أخرج له البخاري استشهادا لأصلا وكان يحيى القطان لا يحدث عنه وقال يحيى بن معين ليس بالقوي وقل مرة ليس بشيء وقال أحمد بن حنبل أرجو أن يكون صالح الحديث وقال يزيد بن زريع كان حروريا وكان يري السيف على أهل القبلة وقال النسائي ضعيف وقال أبو عبيد الآجري سألت أبا داود عنه فقال من أصحاب الحسن وما سمعت الاخير او سمعته مرة أخرى ذكره فقال ضعيف أفنى في أيام إبراهيم بن عبد الله بن حسن بفتوى شديدة فيها سفك الدماء وخرج الترمذي وابن ماجه والحاكم عن أبي سعيد الخدري من طريق زيد العمي عن أبي الصديق الناجي عن أبي سعيد الخدري قال خشينا أن يكون بعض شيء حدث فسلنا نبي الله صلى الله عليه وسلم فقال ان في أمتي المهدي يخرج يعيش خمسا أو سبعا أو تسعا زيد الشاذل قل قلنا وما ذاك قال سنين قال فيجيء إليه الرجل فيقول يا مهدي أعطني قل فيحكي له في ثوبه ما استطاع أن يحمله هذا لفظ الترمذي وقال حديث حسن وقد روى من غير وجه عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم ولفظ ابن ماجه والحاكم يكون في أمتي المهدي إن قصر فسبع والافتسح فتعم أمتي فيه نعمة لم ينعموا بمثلهما قط تؤتى الأرض كلها ولا يدخر منه شيء والمال يومئذ كدوس فيقوم الرجل فيقول يا مهدي أعطني فيقول خذ انتهي وزيد العمي وإن قال فيه الدارقطني وأحمد بن حنبل ويحيى بن معين أنه صالح وزاد أحمد أنه فوق زيد الدارقطني وفضل بن عيسى الأئمة قال فيه أبو حاتم ضعيف يكتب حديثه ولا يحتج به وقال يحيى بن معين في رواية أخرى لا شيء وقال مرة يكتب حديثه وهو ضعيف وقال الجرجاني متأسك وقال أبو زرعة ليس بقوي وأما الحديث ضعيف وقال أبو حاتم ليس بذلك وقد حدث عنه شعبة وقال النسائي ضعيف وقال ابن عدي عامة ما يرويه ومن يروى عنهم ضعفاء على أن شعبة قد روى عنه ولعل شعبة لم يرو عن أضعف منه وقد يقال إن حديث الترمذي وقع تفسيره لما رواه مسلم في صحيحه من حديث جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يكون

في آخر أمي خليفة يحيى المال حثيا لا يعده عدا ومن حديث أبي سعيد قال من خلفاءكم خليفة يحيى المال حثيا ومن طريق أخرى عنها قال يكون في آخر الزمان خليفة يقسم المال ولا يعده انتهى وأحاديث مسلم لم يقع فيها ذكر المهدي ولا دليل يقوم على أنه المراد منها ورواه الحاكم أيضا من طريق عوف الأعرابي عن أبي الصديق الناجي عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تقوم الساعة حتى تملأ الأرض جورا وظلما وعدوانا ثم يخرج من أهل بيتي رجل يملؤها قسطا وعدلا كما ملئت ظلما وعدوانا وقل فيه الحاكم هذا صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ورواه الحاكم أيضا من طريق سليمان بن عبيد عن أبي الصديق الناجي عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يخرج في آخر أمي المهدي يسقيه الله الغيث وتخرج الأرض نباتها ويعطي المال صحاحا وتكثر الماشية وتكظم الأمة يعيش سبعا أو ثمانيا يعني حججا وقل فيه حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه مع أن سليمان بن عبيد لم يخرجه أحد من الستة لكن ذكره ابن حبان في الثقات ولم يرد أن أحدا تكلم فيه ثم رواه الحاكم أيضا من طريق أسد بن موسى عن حماد بن سامة عن مطر الوراق وأبي هرون العبدى عن أبي الصديق الناجي عن أبي سعيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قل تملأ الأرض جورا وظلما فيخرج رجل من عترتي فيملك سبعا وتسعا فيملأ الأرض عدلا وقسطا كما ملئت جورا وظلما وتل الحاكم فيه هذا حديث صحيح على شرط مسلم وإنما جمعه على شرط مسلم لأنه أخرجه عن حماد بن سامة وعن شيخه مطر الوراق وأما شيخه الآخر وهو أبو هرون العبدى فلم يخرجه وهو ضعيف جدا منهم بالكذب ولا حاجة إلى بسط أقوال الأئمة في تضعيفه \* وأما الراوى له عن حماد بن سامة وهو أسد بن موسى ويلقب أسد السنة وإن قل البخارى مشهور الحديث واستشهد به في صحيحه واحتج به أبو دوداد والنسائي إلا أنه قل مرة أخرى ثقة لم يصنف كان خيرا له وقل فيه محمد بن حزم منكر الحديث ورواه الطبراني في معجمه الأوسط من رواية أبي الواصل عبد الحميد بن واصل عن أبي الصديق الناجي عن الحسن بن يزيد السعدى أحد بني بهدلة عن أبي سعيد الخدري قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يخرج رجل من أمي يقول بسنتي ينزل الله عز وجل له القطر من السماء وتخرج الأرض بركتها وتملأ الأرض منه قسطا وعدلا كما ملئت جورا وظلما يعمل على هذه الأئمة سبع سنين وينزل بيت المقدس وقل الطبراني فيه رواه جماعة عن أبي الصديق ولم يدخل أحد منهم بينه وبين أبي سعيد أحدا إلا أبا الواصل فإنه رواه عن الحسن بن يزيد عن أبي سعيد انتهى وهذا الحسن بن يزيد ذكره ابن أبي حاتم ولم يعرفه بآكثر مما في هذا الاسناد من روايته عن أبي سعيد ورواية أبي الصديق عنه وقل الذهبي في الميزان أنه مجهول لكن ذكره ابن حبان في الثقات وأما أبو الواصل الذى رواه عن أبي الصديق فلم يخرج له أحد من الستة وذكره ابن حبان في الثقات في الطبقة الثانية وقال فيه يروى عن أنس وروى عنه شعبة وعتاب بن بشر وخارج ابن ماجه في كتاب السنن عن عبد الله بن مسعود من طريق يزيد بن أبي زياد عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أقبل فتية من

بنى هاشم فلما رآهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ذرفت عيناه وتغير لونه قال فقلت ما زال نرى في وجهك  
 شيئا نكرهه فقال أنا أهل البيت اختار الله لنا الآخرة على الدنيا وأن أهل بيتي سيلقون بعدى بلاء وتشريدا  
 وتطريدا حتى يأتي قوم من قبل المشرق معهم آيات سود فيسألون الخير فلا يعطونه فيقاتلون وينصرون  
 فيعطون مأسألو أفلا يقبلونه حتى يدفعونها إلى رجل من أهل بيتي فيملؤوها قسطا كاملا لها جورا فمن أدرك  
 ذلك منكم فليأتهم ولو جوا على الثلج انتهى \* وهذا الحديث يعرف عند المحدثين بحديث الرايات ويزيد  
 ابن أبي زياد رواه قال فيه شعبة كان رفعا يعني يرفع الأحدث التي لا تعرف مرفوعة وقال محمد بن الفضيل  
 كان من كبار أئمة الشيعة وقال أحمد بن حنبل لم يكن بالحافظ وقال مرة حديثه ليس بذلك وقال يحيى بن معين  
 ضعيف وقال العجلي جائز الحديث وكان بأخرة يلحق وقال أبو زرعة لين يكتب حديثه ولا يحتج به  
 وقال أبو حاتم ليس بالقوى وقال الجرجاني سمعته يضعفون حديثه وقال أبو داود لا أعم أحدا ترك حديثه  
 وغيره أحب إلى منه وقال ابن عدي هو من شيعة أهل الكوفة ومع ضعفه يكتب حديثه وروى له مسلم  
 لكن مقرونا بغيره وبالجملة فالأكثر على ضعفه وقد صرح الأئمة بتضعيف هذا الحديث الذي رواه  
 عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله وهو حديث الرايات وقال وكيع بن الجراح فيه ليس بشيء وكذلك  
 قال أحمد بن حنبل وقال أبو قدامة سمعت أبا أسامة يقول في حديث يزيد عن إبراهيم في الرايات لو حلف  
 عندي خمسين عينا قسامة مصادقته أهذا مذهب إبراهيم أهذا مذهب علقمة أهذا مذهب عبد الله وأورد  
 العقيلي هذا الحديث في الضعفاء وقال الذهبي ليس بصحيح وخرج ابن ماجه عن علي رضي الله عنه من  
 رواية ياسين العجلي عن إبراهيم بن محمد بن الحنفية عن أبيه عن جده قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم  
 المهدي منا أهل البيت يصلح الله به في ليلة ويأسين العجلي وإن قال فيه ابن معين ليس به بأس فقد قال البخاري  
 فيه نظرو هذه اللفظة من اصطلاحه قوية في التضعيف جدا وأورد له ابن عدي في الكامل والذهبي في  
 الميزان هذا الحديث على وجه الاستنكار له وقال هو معروف به وخرج الطبراني في معجمه الأوسط عن  
 علي رضي الله عنه أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم أمنا المهدي أم من غيرنا يا رسول الله فقال بل منا بنايختم الله  
 كما بنا فتح وبنايستقذون من الشرك وبنايؤلف الله بين قلوبهم بعد عداوة بينة كما بنا ألف بين قلوبهم  
 بعد عداوة الشرك قال علي المؤمنون أم كافرون قال مفتون وكافرا انتهى وفيه عبد الله بن لهيعة وهو  
 ضعيف معروف الحال وفيه عمر بن جابر الحضرمي وهو أضعف منه قال أحمد بن حنبل روى عن جابر  
 منا كير وبلغني أنه كان يكذب وقال النسائي ليس بثقة وقال كان ابن لهيعة شيخا أحق ضعيف العقل وكان  
 يقول على في السحاب وكان يجلس معنا فيصير سحابة فيقول هذا على قدمي في السحاب وخرج الطبراني  
 عن علي رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يكون في آخر الزمان فتنة يحصل الناس  
 فيها كما يحصل الذهب في المعدن فلا تسبوا أهل الشام ولكن سبوا أشرارهم فإن فيهم الأبدال يوشك أن  
 يرسل على أهل الشام صيب من السماء فيفرق جماعتهم حتى لو قاتلتهم الثعالب غلبتهم فعند ذلك يخرج خارج  
 من أهل بيتي في ثلاث رايات المكثري يقول هم خمسة عشر ألفا والمقليل يقول هم اثنا عشر ألفا وأما رتهم أمت



أمت يلقون سبع رايات تحت كل راية منهار جل يطلب الملك فيقتلهم الله جميعا ويرد الله إلى المسلمين ألفتهم  
ونعمتهم وقاصيتهم ودانيتهم اه وفيه عبد الله بن لهيعة وهو ضعيف معروف الحال ورواه الحالك في  
المستدرك وقال صحيح الاسناد ولم يخرجاه في روايته ثم يظهر الهاشمي فيرد الله الناس إلى ألفتهم الحوليس  
في طريقة ابن لهيعة وهو اسناد صحيح كما ذكره وخرج الحالك في المستدرك عن علي رضي الله عنه من  
رواية أبي الطفيل عن محمد بن الحنفية قال كنا عند علي رضي الله عنه فساله رجل عن المهدي فقال على هيات ثم  
عقديده سباعا فقال ذلك يخرج في آخر الزمان اذا قال الرجل الله الله قتل ويجمع الله له قوما قزعا كقزع  
السحاب يؤلف الله بين قلوبهم فلا يستوحشون إلى أحد ولا يفرحون بأحد دخل فيهم عدتهم على عدة أهل  
بدر لم يسبقهم الا ولون ولا يدركهم الا آخرون وعلى عدد أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر قال أبو  
الطفيل قال ابن الحنفية أتريده قلت نعم قال فإنه يخرج من بين هذين الا خشبين قلت لا جرم والله ولا أدعها  
حتى أموت ومات بها يعني مكة قال الحالك هذا حديث صحيح على شرط الشيخين انتهى وإنما هو على شرط  
مسلم فقط فان فيه عمارا الذهبي ويونس بن أبي اسحق ولم يخرجهما البخاري وفيه عمرو بن محمد العبقرى  
ولم يخرجه له البخاري احتجاجا بل استشهدا مع ما ينضم إلى ذلك من تشيع عمار الذهبي وهو وإن وثقه  
أحمد وابن معين وأبو حاتم النسائي وغيرهم فقد قال علي بن المديني عن سفيان أن بشر بن مروان قطع  
عرقويه قلت في أي شيء قال في التشيع وخرج ابن ماجه عن أنس بن مالك رضي الله عنه في رواية سعد  
ابن عبد الحميد بن جعفر عن علي بن زياد اليمامي عن عكرمة بن عمار عن اسحاق بن عبد الله عن أنس قال  
سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول نحن ولد عبد المطلب سادات أهل الجنة أنا وحمزة وعلي وجعفر  
والحسن والحسين والمهدي انتهى وعكرمة بن عمار وان أخرج له مسلم فانما أخرج له متابعة وقد ضعفه  
بعض ووثقه آخرون وقال أبو حاتم الرازي هو مدلس فلا يقبل إلا أن يصرح بالسماع وعلي بن زياد قال  
الذهبي في الميزان لا ندرى من هو ثم قال الصواب فيه عبد الله بن زياد وسعد بن عبد الحميد وإن وثقه يعقوب  
ابن أبي شيبة وقال فيه يحيى بن معين ليس به بأس فقد تكلم فيه الثوري قالوا لأنه رآه يفتي في  
مسائل ويخطئ فيها وقال ابن حبان كان ممن خشي عطاؤه فلا يحتج به وقال أحمد بن حنبل سعد  
ابن عبد الحميد يدعى أنه سمع عرض كتب مالك والناس ينكرون عليه ذلك وهو ههنا  
يغداد لم يحج فكيف سمعها وجعله الذهبي ممن لم يقدح فيه كلام من تكلم فيه وخرج والحالك في  
مستدركه من رواية مجاهد عن ابن عباس موقوفا عليه قال مجاهد قال لي ابن عباس لو لم أسمع أنك من  
أهل البيت ما حدثتك بهذا الحديث قال مجاهد فانه في ستر لا أذكره لمن يكره قال ابن عباس  
منا أهل البيت أربعة منا السفاح ومنا المنذر ومنا المنصور ومنا المهدي قال مجاهد بين لي هؤلاء  
الأربعة فقال ابن عباس أما السفاح فربما قتل أنصاره وعفان عدوه وأما المنذر أراه قال فانه يعطى المال  
الكثير ولا يتعاضم في نفسه ويمسك القليل من حقه وأما المنصور فانه يعطى النصر على عدوه  
الشر مما كان يعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويرهب منه عدوه على مسيرة شهرين والمنصور

يَرْهَبُ مِنْهُ عَدُوهُ عَلَى مَسِيرَةِ شَهْرٍ وَأَمَّا الْمَهْدِيُّ فَانَهُ الَّذِي يَمْلَأُ الْأَرْضَ عَدْلًا كَمَا مَلَأَتْ جُورًا وَتَأْمَنُ  
 الْبَهَائِمُ السَّبَاعَ وَتَلْقَى الْأَرْضُ أَفْلَازَ كَبْدِهَا قَالَ قُلْتُ وَمَا أَفْلَازُ كَبْدِهَا قَالَ أَمْثَالُ الْأَسْطُوتَانِ مِنَ  
 الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ أَهْ وَقَالَ الْحَاكِمُ هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ الْأَسْنَادُ وَلَمْ يُخْرِجَاهُ وَهُوَ مِنْ رِوَايَةِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ  
 إِبْرَاهِيمَ بْنِ مَهَاجِرٍ عَنْ أَبِيهِ وَاسْمِعِيلَ ضَعِيفٌ وَإِبْرَاهِيمُ أَبُوهُ وَانْخَرَجَ لَهُ مُسْلِمٌ فَأَلَّا كَثُرُونَ عَلَى  
 تَضْعِيفِهِ أَهْ \* وَخَرَجَ ابْنُ مَاجَةَ عَنْ ثَوْبَانَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْتُلُ عِنْدَ كَنْزٍ كَمْ ثَلَاثَةَ  
 كُلِّهِمْ ابْنُ خَلِيفَةٍ ثُمَّ لَا يَصِيرُ إِلَى وَاحِدٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَطْلُعُ الرِّيَاضُ السُّودُ مِنْ قَبْلِ الْمَشْرِقِ فَيَقْتُلُوهُمْ قَتْلًا لَا يَقْتُلُهُ قَوْمٌ  
 ثُمَّ ذَكَرَ شَيْئًا لَا أَحْفَظُهُ قَالَ فَاذْ رَأَيْتُمُوهُ فَيَاْعُوهُ وَلَوْ جَبُوا عَلَى الثَّلْجِ فَانَهُ خَلِيفَةُ اللَّهِ الْمَهْدِيُّ أَهْ وَرَجَالُهُ  
 رِجَالُ الصَّحِيحِينَ الْأَنْفِ فِيهِ أَبَاقِلَابَةُ الْجَرْمِيِّ وَذَكَرَ الذَّهَبِيُّ وَغَيْرُهُ أَنَّهُ مَدْلَسٌ وَفِيهِ سَفِينَانِ الثُّورِيِّ وَهُوَ  
 مَشْهُورٌ بِالتَّدْلِيسِ وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا عَنْعَنٌ وَلَمْ يَصْرَحْ بِالسَّبَاعِ فَلَا يَقْبَلُ وَفِيهِ عَبْدِ الرَّزَاقِ بْنِ هَامٍ وَكَانَ  
 مَشْهُورًا بِالتَّشْيِيعِ وَعُمِّيٌّ فِي آخِرِ وَقْتِهِ غَلَطَ قَالَ ابْنُ عَدِي حَدَّثَ بِأَحَادِيثٍ فِي الْفَضَائِلِ لَمْ يُوَافِقْهُ عَلَيْهَا أَحَدٌ  
 وَنَسَبُوهُ إِلَى التَّشْيِيعِ انْتَهَى \* وَخَرَجَ ابْنُ مَاجَةَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَرِثِ بْنِ جَزَاءِ الزُّبَيْدِيِّ مِنْ طَرِيقِ ابْنِ  
 هُلَيْعَةَ عَنْ أَبِي رَرَعَةَ عَنْ عُمَرَ بْنِ جَابِرٍ الْحَضْرَمِيِّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَرِثِ بْنِ جَزَاءِ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ  
 عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُخْرِجُ نَاسٌ مِنَ الْمَشْرِقِ فَيُوطُونُ لِمَهْدِيِّ يَعْنِي سُلْطَانَهُ قَالَ الطَّبْرَانِيُّ تَفَرَّدَ بِهِ ابْنُ هُلَيْعَةَ وَقَدْ تَقَدَّمَ  
 لَنَا فِي حَدِيثٍ عَلَى الَّذِي خَرَجَهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي مَعْجَمِهِ الْأَوْسَطُ أَنَّ ابْنَ هُلَيْعَةَ ضَعِيفٌ وَأَنَّ شَيْخَهُ عُمَرَ بْنَ جَابِرٍ  
 أَوْعَفُ مِنْهُ \* وَخَرَجَ الْبَزَارِيُّ فِي مُسْنَدِهِ وَالتَّبْرَانِيُّ فِي مَعْجَمِهِ الْأَوْسَطِ وَاللَّفْظُ لِلطَّبْرَانِيِّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ  
 عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ يَكُونُ فِي أُمَّتِي الْمَهْدِيُّ أَنْ قَصَرَ فُسَيْعٌ وَالْأَقْثَانُ وَالْأَقْتَسَعُ تَنَعَمَ فِيهَا أُمَّتِي نِعْمَةً  
 لَمْ يَنْعَمُوا بِمِثْلِهَا تَرْسُلُ السَّمَاءُ عَلَيْهِمْ مَدْرَارًا وَلَا تَدْخُرُ الْأَرْضُ شَيْئًا مِنَ النَّبَاتِ وَالْمَالِ كَدُوسٍ يَقُومُ الرَّجُلُ  
 يَقُولُ يَا مَهْدِي أَعْطِنِي فَيَقُولُ خُذْ قَالَ الطَّبْرَانِيُّ وَالبَزَارِيُّ تَفَرَّدَ بِهِ مُحَمَّدُ بْنُ مَرْوَانَ الْعَجَلِيُّ زَادَ الْبَزَارِيُّ وَلَا نَعْلَمُ  
 أَنَّهُ تَابَعَهُ عَلَيْهِ أَحَدٌ وَهُوَ إِنْ وَثَقَهُ أَبُو دَاوُدَ وَابْنُ جَبَانَ أَيْضًا مَذْكُورُهُ فِي الثَّقَاتِ وَقَالَ فِيهِ يَحْيَى بْنُ مَعِينٍ  
 صَالِحٌ وَقَالَ مَرَّةً لَيْسَ بِهِ بَأْسٌ فَقَدْ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَقَالَ أَبُو زُرْعَةَ لَيْسَ عِنْدِي بِذَلِكَ وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ  
 ابْنُ أَحْمَدَ بْنُ حَنْبَلٍ رَأَيْتُ مُحَمَّدَ بْنَ مَرْوَانَ الْعَجَلِيَّ حَدَّثَ بِأَحَادِيثٍ وَأَنَا شَاهِدٌ لَمْ أَكْتُهَا تَرَكْتُهَا عَلَى عَمْدٍ  
 وَكُتِبَ بَعْضُ أَصْحَابِنَا عَنْهُ كَأَنَّهُ ضَعْفُهُ وَخَرَجَهُ أَبُو يَعْلَى الْمُوَصِّلِيُّ فِي مُسْنَدِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَقَالَ  
 حَدَّثَنِي خَلِيلِي أَبُو الْقَاسِمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُخْرِجَ عَلَيْهِمْ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي فَيَضْرِبُهُمْ  
 حَتَّى يَرْجِعُوا إِلَى الْحَقِّ قَالَ قُلْتُ وَكَمْ يَمْلِكُ قَالَ خَمْسًا وَاثْنَيْنِ قَالَ قُلْتُ وَمَا خَمْسًا وَاثْنَيْنِ قَالَ لَا أَدْرِي أَهْ  
 وَهَذَا السَّنَدُ وَانْكَانَ فِيهِ بَشِيرُ بْنُ نَهْيَكٍ وَقَالَ فِيهِ أَبُو حَاتِمٍ لَا يَحْتَجُّ بِهِ فَقَدْ احْتَجَّ بِهِ الشَّيْخَانُ وَوَثَّقَهُ النَّاسُ  
 وَلَمْ يَلْتَفِتْهُ إِلَى قَوْلِ أَبِي حَاتِمٍ لَا يَحْتَجُّ بِهِ إِلَّا أَنَّ فِيهِ رَجَاءُ بْنُ أَبِي رَجَاءٍ الْيَشْكُرِيُّ وَهُوَ مُخْتَلَفٌ فِيهِ قَالَ أَبُو  
 زُرْعَةَ ثَقَّةٌ وَقَالَ يَحْيَى بْنُ مَعِينٍ ضَعِيفٌ وَقَالَ أَبُو دَاوُدَ ضَعِيفٌ وَقَالَ رَجَاءُ بْنُ صَالِحٍ وَعَلَّقَ لَهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ  
 حَدَّثَنَا وَاحِدًا \* وَخَرَجَ أَبُو بَكْرِ الْبَزَارِيُّ فِي مُسْنَدِهِ وَالتَّبْرَانِيُّ فِي مَعْجَمِهِ الْكَبِيرِ وَالْأَوْسَطِ عَنْ قُرَّةِ

ابن إياس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لتملأن الأرض جوراً وظلماً فإذا ملئت جوراً وظلماً بعث الله رجلاً من أمي اسمه اسمي واسم أبيه اسم أبي يملؤها عدلاً وقسطاً كما ملئت جوراً وظلماً فلا تمنع السماء من قطرها شيئاً ولا الأرض شيئاً من نباتها يلبث فيكم سبعاً أو ثمانياً أو تسعين سنين اه وفيه داود بن الحبر ابن قحزم عن أبيه وهما ضعيفان جداً\* وخرج الطبراني في معجمه الأوسط عن ابن عمر قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في نفر من المهاجرين والأنصار وعلى بن أبي طالب عن يساره والعباس عن يمينه إذ تلاحي العباس ورجل من الأنصار فأغلظ الأنصارى للعباس فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم بيد العباس ويده على وقال سيخرج من صلب هذا فتى يملأ الأرض قسطاً وعدلاً فازار أيت ذلك فعليك بالحق التيمي فانه يقبل من قبل المشرق وهو صاحب راية المهدي انتهى وفيه عبد الله بن عمر العمي وعبد الله بن لهيعة وهما ضعيفان اه\* وخرج الطبراني في معجمه الأوسط عن طلحة بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ستكون فتنة لا يسكن منها جانب إلا تشاجر جانب حتى ينادي مناد من السماء أن أميركم فلان اه وفيه المثنى بن الصباح وهو ضعيف جداً وليس في الحديث تصريح بذكر المهدي وإنما ذكره في أبوابه وترجمته استئناساً (فهذه) جملة الأحاديث التي خرجها الأئمة في شأن المهدي وخروجه آخر الزمان وهي كما رأيت لم يخلص منها من النقد إلا القليل أو الأقل منه وربما تمسك المنكرون لشأنه بما رواه محمد بن خالد الجندي عن أبان بن صالح بن أبي عياش عن الحسن البصري عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لا مهدي إلا عيسى بن مريم وقال يحيى بن معين في محمد بن خالد الجندی انه ثقة وقل البيهقي تفرد به محمد بن خالد وقل الحاكم فيه انه رجل مجبول واختلف عليه في اسناده فمرة يروي كما تقدم وينسب ذلك لمحمد بن إدريس الشافعي ومرة يروي عن محمد بن خالد عن أبان عن الحسن عن النبي صلى الله عليه وسلم رسالة قال البيهقي فرجع إلى رواية محمد بن خالد وهو مجبول عن أبان بن أبي عياش وهو متروك عن الحسن عن النبي صلى الله عليه وسلم وهو منقطع وبالجملة فالحديث ضعيف مضطرب وقد قيل في أن لا مهدي إلا عيسى أي لا يتكلم في المهدي إلا عيسى يحاولون بهذا التأويل رد الاحتجاج به أو الجمع بينه وبين الأحاديث وهو مدفوع بحديث جريح ومثله من الخوارج\* وأما التصوفة فلم يكن المتقدمون منهم يخوضون في شيء من هذا وإنما كان كلامهم في المجاهدة بالأعمال وما يحصل عنهما من نتائج المواجه والحوال وكان كلام الإمامية والرافضة من الشيعة في تفضيل علي رضي الله تعالى عنه والقول بإمامته وادعاء الوصية بذلك من النبي صلى الله عليه وسلم والتبري من الشيخين كما ذكرناه في مذاهبهم ثم حدث فيهم بعد ذلك القول بالإمام المعصوم وكثرت التأليف في مذاهبهم وجاء الاسماعيلية منهم يدعون ألوهية الإمام بنوع من الحلول وآخرون يدعون رجعة من مات من الأئمة بنوع التناسخ وآخرون منتظرون مجيء من يقطع بموته منهم وآخرون منتظرون عوداً لمرفي أهل البيت مستدلين على ذلك بما قدمناه من الأحاديث في المهدي وغيره اثم حدث أيضاً عند المتأخرين من الصوفية الكلام في الكشف وفيما وراء الحس



وظهر من كثير منهم القول على الاطلاق بالحلول والوحدة فشاركوا فيها الامامية والرافضة لقولهم بالوهية الائمة وحلول الاله فيهم وظهر منهم أيضا القول بالقطب والابدال وكأنه يحاكي مذهب الرافضة في الامام والنقباء وأشربوا أقوال الشيعة وتوغلوا في الديانة بمذاهبهم حتى لقد جعلوا مستند طريقهم في لبس الحرقة أن عليا رضى الله عنه ألبسها الحسن البصرى وأخذ عليه العهد بالتزام الطريقة واتصل ذلك عنهم بالجند من شيوخهم ولا يعلم هذا عن علي من وجه صحيح ولم تكن هذه الطريقة خاصة بعلي كرم الله وجهه بل الصحابة كلهم أسوة في طرق الهدى وفي تخصيص هذا بعلي دونهم رائحة من التشيع قوية يفهم منها ومن غيرها مما تقدم ، خو لهم في التشيع وانخرطهم في سلكه وظهر منهم أيضا القول بالقطب وامتلاّت كتب الاسماعيلية من الرافضة وكتب المتأخرين من المتصوفة بمثل ذلك في الفاطمي المنتظر وكان بعضهم يعلمه على بعض ويتلقنه بعضهم عن بعض وكأنه مبنى على أصول واهية من الفريقين وربما يستدل بعضهم بكلام المنجمين في القرانات وهو من نوع الكلام في الملاحم ويأتى الكلام عليها في الباب الذى يلى هذا وأكثر من تكلم من هؤلاء المتصوفة المتأخرين في شأن الفاطمي ابن العربي الحاتمي في كتاب عنقاء مغرب وابن قسى في كتاب خلع النعلين وعبدالحق ابن سبعين وابن أبي واطيل تلميذه في شرحه لكتاب خلع النعلين وأكثر كلماتهم في شأنه ألغاز وأمثال وربما يصرحون في الأقل أو يصرح مفسرو كلامهم وحاصل مذهبهم فيه على ما ذكر ابن أبي واطيل أن النبوة بها ظهر الحق والهدى بعد الضلال والعمى وانها تعقبها الخلافة ثم يعقب الخلافة الملك ثم يعود تجرأوا تكبرا وباطلا قالوا ولما كان في المعهود من سنة الله رجوع الأمور إلى ما كانت وجب أن يحيا أسرار النبوة والحق بالولاية ثم بخلافتها ثم يعقبها الدجل مكان الملك والتسلط ثم يعود الكفر بحاله يشيرون بهذا لما وقع من شأن النبوة والخلافة بعدها الملك بعد الخلافة هذه ثلاث مراتب وكذلك الولاية التي هي لهذا الفاطمي والدجل بعدها كناية عن خروج الدجال على أثره والكفر من بعد ذلك فهي ثلاث مراتب على نسبة الثلاث مراتب الأولى ثم يعود الكفر كما كان قبل النبوة قالوا ولما كان أمر الخلافة لقريش حكما شرعيا بالاجماع الذى لا يوهنه انكار من لم يزاو علمه وجب أن تكون الامامة فيمن هو أخص من قريش بالنبي صلى الله عليه وسلم اما ظاهرا كبنى عبد المطلب واما باطنا ممن كان من حقيقة الآل والآل من إذا حضر لم يغيب من هو آله وابن العربي الحاتمي سماه في كتابه عنقاء مغرب من تأليفه خاتم الأولياء وكفى عنه بلينة الفضة اشارة إلى حديث البخارى في باب خاتم النبيين قال صلى الله عليه وسلم مثلى فيمن قبلي من الأنبياء كمثل رجل ابنتى بيتا وأكمله حتى إذا لم يبق منه الاموضع لبنه فانا تلك اللبنة فيفسرون خاتم النبيين باللبنه حتى أكملت البنيان ومعناه النبي الذي حصلت له النبوة الكاملة ويمثلون الولاية في تفاوت مراتبها بالنبوة ويجعلون صاحب الكمال فيها خاتم الأولياء أى حائز الرتبة التى هي خاتمة الولاية كما كان خاتم الأنبياء حائز للمرتبة التى هي خاتمة النبوة فكفى الشارع عن تلك المرتبة الخاتمة بلينة البيت في

الحديث المذكور وهما على نسبة واحدة فيها هي لبنة واحدة في التمثيل في النبوة لبنة ذهب وفي الولاية لبنة فضة للتفاوت بين الرتبين كما بين الذهب والفضة فيجعلون لبنة الذهب كناية عن النبي صلى الله عليه وسلم ولبنة الفضة كناية عن هذا الولي الفاطمي المنتظر وذلك خاتم الأنبياء وهذا خاتم الأولياء وقال ابن العربي فيما نقل ابن أبي واطيل عنه وهذا الامام المنتظر هو من أهل البيت من ولد فاطمة وظهوره يكون من بعد مضي خ ف ج من الهجرة ورسم حروفاً ثلاثة يريد عددها بحساب الجمل وهو الحاء المعجمة بواحدة من فوق ستمائة والفاء أخت القاف بثمانين والجيم المعجمة بواحدة من أسفل ثلاثة وذلك ستمائة وثلاث وثمانون سنة وهي في آخر القرن السابع ولما انصرم هذا العصر ولم يظهر حمل ذلك بعض المقلدين لهم على أن المراد بتلك المدة مولده وعبر بظهوره عن مولده وأن خروجه يكون بعد العشر والسبع مائة فانه الامام الناجم من ناحية المغرب قال واذا كان مولده كما زعم ابن العربي سنة ثلاث وثمانين وستمائة فيكون عمره عند خروجه ستا وعشرين سنة قال وزعموا أن خروج الدجال يكون سنة ثلاث وأربعين وسبع مائة من اليوم الحمدي وابتداء اليوم الحمدي عندهم من يوم وفاة النبي صلى الله عليه وسلم إلى تمام ألف سنة قال ابن أبي واطيل في شرحه كتاب خلع النعيلين الولي المنتظر القائم بأمر الله المشرق اليه بمحمد المهدي وخاتم الأولياء وليس هو بني وإمامه ولي ابتعث روحه وحبيبه قال صلى الله عليه وسلم العالم في قومه كالنبي في أمته وقال علماء أمتي كأنياء بني إسرائيل ولم تزل البشرية تتابع به من أول اليوم الحمدي إلى قبيل الخمسمائة نصف اليوم وتأكدت وتضاعفت بتبشير المشايخ بتقريب وقته وازدلال زمانه منذ انقضت إلى هلم جرا قال وذكر الكندي أن هذا الولي هو الذي يصلي بالناس صلاة الظهر ويحدد الاسلام ويظهر العدل ويفتح جزيرة الأندلس ويصل إلى رومية فيفتحها ويسير إلى المشرق فيفتحه ويفتح القسطنطينية ويصير له ملك الأرض فيتقوي المسلمون ويعلو الاسلام ويظهر دين الحنفية فان من صلاة الظهر إلى صلاة العصر وقت صلاة قال عليه الصلاة والسلام ما بين هذين وقت وقال الكندي أيضا الحروف العربية غير المعجمة يعني المفتوح بها سور القرآن جملة عددها سبع مائة وثلاثة وأربعون وسبعة دجالية ثم ينزل عيسى في وقت صلاة العصر فيصلح الدنيا وتمشي الشاة مع الذئب ثم يبقى ملك العجم بعد اسلامهم مع عيسى مائة وستين عاما عدد حروف المعجم وهي ق ي ن دولة العدل منها أربعون عاما قال ابن أبي واطيل وما ورد من قوله لا مهدي إلا عيسى فمعناه لا مهدي تساوي هدايته ولايته وقيل لا يتكلم في المهدي إلا عيسى وهذا مدفوع بحديث جريح وغيره وقد جاء في الصحيح أنه قال لا يزال هذا الأمر قائما حتى تقوم الساعة أو يكون عليهم اثنا عشر خليفة يعني قريشا وقد أعطى الوجود أن منهم من كان في أول الاسلام ومنهم من سيكون في آخره وقال الخلافة بعدي ثلاثون أو احدى وثلاثون أو ستة وثلاثون وانقضاؤها في خلافة الحسن وأول أمر معاوية فيكون أول أمر معاوية خلافة أخذ بأوائل الأسماء فهو سادس الخلفاء وأما سابع الخلفاء فعمربن عبدالعزيز والباقون خمسة من أهل البيت من ذرية علي يؤيده قوله أنك لن دوقرنها يريد الأمة أي أنك الخليفة في أولها وذريتك في آخرها وربما استدل بهذا

الحديث القائلون بالرجعة فالأول هو المشار إليه عندهم بطلوع الشمس من مغربها وقد قال صلى الله عليه وسلم إذا هلك كسري فلا كسري بعده وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده والذي نفسى بيده لتنفق كنوزهما في سبيل الله وقد أنفق عمر بن الخطاب كنوز كسري في سبيل الله والذي يهلك قيصر وينفق كنوزه في سبيل الله هو هذا المنتظر حين يفتح القسطنطينية فعم الأمير أميرها ونعم الجيش ذلك الجيش كذا قال صلى الله عليه وسلم ومدة حكمه بضع والبضع من ثلاث إلى تسع وقيل إلى عشر وجاء ذكر أربعين وفي بعض الروايات سبعين وأما الأربعون فأنها مدته ومدة الخلفاء الأربعة الباقين من أهله القائمين بأمره من بعده على جميعهم السلام قال وذكر أصحاب النجوم والقرانات أن مدة بقاء أمره وأهل بيته من بعده مائة وتسعة وخمسون عاما فيكون الأمير على هذا جاريا على الخلافة والعدل أربعين أو سبعين ثم تختلف الأحوال فتكون ملكا انتهى كلام ابن أبي واطيل وقال في موضع آخر نزول عيسى يكون في وقت صلاة العصر من اليوم الحمدي حين غضى ثلاثة أرباعه قال وذكر الكندي يعقوب ابن اسحق في كتاب الجعفر الذي ذكر فيه القرانات أنه إذا وصل القران إلى الثور على رأس حنظل بحرفين ( ١ ) الضاد المعجمة والحاء المهملة يريد ثمانية وتسعين وستائة من الهجرة ينزل المسيح فيحكم في الأرض ما شاء الله تعالى قال وقد ورد في الحديث أن عيسى ينزل عند المنارة البيضاء شرق دمشق ينزل بين مهرودتين يعني حلتين مزعورتين صفراوين محصرتين واضعا كفيه على أجنحة الملكين له لمة كأنها خرج من ديماس إذا طأ رأسه قطر وإذا رفعه تحدر منه جمان كاللؤلؤ كثير خيلان الوجه وفي حديث آخر مربوع الخلق وإلى البياض والحمرة وفي آخره يتزوج في الغرب والغرب دلو البادية يريد أنه يتزوج منها وتلد زوجته وذكر وفاته بعد أربعين عاما وجاء أن عيسى يموت بالمدينة ويدفن إلى جانب عمر بن الخطاب وجاء أن أبا بكر وعمر يحشران بين نبيين قال ابن أبي واطيل والشيعة تقول أنه هو المسيح مسيح المسايح من آل محمد قلت وعليه حمل بعض المتصوفة حديث لا مهدي إلا عيسى أي لا يكون مهدي إلا المهدي الذي نسبته إلى الشريعة الحمدي نسبة عيسى إلى الشريعة الموسوية في الاتباع وعدم النسخ إلى كلام من أمثال هذا يعينون فيه الوقت والرجل والمكان بأدلة وإهية وتحكمات مختلفة فيتقضى الزمان ولا أثر لشيء من ذلك فيرجعون إلى تجديد رأي آخر متحل كما تراه من مفهومات لغوية وأشياء تخيلية وأحكام نجومية في هذا انقضت أعمار الأول منهم والآخر وأما المتصوفة الذين عاصرناهم فأكثرهم يشيرون إلى ظهور رجل مجدلا حكام الملّة ومراسم الحق ويتحينون ظهوره لما قرب من عصرنا فبعضهم يقول من ولد فاطمة وبعضهم يطلق القول فيه سمعناه من جماعة أكرمهم أبو يعقوب البادسي كبير الأولياء بالمغرب كان في أول هذه المائة الثامنة وأخبرني عنه حافده صاحبنا أبو يحيى زكريا عن أبيه أبي محمد عبد الله عن أبيه الولي أبي يعقوب المذكور هذا آخر ما اطلعنا عليه أو بلغنا من كلام هؤلاء المتصوفة وما أورده أهل الحديث من أخبار المهدي قد استوفينا جميعه



ببلغ طاقتنا والحق الذي ينبغي أن يتقرر لديك أنه لا تتم دعوة من الدين والمملك إلا بوجود شوكة عصبية تظهره وتدافع عنه من يدفعه حتى يتم أمر الله فيه وقد قررنا ذلك من قبل بالبراهين القطعية التي أريناك هناك وعصبية الفاطميين بل وقريش أجمع قد تلاشت من جميع الآفاق ووجد أم آخرون قد استعلت عصبيتهم على عصبية قريش إلا ما بقي بالحجاز في مكة وينبع بالمدينة من الطالبين من بني حسن وبني حسين وبني جعفر منتشرون في تلك البلاد وغالبون عليها وهم عصائب بدوية متفرقون في مواطنهم وأما رتهم وآراءهم يبلغون آلافا من السكينة فإن صح ظهور هذا المهدي فلا وجه لظهور دعوته إلا بأن يكون منهم ويؤلف الله بين قلوبهم في اتباعه حتى تتم شوكة وعصبية وافية باظهار كنهه وحمل الناس عليها وأما على غير هذا الوجه مثل أن يدعو فاطمي منهم إلى مثل هذا الأمر في أفق من الآفاق من غير عصبية ولا شوكة إلا مجرد نسبة في أهل البيت فلا يتم ذلك ولا يمكن لما أسلفناه من البراهين الصحيحة وأما ما تدعيه العامة والأغمار من الدهماء ممن لا يرجع في ذلك إلى عقل يهديه ولا علم يفيد فيجيئون ذلك على غير نسبة وفي غير مكان تقليدا لما اشتهر من ظهور فاطمي ولا يعلمون حقيقة الأمر كما بيناه وأكثر ما يجيئون في ذلك القاصية من الممالك وأطراف العمران مثل الزاب بأفريقية والسوس من المغرب ونجد الكثير من ضعفاء البصائر يقصدون رباطا بما سمعوا لما كان ذلك الرباط بالمغرب من الملتزمين من كدالة واعتقادهم أنه منهم أو قائمون بدعوته زعما لا مستند لهم إلا غرابة تلك الأئمة وبعدهم على يقين المعرفة بأحوالها من كثرة أوقلة أو ضعف أوقوة ولبعد القاصية عن منازل الدولة وخروجها عن نطاقها فتقوي عندهم الاوهام في ظهوره هناك بخروجه عن رتبة الدولة ومنازل الأحكام والقهر ولا محصول لديهم في ذلك إلا هذوا وقد يقصد ذلك الموضع كثير من ضعفاء العقول للتلبس بدعوة تمية تمامها وسواسا وحماقا وقتل كثير منهم أخبرني شيخنا محمد بن إبراهيم الأبلي قال خرج برباط مائة لأول المائة الثامنة وعصر السلطان يوسف بن يعقوب رجل من منتحلي التصوف يعرف بالتوزيري نسبة إلى توزر مصغر وادعى أنه الفاطمي المنتظر واتباعه الكثير من أهل السوس من ضالة وكرولة وعظم أمره وخافه رؤساء المصاندة على أمرهم قدس عليه السكسوى من قتله بيانا وانحل أمره وكذلك ظهر في غمارة في آخر المائة السابعة وعشر التسعين منها رجل يعرف بالعباس وادعى أنه الفاطمي واتباعه الدهماء من غمارة ودخل مدينة فاس عنوة وحرق أسواقها وارتحل إلى بلد المزمة فقتل بها غيلة ولم يتم أمره وكثير من هذا النمط وأخبرني شيخنا المذكور بغريبة في مثل هذا وهو أنه يحب في حجه في رباط العباد وهو مدفن الشيخ أبي مدين في جبل تلهـان المطل عليها رجلا من أهل البيت من سكان كربلاء كان متبوعا معظما كثير التلمذ والخادم قال وكان الرجال من موطنه يتلقونه بالنفقات في أكثر البلدان قال وتأكدت الصحبة بيننا في ذلك الطريق فأنكشف لي أمرهم وإنهم إنما جاؤا من موطنهم بكر بلاء لطلب هذا الأمر وانتحال دعوة الفاطمي بالمغرب فلما عين دولة بني مرين ويوسف بن يعقوب يومئذ منازل تلمسان قال لأصحابه ارجعوا فقد أذرى بنا الغلط وليس هذا الوقت وقتنا

ويدل هذا القول من هذا الرجل على أنه مستبصر في أن الأمر لا يتم إلا بالعصبة المكافئة لأهل الوقت فلما علم أنه غريب في ذلك الوطن ولا شوكة له وإن عصبية بني مرين لذلك العهد لا يقاومها أحد من أهل المغرب استكان ورجع إلى الحق وأقصر عن مطامعه وبقى عليه أن يستيقن أن عصبية الفواطم وقريش أجمع قد ذهبت لاسيما في المغرب إلا أن التعصب لشأنه لم يتركه لهذا القول والله يعلم وأنتم لاتعمون وقد كانت بالمغرب لهذه العصور القرية نزعة من الدعاء إلى الحق والقيام بالسنة لا ينتحلون فيها دعوة فاطمي ولا غيره وإنما ينزع منهم في بعض الأحيان الواحد فالواحد إلى إقامة السنة وتغيير المنكر ويعتني بذلك ويكثر تابعه وأكثر ما يعنون باصلاح السابلة لما أن أكثر فساد الاعراب فيها لما قدمناه من طبيعة معاشهم فيأخذون في تغيير المنكر بما استطاعوا إلا أن الصبغة الدينية فيهم لم تستحكم لما أن توبة العرب ورجوعهم إلى الدين إنما يقصدون بها الاقتصار عن الغارة والنهب لا يعقلون في توبتهم وأقبالهم إلى مباحي الديانة غير ذلك لأنها المعصية التي كانوا عليها قبل المقربة ومنها توبتهم فتجد ذلك المتحلل للدعوة والقائم بزعمه بالسنة غير متعمقين في فروع الاقتداء والاتباع إنما دينهم الاعراض عن النهب والبغى وافساد السابلة ثم الاقبال على طلب الدنيا والمعاش بأقصى جهدهم وشتان بين هذا الآخذ في اصلاح الخلق ومن طلب الدنيا فاتفقا ممتنع لا تستحكم له صبغة في الدين ولا يكمل له نزوع عن الباطل على الجملة ولا يكثر ون يختلف حال صاحب الدعوة معهم في استحكام دينه ولايته في نفسه دون تابعه فاذا هلك انحل أمرهم وتلاشت عصبيتهم وقد وقع ذلك بأفريقية لرجل من كعب من سليم يسمى قاسم بن مرة بن أحمد في المائة السابعة ثم من بعده لرجل آخر من بادية رياح من بطن منهم يعرفون بمسلم وكان يسمى سعادة وكان أشد ديناً من الأول وأقوم طريقة في نفسه ومع ذلك فلم يستتب أمر تابعه كما ذكرناه حسبا يأتي ذكر ذلك في موضعه عند ذكر قبائل سليم ورياح وبعد ذلك ظهر ناس بهذه الدعوة يتشبهون بمثل ذلك ويلبسون فيها وينتحلون اسم السنة وليسوا عليها الا الاقل فلا يتم لهم ولا لمن بعدهم شيء من أمرهم انتهى

#### ٥٤ ﴿ فصل في ابتداء الدول والأئم وفيه الكلام على الملاحم والكشف

عن مسمى الجفر ﴾

( اعلم ) أن من خواص النفوس البشرية التشوف إلى عواقب أمورهم وعلم ما يحدث لهم من حياة وموت وخير وشر سيما الحوادث العامة كعرفة ما بقي من الدنيا ومعرفة مدد الدول أو تفاوتها والتطلع إلى هذا طبيعة البشر يحبون عليها ولذلك نجد الكثير من الناس يتشوفون إلى الوقوف على ذلك في المنام والأخبار من السكبان لمن قصد بمثل ذلك من الملوك والسوقة معروفه ولقد نجد في المدن صنفان من الناس ينتحلون المعاش من ذلك لعلمهم بحرص الناس عليه فينتصبون لهم في الطرقات والدكاكين يتعرضون لمن يسألهم عنه فتغدو عليهم وتروح نسوان المدينة وصبيانها وكثير من ضعفاء العقول يستكشفون عواقب أمورهم في الكسب والجاه والمعاش والعاشرة والعداوة وأمثال ذلك ما بين خط

في الرمل ويسمونه المنجم وطرق بالخصى والجوب ويسمونه الحاسب ونظر في المرايا والمياه ويسمونه ضارب المندل وهو من المنكرات الفاشية في الأمصار لما تقر في الشريعة من ذم ذلك وأن البشر محجوبون عن الغيب الا من أطلعه الله عليه من عنده في نوم أو ولاية أو أكثر ما يعتني بذلك ويتطلع اليه الأمراء والملوك في آما د دولتهم ولذلك انصرفت العناية من أهل العلم اليه وكل أمة من الأمم يوجد لهم كلام من كاهن أو منجم أو ولي في مثل ذلك من ملك يرتقبونه أو دولة يحدثون أنفسهم بها وما يحدث لهم من الحرب والملاحم ومدة بقاء الدولة وعدد الملوك فيها والتعرض لأسمائهم ويسمى مثل ذلك الحدثان وكان في العرب الكهان والعرافون يرجعون اليهم في ذلك وقد أخبروا بما سيكون للعرب من الملك والدولة كما وقع لشق وسطيح في تأويل رؤيا ربيعة بن نصر من ملوك اليمن أخبرهم بملك الحبشة بلادهم ثم رجوعها اليهم ثم ظهور الملك والدولة للعرب من بعد ذلك وكذا تأويل سطيح لرؤيا الموبدان حين بعث اليه كسرى بهامع عبد المسيح وأخبرهم بظهور دولة العرب وكذا كان في جيل البربر كهان من أشهرهم موسى بن صالح من بني يفرن ويقال من غمرة وله كلمات حدثانية على طريقه الشعر برطانتهم وفيها حدثان كثير ومعظمه فيها يكون لزاتة من الملك والدولة بالمغرب وهي متداولة بين أهل الجبل وهم يزعمون تارة أنه ولي وتارة أنه كاهن وقديزم بعض مزاعمهم أنه كان نبيا لأن تاريخه عندهم قبل الهجرة بكثير والله أعلم وقد يستند الجليل إلى خبر الأنبياء إن كان لعهدهم كما وقع لبني اسرائيل فان أنبياءهم المتعاقبين فيهم كانوا يخبرونهم بمثله عند ما يعنونهم في السؤال عنه \* وأما في الدولة الاسلامية فوقع منه كثير فيما يرجع إلى بقاء الدنيا ومدتها على العموم وفيما يرجع إلى الدولة وأعمارها على الخصوص وكان المعتمد في ذلك في صدر الاسلام آثارا منقولة عن الصحابة وخصوصا مسلمة بنى اسرائيل مثل كعب الأجار ووهب بن منبه وأمثالهما وربما اقتبسوا بعض ذلك من ظواهر ما تورة وتأويلات محتملة ووقع لجعفر وأمثاله من أهل البيت كثير من ذلك مستند فيه والله أعلم الكشف بما كانوا عليه من الولاية وإذا كان مثله لا ينكر من غيرهم من الأولياء في ذويهم وأعقابهم وقد قال صلى الله عليه وسلم ان فيكم محدثين فهم أولى الناس بهذه الرتب الشريفة والكرامات الموهوبة وأما بعد صدر الملة وحين علق الناس على العلوم والاصطلاحات وترجمت كتب الحكماء إلى اللسان العربي فأكثر معتمد في ذلك كلام المنجمين في الملك والدول وسائر الأمور العامة من القرانات وفي الموالي والمساءل وسائر الأمور الخاصة من الطوالع لها وهي شكل الفلك عند حدوثها فلنذكر الآن ما وقع لأهل الاثر في ذلك ثم نرجع لكلام المنجمين \* أما أهل الاثر فلم في مدة الملل وبقاء الدنيا على ما وقع في كتاب السهيلي فانه نقل عن الطبري ما يقتضي أن مدة بقاء الدنيا منذ الملة خمسمائة سنة ونقض ذلك بظهور كذبه ومستند الطبري في ذلك أنه نقل عن ابن عباس ان الدنيا جمعة من جمع الآخرة ولم يذكر ذلك دليلا وسره والله أعلم تقدير الدنيا بأيام خلق السموات والارض وهي سبعة ثم اليوم بالف سنة لقوله وان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون قال وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله صلى



الله عليه وسلم قال أجلكم في أجل من كان قبلكم من صلاة العصر إلى غروب الشمس وقال بعثت أنا والساعة كهاتين وأشار بالسبابة والوسطى وقدر ما بين صلاة العصر وغروب الشمس حين وصيرورة ظل كل شيء مثليه يكون على التقريب نصف سبع وكذلك وصل الوسطى على السبابة فتكون هذه المدة نصف سبع الجمعة كلها وهو خمسمائة سنة ويؤيده قوله صلى الله عليه وسلم لن يعجز الله أن يؤخر هذه الأمة نصف يوم فدل ذلك على أن مدة الدنيا قبل الملة خمسة آلاف وخمسمائة سنة وعن وهب بن منبه أنها خمسة آلاف وستمائة سنة أعنى الماضي وعن كعب أن مدة الدنيا كلها ستة آلاف سنة قال السهيلي وليس في الحديثين ما يشهد لشيء مما ذكره مع وقوع الوجود بخلافه فأما قوله لن يعجز الله أن يؤخر هذه الأمة نصف يوم فلا مقتضى نفي الزيادة على النصف وأما قوله بعثت أنا والساعة كهاتين فأما فيه الإشارة إلى التقرب وأنه ليس بينه وبين الساعة نبي غيره ولا شرع غير شرعه ثم رجع السهيلي إلى تعيين أمد الملة من مدرك آخر لو ساعده التحقيق وهو أنه جمع الحروف المقطعة في أوائل السور بعد حذف المكرر قال وهي أربعة عشر حرفاً يجمعها قولك (ألم يستطع نص حق كره) فاخذ عددها بحساب الجمل فكان سبعمائة وثلاثة (١) أضافه إلى المنقضى من الألف الآخرة قبل بعثته فهذه هي مدة الملة قال ولا يبعد ذلك أن يكون من مقتضيات هذه الحروف وفوائدها قلت وكونه لا يبعد لا يقتضى ظهوره ولا التعويل عليه والذي حمل السهيلي على ذلك إنما هو ما وقع في كتاب السير لابن اسحق في حديث ابنى أخطب من أحبار اليهود وهما أبو ياسر وأخوه حي حين سمعا من الأعراف المقطعة ألم وتأولاها على بيان المدة بهذا الحساب فبلغت إحدى وسبعين فاستقلا المدة وجاء حي إلى النبي صلى الله عليه وسلم يسأله هل مع هذا غيره فقال المص ثم استزاد الر ثم استزاد المر فكانت إحدى وسبعين ومائتين فاستطال المدة وقال قد لبس علينا أمرك يا محمد حتى لا ندرى أ قليلا أعطيت أم كثير أم ذهبوا عنه وقال لهم أبو ياسر ما يدريك لعله أعطى عددها كلها تسعمائة وأربع سنين قال ابن اسحق فزل قوله تعالى منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهاً ولا يقوم من القصة دليل على تقدير الملة بهذا العدد لان دلالة هذه الحروف على تلك الأعداد ليست طبيعية ولا عقلية وإنما هي بالتواضع والاصطلاح الذي يسمونه حساب الجمل نعم إنه هو قديم مشهور وقدم الاصطلاح لا يصير حجة وليس أبو ياسر وأخوه حي بمن يؤخذ رأيهم في ذلك دليلاً ولا من علماء اليهود لأنهم كانوا بادية بالحجاز غفلاً عن الصنائع والعلوم حتى عن علم شريعتهم وفقه كتابهم وملتهم وإنما يتلقفون مثل هذا الحساب كما تلتقفه العوام في كل ملة فلا ينهض للسهيلي دليل على ما ادعاه من ذلك ووقع في الملة في حدثنان دولتها على الخصوص مسند من الآثار اجمالى في حديث خرجه أبو داود عن حذيفة بن اليمان من طريق شيخه محمد بن يحيى الذهبي عن سعيد بن أبي مريم عن عبد الله بن فروخ

( ١ ) هذا العدد غير مطابق كما أن المترجم التركي لم يطابق في قوله ٩٣٠ وإنما المطابق للعروف المذكورة ٦٩٣ وهو الموافق لما سيذكره عن يعقوب الكندي قاله نصره

عن أسامة بن زيد الليثي عن أبي قبيصة بن ذؤيب عن أبيه قال قال حذيفة بن اليمان والله ما أدرى أنسى أصحابي أم تناسوه والله ما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم من قائد فئة إلى أن تنتفض الدنيا يبلغ من معه ثلاثمائة فصاعدا الا قد سماه لنا باسمه واسم أبيه وقبيلته وسكت عليه أبو داود وقد تقدم أنه قال في رسالته ما سكت عليه في كتابه فهو صالح وهذا الحديث إذا كان صحيحا فهو مجمل ويفتقر في بيان اجماله وتعيين مهماته إلى آثار أخرى تجود أسانيد ها وقد وقع اسناد هذا الحديث في غير كتاب السنن على غير هذا الوجه فوقع في الصحيحين من حديث حذيفة أيضا قال قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فينا خطيبا فمأرك شيئا يكون في مقامه ذاك إلى قيام الساعة الا حدث عنه حفظه من حفظه ونسبه من نسبه وقد علمه أصحابه هؤلاء اه ولفظ البخاري مأرك شيئا إلى قيام الساعة إلا ذكره وفي كتاب الترمذي من حيث أبي سعيد الخدري قال صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما صلاة العصر بنهار ثم قام خطيبا فلم يدع شيئا يكون إلى قيام الساعة إلا أخبرنا به حفظه من حفظه ونسبه من نسبه اه وهذه الأحاديث كلها محمولة على ما ثبت في الصحيحين من أحاديث الفتن والاشراط لا غير لأنه المعبود من الشارع صلوات الله وسلامه عليه في أمثاله هذه العمومات وهذه الزيادة التي تفرد بها أبو داود في هذا الطريق شاذة منكورة مع أن الأئمة اختلفوا في رجاله فقال ابن مريم في ابن فروخ أحاديثه منا كبر وقال البخاري يعرف منه وينكر وقال ابن عدي أحاديثه غير محفوظة وأسامة بن زيد وان خرج له في الصحيحين ووثقه بن معين فانما خرج له البخاري استشهادا وضعفه يحيى بن سعيد وأحمد ابن حنبل وقال أبو حاتم يكتب حديثه ولا يحتج به وأبو قبيصة بن ذؤيب مجهول فتضعف هذه الزيادة التي وقعت لأبي داود في هذا الحديث من هذه الجهات مع شذوذها كما مر وقد يستندون في حدثان الدول على الخصوص إلى كتاب الجفر ويزعمون أن فيه على ذلك كله من طريق الآثار والنجوم لا يزيدون على ذلك ولا يعرفون أصل ذلك ولا مستنده واعلم أن كتاب الجفر كان أصله أن هرون بن سعيد العجلي وهو رأس الزيدية كان له كتاب يروي عن جعفر الصادق وفيه علم ما سيقع لأهل البيت على العموم وبعض الأشخاص منهم على الخصوص وقع ذلك لجعفر ونظائره من رجالهم على طريق الكرامة والكشف الذي يقع لمثلهم عن الأولياء وكان مكتوبا عند جعفر في جلد ثور صغير فرواه عنه هرون العجلي وكتبه وسماه الجفر باسم الجلد الذي كتب منه لأن الجفر في اللغة هو الصغير وصار هذا الاسم علما على هذا الكتاب عندهم وكان فيه تفسير القرآن وما في باطنه من غرائب المعاني مروية عن جعفر الصادق وهذا الكتاب لم تتصل روايته ولا عرف عينه وإنما يظهر منه شواذ من الكلمات لا يصحها دليل ولو صح السند إلى جعفر الصادق لكان فيه نعم المستند من نفسه أو من رجال قومه فهم أهل الكرامات وقد صح عنه أنه كان يحذر بعض قرابته بوقائع تكون لهم فتصح كما يقول وقد حذر يحيى بن عمه زيد من مصر وعصا نجر وقاتل بالجوزجان كما هو معروف وإذا كانت الكرامة تقع لغيرهم فما ظنك بهم علما ودينا وآثارا من النبوة وعناية من الله بالأصل الكريم تشهد لفروعه الطيبة وقد ينقل بين أهل البيت

كثير من هذا الكلام غير منسوب إلى أحد وفي أخبار دولة العبيدين كثير منه وانظر ما حكاه ابن الرقيق في لقاء أبي عبد الله الشيعي لعبيد الله المهدي مع ابنه محمد الحبيب وما حدثاه به وكيف بعثاه إلى ابن حوشب داعيتهم باليمن فأمره بالخروج إلى المغرب وبت الدعوة فيه على علم لقنه أن دعوته تتم هناك وإن عبيد الله لما بنى المهدي بعد استفحال دولتهم بأفريقية قال بنيتها ليعتصم بها الفواطم ساعة من نهار وأرام موقف صاحب الحمار أبي يزيد بالمهدي وكان يسأل عن منتهى موقفه حتى جاءه الخبر يلوغه إلى المكان الذي عينه جده عبيد الله فأيقن بالظفر وبرز من البلد فزمه واتبعه إلى ناحية الزاب فظفر به وقتله ومثل هذه الأخبار عندهم كثيرة \* وأما النجومون فيستندون في حدثان الدول إلى الأحكام النجومية أما في الأمور العامة مثل الملك والدول فمن القرائن وخصوصا بين العلويين وذلك أن العلويين زحل والمشتري يقتربان في كل عشرين سنة مرة ثم يعود القرائن إلى برج آخر في تلك المثلثة من الثلاث الأيمن ثم بعده إلى آخر كذلك إلى أن يتكرر في المثلثة الواحدة ثلث عشرة مرة تستوي بوجه الثلاثة في ستين سنة ثم يعود فيستوي بها في ستين سنة ثم يعود ثلثة ثم رابعة فيستوي في المثلثة بثلث عشرة مرة وأربع عودات في مائتين وأربعين سنة ويكون انتقاله في كل برج على الثلاث الأيمن وينتقل من المثلثة إلى المثلثة التي تليها أعنى البرج الذي يلي البرج الأخير من القرائن الذي قبله من المثلثة وهذا القرائن الذي هو قرائن العلويين ينقسم إلى كبير وصغير ووسط فالكبير هو اجتماع العلويين في درجة واحدة من الفلك إلى أن يعود إليها بعد تسعائة وستين سنة مرة واحدة والوسط وهو اقتران العلويين في كل مثلثة اثنتي عشرة مرة وبعد مائتين وأربعين سنة ينتقل إلى مثلثة أخرى والصغير هو اقتران العلويين في درجة برج وبعد عشرين سنة يقتربان في برج آخر على تثليثه الأيمن في مثل درجة أو دقة تقه مثال ذلك وقع القرائن أول دقيقة من الحمل وبعد عشرين يكون في أول دقيقة من القوس وبعد عشرين يكون في أول دقيقة من الأسد وهذه كلها نارية وهذا كله قرائن صغير ثم يعود إلى أول الحمل بعد ستين سنة ويسمى دور القرائن وعود القرائن وبعد مائتين وأربعين ينتقل من النارية إلى التراب لأنها بعدها وهذا قرائن وسط ثم ينتقل إلى الهوائية ثم المائية ثم يرجع إلى أول الحمل في تسعائة وستين سنة وهو الكبير والقرائن الكبير يدل على عظام الأمور مثل تغيير الملك والدولة وانتقال الملك من قوم إلى قوم والوسائط على ظهور المتغلبين والطالبيين لملك والصغير على ظهور الخوارج والدعاة وخراب المدن أو عمرانها ويقع أثناء هذه القرائن التحسين في برج السرطان في كل ثلاثين سنة مرة ويسمى الرابع ورج السرطان هو طالع العالم وفيه وبال زحل وهبوط المريخ فتعظم دلالة هذا القرائن في الفتن والحروب وسفك الدماء وظهور الخوارج وحركة العساكر وعصيان الجند والوباء والقحط ويدوم ذلك أو ينتهي على قدر السعادة والنحوسة في وقت قرائنها على قدر تيسير الدليل فيه قال ابن جراس أحمد الحاسب في الكتاب الذي ألفه لنظام الملك ورجوع المريخ إلى العقرب له أثر عظيم في الملة الإسلامية لأنه كان دليلا فلولد النبوي كان عند قرائن العلويين ببرج العقرب فلما رجع هنالك حدث التشويش على الخلفاء وكثر المرض في أهل



العلم والدين ونقصت أحوالهم وربما نهضت بعض بيوت العبادة وقد يقال أنه كان عند قتل علي رضي الله عنه ومروان من بني أمية والمتوكل من بني العباس فأذا روعيت هذه الأحكام مع أحكام القرائن كانت في غاية الأحكام \* وذكر شاذان البلخي أن الملة تنتهي إلى ثلثمائة وعشرين وقد ظهر كذب هذا القول وقال أبو معشر يظهر بعد المائة والخمسين منها اختلاف كثير ولم يصح ذلك وقال جراس رأيت في كتب القدماء أن المنجمين أخبروا كسرى عن ملك العرب وظهور النبوة فيهم وأن دليلهم الزهرة وكانت في شرفها فيبقى الملك فيهم أربعين سنة وقال أبو معشر في كتاب القرائن القسمة إذا انتهت إلى السابعة والعشرين من الحوت فيها شرف الزهرة ووقع القرائن مع ذلك يرج العقرب وهو دليل العرب ظهرت حينئذ دولة العرب وكان منهم نبي ويكون قوة ملكه ومدته على ما بقي من درجات شرف الزهرة وهي إحدى عشرة درجة بتقريب من برج الحوت ومدة ذلك ستمائة وعشرين سنة وكان ظهور أبي مسلم عند انتقال الزهرة ووقع القسمة أول الحمل وصاحب الجند المشتري وقال يعقوب بن اسحق الكندي أن مدة الملة تنتهي إلى ستمائة وثلاث وتسعين سنة قال لأن الزهرة كانت عند قران الملة في ثمان وعشرين درجة وثلاثين دقيقة من الحوت فالباقي إحدى عشرة درجة وثمان عشرة دقيقة ودقائقها ستون فيكون ستمائة وثلاثا وتسعين سنة قال وهذه مدة الملة باتفاق الحكماء ويعضده الحروف الواقعة في أول السور بحذف المكرر واعتباره بحساب الجمل قلت وهذا هو الذي ذكره السهيلي والغالب أن الأول هو مستند السهيلي فيما نقلناه عنه قال جراس سأل هرمنافريد الحكيم عن مدة أردشير وولده ملوك الساسانية فقال دليل ملكه المشتري وكان في شرفه فيعطي أطوال السنين وأجودها أربع مائة وسبعاً وعشرين سنة ثم زيد الزهرة وتكون في شرفها وهي دليل العرب فيملك كون لأن طالع القرائن الميزان وصاحبه الزهرة وكانت عند القرائن في شرفها فدل أنهم يملكون ألف سنة وستين سنة وسأل كسرى أنوشروان وزيره بزجر الحكيم عن خروج الملك من فارس إلى العرب فأخبره أن القائم منهم يولد لخمس وأربعين من دولته ويملك المشرق والمغرب والمشتري يغوص إلى الزهرة وينتقل القرائن من الهوائية إلى العقرب وهو مائي وهو دليل العرب فهذه الأدلة تقضي للملة بمدة دور الزهرة وهي ألف وستون سنة وسأل كسرى أبرويز اليوس الحكيم عن ذلك فقال مثل قول بزجر حكيم وقال نوفيل الرومي المنجم في أيام بني أمية أن ملة الاسلام تبقى مدة القرائن الكبير تسعمائة وستين سنة فإذا عاد القرائن إلى برج العقرب كما كان في ابتداء الملة وتغير وضع الكواكب عن هيئتها في قران الملة حينئذ ما أن يفتر العمل به أو يتجدد من الأحكام ما يوجب خلاف الظن قل جراس واتفقوا على أن خراب العالم يكون باستيلاء الماء والنار حتى تهلك سائر المكنونات وذلك عندما يقع قلب الأسد أربعاً وعشرين درجة التي هي حد المريح وذلك بعد مضي تسعمائة وستين سنة وذكر جراس أن ملك زابلستان بعث إلى المأمون بحكيمه ذوبان أخفه به في هدية وأنه تصرف للمأمون في الاختيارات بحروب أخيه وبعقد اللواء لطاهر وأن المأمون أعظم حكمته فسأله عن مدة ملكهم فأخبروه بانقطاع الملك من عقبه واتصاله في ولد أخيه وأن العجم

يتغلبون على الخلافة من الديلم في دولة سنة خمسين و يكون ما يريد الله ثم يسوء حالهم ثم تظهر الترك من شمال المشرق فيملكونه إلى الشام والفرات وسيحون وسيملكون بلاد الروم ويكون ما يريد الله فقال له المأمون من أين لك هذا فقال من كتب الحكماء ومن أحكام صصه بن داهر الهندي الذي وضع الشطر نج قلت والترك الذين أشار إلى ظهورهم بعد الديلم السلجوقية وقد انقضت دولتهم أول القرن السابع قال جراس وانتقال القرن إلى المثلثة المائية من برج الحوت يكون سنة ثلاث وثمانين وثمانمائة ليزدجرد وبعدها إلى برج العقرب حيث كان قران الملة سنة ثلاث وخمسين قال والذي في الحوت هل هو أول الانتقال والذي في العقرب يستخرج منه دلائل الملة قال وتحويل السنة الأولى من القران الأولى في المثلثات المائية في ثاني رجب سنة ثمان وستين وثمانمائة ولم يستوف الكلام على ذلك وأما مستند المنجمين في دولة على الخصوص فمن القران الأوسط وهيئة الفلك عند وقوعه لأن له دلالة عندهم على حدوث الدولة وجهان هما من العمران والقائمين بهما من الأمم وعدد ملوكهم وأسمائهم وأعمارهم ونحلهم وأديانهم وعوائدهم وحروبهم كما ذكر أبو معشر في كتابه في القرائن وقد توجده هذه الدلالة من القران الأصغر إذا كان الأوسط دالا عليه فمن هذا يوجد الكلام في الدول \* وقد كان يعقوب بن اسحق الكندي منجم الرشيد والمأمون وضع في القرائن الكائنة في الملة كتابا سماه الشيعة بالجفر باسم كتابهم المنسوب إلى جعفر الصادق وذكر فيه فيما يقال حدثان دولة بني العباس وانها نهايته وأشار إلى انقراضها والحادثة على بغداد انها تقع في انتصاف المائة السابعة وأن باقراضها يكون انقراض الملة ولم تقف على شيء من خبر هذا الكتاب ولا رأينا من وقف عليه ولعله غرق في كتبهم التي طرحها هلاك كمالك التتر في دجلة عند استيلائهم على بغداد وقتل المعتصم آخر الخلفاء وقد وقع بالمغرب جزء مذبوب إلى هذا الكتاب يسمونه الجفر الصغير والظاهر أنه وضع لبنى عبد المؤمن لذكر الأولين من ملوك الموحدية فيه على التفصيل ومطابقة من تقدم عن ذلك من حدثانه وكذب ما بعده وكان في دولة بني العباس من بعد الكندي منجمون وكتب في الحدثان وانظر ما نقله الطبري في أخبار المهدي عن أبي بديل من أصحاب صنائع الدولة قال بعث إلى الربيع والحسن في غزاتهم مع الرشيد أيام أبيه ففتحهما جوف الليل فاذا عندهما كتاب من كتب الدولة يعني الحدثان واذا مدة المهدي فيه عشر سنين فقلت هذا الكتاب لا يخفى على المهدي وقدمضى من دولته ماضى فاذا وقف عليه كنتم قد نعيم اليه نفسه قال فما الحيلة فاستدعيت عنبسة الوراق مولى آل بديل وقلت له انسخ هذه الورقة واكتب مكان عشر أربعين ففعل فوالله لو لاني رأيت العشرة في تلك الورقة والأربعين في هذه ما كنت أشك أنها هي ثم كتب الناس من بعد ذلك في حدثان الدول منظوما ومثورا ورجز اما شاء الله أن يكتبوه وبأيدى الناس متفرقة كثير منها وتسمى الملاحم وبعضها في حدثان الملة على العموم وبعضها في دولة على الخصوص وكلها منسوبة الى مشاهير من أهل الخليفة وليس منها أصل يعتمد على روايته عن واضعه المنسوب اليه فمن هذه الملاحم بالمغرب قصيدة بن مرانة من بحر الطويل على روى الزاء وهي متداولة بين الناس وتحسب العامة أنها من

الحدثان العام فيطلقون الكثير منها على الحاضر والمستقبل والذي سمعناه من شيوخنا أنها مخصوصة بدولة لمتونة لأن الرجل كان قبيل دولتهم وذكروا فيها استيلاءهم على سبتة من يدموا إلى بني حمود وملكهم لعدوة الأندلس ومن الملاحم بيد أهل المغرب أيضا قصيدة تسمى التبعية أولها  
 طربت وماذا منى طرب \* وقد يطرب الطائر المغتضب  
 وما ذاك منى للهو أراه \* ولكن لتذكر بعض السبب  
 قريبا من خمسمائة بيت أو ألف فيما يقال ذكر فيها كثيرا من دولة الموحدين وأشار فيها إلى الفاطمي وغيره والظاهر أنها مصنوعة ومن الملاحم بالمغرب أيضا ملعبة من الشعر الزجلي منصوبة لبعض اليهود ذكر فيها أحكام القرانات لعصره العلويين والتحسين وغيرهما وذكروا ميمته قنيلافاس وكان كذلك فيما زعموه وأوله

في صبغ ذا الأزرق لسرفه خيارا \* فافهموا يا قوم هذى الأشارا  
 نجم زحل أخبر بذى العلاما \* وبدل الشكلا وهي سلاما  
 شاشية زرقا بدل العماما \* وشاش أزرق بدل الغرارا

يقول في آخره

قد تم ذا التجنيس لأنسان يهودى \* يصلب ببلدة فارس في يوم عيد  
 حتى يحيه الناس من البوادي \* وقتله يا قوم على الفراد

وأياته نحو الخمسمائة وهي في القرانات التي دلت على دولة الموحدين ومن ملاحم المغرب أيضا قصيدة من عروض المتقارب على روى الباء في حدثان دولة بني أبي حفص بتونس من الموحدين منسوبة لابن الأبار وقال لي قاضي قسطنطينية الخطيب الكبير أبو علي بن باديس وكان بصيرا بما يقوله وله قدم في التتجيم فقال لي أن هذا ابن الأبار ليس هو الحافظ الأندلسي الكاتب مقتول المستنصر وإنما هو رجل خياط من أهل تونس تواطأت شهرته مع شهرة الحافظ وكان والدي رحمه الله تعالى ينشد هذه الأبيات من هذه الملحمة وبقي بعضها في حفظي مطلعها

عذيري من زمن قلب \* يغرب يبارقه الأئشب  
 ومنها ويبعث من جيشه قائدا \* ويبقى هناك على مر قب  
 فتأتى إلى الشيخ أخباره \* فيقبل كالجمل الأءجرب  
 ويظهر من عدله سيرة \* وتلك سياسة مستجلب

ومنها في ذكر أحوال تونس على العموم

فأما رأيت (١) الرسوم انحمت \* ولم يرع حق لذي منصب

(١) قوله فلما رأيت أصله فان رأيت زبدت ما أدعمت في أن الشرطة المحذوف نونها خطأ وفي نسخة فلما رأيت والاولى هي الموجودة في النسخة التنسية قاله نصر الله



غخذ في الترحل عن تونس \* وودع معالمها واذهب  
فسوف تكون بها فتنة \* تضيف البريء إلى المذنب  
ووقفت بالمغرب على ملحمة أخرى في دولة بنى أبي حفص هؤلاء بتونس فيها بعد السلطان  
أبي يحيى الشهير عاشر ملوكهم ذكر محمد أخيه من بعده يقول فيها  
وبعد أبي عبد الله شقيقه \* ويعرف بالوثاب في نسخة الأصل  
إلا أن هذا الرجل لم يملكها بعد أخيه وكان يعنى بذلك نفسه إلى أن هلك ومن الملاحم في المغرب أيضا  
الملعبة المنسوبة إلى الهوشني على لغة العامة في عروض البلد التي أولها

دعني بدمع الهتان \* فترف الأمطار ولم تفر  
واستقت كلها الويدان \* واني تملى وتنغدر  
البلاد كلها تروى \* فأولى ماميل ما تدرى  
ما بين الصيف والشتوى \* والعام والربيع تجرى  
قل حين صحت الدعوى \* دعني بنكي ومن عذر  
أنادى من ذي الأزمان \* ذا القرن اشتد وتمرى

وهي طويلة ومحفوظة بين عامة المغرب الأقصى والغالب عليها الوضع لأنه لم يصح منها قول إلا على تأويل  
تحرقة العامة أو الحارث فيه من ينتحلها من الخاصة ووقفت بالمشرق على ملحمة منسوبة لابن العربي  
الحاتمي في كلام طويل شبه ألباز لا يعلم تأويله إلا الله لخلله أوافق عديدة ورموز ملغوزة وأشكال  
حيوانات تامة ورؤس مقطعة وتماثيل من حيوانات غريبة وفي آخرها قصيدة على روى اللازم والغالب  
أنها كلها غير صحيحة لأنهم لم تنشأ عن أصل علمي من نجامة ولا غيرها وسمعت أيضا أن هناك ملاحم أخرى  
منسوبة لابن سينا وابن عقب وليس في شيء منها دليل على الصحة لأن ذلك إنما يؤخذ من القرائن ووقفت  
بالمشرق أيضا على ملحمة من حدثان دولة الترك منسوبة إلى رجل من الصوفية يسمى الباجريقي وكلها  
ألباز بالحروف أولها

إن شئت تكشف سر الجعفر يائسائي \* من علم جفر وصي والد الحسن  
فافهم وكن واعيا حرفا وجملته \* والوصف فافهم كفعل الحاذق الفطن  
أما الذي قبل عصرى لست أذكره \* لكنني أذكر الآتي من الزمن  
بشهرس بيبرس يبقى بعد خمستها \* وحاء ميم بطيش نام في الكن  
شين له أثر من تحت سرته \* له القضاء قضى أي ذلك المذن  
فمصر له والشأم مع أرض العراق له \* وأذربيجان في ملك إلى اليمن  
ومنها وآل بوران لما نال طاهرهم \* الفاتك الباتك المعنى بالسمن  
خلع ضعيف السين سين أتى \* لالوفاق ونون ذي قرن (١)

قرم شجاع له عقل ومشورة \* يبقى بحاء وأين بعد ذو سمن  
 ومنها من بعداء من الأعوام قتله \* يلى المشورة ميم الملك ذو اللسن  
 ومنها هذا هو الأعرج الكلبي فأعن به \* فى عصره فتن ناهيك من فتن  
 يأتى من الشرق فى جيش يقدمهم \* عار عن القاف قاف جد بالفتن  
 بقتل دال ومثل الشام أجمعها \* أبدت بشجو على الأهلين والوطن  
 إذا أتى زلزلت يايوح مصر من الزلزال مازال حاء غير مقتطن  
 طاء وظاء وعين كلهم حبسوا \* هلكا وينفق أموالا بلا ثمن  
 يسير القاف قافا عند جمعهم \* هون به أن ذاك الحصن فى سكن  
 وينصبون أخاه وهو صالحهم \* لاسلم الألف سين لذاك نبى  
 تمت ولايتهم بالحاء لا أحد \* من السنين يدانى الملك فى الزمن  
 ويقال أنه أشار إلى الملك الظاهر وقدم أبيه عليه بمصر

يأتى إليه أبوه بعد هجرته \* وطول غيته والشظف والزرن  
 وأبياتها كثيرة والغالب أنها موضوعة ومثل صنعها كان فى القديم كثيرا ومعروف الانتحال  
 (حكى) المؤرخون لاخبار بغداد أنه كان بها أيام المقتدر وراق ذكى يعرف بالديان إلى ييل الأوراق  
 ويكتب فيها بخط عتيق رمز فيه بحروف من أسماء أهل الدولة ويشير بها إلى ما يعرف ميلهم اليه من  
 أحوال الرفعة والجاه كأنها ملاحم ويحصل على ما يريد منهم من الدنيا وأنه وضع فى بعض دفاتره ميا مكررة  
 ثلاث مرات وجاء به إلى مفلح مولى المقتدر فقال له هذا كناية عنك وهو مفلح مولى المقتدر وذكر عنه  
 ما يرضاه ويناله من الدولة ونصب لذلك علامات يمويه بها عليه فبذل له ما أغناه به ثم وضعه للوزير ابن  
 القاسم بن وهب على مفلح هذا وكان معزولا فجاءه بأوراق مثلها وذكر اسم الوزير بمثل هذه الحروف  
 وبعلامات ذكرها وأنه يلى الوزارة للثانى عشر من الخلفاء وتستقيم الأمور على يديه ويقهر الأعداء  
 وتعمر الدنيا فى أيامه وأوقف مفلحا هذا على الأوراق وذكر فيها كوائن أخرى وملاحم من هذا  
 النوع مما وقع ومما لم يقع ونسب جميعه إلى دانيال فأعجب به مفلح ووقف عليه المقتدر واهتدى من  
 تلك الأمور والعلامات إلى ابن وهب وكان ذلك سببا لوزارته بمثل هذه الحيلة العريقة فى الكذب  
 والجهل بمثل هذه الألفاظ والظاهر أن هذه الملحمة التى ينسبونها إلى الباجرى من هذا النوع \* ولقد  
 سألت أكل الدين ابن شيخ الحنفية من العجم بالديار المصرية عن هذه الملحمة وعن هذا الرجل الذى تنسب  
 إليه من الصوفية وهو الباجرى وكان عارفا بطرائقهم فقال كان من القلندرية المبتدعة فى حلق اللحية  
 وكان يتحدث عما يكون بطريق الكشف ويومى إلى رجال معينين عنده ويلغز عليهم بحروف  
 يعينها فى ضمنها لمن يراه منهم وربما يظهر نظم ذلك فى أبيات قليلة كان يتعاهدها فتنوقلت عنه وولع  
 الناس بها وجعلوها ملحمة مرموزة وزاد فيها الخراصون من ذلك الجنس فى كل عصر وشغل العامة

بفك رموزها وهو أمر محتج إذ الرمز إنما يهدي إلى كشفه قانون يعرف قبله ويوضع له وأما مثل هذه الحروف فدلتها على المراد منها مخصوصة بهذا النظم لا يتجاوزها فرأيت من كلام هذا الرجل الفاضل شفاء لما كان في النفس من أمر هذه الملحمة وما كنا لننتدى لولا أن هدانا الله والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

### ﴿ الفصل الرابع من الكتاب الأول ﴾

في البلدان والامصار وسائر العمران وما يعرض في ذلك من الأحوال وفيه سوابق ولواحق

١ ﴿ فصل في أن الدول أقدم من المدن والامصار وانها إنما توجد ثانية عن الملك ﴾

وبيانه أن البناء واخطاط المنازل إنما هو من منازع الحضارة التي يدعوا اليها الترف والدعة كما قدمناه وذلك متأخر عن البداوة ومنازعها وأيضا فالمدن والامصار ذات هياكل وأجرام عظيمة وبناء كبير وهي موضوعة للعموم لا للخصوص فتحتاج إلى اجتماع الأيدي وكثرة التعاون وليست من الأمور الضرورية للناس التي تعم بها البلوى حتى يكون نزوعهم إليها اضطرارا بل لابد من إكراههم على ذلك وسوقهم إليه مضطهدين بعضا الملك أو مرغبين في الثواب والأجر الذي لا يفي بكثرة الملك والدولة فلا بد في تمصير الامصار واخطاط المدن من الدولة والملك ثم إذا بنيت المدينة وكل تشييدها بحسب نظر من شيدها وبما اقتضته الأحوال السماوية والأرضية فيها فعمر الدولة حينئذ عمرها فان كان عمر الدولة قصيرا وقف الحال فيها عند انتهاء الدولة وتراجع عمراتها وخربت وان كان أمد الدولة طويلا ومدتها منفسحة فلا تزال المصانع فيها تشاد والمنازل الرحيمة تكثر وتتعدو نطاق الأسواق يتباعد وينفسح إلى أن تتسع الخطة وتبعد المسافة وينفسح ذرع المساحة كما وقع ببغداد وأمثالها \* ذكر الخطيب في تاريخه أن الحمامات بلغ عددها ببغداد لعهد المأمون خمسة وستين ألف حمام وكانت منسلة على مدن وأمصار متلاصقة ومتقاربة تتجاوز الأربعين ولم تكن مدينة وحدها يجمعها سور واحد لا فراط العمران وكذا حال القيروان وقرطبة والمهديّة في الملة الإسلامية وحال مصر القاهرة بعدها فيما يبلغنا هذا العهد وأما بعد انقراض الدولة المشيدة للمدينة فاما أن يكون لضواحي تلك المدينة ومقاربها من الجبال والبساتين بادية يعمدها العمران دائما فيكون ذلك حافظا لوجودها ويستمر عمرها بعد الدولة كما تراه بفاس وبجاية من المغرب وبغراق العجم من المشرق الموجود لها العمران من الجبال لأن أهل البداوة إذا انتهت أحوالهم إلى غاياتها من الرفه والكسب تدعو إلى الدعة والسكون الذي في طبيعة البشر فينزلون المدن والامصار ويتأهلون وأما إذا لم يكن لتلك المدينة المؤسسة مادة تفيدها العمران بترادف الساكن من بدوها فيكون انقراض الدولة خرقا لسياجها فيزول حفظها ويتناقض عمراتها شيئا فشيئا إلى أن يذعر ساكنها وتخرب كما وقع بمصر وبغداد والكوفة



بالمشرق والقيروان والمهدية وقلعة بني حماد بالمغرب وأمثالها فتفهمه وربما ينزل المدينة بعد انقراض مخطيها الأولين ملك آخر ودولة ثانية يتخذها قرارا وكرسيا يستغنى بها عن اخطاط مدينة ينزلها فتحفظ تلك الدولة سياجها وتترايد مبانيها ومصانعها بتزايد أحوال الدولة الثانية وترفها وتستجد بعمرانها عمرا آخر كما وقع بفاس والقاهرة لهذا العهد والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

## ٢ \* فصل في أن الملك يدعو إلى نزول الأمصار \*

وذلك أن القبائل والعصائب إذا حصل لهم الملك اضطروا للاستيلاء على الأمصار لا مريين أحدهما يدعو إليه الملك من الدعة والراحة وخط الاستكمال ما كان ناقصا من أمور العمران في البدو الثاني دفع ما يتوقع على الملك من أمر المنازعين والمشاعين لأن المصر الذي يكون في نواحيهم ربما يكون ملجأ لمن يروم منازلهم والخروج عليهم واتزاع ذلك الملك الذي سمو إليه من أيديهم فيعتمد بذلك المصر ويغالهم ومغالبة المصر على نهاية من الصعوبة والمشقة والمصري يقوم مقام العساكر المتعددة لما فيه من الامتناع ونكاية الحرب من وراء الجدران من غير حاجة إلى كثير عدد ولا عظيم شوكة لأن الشوكة والعصاية إنما احتيج إليهما في الحرب للثبات لما يقع من بعد كرة القوم بعضهم على بعض عند الجولة وثبات هؤلاء بالجدران فلا يضطرون إلى كير عصابة ولا عدد فيكون حال هذا الحصن ومن يعتصم به من المنازعين مما يفت في عضد الأمة التي تروم الاستيلاء ويغضد شوكة استيلائها فإذا كانت بين أجنابهم أمصار انتظموها في استيلائهم للأمن مثل هذا الانحرام وإن لم يكن هناك مصر استحدثوه ضرورة لتكميل عمرانهم أولا وخط أقطارهم وليكون شجا في حلق من يروم العزة والامتناع عليهم من طوائفهم وعصائهم فتعين أن الملك يدعو إلى نزول الأمصار والاستيلاء عليها والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق لأرب سواه

## ٣ \* فصل في أن المدن العظيمة والهيما كل المرتفعة إنما يشيدها الملك الكثير \*

قد قدمنا ذلك في آثار الدولة من المباني وغيرها وأنها تكون على نسبتها وذلك أن تشييد المدن إنما يحصل باجتماع الفعلة وكثرتهم وتعاونهم فإذا كانت الدولة عظيمة متسعة الممالك حشر الفعلة من أقطارها وجمعت أيديهم على عملها وربما استعين في ذلك في أكثر الأمر بالهندام الذي يضاعف القوى والقدر في حمل أثقال البناء لعجز القوة البشرية وضعفها عن ذلك كالمثال وغيره وربما يتوهم كثير من الناس إذا نظر إلى آثار الأقدمين ومصانعهم العظيمة مثل إيوان كسرى وأهرام مصر وحناء المعلقة وشرشال بالمغرب إنما كانت بقدرهم متفرقين أو مجتمعين فيتخيل لهم أجساما تناسب ذلك أعظم من هذه بكثير في طولها وقدرها التناسب بينها وبين القدر التي صدرت تلك المباني عنها ويعفل عن شأن الهندام والمنحال وما اقتضته في ذلك الصناعة الهندسية وكثير من المتغلبين في البلاد يعلين في شأن البناء واستعمال الحيل في ثقل الاجرام عند أهل الدولة المعنيين بذلك من العجم ما يشهد له بما قلناه عيانا وأكثر آثار الأقدمين لهذا العهد تسميها العامة عادية نسبة إلى قوم عاد ومصانعهم إنما عظمت لعظم أجسامهم وتضاعف قدرهم

وليس كذلك فقد نجد آثارا كثيرة من آثار الذين نعرف مقادير أجسامهم من الأثام وهي في مثل ذلك العظم أو أعظم كايوان كسرى ومباني العبيديين من الشيعة بأفريقية والصنهاجيين وأثرهم باد إلى اليوم في صومعة قلعة بني حماد وكذلك بناء الأغالبة في جامع القيروان وبناء الموحدين في رباط الفتح ورباط السلطان أبي سعيد لعهد أربعين سنة في المنصورة بأزاء تلمسان وكذلك الحنايا التي جلب اليها أهل قرطاجنة الماء في القناة الراكبة عليها ماثلة أيضا لهذا العهد وغير ذلك من المباني والهياكل التي نقلت إليها أخبار أهلها قريبا وبعيدا وتيقنا أنهم لم يكونوا بافراط في مقادير أجسامهم وإنما هذارأي ولعب به القصاص عن قوم عاد وثمود والعمالة ونجد بيوت ثمود في الحجر منحوتة إلى هذا العهد وقد ثبت في الحديث الصحيح أنها بيوتهم يمر بها الركب الحجازي أكثر السنين ويشاهدونها لا تزيد في جوها ومساحتها وسمكها على التعاهد وانهم ليلاعون فيما يعتقدون من ذلك حتى أنهم ليزعمون أن عوج بن عناق من جيل العمالة كان يتناول السمك من البحر طريا فيشويه في الشمس يزعمون بذلك أن الشمس حارة فيما قرب منها ولا يعلمون أن الحرفيا لدينا هو الضوء لا انعكاس الشعاع بمقابلة سطح الأرض والهواء وأما الشمس في نفسها فغير حارة ولا باردة وإنما هي كوكب مضى لامزاج له وقد تقدم شيء من هذا في الفصل الثاني حيث ذكرنا أن آثار الدولة على نسبة قوتها في أصلها والله يخلق ما شاء ويحكم ما يريد

#### ٤ \* فصل في أن الهياكل العظيمة جدا لا تستقل بذاتها الدولة الواحدة \*

والسبب في ذلك ما ذكرناه من حاجة البناء إلى التعاون ومضاعفة القدر البشرية وقد تكون المباني في عظمها أكثر من القدر مفردة أو مضاعفة بالهندام كقلناه فيحتاج إلى معاودة قدر أخرى مثلها في أزمنة متعاقبة إلى أن تتم فيتبدى الأول منهم بالبناء ويعقبه الثاني والثالث وكل واحد منهم قد استكمل شأنه في حشر الفعلة وجمع الأيدي حتى يتم القصد من ذلك ويكمل ويكون ماثلا للعيان يظنه من يراه من الآخرين أنه بناء دولة واحدة وانظر في ذلك ما نقله المؤرخون في بناء سد مأرب وأن الذي بناه سد بن يشجب وساق إليه سبعين واديا وعاقه الموت عن إتمامه فأتته ملوك حمير من بعده ومثل هذا ما نقل في بناء قرطاجنة وقتاتها الراكبة على الحنايا العادية وأكثر المباني العظيمة في الغالب هذا شأنها ويشهد لذلك أن المباني العظيمة لعهدنا نجد الملك الواحد يشرع في اختطاطها وتأسيسها فإذا لم يتبع أثره من بعده من الملوك في إتمامها بقيت بحالها ولم يكمل القصد فيها ويشهد لذلك أيضا أننا نجد آثارا كثيرة من المباني العظيمة تعجز الدول عن هدمها وتخريبها مع أن الهدم أسير من البناء بكثير لأن الهدم رجوع إلى الأصل الذي هو العدم والبناء على خلاف الأصل فإذا وجدنا بناء تضعف قوتنا البشرية عن هدمه مع سهولة الهدم علمنا أن القدرة التي أسسته مفطرة القوة وأنها ليست أثر دولة واحدة وهذا مثل ما وقع للعرب في إيوان كسرى لما اعترم الرشيد على هدمه وبعث إلى يحيى بن خالد وهو في محبسه يستشير في ذلك فقال يا أمير المؤمنين لا تفعل وأتركه ماثلا يستدل به على عظم ملك آبائك الذين سلبوا الملك لأهل ذلك الهيكل

فاتهمه في النصيحة وقال أخذته النعرة للعجم والله لأصرعنه وشرع في هدمه وجمع الأيدي عليه واتخذ له القووس وحماه بالنار وصب عليه الخل حتى إذا أدركه العجز بعد ذلك كله وخاف الفضيحة بعث إلى يحيى يستشيرهُ ثانياً في التجافي عن الهدم فقال يا أمير المؤمنين لا تفعل واستمر على ذلك لئلا يقال عجز أمير المؤمنين وملك العرب عن هدم مصنع من مصانع العجم فعرفها الرشيد وأقصر عن هدمه وكذلك اتفق للمأمون في هدم الأهرام التي بمصر وجمع القعلة لهدمها فلم يحل بطائل وشرعوا في تقيدها فأتوا إلى جوبين الحائط الظاهر وما بعده من الحيطان وهناك كان منتهى هدمهم وهو إلى اليوم فيما يقال منفذ ظاهر ويزعم الزعمون أنه وجد ركازا بين تلك الحيطان والله أعلم وكذلك حنايا المعلقة إلى هذا العهد تحتاج أهل مدينة تونس إلى انتخاب الحجارة لنائمهم وتستجد الصانع حجارة تلك الحنايا فيحاولون على هدمها الأيام العديدة ولا يسقط الصغير من جدرانها إلا بعد عصب الريق وتجمع له المحافل المشهورة شهدت منها في أيام صباى كثيرا والله خلقكم وما تعملون

#### ٥ فصل فيما يجب مراعاته في أوضاع المدن وما يحدث إذا أغفل عن تلك المراعات

( إعلم ) أن المدن قرار يتخذها الأمم عند حصول الغاية المطلوبة من الترف ودواعيه فتؤثر الدعة والسكون وتتوجه إلى اتخاذ المنازل للقرار ولما كان ذلك للقرار والمأوى وجب أن يراعى فيه دفع المضار بالحماية من طوارقها وجلب المنافع وتسهيل المرافق لها فأما الحماية من المضار فيراعى لها أن يدار على منازلها جميعا سياج الأسوار وأن يكون وضع ذلك في متمنع من الأمكنة أما على هضبة متوعدة من الجبل وأما باستدارة بحر أو نهر بها حتى لا يوصل إليها إلا بعد العبور على جسر أو قنطرة فيصعب منالها على العدو ويتضاعف امتناعها وحصنها ومما يراعى في ذلك للحماية من الآفات السماوية طيب الهواء للسلامة من الأمراض فإن الهواء إذا كان راسا كاخيتا أو مجاورا للمياه الفاسدة أو منافع متعفنة أو مروج خبيثة أسرع إليها العفن من مجاورتها فأسرع المرض للحيوان الكائن فيه لاحالة وهذا ما شاهدو المدن متى لم يراع فيها طيب الهواء كثيرة الأمراض في الغالب وقد اشتهر بذلك في قطر المغرب بلد قابس من بلاد الجريد بأفريقية فلا يكاد ساكنها أو طارقها يخلص من حمى العفن بوجه ولقد يقال أن ذلك حادث فيها ولم تكن كذلك من قبل وتقل البكري في سبب حدوثه أنه وقع فيها حفر ظهر فيه إناء من نحاس مختوم بالرصاص فلما فاض ختامه صعد منه دخان إلى الجو وانقطع وكان ذلك مبدءا أمراض الحماية فيه وأراد بذلك أن الاناء كان مشتملا على بعض أعمال الطلسمات الوبائية وأنه ذهب سره بندها به فرجع إليها العفن والوباء وهذه الحكاية من مذاهب العامة ومباحثهم الركيكة والبكري لم يكن من نباهة العلم واستنارة البصيرة بحيث يدفع مثل هذا أو يتبين خرفه فنقله كما سمعوه والذي يكشف لك الحق في ذلك أن هذه الأهوية العفنة أكثر ما يهيجها التعفن الأجسام وأمراض الحماية ركودها فإذا تخللتها الريح وتفتشت وذهبت بها عينا وشمالا لا تخف شأن العفن والمرض البادى منها للحيوانات والبلد إذا كان كثير الساكن وكثرت



حركات أهله فيتموج الهواء ضرورة وتحدث الريح المتخللة للهواء الراكد ويكون معينه على الحركة والتموج وإذا خف الساكن لم يجد الهواء معيناً على حركته وتموجه وبقي ساكناً راکداً وعظم غفنه وكثر ضرره وبلد قابس هذه كانت عندما كانت أفريقية مستجدة العمران كثيرة الساكن تموج بأهلها موجاً فكان ذلك معيناً على تموج الهواء واضطرابه وتخفيف الأذى منه فلم يكن فيها كثير عفن ولا مرض وعند ما خف ساكنها ركد هوائها المتعفن بفساد مياهها فكثر العفن والمرض فهذا وجهه لا غير وقد رأينا عكس ذلك في بلاد وضعف ولم يراع فيها طيب الهواء وكانت أولاً قليلة الساكن فكانت أمراضها كثيرة فلما كثر ساكنها انتقل حالها عن ذلك وهذا مثل دار الملك بفارس لهذا العهد المسمى بالبلد الجديد وكثير من ذلك في العالم فتفهمه تجد ما قلته لك وأما جلب المنافع والمرافق للبلد فيراعى فيه أمور منها الماء بأن يكون البلد على نهر أو بازائها عيون غلبة فأن وجود الماء قريباً من البلد يسهل على الساكن حاجة الماء وهي ضرورة فيكون لهم في وجوده رفقة عظيمة عامة ومما يراعى من المرافق في المدن طيب المراعى لسائمتهم إذ صاحب كل قرار لا بد له من دواجن الحيوان للتناج والضرع والركوب ولا بد لها من المراعى فإذا كان قريباً طيباً كان ذلك أرفق بحالهم لما يعانون من المشقة في بعده ومما يراعى أيضاً المزارع فن الزروع هي الأقوات فإذا كانت مزارع البلد بالقرب منها كان ذلك أسهل في اتخاذه وأقرب في تحصيله ومن ذلك الشجر للحطب والبناء فإن الحطب مما تم البلوى في اتخاذه لو قود النيران للاصطلاء والطبخ والحطب أيضاً ضروري لسقفهم وكثير مما يستعمل فيه الحطب من ضرورياتهم وقد يراعى أيضاً قربها من البحر لتسهيل الحاجات القاصية من البلاد النائية إلا أن ذلك ليس بمثابة الأول وهذه كلها متفاوتة بتفاوت الحاجات وماتدعو إليه ضرورة الساكن وقد يكون الواضع غفلاً عن حسن الاختيار الطبيعي أو إغمايراعى ما هو أهم على نفسه وقومه ولا يذكّر حاجة غيرهم كفاعله العرب لأول الاسلام في المدن التي اختطوها بالعراق وأفريقية فانهم لم يراعوا فيها إلا الأهم عندهم من مراعى الابل وما يصلح لها من الشجر والماء الملح ولم يراعوا الماء ولا المزارع ولا الحطب ولا مراعى السائمة من ذوات الظلف ولا غير ذلك كالقيروان من الكوفة والبصرة وأمثالها ولهذا كانت أقرب إلى الخراب لما لم تراعى فيها الأمور الطبيعية

﴿ فصل ﴾ ومما يراعى في البلاد الساحلية التي على البحر أن تكون في جبل أو تكون بين أمة من الأمم موفرة العدد تكون صريحاً للمدينة متى طرقها طارق من العدو والسبب في ذلك أن المدينة إذا كانت حاضرة البحر ولم يكن بساحتها عمران للقبائل أهل العصبية ولا موضعاً متوعراً من الجبل كانت في غرة للبيات وسهل طرقها في الأساطيل البحرية على عدوها وتحيفه لما يأمن من وجود الصريح لها وإن الحضر المتعدين للدعة قد صاروا عيالاً وخرجوا عن حكم المقاتلة وهذه كالا سكندرية من المشرق وطرابلس من المغرب وبونة وسلاو متى كانت القبائل والعصائب متوطنين بقربها بحيث يبلغهم الصريح والنفير وكانت متوعرة المسالك على من يرومها باختطاطها في هضاب الجبال وعلى أسنمتها كان لها بذلك منعة من العدو ويئسوا من طرقها لما يكابدونه من وعرها وما يتوقعونه من إجابة صريحها كافي سبته

وبحماية وبلد القل على صغرها فافهم ذلك واعتبره في اختصاص الاسكندرية باسم الشجر من لدن الدولة العباسية مع أن الدعوة من ورثائها بركة وافريقية وإنما اعتبر في ذلك المخافة المتوقعة فيها من البحر لسهولة وضعها ولذلك والله أعلم كان طروق العدو للاسكندرية وطرابلس في الملة مرات متعددة والله تعالى أعلم

## ٦ \* فصل في المساجد والبيوت العظيمة في العالم \*

﴿ اعلم ﴾ ان الله سبحانه وتعالى فضل من الأرض بقاعا اختصها بتشريفه وجعلها مواطن لعبادته يضاعف فيها الثواب وتنمو بها الأجور وأخبرنا بذلك على السنن رسله وأنبيائه لطفًا بعباده وتسهيلًا لطرق السعادة لهم \* وكانت المساجد الثلاثة هي أفضل بقاع الأرض حسبما في الصحيحين وهي مكة والمدينة وبيت المقدس أما البيت الحرام الذي بمكة فهو بيت ابراهيم صلوات الله وسلامه عليه أمره الله ببنائه وأن يؤذن في الناس بالحج اليه فبناه هو وابنه اسمعيل كانصه القرآن وقام بما أمره الله فيه وسكن اسمعيل به مع هاجرو من نزل معهم من جرم إلى أن قبضهما الله ودفنا بالحجر منه \* وبيت المقدس بناه داود وسليمان عليهما السلام أمرهما الله ببناء مسجده ونصب هياكله ودفن كثير من الأنبياء من ولد اسحاق عليه السلام حواله \* والمدينة مهاجر نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه أمره الله تعالى بالهجرة اليها واقامة دين الاسلام بها فبنى مسجده الحرام بها وكان ملحده الشريف في تربتها فهذه المساجد الثلاثة قرة عين المسامين ومهوى أفئدتهم وعظمة دينهم وفي الآثار من فضلها ومضاعفة الثواب في مجاورتها والصلاة فيها كثير معروف فلنشر إلى شيء من الخبر عن أولية هذه المساجد الثلاثة وكيف تدرجت أحوالها إلى أن كل ظهورها في العالم \* (فأما مكة) فأوليتها فيما يقال أن آدم صلوات الله عليه بناها قبالة البيت المعمور ثم هدمها الطوفان بعد ذلك وليس فيه خبر صحيح يعول عليه وإنما يقتبسوه من محل الآية في قوله وإذا رفع ابراهيم القواعد من البيت واسمعيل ثم بعث الله ابراهيم وكان من شأنه وشأن زوجته سارة وغيرها من هاجرها هو معروف وأوحى الله اليه أن يترك ابنه اسمعيل وأمه هاجر بالقلاة فوضعهما في مكان البيت وسار عنهما وكيف جعل الله لهما من اللطف في نبع ماء زمزم ومرور الرقعة من جرم بهما حتى احتملوهما وسكنوا اليهما ونزلوا معهما حوالى زمزم كما عرف في موضعه فاتخذ اسمعيل بموضع الكعبة يتأوى اليه وأدار عليه سياج من الردم وجعله زربالغنمه وجاء ابراهيم صلوات الله عليه مرارا لزيارته من الشام أمر في آخرها ببناء الكعبة مكان ذلك الزرب فبناه واستعان فيه بابنه اسمعيل ودعا الناس إلى حجه وبقى اسمعيل ساكنابه ولما قبضت أمه هاجر وقام بنوه من بعده بأمر البيت مع أحوالهم من جرم ثم العماليق من بعدهم واستمر الحال على ذلك والناس يهرعون اليها من كل أفق من جميع أهل الخليقة لا من بنى اسمعيل ولا من غيرهم ممن دنا أو نأى فقد نقل أن التابعة كانت تحج البيت وتعظمه وأن تبعا كساها الملاء والوصلات وأمر بتطهيرها وجعل لها مفتاحا ونقل أيضا أن الفرس كانت تحجه وتقرب اليه وأن غزا إلى الذهب اللذين وجدها عبد المطلب حين احتقر زمزم كانا من

قراينهم ولم يزل الجرم الولاية عليه من بعد ولد اسمعيل من قبل خوئلتهم حتى إذا خرجت خزاعة وأقاموا بها بعدهم ماشاء الله ثم كثروا ولد اسمعيل وانتشروا وتشعبوا إلى كنانة ثم كنانة إلى قريش وغيرهم وساءت ولاية خزاعة فغلبتهم قريش على أمره وأخرجوه من البيت وملكو عليهم يومئذ قصي بن كلاب فبنى البيت وسقفه بخشب الدوم وجريد النخل وقل الأعشى

حلفت بثوبي راهب الدير والتي \* بناها قصي والمضاض بن جرم

ثم أصحاب البيت سيل ويقال حريق وتهدم وأعادوا بناءه وجمعوا النقة لذلك من أموالهم وانكسرت سفينة بساحل جدة فاشترى خشبها للسقف وكانت جدرانها فوق القامة فجعلوها ثمانية عشر ذراعا وكان الباب لاصقا بالأرض فجعلوه فوق القامة لثلاث دخله السيول وقصرت بهم النفقة عن إتمامه فقصروا عن قواعده وتركوا منه ستة أذرع وشبرا أداروها بجدار قصير يطاف من ورائه وهو الحجر وبقي البيت على هذا البناء إلى أن تحصن ابن الزبير بمكة حين دعا لنفسه وزحفت إليه جيوش يزيد بن معاوية مع الحصين بن نمير السكوني ورمى البيت سنة أربع وستين فأصابه حريق يقال من النفط الذي رماؤه على ابن الزبير فأعاد بناءه أحسن ما كان بعد أن اختلف عليه الصحابة في بناءه واحتج عليهم بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لعائشة رضي الله عنها لولا قومك حديثوا عهد بكفر لرددت البيت على قواعدي إبراهيم وجعلت له بابين شرقيا وغربيا فهدمه وكشف عن أساس إبراهيم عليه السلام وجمع الوجوه والأكابر حتى عاينوه وأشار عليه ابن عباس بالتحري في حفظ القبلة على الناس فأدار على الأساس الخشب ونصب من فوقها الأساس حفظا للقبلة وبعث إلى صنعاء في الفضة والكسكس فحملها وسأل عن مقطع الحجارة الأول فجمع منها ما احتاج إليه ثم شرع في البناء على أساس إبراهيم عليه السلام ورفع جدرانها سبعا وعشرين ذراعا وجعل لها بابين لاصقين بالأرض كما روى في حديثه وجعل فرشها وأزرها بالرخام وصاغ لها المفاتيح وصفائح الأبواب من الذهب \* ثم جاء الحجاج لحصاره أيام عبد الملك ورمى على المسجد بالمنجنقات إلى أن تصدعت حيطانها ثم لما ظفر باب الزبير شاور عبد الملك فيما بناه وزاده في البيت فأمره بهدمه ورد البيت على قواعد قريش كما هي اليوم ويقال أنه ندم على ذلك حين علم صحة رواية ابن الزبير لحديث عائشة وقال وددت إنني كنت حملت أبا حبيب في أمر البيت وبنائه ما تحمل فهدم الحجاج ستة أذرع وشبرا مكان الحجر وبنها على أساس قريش وسد الباب الغربي وما تحت عتبة بابها اليوم من الباب الشرقي وترك سائرها لم يغير منه شيئا فكل البناء الذي فيه اليوم بناء ابن الزبير وبناء الحجاج في الحائط صلة ظاهرة للعيان لجهة ظاهرة بين البناءين والبناء متميز عن البناء بمقدار أصبع شبه الصدع وقد لحم \* ويعرض ههنا أشكال قوى لمنافاته لما يقوله الفقهاء في أمر الطواف ويحذر الطائف أن يميل على الشاذروان الدائر على أساس الجدر من أسفلها فيقع طوافه داخل البيت بناء على أن الجدر إنما قامت على بعض الأساس وترك بعضه وهو مكان الشاذروان وكذا قالوا في تقبيل الحجر الأسود لا بد من رجوع الطائف من التقبيل حتى يستوى قائما لثلاث يقع



بعض طوافه داخل البيت واذا كانت الجدران كلها من بناء ابن الزبير وهو إنما بنى على أساس ابراهيم فكيف يقع هذا الذي قالوه ولا يخلص من هذا الا بأحد أمرين إما أن يكون الحجاج هدم جميعه وأعادهم وقد نقل ذلك جماعة الآن العيان في شواهد البناء بالتحام ما بين البناءين وتميز أحد الشقين من أعلاه عن الآخر في الصناعة يرد ذلك وإما أن يكون ابن الزبير لم يرد البيت على أساس ابراهيم من جميع جهاته وإما فعل ذلك في الحجر فقط ليدخله فهي الآن مع كونها من بناء ابن الزبير ليست على قواعد ابراهيم وهذا بعيد ولا يحصى من هذين والله تعالى أعلم ثم أن مساحة البيت وهو المسجد كان فضاء للطائفتين ولم يكن عليه جدر أيام النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر من بعده ثم كثر الناس فاشترى عمر رضي الله عنه دورا هدمها وزادها في المسجد وأدار عليها جدارا دون القامة وفعل مثل ذلك عثمان ثم ابن الزبير ثم الوليد بن عبد الملك وبناه بعمد الرخام ثم زاد فيه المنصور وابنه المهدي من بعده ووقفت الزيادة واستقرت على ذلك لعهدنا \* وتشريف الله لهذا البيت وعنايته به أكثر من أن يحاط به وكفى من ذلك أن جعله مهبطا للوحى والملائكة ومكانا للعبادة وفرض شعائر الحج ومناسكه وأوجب حرمة من سائر نواحيه من حقوق التعظيم والحق ما لم يوجب لغيره فمنع كل من خالف دين الاسلام من دخول ذلك الحرم وأوجب على داخله أن يتجرد من الخيط الا ازار ايسره وحمل العائد به والرائع في مسارحه من مواقع الآفات فلا يرام فيه خائف ولا يصاد له وحش ولا يحتطب له شجرة وحد الحرم الذي يختص بهذه الحرمة من طريق المدينة ثلاثة أميال إلى التنعيم ومن طريق العراق سبعة أميال إلى الثنية من جبل المنقطع ومن طريق الطائف سبعة أميال إلى بطن نمرة ومن طريق جدة سبعة أميال إلى منقطع العشار \* هذا شأن مكة وخبرها وتسمى أم القرى وتسمى الكعبة لعلاها من اسم الكعب ويقال لها أيضا بككة قال الأصمعي لأن الناس يبك بعضهم بعضا إليها أي يدفع وقال مجاهد بامكة أبدلوها مما كما قالوا الازب ولازم لقرب المخرجين وقال النخعي بالباء البيت وبالميم البلد وقال الزهري بالباء للمسجد كله وبالميم للحرم وقد كانت الأمم منذ عهد الجاهلية تعظمه والملوك تبعث اليه بالأموال والذخائر كسرى وغيره وقصة الأسياف وغزاه إلى الذهب للذين وجدها عبد المطلب حين احتضر زمزم معروفة وقد وجد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين افتتح مكة في الجب الذي كان فيها سبعين ألف أوقية من الذهب مما كان الملوك يهدون للبيت فيها ألف ألف دينار مكررة مرتين بمائتي قنطار وزنا وقال له علي بن أبي طالب رضي الله عنه يا رسول الله لو استغنت بهذا المال على حربك فلم يفعل ثم ذكر لأبي بكر فلم يحركه هكذا قال الأزرقي وفي البخاري بسنده إلى أبي وائل قال جلست إلى شيبة بن عثمان وقال جلس إلى عمر بن الخطاب فقال هممت أن لأدع فيها صفراء ولا يبيضاء الا قسمتها بين المسلمين قلت ما أنت بفاعل قال ولم قلت فلم يفعل صاحبك فقال لها اللذان يقتدى بهما وخرجه أبو داود وابن ماجه وأقام ذلك المال إلى أن كانت فتنة الإفطس وهو الحسن بن الحسين بن علي ابن علي زين العابدين سنة تسع وتسعين ومائة حين غلب على مكة عمدة إلى الكعبة فأخذ ما في خزائنها وقل ما تصنع الكعبة بهذا المال موضوعا فيها

لا ينتفع به نحن أحق به نستعين به على حربنا وأخرجناه وتصرف فيه وبطلت الذخيرة من الكعبة من يومئذ **﴿وأما بيت المقدس﴾** وهو المسجد الأقصى فكان أول أمره أيام الصابئة موضع الزهرة وكانوا يقربون إليه الزيت فيما يقربونه يصبونه على الصخرة التي هناك ثم دثر ذلك الهيكل واتخذها بنو إسرائيل حين ملكوها قبلة لصلاتهم وذلك أن موسى صلوات الله عليه لما خرج ببني إسرائيل من مصر لتمليكهم بيت المقدس كما وعد الله أباهم إسرائيل وأباه اسحق من قبله وأقاموا بأرض التيه أمره الله باتخاذ قبة من خشب السنت عين بالوحي مقدارها و صفاتها و هي كلها و تماثيلها و ان يكون فيها التابوت و مائدة و صحافها و منارة بقناديلها و أن يصنع مذبحاً للقربان و صف ذلك كله في التوراة كمل و وصف فصنع القبة و وضع فيها تابوت العهد و هو التابوت الذي فيه الألواح المصنوعة عوضاً عن الألواح المنزلة بالكلمات العشر لما تكسرت و وضع المذبح عندها و عهد الله إلى موسى بأن يكون هرون صاحب القربان و نصبوا تلك القبة بين خيامهم في التيه يصلون إليها و يتقربون في المذبح أمامها و يتعرضون للوحي عندها و لما ملكوا الشام و بقيت تلك القبة قبلتهم و وضعوها على الصخرة ببيت المقدس و أراد داود عليه السلام بناء مسجده على الصخرة مكانها فلم يتم له ذلك و عهد به إلى ابنه سليمان فبناه لأربع سنين من ملكه و ثمانمائة سنة من وفاة موسى عليه السلام و اتخذ عمده من الصفر و جعل به صرح الزجاج و غشى أبوابه و حيطانه بالذهب و صاغها كلها و تماثيله و أوعيته و منارته و مفتاحه من الذهب و جعل في ظهره قبراً ليضع فيه تابوت العهد و هو التابوت الذي فيه الألواح و جاء به من صهيون بلد أبيه داود و تحمله الاسباز و السكبونية حتى وضعه في القبر و وضعت القبة و الأوعية و المذبح كل واحد حيث أعد له من المسجد و أقام كذلك ما شاء الله ثم خربه بختنصر بعد ثمانمائة سنة من بنائه و أحرق التوراة و العصا و صاغ الهيكل و نثر الأجر ثم لما أعادهم ملوك الفرس بناء عزيز بن بني إسرائيل لعهد باعانة بهم من ملك الفرس الذي كانت الولادة لبني إسرائيل عليه من سبي بختنصر و حدهم في بنائه حدود داود بناء سليمان ابن داود عليهما السلام فلم يتجاوزوها ثم تداولتهم ملوك يونان و الفرس و الروم و استفحل الملك لبني إسرائيل في هذه المدة ثم لبني خشان من كهنتهم ثم لصهرهم هيردوس و لبنيه من بعده و بني هيردوس بيت المقدس على بناء سليمان عليه السلام و تأثق فيه حتى أكمله في ست سنين فلما جاء طيطش من ملوك الروم و غلبهم و ملك أمرهم خرب بيت المقدس و مسجد ها و أمر أن يزرع مكانه ثم أخذ الروم بدين المسيح عليه السلام و دانوا بتعظيمه ثم اختلف حال ملوك الروم في الأخذ بدين النصاري تارة وتركه أخرى إلى أن جاء قسطنطين و تنصرت أمة هيلانة و ارتحلت إلى المقدس في طلب الخشبة التي صلب عليها المسيح بزعمهم فأخبرها القساوسة بأنه رمى بخشبته على الأرض و ألقى عليها القمامات و القاذورات فاستخرجت الخشبة و بنت مكان تلك القمامات كنيسة القمامة كما أنها على قبره بزعمهم و خربت ما وجدت من عمارة البيت و أمرت بطرح الزبل و القمامات على الصخرة حتى غطاها و خفي مكانها جزاء بزعمها لما فعلوه بقبر المسيح ثم بنوا بازاء القمامة بيت لحم و هو البيت الذي ولد فيه عيسى عليه السلام و بقي الأمر كذلك

إلى أن جاء الاسلام وحضر عمر لفتح بيت المقدس وسأل عن الصخرة فأري مكانها وقد علاها الزبل والتراب فكشف عنها وبني عليها مسجدا على طريق البداوة وعظم من شأنه ما أذن الله من تعظيمه وما سبق من أم الكتاب في فضله حسبما ثبت ثم احتفل الوليد بن عبد الملك في تشييد مسجده على سنن مساجد الاسلام بما شاء الله من الاحتفال كما فعل في المسجد الحرام وفي مسجد النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة وفي مسجد دمشق وكانت العرب تسميه بلاط الوليد وألزم ملك الروم أن يعث الفعلة والمال لبناء هذه المساجد وأن ينمقوها بالفسيفساء فأطاع لذلك وتم بناؤها على ما اقترحه ثم لما ضعف أمر الخلافة أعوام الخمسمائة من الهجرة في آخرها وكانت في ملكة العبيدين خلفاء القاهرة من الشيعة واختل أمرهم وحف الفرنجة إلى بيت المقدس فملكوه وملكوا معه عامة تغور الشام وبنوا على الصخرة المقدسة منه كنيسة كانوا يعظمونها ويفتخرون ببنائها حتى إذا استقل صلاح الدين بن أيوب الكردي بملك مصر والشام وعاثر العبيدين وبدعهم زحف إلى الشام وجاهد من كان به من الفرنجة حتى غلبهم على بيت المقدس وعلى ما كانوا ملكوه من تغور الشام وذلك لنحو ثمانين وخمسمائة من الهجرة وهدم تلك الكنيسة وأظهر الصخرة وبني المسجد على النحو الذي هو عليه اليوم لهذا العهد ولا يعرض لك الأشكال المعروفة في الحديث الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن أول بيت وضع فقال مكة قيل ثم أي قال بيت المقدس قيل فكيف بينهما قال أربعون سنة فن المدة بين بناء مكة وبين بناء بيت المقدس بمقدار ما بين إبراهيم وسليمن لأن سليمان بنه وهو ينف على الألف بكثير \* واعلم أن المراد بالوضع في الحديث ليس البناء وإنما المراد أول بيت عين للعبادة ولا يعد أن يكون بيت المقدس عين للعبادة قبل بناء سليمان بمثل هذه المدة وقد نقل أن الصابئة بنوا على الصخرة هيكل الزهرة فلعل ذلك أنها كانت مكانا للعبادة كما كانت الجاهلية تضع الأصنام والتماثيل حوالى الكعبة وفي جوفها والصابئة الذين بنوا هيكل الزهرة كانوا على عهد إبراهيم عليه السلام فلا تبع مدة الأربعين سنة بين وضع مكة للعبادة ووضع بيت المقدس وإن لم يكن هناك بناء كما هو المعروف وأن أول من بنى بيت المقدس سليمان عليه السلام فتفهمه فقيه حل هذا الأشكال ﴿ وأما المدينة ﴾ وهي المسماة يثرب فهي من بناء يثرب بن مهليل من العالقة وملكها بنو إسرائيل من أيديهم فيما ملكوه من أرض الحجاز ثم جاورهم بنو قيلة من غسان وغلبهم عليها وعلى حصونها ثم أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالهجرة إليها لما سبق من عناية الله بها فاجر إليها معه أبو بكر وتبعه أصحابه ونزل بها وبني مسجده وبيوته في الموضع الذي كان الله قد أعد له لذلك وشرفه في سابق أزله وآواه أبناء قيلة ونصروه فلذلك سموا الأنصار وتمت كلمة الاسلام من المدينة حتى علت على السكيات وغلب على قومه وفتح مكة وملكها وظن الأنصار أنه يتحول عنهم إلى بلده فأهمهم ذلك فخطبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبرهم أنه غير متحول حتى إذا قبض صلى الله عليه وسلم كان ملجده الشريف بها وجاء في فضلها من الأحاديث الصحيحة ما لا يخفاء به ووقع الخلاف بين العلماء في تفضيلها على مكة وبه قال مالك رحمه الله لما ثبت عنده في ذلك من النص الصريح عن رافع بن خديج أن النبي صلى الله عليه وسلم



قال المدينة خير من مكة تفل ذلك عبد الوهاب في المعونة إلى أحاديث أخرى تدل بظاهرها على ذلك وخالف أبو حنيفة والشافعي وأصبحت على كل حال ثانية المسجد الحرام وجنح إليها الأئم بأفئدتهم من كل أبواب فانظر كيف تدرجت الفضيلة في هذه المساجد المعظمة لما سبق من عناية الله لها وتفهم سر الله في الكون وتدرجه على ترتيب محكم في أمور الدين والدنيا \* واما غير هذه المساجد الثلاثة فلا نعلمه في الأرض إلا ما يقال من شأن مسجد آدم عليه السلام بسر نديب من جزائر الهند ولكنه لم يثبت فيه شيء يعول عليه وقد كانت للأئم في القديم مساجد يعظمونها على جهة الديانة بزعيمهم منها بيوت النار للفرس وهياكل يونان وبيوت العرب بالحجاز التي أمر النبي صلى الله عليه وسلم بهدمها في غزواته وقد ذكر المسعودي منها بيوت السنام من ذكرها في شيء إذ هي غير مشروعة ولا هي على طريق ديني ولا يلتفت إليها ولا إلى الخبر عنها ويكتفي في ذلك ما وقع في التواريخ فمن أراد معرفة الأخبار فعليه بها والله يهدي من يشاء سبحانه

#### ٧ \* فصل في أن المدن والأصهار بأفريقية والمغرب قليلة \*

والسبب في ذلك أن هذه الأقطار كانت للبربر منذ آلاف من السنين قبل الإسلام وكان عمرانها كله بدويا ولم تستمر فيهم الحضارة متى تستكمل أحوالها والدول التي ملكتهم من الأفريقية والعرب لم يطل أمد ملكهم فيهم حتى ترسخ الحضارة منها فم تزل عوائد البداوة وشئونهم فكانوا إليها أقرب فلم تكثر مبانيهم وأيضا فالصنائع بعيدة عن البربر لأنهم أعرق في البدو والصنائع من توابع الحضارة وإنما تم المباني بها فلا بد من الخلق في تعلمها فلما لم يكن للبربر اتحال لهم لم يكن لهم تشوف إلى المباني فضلا عن المدن وأيضا فهم أهل عصبية وأنساب لا يخلو عن ذلك جمع منهم والأنساب والعصبية أجنح إلى البدو وإنما يدعو إلى المدن الدعة والسكون ويصير ساكنها عيالا على حاميتها فتجد أهل البدو لذلك يستنكفون سكنى المدينة أو الإقامة بها ولا يدعو إلى ذلك الترف والغنى وقليل ما هو في الناس فلذلك كان عمران أفريقية والمغرب كله أو أكثره بدويا أهل خيام وظواغن وقياطن وكن في الجبال وكان عمران بلاد العجم كله أو أكثره قرى وأصهارا ورساتيق من بلاد الأندلس والشام ومصر وعراق العجم وأمثالها لأن العجم في الغالب ليسوا بأهل أنساب يحافظون عليها ويتنافسون في صراحتها والتحامها إلا في الأقل وأكثر ما يكون سكنى البدو لأهل الأنساب لأن لحمة النسب أقرب وأشد فتكون عصبية كذلك وتنزع بصاحبها إلى سكنى البدو والتجافي عن المصر الذي يذهب بالبسالة ويصيره عيالا على غيره فافهمه وقس عليه والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

#### ٨ \* فصل في أن المباني والمصانع في الملة الإسلامية قليلا بالنسبة إلى قدرتها

والى من كان قبلها من الدول \*

والسبب في ذلك أن ما ذكرنا مثله في البربر بعينه إذ العرب أيضا أعرق في البدو وأبعد عن الصنائع وأيضا فكانوا أجانب من الممالك التي استولوا عليها قبل الإسلام ولما تملكوها لم ينفسح الأمد

حتى تستوفي رسوم الحضارة مع أنهم استغنوا بما وجدوا من مباني غيرهم وأيضا فكان الدين أول الأمر مانعا من المغالاة في البناء والاسراف فيه في غير القصد كما عهد لهم عمر حين استأذنوه في بناء الكوفة بالحجارة وقد وقع الحريق في القصب الذي كانوا بنوا به من قبل فقال افعلوا ولا يزيدن أحد على ثلاثة أبنيات ولا تطاولوا في البناء والزمو السنة تلزمكم الدولة وعهد إلى الوفد وتقدم إلى الناس أن لا ترفعوا أبنينا فوق القدر قالوا وما القدر قال ما لا يقربكم من السرف ولا يخرجكم عن القصد فلما بعد العهد بالدين والتخرج في أمثال هذه المقاصد وغلبت طبيعة الملك والترفع واستخدم العرب أمة الفرس وأخذوا عنهم الصنائع والمباني ودعتهم إليها أحوال الدعة والترفع حينئذ شيدوا المباني والمصانع وكان عهد ذلك قريبا بانقراض الدولة ولم ينفسح الأمد لكثرة البناء واختطاط المدن والأصهار الأقليل وليس كذلك غيرهم من الأمم فالفرس طالبت مدتهم آلاف من السنين وكذلك القبط والنبط والروم وكذلك العرب الأولى من عادو ثمود والعمالق والتابعة طالبت آمادهم ورسخت الصنائع فيهم فكانت مبانيهم وهياكلهم أكثر عددا وأبقى على الأيام أثرا واستبصر في هذا تجده كما قلت لك والله وارث الأرض ومن عليها

#### ٩ ﴿ فصل في أن المباني التي كانت تخطها العرب يسرع إليها الخراب إلا في الأقل ﴾

والسبب في ذلك شأن البداوة والبعد عن الصنائع كما قدمناه فلا تكون المباني وثيقة في تشييدها وله والله أعلم وجه آخر وهو أمسه به وذلك قلة رعايتهم لحسن الاختيار في اختطاط المدن كما قلناه في المكان وطيب الهواء والمياه والمزارع والمراعى فانه بالتفاوت في هذه تتفاوت جودة المصير وردائه من حيث العمران الطبيعي والعرب بعزل عن هذا وإغمايراعون مراعى ابلهم خاصة لا يبالون بالماء طاب أو خبت ولا قل أو أكثر ولا يسألون عن زكاء المزارع والمنابت والاهوية لا تنقلهم في الأرض ونقلهم الجيوب من البلد البعيد وأما الرياح فالتقفر مختلف للمهاب كلها والظعن كفي لهم بطيها لأن الرياح إنما تخبث مع القرار والسكنى وكثرة الفضلات وانظر لما اختطوا الكوفة والبصرة والقيروان كيف لم يرعوا في اختطاطها الامراعى ابلهم وما يقرب من القفر ومسالك الظعن فكانت بعيدة عن الوضع الطبيعي للمدن ولم تكن لها مادة تمد عمرانها من بعدم كما قدمنا أنه يحتاج اليه في حفظ العمران فقد كانت مواطنها غير طبيعية للقرار ولم تكن في وسط الأمم فيعمرها الناس فلا أول وهلة من انحلال أمرهم وذهاب عصبيتهم التي كانت سياجها لآتي عليها الخراب والانحلال كأن لم تكن والله يحكم لا معقب لحكمه

#### ١٠ ﴿ فصل في مبادئ الخراب في الأصهار ﴾

( اعلم ) أن الأصهار إذا اختطت أو لا تكون قليلة المساكن وقليلة آلات البناء من الحجر والجير وغيرهما مما يعلى على الحيطان عند التأنق كالزليج والرخام والريج والرجاج والفسيفساء والصدف فيكون بناؤها يومئذ بدويا وآلاتها فاسدة فاذا عظم عمران المدينة وكثر ساكنها كثرت الآلات

بكثرة الأعمال حينئذ وكثرة الصناعات إلى أن تبلغ غايتها من ذلك كما سبق شأنها فإذا تراجع عمرانها وخف ساكنها قلت الصنائع لأجل ذلك ففقدت الأجداد في البناء والأحكام والمعالجة عليه بالتنسيق ثم نقل الأعمال لعدم الساكن فيقل جلب الآلات من الحجر والرخام وغيرها فتفقد ويصير بناؤهم وتشيدهم من الآلات التي في مبانيهم فينقلونها من مصنع إلى مصنع لأجل خلاء أكثر المصانع والقصور والمنازل بقلّة العمران وقصوره عما كان أولاً ثم لا تزال تنقل من قصر إلى قصر ومن دار إلى دار إلى أن يفقد الكثير منها جملة فيعودون إلى البداوة في البناء واتخاذ الطوب عوضاً عن الحجارة والقصور عن التنسيق بالكلية فيعود بناء المدينة مثل بناء القرى والمداشير ويظهر عليها سيما البداوة ثم تمر في التناقص إلى غايتها من الخراب إن قدر لها به سنة الله في خلقه

### ١١ فصل في أن تفاضل الأمصار والمدن في كثرة الرفه لأهلها ونفاق الأسواق إنما هو في تفاضل عمرانها في الكثرة والقلة

والسبب في ذلك أنه قد عرف وثبت أن الواحد من البشر غير مستقل بتحصيل حاجاته في معاشه وأنهم متعاونون جميعاً في عمرانهم على ذلك والحاجة التي تحصل بتعاون طائفة منهم تشتد ضرورة الأكل أكثر من عدمه أضعافاً فالقوت من الحنطة مثلاً لا يستقل الواحد بتحصيل حصته منه وإذا انتدب لتحصيله الستة أو العشرة من حداد ونجار للآلات وقائم على البقر وأتارة الأرض وحصاد السبل وسائر مؤن الفلح وتوزعوا على تلك الأعمال أو اجتمعوا وحصل بعملهم ذلك مقدار من القوت فانه حينئذ قوت لأضعافهم مرات فالأعمال بعد الاجتماع زائدة على حاجات العاملين وضرورتهم فأهل مدينة أو مصر إذا وزعت أعمالهم كلها على مقدار ضرورتهم وحاجاتهم اكتفى فيها بالقل من تلك الأعمال وبقيت الأعمال كلها زائدة على الضرورات فتصرف في حالات الطرف وعوائده وما يحتاج إليه غيرهم من أهل الأمصار ويستجلبونه منهم بأعواضه وقيمه فيكون لهم بذلك حظ من الغنى وقد تبين لك في الفصل الخامس في باب الكسب والرزق أن المكسب إنما هي قيم الأعمال فإذا كثرت الأعمال كثرت قيمها بينهم فكثرت مكاسبهم ضرورة ودعتهم أحوال الرفه والغنى إلى الترف وحاجاته من التأنق في المساكن والملابس واستجادة الآنية والماعون واتخاذ الخدم والمراكب وهذه كلها أعمال تستدعى بقيمتها ويختار المهرة في صناعتها أو القيام عليها فتتنفق أسواق الأعمال والصنائع ويكثر دخل المصر وخرجه ويحصل اليسار لمن تحلى ذلك من قبل أعمالهم ومتى زاد العمران زادت الأعمال ثانية ثم زاد الترف تابعا للكسب وزادت عوائده وحاجاته واستنبطت الصنائع لتحصيلها فزادت قيمها وتضاعف الكسب في المدينة لذلك ثانية ونفقت سوق الأعمال بها أكثر من الأولى وكذا في الزيادة الثانية والثالثة لأن الأعمال الزائدة كلها تختص بالترف والغنى بخلاف الأعمال الأصلية التي تختص بالمعاش فالمصر إذا فضل بعمران واحد فضله بزيادة كسب ورفه بعوائد من الترف لا توجد في الآخر فما كان عمرانه من الأمصار أكثر وأوفر كان حال أهله في الترف أبلغ من حال المصر الذي دونه على وتيرة واحدة في



الأنصاف القاضي مع القاضي والتاجر مع التاجر والصانع مع الصانع والسوق مع السوق والأمر مع الأمر والشرطي مع الشرطي واعتبر ذلك في المغرب مثلاً بحال فاس مع غيرها من أمصاره الأخرى مثل بجاية وتلمسان وسبتة تجد بينهما بونا كثيراً على الجملة ثم على الخصوصيات بحال القاضي بفاس أو سعة من حال القاضي بتلمسان وهكذا كل صنف مع صنف أهله وكذا أيضاً حال تلمسان مع وهران أو الجزائر وحال وهران والجزائر مع مادونهما إلى أن تنتهي إلى المداشر الذين اعتمدوا في ضروريات معاشهم فقط ويقصرون عنها ما ذلك الالتفات إلى الأعمال فيها فكانت كلها أسواق للأعمال والخرج في كل سوق على نسبه فالقاضي بفاس دخله كفاء خرجته وكذا القاضي بتلمسان وحيث الدخل والخرج أكثر تكون الأحوال أعظم وهما بفاس أكثر لئلا سوق الأعمال بما يدعو إليه الترف فلا أحوال أضخم ثم كذا حال وهران وقسنطينة والجزائر وبسكرة حتى تنتهي كما قلناه إلى الأمصار التي لا توفي أعمالها بضرورتها ولا تعد في الأمصار إذ هي من قبيل القرى والمداشر فلذلك تجد أهل هذه الأمصار الصغيرة ضعفاء الأحوال متقاربين في الفقر والخصاصة لما أن أعمالهم لا تنفي بضرورتهم ولا يفضل ما يتأثرونه كسباً فلا تنمو مكاسبهم وهم لذلك مساكين محالون في الأقل النادر واعتبر ذلك حتى في أحوال الفقراء والسؤال فإن السائل بفاس أحسن حالاً من السائل بتلمسان أو وهران ولقد شاهدت بفاس السؤال يسألون أيام الأضاحي أثمان ضحاياهم ويرأيهم يسألون كثيراً من أحوال الترف واقتراح المال كل مثل سؤال اللحم والسمن وعلاج الطبخ والملابس والماعون كالغربال والآنية ولو سأل سائل مثل هذا بتلمسان أو وهران لاستنكر وعنف وزجر ويبلغنا هذا العهد عن أحوال القاهرة ومصر من الترف والغنى في عواند ما يقضى منه العجب حتى أن كثيراً من الفقراء بالمغرب ينزعون إلى النقلة إلى مصر لذلك ولما يبلغهم من أن شأن الرفق بمصر أعظم من غيرها ويعتقد العامة من الناس أن ذلك لزيادة إيثاري أهل تلك الآفاق على غيرهم وأموال مختزنة لديهم وأنهم أكثر صدقة وإيثاراً من جميع أهل الأمصار وليس كذلك وإنما هو لما تعرفه من أن عمران مصر والقاهرة أكثر من عمران هذه الأمصار التي لديك فعظمت لذلك أحوالهم \* وأما حال الدخل والخرج فمتكافئ في جميع الأمصار ومتى عظم الدخل عظم الخرج وبالعكس ومتى عظم الدخل والخرج اتسعت أحوال الساكن ووسع المصير كل شيء يبلغك من مثل هذا فلا تنكره واعتبره بكثرة العمران وما يكون عنه من كثرة المكاسب التي يسهل بسببها البذل والإيثار على مبتغيه ومثله بشأن الحيوانات العجم مع بيوت المدينة الواحدة وكيف يختلف أحوالها في هجرانها أو غشيانها فان بيوت أهل النعم والثروة والموائد الخصبة منها تكثر بساحتها وأفنياتها بنثر الحبوب وسواقات الفتات فيزدحم عليها غواشي النمل والحشاش ويخلق فوقها عصائب الطيور حتى تروح بطاناً وتمتلي شعباً ورياً وبيوت أهل الخصاصة والفقراء الكسدة أرزاقهم لا يسرى بساحتها ديب ولا يخلق بجوها طائر ولا تأوى إلى زوايا بيوتهم فأرة ولاهرة كما قال الشاعر

تسقط الطير حيث تلتقط الـ \* حب وتغشى منازل الكرماء

فتأمل سر الله تعالى في ذلك واعتبر غاشية الاناس بغاشية العجم من الحيوانات وفتات الموائد بفضلات الرزق والترف وسهولتها على من يندلها لاستغنائهم عنها في الاكثر لوجود أمثالهم لديهم واعلم أن اتساع الاحوال وكثرة النعم في العمران تابع لكثرة والله سبحانه وتعالى أعلم وهو غنى عن العالمين

١٢ ﴿ فصل في أسعار المدن ﴾

اعلم أن الاسواق كلها تشتمل على حاجات الناس فيها الضروري وهي الاقوات من الحنطة وما في معناها كالباقلا والبصل والثوم وأشباهه ومنها الحاجي والكمالي مثل الأدم والفواكه والملابس والماعون والمراكب وسائر المصانع والمباني فاذا استبحر المصر وكثرتا كنه رخصت أسعار الضروري من القوت وما في معناه وعلت أسعار الكمالي من الأدم والفواكه وما يتبعها وإذا قل ساكن المصر وضعف عمرانه كان الامر بالعكس والسبب في ذلك أن الحبوب من ضرورات القوت فتتوفر الدواعي على اتخاذها اذ كل أحد لا يهمل قوت نفسه ولا قوت منزله لشهره أو سنته فيعم اتخاذها أهل المصر أجمع أو الاكثر منهم في ذلك المصر أو فيما قرب منه لا بد من ذلك وكل متخذ لقوته تفضل عنه وعن أهل بيته فضلة كبيرة تسدخلة كثيرين من أهل ذلك المصر فتفضل الاقوات عن أهل المصر من غير شك فترخص أسعارها في الغالب الا ما يصيبها في بعض السنين من الآفات السهاوية ولولا احتكار الناس لها يتوقع من تلك الآفات لبذلت دون ثمن ولا عوض لكثرتها بكثرة العمران وأما سائر المرافق من الأدم والفواكه وما إليها فانها لا تعم بها البلوي ولا يستغرق اتخاذها أعمال أهل المصر أجمعين ولا الكثير منهم ثم أن المصر إذا كان مستبحر موفور العمران كثير حاجات الترف توفرت حينئذ الدواعي على طلب تلك المرافق والاستكثار منها كل بحسب حاله فيقصر الموجود منها على الحاجات قصورا بالغا ويكثر المستامون لها وهي قليلة في نفسها فتزدحم أهل الأغراض ويذل أهل الرفه والترف أثمانها بأسراف في الغلاء لحاجتهم اليها أكثر من غيرهم فيقع فيها الغلاء كما تراه \* وأما الصنائع والأعمال أيضا في الأمصار الموفورة العمران فبسبب الغلاء فيها أمور ثلاثة الأول كثرة الحاجة لمكان الترف في المصر بكثرة عمرانه والثاني اعتزاز أهل الأعمال لخدمتهم وإمهان أنفسهم لسهولة المعاش في المدينة بكثرة أقواتها والثالث كثرة المترفين وكثرة حاجاتهم إلى امتنان غيرهم إلى استعمال الصنائع في منافعهم فيذلون في ذلك لأهل الأعمال أكثر من قيمة أعمالهم مزاحمة ومنافسة في الاستئثار بها فيعتز العمال والصنائع وأهل الحرف وتعلو أعمالهم وتكثر نفقات أهل المصر في ذلك \* وأما الأمصار الصغيرة والقليلة الساكن فأقواتهم قليلة لقلّة العمل فيها وما يتوقعونه لصغر مصرهم من عدم القوت فيتمسكون بما يحصل منه في أيديهم ويحتكرونه فيعز وجوده لديهم ويغلو ثمنه على مستامه وأما مرافقهم فلا تدعو إليها أيضا حاجة بقلّة الساكن وضعف الاحوال فلا تنفق لديهم سوق فيختص بالرخص في سعره وقد يدخل أيضا في قيمة الاقوات قيمة ما يعرض عليها من المكوس والمغارم

للسلطان في الأسواق وأبواب الحفر والحياة في منافع وصولها عن البيوعات لما يمسهم وبذلك كانت الأسعار في الأمصار أغلى من الأسعار في البادية إذ المكوس والمغارم والفرائض قليلة لديهم أو معدومة وكثرتها في الأمصار لاسيما في آخر الدولة وقد تدخل أيضا في قيمة الأقوات قيمة علاجها في الفلح ويحافظ على ذلك في أسعارها كما وقع بالأندلس لهذا العهد وذلك أنهم لما أُلجأوا إلى سيف البحر وبلاطه المتوعدة الخبيثة الزراعة النكدية النبات وملكوا عليهم الأرض الزراعية والبد الطيب فاحتاجوا إلى علاج المزارع والقدن لا صلاح نباتها أو فلحها وكان ذلك العلاج بأعمال ذات قيم ومودا من الزبل وغيره لها مؤنة وصارت في فلحهم نفقات لها خطر فاعتبروها في سعرهم واختص قطر الأندلس بالغلاء منذ اضطرم النصارى إلى هذا المعمور بالاسلام مع سوا حلها لأجل ذلك ويحب الناس إذا سمعوا بغلاء الأسعار في قطرهم أنها القلة الأقوات والحبوب في أرضهم وليس كذلك فهم أكثر أهل المعمور فلحا فيما علمناه وأقومهم عليه وقل أن يخلو منهم سلطان أو سوقة عن فدان أو مزرعة أو فلاح الا قليل من أهل الصناعات والمهن والطراء على الوطن من الغزاة المجاهدين ولهذا يختصهم السلطان في عطائهم بالعولة وهي أقواتهم وعلقاتهم من الزرع وإنما السبب في غلاء سعر الحبوب عندهم ما ذكرناه ولما كانت بلاد البربر بالعكس من ذلك في زكاء منابهم وطيب أرضهم ارتفعت عنهم المؤن جملة في الفلح مع كثرة وعمومه فصارت ذلك سببا لرخص الأقوات ببلدهم والله مقدر الليل والنهار وهو الواحد القهار لا رب سواه

### ١٣ \* فصل في قصور أهل البادية عن سكنى المصر الكثير العمران \*

والسبب في ذلك أن المصر الكثير العمران يكثر ترفه كما قدمناه وتكثر حاجات ساكنه من أجل الترف وتعتاد تلك الحاجات لما يدعو إليها فتتقلب ضرورات وتصير فيه الأعمال كلها مع ذلك عزيزة والمرافق غالية بازديادها من أجل الترف وبالمغارم السلطانية التي توضع على الأسواق والبياعات وتعتبر في قيم المبيعات ويعظم فيها الغلاء في المرافق والأقوات والأعمال فتكثر لذلك نفقات ساكنه كثرة بالغة على نسبة عمرانه ويعظم خرجه فيحتاج حينئذ إلى المال الكثير للنفقة على نفسه وعياله في ضرورات عيشهم وسائر مؤنهم والبدوي لم يكن دخله كثيرا إذا كان ساكنا بمكان كاسد الأسواق في الأعمال التي هي سبب الكسب فلم يتأثر كسبا ولا مالا فيتعذر عليه من أجل ذلك سكنى المصر الكبير لغلاء مرافقه وعزة حاجاته وهو في بدو يسد خلته بأقل الأعمال لأنه قليل عوائد الترف في معاشه وسائر مؤنه فلا يضطر إلى المال وكل من يتشوف إلى المصر وسكنائه من أهل البادية فسريعا ما يظهره مجزه ويفتضح في استيطانه الامن يقدم منهم تأثر المال ويحصل له منه فوق الحاجة ويجرى إلى الغاية الطبيعية لأهل العمران من الدعة والترف حينئذ ينتقل إلى المصر وينتظم حاله مع أحوال أهله في عوائدهم وترقيهم وهكذا شأن بداية عمران الأمصار والله بكل شيء محيط



( اعلم ) أن ماتوفر عمرانه من الأقطار وتعددت الأمم في جهاته وكثرت أحوال أهله وكثرت أموالهم وأمصارهم وعظمت دولتهم وممالكهم والسبب في ذلك كله ما ذكرناه من كثرة الأعمال وماسياتي ذكره من أنها سبب للثروة بما يفضل عنها بعد الوفاء بالضروريات في حاجات الساكن من الفضيلة البالغة على مقدار العمران وكثرته فيعود على الناس كسباً ثلونه حسباً نذكر ذلك في فصل المعاش وبيان الرزق والكسب فيزيد الرفه لذلك وتتسع الأحوال وينحى الترف والغنى وتكثر الجباية للدولة بنفاق الأسواق فيكثر مالها ويشمخ سلطانها ويتفنن في اتخاذ المعامل والحصون واختطاط المدن وتشديد الأمصار واعتبر ذلك بأقطار المشرق مثل مصر والشام وعراق العجم والهند والصين وناحية الشمال كلها وأقطارها وراء البحر الرومي لما كثر عمرانها كيف كثر المال فيهم وعظمت دولتهم وتعددت مدنها وحواسنهم وعظمت متاجرهم وأحوالهم فالذي نشاهده لهذا العهد من أحوال تجار الأمم النصرانية الواردين على المسلمين بالمغرب في رفهم واتساع أحوالهم أكثر من أن يحيط به الوصف وكذا تجار أهل المشرق وما يبلغنا عن أحوالهم وأبلغ منها أحوال أهل المشرق الأقصى من عراق العجم والهند والصين فانه يبلغنا عنهم في باب الغنى والرفه غرائب تسير الركبان بحديثها وربما تعلق بالانكار في غالب الأمر ويحسب من يسمعا من العامة أن ذلك لا يزيد في أموالهم أولاً لأن المعادن الذهبية والفضية أكثر بأرضهم أولاً لأن ذهب الأقدمين من الأمم استأثروا به دون غيرهم وليس كذلك فعدن الذهب الذي نعرفه في هذه الأقطار إنما هو من بلاد السودان وهي إلى المغرب أقرب وجميع ما في أرضهم من البضاعة فأنما يجلبونه إلى غير بلادهم للتجارة فلو كان المال عتيداً موفوراً لديهم لما جلبوا بضائعهم إلى سواهم يبتغون بها الأموال ولا استغنوا عن أموال الناس بالجملة ولقد ذهب المنجمون لما رأوا مثل ذلك واستغربوا ما في المشرق من كثرة الأحوال واتساعها ووفور أموالها فقالوا بأن عطايا الكواكب والسهم في مواليد أهل المشرق أكثر منها حصصاً في مواليد أهل المغرب وذلك صحيح من جهة المطابقة بين الأحكام النجومية والأحوال الأرضية كما قلناه وهم إنما أعطوا في ذلك السبب النجومي وبقى عليهم أن يعطوا السبب الأرضي وهو ما ذكرناه من كثرة العمران واختصاصه بأرض المشرق وأقطاره وكثرة العمران تفيد كثرة الكسب بكثرة الأعمال التي هي سببه فلذلك اختص المشرق بالرفه من بين الآفاق لأن ذلك مجرد الأثر النجومي فقد فهمت مما أشرنا لك أولاً أنه لا يستقل بذلك وأن المطابقة بين حكمه وعمران الأرض وطبيعتها أمر لا بد منه واعتبر حال هذا الرفه من العمران في قطر أفريقية وبرقة لما خف سكنها وتناقص عمرانها كيف تلاشت أحوال أهلها وانتهاوا إلى الفقر والخصاصة وضعفت جباياتها فقلت أموال دولها بعد أن كانت دول الشيعة وصنهاجة بها على ما بلغك من الرفه وكثرة

الجبايات واتساع الأحوال في نفقاتهم وأعطياتهم حتى لقد كانت الأموال ترفع من القير وان إلى صاحب مصر لحاجاته ومهماتهم وكانت أموال الدولة بحيث حمل جوهر الكاتب في سفره إلى فتح مصر ألف حمل من المال يستعديها لارزاق الجنود وأعطياتهم ونفقات الغزات وقطر المغرب وإن كان في القديم دون أفريقية فلم يكن بالقليل في ذلك وكان أحواله في دول الموحدين متسعة وجباياته موفورة وهو لهذا العهد قد أقصر عن ذلك لقصور العمران فيه وتناقصه فقد ذهب من عمران البربر فيه أكثره ونقص عن معبوده نقصا ظاهرا محسوسا وكاد أن يلحق في أحواله بمثل أحوال أفريقية بعد أن كان عمرانه متصلا من البحر الرومي إلى بلاد السودان في طول ما بين السوس الأقصى وبرقة وهي اليوم كلها أو أكثرها قفار وخلاء وسحارى إلا ما هو منها بسيف البحر أو ما يقاربه من التلول والله واثق الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين

#### ١٥ فصل في تأثر العقار والضياع في الأمصار وحال فوائدها ومستغلاتها

(اعلم) أن تأثر العقار والضياع الكثيرة لأهل الأمصار والمدن لا يكون دفعة واحدة ولا في عصر واحد إذ ليس يكون لأحد منهم من الثروة ما يملك به الأملاك التي تخرج قيمتها عن الحدود لو بلغت أحوالهم في الرفه ما عسى أن تبلغ وإنما يكون ملكهم وتأثرهم لها تدريجا إما بالوراثته من آباءه وذوي رحمه حتى تتأدى أملاك الكثيرين منهم إلى الواحد أو أكثر لذلك أو أن يكون بحالة الأسواق فإن العقار في آخر الدولة وأول الأخرى عند فناء الحامية وخرق السياج ويداعى المصر إلى الخراب تقل الغبطة به لقلة المنفعة فيها بتلاشي الأحوال فترخص قيمها وتتملك بالآثمان اليسيرة وتتخطى بالميراث إلى ملك آخر وقد استجد المصر شبابه باستفتح حال الدولة الثانية وانتظمت له أحوال رائعة حسنة تحصل معها الغبطة في العقار والضياع لكثرة منافعها حينئذ فتعظم قيمها ويكون لها خطر لم يكن في الأول وهذا معني الحوالة فيها ويصبح مالكمها من أغنى أهل مصر وليس ذلك بسعيه واكتسابه إذ قدرته تعجز عن مثل ذلك وأما فوائدها العقار والضياع فهي غير كافية لما لكها في حاجات معاشه إذ هي لا تنقضي بعوائد الترف وأسبابه وإنما هي في الغالب لسد الخلة وضرورة المعاش والذي سمعناه من مشيخة البلدان أن القصد باقتناء الملك من العقار والضياع إنما هو لحشية على من يترك خلفه من الذرية الضعفاء ليكون مربيهم ورزقهم فيه ونشؤهم بفائدة ما داموا عاجزين عن الاكتساب فإذا اقتدروا على تحصيل المكاسب سعوا فيها بأنفسهم وربما يكون من الولد من يعجز عن التكسب لضعف في بدنه أو آفة في عقله المعاشي فيكون ذلك العقار قواما لحاله هذا قصد المترفين في اقتنائه وأما التمول منه وأجراء أحوال المترفين فلا وقد يحصل ذلك منه للقليل أو النادر بحوالة الأسواق وحصول الكثرة البالغة منه والعالي في جنسه وقيمتها في المصر الآن ذلك إذا حصل ربما امتدت إليه أعين الأمراء والولاة واغتصبوه في الغالب أو أرادوه على بيعه منهم ونالت أصحابه منه مضار ومعاطب والله غالب على أمره وهو رب العرش العظيم

## ١٦ ﴿ فصل في حاجات الممولين من أهل الأمصار إلى الجاه والمدافعة ﴾

وذلك أن الحضري إذا عظم تموله وكثر للعقار والضياع تأثله وأصبح أغني أهل المصرو ومقته العيون بذلك وانفسحت أحواله في الترف والعوائد زاحم عليها الأمراء والملوك وغصوا به ولما في طباع البشر من العدوان وان تمدأ عينهم إلى تملك ما بيده وينافسون فيه ويتحيلون على ذلك بكل ممكن حتى يحصلونه في ربة حكم سلطاني وسبب من المؤاخذة ظاهر ينتزع به ماله وأكثر الأحكام السلطانية جائرة في الغالب إذ العدل المحض إنما هو في الخلافة الشرعية وهي قليلة البتة قال صلى الله عليه وسلم الخلافة بعد ثلاثون سنة ثم تعود ملكا عضوضا فلا بد حينئذ لصاحب المال والثروة الشهيرة في العمران من حامية تندود عنه وجاء ينسحب عليه من ذي قرابة للملك أو خالصة له أو عصبية يتحامها السلطان فيستظل بظله ويرتع في أمنها من طوارق التعدي وإن لم يكن له ذلك أصبح نهبا بوجوه التحيلات وأسباب الحكم والله يحكم لامعقب حكمه

## ١٧ ﴿ فصل في أن الحضارة في الأمصار من قبل الدول وأنها ترسخ باتصال الدولة ورسوخها ﴾

والسبب في ذلك أن الحضارة هي أحوال عادية زائدة على الضروري من أحوال العمران زيادة تتفاوت بتفاوت الرفه وتفاوت الأمم في القلة والكثرة وتفاوتا غير منحصر وتقع فيها عند كثرة التفتن في أنواعها وأصنافها فتكون بمنزلة الصنائع ويحتاج كل صنف منها إلى القومة عليه والمهرة فيه وبقدر ما يزيد من أصنافها يتزايد أهل صناعتها ويتلون ذلك الجيل بها ومتى اتصلت الأيام وتعاقت تلك الصناعات حذق أولئك الصنائع في صناعتهم ومهروا في معرفتها والاعسار بطولها وانفساح أمدتها وتكرير أمثالها تزيدها استحكاما ورسوخا وأكثر ما يقع ذلك في الأمصار لاستبحار العمران وكثرة الرفة في أهلها وذلك كله إنما يحىء من قبل الدولة لأن الدولة تجمع أموال الرعية وتنفقها في بطاتها ورجالها وتنسج أحوالهم بالجاه أكثر من اتساعها بالمال فيكون دخل تلك الأموال من الرعايا وخرجها في أهل الدولة ثم فيمن تعلق بهم من أهل المصروم الأكثر فتعظم لذلك ثروتهم ويكثر غنائم وتزيد عوائد الترف ومذاهبه وتستحكم لديهم الصنائع في سائر فنونها وهذه هي الحضارة ولهذا تجد الأمصار التي في القاصية ولو كانت موفورة العمران تغلب عليها أحوال البداوة وتبعد عن الحضارة في جميع مذاهبها بخلاف المدن المتوسطة في الأقطار التي هي مركز الدولة ومقرها وما ذاك إلا لجاورة السلطان لهم وفيض أمواله فيهم كلما يخضر ما قرب منه فما قرب من الأرض إلى أن ينتهي إلى الجفوف على البعد وقد قدمنا أن السلطان والدولة سوق للعالم بالبضائع كلها موجودة في السوق وما قرب منه وإذا بعدت عن السوق افتقدت البضائع جملة ثم أنه إذا اتصلت تلك الدولة وتعاقب ملوكها في ذلك المصرو واحدا بعد واحد استحكت الحضارة فيهم وزادت رسوخا واعتبر ذلك في اليهود لما طال ملكهم بالشام نحو من ألف وأربعمائة سنة رسخت حضارتهم وحذقوا في أحوال المعاش وعوائده



والتفنن في صناعاته من المطاعم والملابس وسائر أحوال . لحق أنها لتؤخذ عنهم في الغالب إلى اليوم ورسخت الحضارة أيضا وعوائدها في الشام منهم ومن دولة الروم بعدهم ستمائة سنة فكانوا في غاية الحضارة وكذلك أيضا القبط دام ملكهم في الخليفة ثلاثة آلاف من السنين فرسخت عوائد الحضارة في بلادهم مصر وأعقبهم بها ملك اليونان والروم ثم ملك الاسلام الناسخ لكل فلم تزل عوائد الحضارة بها متصلة وكذلك أيضا رسخت عوائد الحضارة باليمن لاتصال دولة العرب بها منذ عهد العمالة والتبابعة آلافا من السنين وأعقبهم ملك مصر وكذلك الحضارة بالعراق لاتصال دول النبط والفرس بها من لدن السككديانيين والكيانية والكسروية والعرب بعدهم آلافا من السنين فلم يكن على وجه الأرض لهذا العهد أحضر من أهل الشام والعراق ومصر وكذا أيضا رسخت عوائد الحضارة واستحكمت بالآندلس لاتصال الدولة العظيمة فيها للقوط ثم ما أعقبها من ملك بني أمية آلافا من السنين وكلتا الدولتين عظيمات فاتصلت فيها عوائد الحضارة واستحكمت وأما أفريقية والمغرب فلم يكن بها قبل الاسلام ملك ضخم إنما أقطع الأفريقية إلى أفريقية البحرية وملكوا البحر وكانت طاعة البربر أهل الضاحية لهم طاعة غير مستحكمة فكانوا على قلعة وأوفاز وأهل المغرب لم تجاورهم دولة وإنما كانوا يعيشون بطاعتهم إلى القوط من وراء البحر ولما جاء الله بالاسلام وملك العرب أفريقية والمغرب لم يلبث فيهم ملك العرب الا قليلا أول الاسلام وكانوا لذلك العهد في طور البداوة ومن استقر منهم بأفريقية والمغرب لم يجد بهم من الحضارة ما يقنط فيه من . . . إذ كانوا ابرار من عيسى في البداوة ثم انتقض برابرة المغرب الأقصى لا قرب العهد على يدميسرة المظفرى أيام هشام بن عبد الملك ولم يراجعوا أمر العرب بعدوا استقلوا بأمر أنفسهم وان بايعوا الادريس فلا تعددولنه فيهم عربية لأن البربر الذين تولوها ولم يكن من العرب فيها كثير عدود بقيت أفريقية للأغلبية ومن اليهم من العرب فكان لهم من الحضارة بعض الشيء بما حصا لهم من ترف الملك ونعيمه وكثرة عمران القيروان وورث ذلك عنهم كتامة ثم صنهاجة من بعدهم وذلك كله قليل لم يبلغ أربعمائة سنة وانصرفت دولتهم واستحالة صبغة الحضارة بما كانت غير مستحكمة وتغلب بدو العرب الهلاليين عليها وخربوها وبقي أثر خفي من حضارة العمران فيها والى هذا العهد يؤنس فيمن سلف له بالقلعة أو القيروان أو المهدي سلف فتجدله من الحضارة في شؤون منزله وعوائد أحواله آثارا ملتبسة بغيرها يميزها الحضري البصري بها وكذا في أكثر أمصار أفريقية وليس ذلك في المغرب وأمصاره لرسوخ الدولة بأفريقية أكثر أمدا منذ عهد الأغلبية والشيعة وصنهاجة وأما المغرب فانتقل اليه منذ دولة الموحدين من الآندلس حظ كبير من الحضارة واستحكمت به عوائدها بما كان لديهم من الاستيلاء على بلاد الآندلس وانتقل الكثير من أهلها اليهم طوعا وكرها وكانت من اتساع النطاق ما عمت فكان فيها حظ صالح من الحضارة واستحكمتها ومعظمها من أهل الآندلس ثم انتقل أهل شرق الآندلس عند جالية النصارى الى أفريقية فأبقوا فيها وبأمصارها من الحضارة آثارا ومعظمها بتونس امتزجت بحضارة مصر وما ينقله المسافرون من عوائدها فكان بذلك المغرب

وأفريقية حظ صالح من الحضارة عني عليه الخلاء ورجع على أعقابهم وعاد البربر بالمغرب إلى أديانهم من  
البداءة والحشونة وعلى كل حال فآثار الحضارة بأفريقية أكثر منها بالمغرب وأمصاره لما تداول  
فيها من الدول السالفة أكثر من المغرب ولقرب عوائدهم من عوائد أهل مصر بكثرة المتردين  
بينهم فتفطن لهذا السرب بأنه خفي عن الناس وأعلم أنها أمور متناسبة وهي حال الدولة في القوة والضعف  
وكثرة الأئمة والجيل وعظم المدينة أو المصروكثرة النعمة واليسار وذلك أن الدولة والملك صورة  
الخليفة والعمران وكلها مادة لها من الرعايا والأمصار وسائر الأحوال وأموال الجباية عائدة عليهم  
ويسارهم في الغالب من أسواقهم ومتاجرهم وإذا أفض السلطان عطاءه وأمواله في أهلها انبثت فيهم  
ورحمت إليه ثم اليهم منه فهي ذاهبة عنهم في الجباية والخراج عائدة عليهم في العطاء فعنى نسبة حال الدولة  
يكون يسار الرعايا وعلى نسبة يسار الرعايا وكثرتهم يكون مال الدولة وأصله كله العمران وكثرتهم  
فاعتبره وتأمله في الدول تجده والله يحكم لامعقب لحكمه

#### ١٨ ﴿ فصل في أن الحضارة غاية العمران ونهاية عمره وأنها مؤذنة بفساده ﴾

قد بينا لك فيما سلف أن الملك والدولة غاية للعممية وأن الحضارة غاية للبداءة وأن العمران كله  
من بداءة وحضارة وملك وسوقته عمر محسوس كأن للشخص الواحد من أشخاص المكونات  
عمر محسوسا وتبين في العقول والمنقول أن الأربعين للانسان غاية في تزايد قواه ونموها وأنه  
إذا بلغ سن الأربعين وقفت الطبيعة عن أثر النشوء والنمو برهة ثم تأخذ بعد ذلك في الانحطاط فلتعلم  
أن الحضارة في العمران أيضا كذلك لأنه غاية لا مزيد وراءها وذلك أن الترف والنعمة إذا حصل لا أهل  
العمران دعاهم بطبعه إلى مذاهب الحضارة والتخلق بعوائدها والحضارة كما علمت هي التفنن في الترف  
واستجادة أحواله والكلف بالصنائع التي تؤنق من أصنافه وسائر فنونه من الصنائع المهيئة للمطابخ أو  
الملابس أو المباني أو الفرش أو الآنية وسائر أحوال المنزل وللتأنيق في كل واحد من هذه صنائع كثيرة  
لا يحتاج إليها عند البداءة وعدم التأنيق فيها وإذا بلغ التأنيق في هذه الأحوال المنزلية الغاية تبعه طاعة  
الشهوات فتتلون النفس من تلك العوائد بألوان كثيرة لا يستقيم حالها معها في دينها ولادنياها أماديتها  
فلاستحكام صبغة العوائد التي يعسر زرعها وأما دنياها فللكثرة الحاجات والمؤنات التي تطالب بها العوائد  
ويعجز الكسب عن الوفاء بها \* ويبانه أن المصير بالتفنن في الحضارة تعظم نفقات أهله والحضارة  
تفاوتت بتفاوت العمران فمتى كان العمران أكثر كانت الحضارة أكثر وكل وقد كنا قد علمنا أن المصير الكثير  
العمران يختص بالغلاء في أسواقه وأسعار حاجته ثم تزيد الكوس غلاء لأن الحضارة إنما تكون  
عند انتهاء الدولة في استفحالها وهوز من وضع الكوس في الدول لكثرة خرجها حينئذ كما تقدم  
والكوس تعود على البياعات بالغلاء لأن السوق والتجارة كلهم يحتسبون على سلمهم وبضائعهم جميع  
ما ينفقونه حتى في مؤنة أنفسهم فيكون المكس لذلك داخل في قيم البياعات وأثمانها فتعظم نفقات أهل

الحضارة وتخرج عن القصد إلى الاسراف ولا يجدون وليجة عن ذلك لما ملكهم من أثر العوائد وطاعتها وتذهب مكاسبهم كلها في النفقات ويتتابعون في الاملاق والخصاصة ويغلب عليهم الفقر ويقل المستامون للمبايع فتكسد الأسواق ويفسد حال المدينة وداعية ذلك كله افراط الحضارة والترف وهذه مفسدات في المدينة وعلى العموم في الأسواق والعمران وأما فساد أهلها في ذاتهم واحدا واحدا على الخصوص فمن الكد والتعب في حاجات العوائد والتلون بأنوا ان الشرى تحصيلها وما يعود على النفس من الضرر بعد تحصيلها بحصول آخر من ألوانها فذلك يكثر منهم الفسق والشر والسفسفة والتجمل على تحصيل المعاش من وجهه ومن غير وجهه وتنصرف النفس إلى الفكر في ذلك والغوص عليه واستجماع الحيلة له فتجدهم أجرياء على الكذب والمقاورة والغش والخلافة والسرقة والفجور في الإيمان والربا في البياعات ثم تجدهم أبصر بطرق الفسق ومذاهبه والمجاهرة به وبدواعيه واطراح الحشمة في الخوض فيه حتى بين الأقارب وذوى المحارم الذين تقتضى البداءة الحياء منهم في الاقتداع بذلك وتجدهم أيضا أبصر بالمكر والخديعة يدفعون بذلك ما عساه ينالهم من الفهر وما يتوقعونه من العقاب على تلك القبائح حتى يصير ذلك عادة وخلقاً لا كثرهم إلا من عصمه الله ويروج بحر المدينة بالسفلة من أهل الأخلق الذميمة ويحاربهم فيها كثير من ناشئة الدولة وولدانهم ممن أهمل عن التأديب وغلب عليه خلق الجواروان كانوا أهل أنساب وبيوتات وذلك أن الناس بشر متماثلون وإنما تفاضلوا وتميزوا بالخلق واكتساب الفضائل واجتناب الرذائل فمن استحكمت فيه صبغة الرذائل بأى وجه كان وفسد خلق الخير فيه لم ينفعه زكاء نسبه ولا طيب منبته ولهذا تجد كثيرا من أعقاب البيوت وذوي الاحساب والاصالة وأهل الدول منطرحين في الغمار منتحلين للحرف الدينية في معاشهم بما فسد من أخلاقهم وما تلونوا به من صبغة الشر والسفسفة وإذا كثر ذلك في المدينة أو الأمة تأذن الله بحرابها وانقرضها وهو معنى قوله تعالى وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا ووجه حينئذ أن مكاسبهم لا تفي بحاجاتهم لكثرة العوائد ومطالبة النفس بها فلا تستقيم أحوالهم وإذا فسدت أحوال الأشخاص واحدا واحدا اختل نظام المدينة وخربت وهذا معني ما يقوله بعض أهل الخواص أن المدينة إذا كثر فيها غرس النارج تأذنت بالخراب حتى إن كثير من العامة يتحامي غرس النارج بالدور وليس المراد ذلك ولا أنه خاصية في النارج وإنما معناه أن البساتين وأجراء المياه هو من توابغ الحضارة ثم إن النارج والليم والسرو وأمثال ذلك مما لا طعم فيه ولا منفعة هو من غاية الحضارة إذ لا يقصد بها في البساتين الأشكالها فقط ولا تغرس إلا بعد التفتن في مذاهب الترف وهذا هو البلور الذي يخشى معه هلاك المصر وخرابه كما قلناه ولقد قيل مثل ذلك في الدفلى وهو من هذا الباب إذ الدفلى لا يقصد بها إلا تلون البساتين بنورها ما بين أحمر وأبيض وهو من مذاهب الترف \* ومن مفاصد الحضارة أنهم مك في الشهوات والاسترسال فيها لكثرة الترف فيقع التفتن في شهوات البطن من الماء كل والملاذ ويتبع ذلك التفتن في شهوات الفرج بأنواع المناكح من الزنا واللواط



فيقضى ذلك إلى فساد النوع اما بواسطة اختلاط الأنساب كما في الزنا فيجهل كل واحد ابنه اذ هو لغير رشدة لأن المياه مختلطة في الأرحام فتفقد الشفقة الطبيعية على البنين والقيام عليهم فيهلكون ويؤدي ذلك إلى انقطاع النوع أو يكون فساد النوع كاللواط اذ هو يؤدي إلى أن لا يوجد النوع والزنا يؤدي إلى عدم ما يوجد منه ولذلك كان مذهب مالك رحمه الله في اللواط أظهر من مذهب غيره ودل على أنه أبصر بمقاصد الشريعة واعتبارها للمصالح فافهم ذلك واعتبر به أنه غاية العمران هي الحضارة والترف وأنه إذا بلغ غايته انقلب إلى الفساد وأخذ في الهرم كالأعمار الطبيعية للحيوانات بل نقول إن الأخلاق الحاصلة من الحضارة والترف هي عين الفساد لأن الإنسان إنما هو إنسان باقتداره على جلب منفعته ودفع مضاره واستقامة خلقه للسعي في ذلك والحضري لا يقدر على مباشرة حاجاته أما عجز الماحصل له من البذعة أو ترفعها لما حصل له من المربي في النعيم والترف وكلا الأمرين ذميم وكذا لا يقدر على دفع المضار واستقامة خلقه للسعي في ذلك والحضري بما فقد من خلق الإنسان بالترف والنعيم في قهر التأديب فهو بذلك عيال على الحماية التي تدافع عنه ثم هو فاسد أيضا غالبا بما فسدت منه العوائد وطاعتها وما تلونت به النفس من مكاتها كما قررناه الأفي الأقل النادر وإذا فسد الإنسان في قدرته على أخلاقه ودينه فقد فسد إنسانيته وصار مسيخا على الحقيقة وبهذا الاعتبار كان الذين يتربون على الحضارة وخلقها موجودين في كل دولة فقد تبين أن الحضارة هي سن الوقوف لعمر العالم في العمران والدولة والله سبحانه وتعالى كل يوم هو في شأن لا يشغله شأن عن شأن

#### ١٩ \* فصل في أن الأمصار التي تكون كراسي للملك تخرب بخراب الدولة وانتقاضها \*

قد استقرينا في العمران أن الدولة إذا اختلت وانتقضت فإن المصير الذي يكون كرسيا لسلطانها ينتقض عمرانه وربما ينتهي في انتقاضه إلى الخراب ولا يكاد ذلك يتخلف والسبب فيه أمور (الأول) أن الدولة لا بد في أولها من البداءة المقتضية للتجافي عن أموال الناس والبعد عن التحذلق ويدعو ذلك إلى تخفيف الجباية والمغارم التي منها مادة الدولة فتقل النفقات ويقصر الترف فاذا صار المصير الذي كان كرسيا للملك في مملكة هذه الدولة المتجددة ونقضت أحوال الترف فيها نقض الترف فيمن تحت أيديهما من أهل المصير لأن الرعايا تبع للدولة فيرجعون إلى خلق الدولة إما طوعا وإلما في طباع البشر من تقليد متبوعهم أو كرها لما يدعو إليه خلق الدولة من الاقتباس عن الترف في جميع الأحوال وقلة الفوائد التي هي مادة العوائد فتقصر لذلك حضارة المصير ويذهب منه كثير من عوائد الترف وهو معنى ما نقول في خراب المصير \* الأمر الثاني \* أن الدولة إنما يحصل لها الملك والاستيلاء والغلب وإنما يكون بعد العداوة والحروب والعداوة تقتضي منافاة بين أهل الدولتين وتكثر أحداها على الأخرى في العوائد والأحوال وغلب أحد المتنافيين يذهب بالمتنافي الآخر فتكون أحوال الدولة السابقة منكورة عند أهل الدولة الجديدة ومستبشرة وقيحة وخصوصا أحوال الترف فتفقد في عرفهم بنكير الدولة لها حتى تنشأ لهم بالتدريج عوائد

أخرى من الترف فتكون عنها حضارة مستأنفة وفيما بين ذلك قصور الحضارة الأولى ونقصها وهو معنى اختلال العمران في مصر **﴿الامر الثالث﴾** ان كل أمة لا بد لهم من وطن هو منشؤهم ومنه أولية ملكهم وإذا ملكوا ملكا آخر صار تبعاً للأول وأمصاره تابعة لمصار الأول واتسع نطاق الملك عليهم ولا بد من توسط الكرسي تخوم الممالك التي للدولة لأنه شبه المركز للنطاق في عدم مكانه عن مكان الكرسي الأول وتهوى أفئدة الناس اليه من أجل الدولة والسلطان فينتقل اليه العمران ويخف من مصر الكرسي الأول والحضارة إنما هي توفّر العمران كما قدمناه فتنتقص حضارته وتمدنه وهو معنى اختلاله وهذا كما وقع للسلاجقة في عدوهم بكرسيم عن بغداد الى أصبهان وللعرب قبلهم في العدول عن المدائن إلى الكوفة والبصرة ولبنى العباس في العدول عن دمشق الى بغداد ولبنى مرين بالمغرب في العدول عن مراكش إلى فاس وبالجملة فاتخاذ الدولة الكرسي في مصر يخل بعمران الكرسي الأول **﴿الامر الرابع﴾** ان الدولة الثانية لا بد فيها من تبع أهل الدولة السابقة وأشياءها يتحوّل إليهم الى قطر آخر يؤمن فيه غائلتهم على الدولة وأكثر أهل مصر الكرسي أشياء الدولة امامن الحامية الذين نزلوا به أول الدولة أو أعيان مصر لأن لهم في الغالب غالبة للدولة على طبقاتهم وتنوع أصنافهم بل أكثرهم ناشئ في الدولة فهم شيعة لها وإن لم يكونوا بالشوكة والعصبية فهم بالميل والمحبة والعقيدة وطبيعة الدولة المتجددة نحو آثار الدولة السابقة في تقلبهم من مصر الكرسي الى وطنها المتمكن في ملكتها فبعضهم على نوع التغريب والحبس وبعضهم على نوع الكرامة والتلطف بحيث لا يؤدي الى النفرة حتى لا يبق في مصر الكرسي الا الباعة والمهمل من أهل الفلح والعيارة وسواد العامة وينزل مكانهم حاميتا وأشياءهما من يشتد به المصرو اذا ذهب من مصر أعيانهم على طبقاتهم نقص ساكنه وهو معنى اختلال عمرانه ثم لا بد من أن يستجد عمران آخر في ظل الدولة الجديدة ونحصل فيه حضارة أخرى على قدر الدولة وانما ذلك بمثابة من له بيت على أو صاف مخصوصة فأظهر من قدرته على تغيير تلك الأوصاف وإعادة بناءها على ما يختاره ويقترحه فيخرب ذلك البيت ثم يعيد بناءه ثانياً وقد وقع من ذلك كثير في الأمصار التي هي كراسي للملك وشاهدناه وعلمناه والله يقدر الليل والنهار **﴿والسبب الطبيعي الأول﴾** في ذلك على الجملة أن الدولة والملك للعمران بمثابة الصورة للمادة وهو الشكل الحافظ بنوعه لوجودها وقد تقرر في علوم الحكمة أنه لا يمكن انفكاك أحدهما عن الآخر فالدولة دون العمران لا تتصور والعمران دون الدولة والملك متعذر لما في طباع البشر من العدوان الداعي الى الوازع فتعين السياسة لذلك أما الشرعية أو الملكية وهو معنى الدولة واذا كانا لا يفكان فاختلال أحدهما مؤثر في اختلال الآخر كما أن عدمه مؤثر في عدمه والخلل العظيم انما يكون من خلل الدولة الكلية مثل دولة الروم أو الفرس أو العرب على العموم أو بنى أمية أو بنى العباس كذلك وأما الدولة الشخصية مثل دولة أنوشروان أو هرقل أو عبد الملك بن مروان أو الرشيد فأشخاصها متعاقبة على العمران حافظة لوجوده وبقائه وقرية الشبه بعضهم ببعض فلا تؤثر كثير اختلال لأن الدولة بالحقيقة الفاعلة في مدة العمران انما هي العصبية والشوكة وهي مستمرة على أشخاص الدولة فاذا ذهبت تلك العصبية ودفعها عصبية

أخرى مؤثرة في العمران ذهب أهل الشوكة بأجمعهم وعظم الخلل كما قررناه أولاً والله سبحانه وتعالى أعلم

## ٢٠ \* فصل في اختصاص بعض الأمصار ببعض الصنائع دون بعض \*

وذلك أنه من البين أن أعمال أهل مصر يستدعي بعضها بعضاً في طبيعة العمران من التعاون وما يستدعي من الأعمال يختص ببعض أهل مصر فيقومون عليه ويستبصرون في صناعته ويختصون بوظيفته ويجعلون معاشهم فيه ورزقهم منه لعموم البلوى به في مصر والحاجة إليه وما يستدعي في مصر يكون غفلاً إذ لفائدة منتجها في الاحتراف به وما يستدعي من ذلك لضرورة المعاش فيوجد في كل مصر كالخياط والحداد والنجار وأمثالها وما يستدعي لعوائد الترف وأحواله فأنما يوجد في المدن المستبحرة في العمارة الآخذة في عوائد الترف والحضارة مثل الزجاج والصنائع والدهان والطباخ والصفار والفراش والذبايح وأمثال هذه وهي متفاوتة وبقدر ما يزيد عوائد الحضارة وتستدعي أحوال الترف تحدث صنائع لذلك النوع فتوجد بذلك مصر دون غيره ومن هذا الباب الحمامات لأنها إنما توجد في الأمصار المستحضرة المستبحرة العمران لما يدعو إليه الترف والغنى من التمتع ولذلك لا تكون في المدن المتوسطة وإن زرع بعض الملوك والرؤساء إليها فيختطها ويجري أحوالها إلا أنها إذ لم تكن لها داعية من كافة الناس فصرعان ماتهمجرت وتخرب وتفرعن عنها القومة لقلّة فائدتهم ومعاشهم منها والله يقبض ويبسط

## ٢١ \* فصل في وجود العصبية في الأمصار وتغلب بعضهم على بعض \*

من البين أن الالتحام والاتصال موجود في طباع البشر وإن لم يكونوا أهل نسب واحد إلا أنه كما قدمناه أضعف مما يكون في النسب وأنه تحصل به العصبية بعضاً مما تحصل بالنسب وأهل الأمصار كثير منهم ملتحمون بالصهر يجذب بعضهم بعضاً إلا أن يكونوا لهما قرابة قرابة وتجد بينهم من العداوة والصدقة ما يكون بين القبائل والعشائر فيفتر مثله فيفترقون شيعاً وعصائب فإذا نزل الهرم بالدولة وتقلص ظل الدولة عن القاصية احتاج أهل أمصارها إلى القيام على أمرهم والنظر في حماية بلدكم ورجعوا إلى الشورى وتميز العلية عن السفلة والنفوس بطباعها متطاولة إلى الغلب والرياسة فتطمع المشيخة لخلاء الجو من السلطان والدولة القاهرة إلا الاستبداد وينازع كل صاحبه ويستوصلون بالاتباع من الموالي والشيخ والأحلاف ويدلون ما في أيديهم للأوغاد والأوشاب فيعصو صب كل لصاحبه ويتعين الغلب لبعضهم فيعطف على كفائه ليقص من أعنتهم ويتبعهم بالقتل أو التغريب حتى يخضع منهم الشوكات النافذة ويقلم الأظفار الحادشة ويستبد بمصره أجمع ويرى أنه قد استحدث ملكاً يورثه عقبه فيحدث في ذلك الملك الأصغر ما يحدث في الملك الأعظم من عوارض الجدة والهرم وربما يسمو بعض هؤلاء إلى منازع الملوك الأعظم أصحاب القبائل والعشائر والعصبيات والزعوف والحروب والأقطار والممالك فينتحلون بهامن الجلوس على السرير واتخاذ الآلة وأعداد الموالك



للسير في أقطار البلد والتختم والحسبية والخطاب بالتمويل ما يسخر منه من يشاهد أحوالهم لما انتحلوه من شارات الملك التي لبسوا لها بأهل إغاد فعمهم إلى ذلك تقلص الدولة والتحام بعض القرابات حتى صارت عصبية وقد يتنزه بعضهم عن ذلك ويجري على مذهب السذاجة فرار من التعريض بنفسه للسخرية والعبث وقد وقع هذا بأفريقية لهذا العهد في آخر الدولة الحفصية لأهل بلاد الجريد من طرابلس وقابس وتوزر ونفطه وققصه وبسكرة والزاب وما إلى ذلك سمو إلى مثلها عند تقلص ظل الدولة عنهم منذ عقود من السنين فاستغلبوا على أمصارهم واستبدوا بأمرها على الدولة في الأحكام والحجاية وأعطوا طاعة معروفة وصفقة ممرضة وأقطعوها جانباً من الملاينة والملاطفة والالتقياد وهم يعزل عنه وأورثوا ذلك أعقابهم لهذا العهد وحدث في خلفهم من الغلظة والتجبر ما يحدث لأعقاب الملوك وخلفهم ونظموا أنفسهم في عداد السلاطين على قرب عهدهم بالسوق حتى عا ذلك مولانا أمير المؤمنين أبو العباس وانتزع ما كان بأيديهم من ذلك كما نذكره في أخبار الدولة وقد كان مثل ذلك وقع في آخر الدولة الصنهاجية واستقل بأمصار الجريد أهلها واستبدوا على الدولة حتى انتزع ذلك منه شيخ الموحدين وملكهم عبد المؤمن بن علي وتقلبهم كلهم من إمارتهم بها إلى المغرب ومعهم تلك البلاد آثارهم كما نذكر في أخبارهم وكذلك وقع بسببته لآخر دولة بني عبد المؤمن وهذا التغلب يكون غالباً في أهل السروات والبيوتات والمرشحين للمشيخة والرياسة في مصر وقد يحدث التغلب لبعض السفلة من الغوغاء والدهاء وإذا حصلت له العصبية والالتحام بالأغاد لا سباب يجره إليه المقدار في تغلب على المشيخة والعلية إذا كانوا فاقدين للعصاة والله سبحانه وتعالى غالب على أمره

### ٢٢ فصل في لغات أهل الأمصار

( اعلم ) أن لغات أهل الأمصار إنما تكون بلسان الأئمة أو الجيل الغالبين عليها أو المختطين لها وذلك كانت لغات الأمصار الإسلامية كلها بالمشرق والمغرب لهذا العهد عربية وإن كان اللسان العربي المضري قد فسدت ملكته وتغير أعرابه والسبب في ذلك ما وقع للدولة الإسلامية من التغلب على الأئمة والدين والملة صورة للوجود ولملك وكلها موادله والصورة مقدمة على المادة والدين إنما يستفاد من الشريعة وهي بلسان العرب لما أن النبي صلى الله عليه وسلم عربي فوجب هجر ماسوى اللسان العربي من الألسن في جميع ممالكها واعتبر ذلك في نهى عمر رضي الله عنه عن بطانة الأعاجم وقال أنها خب أي مكرو وخديعة فلما هجر الدين اللغات الأعجمية وكان لسان القائمين بالدولة الإسلامية عربياً هجرت كلها في جميع ممالكها لأن الناس تبعوا للسلطان وعلى دينه فصارت استعمال اللسان العربي من شعائر الإسلام وطاعة العرب وهجر الأئمة لغاتهم وألسنتهم في جميع الأمصار والممالك وصار اللسان العربي لسانهم حتى رسخ ذلك لغة في جميع أمصارهم ومدتهم وصارت الألسنة الأعجمية دخيلة فيها وغريبة ثم فسد اللسان العربي بمغالطتها في بعض أحكامه وتغير أو آخره وإن كان بقي في الدلالات على أصله وسمى لساناً

حضريا في جميع أمصار الاسلام وأيضا فأكثر أهل الأمصار في الملة لهذا العهد من أعقاب العرب  
 المالكين لها المالكين في ترفها بما كثر والعجم الذين كانوا بها وورثوا أرضهم وديارهم واللغات  
 متوارثة فبقيت لغة الأعقاب على حيال لغة الآباء وإن فسدت أحكامها بمخالطة الأعجم شيئا فشيئا وسميت  
 لغتهم حضرية منسوبة إلى أهل الجواضر والأمصار بخلاف لغة البدو من العرب فانها كانت أعرق في  
 العروية ولما تملك العجم من الديلم والسلجوقية بعدم بالمشرق ووزناتق والبربر بالمغرب وصار لهم الملك  
 والاستيلاء على جميع الممالك الاسلامية فسد اللسان العربي لذلك وكاد يذهب لولا ما حفظه من عناية  
 المسلمين بالكتاب والسنة اللذين بهما حفظ الدين وصار ذلك مرجحا لبقاء اللغة العربية المضرية من  
 الشعر والكلام الاقليل من الأمصار فلما ملك التتر والمغل بالمشرق ولم يكونوا على دين الاسلام ذهب  
 ذلك المرجح وفسدت اللغة العربية على الاطلاق ولم يبق لها رسم في الممالك الاسلامية بالعراق وخراسان  
 وبلاذ فارس وأرض الهند والسند وما وراء النهر وبلاد الشمال وبلاد الروم وذهبت أساليب اللغة العربية  
 من الشعر والكلام الاقليل يقع تعليمه صناعيا بالقوانين المتداولة من كلام العرب وحفظ كلامهم لمن  
 يسره الله تعالى لذلك وربما بقيت اللغة العربية المصرية بمصر والشام والاندلس والمغرب لبقاء الدين  
 طلبا لها فانحفظت بعض الشيء وأما في ممالك العراق وما وراءه فم يبق له أثر ولا عين حتى أن كتب العلوم  
 صارت تكتب باللسان العجمي وكذا تدريسه في المجالس والله أعلم بالصواب

### ﴿ الفصل الخامس من الكتاب الأول ﴾

( في المعاش ووجوهه من الكسب والصنائع وما يعرض في ذلك كله من  
 الأحوال. وفيه مسائل )

﴿ فصل ﴾ في حقيقة الرزق والكسب وشرحهما وأن الكسب هو قيمة الأعمال البشرية \*  
 اعلم أن الانسان مفتقر بالطبع إلى ما يقوته ويمونه في حالته وأطواره من لدن نشوة إلى أشده إلى كبره  
 والله الغني وأتم الفقراء والله سبحانه خلق جميع ما في العالم للانسان وامتن به عليه في غير ما آية  
 من كتابه فقال وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعا منه وسخر لكم البحر وسخر لكم  
 الفلك وسخر لكم الأنعام وكثير من شواهد ويد الانسان مبسوط على العالم وما فيه بما جعل  
 الله له من الاستخلاف وأيدى البشر منتشرة فهي مشتركة في ذلك وما حصل عليه يد هذا امتنع  
 عن الآخر الابعوض فالانسان متى اقتدر على نفسه وتجاوز طول الضعف سعى في اقتناء المكاسب  
 لينفق ما آتاه الله منها في تحصيل حاجاته وضروراته بدفع الاعواض عنها قل الله تعالى فابتغوا  
 عند الله الرزق وقد يحصل له ذلك بغير سعى كالمطر المصلح للزراعة وأمثاله الا أنها انما تكون  
 معينة ولا بد من سعيه معها كما يأتي فتكون له تلك المكاسب معاشا ان كانت بمقدار الضرورة والحاجة  
 ورياشا ومتمولا ان زادت على ذلك ثم ان ذلك الحاصل أو المقتني ان عادت منفعة على العبد

وحصلت له ثمرة من اتفائه في مصالحه وحاجاته سمي ذلك رزقا قل صلى الله عليه وسلم انما لك من مالك ماأكلت فأفنت أو لبست فألبيت أو تصدقت فأمضيت وان لم ينتفع به في شيء من مصالحه ولا حاجاته فلا يسمى بالنسبة الى المال كرزقوا وتملك منه حينئذ بسعي العبد وقدرته يسمى كسبا وهذا مثل التراث فانه يسمى بالنسبة الى الهالك كسبا ولا يسمى رزقا لم يحصل به منتفع وبالنسبة الى الوارثين متى انتفعوا به يسمى رزقا وهذا حقيقة مسمى الرزق عند أهل السنة وقد اشترط المعتزلة في تسميته رزقا أن يكون بحيث يصح تملكه ولا يتملك عندهم لا يسمى رزقا وأخرجوا الغصوبات والحرام كله عن أن يسمى شيء منها رزقا والله تعالى يرزق الغاصب والظالم والمؤمن والكافر ويختص برحمته وهدايته من يشاء ولهم في ذلك حجيح ليس هذا موضع بسطها \* ثم اعلم أن الكسب انما يكون بالسعي في الاقتناء والقصد الى التحصيل فلا بد في الرزق من سعي وعمل ولو في تناوله وابتغائه من وحوه قد تعالى فابتغوا عند الله الرزق والسعي اليه انما يكون باقدار الله تعالى والهامة فالكل من عند الله تعالى فلا بد من الاعمال الانسانية في كل مكسوب ومتمول لانه ان كان عملا بنفسه مثل الصنائع فظاهر وان كان مقتنى من الحيوان والنبات والمعدن فلا بد فيه من العمل الانساني كما تراه والام يحصل ولم يقع به انتفاع ثم أن الله تعالى خلق الحجرين والمعدنين من الذهب والفضة قيمة لكل متمول هما الذخيرة والقيمة لأهل العالم في الغالب وان اقتنى سواهما في بعض الأحيان فانما هو لقصد تحصيلهما بما يقع في غيرها من حوالة الأسواق التي هما عنهما معزلة ففيها أصل المكاسب والقيمة والذخيرة \* واذا تقرر هذا كله فاعلم أن ما يفيد الانسان ويقتنيه من المتمولات إن كان من الصنائع فالمفاد المقتنى منه قيمة عمله وهو القصد بالقيمة إذ ليس هناك الا العمل وليس بمقصود بنفسه للقيمة وقد يكون مع الصنائع في بعضها غيرها مثل التجارة فالجباية معها الخشب والغزل الا ان العمل فيها أكثر قيمته أكثر وان كان من غير الصنائع فلا بد في قيمته ذلك المفاد والقيمة من دخول قيمة العمل الذي حصلت به اذ لولا العمل لم تحصل قيمتها وقد تكون ملاحظة العمل ظاهرة في الكثير منها فتجعل له حصة من القيمة عظمت أو صغرت وقد تخفى ملاحظة العمل كما في أسعار الأقوات بين الناس فان اعتبار الاعمال والنفقات فيها ملاحظة في أسعار الحبوب كما قدمناه لكنه خفي في الأقطار التي علاج الفلح فيها ومؤنته يسيرة فلا يشعر به الا القليل من أهل الفلح فقد تبين أن المفادات والمكتسبات كلها أو أكثرها انما هي قيم الاعمال الانسانية وتبين مسمى الرزق وانه المنتفع به فقد بان معنى الكسب والرزق وشرح مساهما \* واعلم أنه إذا فقدت الاعمال أو قلت بانتقاص العمران تأذن الله برفع الكسب الأنزى الى الأمصار القليلة الساكن كيف يقل الرزق والكسب فيها أو يفقد لقلّة الاعمال الانسانية وكذلك الأمصار التي يكون عمرانها أكثر يكون أهلها أوسع أحوالا وأشد رفاهية كما قدمناه قبل ومن هذا الباب تقول العامة في البلاد اذا تناقص عمرانها أنها قد ذهب رزقها حتى أن الانهار والعيون ينقطع جريها في القفر لما أن فور العيون انما يكون بالانبات والامتراء الذي هو بالعمل الانساني كالحال في ضروع الأنعام فلم يكن انبات ولا



امتراء نضبت. وغارت بالجملة كما يجف الضرع اذا ترك امترأؤه وانظره في البلاد التي تعهد فيها العيون  
لأيام عمراتها ثم يأتي عليها الخراب كيف تغور مياهها جملة كأنها لم تكن والله يقدر الليل والنهار

## ٢ فصل في وجوه المعاش وأصنافه ومذاهبه

إعلم أن المعاش هو عبارة عن ابتغاء الرزق والسعي في تحصيله وهو مفعول من العيش كأنه لما كان العيش  
الذي هو الحياة لا يحصل إلا بهذه جعلت موضعاله على طريق المبالغة ثم ان تحصيل الرزق وكسبه اما أن  
يكون بأخذه من يد الغير وانتزاعه بالاقتدار عليه على قانون متعارف ويسمى مع ما وجباية واما أن  
يكون من الحيوان الوحشى باقتناصه وأخذ يرميه من البر أو البحر ويسمى اصطياد واما أن يكون من  
الحيوان الداجن باستخراج فضوله المتصرفه بين الناس في منافعهم كاللبن من الأنعام والحرير من دوده  
والعسل من نحله أو يكون من النبات في الزرع والشجر بالقيام عليه واعداده لاستخراج ثمرته ويسمى  
هذا كله فلحا واما أن يكون الكسب من الأعمال الانسانية ما في مواد معينة وتسمى الصنائع من  
كتابة ونجارة وخطا وحيكة وفروسية وأمثال ذلك أو في مواد غير معينة وهي جميع الامتھانات  
والتصرفات أن يكون الكسب من البضائع واعدادها للأعواض اما بالتقلب بها في البلاد  
واحتكارها وارتقاب حوالة الأسواق فيها ويسمى هذا تجارة فذه وجوه المعاش وأصنافه وهي  
معنا ما ذكره المحققون من أهل الأدب والحكمة كالحرير وغيره فانهم قالوا المعاش أمانة وتجارة  
وفلاحة وصناعة فأما الأمانة فليست بمذهب طبيعي للمعاش فلا حاجة بنا إلى ذكرها وقد تقدم  
شيء من أحوال الجبايات السلطانية وأهلها في الفصل الثاني وأما الفلاحة والصناعة والتجارة  
فهى وجوه طبيعية للمعاش أما الفلاحة فهى متقدمة عليها كلها بالذات اذ هى بسيطة وطبيعية فطرية  
لا تحتاج إلى نظر ولا علم ولهذا تنسب في الخليفة لا آدم أبى البشر وانه معلمها والقائم عليها اشارة الى  
أنها أقدم وجوه المعاش وأنسبها الى الطبيعة وأما الصنائع فهى تانيتها ومتأخرة عنها لانهما مركبة  
وعلمية تصرف فيها الأفكار والأنظار ولهذا لا توجد غالبا الا في أهل الحضرة الذى هو متأخر عن  
البدو وثان عنه ومن هذا المعنى نسبت إلى إدريس الألب الثانى للخليفة فانه مستنبطها لمن بعده من البشر  
بالوحي من الله تعالى وأما التجارة وان كانت طبيعية فى الكسب فالأكثر من طرقها ومذاهبها إنما  
هى تخيلات فى الحصول على ما بين القيمتين فى الشراء والبيع لتحصل فائدة الكسب من تلك  
الفضلة ولذلك أباح الشرع فيه المكاية لما أنه من باب المقامرة الا أنه ليس أخذا لمال الغير مجانا فلهذا  
اختص بالمشروعية

## ٣ فصل فى أن الخدمة ليست من المعاش الطبيعى

إعلم أن السلطان لا بد له من اتخاذ الخدمة فى سائر أبواب الأمانة والملك الذى هو بسبيله من الجندى  
والشرطى والكتاب ويستكنى فى كل باب بمن يعلم غناه فيه ويتكفل بأرزاقهم من بيت ماله وهذا كله

مندرج في الأمانة ومعاشها إذ كلهم ينسحب عليهم حكم الامارة والملك الأعظم هو ينبوع جد اولهم وأما مادون ذلك من الخدمة فسببها أن أكثر المترفين يترفع من مباشرة حاجاته أو يكون عاجزاً عنها لما ربي عليه من خلق التمتع والترفع فيتخذ من يتولى ذلك له ويقطعه عليه أجراً من ماله وهذه الحالة غير محمودة بحسب الرجولية الطبيعية للانسان إذ الثقة بكل أحد عجز ولائها تزيد في الوظائف والخرج وتدل على العجز والخنث اللذين ينبغي في مذاهب الرجولية التنزه عنهما إلا أن العوائد تقلب طباع الانسان الى مؤلوفها فهو ابن عوائده لابن نسبه ومع ذلك فالخديم الذي يستكفي ويوثق به بغنائه كالفقير إذ الخديم القائم بذلك لا يعد وأربع حالات امامه مضطلع بأمره وموثوق فيما يحصل بيده واما بالعكس فيهما وهو أن يكون غير مضطلع بأمره ولا موثوق فيما يحصل بيده واما بالعكس في إحداها فقط مثل أن يكون مضطلعاً غير موثوق أو موثوق غير مضطلع فأما الأول هو المضطلع الموثوق فلا يمكن أحد استعماله بوجه إذ هو باضطراره وثقته غنى عن أهل الرتب الدنية ومحتقر لمنال الأجر من الخدمة لاقتداره على أكثر من ذلك فلا يستعمله إلا الأمراء أهل الجاه العريض لعموم الحاجة الى الجاه وأما الصنف الثاني وهو ليس بمضطلع ولا موثوق فلا ينبغي اعاقب استعماله لأنه يجعف بمخدومه في الأمرين معا فيضيع عليه لعدم الاصطناع تارة ويذهب ماله بالخيانة أخرى فهو على كل حال كل على مولاه فهذا الصنفان لا يطمع أحد في استعمالهما ولم يبق إلا استعمال الصنفين الآخرين موثوق غير مضطلع ومضطلع غير موثوق وللناس في الترجيح بينهما مذاهبان والكل من الترجيحين وجه إلا أن المضلع ولو كان غير موثوق أرجح لأنه يؤمن من تضيعه ويحاول على التحرز من خيائته جهد الاستتاعة وأما المضيع ولو كان مأموناً فضرره بالتضيع أكثر من نفعه فاعلم ذلك واتخذ قنونا في الاستكفاء بالخدمة والله سبحانه وتعالى قادر على ما يشاء

#### ٤ ﴿فصل في أن ابتغاء الأموال من الدقائق والكنوز ليس بمعاش طبيعي﴾

إعلم أن كثير من ضعفاء العقول في الأمصار يحرصون على استخراج الأموال من تحت الأرض ويتبنون الكسب من ذلك ويعتقدون أن أموال الأمم السالفة مختزنة كلها تحت الأرض مختوم عليها كلها بطلاسم سحرية لا يفيض ختامها ذلك إلا من عثر على علمه واستحضر ما يحمله من البخور والدعاء والقربان فأهل الأمصار بأفريقية يرون أن الأفرنجية الذين كانوا قبل الاسلام بها أدفنوا أموالهم كذلك وأودعوها في الصحف بالكتاب إلى أن يجدوا السبيل إلى استخراجها وأهل الأمصار بالمشرق يرون مثل ذلك في أم القبط والروم والفرس ويتناقلون في ذلك أحاديث تشبه حديث خرافة من انتهاء بعض الطالبين لذلك إلى حفر موضع المال ممن لا يعرف طلسمه ولا خبره فيجدونه خالياً أو معموراً بالديدان أو يشاهد الأموال والجواهر موضوعة والحرس دونها منتضين سيوفهم أو تميدبه الأرض حتى يظنه خسفاً أو مثل ذلك من الهذرون نجد كثير من طلبة البر بالمرغب العاجزين عن المعاش الطبيعي وأسبابه يتقربون

أهل الدنيا بالأرزاق المتحزمة الحواشي اما بخطوط عجمية أو بما يرجم بزعمهم منها من خطوط أهل الدفائن باعطاء الأمارات عليها في أمانها يتغنون بذلك الرزق منهم بما يعيشونهم على الحفر والطلب ويموهون عليهم بأنهم إنما حملهم على الاستعانة بهم طلب الجاه في مثل هذا من منال الحكام والعقوبات وربما تكون عند بعضهم نادرة أو غريبة من الأعمال السحرية يموه بها على تصديق ما بقي من دعواه وهو بمنزل عن السحر وطرقه فيولع كثير من ضعفاء العقول بجمع الأيدي على الاحتفال والتستر فيه بظلمات الليل مخافة الرقباء وعيون أهل الدول فإذا لم يعثروا على شيء ردوا ذلك إلى الجبل بالظلم الذي ختم به على ذلك المال يخادعون به أنفسهم عن اخفاق مطامعهم والذي يحمل ذلك في الغالب زيادة على ضعف العقل إنما هو العجز على طلب المعاش بالوجوه الطبيعية للكسب من التجارة والفلح والصناعة فيطلبونه بالوجوه المنحرفة وعلى غير المجري الطبيعي من هذا وأمثاله عجزا عن السعي في المكاسب وركونا إلى تناول الرزق من غير تعب ولا نصب في تحصيله واكتسابه ولا يعلمون أنهم يوقعون أنفسهم بابتغاء ذلك من غير وجهه في نصب ومتاعب وجهه شديد أشد من الأول ويعرضون أنفسهم مع ذلك لمثل العقوبات وربما يحمل على ذلك في الأثر كثير زيادة مترف وعوائده وخروجها عن حد النهاية حتى يقصر عنها وجوه الكسب ومذاهبه ولا تفي بمطالبها فإذا عجز عن الكسب بالمجري الطبيعي لم يجد وليجة في نفسه إلا التمني لوجود المال العظيم دفعة من غير كلفة لئلي له ذلك بالعوائد التي حصل في أسرها فيحرس على ابتغاء ذلك ويستعنى فيه جهده ولهذا فأكثر من تراه يحرصون على ذلك المترفون من أهل الدولة ومن سكان الأمصار الكثير الترف المتسعة الأحوال مثل مصر وما في معناها فجد الكثير منهم مغرمين بابتغاء ذلك وتحصيله ومساءلة الركب عن شواذه كما يحرصون على الكيماء هكذا بلغني عن أهل مصر في مفاوضة من يلقونه من طلبية المغاربة لعلمهم يعثرون منه على دفين أو كنز ويزيدون على ذلك البحث عن تغوير المياه لما يرون أن غالب هذه الأموال الدفينة كلها في مجاري النيل وأنه أعظم ما يستردفينا أو نخترنا في تلك الآفاق ويموه عليهم أصحاب تلك الدفاتر المتعلقة في الاعتذار عن الوصول إليها بحرية النيل تستر بذلك من الكذب حتى يحصل على معاشه فيحرص سامع ذلك منهم على نضوب الماء بالأعمال السحرية لتحصيل مبتغاه من هذه كلفا بشأن السحر متوارثا في ذلك القطر عن أوليه فعلمهم السحرية وآثارها باقية بأرضهم في البراري وغيرها وقصة سحرة فرعون شاهدة باختصاصهم بذلك وقد تناقل أهل المغرب قصيدة ينسبونها إلى حكماء المشرق تعطى فيها كيفية العمل بالتغوير بصناعة سحرية حسبما تراه فيها وهي هذه

يا طالب السر في التغوير \* اسمع كلام الصدق من خير  
دع عنك ما قد صنفوا في كتبهم \* من قول بهتان ولفظ غرور  
واسمع لصدق مقالتي ونصيحتي \* إن كنت مما لا يرى بالزور  
فإذا أردت تغوير البئر التي \* حارت لها الأوهام في التدبير



صور كصورتك التي أوقفها \* والرأس رأس السبيل والتقوير  
ويداه ماسكتان للجبل الذي \* في الدلو ينشل من قرار البير  
وبصدره هاء كما عاينتها \* عدد الطلاق احذر من التكرير  
ويطأ على الطاآت غير ملامس \* مشى الليب الكيس التحرير  
ويكون حول الكل خط دائر \* تريعة أولى من التكوير  
واذبح عليه الطير والطخه به \* واقصده عقب الذبح بالتخير  
بالسندورس وباللبان وميعة \* والقسط والبسه ثوب حرير  
من أحمر أو أصفر لأزرق \* لأخضر فيه ولا تسكير  
ويشده خيطان صوف أبيض \* أو أحمر من خالص التحمير  
والطالع الأسد الذي قد بينوا \* ويكون بدء الشهر غير منير  
والبدر متصل بسعد عطارد \* في يوم سبت ساعة التدبير

يعني أن تكون الطاآت بين قدميه كأنه يمشي عليها وعندى أن هذه القصيدة من تمويهاات المتخرفين  
فلهم في ذلك أحوال غريبة واصطلاحات عجبية وتنتهى التخرفة والكذب بهم إلى أن يسكنوا المنازل  
المشهوره والدور المعروفة لمثل هذه ويحتفرون الحفر ويضعون المطابق فيها والشواهد التي يكتبونها  
في صحائف كذبهم ثم يقصدون ضعفاء العقول بأمثال هذه الصحائف ويبعثون على اكتراء ذلك  
المنزل وسكناء ويوهمون أن به دفينا من المال لا يعبر عن كثرته ويطالبون بالمال لا شراء العقاقير  
والبخورات لحل الطلاسم ويعدون به بظهور الشواهد التي قد أعدوها هنالك بأنفسهم ومن فعلهم  
فينبث لما يراه من ذلك وهو قد خدع ولبس عليه من حيث لا يشعر وبينهم في ذلك إصطلاح في كلامهم  
بلبسوا به عليهم ليخفي عند محاورتهم فيما يتلونه من حفر ونحور وذبح حيوان وأمثال ذلك وأما الكلام  
في ذلك على الحقيقة فلا أصل له في علم وذخبروا علم أن الكنوز وإن كانت توجد لكنها في حكم النادر على  
وجه الاتفاق لا على وجه القصد اليها وليس ذلك بأمر تعم به البلوى حتى يدخر الناس أموالهم تحت الأرض  
ويختمون عليها بالطلاسم لافي القديم ولا في الحديث والركاذا الذي ورد في الحديث وفرضه الفقهاء وهو دفين  
الجاهلية إنما يوجد بالعثور والاتفاق لا بالقصد والطلب وأيضا فمن اختزن ماله وختم عليه بالأعمال السحرية  
فقد بالغ في إخفائه فكيف ينصب عليه الأدلة والأمارات لمن يبتغيه ويكتب ذلك في الصحائف حتى يطلع  
على دخيرته أهل الأعصار والآفاق هذا يناقض قصد الاخفاء وأيضا فاعمال العقلاء لا بد وأن تكون لغرض  
مقصود في الانتفاع واختزن المال فإنه يختزنه لولده أو قريبه أو من يؤثره وأن يقصد ما أخفاه بالكلية  
عن كل أحد وإنما هو للبلاء والهلاك أو لمن لا يعرفه بالكلية ممن سينتفى من الأثم فهذا ليس من مقاصد  
العقلاء بوجه \* وأما قولهم أين أموال الأثم من قبلنا وما علم فيها من الكثرة والوفور فاعلم أن  
الأموال من الذهب والفضة والجواهر والأمتعة إنما هي معادن ومكاسب مثل الحديد والنحاس

والرصاص وسائر العقارات والمعادن والعمران يظهرها بالأعمال الانسانية ويزيد فيها أو ينقصها وما يوجد منها بأيدي الناس فهو متناقل متوارث وربما انتقل من قطر إلى قطر ومن دولة إلى أخرى بحسب أغراضه والعمران الذي يستدعى له فان نقص المال في المغرب وأفريقية فم ينقص ببلاد الصقالية والافرنج وإن نقص في مصر والشام فم ينقص في الهند والصين وإنما هي الآلات والمكاسب والعمران يوفرها أو ينقصها مع أن المعادن يدركها البلاء كما يدرك سائر الموجودات ويسرع إلى اللؤلؤ والجوهر أعظم مما يسرع إلى غيره وكذا الذهب والفضة والنحاس والحديد والرصاص والقصدير ينالها من البلاء والفناء ما يذهب بأعيانها لا قرب وقت وأما ما وقع في مصر من أمر المطالب والكنوز فسيببه أن مصر في ملكة القبط منذ آلاف أو يزيد من السنين وكأن موتاهم يدفنون بموجودهم من الذهب والفضة والجوهر واللائي على مذهب من تقدم من أهل الدول فلما اتقضت دولة القبط وملك الفرس بلادهم تقرأ على ذلك في قبورهم وكشفوا عنه فأخذوا من قبورهم ما لا يوصف كالآهرام من قبور الملوك وغيرها وكذا فعل اليونانيون من بعدهم وصارت قبورهم مظنة لذلك لهذا العهد ويعثر على الدفين فيها في كثير من الأوقات إما يدفونه من أموالهم أو ما يكرمون به موتاهم في الدفن من أوعية وتوابيت من الذهب والفضة معدة لذلك فصارت قبور القبط منذ آلاف من السنين مظنة لوجود ذلك فيها فلذلك عني أهل مصر بالبحث عن المطالب لوجود ذلك فيها واستخراجها حتى أنهم حين ضربت المكوس على الأصناف آخر الدولة ضربت على أهل المطالب وصدرت ضريبة على من يشتغل بذلك من الخلق والمهوسين فوجد بذلك المتماطون من أهل الاطماع التريعة إلى الكشف عنه والذرع باستخراجه وما حصلوا الا على الحمية في جميع مساعيهم نعوذ بالله من الخسران فيحتاج من وقع له شيء من هذا الوسواس وابتلى به أن يتعوذ بالله من العجز والكسل في طلب معاشه كما تعوذ رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك وينصرف عن طرف الشيطان ووسواسه ولا يشغل نفسه بالحالات والمكاذب من الحكايات والله يرزق من يشاء بغير حساب

#### ٥ ﴿ فصل في أن الجاه مفيد للمال ﴾

وذلك أن الجاه صاحب المال والحظوة في جميع أصناف المعاش أكثر يسارا وثروة من فقد الجاه والسبب في ذلك أن صاحب الجاه مخدوم بالأعمال يتقرب بها إليه في سبيل التزلف والحاجة إلى جاهه والناس معينون له بأعمالهم في جميع حاجاته من ضروري أو حاجي أو كالي فتحصل قيم تلك الأعمال كلها من كسبه وجميع ما شأنه أن تبذل فيه الأعاوض من العمل يستعمل فيه الناس من غير عوض فتتوفر قيم تلك الأعمال عليه فهو بين قيم للأعمال يكتبها وقيم أخرى تدعوه الضرورة إلى إنجها فتتوفر عليه والأعمال لصاحب الجاه كثيرة فتفيد الغنى لا قرب وقت ويزداد مع الأيام يسارا وثروة ولهذا المعنى كانت الامارة أحد أسباب المعاش كما قدمناه وفقد الجاه بالكلية ولو كان صاحب مال فلا

يكون يساره إلا بمقدار ماله وعلى نسبة سعيه وهؤلاء هم أكثر التجار ولهذا تجد أهل أحد منهم يكونون أيسر بكثير ومما يشهد بذلك أننا نجد كثير من الفقهاء وأهل الدين والعبادة إذا اشتهر حسن الظن بهم واعتقد الجمهور معاملته الله في أرفاده فأخلص الناس في اعانتهم على أحوال دنياهم والاعمال في مصالحهم أسرع إليهم الثروة وأصبحوا مياسير من غير مال مقتنى إلا ما يحصل لهم من قيم الاعمال التي وقعت المعونة بها من الناس لهم رأينا من ذلك أعدادا في الأمصار والمدن وفي البدو ويسعى لهم الناس في الفلح والتجر وكل قاعد بمنزله لا يبرح من مكانه فينمو ماله ويعظم كسبه ويتأثر الغني من غير سعي ويعجب من لا يفتن لهذا السر في حال ثروته وأسباب غناه ويساره والله سبحانه وتعالى يرزق من يشاء بغير حساب

## ٦ فصل أن السعادة والكسب إنما يحصل غالبا لأهل الخضوع والتملق وأن هذا الخلق من أسباب السعادة

قد سلف لنا فيما سبق أن الكسب الذي يستفده البشر إنما هو قيم أعمالهم ولو قدر أحد عطل عن العمل جملة لكان فاقدا للكسب بالكلية وعلى قدر عمله وشرفه بين الاعمال وحاجة الناس إليه يكون قدر قيمته وعلى نسبة ذلك نمو كسبه أو نقصانه وقد بينا أنفا أن الجاه يفيد المال لما يحصل لصاحبه من تقرب الناس إليه بأعمالهم وأموالهم في دفع المضار وجلب المنافع وكان ما يتقربون به من عمل أو مال عوضا عما يحصلون عليه بسبب الجاه من الأغراض في صالح أو طالح وتصير تلك الاعمال في كسبه وقيمها أموال وثروة له فيستفيد الغني واليسار لا يقرب وقت ثم أن الجاه متوزع في الناس ومرتب فيهم طبقة بعد طبقة ينتهي في العلو إلى الملوك الذين ليس فوقهم يد عالية وفي السفلى إامن لا يملك ضرا ولا نقابين أبناء جنسه وبين ذلك طبقات متعددة حكمة الله في خلقه بما ينتظم معاشهم وتتيسر مصالحهم ويتم بقاؤهم لأن النوع الانساني لا يتم وجوده إلا بالتعاون وأنه وإن ندر فقد ذلك في صورة مفرودة لا يصح بقاؤه ثم إن هذا التعاون لا يحصل إلا بالاكراه عليه لجهلهم في الأثر بمصالح النوع ولما جعل لهم من الاختيار وإن أفعالهم إنما تصدر بالفكر والروية لا بالطبع وقد تمتع من المعاونة فيتعين حمله عليها فلا بد من حامل يكره أبناء النوع على مصالحهم لتمام الحكمة الالهية في بقاء هذا النوع وهذا معنى قوله تعالى ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمة ربك خير مما يجمعون فقد تبين أن الجاه هو القدرة الحاملة للبشر على التصرف فيمن تحت أيديهم من أبناء جنسهم بالاذن والمنع والتسلط بالقهر والغلبة ليحملهم على دفع مضارهم وجلب منافعهم في العدل بأحكام الشرائع والسياسة وعلى أغراضه فيما سوي ذلك ولكن الأول مقصود في العناية الربانية بالذات والثاني داخل فيها بالعرض كسائر الشرور الداخلة في اسضاء الالهى لأنه قد لا يتم وجود الخير الكثير إلا بوجود شريسي من أجل المواد فلا يفوت الخير بذلك بل يقع على ما ينطوى عليه من الشر اليسير وهذا معنى وقوع الظلم في الخليقة



فتفهم ثم إن كل طبقة من طباق أهل العمران من مدينة أو إقليم لها قدرة على من دونها من الطباق وكل واحد من الطبقة السفلى يستمد بندي الجاه من أهل الطبقة التي فوقه ويزداد كاسبه تصرفا فيمن تحت يده على قدر ما يستفيد منه والجاه على ذلك داخل على الناس في جميع أبواب المعاش ويتسع ويضيق بحسب الطبقة والطور الذي فيه صاحبه فإن كان الجاه متسعا كان الكسب الناشئ عنه كذلك وإن كان ضيفا قليلا فثقله وفاقدا لجاه وإن كان له مال فلا يكون يساره إلا بمقدار عمله وأوماله ونسبة سعيه ذاهبا وآيبا في تنميته كأكثر التجار وأهل الفلاحة في الغالب وأهل الصنائع كذلك إذا فقدوا الجاه واقتصروا على فوائد صنائعهم فانهم يصيرون إلى الفقر والخصاصة أو في الأكثر ولا تسرع اليهم ثروة وإنما يرمقون العيش ترميقا ويدافعون ضرورة الفقر مدافعة وإذا تقرر ذلك وأن الجاه متفرع وأن السعادة والخير مقترنان بحصوله علمت أن بذله وإفادته من أعظم النعم وأجلها وإن باذله من أجل المنعمين وإنما يبذله لمن تحت يديه فيكون بذله بيد عالية وعزة فيحتاج طالبه ومبتغيه إلى خضوع وتملق كما يسأل أهل العز والملوك وإلا فيتعذر حصوله فلذلك قلنا أن الخضوع والتملق من أسباب حصول هذا الجاه المحصل للسعادة والكسب وإن أكثر أهل الثروة والسعادة بهذا التملق ولهذا نجد الكثير ممن يتخلق بالترافع والشمم لا يحصل لهم غرض الجاه فيقتصرون على التكسب على أعمالهم ويصيرون إلى الفقر والخصاصة واعلم أن هذا الكبر والترفع من الأخلق المذمومة إنما يحصل من توهم الكمال وإن الناس يحتاجون إلى بضاعة من علم أو صناعة كالعالم المتجر في علمه أو الكاتب المجيد في كتابته أو الشاعر البليغ في شعره وكل محسن في صناعته يتوهم أن الناس محتاجون لما بيده فيحدث له ترفع عليهم بذلك وكذا يتوهم أهل الأنساب ممن كان في آباءه ملك أو عالم مشهور أو كامل في طور يعبرون بما رأوه أو سمعوه من حال آباءهم في المدينة ويتوهمون أنهم استحقوا مثل ذلك بقرابتهم إليهم ووراثتهم عنهم فهم مستمسكون في الحاضر بالأمم المردوم وكذلك أهل الحيلة والبصر والتجارب بالأمور قديتوهم بعضهم كما لا في نفسه بذلك واحتياجا إليه وتجدد هؤلاء الأصناف كلهم مترفعين لا يخضعون لصاحب الجاه ولا يتملقون لمن هو أعلى منهم ويستصغرون من سواهم لا اعتقادهم الفضل على الناس فيستنكف أحدهم عن الخضوع ولو كان للملك ويعده مذلة وهو أنا وسفها ويحاسب الناس في معاملتهم إياه بمقدار ما يتوهم في نفسه ويحقد على من قصر له في شيء مما يتوهمه من ذلك وربما يدخل على نفسه الهموم والأحزان من تقصيرهم فيه ويستمر في عناء عظيم من إيجاب الحق لنفسه أو إباية من الناس له من ذلك ويحصل له المقت من الناس لما في طباع البشر من التأله وقل أن يسلم أحد منهم لأحد في الكمال والترفع عليه إلا أن يكون ذلك بنوع من القهر والغلبة والاستطالة وهذا كله في ضمن الجاه فاذا فقد صاحب هذا الخلق الجاه وهو مفقوده كما تبين لك مقتته الناس بهذا الترفع ولم يحصل له حظ من إحسانهم وقفا لجاهه لذلك من أهل الطبقة التي هي أعلى منه لأجل المقت وما يحصل له بذلك من العقود عن تعاهدهم وغشيان منازلهم ففسد مماشه وبقي في خصاصة وفقر أو فوق ذلك بقليل وأمال الثروة فلا تحصل له أصلا ومن هذا الشتر بين الناس

أن الكامل في المعرفة محروم من الحظ وإنه قد حوسب بما رزق من المعرفة واقتطع له من ذلك من الحظ وهذا معناه ومن خلق لشيء يسره والله المقدر لأرب سواه ولقد يقع في الدول اضطراب في المراتب من أهل هذا الخلق ويرتفع فيها كثير من السفلة وينزل كثير من العلية بسبب ذلك وذلك أن الدول إذا بلغت نهايتها من التغلب والاستيلاء انقرد منها منبت الملك بملكهم وسلطانهم ويئس من سوام من ذلك وإنما صاروا في مراتب دون مرتبة الملك وتحت يد السلطان وكأنهم خول له فإذا استمرت الدولة وشمخ الملك تساوى حينئذ في المنزلة عند السلطان كل من انتمى إلى خدمته وتقرب إليه بنصيحة واصطنعه لغنائاه في كثير من مهماته فتجد كثيرا من السوقة يسعى في التقرب من السلطان بحده ونصح ويزلف إليه بوجوه خدمته ويستعين على ذلك بعظيم من الخضوع والتعلق له ولحاشيته وأهل نسبه حتى يرسخ قدمه معهم وينظمه السلطان في جملة فيحصل له بذلك حظ عظيم من السعادة وينتظم في عدد أهل الدولة وناشئة الدولة حينئذ من أبناء قومها الذين ذللوا أضغانهم ومهدوا أكنافهم مغترون بما كان لأبائهم في ذلك من الآثار فيسمح به نفوسهم على السلطان ويتعدون بآثاره ويجرون في مضمار الدولة بسببه فيمقتهم السلطان لذلك ويباعدنهم ويميل إلى هؤلاء المصطنعين الذين لا يعتدون بقديم ولا يذهبون إلى دالة ولا ترفع إنماد أبهم الخضوع له وانتملق والاعتمال في غرضه متى ذهب إليه فيتسع جاههم وتعلو منازلهم وتنصرف إليهم الوجوه والخواطر بما يحصل لهم من قبل السلطان والمكانة عنده ويبقى ناشئة الدولة فيهم فيه من الترفع والاعتداد بالقديم لا يزيد ذلك إلا بعدا من السلطان ومقتاوايثارا هؤلاء المصطنعين عليهم إلى أن تنقرض الدولة وهذا أمر طبيعي في الدولة ومنه جاء شأن المصطنعين في الغالب والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق لأرب سواه

## ٧ \* فصل في أن القائمين بأمور الدين من القضاء والفتيا والتدريس والامامة

والخطابة والأذان ونحو ذلك لا تعظم ثروتهم في الغالب \*

والسبب لذلك أن الكسب كما قدمناه قيمة الأعمال وأنها متفاوتة بحسب الحاجة إليها فإذا كانت الأعمال ضرورية في العمران عامة البلوي به كانت قيمتها أعظم وكانت الحاجة إليها أشد وأهل هذه البضائع الدينية لا تضطر إليهم عامة الخلق وإنما يحتاج إلى ما عندهم الخواص ممن أقبل على دينه وإن احتيج إلى الفتيا والقضاء في الخصومات فليس على وجه الاضطرار والعموم فيقع الاستغناء عن هؤلاء في الأكثر وإنما هم باقامة مراسم صاحب الدولة بما له من النظر في المصالح فيقسم له حظا من الرزق على نسبة الحاجة إليهم على النحو الذي قررناه لا يساويهم بأهل الشوك ولا بأهل الصنائع من حيث الدين والمراسم الشرعية لكنه يقسم بحسب عموم الحاجة وضرورة أهل العمران فلا يصح في قسمهم إلا القليل وهم أيضا الشرف بضائعهم أعزة على الخلق وعند نفوسهم فلا يخضعون لأهل الجاه حتى ينالوا منه حظا يستدرون به الرزق بل ولا تفرغ أوقاتهم لذلك لما هم فيه من الشغل بهذه البضائع الشريفة المشتملة

على أعمال الفكر والبدن بل ولا يسعهم ابتدال أنفسهم لأهل الدنيا لشرف بضائعهم فهم بمعزل عن ذلك فذلك لا تعظم ثروتهم في الغالب ولقد باحثت بعض الفضلاء فذكر ذلك على فوق يدي أوراق مخرفة من حسابات الدواوين بدار المأمون تشتمل على كثير من الدخل والخرج وكان فيما طالعت فيه أرزاق القضاة والأئمة والمؤذنين فوقفته عليه وعلم منه حجة ما قلته ورجع اليه وقضينا العجب من أسرار الله في خلقه وحكمته في عوالمه والله الخالق القادر لارب سواه

#### ٨ \* فصل في أن الفلاح من معاش المستضعفين وأهل العافية من البدو \*

ولذلك أنه أصيل في الطبيعة وبسيط في منجاءه ولذلك لا تجده ينتحله أحد من أهل الحضرة في الغالب ولا من المترفين ويختص منتحله بالمذلة قل صلى الله عليه وسلم وقد رأى السكة ببعض دور الأئصار ما دخلت هذه دار قوم الادخله الذل وحمله البخارى على الاستكثار منه وترجم عليه باب ما يحذر من عواقب الاشتغال بآلة الزرع أو تجاوز الحد الذي أمر به والسبب فيه والله أعلم - ما يتبعها من المغمم المفضى إلى التحك واليد العالية فيكون الغارم ذليلاً بأئساباً تتناول له أيدي القهر والاستطالة قال صلى الله عليه وسلم لا تقوم الساعة حتى تعود الزكاة مغرماً إشارة إلى الملك العضوض القاهرة للناس الذي معه التسلط والجور ونسيان حقوق الله تعالى في التمولات واعتبار الحقوق كلها مغرماً للملوك والدول والله قادر على ما يشاء والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

#### ٩ \* فصل في معنى التجارة ومذاهبها وأصنافها \*

اعلم أن التجارة محاولة الكسب بتنمية المال بشراء السلع بالرخص وبيعها بالغلاء أي بما كانت السلعة من رقيق أو زرع أو حيوان أو قماش وذلك القدر الناقص يسمى ربحاً فالمحاولة لذلك الربح إما أن يختزن السلعة ويتحين بها حوالة الأسواق من الرخص إلى الغلاء فيعظم ربحه وإما بأن ينقله إلى بلد آخر تنفق فيه تلك السلعة أكثر من بلده الذي اشتراها فيه فيعظم ربحه ولذلك قل بعض الشيوخ من التجار لطالب الكشف عن حقيقة التجارة أنا علمها لك في كلمتين اشتراء الرخيص وبيع الغالي فقد حصلت التجارة إشارة له بذلك إلى المعنى الذي قررناه والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق لارب سواه

#### ١٠ \* فصل في أي أصناف الناس يحترف بالتجارة وأيهم ينبغي له اجتناب حرفها \*

قد قدمنا أن معنى التجارة تنمية المال بشراء البضائع ومحاولة بيعها بأعلى من ثمن الشراء إما بانتظار حوالة الأسواق أو نقلها إلى بلده فيه أنفق وأعلى أو بيعها بالغلاء على الآجال وهذا الربح بالنسبة إلى أصل المال يسير إلا أن المال إذا كان كثيراً أعظم الربح لأن القليل في الكثير كثير ثم لا بد في محاولة هذه التنمية من حصول هذا المال بأيدي الباعة بشراء البضائع وبيعها ومعاملتهم في تقاضي أثمانها وأهل النصفة قليل فلا بد من الغش والتطفيف المجحف بالبضائع ومن المظل في الاثمان المجحف بالربح كتهطيل المحاولة في تلك المدة ونماؤه ومن الجحود والانكار المسحت لرأس المال إن لم يتقيد بالكتاب والشهادة



وغاء الحكام في ذلك قليل لأن الحكم إنما هو على الظاهر فيعاني التاجر من ذلك أحوالاً صعبة ولا يكاد يحصل على ذلك التافه من الربح إلا بعظم العناء والمشقة أو لا يحصل أو يتلاشى رأس ماله فإن كان جريئاً على الخصومة بصير بالحبسان شديد الماحكة مقدماً على الحكام كان ذلك أقرب له إلى النصفه بجراسته منهم وتماحكته وإلا فلا بد له من جاء يدرع به يوقع له الهيبة عند الباعة ويحمل الحكام على انصافه من معامليه فيحصل له بذلك النصفه في ماله طوعاً في الأول وكرهاً في الثاني وأما من كان فاقداً الجراءة والاقدام من نفسه فاقداً للجاء من الحكام فينبغي له أن يجتنب الاحتراف بالتجارة لأنه يعرض ماله للضياع والذهاب ويصير مأكلة للباعة ولا يكاد ينتصف منهم لأن الغالب في الناس وخصوصاً الرعاع والباعه شرهون إلى ما في أيدي الناس سواء هم متوئبون عليه ولولا وازع الأحكام لأصبحت أموال الناس نهباً ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين

### ١١ ﴿ فصل في أن خلق التجار نازلة عن خلق الأشراف والملوك ﴾

وذلك أن التجار في غالب أحوالهم إنما يعانون البيع والشراء ولا بد فيه من المكايسة ضرورة فإن اقتصر عليها اقتصرت به على خلقها وهي أعنى خلق المكايسة بعيدة عن الروعة التي تتخلق بها الملوك والأشراف وأما إن استرذل خلقه بما يتبع ذلك في أهل الطبقة السفلى منهم من الماحكة والغش والخلافة وتعاهد الأيمان الكاذبة على الأثمان رداً وقبولا فأجدر بذلك الخلق أن يكون في غاية المذلة لما هو معروف ولذلك تجد الرياسة يتحامون الاحتراف بهذه الحرفة لأجل ما يكسب من هذا الخلق وقد يوجد منهم من يسلم من هذا الخلق ويتحاماه لشرف نفسه وكرم جلاله إلا أنه في النادرين الوجود والله يهدي من يشاء بفضله وكرمه وهورب الأولين والآخرين

### ١٢ ﴿ فصل في نقل التاجر للسلع ﴾

التاجر البصير بالتجارة لا يتقل من السلع إلا ما تم الحاجة إليه من الغنى والفقر والسلطان والسوقة إذ في ذلك نفاق سلعته وأما إذا اختص نقله بما يحتاج إليه البعض فقط فقد يتعذر نفاق سلعته حينئذ بأعواز الشراء من ذلك البعض لعارض من العوارض فتكسب سوقه وتفسد أرباحه وكذلك إذا نقل السلعة المحتاج إليها فأنما يتقل الوسط من صنفها فإن الغالى من كل صنف من السلع إنما يختص به أهل الثروة وحاشية الدولة وهم الأقل وإنما يكون الناس أسوة في الحاجة إلى الوسط من كل صنف فليتحري ذلك جهده ففيه نفاق سلعته أو كسادها وكذلك نقل السلع من البلد البعيد المسافة أو في شدة الخطر في الطرقات يكون أكثر فائدة للتجار وأعظم أرباحاً وكفل بحالة الأسواق لأن السلعة المنقولة حينئذ تكون قليلة معوزة أبعد مكانها أو شدة الغرر في طريقها فيقل حاملوها ويعز وجودها وإذا قلت وعزت غلت أثمانها وأما إذا كان البلد قريب المسافة والطريق سائلاً من فانه حينئذ يكثر ناقلوها فتكثر وترخص أثمانها ولهذا نجد التجار الذين يولعون بالدخول إلى بلاد السودان أرفه الناس وأكثرهم

أموال البعدر يقيم ومشقته واعتراض المفازة الصعبة المخطرة بالخوف والعطش لا يوجد فيها الماء إلا في  
أما كن معلومة يهتدى إليها أدلاء الركبان فلا يرتكب خطر هذا الطريق وبعده إلا الأقل من الناس  
فنجده سلع بلاد السودان قليلة لدينا فتختص بالغلاء وكذلك سلعنا لديهم فتعظم بضائع التجار من  
تناقلها ويسرع اليهم الغنى والثروة من أجل ذلك وكذلك المسافرون من بلادنا إلى المشرق لبعده الشقة  
أيضا وأما المترددون في أفق واحد ما بين أمصاره وبلدانه فقائدتهم قليلة وأرباحهم تافهة لكثرة  
السلع وكثرة ناقلها والله هو الرازق ذو القوة المتين

### ١٣ \* فصل في الاحتكار \*

وما اشتهر عند ذوى البصر والتجربة في الأمصار أن احتكار الزرع لتحين أوقات الغلاء مشؤم  
وأنه يعود على الزارع بالتلف والخسران وسببه والله أعلم أن حاجاتهم إلى الأقوات مضطرون إلى ما  
يبدلون فيها من المال اضطارا فتبقى النفوس متعلقة به وفي تعلق النفوس بالمهاسر كبير وبالله على من  
يأخذ مجانا ولعله الذي اعتبره الشارع في أخذ أموال الناس بالباطل وهذا وإن لم يكن مجانا فالنفوس  
متعلقة به لأعطائه ضرورة من غير سعة في العذر فهو كالمكره وما عدا الأقوات والمأكولات من  
المبيعات لا اضطار للناس اليها وإنما يعثم عليها التفتن في الشهوات فلا يبدلون أموالهم فيها إلا باختيار  
وحرص ولا يبقى لهم تعلق بما أعطوه فلهذا يكون من عرف بالاحتكار تجتمع القوى النفسانية على متابعته  
لما يأخذ من أموالهم فيفسد بحمده والله تعالى أعلم \* وسمعت فيما يناسب هذا حكاية ظريفة عن بعض مشيخة  
المغرب أخبرني شيخنا أبو عبد الله الأبلق قال حضرت عند القاضي بفاس لعهد السلطان أبي سعيد وهو الفقيه  
أبو الحسن المليبي وقد عرض عليه أن يختار بعض الألقاب المخزنية لجرايته قال فأطرق مليا ثم قال لهم  
من مكس الخمر فاستضحك الحاضرون من أصحابه وعجبوا وسألوه عن حكمة ذلك فقال إذا كانت الجبايات  
كلها حراما فاختر منها ما لا يتابعه نفس معطية والخمر قل أن يبدل فيها أحد ماله إلا وهو طرب مسرور  
بوجدانه غير آسف عليه ولا متعلقة به نفسه وهذه ملاحظة غريبة والله سبحانه وتعالى يعلم ما تكن الصدور

### ١٤ \* فصل في أن رخص الأسعار مضر بالمحترفين بالرخص \*

وذلك أن الكسب والمعاش كما قدمناه إنما هو بالصنائع أو التجارة أو التجارة هي شراء البضائع والسلع  
وادخارها يتحين بها حوالة الأسواق بالزيادة في أثمانها ويسمى ربحا ويحصل منه الكسب والمعاش  
للمحترفين بالتجارة دائما فإذا استديم الرخص في سلعة أو عرض من مأكول أو ملبوس أو متمول على  
الجملة ولم يحصل للتاجر حوالة الأسواق فسد الربح والنماء بطول تلك المدة وكسدت سوق ذلك الصنف  
فقعد التجار عن السعي فيها وفسدت رؤس أموالهم واعتبر ذلك أولا بالزرع فإنه إذا استديم رخصه  
يفسده حال المحترفين بسائر أطواره من الفلج والزراعة لقلّة الربح فيه وندارته أو فقده فيفقدون  
النماء في أموالهم أو يحدونه على قلة ويعودون بالانفاق على رؤس أموالهم وتفسد أحوالهم ويصيرون إلى

الفقر والخصاصة ويتبع ذلك فساد حال المحترفين أيضاً بالطحن والخبز وسائر ما يتعلق بالزراعة من الحرث إلى صيرورته ما كولا وكذا يفسد حال الجندي إذا كانت أرزاقهم من السلطان على أهل الفلح زرعاً فانهاتقل جبايتهم من ذلك ويعجزون عن إقامة الجندية التي هم بسببها ومطالبون بها ومنقطعون لها فتنفسد أحوالهم وكذا إذا استديم الرخص في السكر أو العسل فسد جميع ما يتعلق به وقعد المحترفون عن التجارة فيه وكذا اللبوسات إذا استديم فيها الرخص فإذا الرخص المفرط يجحف بمعاش المحترفين بذلك الصنف الرخيص وكذلك الغلاء المفرط أيضاً وانما معاش الناس وكسبهم في التوسط من ذلك وسرعة حوالة الأسواق وعلم ذلك يرجع إلى العوائد المتقررة بين أهل العمران وانما يحمد الرخص في الزرع من بين المبيعات لعموم الحاجة إليه واضطرار الناس إلى الأقوات من بين الغنى والفقير والعالة من الخلق هم الأثمة كثر في العمران فيعم الرفق بذلك ويرجع جانب القوتى على جانب التجارة في هذا الصنف الخاص والله الرازق ذى القوة المتين والله سبحانه وتعالى رب العرش العظيم

#### ١٥ ﴿ فصل في أن خلق التجارة نازلة عن خلق الرؤساء وبعيد من المروءة ﴾

قد قدمنا في الفصل قبله أن التاجر مدفوع إلى معاناة البيع والشراء وجلب الفوائد والأرباح ولا بد في ذلك المسكاسة والمحاكمة والتدخل وممارسة الخصومات واللاجاج وهي عوارض هذه الحرفة وهذه الأوصاف نقص من الزكاء والمروءة وتخرج فيها لأن الأفعال لا بد من عود آثارها على النفس فافعال الخير تعود بآثار الخير والزكاء وأفعال الشر والفسفة تعود بضد ذلك فتتمكن وترسخ إن سبقت وتكررت وتنقص خلال الخير إن تأخرت عنها بما ينطبع من آثارها المذمومة في النفس شأن الملكات الناشئة عن الأفعال وتتفاوت هذه الآثار بتفاوت أصناف التجار في أطوارهم فمن كان منهم سافل الطور محالفاً لأشرار الباعة أهل الغش والخلاصة والفجور في الأثمان أقراراً وانكاراً كانت رداءة تلك الخلق عنه أشد وغلبت عليه السفسفة وبعد عن المروءة واكتسابها بالجملة والأفلا بد له من تأثير المسكاسة والمحاكمة في مروءته ووققدان ذلك منهم في الجملة ووجود الصنف الثاني منهم الذي قدمناه في الفصل قبله أنهم يدرعون بالجاه ويعوض لهم من مباشرة ذلك فهم نادر وأقل النادر وذلك أن يكون المال قد يوجد عنده دفعة بنوع غريب أو ورثه عن أحد من أهل بيته فحصلت له ثروة تعينه على الاتصال بأهل الدولة وتكسبه ظهوراً وشهرة بين أهل عصره فيرتفع عن مباشرة ذلك بنفسه وبدفعه إلى من يقوم له من وكلائه وحشمه ويسهل له الحكم النصفية في حقوقهم بما يؤنسهم من بره واثابة فيبعدونه عن تلك الخلق بالبعد عن معاناة الأفعال المقتضية لها كما مر فتكون مروءتهم أرسخ وأبعد عن تلك الحاجة إلا ما يسرى من آثار تلك الأفعال من وراء الحجاب فانهم يضطرون إلى مشاركة أحوال أولئك ووافقهم أو خلافهم فيما يأتون أو يذرون من ذلك إلا أنه قليل ولا يكاد يظهر أثره والله خلقكم وما تعملون



(اعلم) أن الصناعة هي ملكة في أمر عملي فكري وبكونه عمليا هو جسماني محدوس والأحوال الجسمانية المحسوسة نقلها بالمباشرة أو عب لها أو كمل لأن المباشرة في الأحوال الجسمانية المحسوسة أتم فائدة والمملكة صفة راسخة تحصل عن استعمال ذلك الفعل وتكرره مرة بعد أخرى حتى ترسخ صورته وعلى نسبة الأصل تكون المملكة ونقل المعينة أو عب وأتم من نقل الخبر والعلم فالمملكة الحاصلة عنه أكمل وأرسخ من المملكة الحاصلة عن الخبر وعلى قدر جودة التعليم وملكة المتعلم يكون حق حذق المتعلم في الصناعة وحصول ملكته ثم ان الصنائع منها البسيط ومنها المركب والبسيط هو الذي يختص بالضروريات والمركب هو الذي يكون للكماليات والمتقدم منها في التعليم هو البسيط لبساطته أولا ولأنه مختص بالضروري الذي تتوفر الدواعي على نقله فيكون سابقا في التعليم ويكون تعليمه لذلك ناقصا ولا يزال الفكر يخرج أصنافا ومركباتها من القوة إلى الفعل بالاستنباط شيئا فشيئا على التدريج حتى تكمل ولا يحصل ذلك دفعة وإنما يحصل في أزمان وأجيال اذ خروج الأشياء من القوة إلى الفعل لا يكون دفعة لاسيما في الأمور الصناعية فلا بد له اذن من زمان ولهذا تجد الصنائع في الأعمار الصغيرة ناقصة ولا يوجد منها إلا البسيط فإذا تزايدت حضارتها ودعت أمور الترف فيها إلى استعمال الصنائع خرجت من القوة إلى الفعل وتنقسم الصنائع أيضا إلى ما يختص بأمر المعاش ضروريا كان أو غير ضروري وإلى ما يختص بالأفكار التي هي خاصة الإنسان من العلوم والصنائع والسياسة ومن الأول الحياكة والجزارة والتجارة والحدادة وأمثالها ومن الثاني الوراقة وهي معانة الكتب بالانتساخ والتجليد والغناء والشعر وتعليم العلم وأمثال ذلك ومن الثالث الجندية وأمثالها والله أعلم

والسبب في ذلك ان الناس ما لم يستوف العمران الحضري وتمتد المدينة إنما همهم في الضروري من المعاش وهو تحصيل الاقوات من الحنطة وغيرها فإذا تمتد المدينة وتزايدت فيها الأعمال ووفت بالضروري وزادت عليه صرف الزائد حينئذ إلى الكمالات من المعاش ثم ان الصنائع والعلوم إنما هي للإنسان من حيث فكره الذي يتميز به عن الحيوانات والقوت له من حيث الحيوانية والغذائية فهو مقدم لضروريته على العلوم والصنائع وهي متأخرة عن الضروري وعلى مقدار عمران البلد تكون جودة الصنائع للتأنيق فيها حينئذ واستجادة ما يطلب منها بحيث تتوفر دواعي الترف والثروة وأما العمران البدوي أو القليل فلا يحتاج من الصنائع إلا البسيط خاصة المستعمل في الضروريات من نجار أو حداد أو خياط أو حائك أو جزار وإذا وجدت هذه بعده فلا توجد فيه كاملة ولا مستجادة وإنما يوجد منها بمقدار الضرورة اذ هي كلها وسائل إلى غيرها وليست مقصودة لذاتها وإذا زخر بحر العمران وطلبت فيه الكمالات كان من جملة التأنيق في الصنائع واستجادتها فكملة بجميع متماماتها

وتزايدت صنائع أخرى معها تدعو اليه عوائد الترف وأحواله من جزاز ودباغ وخراز وصائع وأمثال ذلك وقد تنتهي هذه الأصناف إذا استبحر العمران إلى أن يوجد منها كثير من الكمالات والتألق فيها في الغاية وتكون من وجوه المعاش في المصر لمنتحلها بل تكون فائدتها من أعظم من فوائد الأعمال لما يدعو اليه الترف في المدينة مثل الدهان والصفار والحماي والطباخ والسفاح والمهراس ومعلم الغناء والرقص وقرع الطبول على التوقيع ومثل الوراقين الذين يعانون صناعة انتساخ الكتب وتجليدها وتصحيحها فان هذه الصناعة إنما يدعو اليها الترف في المدينة من الاشتغال بالأعمال الفكرية وأمثال ذلك وقد تخرج عن الحد إذا كان العمران خارجا عن الحد كما بلغنا عن أهل مصر أن فيهم من يعلم الطيور العجم والحمر الأنسية وتخيّل أشياء من العجائب بابها من قلب الأعيان وتعليم الحدااء الرقص والمشى على الخيوط في الهواء ورفع الأثقال من الحيوان والحجارة وغير ذلك من الصنائع التي لا توجد عندنا بالمغرب لأن عمران أمصاره لم يبلغ عمران مصر والقاهرة أدام الله عمرانها بالمسلمين

### ١٨ \* فصل في أن رسوخ الصنائع في الأمصار إنما هو برسوخ الحضارة وطول أمدّها \* \*

والسبب في ذلك ظاهر وهو أن هذه كلها عوائد للعمران وألوان والعوائد إنما ترسخ بكثرة التكرار وطول الأمد فتستحكم صبغة ذلك وترسخ في الأجيال وإذا استحكمت الصبغة عسر نزاعها ولهذا نجد في الأمصار التي كانت استبحرت في الحضارة لما تراجع عمرانها وتناقص بقيت فيها آثار من هذه الصنائع ليست في غيرها من الأمصار المستحدثة العمران ولو بلغت مبالغها في الوفور والكثرة وماذا لا لأن أحوال تلك القديمة العمران مستحكمة راسخة بطول الأقطاب وتداول الأحوال وتكررها وهذه لم تبلغ الغاية بعد وهذا كالحال في الآن ندرس لهذا العهد فانا نجد فيها رسوم الصنائع قائمة وأحوالها مستحكمة راسخة في جميع ما تدعو اليه عوائد أمصارها كالمباني والطبخ وأصناف الغناء واللهو من الآلات والأوتار والرقص وتنضيد الفرش في القصور وحسن الترتيب والأوضاع في البناء وصوغ الآنية من المعادن والخزف وجمع المواعين وإقامة الولائم والاعراس وسائر الصنائع التي يدعو اليها الترف وعوائده فنجدهم أقوم عليها وأبصر بها ونجد صنائعها مستحكمة لديهم فهم على حصة موفورة من ذلك وحظ متميز بين جميع الأمصار وإن كان عمرانها قد تناقص والكثير منه لا يساوي عمران غيرها من بلاد العدو وماذا لا لما قدمناه من رسوخ الحضارة فيهم برسوخ الدولة الأموية وما قبلها من دولة القوط وما بعدهما من دولة الطوائف إلى هلم جرا فبلغت الحضارة فيها مبلغا لم تبلغه في قطر إلا ما ينقل عن العراق والشام ومصر أيضا لطول آماد الدول فيها فاستحكمت فيها الصنائع وكملت جميع أصنافها على الاستجادة والتنميق وبقيت صبغتها ثابتة في ذلك العمران لا تفارقه إلى أن ينتقص بالكلية حال الصبغ إذا رسخ في الثوب وكذا أيضا حال تونس فيما حصل فيها بالحضارة من الدول الصنهاجية والموحدين من بعدهم وما استكمل لها في ذلك من الصنائع في سائر الأحوال وإن كان ذلك

دون الأندلس لأنه متضاعف برسوم منها تنقل اليها من مصر لقرب المسافة بينهما وتردد المسافرين من قطرها الى قطر مصر في كل سنة وربما سكن أهلها هناك عصور فيقولون من عوائد ترفهم ومحكم صنائعهم ما يقع لديهم موقع الاستحسان فصارت أحوالها في ذلك متشابهة من أحوال مصر لما ذكرناه ومن أحوال الأندلس لما أن كثر ساكنها من شرق الأندلس حين الجلاء لعهد المائة السابعة ورسخ فيها من ذلك أحوال وان كان عمرانها ليس بمناسب لذلك لهذا العهد الآن الصبغة اذا استحكت قليلا ما تحول الابزوال محلها وكذا تجد بالقيروان ومراكش وقلعة ابن حماد أثر ابا قيا من ذلك وان كانت هذه كلها اليوم خرابا أو في حكم الخراب ولا يتفطن لها الا البصير من الناس فيجد من هذه الصنائع آثارا تدله على ما كان بها كأثر الخط الممحوف في الكتاب والله الخلاق العليم

#### ١٩ ﴿فصل في أن الصنائع إنما تستجد وتكثر إذا كثر طالبها﴾

والسبب في ذلك ظاهر وهو أن الانسان لا يسمح بعمله أن يقع مجانا لأنه كسبه ومنه معاشه إذ لا فائدة له في جميع عمره في شيء مما سواه فلا يصرفه الا في له قيمة في مصره ليعود عليه بالنفع وان كانت الصناعة مطلوبة وتوجه اليها النفاق كانت حينئذ الصناعة بمثابة السلعة التي تنفق سوقها وتجلب للبيع فتجهد الناس في المدينة لتعلم تلك الصناعة ليكون منها معاشهم واذ لم تكن الصناعة مطلوبة لم تنفق سوقها ولا يوجه قصد الى تعلمها فاقتصت بالترك وقعدت للاهمال ولهذا يقال عن علي رضي الله عنه قيمة كل امرئ ما يحسن بمعنى أن صناعته هي قيمة أي قيمة عمله الذي هو معاشه وأيضا فيها سر آخر وهو أن الصنائع واجادتها إنما تطلبها الدولة فهي التي تنفق سوقها وتوجه الطلبات اليها وما لم تطلبه الدولة وانما يطلبها غيرها من أهل مصر فليس على نسبتها لأن الدولة هي السوق الأعظم وفيها نفاق كل شيء والقليل والكثير فيها على نسبة واحدة فما تنفق منها كان أكثر يا ضرورة والسوق وإن طلبوا الصناعة فليس طلبهم بعام ولا سوقهم بنافقة والله سبحانه وتعالى قادر على ما يشاء

#### ٢٠ ﴿فصل في أن الأمصار إذا قاربت الخراب انتقصت منها الصنائع﴾

وذلك لما بينا أن الصنائع إنما تستجد اذا احتيج اليها وكثر طالبها وإذا ضعفت أحوال مصر وأخذ في الهرم بانتقاض عمرانه وقله ساكنه تناقص فيه الترف ورجعوا الى الاقتصار على الضروري من أحوالهم فتقل الصنائع التي كانت من توابع الترف لأن صاحبها حينئذ لا يصح له بها معاشه فيفر الى غيرها ويموت ولا يكون خلف منه فيذهب رسم تلك الصنائع جملة كما يذهب النقاشون والصواغ والكتاب والنساخ وأمثالهم من الصنائع لحاجات الترف ولا تزال الصنائع في التناقص مازال مصر في التناقص إلى أن تضمحل والله الخلاق العليم سبحانه وتعالى

#### ٢١ ﴿فصل في أن العرب أبعد الناس عن الصنائع﴾

والسبب في ذلك أنهم أعرق في البدو وأبعد عن العمران الحضري وما يدعو اليه من الصنائع وغيرها



والعجم من أهل المشرق وأم النصرانية عدوة البحر الرومي أقوم الناس عليها لأنهم أعرق في العمران الحضري وأبعد عن البدو وعمرانه حتى أن الأبل التي أعانت العرب على التوحش في القفر والأعراق في البدو مفقودة لديهم بالجملة ومفقودة مراعيها والرمال المهيئة لتاجها ولهذا نجد أوطان العرب وممالكها في الإسلام قليل الصنائع بالجملة حتى تجلب لديه من قطر آخر والنظر بلاد العجم من الصين والهند وأرض الترك وأم النصرانية كيف استكثرت فيهم الصنائع واستجلبها الأمم من عندهم وعجم المغرب من البربر مثل العرب في ذلك لرسوخهم في البداوة منذ أحقاب من السنين ويشهد لك بذلك قلة الأمصار بقطرهم كما قدمناه فالصنائع بالمغرب لذلك قليلة وغير مستحكمة إلا ما كان من صناعة الصوف من نسجه والجلد في خرزه ودبغه فانهم لما استحضروا بلغوا فيها المبالغ لعموم البلوى بها وكون هذين أغلب السلع في قطرهم لما هم عليه من حال البداوة وأما المشرق فقد رسخت الصنائع فيه منذ ملك الأمم الأقدمين من الفرس والنبط والقبط وبنى إسرائيل ويونان والروم أحقابا متطاولة فرسخت فيهم أحوال الحضارة ومن جملتها الصنائع كما قدمناه فلم يمح رسمها وأما اليمن والبحرين وعمان والجزيرة وأن ملكة العرب إلا أنهم تداولوا ملكة آلافا من السنين في أم كثيرين منهم واخطوا أمصاره ومدنه وبلغوا الغاية من الحضارة والترفع مثل عاد وثمود والعلقة وحمر من بعدهم والتبابعة والأذواء فطال أمد الملك والحضارة واستحكمت صبغتها وتوفرت الصنائع ورسخت فلم تبل بلاء الدولة كما قدمناه فبقيت مستجدة حتى الآن واختصت بذلك الوطن كصناعة الوشي والعصب وما يستجد من حوك الثياب والحرير فيها والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين

## ٢٢ ﴿ فصل فيمن حصلت له ملكة في صناعة فقل أن يجيد بعدها ملكة في أخرى ﴾

ومثال ذلك الحياطة إذا أجاد ملكة الحياطة وأحكمها ورسخت في نفسه فلا يجيد من بعدها ملكة النجارة أو البناء إلا أن تكون الأولى لم تستحكم بعد ولم ترسخ صبغتها والسبب في ذلك أن الملكات صفات للنفس وألوان فلا تردحم دفعة ومن كان على الفطرة كان أسهل لقبول الملكات وأحسن استعدادا لحصولها فإذا تلونت النفس بالملكة الأخرى وخرجت عن الفطرة ضعف فيها الاستعداد باللون الحاصل من هذه الملكة فكان قبولها للملكة الأخرى أضعف وهذا بين يشهد له الوجود فقل أن تجد صاحب صناعة يحكمها ثم يحكم من بعدها أخرى ويكون فيهما معا على رتبة واحدة من الاجادة حتى أهل العلم الذين ملكتهم فكرية فهم بهذه المثابة ومن حصل منهم على ملكة علم من العلوم وأجاده في الغاية فقل أن يجيد ملكة علم أخرى نسبته بل يكون مقصرا فيه إن طلبه إلا في الأقل النادر من الأحوال ومبني سببه على ما ذكرناه من الاستعداد وتلونه بلون الملكة الحاصلة في النفس والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق لأرب سواه

٢٣ ﴿ فصل في الإشارة إلى أمهات الصنائع ﴾

( اعلم ) أن الصنائع في النوع الانساني كثيرة لكثرة الاعمال المتداولة في العمران فهي بحيث تشد عن الحصر ولا يأخذها العدل إلا أن منها ما هو ضروري في العمران أو شريف بالموضوع فنخصها بالذكور وترك ما سواها فأم الضروري فالفلاحة والبناء والحياطة والنجارة والحياكة وأما الشريفة بالموضوع فكال توليد الكتابة والوراقة والغناء والطب فأم التوليد فانه ضرورية في العمران وعامة البلوى إذ بها يحصل حياة المولود ويتم غالبا وموضوعها مع ذلك المولود دون وأنها لهم وأما الطب فهو حفظ الصحة للانسان ودفع المرض عنه ويتفرع عن علم الطبيعة وموضوعه مع ذلك بدن الانسان وأما الكتابة وما يتبعها من الوراقة فهي حافظة على الانسان حاجته ومقيدة لها عن النسيان ومبلغه ضمائر النفس إلى البعيد الغائب ومخلدة نتائج الأفكار والعلوم في الصحف ورافعة رتب الوجود للمعاني وأما الغناء فهو نسب الأصوات ومظهر جمالها للاسماع وكل هذه الصنائع الثلاثة داع إلى مخالطة الملوك الأعظم في خلواتهم ومجالس أنسهم فلها بذلك شرف ليس لغيرها وما سوى ذلك من الصنائع فتابعة وممثلة في الغالب وقد يختلف ذلك باختلاف الأغراض والدواعي والله أعلم بالصواب

٢٤ ﴿ فصل في صناعة الفلاحة ﴾

هذه الصناعة شمرتها اتخاذ الأقوات والحبوب بالقيام على إثارة الأرض لها وازدراعاها وعلاج نباتها وتعهدها بالسقي والتنمية إلى بلوغ غايته ثم حصاد سنبله واستخراج حبه من غلافه واحكام الاعمال لذلك وتحصيل أسبابه ودواعيه وهي أقدم الصنائع لما أنها محصلة للقوت المكمل لحيات الانسان غالبا إذ يمكن وجوده من دون جميع الأشياء إلا من دون القوت ولهذا اختصت هذه الصناعة بالبدو إذ قدمنا أنه أقدم من الحضرة وسابق عليه فكانت هذه الصناعة لذلك بدوية لا يقوم عليها الحضرة ولا يعرفونها لأن أحوالهم كلها ثانية عن البداوة فصنائعهم ثانية عن صنائعها وتابعة لها والله سبحانه وتعالى مقیم العباد فيما أراد

٢٥ ﴿ فصل في صناعة البناء ﴾

هذه الصناعة أول صنائع العمران الحضري وأقدمها وهي معرفة العمل في اتخاذ البيوت والمنازل للسكن والمأوى للأبدان في المدن وذلك أن الانسان لما جبل عليه من الفكر في عواقب أحواله لا بد أن يفكر فيما يدفع عنه الأذى من الحر والبرد كاتخاذ البيوت المكتنفة بالسقف والحيطان من سائر جهاتها والبشر مختلف في هذه الجبلية الفكرية فمنهم المعتدلون فيها يتخذون ما باعتدال أهالي الثاني والثالث والرابع والخامس والسادس وأما أهل البدو فيعدون عن اتخاذ ذلك لتقصير أفكارهم عن ادراك الصنائع البشرية فيبادرون للغيران والكهوف المدة من غير علاج ثم المعتدلون المتخذون للمأوى قد يتكاثرون في البسيط الواحد بحيث يتناكرون ولا يتعارفون فيخشون طروق بعضهم

بعضا فيحتاجون إلى حفظ مجتمعهم بإدارة ماء أو أسوار تحوطهم ويصير جميعا مدينة واحدة ومصرنا واحدا ويحوطهم الحكماء من داخل يدفع بعضهم عن بعض وقد يحتاجون إلى الاتصاف ويتخذون المعادل والحصون لهم ولمن تحت أيديهم مثل الملوك ومن في معنهم من الأمراء وكبار القبائل في المدن كل مدينة على ما يتعارفون ويصطلحون عليه ويناسب مزاج هوائهم واختلاف أحوالهم في الغنى والفقر وكذا حال أهل المدينة الواحدة فمنهم من يتخذ القصور والمصانع العظيمة الساحة المشتملة على عدة الدور والبيوت والغرف الكبيرة لكثرة ولده وحشمه وعياله وتابعه ويؤسس جدرانها بالحجارة ويلحم بينها بالكس ويعلو عليها بالأصبغة والجص ويبالغ في ذلك بالتجديد والتميق إظهارا للبسطة بالعناية في شأن المأوى ويهيء مع ذلك الأسراب والمطامير للاختزان لأقواته والأسطبلات لربط مقرباته إذا كان من أهل الجنود وكثرة التابع والحاشية كالأمراء ومن في معنهم من ينشئ الدويرة والبيوت لنفسه وسكنه وولده لا ينتفع من وراء ذلك لقصور حاله عنه واقتصاره على السكن الطبيعي للبشر وبين ذلك مراتب غير منحصرة وقد يحتاج لهذه الصناعة أيضا عند تأسيس الملوك وأهل الدول المدن العظيمة والهياكل المرتفعة ويبالغون في إتقان الأوضاع وعلو الأجرام مع الأحكام لتبلغ الصناعة مبالغها وهذه الصناعة هي التي تحصل الدواعي لذلك وأكثر ما تكون هذه الصناعة في الأقاليم المعتدلة من الرابع وما حواله إذ الأقاليم المنحرفة لآبناء فيها وإنما يتخذون البيوت حظائر من القصب والتين وإنما يوجد في الأقاليم المعتدلة وأهل هذه الصناعة القائمون عليها متفاوتون فمنهم البصير الماهر ومنهم القاصر ثم هي تتنوع أنواعا كثيرة فمنها البناء بالحجارة المنجدة يقام بها الجدران ملصقا بعضها إلى بعض بالطين والكس الذي يعقد معها ويلتحم كأنها جسم واحد ومنها البناء بالتراب خاصة يتخذ لها لوحان من الخشب مقدران طولاً وعرضا باختلاف العادات في التقدير وأوسطه أربعة أذرع في ذراعين فينصبان على أساس وقد بوعد ما بينهما بما يراه صاحب البناء في عرض الأساس ويوصل بينهما بأذرع من الخشب يربط عليها بالجمال والجدر ويسد الجفتان الباقيتان من ذلك الحلاء بينهما بلوحيين آخرين صغيرين ثم يوضع فيه التراب مغلظا بالكس ويركز بالمراكر المعدة حتى ينعمركزه وتختلط أجزاءه ثم يزداد التراب ثانيا وثالثا إلى أن يمتلئ ذلك الحلاء بين اللوحيين وقد تداخلت أجزاء الكس والتراب وصارت جسما واحدا ثم يعاد نصب اللوحيين على الصورة ويركز كذلك إلى أن يتم وينظم الألواح كلها سطرا من فوق سطر إلى أن ينتظم الحائط كله ملتحما كأنه قطعة واحدة ويسمي الطابية وصانعه الطواب ومن صنائع البناء أيضا أن تجلل الحيطان بالكس بعد أن يحل بالماء ويخمّر أسبوعاً أو أسبوعين على قدر ما يعتدل مزاجه عن إفراط النارية المفسدة للحام فإذا تم له ما يرضاه من ذلك علاه من فوق الحائط وذلك أن يلتحم ومن صنائع البناء عمل السقف بأن يمد الخشب المحكمة النجارة أو الساذجة على حائطي البيت ومن فوقها الألواح كذلك موصولة بالداسترو يصب عليها التراب والكس ويسط بالمراكر



حتى تتداخل أجزاؤها وتلتحم ويعال عليها الكس كإعالى على الحائط ومن صناعة البناء ما يرجع إلى التميمق والتزين كما يصنع من فوق الحيطان الأشكال المجسمة من الجص بخمر الماء ثم يرجع جسدا وفيه بقية البلل فيشكل على التناسب تخريما بمثابة الحديد إلى أن يبقى له رونق ورواء وربما عولى على الحيطان أيضا بقطع الرخام والآجر والخزف أو بالصدف أو بالسيج بفصل أجزاء متجانسة أو مختلفة وتوضع في الكس على نسب وأوضاع مقدرة عندم يبدو به الحائط للعيان كأنه قطع الرياض المنمنمة إلى غير ذلك من بناء الجباب والصباريج لسفح الماء بعد أن تعد في البيوت قصاع الرخام القوراء المحكمة الخراط بالفوهات في وسطها لنسج الماء الجارى إلى الصهريج يجلب إليه من خارج في القنوات المفضية إلى البيوت وأمثال ذلك من أنواع البناء وتختلف الصنائع في جميع ذلك باختلاف الحدق والبصر ويعظم عمران المدينة ويتسع فيكثرون وربما يرجع الأحكام إلى نظرهؤلاء فيما هم أبصر به من أحوال البناء وذلك أن الناس في المدن لكثرة الأزدحام والعمران يتحاشون حتى في الفضاء والهواء للأعلى والأسفل ومن الارتفاع بظاهر البناء مما يتوقع حصول الضرر في الحيطان فيمنع جاره من ذلك إلا ما كان له فيه حق ويختلفون أيضا في استحقاق الطرق والمنافذ للمياه الجارية والفضلات المسربة في القنوات وربما يدعي بعضهم حق بعض في حائطه أو علوه أو قناته لتضايق الجوار أو يدعى بعضهم على جاره اختلال حائطه خشية سقوطه ويحتاج إلى الحكم عليه بهدمه ودفع ضرره عن جاره عندم يراه أو يحتاج إلى قسمة دار أو عرصة بين شريكين بحيث لا يقع معها فساد في الدار ولا إهمال لمنفعتها وأمثال ذلك ويخفى جميع ذلك إلا على أهل البصر العارفين بالبناء وأحواله المستدلين عليها بالمعاقد والقمط ومرآة الخشب وميل الحيطان واعتدالها وقسم المساكن على نسبة أوضاعها ومنافعها وتسريب المياه في القنوات مجاورة ومرفوعة بحيث لا تضر بما مرت عليه من البيوت والحيطان وغير ذلك فلهم بهذا كله البصر والخبرة التي ليست لغيرهم وهم مع ذلك يختلفون بالجودة والقصور في الأجيال باعتبار الدول وقوتها فان قدمنا أن الصنائع وكلها إنما هو بكمال الحضارة وكثرتها بكثرة الطالب لها فلذلك عندما تكون الدولة بدوية في أول أمرها تفتقر أمر البناء إلى غير قطرها كما وقع للوليد بن الملك حين أجمع على بناء مسجد المدينة والقدس ومسجده بالشام فبعث إلى ملك الروم بالقسطنطينية في الفعلة الماهرة في البناء فبعث إليه منهم من حصل له غرضه من تلك المساجد وقد يعرف صاحب هذه الصناعة أشياء من الهندسة مثل تسوية الحيطان بالوزن وإجراء المياه بأخذ الارتفاع وأمثال ذلك فيحتاج إلى البصر بشيء من مسأله وكذلك في جر الأثقال بالهندام فان الأجرام العظيمة إذا شيدت بالحجارة الكبيرة يعجز قدر الفعلة عن رفعها إلى مكانها من الحائط فيتحيل لذلك بمضاعفة قوة الجبل بادخاله في المعالق من أثقاب مقدرة على نسب هندسية تصير الثقيل عندما ناة الرفع خفيفا فيتم المراد من ذلك بغير كلفة وهذا إنما يتم بأصول هندسية معروفة متداولة بين البشر وبمثليها كان بناء الهياكل الماثلة لهذا العهد التي يحسب الناس أنها من بناء الجاهلية وان أبدانهم كانت على نسبتها في العظم الجسماني وليس كذلك وإنما

تم لم ذلك بالحيل الهندسية كما ذكرناه فنفهم ذلك والله يخلق ما يشاء سبحانه

## ٢٦ \* فصل في صناعة النجارة \*

هذه الصناعة من ضروريات العمران ومادتها الخشب وذلك أن الله سبحانه وتعالى جعل للأدنى في كل مكون من المكونات منافع تكمل بها ضروراته أو حاجاته وكان منها الشجر فإن له فيه من المنافع ما لا ينحصر مما هو معروف لكل أحد ومن منافعها اتخاذها خشباً إذا ليست وأول منافعها أن يكون وقوداً للنيران في معاشهم وعصياً للاتكاء والدود وغيرهما من ضرورياتهم ودعائم لما ينشئ ميله من أثقالهم ثم بعد ذلك منافع أخرى لأهل البدو والحضر فأما أهل البدو فيتخذون منها العمود والأوتاد لحياتهم والحدوج لظعناتهم والرماح والقسي والسهام لسلحهم وأما أهل الحضر بالسقف لبيوتهم والأغلاق لأبوابهم والكراسي لجلوسهم وكل واحدة من هذه فالخشبة مادة لها ولا تصير إلى الصورة الخاصة بها إلا بالصناعة والصناعة المتكفلة بذلك المحصلة لكل واحد من صورها هي النجارة على اختلاف رتبها فيحتاج صاحبها إلى تفصيل الخشب أولاً إما بخشب أصغر منه أو ألواح ثم يركب تلك الفصائل بحسب الصور المطلوبة وهو في كل ذلك يحاول بصنعة إعداد تلك الفصائل بالاتظام إلى أن تصير أعضاء لذلك الشكل المخصوص والقائم على هذه الصناعة هو النجار وهو ضروري في العمران ثم إذا عظمت الحضارة وجاء الترف وتأنق الناس فيها يتخذونه من كل صنف من سقف أبواب أو كرسي أو ماعون حدث التأنق في صناعة ذلك واستجادة بغيرائب من الصناعة كإلية ليست من الضروري في شيء مثل التخطيط في الأبواب والكراسي ومثل تهية القطع من الخشب بصناعة الخراط يحكم ترتيبها وتشكيلها ثم تؤلف على نسب مقدره وتلحم باللسان فتبدو لرأي العين ملتحمة وقد أخذ منها اختلاف الأشكال على تناسب يصنع هذا في كل شيء يتخذ من الخشب فيجىء آتق ما يكون وكذلك في جميع ما يحتاج إليه من الآلات المتخذة من الخشب من أى نوع كان وكذلك قد يحتاج إلى هذه الصناعة في إنشاء المراكب البحرية ذات الألواح والدثر وهي إجرار هندسية صنعت في قالب الحوت واعتبار سبحة في الماء بقوامه وكلكه ليكون ذلك الشكل أعون لها في مصادمة الماء وجعل لها عوض الحركة الحيوانية التي للسماك تحريك الرياح وربما أعينت بحركة المقاذيف كما في الأساطيل وهذه الصناعة من أصلها محتاجة إلى أصل كبير من الهندسة في جميع أصنافها لأن أخراج الصور من القوة إلى الفعل على وجه الأحكام محتاج إلى معرفة التناسب في المقادير إما عموماً أو خصوصاً وتناسب المقادير لا بد فيه من الرجوع إلى المهندس ولهذا كان أئمة الهندسة اليونانيون كلهم أئمة في هذه الصناعة فكان أوقليدس صاحب كتاب الأصول في الهندسة نجاراً وبها كان يعرف وكذلك إبلونيوس صاحب كتاب المخروطات وميلاوش وغيرهم فيما يقال أن معلم هذه الصناعة في الخليقة هو نوح عليه السلام وبها أنشأ سفينة للنجاة التي كانت بها معجزة عند الطوفان وهذا الخبر وإن كان ممكناً أعنى كونه نجاراً إلا أن كونه أول من علمها أو

تعلمها لا يقوم دليل من النقل عليه بعد الآماد وإنما معناه والله أعلم الإشارة الى قدم التجارة لانه لم يصح حكاية عنها قبل خبر نوح عليه السلام فجعل كانه أول من تعلمها فتفهم أسرار الصنائع في الخليقة والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

### ٢٧ \* فصل في صناعة الحياكة والخياطة \*

هاتان الصناعتان ضروريتان في العمران لما يحتاج اليه البشر من الرفه فالأولى لنسج الغزل من الصوف والكتان والقطن سدا في اطول وإلحاما في العرض لذلك النسج بالالتحام الشديد فيتم منها قطع مقدرة فمنها الأكسية من الصوف للاشتغال ومنها الثياب من القطن والكتان للباس والصناعة الثانية لتقدير المنسوجات على اختلاف الأشكال والعوائد تفصل أولا بالمقراض قطعاً مناسبة للأعضاء البدنية ثم تلحم تلك القطع بالخياطة المحكمة وصلأاً وتنبيتاً أو تفسحاً على حسب نوع الصناعة وهذه الثانية مختصة بالعمران الحضري لما أن أهل البدو يستغنون عنها وإنما يشتغلون الأثواب اشتغالاً وإنما تفصيل الثياب وتقديرها وإلحامها بالخياطة للباس من مذاهب الحضارة وفنونها وتفهم هذا في سر تحريم الخيط في الحج لما أن مشروعية الحج مشتملة على نبد العلائق الدنيوية كلها والرجوع الى الله تعالى كما خلقنا أول مرة حتى لا يعلق العبد قلبه بشيء من عوائد ترفه لا طيباً ولا نساء ولا مخططات ولا خفا ولا يتعرض لصيد ولا لشيء من عوائده التي تلونت بها نفسه وخلقته مع أنه يفقدها بالموت ضرورة وإنما يحىء كانه وارد الى المحضر ضار عاقله مخلصاً الى ربه وكان أجزاءه إن تم له إخلاصه في ذلك أن يخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه سبحانه ما أرققك بعبادك وأرحمك بهم في طلب هدايتهم اليك \* وهاتان الصنعتان قديمتان في الخليقة لما أن الدفء ضروري للبشر في العمران المعتدل وأما المنحرف الى الحر فلا يحتاج أهله الى دفء ولهذا يلغنا عن أهل الاقليم الأول من السودان أنهم عراة في الغالب ولقد قدم هذه الصنائع ينسبها العامة الى إدريس عليه السلام وهو أقدم الأنبياء وربما ينسبونها الى هرمس وقد يقال أن هرمس هو إدريس والله سبحانه وتعالى هو الخلاق العليم

### ٢٨ \* فصل في صناعة التوليد \*

وهي صناعة يعرف بها العمل في استخراج المولود الآدمي من بطن أمه من الرفق في إخراجها من رحمها وتهئية أسباب ذلك ثم ما يصلحه بعض الخروج على ما نذكر وهي مختصة بالنساء في غالب الأمر لما أنهن الظاهرات بعضهن على عورات بعض وتسمى القائمة على ذلك منهن القابلة استعير فيها معنى الاعطاء والقبول كأن النفساء تعطيها الجنين وكأنها تقبله وذلك أن الجنين اذا استكمل خلقه في الرحم وأطواره وبلغ الى غايته والمدة التي قدر الله ملكته وهي تسعة أشهر في الغالب فيطلب الخروج بما جعل الله في المولود من النزوع لذلك ويضيق عليه المنفذ فيعسر وربما مزق بعض جوانب الفرج بالضغط وربما انقطع



بعض ما كان في الأغشية من الالتصاق والالتحام بالرحم وهذه كلها آلام يشتد لها الوجع وهو معنى الطلق فتكون القابلة معينة في ذلك بعض الشيء بغمز الظهر والوركين وما يحاذي الرحم من الأسفل تساق بذلك فعل الدافعة في إخراج الجنين وتسهيل ما يصعب منه بما يمكنها وعلى ما تهدي إلى معرفة عسره ثم إذا خرج الجنين بقيت بينه وبين الرحم الوصلة حيث كان يتغذي منها متصلة من سرته بمعاه وتلك الوصلة عضو فضلي لتغذية المولود خاصة فتقطعها القابلة من حيث لا تتعدى مكان الفضلة ولا تضر بمعاه ولا برحم أمه ثم تدمل مكان الجراحة منه بالكي أو بما تراه من وجوه الاندمال ثم أن الجنين عند خروجه في ذلك المنفذ الضيق وهو رطب العظام سهل الانعطاف والانشاء فربما تتغير أشكال أعضائه وأوضاعها لقرب التكوين ورطوبة المواد فتتناوله القابلة بالغمز والاصلاح حتى يرجع كل عضو إلى شكله الطبيعي ووضعه المقدر له ويرتد خلقه سويًا ثم بعد ذلك تراجع النفساء وتحاذيها بالغمز والملاينة لخروج أغشية الجنين لا تنهار بما تأخر عن خروجه قليلا ويخشى عند ذلك أن تراجع الماسكة حالها الطبيعية قبل استكمال خروج الأغشية وهي فضلات فتعفن ويسرى عفنها إلى الرحم فيقع الهلاك فتحاذر القابلة هذا وتحاول في إعانة الدفع إلى أن يخرج تلك الأغشية إن كانت قد تأخرت ثم ترجع إلى المولود فتمرخ أعضائه بالأدهان والندورات القابضة لتشدّه وتجفف رطوبات الرحم وتحكه لرفع لهاته وتعسطة لاستفراغ بطون دماغه وتغرغره بالعوق لدفع السدد من معاه وتجويفها عن الالتصاق ثم تداوى النفساء بعد ذلك من الوهن الذي أصابها بالطلق وما لحق رحمها من ألم الانفصال إذا المولود إن لم يكن عضوًا طبيعيًا خالة التكوين في الرحم صيرته بالالتحام كالعضو المتصل فذلك كان في انفصاله ألم يقرب من ألم القطع وتداوى مع ذلك ما يلحق الفرج من ألم من جراحة التمزيق عند الضغط في الخروج وهذه كلها أدواء نجد هؤلاء القوابل أبصر بدوائها وكذلك ما يعرض للمولود مدة الرضاع من أدواء في بدنه إلى حين الفصل نجد من أبصر بها من الطبيب الماهر وما ذاك إلا لأن بدن الإنسان في تلك الحالة إنما هو بدن إنسان بالقوة فقط فإذا جاوز الفصل صار بدنًا إنسانيًا بالفعل فكانت حاجته حينئذ إلى الطبيب أشد فهذه الصناعة كما تراه ضرورية في العمران للنوع الإنساني لا يتم كون أشخاصه في الغالب دونها وقد يعرض لبعض أشخاص النوع الاستغناء عن هذه الصناعة أما مخلق الله ذلك لهم معجزة وخرقا للعبادة كما في حق الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أوبالهام وهداية يلهم لها المولود ويفطر عليها فيتم وجودهم من دون هذه الصناعة فأما شأن المعجزة من ذلك فقد وقع كثيرًا ومنه ما روى أن النبي صلى الله عليه وسلم ولد مسرورًا مختونًا واضعًا يديه على الأرض شاخصًا يبصره إلى السماء وكذلك شأن عيسى في المهد وغير ذلك وأما شأن الإلهام فلا ينكر وإذا كانت الحيوانات العجم تختص بفرائب من الإلهامات كالنحل وغيرها فما ظنك بالإنسان المفضل عليها وخصوصًا بمن اختص بكرامة الله \* ثم الإلهام العام للمولودين في الأقبال على الثدي أوضح شاهد على وجود الإلهام العام لهم فشأن العناية الإلهية أعظم من أن يحاط به ومن هنا يفهم بطلان رأى الفارابي وحكماء الأندلس فيما احتجوا به

لعدم انقراض الأنواع واستحالة انقطاع المكونات خصوصاً في النوع الإنساني وقالوا وانقطعت  
أشخاصه لاستحالة وجودها بعد ذلك لتوقفه على هذه الصناعة التي لا يتم كون الإنسان إلا بها إذ لو  
قدرنا مولوداً دون هذه الصناعة وكفالتها إلى حين الفصال لم يتم بقاءه أصلاً ووجود الصنائع رون  
الفكر ممتنع لأنهم عمرته وتابعة له وتكلف ابن سينا في الرد على هذا الرأي المخالفة إياه وذهابه إلى إمكان  
انقطاع الأنواع وخراب عالم التكوين ثم عوده ثانياً لاقتضاآت فلكية وأوضاع غريبة تندر في  
الأحقاب بزعمه فتقتضي تخمير طينة مناسبة لمزاجه بحرارة مناسبة فيتم كونه إنساناً ثم يقبض له حيوان  
يخلق فيه الهام لترتيبه والخنوع عليه إلى أن يتم وجوده وفصله وأطب في بيان ذلك في الرسالة التي  
سماها رسالة حي بن يقظان وهذا الاستدلال غير صحيح وإن كنا نوافقه على انقطاع الأنواع لكن  
من غير ما استدله فإن دليله مبني على إسناد الأفعال إلى العلة الموجبة ودليل القول بالفاعل المختار يرد  
عليه واسطة على القول بالفاعل المختار بين الأفعال والقدرة القديمة ولا حاجة إلى هذا التكلف \*  
ثم لو سلمناه جدلاً لا غاية ما ينبغي عليه إطراد وجود هذا الشخص بخلق الهام لترتيبه في الحيوان  
الاعجم وما الضرورة الداعية لذلك وإذا كان الهام يخلق في الحيوان الأعجم فما المانع من خلقه  
لمولود نفسه كما قررناه أولاً وخلق الهام في شخص لمصالح نفسه أقرب من خلقه فيه لمصالح غيره  
فكلا المذهبين شاهدان على أنفسهما بالبطلان في منحيهما لما قررت لك والله تعالى أعلم

## ٢٩ ﴿ فصل في صناعة الطب وأنها محتاج إليها في الحواضر والأمصار دون البادية ﴾

هذه الصناعة ضرورية في المدن والأمصار لما عرف من فائدها فإن عمرتها حفظ الصحة للأصحاء  
ودفع المرضى بالمداواة حتى يحصل لهم البرء من أمراضهم واعلم أن أصل الأمراض كلها إنما هو من  
الغذية كما قل صلى الله عليه وسلم في الحديث الجامع للطب وهو قوله المعدة بيت الداء والحمية رأس  
الدواء وأصل كل داء البردة فأما قوله المعدة بيت الداء فهو ظاهر وأما قوله الحمية رأس الداء فالحمية  
الجوع وهو الاحتفاء من الطعام والمعنى أن الجوع هو الداء العظيم الذي هو أصل الدوية وأما قوله  
أصل كل داء البردة فعني البردة ادخال الطعام على الطعام في المعدة قبل أن يتم هضم الأول وشرح  
هذا أن الله سبحانه خلق الإنسان وحفظ حياته بالغذاء يستعمله بالأكل وينفذ فيه القوى الهاضمة  
الغاذية إلى أن يصير دماً مائلاً لأجزاء البدن من اللحم والعظم ثم تأخذ النامية فينقلب لحم وعظام ومعنى  
الهضم طبخ الغذاء بالحرارة الغريزية طوراً بعد طور حتى يصير جزءاً بالفعل من البدن وتفسيره أن  
الغذاء إذا حصل في الفم ولا كنه الأشداق أثرت فيه حرارة الفم طبخاً يسيراً وقلبت مزاجه بعض الشيء  
كما تراهم في اللقمة إذا تناولوها طعاماً ثم أجدها مضغاً فترى مزاجها غير مزاج الطعام ثم يحصل في المعدة  
فتطبخه حرارة المعدة إلى أن يصير كيموساً وهو صفو ذلك المطبوخ وترسله إلى الكبد ما رسب منه في  
المعي ثقالاً ينفذ إلى المخرجين ثم تطبخ حرارة الكبد ذلك الكيموس إلى أن يصير دماً عبيطاً وتطفو

عليه رغبة من الطبخ هي الصفراء وترسب منه أجزاء يابسة هي السوداء بقصر الحار الغريزي بعض الشيء عن طبخ الغليظ منه فهو البلغم ثم ترسبها الكبد كلها في العروق والجداول ويأخذها طبخ الحار الغريزي هناك فيكون عن الدم الخالص بخار حار ورطب يمد الروح الحيواني وتأخذ النامية مأخذها في الدم فيكون لها ثم غليظه عظاما ثم ترسل البدن ما يفضل عن حاجاته من ذلك فضلات مختلفة من العرق واللحاح والمخاط والدمع هذه صورة الغذاء وخروجه من القوة إلى الفعل لها ثم ان أصل الأمراض ومعظمها هي الحميات وسببها ان الحار الغريزي قد يضعف عن تمام النضج في طبخه في كل طور من هذه فيبقى ذلك الغذاء دون نضج وسببه غالبا كثرة الغذاء في المعدة حتى يكون أغلب على الحار الغريزي أو ادخل الطعام إلى المعدة قبل أن تستوفي طبخ الأول فيستقل به الحار الغريزي ويترك الأول بحاله أو يتوزع عليها فيقصر عن تمام الطبخ والنضج وترسله المعدة كذلك إلى الكبد فلا تقوى حرارة الكبد أيضا على انضاجه ويرمى باقي في الكبد من الغذاء الأول فضلة غير ناضجة وترسل الكبد جميع ذلك إلى العروق غير ناضج كما هو فإذا أخذ البدن حاجته الملائمة أرسله مع الفضلات الأخرى من العرق والدمع واللحاح ان اقتدر على ذلك ويرمى ما يعجز عن الكثير منه فيبقى في العرق والكبد والمعدة وتتزايد مع الأيام وكل ذي رطوبة من الممزجات إذا لم يأخذ الطبخ والنضج يعفن فيتعفن ذلك الغذاء غير الناضج وهو المسمى بالحلط وكل متعفن ففيه حرارة غريبة وتلك هي المسماة في بدن الإنسان بالحمى واختبر ذلك بالطعام إذا ترك حتى يتعفن وفي الزبل إذا تعفن أيضا كيف تنبعث فيه الحرارة وتأخذ مأخذها فهذا معنى الحميات في الأبدان وهي رأس الأمراض وأصلها كما وقع في الحديث وهذه الحميات علاجها بقطع الغذاء عن المرتض أسابيع معلومة ثم ينأوله الأغذية الملائمة حتى يتم برؤه وذلك في حال الصحة علاج في التحفظ من هذا المرض وأصله كما وقع في الحديث وقد يكون ذلك العفن في عضو مخصوص فيتولد عنه مرض في ذلك العضو ويحدث جراحات في البدن اما في الأعضاء الرئيسة أو في غيرها وديم مرض العضو يحدث عنه مرض القوى الموجودة له هذه كلها جماع الأمراض وأصلها في الغالب من الأغذية وهذه كله مرفوع إلى الطبيب ووقع هذه الأمراض في أهل الحضر والأماص أكثر لحص عيشهم وكثرة ما كلهم وقلة اقتصارهم على نوع واحد من الأغذية وعدم توقيهم لتناولها وكثيرا ما يخلطون بالأغذية من التوابل والبقول والفواكه رطبا ويابس في سبيل العلاج بالطبخ ولا يقتصرون في ذلك على نوع أو أنواع فربما عددناه في اليوم الواحد من ألوان الطبخ أربعين نوعا من النبات والحيوان فيصير للغذاء مزاج غريب وربما يكون غريبا عن ملاءمة البدن وأجزائه ثم ان الأهوية في الأماص تفسد بمخالطة الأبخرة العفنة من كثرة الفضلات والأهوية منشطة للأرواح ومقوية بنشاطها الأثرة الحار الغريزي في الهضم ثم الرياضة مفقودة لأهل الأماص اذ هم في الغالب وادعون ساكنون لا تأخذ منهم الرياضة شيئا ولا تؤثر فيهم أثرا فكان وقوع الأمراض كثيرا في المدن والأماص على قدر وقوعه كانت حاجتهم إلى هذه الصناعة وأما



أهل البدو فمأ كوله قليل في الغالب والجوع أغلب عليهم لقلة الجبوب حتى صار لهم ذلك عادة وربما يظن أنها جيلة لاستمرارها ثم الادم قليلة لديهم أو مفقودة بالجملة وعلاج الطبخ بالتوابل والفواكه إنما يدعو اليه ترف الحضارة الذين هم معزل عنه فيتناولون أغذيتهم بسيطة بعيدة عما يخالطها ويقرب مزاجها من ملائمة البدن وأما أهويتهم فقليلة العفن لقلة الرطوبات والعفونات ان كانوا آهلين أو لا اختلاف الا أهوية إن كانوا ظوا عن ثم ان الرياضة موجودة فيهم لكثرة الحركة في ركض الخيل والصيد أو طلب الحاجات لمهنة أنفسهم في حاجاتهم فيحسن بذلك كله الهضم ويجود ويقتد ادخال الطعام على الطعام فتكون أمراضهم أصح وأبعد من الأمراض فتقل حاجتهم الى الطب ولهذا لا يوجد الطبيب في البداية بوجه وما ذاك الا للاستغناء اذ لو احتيج اليه لوجد لانه يكون له بذلك في البدو معاش يدعو الى سكناه سنة الله التي قد خلت في عبادته ولن تجد لسنة الله تبديلا

### ٣٠ ﴿ فصل في أن الخط والكتابة من عداد الصنائع الانسانية ﴾

وهو رسوم وأشكال حرفية تدل على الكلمات المسموعة الدالة على ما في النفس فهو ثاني رتبة من الدلالة اللغوية وهو صناعة شريفة اذ الكتابة من خواص الانسان التي يميز بها عن الحيوان وأيضا فهي تطلع على ما في الضمائر وتتأدي بها الأغراض الى البلد البعيد فتقضي الحاجات وقد دفعت مؤنة المباشرة لها ويطلع بها على العلوم والمعارف وصحف الاولين وما كتبوه من علومهم وأخبارهم فهي شريفة بهذه الوجوه والمنافع وخروجها في الانسان من القوة الى الفعل إنما يكون بالتعليم وعلى قدر الاجتماع والعمران والتناغم في الكمالات والطلب لذلك تكون جودة الخط في المدينة اذ هو من جملة الصنائع وقد قدمنا أن هذا شأنها وأنها تابعة للعمران ولهذا نجد أكثر البدو أميين لا يكتبون ولا يقرؤون ومن قرأ منهم أو كتب فيكون خطه قاصر وقراءته غير نافذة ونجد تعليم الخط في الأمصار الخارج عمرانها عن الحد أبلغ وأحسن وأسهل طريقا لاستحكام الصنعة فيها كما يحكي لنا عن مصر لهذا العهد وأن بها معلمين منتصبين لتعليم الخط يلقون على المتعلم قوانين وأحكاما في وضع كل حرف ويزيدون الى ذلك المباشرة بتعليم وضعه فتعاضد ليه رتبة العلم والحسن في التعليم وتأتي ملكته على آتم الوجوه وإنما أتى هذا من كمال الصنائع ووفورها بكثرة العمران وانفساح الاعمال وقد كان الخط العربي بالغاً مبالغه من الأحكام والاتقان والجودة في دولة التبابعة لما بلغت من الحضارة والترفع وهو المسمى بالخط الحميري وانتقل منها الى الحيرة لما كان بها من دولة آل المنذر نساء التبابعة في العصبية والمجديين ملك العرب بأرض العراق ولم يكن الخط عندهم من الاجادة كما كان عند التبابعة لقصور ما بين الدولتين وكانت الحضارة وتوابعها من الصنائع وغيرها قاصرة عن ذلك ومن الحيرة لقنه أهل الطائف وقريش فيما ذكره يقال ان الذي تعلم الكتابة من الحيرة هو سفيان بن أمية ويقال حرب بن أمية وأخذها من أسلم بن سدره وهو قول ممكن وأقرب ممن ذهب إلى أنهم تعلموها من اياد أهل العراق لقول شاعرهم

قوم لهم ساحة العراق إذا \* ساروا جميعا والخط والقلم  
وهو قول بعيد لان ايدادوا نزلوا ساحة العراق فلم يزلوا على شأنهم من البداوة والخط من الصنائع  
الحضرية وإنما معنى قول الشاعر أنهم أقرب الى الخط والقلم من غيرهم من العرب لقربهم من ساحة  
الأمصار وضواحيها فالقول بأن أهل الحجاز إنما لقنوها من الحيرة ولقنها أهل الحيرة من التبابعة وحمير  
هو الأقرب من الأقوال وكان لحمير كتابة تسمى المسند حروفها منفصلة وكانوا يمنعون من تعلمها إلا  
بذنهم ومن حمير تعلمت مضر الكتابة العربية إلا أنهم لم يكونوا يجيدون لها شأن الصنائع اذا وقعت بالبدو فلا  
تكون محكمة المذهب ولا مائلة الى الاتقان والتنميق لبون ما بين البدو والصناعة واستغناء البدو عنها في  
الاكثر وكانت كتابة العرب بدوية مثل أوقرييا من كتابتهم هذا العهد أو تقول أن كتابتهم هذا العهد أحسن  
صناعة لأن هؤلاء أقرب الى الحضارة ومخالطة الأمصار والدول وأما مضر فكانوا أعرق في البدو وأبعد  
عن الحضرة من أهل اليمن وأهل العراق وأهل الشام ومصر فكان الخط العربي لأول الاسلام غير بالغ  
الى الغاية من الأحكام والاتقان والاجادة ولا الى التوسط لمكان العرب من البداوة والتوحش وبعدهم  
عن الصنائع وانظر ما وقع لأجل ذلك في رسمهم المصحف حيث رسمه الصحابة بخطوطهم وكانت غير  
مستحكمة في الاجادة بخالف الكثير من رسومهم ما اقتضته رسوم صناعة الخط عند أهلها ثم اقتنى  
التابعون من السلف رسمهم فيها تبركا بما رسمه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وخير الخلق من بعده  
المتلقون لوحيه من كتاب الله وكلامه كما يقتنى لهذا العهد خط ولى أو عالم تبركا ويتبع رسمه خطأ  
أو صوابا وأين نسبة ذلك من الصحابة فيما كتبوه فاتبع ذلك وأثبت رسمه ونبه العلماء بالرسم على مواضعه  
ولا تلتفتن في ذلك الى ما يزعمه بعض المغفلين من أنهم كانوا يحكمين لصناعة الخط وأن ما يتخيل من  
مخالفة خطوطهم لأصول الرسم ليس كما يتخيل بل لكها وجه ويقولون في مثل زيادة الألف في  
لاذبحنه أنه تنبيه على أن الله لم يقع وفي زيادة الياء في تأييدانه تنبيه على كمال القدرة الربانية وأمثال ذلك  
مما لا أصل له الا التحكم المحض وما حملهم على ذلك الاعتقادهم أن في ذلك تنزيها للصحابة عن توهم النقص  
في قلة اجادة الخط وحسبوا أن الخط كمال فزهوهم عن نقصه ونسبوا اليهم الكمال باجادة وطلبوا  
تعليل ما خالف لاجادة من رسمه وذلك ليس بصحيح \* واعلم أن الخط ليس بكمال في حقهم اذ  
الخط من جملة الصنائع المدنية المعاشية كما رأيته فيما مروا الكمال في الصنائع اضافي وليس بكمال مطلق  
اذ لا يعود نقصه على الذات في الدين ولا في الحلال وإنما يعود على أسباب المعاش وبحسب العمران  
والتعاون عليه لأجل دلالة على ما في النفوس وقد كان صلى الله عليه وسلم أميا وكان ذلك كمالا في حقه  
وبالنسبة الى مقامه لشرفه وتنزهه عن الصنائع العملية التي هي أسباب المعاش والعمران كلها وليست  
الائمة كما لا في حقنا نحن اذ هو منقطع الى ربه ونحن متعاونون على الحياة الدنيا شأن الصنائع كلها حتى  
العلوم الاصطلاحية فان الكمال في حقه هو تنزهه عنها جملة بخلافنا ثم لما جاء الملك للعرب وفتحوا  
الأمصار وملكوا الممالك ونزلوا البصرة والكوفة واحتاجت الدولة الى الكتابة استعملوا الخط

وطلبوا صناعته وتعلمه وتداولوه فترقت الاجادة فيه واستحكم وبلغ في الكوفة والبصرة رتبة من الاتقان الا أنها كانت دون الغاية والخط الكوفي معروف الرسم لهذا العهد ثم انتشر العرب في الاقطار والممالك وافتتحوا أفريقية والأندلس واختط بنو العباس بغداد وترقت الخطوط فيها الى الغاية لما استبحرت في العمران وكانت دار الاسلام ومركز الدولة العربية وكان الخط البغدادى معروف الرسم وتبعه الافريقى المعروف رسمه القديم لهذا العهد ويقرب من أوضاع الخط المشرق وتحيز ملك الأندلس بالأمويين فتميزوا بأحوالهم من الحضارة والصنائع والخطوط فتميز صنف خطهم الأندلسى كما هو معروف الرسم لهذا العهد وطما بحر العمران والحضارة في الدول الاسلامية في كل قطر وعظم الملك ونفقت أسواق العلوم وانتسخت الكتب وأجيد كتبها وتجليدها وملئت بها القصور والخزائن المملوكة بما لا كفاؤه وتنافس أهل الاقطار في ذلك وتناغوا فيه ثم لما انحل نظام الدولة الاسلامية وتناقصت تناقص ذلك أجمع ودرست معالم بغداد بدروس الخلافة فانتقل شأنها من الخط والكتابة بل والعلم الى مصر والقاهرة فلم تزل أسواقها نافقة لهذا العهد وله بها معلمون يرسمون لتعليم الحروف بقوانين في وضعها وأشكالها متعارفة بينهم فلا يلبث المتعلم أو يحكم أشكال تلك الحروف على تلك الأوضاع وقد لقنها حسنا وحذق فيها دربة وكتابوا وأخذها قوانين علمية فتجىء أحسن ما يكون وأما أهل الأندلس فافترقوا في الاقطار عند تلالى ملك العرب بها ومن خلفهم من البربر وتغلبت عليهم أمم النصرانية فانتشروا في عدوة المغرب وأفريقية من لدن الدولة اللاتينية الى هذا العهد وشاركوا أهل العمران بمالديهم من الصنائع وتعلقوا بأذيال الدولة فغلب خطهم على الخط الافريقى وعنى عليه ونسى خط القيروان والمهدية بنسيان عوائدها وصنائعها وصارت خطوط أهل أفريقية كلها على الرسم الأندلسى بتونس وما اليها التوفر أهل الأندلس بها عند الحالية من شرق الأندلس وبقي منه رسم يبلاد الجريد الذين لم يخالطوا كتاب الأندلس ولا تمرسوا بجوارهم إنما كانوا يعدون على دار الملك بتونس فصار خط أهل أفريقية من أحسن خطوط أهل الأندلس حتى اذا تقلص ظل الدولة الموحدية بعض الشيء وتراجع أمر الحضارة والترفع بتراجع العمران نقص حينئذ حال الخط وفسدت رسومه وجعل فيه وجه التعليم بفساد الحضارة وتناقص العمران وبقيت فيه آثار الخط الأندلسى تشهد بما كان لهم من ذلك لما قدمناه من أن الصنائع اذا رسخت بالحضارة فيعسر عموها وحصل في دولة بني مرين من بعد ذلك بالمغرب الأقصى لون من الخط الأندلسى لقرب جوارهم وسقوط من خرج منهم الى فاس قريبا واستعماهم ايام سائر الدولة ونسى عهد الخط فيما بعد عن سدة الملك وداره كانه لم يعرف فصارت الخطوط بأفريقية والمغربين مائلة الى الرداءة بعيدة عن الجودة وصارت الكتب اذا انتسخت فلا فائدة تحصل لم تصفحها منها الا العناء والمشقة لكثرة ما يقع فيها من الفساد والتصحيف وتغيير الاشكال الخطية عن الجودة حتى لا تكاد تقرأ الاثمة عسر ووقع فيه ما وقع في سائر الصنائع بنقص الحضارة وفساد الدول والله أعلم



كانت العناية قديما بالدواوين العلمية والسجلات في نسخها وتجليدها وتصحيحها بالرواية والضبط وكان سبب ذلك ما وقع من ضخامة الدولة وتوابع الحضارة وقد ذهب العهد بذهاب الدولة وتناقص العمران بعد أن كان منه في الملة الإسلامية بحر زآخر بالعراق والأندلس اذهو كله من توابع العمران واتساع نطاق الدولة ونفاق أسواق ذلك لديهم ما فكر التأليف العلمية والدواوين وحرص الناس على تناقلهما في الآفاق والأعصار فانتسخت وجلدت وجاءت صناعة الوراقين المعانين للانتساخ والتصحيح والتجليد وسائر الأمور المكتبية والدواوين واختصت بالأعصار العظيمة العمران وكانت السجلات أولا لا تنتساخ العلوم وكتب الرسائل السلطانية والاقطاعات والصكوك في الرقوق المهيأة بالصناعة من الجلد لكثرة الرفه وقلة التأليف صدر الملة كان ذكره وقلة الرسائل السلطانية والصكوك مع ذلك فاقصروا على الكتاب في الرق تشريفا للمكتوبات وميلابها الى الصحة والاتقان ثم طابح التأليف والتدوين وكثر ترسيل السلطان وصكوكه وضاق الرق عن ذلك فأشار الفضل بن يحيى بصناعة الكاغد وصنعه وكتب فيه رسائل السلطان وصكوكه واتخذها الناس من بعده صحفا لمكتوباتهم السلطانية والعلمية وبلغت الاجادة في صناعته ماشاءت ثم وقفت عناية أهل العلوم وهم أهل الدول على ضبط الدواوين العلمية وتصحيحها بالرواية المسندة الى مؤلفيها واضعها لانه الشأن الأهم من التصحيح والضبط فبذلك تسند الأقوال الى قائلها والفتيا الى الحاكم بها المجتهد في طريق استنباطها وما لم يكن تصحيح المنون باسنادها الى مدونها فلا يصح اسناد قول لهم ولا فتيا وهكذا كان شأن أهل العلم وحملته في العصور والأجيال والآفاق حتى لقد قصرت فائدة الصناعة الحديثة في الرواية على هذه فقط إذ عمرتها الكبرى من معرفة صحيح الأحاديث وحسنها ومسندها ومرسلها ومقطوعها وموقوفها من موضوعها قد ذهبت وتمحضت زبدة ذلك في الأمهات المتلقات بالقبول عند الأمهات وصار القصد الى ذلك لغوا من العمل ولم تبق ثمرة الرواية والاشتغال بها إلا في تصحيح تلك الأمهات الحديثة وسواها من كتب الفقه للفتيا وغير ذلك من الدواوين والتأليف العلمية واتصال سندها بمؤلفيها ليصح النقل عنهم والاسناد اليهم وكانت هذه الرسوم بالمشرق والأندلس معبدة الطرق واضحة المسالك ولهذا نجد الدواوين المنتسخة لذلك العهد في أقطارهم على غاية من الاتقان والأحكام والصحة ومنها لهذا العهد بأيدي الناس في العالم أصول عتيقة تشهد ببلوغ الغاية لهم في ذلك وأهل الآفاق يتناقلونها إلى الآن ويشدون عليها يد الضمانة ولقد ذهبت هذه الرسوم لهذا العهد جملة بالمغرب وأهلها لا تقطاع صناعة الخط والضبط والرواية منه بانتقاص عمرانه وبداءة أهله وصارت الأمهات والدواوين تنسخ بالخطوط البدوية تنسخا طلبا البربر صحائف مستعجمة برداء الخط وكثرة الفساد والتصحيف فتستغلق على متصفحها ولا يحصل منها فائدة إلا في الأقل النادر وأيضا فقد دخل الخلل من ذلك في الفتيا فان غالب الأقوال المعزوة غير

مروية عن أئمة المذهب وإما تتلقى من تلك الدواوين على ما هي عليه وتبع ذلك أيضا ما يتصدى إليه بعض أئمتهم من التأليف لقلّة بصرهم بصناعته وعدم الصنائع الوافية بمقاصده ولم يبق من هذا الرسم بالاندلس إلا أثاره حفية بالأحماء وهي على الاضمحلال فقد كاد العلم ينقطع بالكلية من المغرب والله غالب على أمره ويلغنا هذا العهد أن صناعة الرواية قائمة بالشرق وتصحيح الدواوين لمن يرومه بذلك سهل على مبتغيه لنفاق أسواق العلوم والصنائع كما نذكره بعد إلا أن الخط الذي بقي من الاجادة في الانساخت هنالك إنما هو للعجم وفي خطوطهم وأما النسخ بمصر ففسد كما فسد بالمغرب وأشدوا الله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

### ٣٢ \* فصل في صناعة الغناء \*

هذه الصناعة هي تلحين الأشعار الموزونة بتقطيع الأصوات على نسب منتظمة معروفة يوقع على كل صوت منها توقيعا عند قطعه فيكون نغمة ثم تؤلف تلك النغم بعضها إلى بعض على نسب متعارفة فيلذ سماعها لأجل ذلك التناسب وما يحدث عنه من الكيفية في تلك الأصوات وذلك أنه تبين في علم الموسيقى أن الأصوات تتناسب فيكون صوت نصف صوت وربع آخر وخمس آخر وجزأ من أحد عشر من آخر واختلاف هذه النسب عند تأديتها إلى السمع يخرجها من البساطة إلى التركيب وليس كل تركيب منها ملذوذا عند السماع بل ترايب خاصة هي التي حصرها أهل علم الموسيقى وتكلموا عليها كما هو مذكور في موضعه وقديساق ذلك التلحين في النغمات الغنائية بتقطيع أصوات أخرى من الجمادات إما بالقرع أو بالنفخ في الآلات تتخذ لذلك فترى لها الذة عند السماع فمنها هذا العهد أصناف منها ما يسمونه الشبابة وهي قصبة جوفاء بأبجاش في جوانبها معدودة ينفخ فيها فتصوت ويخرج الصوت من جوفها على سداة من تلك الأبجاش ويقطع الصوت بوضع الأصابع من اليدين جميعا على تلك الأبجاش وضعا متعارفا حتى تحدث النسب بين الأصوات فيه وتتصل كذلك متناسبة فيلذ السمع بأدراكها للتناسب الذي ذكرناه ومن جنس هذه الآلة المزمار الذي يسمى الزلامي وهو شكل القصبة منحوتة الجانبين من الخشب جوفاء من غير تدوير لأجل ائتلافها من قطعتين منفردتين كذلك بأبجاش معدودة ينفخ فيها بقصبة صغيرة توصل فينفذ النفخ بواسطتها إليها وتصوت بنغمة حادة يجري فيها من تقطيع الأصوات من تلك الأبجاش بالأصابع مثل ما يجري في الشبابة ومن أحسن آلات الزمر لهذا العهد البوق وهو بوق من نحاس أجوف في مقدار الذراع يتسع إلى أن يكون انفرج مخرج في مقدار دون الكف في شكل برى القلم وينفخ فيه بقصبة صغيرة تؤدي الريح من الفم إليه فيخرج الصوت تخينا دويا وفيه أبجاش أيضا معدودة وتقطع نغمة منها كذلك بالأصابع على التناسب فيكون ملذوذا ومنها آلات الأوتار وهي جوفاء كلها ما على شكل قطعة من الكرة مثل البربط والرباب أو على شكل مربع كالقانون توضع الأوتار على بسائطها مشدودة في رأسها إلى دساتر جائلة ليتأتى شد الأوتار ورخوها عند الحاجة إليه بأدائها ثم تفرع الأوتار إما بعود آخر أو بوتر مشدود بين طرفي قوس يمر عليها بعد أن يطلى بالشمع والكندر

ويقطع الصوت فيه بتخفيف اليد في أمراره أو ثقله من وتر إلى وتر واليد اليسرى مع ذلك في جميع آلات الآلات وتوقع بأصابعها على أطراف الآلات وتوقع بالوتر فتحدث الأصوات متناسبة ملذوذة وقد يكون القرع في الطسوت بالقضبان أو في الأعواد بعضها بعض على توقع متناسب يحدث عنه التذاذ بالسموع ولتين لك السبب في اللذة الناشئة عن الغناء وذلك أن اللذة كما تقرر في موضعه هي ادراك الملائم والمحسوس أنما تدرك منه كيفية فإذا كانت مناسبة للمدرك وملائمة كانت ملذوذة وإذا كانت منافية له منافرة كانت مؤلمة فالملائم من الطعوم ما ناسبت كيفية حاسة الذوق في مزاجها وكذا الملائم من الملموسات وفي الروائح ما ناسب مزاج الروح القلبي البخاري لأنه المدرك واليه تؤديه الحاسة ولهذا كانت الرياحين والأزهار العطريات أحسن رائحة وأشد ملاءمة للروح لغلبة الحرارة فيها التي هي مزاج الروح القلبي وأما المراتبات والسموعات فالملائم فيها متناسب الآوضاع في أشكالها وكيفياتها فهو أنسب عند النفس وأشد ملاءمة لها فإذا كان المرئي متناسبا في أشكاله وتخطيطه التي له بحسب مادته بحيث لا يخرج عما تقتضيه مادته الخاصة من كمال المناسبة والوضع وذلك هو معنى الجمال والحسن في كل مدرك كان ذلك حينئذ مناسباً للنفس المدركة فتلتذذ بادرار ملامحها ولهذا تجد العاشقين المستهترين في المحبة يعبرون عن غاية محبتهم وعشقهم بامتزاج أرواحهم بروح المحبوب وفي هذا سر تفهمه أن كنت من أهله وهو اتحاد البدأ وان كل ماسواك إذا نظرت وتأملته رأيت بينك وبينه اتحاد في البداية يشهد لك به اتحادكما في الكون ومعناه من وجه آخر أن الوجود يشترك بين الموجودات كما تقول الحكماء فتود أن تخرج بما شاهدت فيه الكمال لتتحدث به بل تروم النفس حينئذ الخروج عن الوهم إلى الحقيقة التي هي اتحاد البدأ والكون ولما كان أنسب الأشياء إلى الإنسان وأقربها إلى أن يدرك الكمال في تناسب موضوعها هو شكله الإنساني فكان ادراكه للجمال والحسن في تخطيطه وأصواته من المدارك التي هي قرب إلى فطرته فيلجج كل إنسان بالحسن من المرئي أو المسموع بمقتضى الفطرة والحسن في المسموع أن تكون الأصوات متناسبة لا متنافرة وذلك أن الأصوات لها كيفيات من الهمس والجهر والرخاوة والشدّة والقلقلة والضغط وغير ذلك والتناسب فيها هو الذي يوجب لها الحسن فأولاً لأن لا يخرج من الصوت إلى مدة رفعه بل بتدريج ثم يرجع كذلك وهكذا إلى المثل بل لا بد من توسط المغاير بين الصوتين وتأمل هذا من افتتاح أهل اللسان التراكيب من الحروف المتنافرة أو المتقاربة الخارج فانه من بابه وثانياً تناسبها في الأجزاء كما مر أول الباب فيخرج من الصوت إلى نصفه أو ثلثه أو جزء من كذا منه على حسب ما يكون التنقل مناسباً على ما حضره أهل الصناعة فإذا كانت الأصوات على تناسب في الكيفيات كما ذكره أهل تلك الصناعة كانت ملائمة ملذوذة ومن هذا التناسب ما يكون بسيطاً ويكون الكثير من الناس مطبوعاً عليه لا يحتاجون فيه إلى تعليم ولا صناعة كما نجد المطبوعين على الموازين الشعرية وتوقيع الرقص وأمثال ذلك وتسمى العامة هذه القابلية بالمضمار وكثير من القراءة بهذه المثابة يقرؤون القرآن فيجيدون في تلاحين أصواتهم كأنها المزامير فيطربون بحسن مساقهم وتناسب نغماتهم ومن هذا التناسب ما يحدث



بالتركيب وليس كل الناس يستوى في معرفته ولا كل الطباع توافق صاحبها في العمل به اذا علم وهذا هو التلحين الذى يتكفل به علم الموسيقى كما نشرحه بعد عند ذكر العلوم وقد أنكر مالك رحمه الله تعالى القراءة بالتلحين وأجازها الشافعى رضى الله تعالى عنه وليس المراد تلحين الموسيقى الصناعى فانه لا ينبغي ان يختلف في حظه اذ صناعة الغناء مباينة للقرآن بكل وجه لان القراءة والاداء تحتاج الى مقدار من الصوت لتعيين أداء الحروف لا من حيث اتباع الحركات في موضعها ومقدار المد عند من يطلقه أو يقصره وأمثال ذلك والتلحين أيضا يتعين له مقدار من الصوت لا يتم الا به من أجل التناسب الذى قلناه في حقيقة التلحين واعتبار أحدهما قد يخل بالآخر اذا تعارضوا وتقديم الرواية متعين من تغيير الرواية المنقولة في القرآن فلا يمكن اجتماع التلحين والاداء المعتبر في القرآن بوجه وانما مرادهم التلحين البسيط الذى يهتدى اليه صاحب المضمار بطبعه كما قدمناه في رد أصواته ترديدا على نسب يدر كها العالم بالغناء وغيره ولا ينبغي ذلك بوجه كما قاله مالك هذا هو محل الخلاف والظاهر تنزيه القرآن عن هذا كله كما ذهب اليه الامام رحمه الله تعالى لان القرآن محل خشوع بذكر الموت وما بعده وليس مقام التذاذ بادراك الحسن من الاصوات وهكذا كانت قراءة الصحابة رضى الله عنهم كفى أخبارهم وأما قوله صلى الله عليه وسلم لقد أوتى زمرا من زمير آل داود فليس المراد به التريديد والتلحين انما معناه حسن الصوت وأداء القراءة والابانة في مخارج الحروف والنطق بها \* وإذ قد ذكرنا معنى الغناء فاعلم أنه يحدث في العمران اذا توفر وتجاوز حد الضرورى الى الحاجى ثم الى الكمالى وتفننوا فيه فتحدث هذه الصناعة لأنه لا يستدعيها الا من فرغ من جميع حاجاته الضرورية والمهمة من المعاش والمنزل وغيره فلا يطلبها الا الفارغون عن سائر أحوالهم فتفتنا في مذاهب المذوذات وكان في سلطان العجم قبل الملة منها بحر ز آخر في أمصارهم ومدتهم وكان ملوكهم يتخذون ذلك ويولعون به حتى لقد كان الملوك الفرس اهتمام بأهل هذه الصناعة ولهم مكان في دولتهم وكانوا يحضرون مشاهدهم وعجائبهم ويغنون فيها وهذا شأن العجم لهذا العهد في كل أفق من آفاقهم ومملكته من ممالكهم وأما العرب فكان لهم أولافن الشعر يؤلفون فيه الكلام أجزاء متساوية على تناسب بينها في عدة حروفها المتحركة والسكونة ويفصلون الكلام في تلك الأجزاء تفصيلا يكون كل جزء منها مستقلا بالاقادة لا ينعطف على الآخر ويسمونه البيت فتلائم الطبع بالتجزئة أولا ثم بتناسب الأجزاء في المقاطع والمبادئ ثم بتأدية المعنى المقصود تطبيق الكلام عليها فلهجوا به فامتاز من بين كلامهم بحظ من الشرف ليس لغيره لأجل اختصاصه بهذا التناسب وجعلوه ديوانا لأخبارهم وحكمهم وشرفهم ومحكا لقراءتهم في اصابة المعانى واجادة الأساليب واستمروا على ذلك وهذا التناسب الذى من أجل الأجزاء والمتحرك والسكون من الحروف قطرة من بحر من تناسب الأصوات كما هو معروف في كتب الموسيقى الا أنهم لم يشعروا بما سواه لأنه حينئذ لم يبحثوا علما ولا عرفوا صناعة وكانت البداوة أغلب نحلهم ثم تغني الحداثة منهم في حداث إبائهم والفتيان في فضاء خلواتهم فرجعوا الأصوات وترنموا وكانوا يسمون الترنم اذا كان بالشعر غناء

وإذا كان بالتهليل أو نوع القراءة تغيير بالغين المعجمة والباء الموحدة وعللها أبو اسحق الزجاج فانها تذكر بالغابر وهو الباقي أى بأحوال الآخرة وربما ناسبوا فى غنائهم بين النغمات مناسبة بسيطة كما ذكره ابن رشيق آخر كتاب العمدة وغيره وكانوا يسمونه السناد وكان أكثر ما يكون منهم فى الخفيف الذى يرقص عليه ويمشى بالدف والزمار فيضطرب ويستخف الحلووم وكانوا يسمون هذا المزج وهذا البسيط كله من التلاحين هو من أوائلها ولا يبعد أن تنتظن له الطباع من غير تعليم شأن البسائط كلها من الصنائع ولم يزل هذا شأن العرب فى بداوتهم وجاهليتهم فلما جاء الاسلام واستولوا على ممالك الدنيا وحازوا سلطان العجم وغلبوا عليه وكانوا من البداوة والغضاضة على الحال التى عرفت لهم مع غضايرة الدين وشدهته فى ترك أحوال الفراغ وماليس بنافع فى دين ولا معاش فهجروا ذلك شيأما ولم يكن الملدود عندهم الا ترجيع القراءة والترنم بالشعر الذى هو دينهم ومذهبهم فلما جاءهم الترف وغلب عليهم الرفه بما حصل لهم من غنائم الاثم صاروا الى نضارة العيش ورقة الحاشية واستحلوا الفراغ واقترب المغنون من الفرس والروم فوقعوا الى الحجاز وصاروا موالى للعرب وغنوا جميعا بالعيدان والطنابير والمعارف والزماير وسمع العرب تلحينهم للأصوات فلحنوا عليها أشعارهم وظهر بالمدينة نشيط الفارسى وطويس وسائب حاتمولى عبيدالله بن جعفر فسمعوا شعر العرب ولحنوه وأجادوا فيه وطار لهم ذكرهم أخذ عنهم معبد وطبقته وابن سريج وأنظاره وما زالت صناعة الغناء تتدرج الى أن كملت أيام بني العباس عند ابراهيم بن المهدي و ابراهيم الموصلى وابنه اسحق وابنه حماد وكان من ذلك فى دولتهم ببغداد ما تبعه الحديث بعده به وبمجالسه لهذا العهد وأمعنوا فى اللهو واللعب واتخذت آلات الرقص فى الملبس والقضبان والأشعار التى ترنم بها عليه وجعل صنفا وحده واتخذت آلات أخرى للرقص تسمى بالكرج وهى تماثيل خيل مسرجة من الخشب معلقة بأطراف أقبية يلبسها النسوان ويحاكين بها امتطاء الخيل فيكرون ويفرون ويثاقفون وأمثال ذلك من اللعب المعد للولائم والأعراس وأيام الأعياد ومجالس الفراغ واللهو وكثر ذلك ببغداد وأمصار العراق وانتشر منها الى غيرها وكان للموصلين غلام اسمه زرياب أخذ عنهم الغناء فأجاد فصرفوه الى المغرب عيرة منه فلحق بالحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل أمير الأندلس فبالغ فى تكريمه وركب للقاءه وأسنى له الجوائز والاقطاعات والجرايات وأحلته من دولته وندمائه بمكان فأورث بالأندلس من صناعة الغناء ما تناقلوه الى أزمان الطوائف وطامنوا بشييلة بحرر آخر وتناقل منها بعد ذهاب غضايرتها الى بلاد العدو بأفريقية والمغرب وانقسم على أمصارها وبها الآن منها صابة على تراجع عمرانها وتناقص دولها وهذه الصناعة آخر ما يحصل فى العمران من الصنائع لآنها كالية فى غير وظيفة من الوظائف الاوظيفة الفراغ والفرح وهى أيضا أول ما ينقطع من العمران عند اختلاله وتراجعه والله أعلم

### ٣٣ فصل فى أن الصنائع تكسب صاحبها عقلا وخصوصا الكتابة والحساب

قد ذكرنا فى الكتاب أن النفس الناطقة للانسان انما توجد فيه بالقوة وان خروجها من القوة الى

الفعل إنما هو بتجدد العلوم والادراكات عن المحسوسات أولاً ثم ما يكتسب بعدها بالقوة النظرية الى أن يصير إدراكا بالفعل وعقلا محضاً فتكون ذاتا روحانية ويستكمل حينئذ وجودها فوجب لذلك أن يكون كل نوع من العلم والنظر يفيدها عقلا فريدا والصنائع أبداً يحصل عنها وعن ملكتها قانون علمي مستفاد من تلك الملكة فلماذا كانت الحنكة في التجربة تفيد عقلا والملكات الصناعية تفيد عقلا والحضارة الكاملة تفيد عقلا لأنها مجتمعة من صنائع في شأن تدبير المنزل ومعاشرة أبناء الجنس وتحصيل الآداب في مخالطتهم ثم القيام بأمور الدين واعتبار آدابها وشرائطها وهذه كلها قوانين تنتظم علوماً فيحصل منها زيادة عقل والكتابة من بين الصنائع أكثر إفادة لذلك لأنها تشتمل على العلوم والآراء بخلاف الصنائع وبيانه أن في الكتاب انتقالاً من الحروف الخطية الى الكلمات اللفظية في الخيال ومن الكلمات اللفظية في الخيال الى المعاني التي في النفس ذلك دائماً فيحصل لها ملكة الانتقال من الأدلة الى المدلولات وهو معنى النظر العقلي الذي يكسب العلوم المجبول فيكسب بذلك ملكة من التعقل تكون زيادة عقل ويحصل به قوة فطنة وكيس في الأمور لما تعودوه من ذلك الانتقال ولذلك قال كسرى في كتابه لما رآهم بتلك الفطنة والكيس فقال ديوانه أي شياطين وحنون قالوا وذلك أصل اشتقاق الديوان لأهل الكتابة ويحقق بذلك الحساب فان في صناعة الحساب نوع تصرف في العدد بالضم والتفريق يحتاج فيه الى استدلال كثير فيبقى متعود الاستدلال والنظر وهو معنى العقل والله أعلم

### ﴿ الفصل السادس من الكتاب الأول ﴾

في العلوم وأصنافها والتعليم وطرقه وسائر جواهره وما يعرض في ذلك كله من الأحوال وفيه مقدمة ولو اُحِق

### ١ ﴿ فصل في أن العلم والتعليم طبعي في العمران البشري ﴾

وذلك أن الانسان قد شاركته جميع الحيوانات في حيوانيته من الحس والحركة والغذاء والسكن وغير ذلك وإنما تميز عنها بالفكر الذي يهتدي به لتحصيل معاشه والتعاون عليه بأبناء جنسه والاجتماع المهيء لذلك التعاون وقبول ما جاءت به الأنبياء عن الله تعالى والعمل به واتباع صلاح أخراه فهو مفكر في ذلك كله دائماً لا يفتر عن الفكر فيه طريقة عين بل اختلاج الفكر أسرع من لمح البصر وعن هذا الفكر تنشأ العلوم وما قدمناه من الصنائع ثم لاجل هذا الفكر وما جبل عليه الانسان بل الحيوانات من تحصيل ما تستدعيه الطباع فيكون الفكر راغباً في تحصيل ما ليس عنده من الادراكات فيرجع إلى من سبقه بعلم أو زاد عليه بمعرفة أو أدراك أو أخذه ممن تقدمه من الأنبياء الذين يبلغونه لمن تلقاه فيلقن ذلك عنهم ويحرص على أخذه وعلمه ثم ان فكره ونظره يتوجه إلى واحد واحد من الحقائق وينظر ما يعرض له لذاته واحد بعد آخر ويتمرن على ذلك حتى يصير الخالق العوارض بتلك الحقيقة ملكة له فيكون حينئذ علمه بما يعرض لتلك الحقيقة علماً مخصوصاً وتشوف نفوس أهل الجيل الناشئ إلى تحصيل ذلك فيفزعون إلى أهل معرفته ويحيي التعليم من هذا فقد تبين بذلك أن



## ٢ \* فصل في أن التعليم للعلم من جملة الصنائع \*

وذلك أن الحدق في العلم والتفنن فيه والاستيلاء عليه إنما هو بحصول ملكة في الاحاطة بمبادئه وقواعده والوقوف على مسائل واستنباط فروعه من أصوله ومالم تحصل هذه الملكة لم يكن الحدق في ذلك الفن المتناول حاصلًا وهذه الملكة هي في غير الفهم والوعى لاننا نجد فهم المسئلة الواحدة من الفن الواحد وعيها مشتركًا بين من شدا في ذلك الفن وبين من هو مبتدى فيه وبين العاى الذى لم يحصل علما وبين العالم النحرير والملكة إنما هي للعالم أو الشادى في الفنون دون من سواها فدل على أن هذه الملكة غير الفهم والوعى والملكات كلها جسمانية سواء كانت في البدن أو في الدماغ من الفكر وغيره كالحساب والجسمانيات كلها محسوسة فتفتقر الى التعليم ولهذا كان السند في التعليم في كل علم أو صناعة إلى مشاهير المعلمين فيها معتبرا عند كل أهل أفق وحيل ويدل أيضا على أن تعليم العلم صناعة اختلاف لاصطلاحات فيه فلكل امام من الائمة المشاهير اصلاح في التعليم يختص به شأن الصنائع كلها فدل على أن ذلك الاصطلاح ليس من العلم والالكان واحدا عند جميعهم ألا ترى الى علم الكلام كيف تخالف في تعليمه اصطلاح المتقدمين والمتأخرين وكذا أصول الفقه وكذا العربية وكذا كل علم يتوجه الى مطالعته تجد الاصطلاحات في تعليمه متخالفة فدل على أنها صناعات في التعليم والعلم واحد في نفسه وإذا تقرر ذلك فاعلم ان سند تعليم العلم لهذا العهد قد كاد أن ينقطع عن أهل المغرب باختلال عمرانه وتناقص الدول فيه وما يحدث عن ذلك من نقص الصنائع وفقدانها كما مر وذلك أن القيروان وقرطبة كانتا حضرتي المغرب والأندلس واستبحر عمرانهما وكان فيهما للعلوم والصنائع أسواق نافقة وبحور زاخرة ورسخ فيهما التعليم لامتداد عصورهما وما كان فيهما من الحضارة فلما خربت انقطع التعليم من المغرب الا قليلا كان في دولة الموحدين بمرأ كش مستفاد منها ولم ترسخ الحضارة بمرأ كش لبداوة الدولة الموحدية في أولها وقرب عهد انقراضها بمبدئها فلم تتصل أحوال الحضارة فيها الا في الاقل وبعد انقراض الدولة من مرأ كش ارتحل إلى المشرق من أفريقية القاضي أبو القاسم بن زيتون لعهد أو ساط المائة السابعة فأدرك تلميذ الامام ابن الخطيب فأخذ عنهم ولقن تعليمهم وحقق العقليات والنقلات ورجع الى تونس بعلم كثير وتعليم حسن وجاء على أثره من المشرق أبو عبد الله بن شعيب الدكالى كان ارتحل اليه من المغرب فأخذ عن مشيخة مصر ورجع إلى تونس واستقر بها وكان تعليمه مفيدا فأخذ عنها أهل تونس واتصل سند تعليمهما في تلاميذها جيلا بعد جيل حتى انتهى إلى القاضي محمد بن عبد السلام شارح ابن الحاجب وتلميذه واتصل من تونس إلى تلمسان في ابن الامام وتلميذه فانه قرأ مع ابن عبد السلام على مشيخة واحدة وفي مجالس بأعيانها وتلميذ ابن عبد السلام بتونس وابن تلمسان لهذا العهد الامام أنهم من القلة بحيث يخشى انقطاع سندهم ثم ارتحل من زواوة في آخر المائة السابعة أبو علي ناصر الدين المشد الى وأدرك تلميذ أبي عمرو بن الحاجب

وأخذ عنهم ولقن تعليمهم وقرأ مع شهاب الدين القرافي في مجالس واحدة وحذق في العقلیات والنقلیات ورجع إلى المغرب بعلم كثير وتعليم مفيد ونزل بجاية واتصل بسند تعليمه في طلبها ورجع إلى تلمسان وعمران المشد إلى من تلميذه وأوطنها وبث طريقته فيها وتلميذه لهذا العهد بجاية وتلمسان قليل أو أقل من القليل وبقيت فاس وسائر أقطار المغرب خلو من حسن التعليم من لدن انقراض تعليم قرطبة والقيروان ولم يتصل بسند التعليم فيهم ففسر عليهم حصول الملكة والحذق في العلوم وأيسر طرق هذه الملكة فتق اللسان بالحوارة والمناظرة في المسائل العلمية فهو الذي يقرب شأنها ويحصل مرامها فيجد طالب العلم منهم بعد ذهاب الكثير من أعمارهم في ملازمة المجالس العلمية سكوناً لا ينطقون ولا يفاوضون وعنايتهم بالحفظ أكثر من الحاجة فلا يحصلون على طائل من ملكة التصرف في العلم والتعليم ثم بعد تحصيل من يرى منهم أنه قد حصل تبحراً في علمه ان قاصرة في علمه ان فاوض أو ناظر أو علم وما تأتم القصور الامن قبل التعليم وانقطاع سنده والاخفافهم أبلغ من حفظ سواهم لشدة عنايتهم به وظنهم أنه المقصود من الملكة العامة وليس كذلك وما يشهد بذلك في المغرب أن المدة المعينة لسكنى طلبة العلم بالمدارس عندم ست عشرة سنة وهي بتونس خمس سنين وهذه المدة بالمدارس على المتعارف هي أقل ما يتأتى فيها لطالب العلم حصول مبتغاء من الملكة العامة أو اليأس من تحصيلها فطال أمدها في المغرب لهذه المدة لأجل عسرهما من قلة الجودة في التعليم خاصة لا مما سوى ذلك وأما أهل الأندلس فذهب رسم التعليم من بينهم وذهبت عنايتهم بالعلوم لتناقص عمران المسامين بها منذمئين من السنين ولم يبق من رسم العلم فيهم إلا فن العربية والأدب اقتصروا عليه وانحفظ سند تعليمه بينهم فانحفظ بحفظه وأما الفقه بينهم فرسم خلو وأثر بعد عين وأما العقلیات فلا أثر ولا عين وماداك إلا لا نقطاع سند التعليم فيها بتناقص العمران وتغلب العدو على غايتها إلا قليلاً بسيف البحر شغلهم بمعاشيتهم أكثر من شغلهم بآبائهم والله غالب على أمره وأما المشرق فلم ينقطع سند التعليم فيه بل أسواقه نازقة وبحوره زاهرة لا اتصال العمران الموفور واتصال السند فيه وإن كانت الأمصار العظيمة التي كانت معادن العلم قد خربت مثل بغداد والبصرة والكوفة إلا أن الله تعالى قد أдал منها بأمصارع عظم من تلك وانتقل العلم منها إلى عراق العجم بخراسان وما وراء النهر من المشرق ثم إلى القاهرة وما إليها من المغرب فلم تزل موفورة وعمرانها متصلاً وسند التعليم بها قائماً فأهل المشرق على الجملة أرسخ في صناعة تعليم العلم بل سائر الصنائع حتى أنه ليظن كثير من رحالة أهل المغرب إلى المشرق في طلب العلم أن عقولهم على الجملة أكمل من عقول أهل المغرب وأنهم أشد نباهة وأعظم كياسة بفطرتهم الأولى وأن نفوسهم الناطقة أكمل بفطرتها من نفوس أهل المغرب ويعتقدون التفاوت بيننا وبينهم في حقيقة الانسانية ويتشيعون لذلك ويولعون به لما يرون من كياسهم في العلوم والصنائع وليس كذلك وليس بين قطر المشرق والمغرب تفاوت بهذا المقدار الذي هو تفاوت في الحقيقة الواحدة اللهم إلا الأقاليم المنحرفة مثل الأول والسابع فإن المزجة فيها منحرفة والنفوس على نسبتها كما مروا إنما الذي فضل به أهل المشرق أهل المغرب هو ما يحصل في النفس من آثار الحضارة من العقل المزيدي كما تقدم في

الصنائع وزيدته الآن تحقيقاً وذلك أن الحضرة لهم آداب في أحوالهم في المعاش والمسكن ولبناء وأموال الدين والدينا وكذا سائر أعمالهم وعاداتهم ومعاملاتهم وجميع تصرفاتهم فلم يبق في ذلك كله آداب يوقف عندها في جميع ما يتناولونه ويتلبسون به من أخذ وترك حتى كأنها حدود لا تتعدى وهي مع ذلك صنائع يتلقاها الآخر عن الأول منهم ولا شك أن كل صناعة مرتبة يرجع منها إلى النفس أثر يكسبها عقلاً جديداً تستعده لقبول صناعة أخرى ويتبناها العقل لسرعة الإدراك للمعارف ولقد بلغنا في تعليم الصنائع عن أهل مصر غايات لا تدرك مثل أنهم يعلمون الحمر الإنسانية والحيوانات العجم من الماشي والطيائر مفردات من الكلام والأفعال يستغرب ثدورها ويعجز أهل المغرب عن فهمها وحسن الملكات في التعليم والصنائع وسائر الأحوال العادية يزيد الإنسان ذكاءً في عقله وإضاءة في فكره بكثرة الملكات الحاصلة للنفس إذ قدمنا أن النفس إنما تنشأ بالادراكات وما يرجع إليها من الملكات فيزدادون بذلك كيما لما يرجع إلى النفس من الآثار العلمية فيظنه العاقل تفاوتاً في الحقيقة الإنسانية وليس كذلك ألا ترى إلى أهل الحضرة مع أهل البدو كيف تجد الحضري متحلياً بالذكاء ممتلئاً من الكيس حتى أن البدو ليظنه أنه قد فاته في حقيقة إنسانيته وعقله وليس كذلك وما ذاك إلا لاجدته في ملكات الصنائع والآداب في العوائد والأحوال الحضريّة بما لا يعرفه البدوي فلما امتلأ الحضري من الصنائع وملكاتها وحسن تعليمها ظن كل من قصر عن تلك الملكات أنها لكمال في عقله وأن نفوس أهل البدو قاصرة بفطرتها وجبلتها عن فطرته وليس كذلك فأنجد من أهل البدو ومن هو في أعلى رتبة من الفهم والكمال في عقله وفطرته إنما الذي ظهر على أهل الحضرة من ذلك هو رونق الصنائع والتعليم فإن لها آثاراً ترجع إلى النفس كما قدمناه وكذا أهل المشرق لما كانوا في التعليم والصنائع أرسخ رتبة وأعلى قدماً وكان أهل المغرب أقرب إلى البداوة لما قدمناه في الفصل قبل هذا من المغفلون في بادئ الرأي أنه لكمال في حقيقة الإنسانية اختصوا به عن أهل المغرب وليس ذلك بصحيح فتفهمه والله يزيد في الخلق ما يشاء وهو إله السموات والأرض

### ٣ ﴿ فصل في أن العلوم إنما تكثر حيث يكثر العمران وتعمم الحضارة ﴾

والسبب في ذلك أن تعليم العلم كما قدمناه من جملة الصنائع وقد كنا قدّمنا أن الصنائع إنما تكثر في الأمصار وعلى نسبة عمرانها في الكثرة والقلّة والحضارة والترّف تكون نسبة الصنائع في الجودة والكثرة لأنه أمر زائد على المعاش فمضى فضلت أعمال أهل العمران عن معاشهم انصرفت إلى ما وراء المعاش من التصرف في خاصية الإنسان وهي العلوم والصنائع ومن تشوف بفطرته إلى العلم بمن نشأ في القرى والأمصار غير المتمدنة فلا يجد فيها التعليم الذي هو صناعى لفقدان الصنائع في أهل البدو كما قدمناه ولا بدله من الرحلة في طلبه إلى الأمصار المستبحرة شأن الصنائع كلها واعتبر ما قررناه بحال بغداد وقرطبة والقيروان والبصرة والكوفة لما كثر عمرانها صدر الإسلام واستوت فيها الحضارة كيف زخرت فيها بحار العلم وتفننوا في



اصطلاحات التعليم وأصناف العلوم واستنباط المسائل والفنون حتى أربوا على المتقدمين وقاتوا المتأخرين ولما تناقص عمراتها وابتدع سكانها انطوى ذلك البساط بما عليه جملة وقد العلم بها والتعليم وانتقل إلى غيرها من أمصار الإسلام ونحن لهذا العهد نرى أن العلم والتعليم إنما هو بالقاهرة من بلاد مصر لما أن عمراتها مستبحر وحضارتها مستحكمة منذ آلاف من السنين فاستحكمت فيها الصنائع وتفتنت ومن جملة تعليم العلم وكذلك فيها وحفظه ما وقع لهذه العصور بهامد مائتين من السنين في دولة الترك من أيام صلاح الدين بن أيوب وهلم جرا وذلك أن أمراء الترك في دولتهم يخشون عادية سلطانهم على ما يتخلفونه من ذريتهم لئلا يعلو عليهم من الرق أو الولاء ولما يخشى من معاطب الملك ونكباته فاستكثر وأمن بناء المدارس والزوايا والربط ووقفوا عليها الأوقاف المغلة يجعلون فيها شر كالولد ثم ينظر عليها أو نصيب منها مع ما فهم غالبا من الجنوح إلى الخير والتماس الأجور في المقاصد والأفعال فكثرت الأوقاف لذلك وعظمت الغلات والفوائد وكثر طالب العلم ومعلمه بكثرة جرائتهم منها وارتحل إليها الناس في طلب العلم من العراق والمغرب ونفقت بها أسواق العلوم وزخرت بحارها والله يخلق ما يشاء

#### ٤ ﴿ فصل في أصناف العلوم الواقعة في العمران لهذا العهد ﴾

﴿ اعلم ﴾ أن العلوم التي يخوض فيها البشر ويتداولونها في الأمصار تحصيلها وتعليمها هي على صنفين صنف طبيعي للانسان يهتدي إليه بفكره وصنف ثقلي يأخذه عن وضعه والأول هي العلوم الحكيمة الفلسفية وهي التي يمكن أن يقف عليها الانسان بطبيعة فكره ويهتدي بمداركه البشرية إلى موضوعاتها ومسائلها وأنحاء براهينها وجوه تعليمها حتى يقفه نظره (١) ويبحثه على الصواب من الخط فيها من حيث هو إنسان وفكر والثاني هي العلوم الثقيلة الوضعية وهي كلها مستندة إلى الخبر عن الواضع الشرعي ولا مجال فيها للعقل إلا في إلحاق الفروع من مسائلها بالأصول لأن الجزئيات الحادثة المتعاقبة لا تدرج تحت النقل الكلي بمجرد وضعه فتحتاج إلى إلحاق بوجه قياسي إلا أن هذا القياس يتفرع عن الخبر بثبوت الحكم في الأصل وهو ثقلي فرجع هذا القياس إلى النقل لتفرعه عنه وأصل هذه العلوم الثقيلة كلها هي الشرعيات من الكتاب والسنة التي هي مشروعة لنا من الله ورسوله وما يتعلق بذلك من العلوم التي تهيمها للإفادة ثم يستتبع ذلك علوم اللسان العربي الذي هو لسان الملة وبه نزل القرآن وأصناف هذه العلوم الثقيلة كثيرة لأن المكلف يجب عليه أن يعرف أحكام الله تعالى المفروضة عليه وعلى أبناء جنسه وهي مأخوذة من الكتاب والسنة بالنص أو بالإجماع أو بالألحاق فلا بد من النظر في الكتاب ببيان ألفاظه أولا وهذا هو علم التفسير ثم بإسناد نقله وروايته إلى النبي صلى الله عليه وسلم الذي جاء به من عند الله واختلاف روايات القراء في قراءته وهذا هو علم القراءات ثم بإسناد السنة إلى صاحبها والكلام في الرواة الناقلين لها ومعرفة أحوالهم وعدالتهم ليقع الوثوق بأخبارهم بعلم ما يجب العمل بمقتضاه من ذلك وهذه هي

( ١ ) قوله حتى يقفه نظره يستعمل وقف متعديا فنقول وقفته على كذا أي أطاعته عليه قاله نصر اه

علوم الحديث ثم لا بد في استنباط هذه الأحكام من أصولها من وجه قانوني يفيد العلم بكيفية هذا الاستنباط وهذا هو أصول الفقه وبعد هذا تحصل الثمرة بمعرفة أحكام الله تعالى في أفعال المكلفين وهذا هو الفقه ثم أن التكليف منها بدني ومنها قلبي وهو المختص بالإيمان وما يجب أن يعتقد مما لا يعتد وهذه هي العقائد الإيمانية في الذات والصفات وأمور الخير والنعم والعذاب والقدر والحجاج عن هذه بالدلة العقلية هو علم الكلام ثم النظر في القرآن والحديث لا بد أن تتقدمه العلوم اللسانية لأنه متوقف عليها وهي أصناف فمنها علم اللغة وعلم النحو وعلم البيان وعلم الأدب حسبما تتكلم عليها كلها وهذه العلوم الثقيلة كلها مختصة بالملة الإسلامية وأهلها وإن كانت كل ملة على الجملة لا بد فيها من مثل ذلك فهي مشاركة لها في الجنس البعيد من حيث أنها علوم الشريعة المنزلة من عند الله تعالى على صاحب الشريعة المبلغ لها وأما على الخصوص فمباينة لجميع الملل لأنها ناسخة لها وكل ما قبلها من علوم الملل فمحجور والنظر فيها محذور فقد نهى الشرع عن النظر في الكتب المنزلة غير القرآن قل صلى الله عليه وسلم لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالذي أنزل البينا وأنزل اليكم وإلها وإلهكم واحد ورأى النبي صلى الله عليه وسلم في يد عمر رضي الله عنه ورقة من التوراة فغضب حتى تبين الغضب في وجهه ثم قل ألم آتكم بها بيضاء نقية والله لو كان موسى حيا ما وسعته إلا اتباعي ثم أن هذه العلوم الشرعية الثقيلة قد نفقت أسواقها في هذه الملة بما لا مزيد عليه وانتهت فيها مدارك الناظرين إلى الغاية التي لا فوقها وهذبت الاصطلاحات ورُبنت الفنون فجاءت من وراء الغاية في الحسن والتميق وكان لكل فن رجال يرجع إليهم فيه وأوضاع يستفاد منها التعليم واختص المشرق من ذلك والمغرب بما هو مشهور منها حسبما ذكره الآن عند تعدد هذه الفنون وقد كسدت لهذا العهد أسواق العلم بالمغرب لتناقص العمران فيه وانقطاع سند العلم والتعليم كما قدمناه في الفصل قبله وما أدري ما فعل الله بالمشرق والظن به نفاق العلم فيه واتصال التعليم في العلوم وفي سائر الصنائع الضرورية والكمالية لكثرة عمرانه والحضارة ووجود الإعانة لطالب العلم بالجرية من الأوقاف التي اتسعت بها أرزاقهم والله سبحانه وتعالى هو الفعال لما يريد وبيده التوفيق والإعانة

#### ٥ علوم القرآن من التفسير والقراآت

القرآن هو الكلام المنزل على نبيه المكتوب بين دفتي المصحف وهو متواتر بين الأمة إلا أن الصحابة رويوه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم على طرق مختلفة في بعض ألفاظه وكيفيات الحروف في أدائها وتنويع ذلك واشتهر إلى أن استقرت منها سبع طرق معينة تواتر نقلها أيضا بأدائها واختصت بالانتساب إلى من اشتهر بروايتها من الجم الغفير فصارت هذه القراآت السبع أصولا للقراءة وربما زيد بعد ذلك قراآت أخر لحقت بالسبع لأنها عند أئمة القراءة لا تقوى قوتها في النقل وهذه القراآت السبع معروفة في كتبها وقد خالف بعض الناس في تواتر طرقها لأنها عندكم كيفيات

للأداء وهو غير منضبط وليس ذلك عندهم بفادح في تواتر القرآن وآياه الأء كثر وقالوا بتواترها  
وقل آخرون بتواتر غير الأداء منها كالمدا والتسهيل لعدم الوقوف على كلفيته بالسمع وهو الصحيح ولم  
يزل القراء يتداولون هذه القراآت وروايتها إلى أن كتبت العلوم ودونت فكتبت فيما كتب من العلوم  
وصارت صناعة مخصوصة وعلم مفردا وتناقله الناس بالمشرق والأندلس في جيل بعد جيل إلى أن ملك  
بشرقي الأندلس مجاهد من موالى العامريين وكان معنيا بهذا الفن من بين فنون القرآن لما أخذه  
به مولاه المنصور ابن أبي عامر واجتهد في تعليمه وعرضه على من كان من أئمة القراء بحضرته فكان  
سهمه في ذلك وافر واختص مجاهد بعد ذلك بامارة دانية والجزائر الشرقية فنفتت بها سوق القراءة  
لما كان هو من أئمتها وبما كان له من العناية بسائر العلوم عموما وبالقراآت خصوصا فظهر لعهد  
أبو عمرو والداني وبلغ الغاية فيها ووقفت عليه معرقها وانتهت إلى روايته أسانيدها وتعددت تأليفه  
فيها ووعول الناس عليها وعدلوا عن غيرها واعتمدوا من بينها كتاب التيسير له ثم ظهر بعد ذلك فيما  
يليه من العصور والأجيال أبو القاسم بن فيرة من أهل شاطبة فعمد إلى تهذيب مادونه أبو عمرو  
وتلخيصه فنظم ذلك كله في قصيدة لغز فيها أسماء القراء بحروف ابجد ترتيبا أحكمه ليتيسر عليه  
ما قصده من الاختصار وليكون أسهل للاحتفاظ لأجل نظمها فاستوعب فيها الفن استيعابا حسنا  
وعنى الناس بحفظها وتلقينها للولدان المتعلمين وجرى العمل على ذلك في أمصار المغرب والأندلس  
وربما أضيف إلى فن القراآت فن الرسم أيضا وهي أوضاع حروف القرآن في المصحف ورسومه الخطية  
لأن فيه حروفا كثيرة وقعر سمها على غير المعروف من قياس الخط كزيادة الياء في بأييد وزيادة الألف  
في لأذبحه ولا أوضعوا والواو في جزاؤ الظالمين وحذف الألفات في مواضع دون أخرى ومارس فيه  
من التناآت ممدود والأصل فيه مربوط على شكل الهاء وغير ذلك وقدمر تعليل هذا الرسم المصحفي عند  
الكلام في الخط فلما جاءت هذه المخالفة لأوضاع الخط وقانونه احتيج إلى حصرها فكتب الناس فيها  
أيضا عند كتبهم في العلوم وانتهت بالمغرب إلى أبي عمرو والداني المذكور فكتب فيها كتباً من أشهرها  
كتاب المقنع وأخذ به الناس وعولوا عليه ونظمه أبو القاسم الشاطبي في قصيدته المشهورة على  
روى الرام وولع الناس بحفظها ثم كثرت الخلاف في الرسم في كلمات وحروف أخرى ذكرها أبو داود  
وسليمان بن نجاح من موالى مجاهد في كتبه وهو من تلاميذ أبي عمرو والداني والمشتهر بحمل علومه  
ورواية كتبه ثم نقل بعده خلاف آخر فنظم الخراز من المتأخرين بالمغرب أرجوزة أخرى زاد  
فيها على المقنع خلافا كثيرا وعزاه لناقليه واشتهرت بالمغرب واقتصر الناس على حفظها وهجروابها  
كتب أبي داود وأبي عمرو والشاطبي في الرسم ﴿وأما التفسير﴾ فاعلم أن القرآن نزل بلغة العرب وعلى  
أساليب بلاغتهم فكانوا كلهم يفهمونه ويعلمون معانيه في مفرداته وتراكيبه وكان ينزل جملا جملا  
وآيات آيات لبيان التوحيد والفروض الدينية بحسب الوقائع ومنها ماهو في العقائد الإيمانية ومنها  
ماهو في أحكام الجوارح ومنها ما يتقدم ومنها ما يتأخر ويكون ناسخا له أو كان النبي صلى الله عليه وسلم



يبين المجمل ويميز الناسخ من المنسوخ ويعرفه أصحابه فعرفوه وعرفوا سبب نزول الآيات ومقتضى الحال منها منقولاً عنه كما علم من قوله تعالى إذا جاء نصر الله والفتح أنها نعى النبي صلى الله عليه وسلم وأمثال ذلك وتقل ذلك عن الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين وتداول ذلك التابعون من بعدهم وتقل ذلك عنهم ولم يزل ذلك متناقلاً بين الصدر الأول والسلف حتى صارت المعارف علوماً ودونت الكتب فكتب الكثير من ذلك ونقلت الآثار الواردة فيه عن الصحابة والتابعين وانتهى ذلك إلى الطبري والواقدي والثعالبي وأمثال ذلك من المفسرين فكتبوا فيه ما شاء الله أن يكتبوه من الآثار ثم صارت علوم اللسان صناعية من الكلام في موضوعات اللغة وأحكام الأعراب والبلاغة في التراكيب فوضعت الدواوين في ذلك بعد أن كانت ملكات للعرب لا يرجع فيها إلى نقل ولا كتاب فتنوسى ذلك وصارت تتلقى من كتب أهل اللسان فاحتيج إلى ذلك في تفسير القرآن لأنه بلسان العرب وعلى منهاج بلاغتهم وصار التفسير على صنفين تفسير نقلى مسنداً إلى الآثار المنقولة عن السلف وهى معرفة الناسخ والمنسوخ وأسباب النزول ومقاصد الآى وكل ذلك لا يعرف إلا بالنقل عن الصحابة والتابعين وقد جمع المتقدمون في ذلك وأوعوا إلا أن كتبهم ومنقولاتهم تشتمل على الغث والسمين والمقبول والمردود والسبب في ذلك أن العرب لم يكونوا أهل كتاب ولا علم وإنما غلبت عليهم البداءة والامية وإذا تشوقوا إلى معرفة شئ مما تشوق إليه النفوس البشرية في أسباب المكنونات وبدء الخليقة وأسرار الوجود فأنما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم ويستفيدونه منهم أو هم أهل التوراة من اليهود ومن تبع دينهم من النصارى وأهل التوراة الذين بين العرب يومئذ بادية مثلهم ولا يعرفون من ذلك إلا ما تعرفه العامة من أهل الكتاب ومعظمهم من حمير الذين أخذوا بدين اليهودية فلما أسلموا بقوا على ما كان عندهم مما يتعلق له بالأحكام الشرعية التي يختاطون لها مثل أخبار بدء الخليقة وما يرجع إلى الحدثن والملاحم وأمثال ذلك وهو لأهل كعب الأخبار ووهب بن منبه وعبد الله بن سلام وأمثالهم فامتد إلى التفاسير من المنقولات عندهم وفي أمثال هذه الأغراض أخبار موقوفة عليهم وليست بما يرجع إلى الأحكام فيتحرى في الصحة التي يجب بها العمل ويتساهل المفسرون في مثل ذلك وملأوا كتب التفسير بهذه المنقولات وأصلها كما قلنا عن أهل التوراة الذين يسكنون البادية ولا تحقيق عندهم بمعرفة ما ينقلونه من ذلك إلا أنهم بعد صيتهم وعظمت أقدارهم لما كانوا عليه من المقامات في الدين والملة فتلقيت بالقبول من يومئذ فلما رجع الناس إلى التحقيق والتمحيض وجاء أبو محمد بن عطية من المتأخرين بالمغرب فلخص تلك التفاسير كلها وتحرما هو أقرب إلى الصحة منها ووضع ذلك في كتاب متداول بين أهل المغرب والأندلس حسن المنهج وتبعه القرطبي في تلك الطريقة على منهاج واحد في كتاب آخر مشهور بالمشرق \* والصنف الآخر من التفسير وهو ما يرجع إلى اللسان في معرفة اللغة والأعراب والبلاغة في تأدية المعنى بحسب المقاصد والأساليب وهذا الصنف من التفسير قل أن ينفرد عن الأول إذاً أول هو المقصود بالذات وإنما جاء هذا بعد أن صار اللسان وعلومه صناعة نعم قد

يكون في بعض التفاسير غالبا ومن أحسن ما اشتمل عليه هذا الفن من التفاسير كتاب الكشاف للزمخشري من أهل خوارزم العراق إلا أن مؤلفه من أهل الاعتزال في العقائد فيأتي الحجاج على مذاهبهم الفاسدة حيث تعرض له في آي القرآن من طرق البلاغة فصار بذلك للمحققين من أهل السنة انحراف عنه وتحذير للجمهور من مكانه مع إقرارهم برسوخ قدمه فيما يتعلق باللسان والبلاغة وإذا كان الناظر فيه واقفا مع ذلك على المذاهب السنية محسنا للحجاج عنها فلا جرم أنه مأمون من غوائله فلتعتم مطالعته لغرابة فنونه في اللسان ولقد وصل إلينا في هذه العصور تأليف لبعض العراقيين وهو شرف الدين الطيبي من أهل توريز من عراق العجم شرح فيه كتاب الزمخشري هذا وتبع ألفاظه وتعرض لمذاهبه في الاعتزال بأدلة تزيها ويبين أن البلاغة انما تقع في الآية على ما يراه أهل السنة لا على ما يراه المعتزلة فأحسن في ذلك ما شاء مع امتناعه في سائر فنون البلاغة وفوق كل ذي علم عليم

#### ٦ علوم الحديث

وأما علوم الحديث فهي كثيرة ومتنوعة لأن منها ما ينظر في ناسخه ومنسوخه وذلك بما ثبت في شريعتنا من جواز النسخ ووقوعه لطفا من الله بعباده وتخفيفا عنهم باعتبار مصالحهم التي تكفل لهم بها قال تعالى ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها فاذا تعارض الخبران بالنفي والاثبات وتعذر الجمع بينهما ببعض التأويل وعلم تقدم أحدهما تعين أن المتأخر ناسخ ومعرفة النسخ والمنسوخ من أهم علوم الحديث وأصعبها قل الزهري أعيان الفقهاء وأعجزهم أن يعرفوا ناسخ حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم من منسوخه وكان للشافعي رضي الله عنه فيه قدم راسخة ومن علوم الأحاديث النظر في الأسانيد ومعرفة ما يجب العمل به من الأحاديث بوقوعه على السند الكامل الشروط لأن العمل إنما واجب بما يغلب على الظن صدقة من أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم فيجهد في الطريق التي تحصل ذلك الظن وهو بمعرفة رواية الحديث بالعدالة والضبط وإنما يثبت ذلك بالنقل عن أعلام الدين بتعديلهم وبراءتهم من الجرح والغفلة ويكون لذلك دليلا على القبول أو الترك وكذلك مراتب هؤلاء النقلة من الصحابة والتابعين وتفاوتهم في ذلك وتميزهم فيه واحدا واحدا وكذلك الأسانيد وتفاوت باتصالها وانقطاعها بأن يكون الراوي لم يلق الراوي الذي نقل عنه وبسلامتها من العلل الموهنة لها وتنتهي بالتفاوت إلى طرفين فحكم بقبول الأعلى ورد الأسفل ويختلف في المتوسط بحسب المنقول عن أئمة الشأن ولهم في ذلك ألفاظ اصطلاحوا على وضعها لهذه المراتب المرتبة مثل الصحيح والحسن والضعيف والمرسل والمنقطع والمعضل والشاذ والغريب وغير ذلك من ألقابه التداولة بينهم وبوبوا على كل واحد منها ونقلوا ما فيه من الخلاف لأئمة اللسان أو الوفاق ثم النظر في كيفية أخذ الرواة بعضهم عن بعض بقراءة أو كتابة أو مناولة أو أجازة وتفاوت رتبها ومال العلماء في ذلك من الخلاف بالقبول والرد ثم أتبعوا ذلك بكلام في ألفاظ تقع في

متون الحديث من غريب أو مشكل أو تصحيف أو مفترق منها أو مختلف وما يناسب ذلك هذا معظم ما ينظر فيه أهل الحديث وغالبه وكانت أحوال نقلة الحديث في عصور السلف من الصحابة والتابعين معروفة عند أهل بلده فمنهم بالحجاز ومنهم بالبصرة والكوفة من العراق ومنهم بالشام ومصر والجميع معروفون مشهورون في أعصارهم وكانت طريقة أهل الحجاز في أعصارهم في الأسانيد أعلى ممن سواهم وأمتن في الصحة لاستبدادهم في شروط النقل من العدالة والضبط وتحافهم عن قبول المجهول الحال في ذلك وسند الطريقة الحجازية بعد السلف الإمام مالك علم المدينة رضي الله تعالى عنه ثم أصحابه مثل الإمام محمد بن إدريس الشافعي والإمام أحمد بن حنبل وأمثالهم وكان علم الشريعة في مبدأ هذا الأمر تقلا صرفا شمر لها السلف وتحرروا الصحيح حتى أكلوها وكتب مالك رحمه الله كتاب الموطأ أودعه أصول الأحكام من الصحيح المتفق عليه ورتبه على أبواب الفقه ثم غنى الحفاظ بمعرفة طرق الأحاديث وأسانيدها المختلفة وربما يقع إسناد الحديث من طرق متعددة عن رواة مختلفين وقديع الحديث أيضا في أبواب متعددة باختلاف المعاني التي اشتمل عليها وجاء محمد بن اسمعيل البخاري إمام المحدثين في عصره فخرج أحاديث السنة على أبوابها في مسنده الصحيح بجميع الطرق التي للحجازيين والعراقيين والشاميين واعتمد منها ما أجمعوا عليه دون ما اختلفوا فيه وكرر الأحاديث يسوقها في كل باب بمعنى ذلك الباب الذي تضمنه الحديث فتكررت لذلك أحاديثه حتى يقال أنه اشتمل ( ١ ) على تسعة آلاف حديث ومائتين منها ثلاثة آلاف متكررة وفرق الطرق والأسانيد عليها مختلفة في كل باب ثم جاء الإمام مسلم بن الحجاج القشيري رحمه الله تعالى فألف مسنده الصحيح هذا فيه حذو البخاري في نقل المجمع عليه وحذف المتكرر منها وجمع الطرق والأسانيد وبوبه على أبواب الفقه وتراجمه ومع ذلك فلم يستوعبها الصحيح كله وقد استدرك الناس عليهما في ذلك ثم كتب أبو داود السجستاني وأبو عيسى الترمذي وأبو عبد الرحمن النسائي في السنن بأوسع من الصحيح وقصدوا ما توفرت فيه شروط العمل إما من الرتبة العالية في الأسانيد وهو الصحيح كما هو معروف وأما من الذي دونه من الحسن وغيره ليكون ذلك إماما للسنن والعمل وهذه هي المسانيد المشهورة في الملة وهي أمهات كتب الحديث في السنة فاتها وإن تعددت ترجع إلى هذه في الأغلب ومعرفة هذه الشروط والاصطلاحات كلها هي علم الحديث وربما يفرد عنها الناسخ والمنسوخ فيجعل فنا برأسه وكذا الغريب والناس فيه تأليف مشهورة ثم المؤلف والمختلف وقد ألف الناس في علوم الحديث وأكثروا ومن خول علمائه وأئمتهم أبو عبد الله الحاكم وتأليفه مشهورة وهو الذي هذبه وأظهر محاسنه وأشهر كتابه للمتأخرين فيه كتاب أبي عمرو بن الصلاح كان لعهد أوائل المائة السابعة وتلاه محي الدين النَوَوِي بمثل ذلك والفن شريف في مغزاه لأنه معرفة ما يحفظ به السنن المنقولة عن صاحب الشريعة ولقد انقطع لهذا العهد تخريج شيء من الأحاديث واستدراكها



على المتقدمين اذ العادة تشهد بأن هؤلاء الأئمة على تعدد وعصورهم وكفايتهم واجتهادهم لم يكونوا ليغفلوا شيئاً من السنة أو يتركوه حتى يعثر عليه المتأخر هذا بعيد عنهم وإنما تنصرف العناية لهذا العهد الى تصحيح الاثبات المكتوبة وضبطها بالرواية عن مصنفها والنظر في أسانيدھا الى مؤلفها وعرض ذلك على ما تقرر في علم الحديث من الشروط والاحكام لتتصل الاسانيد محكمة الى منتهاها ولم يزدوا في ذلك على العناية بأكثر من هذه الاثبات الخمسة الا في القليل \* فأما البخارى وهو أعلاها رتبة فاعتصب الناس شرحه واستغلقوا منحاها من أجل ما يحتاج اليه من معرفة الطرق المتعددة ورجلها من أهل الحجاز والشام والعراق ومعرفة أحوالهم واختلاف الناس فيهم ولذلك يحتاج الى إمعان النظر في النفقة في تراجمه لأنه يترجم الترجمة ويورد فيها الحديث بسند أو طريق ثم يترجم أخرى ويورد فيها ذلك الحديث بعينه لما تضمنه من المعنى الذى ترجم به الباب وكذلك في ترجمة و ترجمة الى أن يتكرر الحديث فى أبواب كثيرة بحسب معانيه واختلافها ومن شرحه ولم يستوف هذا فيه فلم يوف حق الشرح كابن بطلان وابن المهيلى وابن التين ونحوهم ولقد سمعت كثيراً من شيوخنا رحمهم الله يقولون شرح كتاب البخارى دين على الأئمة يعنون أن أحداً من علماء الأئمة لم يوف ما يجب له من الشرح بهذا الاعتبار \* وأما صحيح مسلم فكثرت عناية علماء المغرب به وأكبوا عليه وأجمعوا على تفضيله على كتاب البخارى من غير الصحيح مما لم يكن على شرطه وأكثروا موقع له فى التراجم وأملوا الامام المازري من فقهاء المالكية عليه شرحاً وسماه المعلم بفوائد مسلم اشتمل على عيون من علم الحديث وفنون من الفقه ثم أكمله القاضى عياض من بعده وتممه وسماه إكمال المعلم وتلاهما محي الدين النووى بشرح استوفى ما فى الكتابين وزاد عليهما فجاء شرحا وافيا \* وأما كتب السنن الأخرى وفيها معظم مأخذ الفقهاء فأكثر شرحها فى كتب الفقه الا ما يختص بعلم الحديث فكتب الناس عليها واستوفوا من ذلك ما يحتاج اليه من علم الحديث وموضوعاتها والاسانيد التى اشتملت على الأحاديث المعمول بها من السنة \* واعلم أن الأحاديث قد تميزت مراتبها لهذا العهد بين صحيح وضعيف ومعلول وغيرهاتر لها أئمة الحديث وجها بذته وعرفوها ولم يبق طريق فى تصحيح ما يصح من قبل ولقد كان الأئمة فى الحديث يعرفون الأحاديث بطرقها وأسانيدھا بحيث لو روي حديث بغير سنده وطريقه يفتنون الى أنه قد قلب عن وضعه ولقد وقع مثل ذلك للامام محمد بن إسماعيل البخارى حين ورد على بغداد وقصد المحدثون امتحانه فسألوه عن أحاديث قلبوا أسانيدھا فقال لا أعرف هذه ولكن حدثني فلان ثم أتى بجميع تلك الأحاديث على الوضع الصحيح ورد كل متن الى سنده وأقرؤا له بالامامة \* واعلم أيضاً أن الأئمة المجتهدين تفاوتوا فى الاكثار من هذه الصناعة والاقبال فأبو حنيفة رضى الله تعالى عنه يقال عنده بلغت روايته الى سبعة عشر حديثاً ونحوها ومالك رحمه الله (١) إنما صح عنده ما فى كتاب الموطأ وأغابها ثلثمائة حديثاً ونحوها وأحمد بن حنبل رحمه الله

(١) الذى فى شرح الزرقانى على الموطأ حكاية أقوال خمسة فى عدة أحاديث ولها خمسة ثمانية سبعة ثمانية

تعالى في مسنده خمسون ألف حديث ولكل ما أداه إليه اجتهاده في ذلك وقد تقول بعض المغضين المتعسفين إلى أن منهم من كان قليل البضاعة في الحديث فلماذا قلت روايته ولا سبيل إلى هذا المعتقد في كبار الأئمة لأن الشريعة إنما تؤخذ من الكتاب والسنة ومن كان قليل البضاعة من الحديث فيتعين عليه طلبه وروايته والجد والتشمير في ذلك ليأخذ الدين عن أصول صحيحة ويتلقى الأحكام عن صاحبها المبلغ لها وإنما قليل منهم من قلل الرواية لأجل المطاعن التي تعرضه فيها والعلل التي تعرض في طرقها سيما والجرح مقدم عند الأئمة كثر فيؤديه الاجتهاد إلى ترك الأخذ بما يعرض مثل ذلك فيه من الأحاديث وطرق الأئمة يساندون ويكثر ذلك فتقل روايته لضعف الطرق هذا مع أن أهل الحجاز أكثر رواية للحديث من أهل العراق لأن المدينة دار الهجرة ومأوى الصحابة ومن انتقل منهم إلى العراق كان شغلهم بالجهاد أكثر والامام أبو حنيفة إنما قللت روايته لما شدد في شروط الرواية والتحمل وضعف رواية الحديث اليقيني إذا عارضها الفعل النفسى وقلت من أجلها روايته فقل حديثه لأنه ترك رواية الحديث متعمدا خشا من ذلك ويدل على أنه من كبار المجتهدين في علم الحديث اعتماد مذهبه بينهم والتعويل عليه واعتباره ردا وقبولا وأما غيره من المحدثين وهم الجمهور فتوسعوا في الشروط وكثر حديثهم والكل عن اجتهاد وقد توسع أصحابه من بعده في الشروط وكثرت روايتهم وروى الطحاوي فأكثر وكتب مسنده وهو جليل القدر إلا أنه لا يعدل الصحيحين لأن الشروط التي اعتمدها البخاري ومسلم في كتابيهما تجمع عليها بين الأئمة كما قالوه وشروط الطحاوي غير متفق عليها كالرواية عن المستور الحال وغيره فلماذا أقدم الصحيحان بل وكتب السنن المعروفة عليه لتأخر شرطه عن شروطهم ومن أجل هذا قبل في الصحيحين بالاجماع على قبولهما من جهة الاجماع على صحة ما فهم من الشروط المتفق عليها فلا تأخذك ريب في ذلك فالقوم أحق الناس بالظن الجليل بهم والتماس الخارج الصحيحة لهم والله سبحانه وتعالى أعلم بما في حقائق الأمور

#### ٧ \* علم الفقه وما يتبعه من الفرائض \*

الفقه معرفة أحكام الله تعالى في أفعال المكلفين بالوجوب والحظر والندب والكراهة والاباحة وهي متلقاة من الكتاب والسنة وما نصبه الشارع لمعرفتهما من الأدلة فإذا استخرجت الأحكام من تلك الأدلة قيل لها فقه وكان السلف يستخرجونها من تلك الأدلة على اختلاف فيها بينهم ولا بد من وقوعه ضرورة أن الأدلة غالبها من النصوص وهي بلغة العرب وفي اقتضاآت ألفاظها لكثير من معانيها اختلاف بينهم معروف وأيضا فالسنة مختلفة الطرق في الشبوت وتعارض في الأئمة كثر أحكامها فتحتاج إلى الترجيح وهو مختلف أيضا فالأدلة من غير النصوص تختلف فيها وأيضا فالوقائع المتجددة لا توفي بها

ألف ونيف واربعمائة وستة وستون وخمسمائة وستة وستون وليس فيه قول بما في هذه النسخة قاله نصر الهوريني اه

النصوص وما كان منها غير ظاهر في المنصوص فيحمل على منصوص لمشابهة بينهما وهذه كلها اشارات للخلاف ضرورية الوقوع ومن هنا وقع الخلاف بين السلف والائمة من بعدهم ثم أن الصحابة كلهم لم يكونوا أهل فتيا ولا كان الدين يؤخذ عن جميعهم وإنما كان ذلك مختصا بالحاملين للقرآن العارفين بناسخه ومنسوخه ومتشابهه وعكسه وسائر دلالاته بما تلقوه من النبي صلى الله عليه وسلم أو ممن سمعه منهم من علمهم وكانوا يسمون لذلك القراء أي الذين يقرؤون الكتاب لأن العرب كانوا أمة أمية فاخص من كان منهم قارئاً للكتاب بهذا الاسم لغرابته يومئذ وبقي الأمر كذلك صدر خلة ثم عظمت أمصار الاسلام وذهبت الامية من العرب بممارسة الكتاب وتمكن الاستنباط وكل الفقه وأصبح صناعة وعلماً فبدلوا باسم الفقهاء والعلماء من القراء وانقسم الفقه فيهم إلى طريقتين طريقة أهل الرأي والقياس وهم أهل العراق وطريقة أهل الحديث وهم أهل الحجاز وكان الحديث قليلاً في أهل العراق لما قدمناه فاستكثر وأمن القياس ومهروا فيه فلذلك قيل أهل الرأي ومقدم جماعتهم الذي استقر المذهب فيه وفي أصحابه أبو حنيفة وإمام أهل الحجاز مالك بن أنس والشافعي من بعده ثم أنكر القياس طائفة من العلماء وأبطلوا العمل به وهم الظاهرية وجعلوا المدارك كلها منحصرة في النصوص والاجماع ورددوا القياس الجلي والعلّة المنصوصة إلى النص لأن النص على العلة نص على الحكم في جميع محالها وكان امام هذا المذهب داود بن علي وابنه وأصحابهما وكانت هذه المذاهب الثلاثة هي مذاهب الجمهور المشتهرة بين الامة ( ١ ) وشذ أهل البيت بمذاهب ابتدعوها وفقه انفردوا به وبنوه على مذهبهم في تناول بعض الصحابة بالقدح وعلى قولهم بعصمة الائمة ورفع الخلاف عن أقوالهم وهي كلها أصول واهية وشذ بمثل ذلك الخوارج ولم يحتفل الجمهور بمذاهبهم بل أوسعوها جانب الانكار والقدح فلا تعرف شيئاً من مذاهبهم ولا يروى كتبهم ولا أثر لشيء منها الا في مواطنهم فكتب الشيعة في بلادهم وحيث كانت دولتهم قائمة في المغرب والمشرق واليمن والحوارج كذلك ولكل منهم كتب وتأليف وآراء في الفقه غريبة ثم درس مذهب أهل الظاهر اليوم بدروس أئمتهم وانكار الجمهور على متحله ولم يبق الا في الكتب المجلدة وربما يعكف كثير من الطالبين ممن تكلف بانتحال مذهبهم على تلك الكتب يروم أخذ فقههم منها ومذاهبهم فلا يحلو بطائل ويصير إلى مخالفة الجمهور وانكارهم عليه وربما عد بهذه النحلة من أهل البدع بنقله العلم من الكتب من غير مفتاح المعلمين وقد فعل ذلك ابن حزم بالأندلس على علور تبته في حفظ الحديث وصار إلى مذهب أهل الظاهر ومهر فيه بجتهاد زعمه في أقوالهم وخالف امامهم داود وتعرض للكثير من أئمة المسلمين فنقم الناس ذلك عليه وأوسعوا مذهبهم استهجاناً وانكاراً وتلقوا كتبهم بالاغفال والترك حتى انها ليحظر بيعها بالأسواق وربما تمزق في بعض الأحيان ولم يبق الا مذهب أهل الرأي من العراق وأهل الحديث من الحجاز فأما أهل العراق فامامهم الذي استقرت عنده مذاهبهم

(١) قوله وشذ أهل البيت صوابه وشذ شيعة أهل البيت بدليل مقابلتهم بالخوارج اهـ مصححه



أبو حنيفة النعمان بن ثابت ومقامه في الفقه لا يلحق شهده بذلك أهل جلده وخصوصاً مالك والشافعي \*  
وأما أهل الحجاز فكان إمامهم مالك بن أنس الأصبحي إمام دار الهجرة رحمه الله واختص بزيادة  
مدرك آخر للأحكام غير المدرك المتبعة عنده غيره وهو عمل أهل المدينة لأنه رأى أنهم فيما ينفسون  
عليه من فعل أو ترك متابعون لمن قبلهم ضرورة لدينهم واقتدائهم وهكذا إلى الجيل المبشرين لفعل  
النبي صلى الله عليه وسلم الآخذين ذلك عنه وصار ذلك عنده من أصول الأدلة الشرعية وظن كثير  
أن ذلك من مسائل الإجماع فأنكره لأن دلائل الإجماع لا يخص أهل المدينة من سواهم بل هو شامل  
للأمة واعلم أن الإجماع إنما هو الاتفاق على الأمر الديني عن اجتهاد مالك رحمه الله تعالى لم يعتبر عمل  
أهل المدينة من هذا المعنى وإنما اعتبره من حيث اتباع الجيل بالمشاهدة للجيل إلى أن ينتهي إلى الشارع  
صلوات الله وسلامه عليه وضرورة اقتدائهم بعين ذلك يعم الملة وذكرت في باب الإجماع الأبواب  
بها من حيث ما فيها من الاتفاق الجامع بينها وبين الإجماع إلا أن اتفاق أهل الإجماع عن نظر  
واجتهاد في الأدلة واتفاق هؤلاء في فعل أو ترك مستندين إلى مشاهدة من قبلهم ولو ذكرت المسئلة  
في باب فعل النبي صلى الله عليه وسلم وتقريره أومع الأدلة المختلف فيها مثل مذهب الصحابي وشرع  
من قبلنا والاستصحاب لكان أليق ثم كان من بعد مالك ابن أنس محمد بن إدريس المظلي الشافعي رحمه  
الله تعالى رحل إلى العراق من بعد مالك ولقي أصحاب الإمام أبي حنيفة وأخذ عنهم ومزج طريقة أهل  
الحجاز بطريقة أهل العراق واختص بمذهب وخالف مالكاً رحمه الله تعالى في كثير من مذهبه  
وجاء من بعدهما أحمد بن حنبل رحمه الله وكان من عليّة المحدثين وقرأ أصحابه على أصحاب الإمام  
أبي حنيفة مع وفور بضاعتهم من الحديث فاختصوا بمذهب آخر ووقف التقليد في الأمصار عند هؤلاء  
الأربعة ودرس المقلدون لمن سواهم وسد الناس باب الخلاف وطرقه لما كثرت شعب الاصطلاحات  
في العلوم ولما عاق عن الوصول إلى رتبة الاجتهاد ولما خشي من إسناد ذلك إلى غير أهله ومن لا يوثق  
برأيه ولا بدينه فصرحوا بالعجز والاعواز وردوا الناس إلى تقليد هؤلاء كل بمن اختص به من  
المقلدين وحظروا أن يتداول تقليد ما فيه من التلاعب ولم يبق الا نقل مذاهبهم وعمل كل مقلد بمذهب  
من قلده منهم بعد تصحيح الأصول واتصال سندها بالرواية لا محصول اليوم للفقه غير هذا ومدعى  
الاجتهاد لهذا العهد مردود على عقبه مهجور تقليده وقد صار أهل الاسلام اليوم على تقليد هؤلاء  
الائمة الأربعة فأما أحمد بن حنبل فمقلده قليل لبعد مذهبه عن الاجتهاد وأصلاته في محامضة الرواية  
والأخبار بعضها يعض وأكثروا بالشام والعراق من بغداد ونواحيها وهم أكثر الناس حفظاً للسنة  
ورواية الحديث وأما أبو حنيفة فقلده اليوم أهل العراق ومسألة الهند والصين وما وراء النهر وبلاد  
العجم كلها لما كان مذهبه أخص بالعراق ودار السلام وكان تلميذه حجة الخلفاء من بني العباس فكثرت  
تأليفهم ومناظراتهم مع الشافعية وحسنت مباحثهم في الخلافات وجاءوا منها بعلم مستطرف وأنظار  
غريبة وهي بين أيدي الناس وبالمغرب منها شيء قليل نقله إليه القاضي ابن العربي وأبو الوليد الباجي

في رحلتها وأما الشافعي فمقلدوه بمصر أكثر مما سواها وقد كان انتشر مذهبه بالعراق وخراسان  
وما وراء النهر وقاسموا الحنفية في الفتوى والتدريس في جميع الأمصار وعظمت مجالس المناظرات  
بينهم وشحنت كتب الخلافات بأنواع استدلالهم ثم درس ذلك كله بدروس المشرق وأقطاره وكان  
الامام محمد بن ادريس الشافعي لما نزل على بني عبد الحكم بمصر أخذ عنه جماعة من بني عبد الحكم  
وأشهب وابن القاسم وابن المواز وغيرهم ثم الحرث بن مسكين وبنوه ثم انقرض فقه أهل السنة من  
مصر بظهور دولة الرافضة وتداول بها فقه أهل البيت وتلاشى من سواهم إلى أن ذهبت دولة العبيديين  
من الرافضة على يد صلاح الدين يوسف ابن أيوب ورجع إليهم فقه الشافعي وأصحابه من أهل العراق  
والشام فعاد إلى أحسن ما كان ونفق سوقه واشتهر منهم محي الدين النووي من الحلب التي ربيت في  
ظل الدولة الأيوبية بالشام وعز الدين ابن عبد السلام أيضاً من الرافضة بمصر وتقي الدين ابن دقيق  
العيد ثم تقي الدين السبكي بعدهما إلى أن انتهى ذلك إلى شيخ الاسلام بمصر لهذا العهد وهو سراج الدين  
البلقيني فهو اليوم أكبر الشافعية بمصر كبير العلماء بل أكبر العلماء من أهل العصر \* وأما مالك رحمه  
الله تعالى فاختص بمذهبه أهل المغرب والأندلس وإن كان يوجد في غيرهم إلا أنهم لم يقدوا غيره لاني  
القليل لما أن رحلتهم كانت غالباً إلى الحجاز وهو منتهى سفرهم والمدينة يومئذ دار العلم ومنها خرج  
إلى العراق ولم يكن العراق في طريقهم فاقترضوا على الأخذ من علماء المدينة وشيخهم يومئذ وامامهم  
مالك وشيوخه من قبله وتلميذه من بعده فرجع إليه أهل المغرب والأندلس قلدوه دون غيره ممن  
لم تصل إليهم طريقته وأيضاً فالبدعوة كانت غالبية على أهل المغرب والأندلس ولم يكونوا يعانون  
الحضارة التي لأهل العراق فكانوا إلى أهل الحجاز أميل لمناسبة البدعوة ولهذا لم يزل المذهب المالكي  
غضاعندهم ولم يأخذوا تنقيح الحضارة وتهذيبها كواقع في غيره من المذاهب ولما صار مذهب كل امام  
علما مخصوصا عند أهل مذهبه ولم يكن لهم سبيل إلى الاجتهاد والقياس فاحتاجوا إلى تنظير المسائل  
في الأحلاق وتفريقها عند الاشتباه بعد الاستناد إلى الأصول المقررة من مذهب امامهم وصار ذلك كله  
يحتاج إلى ملكة راسخة يقتدر بها على ذلك النوع من التنظير أو التفرقة واتباع مذهب امامهم فيها  
ما استطاعوا وهذه الملكة هي علم الفقه لهذا العهد وأهل المغرب جميعاً مقلدون لمالك رحمه الله  
وقد كان تلاميذه اقترقوا بمصر والعراق فكان بالعراق منهم القاضي اسمعيل وطبقته مثل ابن خويز  
منداد وابن اللبان والقاضي أبو بكر الأبهري والقاضي أبو الحسين بن القصار والقاضي عبد الوهاب  
ومن بعدهم وكان بمصر ابن القاسم وأشهب وابن عبد الحكم والحرث بن مسكين وطبقتهم ورحل  
من الأندلس عبد الملك بن حبيب فأخذ عن ابن القاسم وطبقته وبث مذهب مالك في الأندلس  
ودون فيه كتاب الواضحة ثم دون العتي من تلامذته كتاب العتبية ورحل من أفريقية أسد بن  
الفرات فكتب عن أصحاب أبي حنيفة أولاً ثم انتقل إلى مذهب مالك وكتب على ابن القاسم في سائر  
أبواب الفقه وجاء إلى القيروان بكتابه وسمى الأُسدية نسبة إلى أسد بن الفرّات فقرأها سحنون على

أسد ثم ارتحل إلى المشرق ولقي ابن القاسم وأخذ عنه وعارضه بمسائل الاسدية فرجع عن كثير منها وكتب سحنون مسائلها ودونها وأثبت ما رجع عنه وكتب لآسد أن يأخذ بكتاب سحنون فأنف من ذلك فترك الناس كتابه واتبعوا مدونة سحنون على ما كان فيها من اختلاط المسائل في الأبواب فكانت تسمى المدونة والمختلطة وعكف أهل القيروان على هذه المدونة وأهل الأندلس على الواضحة والعتبية ثم اختصر ابن أبي زيد المدونة والمختلطة في كتابه المسمى بالمختصر ولخصه أيضا أبو سعيد البرادعي من فقهاء القيروان في كتابه المسمى بالتهذيب واعتمده المشيخة من أهل أفريقية وأخذوا به وتركوا ما سواه وكذلك اعتمد أهل الأندلس كتاب العتبية وهجروا الواضحة وما سواها ولم تزل علماء المذهب يتعاهدون هذه الأئمة بالشرح والايضاح والجمع فكتب أهل أفريقية على المدونة ماشاء الله أن يكتبوا مثل ابن يونس واللخمي وابن محرز التونسي وابن بشير وأمثالهم وكتب أهل الأندلس على العتبية ماشاء الله أن يكتبوا مثل ابن رشد وأمثاله وجمع ابن أبي زيد جميع ما في الأئمة من المسائل والخلاف والأقوال في كتاب النوادر فاشتمل على جميع أقوال المذهب وفرع الأئمة كلها في هذا الكتاب ونقل ابن يونس معظمه في كتابه على المدونة وزخرت بخار المذهب المالكي في الأئمة إلى انقراض دولة قرطبة والقيروان ثم تمسك بها أهل المغرب بعد ذلك إلى أن جاء كتاب أبي عمرو بن الحاجب لخص فيه طرق أهل المذهب في كل باب وتعدد أقوالهم في كل مسألة فجاء كالبرنامج للمذهب وكانت الطريقة المالكية بقيت في مصر من لندن الحرت بن مسكين وابن المبشر وابن اللهيبي وابن رشيق وابن شاوس وكانت بالاسكندرية في بني عوف وبني سند وابن عطاء الله ولم أدر عن أيها أبو عمرو بن الحاجب لكنه جاء بعد انقراض دولة العبيديين وذهب فقهاء أهل البيت وظهور فقهاء السنة من الشافعية والمالكية وما جاء كتابه إلى المغرب آخر المائة السابعة عكف عليه الكثير من طلبة المغرب وخصوصاً أهل بجاية لما كان كبير مشيختهم أبو علي ناصر الدين الزواوي هو الذي جلبه إلى المغرب فانه كان قرأ على أئمة بجاية بمصر ونسخ مختصره ذلك فأجابه وانتشر بقطر بجاية في تلميذه ومنهم من نقل إلى سائر الأئمة المغربية وطلبة الفقه بالمغرب لهذا العهد يتداولون في قراءته ويتدارسونها لما يؤثر عن الشيخ ناصر الدين من الترغيب فيه وقد شرحه جماعة من شيوخهم كابن عبد السلام وابن رشد وابن هرون وكلهم من مشيخة أهل تونس وسابق جلبتهم في الاجادة في ذلك ابن عبد السلام وهم مع ذلك يتعاهدون كتاب التهذيب في دروسهم والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم

### ٨ \* علم الفرائض \*

وهو معرفة فروض الوارثة وتصحيح سهام الفريضة بما يصح باعتبار فروضها الأصول أو مناسحتها وذلك إذا هلك أحد الورثة وانكسرت سهامه على فروض ورثته فانه حينئذ يحتاج إلى حساب يصحح الفريضة الأولى حتى يصل أهل الفروض جميعاً في الفريضتين إلى فروضهم من غير تجزئة



وقد تكون هذه المناسبات أكثر من واحد واثنين وتتعدد لذلك بعدد أكثر وبقدر ما تتعدد تحتاج إلى الحساب وكذلك إذا كانت فريضة ذات وجهين مثل أن يقر بعض الورثة بوارث وينكره الآخر فتصحح على الوجهين حينئذ وينظر مبلغ السهام ثم تقسم التركة على نسب سهام الورثة من أصل الفريضة وكل ذلك يحتاج إلى الحساب وكان غالباً فيه وجعلوه فنا مفردا وللناس فيه تأليف كثيرة أشهرها عند المالكية من متأخري الأندلس كتاب ابن ثابت ومختصر القاضي أبي القاسم الحوفي ثم الجعدي ومن متأخري أفريقية ابن النمر الطرابلسي وأمثالهم وأما الشافعية والحنفية والحنابلة فلهم فيه تأليف كثيرة وأعمال عظيمة صعبة شاهدة لهم باتساع الباع في الفقه والحساب وخصوصاً أبا المعالي رضي الله تعالى عنه وأمثاله من أهل المذاهب وهو فن شريف لجمعه بين المعقول والمنقول والوصول به إلى الحقوق في الوراثة بوجوه صحيحة يقينية عندما تجهل الحظوظ وتشكل على القاسمين وللعلماء من أهل الأئمة مصاربها عناية ومن المصنفين من يحتاج فيها إلى الغلو في الحساب وفرض المسائل التي تحتاج إلى استخراج المجهولات من فنون الحساب كالجبر والمقابلة والتصرف في الجزور وأمثال ذلك فملأوا بها تأليفهم وهو وإن لم يكن متداولاً بين الناس ولا يفيد فيما يتداولونه من وراثتهم لغرابته وقلة وقوعه فهو يفيد المراتب وتحصل الملكة في المتداول على أكمل الوجوه وقد يحتاج الأئمة أكثر من أهل هذا الفن على فضله بالحديث المعقول عن أبي هريرة رضي الله عنه أن الفرائض ثلث العلم وأنها أول ما ينسى وفي رواية نصف العلم خرجة أبو نعيم الحافظ واحتج به أهل الفرائض بناء على أن المراد بالفرائض فروض الوراثة والذي يظهر أن هذا الحمل بعيد وأن المراد بالفرائض إتمامها الفرائض التكليفية في العبادات والعادات والموارث وغيرها وبهذا المعنى يصح فيها التصفية والثلثية وأما فروض الوراثة فهي أقل من ذلك كله بالنسبة إلى علم الشريعة كلها ويعين هذا المراد أن حمل لفظ الفرائض على هذا الفن المخصوص أو تخصيصه بفروض الوراثة إنما هو اصطلاح ناشئ عن الفقهاء عند حدوث الفنون والاصطلاحات ولم يكن صدر الإسلام يطلق على هذا إلا على عمومته مشتقاً من الفروض الذي هو لغة التقدير أو القطع وما كان المراد به في إطلاقه الإجماع الفروض كما قلناه وهي حقيقته الشرعية فلا ينبغي أن يحمل الأئمة على ما كان يحمل في عصرهم فهو أليق بمرادهم منه والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

#### ٩ \* أصول الفقه وما يتعلق به من الجدل والخلافات \*

(اعلم) أن أصول الفقه من أعظم العلوم الشرعية وأجلها قدراً وأكثرها فائدة وهو النظر في الأدلة الشرعية من حيث تؤخذ منها الأحكام والتكاليف وأصول الأدلة الشرعية هي الكتاب الذي هو القرآن ثم السنة المبينة له فعلى عهد النبي صلى الله عليه وسلم كانت الأحكام تنلق منه بما يوحى إليه من القرآن ويبينه بقوله وفعله بخطاب شفاهي لا يحتاج إلى نقل ولا إلى نظر وقياس ومن بعده صلوات

الله وسلامه عليه تعذر الخطاب الشفاهي وان حفظ القرآن بالتواتر وأما السنة فأجمع الصحابة رضوان الله تعالى عليهم على وجوب العمل بما يصل اليها منها قولاً أو فعلاً بالنقل الصحيح الذي يغلب على الظن صدقة وتعين دلالة الشرع في الكتاب والسنة بهذا الاعتبار ثم ينزل الاجماع منزلة لاجماع الصحابة على التكثير على مخالفتهم ولا يكون ذلك الا عن مستدلاً من مثلهم لا يتفقون من غير دليل ثابت مع شهادة الأدلة بعصمة الجماعة فصار الاجماع دليلاً ثابتاً في الشرعيات ثم نظرنا في طرق استدلال الصحابة والسلف بالكتاب والسنة فإذا هم يقيسون الأشباه بالأشباه منهم وينظرون الأمثال بالأمثال باجماع منهم وتسليم بعضهم لبعض في ذلك فإن كثيراً من الوقائع بعده صلوات الله وسلامه عليه لم تدرج في النصوص الثابتة فقاوسها بما ثبت وألحقوها بما نص عليه بشروط في ذلك الالحاق تصح تلك المساواة بين الشبهين أو المثلين حتى يغلب على الظن أن حكم الله تعالى فيهما واحد وصار ذلك دليلاً شرعياً باجماعهم عليه وهو القياس وهو رابع الأدلة واتفق جمهور العلماء على أن هذه هي أصول الأدلة وإن خالف بعضهم في الاجماع والقياس إلا أنه شذوذ وألحق بعضهم بهذه الأربعة أدلة أخرى لا حاجة بنا إلى ذكرها الضعيف مداركها وشذوذ القول فيها فكان أول مباحث هذا الفن النظر في كون هذه أدلة فأما الكتاب فدليله المعجزة القاطعة في مثله والتواتر في نقله فم يبق فيه مجال للاحتمال وأما السنة وما نقل اليها منها فالاجماع على وجوب العمل بما يصح منها كما قلناه معتضداً بما كان عليه العمل في حياته صلوات الله وسلامه عليه من إنفاذ الكتب والرسائل إلى النواحي بالأحكام والشرائع آمراً وناهياً وأما الاجماع فلا تفاهيم رضوان الله تعالى عليهم على إنكار مخالفتهم مع العصمة الثابتة للأمة وأما القياس فباجماع الصحابة رضي الله عنهم عليه كما قدمناه هذه أصول الأدلة ثم أن المنقول من السنة يحتاج إلى تصحيح الخبر بالنظر في طرق النقل وعدالة الناقلين فتتميز الحالة المحصلة للظن بصدقة الذي هو مناط وجوب العمل وهذه أيضاً من قواعد الفن ويلحق بذلك عند التعارض بين الخبرين وطلب المتقدم منهما معرفة النسخ والمنسوخ وهي من فصوله أيضاً وأبوابه ثم بعد ذلك يتعين النظر في دلالة الألفاظ وذلك أن استفادة المعاني على الإطلاق من تراكيب الكلام على الإطلاق يتوقف على معرفة الدلالات الوضعية مفردة ومركبة والقوانين اللسانية في ذلك هي علوم النحو والتصريف والبيان وحين كان الكلام ملكة لأهلهم لم تكن هذه علوم ولا قوانين ولم يكن الفقه حينئذ يحتاج إليها لأنها جيلة وملكة فلما فسدت الملكة في لسان العرب قيدها الجهابذة المتجردون لذلك بنقل صحيح ومقاييس مستنبطة صحيحة وصارت علومها يحتاج إليها الفقيه في معرفة أحكام الله تعالى ثم أن هناك استفادات أخرى خاصة من تراكيب الكلام وهي استفادة الأحكام الشرعية بين المعاني من أدلتها الخاصة من تراكيب الكلام وهو الفقه ولا يكفي فيه معرفة الدلالات الوضعية على الإطلاق بل لابد من معرفة أمور أخرى تتوقف عليها تلك الدلالات الخاصة وبها تستفاد الأحكام بحسب ما أصل أهل الشرع وجهابذة العلم من ذلك وجعلوه قوانين لهذه الاستفادة

مثل أن اللغة لا تثبت قياساً والمشارك لا يراد به معناه معا والواو لا تقتضى الترتيب والعالم اذا أخرجت أفراد الخاص منه هل يبقى حجة فيما عداها والامر للوجوب أو الندب وللفور أو التراخي والنهي يقتضى الفساد أو الصحة والمطلق هل يحمل على المفيد والنص على العلة كاف في التعدد أم لا وأمثال هذه فكانت كلها من قواعد هذا الفن ولكونها من جباث الأدلة كانت لغوية ثم أن النظر في القياس من أعظم قواعد هذا الفن لأن فيه تحقيق الأصل والفرع فيما يقاس ويمثل من الأحكام ويفتح الوصف الذى يغلب على الظن أن الحكم علق به فى الأصل من تبين أو صاف ذلك المحل أو وجود ذلك الوصف والفرع من غير معارض يمنع من ترتيب الحكم عليه فى مسائل أخرى من توابع ذلك كلها قواعد هذا الفن ( واعلم ) أن هذا الفن من الفنون المستحدثة فى الملة وكان السلف فى غنية عنه بما أن استفادة المعانى من الألفاظ لا يحتاج فيها الى أزيد مما عندهم من الملكة اللسانية وأما القوانين التى يحتاج اليها فى استفادة الأحكام خصوصاً فمنهم أخذ معظمها وأما الأسانيد فلم يكونوا يحتاجون الى النظر فيها لقرب العصر وممارسة النقلة وخبرتهم بهم فلما انقضى السلف وذهب الصدر الأول وانقلبت العلوم كلها صناعة كما قررناه من قبل إحتاج الفقهاء والمجتهدون الى تحصيل هذه القوانين والقواعد لاستفادة الأحكام من الأدلة فكتبوها فافتقرت إلى أسسها أصول الفقه وكان أول من كتب فيه الشافعى رضى الله تعالى عنه أمدى فى رسالته المشهورة تكلم فيها فى الأمر والنهى والبيان والخبر والنسخ وحكم العلة المنصوصة من القياس ثم كتب فقهاء الحنفية فيه وحققوا تلك القواعد وأوسعوا القول فيها وكتب المتكلمون أيضاً كذلك الآن كتابة الفقهاء فيها أمس بالفقه وألقى بالفروع لكثرة الأمثلة منها والشواهد وبناء المسائل فيها على النكت الفقهية والمتكلمون يحدون صور تلك المسائل على الفقه ويميلون الى الاستدلال العقلى ما أمكن لانه غالب فنونهم ومقتضى طريقتهم فكان لفقهاء الحنفية فيها اليد الطولى من الغوص على النكت الفقهية والتقاط هذه القوانين من مسائل الفقه ما أمكن وجاء أبو زيد الدبوسى من أئمتهم فكتب فى القياس بأوسع من جميعهم وتم الأبحاث والشروط التى يحتاج اليها فيه وكملة صناعة أصول الفقه بكماله وتهذيب مسائله وتمهدت قواعد وعنى الناس بطريقة المتكلمين فيه وكان من أحسن ما كتب فيه المتكلمون كتاب البرهان لامام الحرمين والمستصطفى للغزالي وهما من الأشعرية وكتاب العبد بعد الجبار وشروحه المعتمد لابن الحسين البصرى وهما من المعتزلة وكانت الاربعة قواعد هذا الفن وأركانها ثم لحص هذه الكتب الاربعة فخلان من المتكلمين المتأخرين وهما الامام نضر الدين بن الخطيب فى كتاب المحصول وسيف الدين الأمدى فى كتاب الأحكام واختلفت طرائقهما فى الفن بين التحقيق والحجاج فابن الخطيب أميل الى الاستكثار من الأدلة والاحتجاج والأمدى مولع بتحقيق المذاهب وتفريع المسائل وأما كتاب المحصول فاختصره تلميذه الامام سراج الدين الأرموي فى كتاب التحصيل وتاج الدين الأرموي فى كتاب الحاصل واقتطف شهاب الدين القرافى منهما مقدمات وقواعد فى كتاب صغير سماه التقيحات وكذلك فعل



البضاوي في كتاب المنهاج وعن المبتدؤن بهذين الكتابين وشرحهما كثير من الناس \* وأما كتاب  
 الأحكام للآمدى وهو أكثر تحقيقاً في المسائل فلخصه أبو عمرو بن الحاجب في كتابه المعروف بالختصر  
 الكبير ثم اختصره في كتاب آخر تداوله طلبه العلم وعن أهل المشرق والمغرب به وبمطالعته وشرحه  
 وحصلت زبدة طريقة المتكلمين في هذا الفن في هذه المختصرات \* وأما طريقة الحنفية فكتبوا فيها  
 كثيراً وكان من أحسن كتابة فيها للمتقدمين تأليف أبي زيد الدبوسي وأحسن كتابة المتأخرين فيها تأليف  
 سيف الاسلام البردوي من أئمتهم وهو مستوعب وجاء ابن الساعاتي من فقهاء الحنفية بجمع بين كتاب  
 الأحكام وكتاب البردوي في الطريقتين وسمي كتابه بالبدائع فجاء من أحسن الأوضاع وأبدعها  
 وأئمة العلماء لهذا العهد يتداولونه قراءة وبحثا وولع كثير من علماء العجم بشرحه والحال على ذلك لهذا  
 العهد هذه حقيقة هذا العهد وتعنى موضوعات وتقدير التأليف المشهورة لهذا العهد فيه والله  
 ينفعنا بالمعلم ويجعلنا من أهله بمنه وكرمه انه على كل شئ قدير \* وأما الخلافات \* فاعلم أن هذا  
 الفقه المستنبط من الأدلة الشرعية أكثر فيه الخلاف بين المجتهدين باختلاف مداركهم وأنظارهم  
 خلافاً لا بد من وقوعه لما قدمناه واتسع ذلك في الملة اتساعاً عظيماً وكان للمقلدين أن يقلدوا من شاؤوا منهم  
 ثم لما انتهى ذلك إلى الأئمة الأربعة من علماء الأمصار وكانوا بتمكن من حسن الظن بهم اقتصر الناس على  
 تقليد من منعوا من تقليد سواهم والذهاب والاجتهاد لصعوبته وتشعب العلوم التي هي مواده باتصال  
 الزمان وافتقار من يقوم على سوى هذه المذاهب الأربعة فأقيمت هذه المذاهب الأربعة أصول الملة  
 وأجرى الخلاف بين التمسكين بها والآخذين بأحكامها مجرى الخلاف في النصوص الشرعية والأصول  
 الفقهية وجرت بينهم المناظرات في تصحيح كل منهم مذهب امامه تجري على أصول صحيحة وطرائق  
 يوعى تحتج بها كل على مذهبه الذي قلده ويمسك به وأجريت في مسائل الشريعة كلها وفي كل باب  
 من أبواب الفقه فتارة يكون الخلاف بين الشافعي ومالك وأبو حنيفة يوافق أحدهما وتارة بين مالك  
 وأبي حنيفة والشافعي يوافق أحدهما وتارة بين الشافعي وأبي حنيفة ومالك يوافق أحدهما وكان في  
 هذه المناظرات بيان مأخذ هؤلاء الأئمة ومثارات اختلافهم ومواقع اجتهدهم كان هذا الصنف من العلم  
 يسمى بالخلافات ولا بد لصاحبه من معرفة القواعد التي يتوصل بها إلى استنباط الأحكام كما يحتاج إليها  
 المجتهد الآن المجتهد يحتاج إليها للاستنباط وصاحب الخلافات يحتاج إليها لحفظ تلك المسائل المستنبطة  
 من أن يهدمها المخالف بأدلتها وهو لعمري علم جليل الفائدة في معرفة مأخذ الأئمة وأدلتهم ومران  
 المطالعين له على الاستدلال فيما يرمون الاستدلال عليه وتألف الحنفية والشافعية فيه أكثر من التأليف  
 المالكية لأن القياس عند الحنفية أصل للكثير من فروع مذهبهم كما عرفت فلهذا أهل النظر والبحث  
 وأما المالكية فالأثر أكثر معتمد من ليسوا بأهل نظر وإيضافاً أكثر أهل المغرب وهم بادية غفل من  
 الصنائع إلا في الأقل وللغزالي رحمه الله تعالى فيه كتاب المأخذولأبي زيد الدبوسي كتاب التعليقة ولابن  
 القصار من شيوخ المالكية عيون الأدلة وقد جمع ابن الساعاتي في مختصره في أصول الفقه جميع

ما ينبغي عليها من الفقه الخلافى مدرجاً فى كل مسألة ما ينبى عليها من الخلافات \* وأما الجدل \* وهو معرفة آداب المناظرة التى تجرى بين أهل المذاهب الفقهية وغيرهم فإنه لما كان باب المناظرة فى الرد والقبول منه وكل واحد من المتناظرين فى الاستدلال والجواب يرسل عنانه فى الاحتجاج ومنه ما يكون صواباً ومنه ما يكون خطأ فاحتاج الأئمة إلى أن يضعوا آداباً وأحكاماً يقف المتناظران عند حدودها فى الرد والقبول وكيف يكون حال المستدل والمجيب وحيث يسوغ له أن يكون مستدلاً وكيف يكون خصوصاً منقطعاً ومحل اعتراضه أو معارضته وأين يجب عليه السكوت ولخصمه الكلام والاستدلال ولذلك قيل فيه أنه معرفة بالقواعد من الحدود والآداب فى الاستدلال التى يتوصل بها إلى حفظ رأى وهدمه كان ذلك الرأى من الفقه أو غيره وهى طريقتان طريقة البردوى وهى خاصة بالأدلة الشرعية من النص والاجماع والاستدلال وطريقة العميدى وهى عامة فى كل دليل يستدل به من أى علم كان وأكثره استدلال وهو من المناحي الحسنة والمغالطات فيه فى نفس الأمر كثيرة وإذا اعتبرنا النظر المنطقى كان فى الغالب أشبه بالقياس المغالطى والسوفسطائى لأن صور الأدلة والأقيسة فيه محفوظة مراعاة تتحرى فيها طرق الاستدلال كما ينبغي وهذا العميدى هو أول من كتب فيها ونسبة الطريقة إليه وضع الكتاب المسمى بالارشاد مختصر أو تبعه من بعده من المتأخرين كالنسفى وغيره جاؤا على أثره وسلكوا مسلكه وكثرت فى الطريقة التأليف وهى لهذا العهد مهجور لنقص العلم والتعليم فى الأمصار الإسلامية وهى مع ذلك كالية وليست ضرورية والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

### ١٠ \* علم الكلام \*

هو علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية والرد المبتدعة المنحرفين فى الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة وسر هذه العقائد الإيمانية هو التوحيد فلنقدم هنا لطيفة فى برهان عقلى يكشف لنا عن التوحيد على أقرب الطرق والمآخذ ثم ترجع إلى تحقيق علمه وفيما ينظر ويشير إلى حدوثه فى الملة ومادعا إلى وضعه فنقول أن الحوادث فى العالم الكائنات سواء كانت من الذوات أو من الأفعال البشرية أو الحيوانية فلا بد لها من أسباب متقدمة عليها بهاتقع فى مستقر العادة وغنها يتم كونه وكل واحد من هذه الأسباب حادث أيضاً فلا بد له من أسباب أخرى ولا تزال تلك الأسباب مرتقية حتى تنتهى إلى مسبب الأسباب وموجدوها وخالقها سبحانه لا اله الا هو وتلك الأسباب فى ارتقاءها تنفسح وتتضاعف طولاً وعرضاً ويحار العقل فى إدراكها وتعيدها فاذا لا يحصرها إلا العلم المحيط سيما الأفعال البشرية والحيوانية فإن من جملة أسبابها فى الشاهد المقصود والارادات إذ لا يتم كون الفعل الا بآرادته والقصد إليه والقصد والارادات أمور نفسانية ناشئة فى الغالب عن تصورات سابقة يتلو بعضها بعضها تلك التصورات هى أسباب قصد الفعل وقد تكون أسباب تلك التصورات تصورات أخرى

وكل ما يقع في النفس من التصورات مجهول سببه اذ لا يطلع أحد على مبادئ الأمور النفسانية ولا على ترتيبها إنما هي أشياء يلقيها الله في الفكر يتبع بعضها بعضا والانسان عاجز عن معرفة مبادئها وغاياتها وإنما يحيط علماء في الغالب بالأسباب التي هي طبيعية ظاهرة ويقع في مداركها على نظام وترتيب لأن الطبيعة محصورة للنفس وتحت طورها وأما تصورات فنتاقتها أوسع من النفس لأنها العقل الذي هو فوق طور النفس فلا تدرك الكثير منها فضلا عن الاحاطة وتأمل من ذلك حكمة الشارع في نهيه عن النظر إلى الأسباب والوقوف معها فإنه واديهيم فيه الفكر ولا يحلو منها باطل ولا يظفر بحقيقة قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون وربما انقطع في وقوفه عن الارتقاء إلى ما فوقه فزلت قدمه وأصبح من الضالين المهالكين نعوذ بالله من الحرمان والخسران المبين ولا تحسبن أن هذا الوقوف أو الرجوع عنه في قدرتك واختيارك بل هو لون يحصل للنفس وصيغة تستحكم من الخوض الأسباب على نسبة تعلمها اذ لو علمناها لتحرزنا منها فلتحرز من ذلك بقطع النظر عنها جملة وأيضا فوجه تأثير هذه الأسباب في الكثير من مسبباتها مجهول لأنها إنما يوقف عليها بالعادة لا قتران الشاهد بالاستناد إلى الظاهر وحقيقة التأثير وكيفية مجهولة وما أوتيتم من العلم الا قليلا فلذلك أمرنا بقطع النظر عنها والغائها جملة والتوجه إلى مسبب الأسباب كلها وفعالها وموجداتها لترسخ صفة التوحيد في النفس على ما علمنا الشارع الذي هو أعرف بمصالح ديننا وطرق سعادتنا لاطلاعنا على ما وراء الحس قال صلي الله عليه وسلم من مات يشهد أن لا إله إلا الله دخل الجنة فإن وقف عند تلك الأسباب فقد انقطع وحقت عليه كلمة الكفر وإن سبغ في بحر النظر والبحث عنها وعن أسبابها وتأثيراتها واحدا بعد واحد فأنا الضامن له أن لا يعود الا بالحجية فلذلك نهانا الشارع عن النظر في الأسباب وأمرنا بالتوحيد المطلق قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ولا تتقن بما يزعم لك الفكر من أنه مقتدر على الاحاطة بالكائنات وأسبابها والوقوف على تفصيل الوجود كله وسفه رأيه في ذلك واعلم أن الوجود عند كل مدرك في بادية رأيه منحصر في مداركه لا يعدوها والا ممر في نفسه بخلاف ذلك والحق من وراءه ألا ترى الا صم كيف ينحصر الوجود عنده في المحسوسات الأربع والمعقولات ويسقط من الوجود عند صنف السموعات وكذلك الا عمى أيضا يسقط عنده صنف المراتيات ولو لا ما يردم إلى ذلك تقليد الآباء والمشايخ من أهل عصرهم والكافة لما أقروا به لسكهم يتبعون الكافة في اثبات هذه الأصناف لا بمقتضى فطرتهم وطبيعة ادراكهم ولو سئل الحيوان الا عجم ونطق لو جدناه منكرا للمعقولات وساقطة لديه بالكلية فاذا علمت هذا فلعل هناك ضربا من الادراك غير مدركاتنا لأن ادراكاتنا مخلوقة محدثة وخلق الله أكبر من خلق الناس والحصر مجهول والوجود أوسع نطاقا من ذلك والله من وراءهم محيط فانهم ادراكك ومدركاتك في الحصر واتبع ما أمرك الشارع به من اعتقادك وعملك فهو أحرص على سعادتك وأعلم بما ينفعك لأنهم من طور فوق ادراكك ومن نطاق أوسع من نطاق عقلك وليس ذلك بفادح في العقل ومداركه بل العقل ميزان صحيح فأحكامه يقينية لا كذب فيها غير أنك



لا تطمع أن تزن به أمور التوحيد والآخرة وحقيقة النبوة وحقائق الصفات الالهية وكل ما وراء  
طوره فإن ذلك طمع في محال ومثال ذلك مثال رجل رأى الميزان الذي يوزن به الذهب فطمع أن يزن به  
الجمال وهذا لا يدرك على أن الميزان في أحكامه غير صادق لكن العقل قد يقف عنده ولا يتعدى طوره  
حتى يكون له أن يحيط بالله وصفاته فانه ذرة من ذرات الوجود الحاصل منه وتفتن في هذا الغلط  
من يقدم العقل على السمع في أمثال هذه القضايا وقصور فهمه واضمحلال رأيه فقد تبين لك الحق  
من ذلك واذ تبين ذلك فلعل الأسباب إذا تجاوزت في الارتقاء نطاق ادراكنا ووجودنا خرجت  
عن أن تكون مدركة فيفضل العقل في بيداء الأهام ويحار وينقطع فاذا التوحيد هو العجز عن ادراك  
الأسباب وكيفيات تأثيرها وتفويض ذلك إلى خالقها المحيط بها اذ لا فاعل غيره وكلها ترتقى إليه وترجع  
إلى قدرته وعلمنا به إنما هو من حيث صدورنا عنه وهذا هو معنى ما نقل عن بعض الصديقين العجز  
عن الادراك ادراك ثم أن المعتبر في هذا التوحيد ليس هو الايمان فقط الذي هو تصديق حكيم فان ذلك  
من حديث النفس وإنما الكمال فيه حصول صفة منه تتكيف بها النفس كما أن المطلوب من الأعمال  
والعبادات أيضا حصول ملكة الطاعة والالتزام وتفريغ القلب عن شواغل ماسوى المعبود حتى يتقلب  
المريد السابق ربائيا والفرق بين الحال والعلم في العقائد فرق ما بين القول والاتصاف وشرحه أن كثيرا  
من الناس يعلم أن رحمة اليتيم والمسكين قربى إلى الله تعالى مندوب إليها ويقول بذلك ويعترف به ويذكر  
مأخذه من الشريعة وهو لورأى يتيما أو مسكينا من أبناء المستضعفين لفرغته واستنكف أن يباشره  
فضلا عن التمسح عليه بالرحمة وما بعد ذلك من مقامات العطف والحنو والصدقة فهذا إنما حصل له من  
رحمة اليتيم مقام العلم ولم يحصل له مقام الحال والاتصاف ومن الناس من يحصل له مع مقام العلم  
والاعتراف بأن رحمة المسكين قربى إلى الله تعالى مقام آخر أعلي من الأول وهو الاتصاف بالرحمة  
وحصول ملكتها فتى رأى يتيما أو مسكينا بادر إليه ومسح عليه والتمس الثواب في الشفقة عليه  
لا يكاد يصبر عن ذلك ولو دفع عنه ثم يتصدق عليه بما حضره من ذات يده وكذا عملك بالتوحيد مع  
اتصافك به والعلم الحاصل عن الاتصاف ضرورة وهو أوثق مبنى من العلم الحاصل قبل الاتصاف  
وليس الاتصاف بحاصل عن مجرد العلم حتى يقع العمل ويتكرر مرارا غير منحصرة فترسخ الملكة  
ويحصل الاتصاف والتحقيق ويحجى العلم الثانى النافع في الآخرة فان العلم الأول المجرد عن الاتصاف  
قليل الجدوى والنفع وهذا علم أكثر النظائر والمطلوب إنما هو العلم الحالى الناشئ عن العادة \* واعلم  
أن الكمال عند الشارع في كل ما كلف به إنما هو في هذا ما طلب اعتقاده فالكمال فيه في العلم الثانى الحاصل  
عن الاتصاف وما طلب عمله من العبادات فالكمال فيها في حصول الاتصاف والتحقق بها ثم أن الاقبال  
على العبادات والمواظبة عليها هو المحصل لهذه الثمرة الشريفة قال صلى الله عليه وسلم في رأس العبادات  
جعلت قرة عيني في الصلاة فان الصلاة صارت له صفة وحالا يحد فيها منتهى لذته وقره عينه وأين هذا من  
صلاة الناس ومن لهم بها فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون اللهم وفقنا واهدنا الصراط

المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين فقد تبين لك من جميع ما قررنا  
أن المطلوب في التكليف كلها حصول ملكة راسخة في النفس يحصل عنها علم اضطراري للنفس هو  
التوحيد وهو العقيدة الايمانية وهو الذي تحصل به السعادة وأن ذلك سواء في التكليف القلبية  
والبدنية ويتفهم منه أن الايمان الذي هو أصل التكليف وينبوعها هو بهذه المائة ذو مراتب  
أولها التصديق القلبي الموافق للسان وأعلىها حصول كيفية من ذلك الاعتقاد القلبي وما يتبعه من  
العمل مستوية على القلب فيستتبع الجوارح وتدرج في طاعتها جميع التصرفات حتى تنخرط  
الأفعال كلها في طاعة ذلك التصديق الايماني وهذا أرفع مراتب الايمان وهو الايمان الكامل الذي  
لا يقارف المؤمن معه صغيرة ولا كبيرة إذ حصول الملكة ورسوخها مانع من الانحراف عن مناهجه  
طرفتين قال صلى الله عليه وسلم لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن وفي حديث هرقل لما سأل أبا  
سفيان ابن حرب عن النبي صلى الله عليه وسلم وأحواله فقال في أصحابه هل يرتد أحد منهم سخطة لدينه  
قال لا قال وكذلك الايمان حين تحالط بشاشته القلوب ومعناه أن ملكة الايمان إذا استقرت عسر على  
النفس غالقتها شأن الملكات إذا استقرت فانها تحصل بثبات الجلبة والفطرة وهذه هي المرتبة العالية من  
الايمان وهي في المرتبة الثانية من العصمة لأن العصمة واجبة للأنبياء وجوبا سابقا وهذه حاصلة  
للمؤمنين حصولا تابعا لأعمالهم وتصديقهم وهذه الملكة ورسوخها يقع التفاوت في الايمان كالذي يتلى  
عليك من أقاويل السلف وفي تراجم البخاري رضى الله عنه في باب الايمان كثير منه مثل أن الايمان قول  
وعمل ويزيد وينقص وأن الصلاة والصيام من الايمان وأن تطوع رمضان من الايمان والحياء من  
الايمان والمراد بهذا كله الايمان الكامل الذي أشرنا اليه وإلى ملكته وهو فعلي وأما التصديق الذي هو  
أول مراتبه فلا تفاوت فيه فمن اعتبر أوائل الأسماء وحمله على التصديق منع من التفاوت كما قال أئمة  
المتكلمين ومن اعتبر أواخر الأسماء وحمله على هذه الملكة التي هي الايمان الكامل ظهر له التفاوت وليس  
ذلك بفادح في اتحاد حقيقته الاولى التي هي التصديق إذ التصديق موجود في جميع رتبته لأنه أقل  
ما يطلق عليه اسم الايمان وهو المخلص من عهدة الكفر والفيصل بين الكافر والمسلم فلا يجزي أقل  
منه وهو في نفسه حقيقة واحدة لا تتفاوت وإنما التفاوت في الحال الحاصلة عن الأعمال كما قلناه فافهم  
\* واعلم أن الشارع وصف لنا هذا الايمان الذي في المرتبة الاولى الذي هو تصديق وعين أمور  
مخصوصة كلفنا التصديق بها بقلوبنا واعتقادها في أنفسنا مع الاقرار بالسنتنا وهي العقائد التي تقررت  
في الدين قال صلى الله عليه وسلم حين سئل عن الايمان فقال أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله  
واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره وهذه هي الأند الايمانية المقررة في علم الكلام ولنشرها  
بجملة لتبين لك حقيقة هذا الفن كيفية حدوثه فنقول \* إعلم أن الشارع لما أمرنا بالايمان بهذا الخالق الذي  
رد الأفعال كلها اليه وأفرده به كما قدمناه وعرفنا أن في هذا الايمان نجاة عند الموت إذا حضرنا لم يعرفنا  
بكنه حقيقة هذا الخالق المعبود إذ ذلك معتذر على إدراكنا ومن فوق طورنا فكلفنا أولا اعتقاد

تنزيهه في ذاته عن مشابهة المخلوقين وإلا لما صح أنه خالق لهم لعدم الفارق على هذا التقدير ثم تنزيهه عن صفات النقص والإلشابه المخلوقين ثم توحيده بالإيجاد والإلم يتم الخلق للتمانع ثم اعتقاده أنه عالم قادر فبذلك تتم الأفعال شاهد قضيته لكمال الإيجاد والخلق ومريد والإلم يخص شئ من المخلوقات ومقدر لكل كائن وإلا فالارادة حادثة وإنه يعيدنا بعد الموت تكميلاً لعنايته بالإيجاد ولو كان لا مراً فإن كان عبثاً فهو للبقاء السرمدي بعد الموت ثم اعتقاد بعثة الرسل للنجاة من شقاء هذا الميعاد لاختلاف أحواله بالشقاء والسعادة وعدم معرفتنا بذلك وتام لطفه بنا في الإيتاء بذلك وبيان الطريقين وإن الجنة للنعم وجهنم للعذاب هذه أمهات العقائد الإيمانية معللة بأدلتها العقلية وأدلتها من الكتاب والسنة كثيرة عن تلك الأدلة أخذها السلف وأرشد إليها العلماء وحققها الأئمة إلا أنه عرض بعد ذلك خلاف في تفاصيل هذه العقائد أكثر مشارها من الآي المتشابهة فدعا ذلك إلى الخصام والتناظر والاستدلال بالعقل زيادة إلى النقل فحدث بذلك علم الكلام ولنبين لك تفصيل هذا المجلد وذلك أن القرآن ورد فيه وصف المعبود بالتنزيه المطلق الظاهر الدلالة من غير تأويل في آي كثيرة وهي سلوب كلها وصريحة في بابها فوجب الإيمان بها ووقع في كلام الشارع صلوات الله عليه وكلام الصحابة والتابعين تفسيرها على ظاهرها ثم وردت في القرآن آي أخرى قليلة توهم التشبيه مرة في الذات وأخرى في الصفات فأما السلف فغلبوا أدلة التنزيه لكثرتها ووضوح دلالتها وعمو استحالة التشبيه وقضوا بأن الآيات من كلام الله فآمنوا بها ولم يتعرضوا لمعناها بحث ولا تأويل وهذا معنى قول الكثير منهم أقرؤها كما جاءت أي آمنوا بأنها من عند الله ولا تتعرضوا لتأويلها ولا تفسيرها لجواز أن تكون ابتلاء فيجب الوقف والاذعان له وشذل عصرهم مبتدعة اتبعوا ما تشابه من الآيات وتوغلوا في التشبيه ففريق أشبهوا في الذات باعتقاد اليد والقدم والوجه عملاً بظواهر وردت بذلك فوقعوا في التجسيم الصريح ومخالفة آي التنزيه المطلق التي هي أكثر موارد وأوضح دلالة لأن معقولية الجسم تقتضي النقص والافتقار وتغليب آيات السلوب في التنزيه المطلق التي هي أكثر موارد وأوضح دلالة أولى من التعلق بظواهر هذه التي لنا عنها غنية وجمع بين الدليلين بتأويلهم ثم يفرون من شناعة ذلك بقولهم جسم لا كالأجسام وليس ذلك بدافع عنهم لأنه قول متناقض وجمع بين نقي واثبات إن كان بالمعقولية واحدة من الجسم وإن خالفوا بينهما ونفوا المعقولية المتعارفة فقد وافقونا في التنزيه ولم يبق إلا جعلهم لفظ الجسم اسماً من أسمائه ويتوقف مثله على الالذن وفريق منهم ذهبوا إلى التشبيه في الصفات كاثبات الجهة والاستواء والنزول والصوت والحرف وأمثال ذلك وآل قولهم إلى التجسيم فنزعوا مثل الأولين إلى قولهم صوت لا كالأصوات جهة لا كالجهاات نزول لا كالنزول يعنون من الأجسام واندفع ذلك بما اندفع به الأول ولم يبق في هذه الظواهر إلا الاعتقادات السلف ومذاهبهم والإيمان بها كما هي لئلا يكر النقي على معانيها بنفيها مع أنها صحيحة ثابتة من القرآن ولهذا تنتظر ما تراها في عقيدة الرسالة لابن أبي زيد وكتاب



المختصر له وفي كتاب الحافظ بن عبد البر وغيرهم فانهم يحرمون على هذا المعنى ولا تغمض عينك عن  
القرائن الدالة على ذلك في غضون كلامهم ثم لما كثرت العلوم والصنائع وولع الناس بالتدوين والبحث  
في سائر الانحاء وألف المتكلفون في التنزيه حديث بدعة المعتزلة في تعميم هذا التنزيه في آي السلوب  
فقضوا بنفي صفات المعاني من العلم والقدرة والارادة والحياة زائدة على أحكامها لما يلزم على ذلك من  
تعدد القديم بزعمهم وهو مردود بأن الصفات ليست عين الذات ولا غيرها وقضوا بنفي السمع والبصر  
لكونها من عوارض الأجسام وهو مردود لعدم اشتراط البنية في مدلول هذا اللفظ وإعماها وإدراك  
المسموع أو المبصر وقضوا بنفي الكلام لشبهه مافي السمع والبصر ولم يعقلوا صفة الكلام التي تقوم بالنفس  
فقضوا بأن القرآن مخلوق بدعة صرح السلف بخلافها وعظم ضرر هذه البدعة ولقنها بعض الخلفاء عن  
أئمتهم فحمل الناس عليها وخالف أئمة السلف فاستحل خلافهم أيسار كثير منهم ودماهم وكان ذلك  
سبباً لا تنهاض أهل السنة بالأدلة العقلية على هذه العقائد دفعا في صدور هذه البدع وقام بذلك الشيخ  
أبو الحسن الأشعري إمام المتكلمين فتوسط بين الطرق ونفى التشبيه وأثبت الصفات المعنوية وقصر  
التنزيه على ما قصره عليه السلف وشهدت له الأدلة المختصة لعمومه فأثبت الصفات الأربع المعنوية  
والسمع والبصر والكلام القائم بالنفس بطريق النقل والعقل ورد على المبتدعة في ذلك كله وتكلم  
معهم فيما مهدوه لهذه البدع من القول بالصلاح والأصلح والتحسين والتقييح وكل العقائد في البعثة  
وأحوال الجنة والنار والثواب والعقاب وألحق بذلك الكلام في الامامة لما ظهر حينئذ من بدعة الامامية  
من قولهم أنها من عقائد الايمان وأنه يجب على النبي تعيينها والخروج عن العدة في ذلك لمن هي له وكذلك  
على الامة وقصارى أمر الامامة أنها قضية مصلحية إجماعية ولا تلحق بالعقائد فذلك ألحقوها بمسائل  
هذا الفن وسموا مجموعة علم الكلام الملامية من المناظرة على البدع وهي كلام صرف وليست براجعة  
الى عمل وامالاً ن سبب وضعه والخوض فيه هو تنازعهم في إثبات الكلام النفسي وكثر اتباع الشيخ  
أبي الحسن الأشعري واقتفى طريقته من بعده تلميذه كابن مجاهد وغيره وأخذ عنهم القاضي أبو بكر  
الباقلاني فتصدر للامامة في طريقتهم وذهبها ووضع المقدمات العقلية التي تتوقف عليها الأدلة  
والانظار وذلك مثل إثبات الجوهر الفرد والحلاء وإن العرض لا يقوم بالعرض وأنه لا يبقى زمانين  
وأمثال ذلك مما تتوقف عليه أدلتهم وجعل هذه القواعد تبعاً للعقائد الايمانية في وجوب اعتقادها  
لتوقف تلك الأدلة عليها وان بطلان الدليل يؤذن ببطلان المدلول وحملت هذه الطريقة وجاءت من  
أحسن الفنون النظرية والعلوم الدينية إلا أن صور الأدلة تعتبرها الاقيسة ولم تكن حينئذ ظاهرة في  
الملة ولو ظهر منها بعض الشيء فلم يأخذ به المتكلمون لما لبستها للعلوم الفلسفية المبينة للعقائد الشرعية  
بالجملة فكانت مهجورة عندهم لذلك ثم جاء بعد القاضي أبي بكر الباقلاني إمام الحرمين أبو المعالي فأملى  
في الطريقة كتاب الشامل وأوسع القول فيه ثم خصه في كتاب الارشاد واتخذ الناس إماماً لعقائدهم ثم  
انتشرت من بعد ذلك علوم المنطق في الملة وقرأه الناس وفرقوا بينه وبين العلوم الفلسفية بأنه قانون

ومعيار للأدلة يسبر به الأدلة منها يسبر من سواها ثم نظروا في تلك القواعد والمقدمات في فن الكلام  
للاقدمين خالفوا الكثير منها بالبراهين التي أدلت إلى ذلك وربما أن كثيرا منها مقتبس من  
كلام الفلاسفة في الطبيعيات والالهيات فلما سبروها بمعيار المنطق ردم إلى ذلك فيها ولم يعتقدوا  
بطلان المدلول من بطلان دليله كما صار إليه القاضي فصارت هذه الطريقة من مصطلحهم  
مباينة للطريقة الأولى وتسمى طريقة المتأخرين وربما أدخلوا فيها الرد على الفلاسفة فيما خالفوا  
فيه من العقائد الإيمانية وجعلوا من خصوم العقائد لتناسب الكثير من مذاهب المبتدعة  
ومذاهبهم وأول من كتب في طريقة الكلام على هذا المنحى الغزالي رحمه الله وتبعه  
الامام ابن الخطيب وجماعة قفوا أثرهم واعتمدوا تقليدهم ثم توغل المتأخرون من بعدهم في مخالطة كتب  
الفلسفة والتبس عليهم شأن الموضوع في العلمين فحسبوه فيها واحدا من اشتباه المسائل فيهما \* واعلم  
أن المتكلمين لما كانوا يستدلون في أكثر أحوالهم بالكائنات وأحوالها على وجود الباري وصفاته  
وهو نوع استدلالهم غالبا والجسم الطبيعي ينظر فيه الفيلسوف في الطبيعيات وهو بعض من هذه الكائنات  
الأن نظره فيها خالف لنظر المتكلم وهو ينظر في الجسم من حيث يتحرك ويسكن المتكلم ينظر فيه  
من حيث يدل على الفاعل وكذا نظر الفيلسوف في الالهيات إنما هو نظر في الوجود المطلق وما يقتضيه  
لداته ونظر المتكلم في الوجود من حيث أنه يدل على الموجد وبالجملة فموضوع علم الكلام عند أهله إنما  
هو العقائد الإيمانية بعد فرضها صحيحة من الشرع من حيث يمكن أن يستدل عليها بالأدلة العقلية فترفع  
البدع وتزول الشكوك والشبه من تلك العقائد وإذا تأملت حال الفن في حدوته وكيف تدرج كلام  
الناس فيه صدر بعدهم وكتبهم يفرض العقائد صحيحة ويستنهض الحجج والأدلة علمت حينئذ ما قررناه  
لك في موضوع الفن وأنه لا يعدوه ولقد اختلفت الطريقتان عند هؤلاء المتأخرين والتبس مسائل  
الكلام بمسائل الفلسفة بحيث لا يتميز أحد الفنين من الآخر ولا يحصل عليه طلبة من كتبهم كما فعله  
البيضاوي في الطوابع ومن جاء بعده من علماء العجم في جميع تأليفهم إلا أن هذه الطريقة قديما بها  
بعض طلبه العلم للاطلاع على المذهب والاعراق في معرفة الحجاج لو فور ذلك فيها وأما محاذاة طريقة  
السلف بعقائد علم الكلام فأنما هو للطريقة القديمة للمتكلمين وأصلها كتاب الارشاد وما حذا حذوه  
ومن أراد إدخال الرد على الفلاسفة في عقائده فعليه بكتب الغزالي والامام ابن الخطيب فانها وإن وقع  
فيها مخالفة للاصطلاح القديم فليس فيها من الاختلاط في المسائل والالتباس في الموضوع ما في طريقة  
هؤلاء المتأخرين من بعدهم وعلى الجملة فينبغي أن يعلم أن هذا العلم الذي هو علم الكلام غير ضروري  
لهذا العهد على طالب العلم إذا المصلحة والمبتدعة قد انقرضوا والائمة من أهل السنة كفوناشأهم فيما كتبوا  
ودونوا والأدلة العقلية إنما احتاجوا إليها حين دافعوا ونصروا وأما الآن فلم يبق منها إلا كلام تنزه  
الباري عن كثير إلهاماته وإطلاقه ولقد سئل الجنيد رحمه الله عن قوم مرهم من المتكلمين يفيضون فيه  
فقال ما هؤلاء فقيل قوم ينزهون الله بالأدلة عن صفات الحدوث وسمات النقص فقال نفي العيب حيث

يستحيل العيب عيب لكن فائدته في آحاد الناس وطلعة العلم فائدة معتبرة اذ لا يحسن بحامل السنة الجهل بالحجج النظرية على عقائدها والله ولي المؤمنين

### ﴿ علم التصوف ﴾ ١١

هذا العلم من العلوم الشرعية الحادثة في الملة وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الامة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية وأصلها العكوف على العبادة والانتفاع الى الله تعالى والاعراض عن زخرف الدنيا وزينتها والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة وكان ذلك عاماً في الصحابة والسلف فلما فشا الاقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده وجنح الناس الى مخالطة الدنيا اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة وقال القشيري رحمه الله ولا يشهد لهذا الاسم اشتقاق من جهة العربية ولا قياس والظاهر أنه لقب ومن قال اشتقاقه من الصفاء أو من الصفة فبعيد من جهة القياس اللغوي قال وكذلك من الصفوف لانهم لم يختصوا بلبسه \* قلت والظاهر ان قيل بالاشتقاق أنه من الصفوف وهم في الغالب يختصون بلبسه لما كانوا عليه من مخالفة الناس في لبس فاخر الثياب الى لبس الصوف فلما اختص هؤلاء بمذهب الزهد والانفراد عن الخلق والاقبال على العبادة اختصوا بما أخذ مدركة لهم وذلك أن الانسان بما هو انسان انما يتميز عن سائر الحيوان بالادراك والادراك نوعان ادراك للعلوم والمعارف واليقين والظن والشك والوهم وادراك للأحوال القائمة من الفرح والحزن والقبض والبسط والرضا والغضب والصبر والشكر وأمثال ذلك فالروح العاقل والمتصرف في البدن تنشأ من ادراكات وارادات وأحوال وهي التي تميزها الانسان وبعضها ينشأ من بعض كاي تنشأ العلم من الأدلة والفرح والحزن عن ادراك المؤمن أو المتلذذ به والنشاط عن الجمام أو الكسل عن الاعياء وكذلك المريد في مجاهدته وعبادته لا بد وأن ينشأ له عن كل مجاهدة حال نتيجة تلك المجاهدة وتلك الحال اما أن تكون نوع عبادة فترسخ وتصير مقاماً للمريد واما أن لا تكون عبادة وانما تكون صفة حاصلة للنفس من حزن أو سرور أو نشاط أو كسل أو غير ذلك من المقامات ولا يزال المريد يترقى من مقام الى مقام الى أن ينتهي الى التوحيد والمعرفة التي هي الغاية المطلوبة للسعادة قال صلى الله عليه وسلم من مات يشهد أن لا إله الا الله دخل الجنة فالمريض لا بد له من الترقى في هذه الأطوار وأصلها كلها الطاعة والاخلاص ويتقدمها الايمان ويصاحبها وتنشأ الأحوال والصفات نتائج وثمرات ثم تنشأ عنها أخرى وأخرى الى مقام التوحيد والعرفان واذ وقع تقصير في النتيجة أو خلل فنعلم أنه انما أتى من قبل التقصير في الذي قبله وكذلك في الخواطر النفسانية والواردات القلبية فهذا يحتاج المريد الى محاسبة نفسه في سائر أعماله وينظر في حقائقها لأن حصول النتائج عن الأعمال ضروري وقصورها من الخلل فيها كذلك والمريد يجد ذلك بذوقه ويحاسب نفسه على أسبابه ولا يشاركهم في ذلك الا القليل من الناس لان الغفلة عن هذا



كانها شاملة وغاية أهل العبادات اذ لم ينتهوا الى هذا النوع أنهم يأتون بالطاعات مخلصين من نظر الفقه في الأجزاء والامثال وهؤلاء يبحثون عن نتائج بالآذواق والمواجد ليطلعوا على أنها خالصة من التقصير أو لا فظهر أن أصل طريقهم كلها محاسبة النفس على الأفعال والتروك والكلام في هذه الآذواق والمواجد التي تحصل عن المجاهدات ثم تستقر للمريد مقاما ويرتقي بها الى غير هائم لهم مع ذلك آداب مخصوصة بهم واصطلاحات في الفاظ تدور بينهم اذ لا وضاع اللغوية أعماهى للمعاني المتعارفة فاذا عرض من المعاني ما هو غير متعارف اصطلاحا عن التعبير عنه بلفظ يتيسر فهمه منه فلماذا اختص هؤلاء بهذا النوع من العلم الذي ليس لواحد غيرهم من أهل الشريعة الكلام فيه وصار علم الشريعة على صنفين صنف مخصوص بالفقهاء وأهل الفتيا وهى الأحكام العامة في العبادات والعبادات والمعاملات وصنف مخصوص بالقوم في القيام بهذه المجاهدة ومحاسبة النفس عليها والكلام في الآذواق والمواجد العارضة في طريقها وكيفية الطرق منها من ذوق الى ذوق وشرح الاصطلاحات التي تدور بينهم في ذلك فلما كتبت العلوم ودونت وألف الفقهاء في الفقه وأصوله والكلام والتفسير وغير ذلك كتب رجال من أهل هذه الطريقة في طريقهم فمنهم من كتب في الورع ومحاسبة النفس على الاقتداء في الأخذ والترك كما فعله القشيري في كتاب الرسالة والسهروردي في كتاب عوارف المعارف وأمثالهم وجمع الغزالي رحمه الله بين الأمرين في كتاب الاحياء فدون فيه أحكام الورع والاقتداء ثم بين آداب للقوم وسننهم وشرح اصطلاحاتهم في عباراتهم وصار علم التصوف في الملة علما مدونا بعد ان كانت الطريقة عبادة فقط بالكتاب من التفسير والحديث والفقه والاصول وغيره \* ثم ان هذه المجاهدة والحلوة والذكر يتبعها غالبا كشف حجاب الحس والاطلاع على عوالم من أمر الله ليس لصاحب الحس ادراك شئ منها والروح من تلك العوالم وسبب هذا الكشف أن الروح اذا رجع عن الحس الظاهر الى الباطن ضعفت أحوال الحس وقويت أحوال الروح وغلب سلطانه وتجدد نشوه وأعان على ذلك الذكر فانه كالغذاء لتنمية الروح ولا يزال في نمو وتزيد الى أن يصير شهودا بعد أن كان علما ويكشف حجاب الحس ويتم وجود النفس الذي لها من ذاتها وهو عين الادراك فيتعرض حينئذ للمواهب الربانية والعلوم الدنية والفتح الالهي وتقرب ذاته في تحقيق حقيقتها من الافق الاعلى أفق الملائكة وهذا الكشف كثير اما يعرض لأهل المجاهدة فيدركون من حقائق الوجود ما لا يدرك سواهم وكذلك يدركون كثيرا من الوقائع قبل وقوعها ويتصرفون بهمهم وقوى نفوسهم في الموجودات السلفية وتصير طوع ارادتهم فالعطاء منهم لا يعتبرون هذا الكشف ولا يتصرفون ولا يخبرون عن حقيقة شئ لم يؤمروا بالتكلم فيه بل يعدون ما يقطع لهم من ذلك محنة ويتعدون منه إذا هاجمهم وقد كان الصحابة رضي الله عنهم على مثل هذه المجاهدة كان حظهم من هذه الكرامات أو فر الحظوظ لكنهم لم يقع لهم بها عناية وفي فضائل أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم كثير منها وتبعهم في ذلك أهل الطريقة ممن اشتملت رسالة القشيري على ذكرهم ومن اتبع طريقهم من بعدهم \* ثم أن قومنا المتأخرين انصرفت عنايتهم الى كشف الحجاب والمدارك التي وراءه واختلفت طرق

الرياضة عنهم في ذلك باختلاف تعليمهم في أمانة القوى الحسية وتغذية الروح العاقل بالذكري حتى يحصل للنفس ادراكها الذي لها من ذاتها بتمام نشوتها وتغذيتها فاذا حصل ذلك زعموا أن الوجود قد انحصر في مداركها حينئذ وأنهم كشفوا ذوات الوجود وتصور حقائقها كلها من العرش الى الفرش هكذا قال الغزالي رحمه الله في كتاب الاحياء بعد أن ذكر صورة الرياضة \* ثم أن هذا الكشف لا يكون صحيحا كاملا عنده الا اذا كان ناشئا عن الاستقامة لان الكشف قد يحصل لصاحب الجوع والحلوة وان لم يكن هناك استقامة كالسحرة والنصارى وغيرهم من المرتاضين وليس مرادنا الا الكشف الناشئ عن الاستقامة ومثاله ان المرأة الصقيلة اذا كانت محدبة أو معقرة وعودى بها جهة المرئى فانه يتشكل فيها معوجا على غير صورته وان كانت مسطحة تشكل فيها المرئى صحيحا فالاستقامة للنفس كالانسياط للمرأة فيما ينطبع فيها من الأحوال ولما عني المتأخرون بهذا النوع من الكشف تكلموا في حقائق الموجودات العلوية والسلفية وحقائق الملك والروح والعرش والكرسى وأمثال ذلك وقصرت مدارك من لم يشاركهم في طريقهم عن فهم أحوالهم ومواقدهم في ذلك وأهل الفتيا بين منكر عليهم ومسلم لهم وليس البرهان والدليل بنافع في هذه الطريق رد أو قبول اذ هي من قبيل الوجدانيات وربما قصد بعض المصنفين بيان مذهبهم في كشف الوجود وترتيب حقائقه فأئى بالانغمض فالانغمض بالنسبة إلى أهل النظر والاصطلاحات والعلوم كما فعل الفرغاني شارح قصيدة ابن الفارض في الديباجة التي كتبها في صدر ذلك الشرح فانه ذكر في صدور الوجود عن الفاعل وترتيبه أن الوجود كله صادر عن صفة الوحدة التي هي مظهر الأحدية وهما معا صادران عن الذات الكريمة التي هي عين الواحدة لا غير ويسمون هذا الصدور بالتجلي وأول مراتب التجليات عند تجلي الذات على نفسه وهو يتضمن الكمال بافاضة الابداع والظهور لقوله في الحديث الذي يتناقلونه كنت كنزا مخفيا فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق ليعرفوني وهذا الكمال في الابداع المنزل في الوجود وتفصيل الحقائق وهو عند عالم المعاني والحضرة الكمالية والحقيقة المحمدية وفيها حقائق الصفات واللوح والقلم وحقائق الانبياء والرسل أجمعين والكمال من أهل الملة المحمدية وهذا كله تفصيل الحقيقة المحمدية ويصدر عن هذه الحقائق حقائق أخرى في الحضرة الهبائية وهي مرتبة المثال ثم عنها العرش ثم الكرسى ثم الافلاك ثم عالم العناصر ثم عالم التركيب هذا في عالم الرتبة فاذا تجلت فهي في عالم الفتح ويسمى هذا المذهب مذهب أهل التجلي والمظاهر والحضرات وهو كلام لا يقتدر أهل هذا النظر على تحصيل مقتضاه لغموضه وانغلاقه وبعدهما بين كلام صاحب المشاهدة والوجدان وصاحب الدليل وربما أنكر بظاهر الشرع هذا الترتيب وكذلك ذهب آخرون منهم إلى القول بالوحدة المطلقة وهو رأى أغرب من الأول في تعقله وتفاريعه يزعمون فيه أن الوجود له قوى في تفاصيله بها كانت حقائق الموجودات وصورها وموادها والعناصر إنما كانت بما فيها من القوى وكذلك مادتها في نفسها قوة بها كان وجودها ثم أن المركبات فيها تلك القوى متضمنة في القوة التي كان بها التركيب كالقوة

المعدنية فيها قوى العناصر بهيولائها وزيادة القوى المعدنية ثم القوى الحيوانية تتضمن القوة المعدنية  
 وزيادة قوتها في نفسها وكذلك القوة الانسانية مع الحيوانية ثم الفلك يتضمن القوة الانسانية وزيادة  
 وكذا الذوات الروحانية والقوة الجامعة لكل من غير تفصيل هي القوة الالهية التي انبثت في جميع  
 الموجودات كلية وجزئية وجمعها وأحاطت بهامن كل وجه لامن جهة الظهور ولامن جهة الخفاء  
 ولامن جهة الصورة ولامن جهة المادة فالكل واحد وهو نفس الذات الالهية وهي في الحقيقة واحدة  
 بسيطة والاعتبار هو الفصل لها كالانسانية مع الحيوانية ألا ترى أنها مندرجة فيها وكائنة بكونها  
 فتارة يمثلونها بالجنس مع النوع في كل موجود كذا كونه وتارة بالكل مع الجزء على طريقة المثال  
 وهم في هذا كله يفرون من التركيب والكثرة بوجه من الوجوه وإنما أوجها عندم الوهم والخيال  
 والذي يظهر من كلام ابن دهقان في تقرير هذا المذهب ان حقيقة ما يقولونه في الوحدة شبيهة بما تقولونه  
 الحكماء في الألوان من أن وجودها مشروط بالضوء فإذا عدم الضوء لم تكن الألوان موجودة بوجه  
 وكذا عندم الموجودات المحسوسة كلها مشروطة بوجود المدرك الحسي بل الموجودات المعقولة والتوهم  
 أيضا مشروطة بوجود المدرك العقلي فإذا الوجود انفصل كله مشروط بوجود المدرك البشري فلو فرضنا  
 عدم المدرك البشري جملة لم يكن هناك تفصيل الوجود بل هو بسيط واحد فالحر والبرد والصلابة واللين  
 بل والأرض والماء والنار والسماء والكواكب إنما وجدت لوجود الحواس المدركة لها لما جعل في  
 المدرك من التفصيل الذي ليس في الوجود وإنما هو في المدارك فقط فإذا فقدت المدارك المفصلة  
 فلا تفصيل إنما هو ادراك واحد وهو أنا لا غيره ويعتبرون ذلك بحال النائم فإنه اذا نام وفقدها الحس الظاهر  
 فقد كل محسوس وهو في تلك الحالة إلا ما يفصله له الخيال قالوا فكذا اليقظان إنما يعتبر تلك المدركات  
 كلها على التفصيل بنوع مدركة البشري ولو قدر فقد مدركة فقد التفصيل وهذا هو معنى قولهم الموم  
 لا الوهم الذي هو من جملة المدارك البشرية هذا ملخص رأيهم على ما يفهم من كلام ابن دهقان وهو في  
 غاية السقوط لأننا قطع بوجود البدن الذي نحن مسافرون عنه وإليه يقينا مع غيبته عن أعيننا وبوجود  
 السماء المظلة والكواكب وسائر الأشياء الغائبة عنا والانسان قاطع بذلك ولا يكابر أحد نفسه في  
 اليقين مع أن المحققين من المتصوفة المتأخرين يقولون ان المرید عند الكشف ربما يعرض له توهم هذه  
 الوحدة ويسمى ذلك عندم مقام الجمع ثم يترقى عنه إلى التمييز بين الموجودات ويعبرون عن ذلك بمقام  
 الفرق وهو مقام العارف المحقق ولا بد للمرید عندم من عقبة الجمع وهي عقبة صعبة لأنه يخشى على المرید  
 من وقوفه عندها فتخسر صفقته فقد تبينت مراتب أهل هذه الطريقة ثم ان هؤلاء المتأخرين  
 من المتصوفة المتكلمين في الكشف وفيما وراء الحس توغلو في ذلك فذهب الكثير منهم إلى الحلول  
 والوحدة كما أشرفنا اليه وملؤا الصحف منه مثل الهروري في كتاب المقامات له وغيره وتبعهم ابن العربي  
 وابن سبعين وتلميذهما ابن العفيف وابن الفارض والنجم الاسرائيلي في قصائدهم وكان سلفهم مغالطين  
 للاسماعيلية المتأخرين من الرافضة الدائنين أيضا بالحلول والهيبة الأئمة مذهبهم لم يعرف لأولهم فأشرب



كل واحد من الفريقين مذهب الآخر واختلط كلامهم وتشابهت عقائدهم وظهر في كلام المتصوفة القول بالقطب ومعناه رأس العارفين يزعمون أنه لا يمكن أن يساويه أحد في مقامه في المعرفة حتى يقبضه الله ثم يورث مقامه لآخر من أهل العرفان وقد أشار إلى ذلك ابن سينا في كتاب الاشارات في فصول التصوف منها فقال جل جناب الحق أن يكون شرعة لكل وارد أو يطلع عليه الا لو احد بعد الواحد وهذا كلام لا تقوم عليه حجة عقلية ولا دليل شرعي وإنما هو من أنواع الخطابة وهو بعينه ما تقولاه الرافضة ودنوا به ثم قالوا بترتيب وجود الابدال بعد هذا القطب كما قاله الشيعة في النقباء حتى أنهم لما أسندوا لباس خرقة التصوف لجعلوه أصلا لطريقتهم وتخليهم رفعوه إلى على رضى الله عنه وهو من هذا المعنى أيضا وإلا فعلي رضى الله عنه لم يختص من بين الصحابة بتخليه ولا طريقة في لباس ولا حال بل كان أبو بكر وعمر رضى الله عنهما أزهى الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأكثرهم عبادة ولم يختص أحد منهم في الدين بشيء يؤثر عنه في الخصوص بل كان الصحابة كلهم أسوة في الدين والزهد والمجاهدة يشهد لذلك من كلام هؤلاء المتصوفة في أمر الفاطمي وما شحوا كتبهم في ذلك مما ليس لسلف المتصوفة فيه كلام بنى أو إثبات وإنما هو مأخوذ من كلام الشيعة والرافضة ومذاهبهم في كتبهم والله يهدي إلى الحق ثم أن كثير من الفقهاء وأهل الفتيا تندبوا الرد على هؤلاء المتأخرين في هذه المقالات وأمثالها وشملوا بالنكير سائر ما وقع لهم في الطريقة والحق أن كلامهم معهم فيه تفصيل فان كلامهم في أربعة مواضع أحدها الكلام على المجاهدات وما يحصل من الأذواق والمواحد ومحاسبة النفس على الأعمال لتحصل تلك الأذواق التي تصير مقاما ويرقى منه إلى غيره كما قلناه وثانيها الكلام في الكشف والحقيقة المدركة من عالم الغيب مثل الصفات الربانية والعرش والكرسى والملائكة والوحي والنبوة والروح وحقائق كل موجود غائب أو شاهد وتركيب الأركان في صدورهم ما عن موجدتها وتكونها كما مر وثالثها التصرفات في العالم والآلاء كوان بأنواع الكرامات ورابعها ألفاظ موهمة الظاهر صدرت من الكثيرين من أئمة القوم يعبرون عنها في اصطلاحهم بالسطحات تستشكل ظواهرها فتنكر ومحسن ومتأول فأما الكلام في المجاهدات والمقامات وما يحصل من الأذواق والمواجد في نتائجها ومحاسبة النفس على التقصير في أسبابها فأمر لا مدفع فيه لا حدود وأواقهم فيه صحيحة والتحقيق بها هو عين السعادة وأما الكلام في كرامات القوم وأخبارهم بالمغيبات وتصرفهم في الكائنات فأمر صحيح غير منكر وإن مال بعض العلماء إلى إنكارها فليس ذلك من الحق وما احتج به الأستاذ أبو إسحق الأسفريني من أئمة الأشعرية على إنكارها لا تناسبها بالمعجزة فقد فرق المحققون من أهل السنة بينهما بالتحدى وهو دعوى وقوع المعجزة على وفق ما جاء به قالوا ثم أن وقوعها على وفق دعوى الكاذب غير مأمور لأن دلالة المعجزة على الصدق عقلية فان صفة نفسها التصديق فلو وقعت مع الكاذب لتبدلت صفة نفسها وهو محال هذا مع أن الوجود شاهد بوقوع الكثير من هذه الكرامات وإنكارها نوع مكابرة وقد وقع للصحابة وأكابر السلف كثير من ذلك وهو معلوم مشهور وأما الكلام في الكشف واعطاء حقائق العلويات وترتيب صدور الكائنات فأكثر كلامهم فيه نوع من التشابه لما

أنه وجداني عندهم وفاقد الوجدان عندهم بمعزل أذواقهم فيه واللغات لا تعطى دلالة على مرادهم منه لأنهم لم يوضع الالتمعارف وأكثره من المحسوسات فينبغي أن لا تتعرض لكلامهم في ذلك وتتركه فيما تركناه من التشابه ومن رزقه اللهم فهم شيء من هذه الكلمات على الوجه الموافق لظاهر الشريعة فأكرم بها سعادة \* وأما الألفاظ الموهمة التي يعبرون عنها بالشطحات ويؤخذهم بها أهل الشرع. فاعلم أن الانصاف في شأن القوم أنهم أهل غيبة عن الحسن والواردات تملكهم حتى ينطقوا عنها بما لا يقصدونه وصاحب الغيبة غير مخاطب والمجبور معذور فمن علم منهم فضله واقتداءه حمل على القصد الجليل من هذا وأن العبارة عن المواجد صعبة لفقدان الوضع لها كواقع لأبي يزيد وأمثاله ومن لم يعلم فضله ولا اشتهر فمؤاخذ بما صدر عنه من ذلك إذ لم يتبين لنا ما يحملنا على تأويل كلامه وأما من تكلم بمثلها وهو حاضر في حسه ولم يملكه الحال فمؤاخذ أيضاً ولهذا أفق الفقهاء وأكابر المتصوفة بقتل الحلاج لأنه تكلم في حضور وهو مالك لحاله والله أعلم وسلف المتصوفة من أهل الرسالة أعلام الملة الذين أشرنا إليهم من قبل لم يكن لهم حرص على كشف الحجاب ولا هذا النوع من الادراك إنما همهم الاتباع والاقتداء ما استطاعوا ومن عرض له شيء من ذلك أعرض عنه ولم يحفل به بل يفرون منه ويرون أنه من العوائق والمحن وأنه إدراك من إدراكات النفس مخلوق حادث وأن الموجودات لا تنحصر في مدارك الانسان وعلم الله أوسع وخلق أكبر وشريعته بالهداية أملك فلا ينطقون بشيء مما يدركون بل حظروا الخوض في ذلك ومنعوا من يكشف له الحجاب من أصحابهم من الخوض فيه والوقوف عنده بل يلتزمون طريقته كما كانوا في عالم الحس قبل الكشف من الاتباع والاقتداء ويأمرهم أصحابهم بالتزامها وهكذا ينبغي أن يكون حال المريد والله الموفق للصواب

## ١٢ \* علم تعبير الرؤيا \*

هذا العلم من العلوم الشرعية وهو حادث في الملة عندما صارت العلوم صنائع وكتب الناس فيها وأما الرؤيا والتعبير لها فقد كان موجوداً في السلف كما هو في الخلف وربما كان في الملوك والأئمة من قبل إلا أنه لم يصل إلينا الاكتفاء فيه بكلام المعبرين من أهل الاسلام وإلا فالرؤيا موجودة في صنف البشر على الإطلاق ولا بد من تعبيرها فلقد كان يوسف الصديق صلوات الله عليه يعبر الرؤيا كما وقع في القرآن وكذلك ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن أبي بكر رضي الله عنه والرؤيا مدرك من مدارك الغيب وقال صلى الله عليه وسلم الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة وقال لم يبق من البشرات إلا الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح وتري له وأول ما بدى به النبي صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا انفتل من صلاة الغداة يقول لأصحابه هل رأى أحد منكم الليلة رؤيا يسألهم عن ذلك ليستبشروا بما وقع من ذلك مخافه ظهور الدين وإعزازه وأما السبب في كون الرؤيا مدركاً للغيب فهو أن الروح القلبية وهو

البخار اللطيف المنبعث من تجويف القلب اللحمي ينتشر في الشريانات ومع الدم في سائر البدن وبه تكمل أفعال القوى الحيوانية واحساسها فاذا أدركه الملل بكثرة التصرف في الاحساس بالحواس الخمس وتصريف القوى الظاهرة وغشى سطح البدن ما يغشاها من برد الليل الخمس الروح من سائر أقطار البدن الى مركزه القلبي فيستجم بذلك لمعاودة فعله فتعطلت الحواس الظاهرة كلها وذلك هو معنى النوم كما تقدم في أول الكتاب ثم أن هذا الروح القلبي هو مطية للروح العاقل من الانسان والروح العاقل مدرك لجميع ما في عالم الأمر بذاته إذ حقيقته وذاته عين الإدراك وانما يمنع من تعقله للمدرك الغيبية ما هو فيه من حجاب الاشتغال بالبدن وقواه وحواسه فلو قد خلا من هذا الحجاب وتجرد عنه لرجع الى حقيقته وهو عين الإدراك فيعقل كل مدرك فاذا تجرد عن بعضها خفت شواغله فلا بد له من إدراك الحجة من عالمه بتدريج ما تجرد له وهو في هذه الحالة قد خفت شواغل الحس الظاهر كلها وهي الشاغل الأعظم فاستعد لقبول ما هنالك من المدارك الثلاثة من عالمه وإذا أدرك ما يدرك من عوالمه رجع الى بدنه إذ هو مادام في بدنه جسماني لا يمكنه التصرف إلا بالمدارك الجسمانية والمدارك الجسمانية للعلم إنما هي الدماغية والمتصرف منها هو الخيال فانه يتزعم من الصور المحسوسة صوراً خيالية ثم يدفعها الى الحافظة تحفظها الى وقت الحاجة اليها عند النظر والاستدلال وكذلك تجرد النفس منها صوراً أخرى نفسانية عقلية فيترقى التجريد من المحسوس الى المعقول والخيال واسطة بينهما ولذلك إذا أدركت النفس من عالمها ما تدركه ألقته الى الخيال فيصوره بالصورة المناسبة له أو يدفعه الى الحس المشترك فيراه النائم كأنه محسوس فيتزول المدرك من أرواح العقلي الى الحسي والخيال أيضاً بواسطة هذه حقيقة الرؤيا ومن هذا التقرير يظهر لك الفرق بين الرؤيا الصالحة وأضغاث الأحلام الكاذبة فتراها كلها صور في الخيال حالة النوم لكن ان كانت تلك الصور متزلة من الروح العقلي المدرك فهو رؤيا وان كانت مأخوذة من الصور التي في الحافظة التي كان الخيال أودعها إياها منذ اليقظة فهي أضغاث أحلام وأما معنى التعبير فاعلم أن الروح العقلي إذا أدرك مدركه وألقاه الى الخيال فيصوره فانما يصوره في الصور المناسبة لذلك المعنى بعض الشيء كما يدرك معنى السلطان الأعظم فيصوره الخيال بصورة البحر أو يدرك العداوة فيصورها الخيال في صورة الحية فاذا استيقظ وهو لم يعلم من أمره إلا أنه رأى البحر أو الحية فينظر المعبر بقوة التشبيه بعد أن يتيقن أن البحر صورة محسوسة وأن المدرك وراءها وهو يهتدى بقرائن أخرى تعين له المدرك فيقول مثلاً هو السلطان لأن البحر خلق عظيم يناسب أن يشبه به السلطان وكذلك الحية يناسب أن تشبه العدو لعظم ضررها وكذا الأواني تشبه النساء لأنهن أوعية وأمثال ذلك ومن المرنى ما يكون صريحاً لا يفتقر الى تعبير لجلائها ووضوحها أو لقرب الشبه فيها بين المدرك وشبهه ولهذا وقع في الصحيح الرؤيا ثلاث رؤيا من الله ورؤيا من الملك ورؤيا من الشيطان فالرؤيا التي من الله هي الصريحة التي لا تفتقر الى تأويل والتي من الملك هي الرؤيا الصادقة تفتقر الى التعبير والرؤيا التي من الشيطان هي الأضغاث واعلم أيضاً أن الخيال إذا ألقى اليه الروح مدركه فانما يصوره في القوالب



المعتادة للحس ما يكن الحس أدركه قط فلا يصور فيه فلا يمكن من ولد أعمى أن يصوره السلطان بالبحر ولا العدو بالحية ولا النساء بالأواني لأنه لم يدرك شيئاً من هذه وإنما يصوره الخيال أمثال هذه في شبهها ومناسبتها من جنس مداركه التي هي المسموعات والمشومات وليتخفظ المعبر من مثل هذا فر بما اختلط به التعبير وقد قانونه ثم أن علم التعبير علم بقوانين كلية يبني عليها المعبر عبارة ما يقص عليه وتأويله كما يقولون البحر يدل على السلطان وفي موضع آخر يقولون البحر يدل على الغيظ وفي موضع آخر يقولون البحر يدل على الهم والأمر الفادح ومثل ما يقولون الحية تدل على العدو وفي موضع آخر يقولون هي كآتم سر وفي موضع آخر يقولون تدل على الحياة وأمثال ذلك فيحفظ المعبر هذه القوانين الكلية ويعبر في كل موضع بما تقتضيه القرائن التي تعين من هذه القوانين ما هو أليق بالرؤيا وتلك القرائن منها في اليقظة ومنها في النوم ومنها ما ينقدح في نفس المعبر بالخاصية التي خلقت فيه وكل ميسر لما خلق له ولم يزل هذا العلم متناقلاً بين السلف وكان محمد بن سيرين فيه من أشهر العلماء وكتب عنه في ذلك القوانين وتناقلها الناس لهذا العهد وألف الكرماني فيه من بعده ثم ألف المتكلمون المتأخرون وأكثروا والمتداول بين أهل المغرب لهذا العهد كتب ابن أبي طالب القيرواني من علماء القيروان مثل الممتنع وغيره وكتاب الإشارة للسالمى وهو علم مضى بنور النبوة للمناسبة بينهما كما وقع في الصحيح والله علام الغيوب

### ١٣ العلوم العقلية وأصنافها ❁

وأما العلوم العقلية التي هي طبيعة للإنسان من حيث أنه ذو فكر فهي غير مختصة بملة بل يوجد النظر فيها لأهل الملل كلهم ويستوون في مداركها ومباحثها وهي موجودة في النوع الإنساني منذ كان عمر الإنسان الخليفة وتسمى هذه العلوم علوم الفلسفة والحكمة وهي مشتملة على أربعة علوم الأول علم المنطق وهو علم يعصم الذهن عن الخطأ في اقتناص المطالب المجهولة من الأمور الحاصلة المعلومة وفائدته تمييز الخطأ من الصواب فيما يلتمسه الناظر في الموجودات وعوارضها ليقف على تحقيق الحق في الكائنات بمنتهى فكره ثم النظر بعد ذلك عندهم إما في المحسوسات من الأجسام العنصرية والمكونة عنها في المعدن والنبات والحيوان والأجسام الفلكية والحركات الطبيعية والنفس التي تنبعث عنها الحركات وغير ذلك ويسمى هذا الفن بالعلم الطبيعي وهو الثاني منها وإما أن يكون النظر في الأمور التي وراء الطبيعة من الروحانيات ويسمونه العلم الإلهي وهو الثالث منها والعلم الرابع وهو الناظر في المقادير ويشتمل على أربعة علوم وتسمى أتعالم أو لها علم الهندسة وهو النظر في المقادير على الإطلاق أما المنفصلة من حيث كونها معدودة أو المتصلة وهي إما ذو أبداً واحداً وهو الخط أو ذو بعدين وهو السطح أو ذو أبعاد ثلاثة وهو الجسم التعليمي ينظر في هذه المقادير وما يعرض لها من حيث ذاتها أو من حيث نسبة بعضها إلى بعض وثانيها علم الارتماطيق وهو معرفة ما يعرض للسكم المنفصل الذي هو العدد ويؤخذ له من الخواص والعوارض اللاحقة وثالثها علم الموسيقى وهو معرفة نسب الأصوات والنغم بعضها من بعض وتقديرها بالعدد وثمرته معرفة تلاحين الغناء ورابعها علم الهيئة وهو تعيين الأشكال للأفلاك وحصر

أوضاعها وتعدد الكل كوكب من السيارة والقيام على معرفة ذلك من قبل الحركات السماوية المشاهدة الموجودة لكل واحد منها ومن رجوعها واستقامتها وإقبالها وإدبارها فهذه أصول العلوم الفلسفية وهي سبعة المنطق وهو المقدم منها وبعده التعاليم فالأرتماطيق أو الأتم الهندسة ثم الهيئة ثم الموسيقى ثم الطبيعيات ثم الألهيات ولكل واحد فروع تتفرع عنه فمن فروع الطبيعيات الطب ومن فروع علم العدد علم الحساب والفرائض والمعاملات ومن فروع الهيئة الأزياج وهي قوانين حساب حركات الكواكب وتعديلها للوقوف على مواضعها متى قصد ذلك ومن فروع النظر في النجوم علم الأحكام النجومية ونحن نتكلم عليها واحدا بعد واحد إلى آخرها واعلم أن أكثر من عني بها في الأجيال الذين عرفنا أخبارهم الامتان العظيمتان في الدولة قبل الاسلام وهما فارس والروم فكانت أسواق العلوم نافقة لديهم على ما بلغنا لما كان العمران موفور افئهم والدولة والسلطان قبل الاسلام وعصره لهم فكان لهذه العلوم محور آخر في آفاقهم وأمصارهم وكان للكلدانيين ومن قبلهم من السريانيين ومن عاصرهم من القبط عناية بالسحر والنجامة وما يتبعها من الطالسم وأخذ ذلك عنهم الأتم من فارس ويونان فاختص بها القبط وطبأ بحرها فيهم كما وقع في المتلوم من خبرها روت وماروت وشأن السحرة وما نقله أهل العلم من شأن البرابي بصعيد مصر ثم تابعت الملل بخطر ذلك وتحريمه فدرست علومه وبطلت كأن لم تكن إلا بقايا يتناقلها متحلوه هذه الصنائع والله أعلم بصحتها مع أن سيوف الشرع قائمة على ظهورها مانعة من اختبارها وأما الفرس فكان شأن هذه العلوم العقلية عندهم عظيما ونطاقها متسعا لما كانت عليه دولتهم من الضخامة واتصال الملل ولقد يقال أن هذه العلوم إنما وصلت إلى يونان منهم حين قتل الاسكندر دارا وغلِب على مملكة السكينية فاستولى على كتبهم وعلومهم ما لا يأخذه الحصر ولما فتحت أرض فارس ووجدوا فيها كتباً كثيرة كتب سعد بن أبي وقاص إلى عمر ابن الخطاب ليستأذنه في شأنها وتلقينها للمسلمين فكتب إليه عمر أن اطرحوها في الماء فإن يكن ما فيها هدى فقد هدانا الله بأهدى منه وإن يكن ضلالا فقد كفانا الله فطرحوها في الماء وفي النار وذهبت علوم الفرس فيها عن أن تصل إلينا وأما الروم فكانت الدولة منهم ليونان أولاً وهذه العلوم بينهم مجال رحب وحملها مشاهير من رجالهم مثل أساطين الحكمة وغيرهم واختص فيها المشاؤون منهم أصحاب الرواق بطريقة حسنة في التعليم كانوا يقرؤون في رواق يظلمهم من الشمس والبرد على ما زعموا واتصل فيها سند تعليمهم على ما زعموا من لدن لقمان الحكيم في تلميذه بقراط الدين ثم إلى تلميذه افلاطون ثم إلى تلميذه ارسطو ثم إلى تلميذه الاسكندر الاقروسي ونامسطيون وغيرهم وكان ارسطو معلما للاسكندر ملكهم الذي غلب الفرس على ملكهم وانتزع الملك من أيديهم وكان أرسطو في هذه العلوم قدما وأبعدهم فيها صيتا وكان يسمى العلم الأول فطار له في العالم ذكر \* ولما انقرض أمر اليونان وصار الأمر للقيصرة وأخذوا بدين النصرانية هجروا تلك العلوم كما تقتضيه الملل والشرائع فيها وبقيت في صحفها ودواوينها مجلدة باقية في خزائنهم ثم ملكوا الشام وكتب هذه العلوم باقية فيهم ثم جاء الله بالاسلام وكان لأهله الظهور الذي لا كفاء له وابتزوا الروم ملكهم فيما ابتزوه للأتم وابتدأ

أمرهم بالسذاجة والغفلة عن الصنائع حتى إذا تبجح السلطان والدولة وأخذوا من الحضارة بالحظ الذي لم يكن لغيرهم مع الأمم وتفننوا في الصنائع والعلوم تشوقوا إلى الاطلاع على هذه العلوم الحكيمة بما سمعوا من الأساقفة والأقسة المعاهدين بعض ذكر منها وبما تسموا إليه أفكار الانسان فيها فبعث أبو جعفر المنصور إلى ملك الروم أن يبعث إليه بكتب التعاليم مترجمة فبعث إليه بكتاب أوقليدس وبعض كتب الطبيعيات فقرأها المسلمون واطلعوا على ما فيها وازدادوا حرصا على الظفر بما بقي منها وجاء المأمون بعد ذلك وكانت له في العلم رغبة بما كان ينتج له فانبعث لهذه العلوم حرصا وأوفد الرسل على ملوك الروم في استخراج علوم اليونانيين وانتساخاها بخط العربي وبعث المترجمين لذلك فأوعى منه واستوعب وعكف عليها النظر من أهل الاسلام وحذقوا في فنونها وانتهت إلى الغاية أنظارهم فيها وخالفوا كثيرا من آراء العلم الأول واختصوه بالرد والقبول لوقوف الشهرة عنده ودونوا في ذلك الدواوين وأربوا على من تقدمهم في هذه العلوم وكان من أكابرهم في الملة أبو نصر الفارابي وأبو علي ابن سينا بالمشرق والقاضي أبو الوليد بن رشد والوزير أبو بكر بن الصائغ بالاندلس إلى آخرين بلغوا الغاية في هذه العلوم واختص هؤلاء بالشهرة والذكر واقتصر كثير على انتحال التعاليم وما يضاف إليها من علوم النجامة والسحر والطلسمات ووقعت الشهرة في هذا المنتحل على مسلمة بن أحمد المجريطي من أهل الاندلس وتلميذه ودخل على الملة من هذه العلوم وأهلها داخلة واستهوت الكثير من الناس بما جنحوا إليها وقلدوا آراءها والذنب في ذلك لمن ارتكبه ولو شاء الله ما فعلوه ثم ان المغرب والاندلس لما ركدت ريح العمران بهما وتناقصت العلوم بتناقصه اضمحل ذلك منهما الا قليلا من رسومه تجدها في تفاريق من الناس وتحت رقبة من علماء السنة ويلغنا عن أهل المشرق أن بضائع هذه العلوم لم تزل عندهم موفورة وخصوصا في عراق العجم وما بعده فيما وراء النهر وأنهم على شبح من العلوم العقلية لتوفر عمراتهم واستحكام الحضارة فيهم ولقد وقفت بمصر على تأليف متعددة لرجل من عظماء هراة عن بلاد خراسان يشهر بسعد الدين التفتازاني منها في علم الكلام وأصول الفقه والبيان تشهد بأن له ملكة راسخة في هذه العلوم وفي أثنائها ما يدل على أن له اطلاعا على العلوم الحكيمة وقدماء عالية في سائر الفنون العقلية والله يؤيد بنصره من يشاء كذلك بلغنا هذا العهد أن هذه العلوم الفلسفية ببلاد الافرنجة من أرض رومة وما إليها من العدو الشمالية نافقة الأسواق وأن رسوماها هناك متجددة ومجالس تعليمها متعددة ودواوينها جامعة متوفرة وطلبتها متكررة والله أعلم بما هنالك وهو مخلق ما يشاء ويختار

#### ١٤ ﴿ العلوم العددية ﴾

وأولها الارتماطيق وهو معرفة خواص الأعداد من حيث التأليف اما على التوالي أو بالتضعيف مثل أن الأعداد إذا توالى متفاضلة بعدد واحد فان جمع الطرفين منها مساو لجمع كل عددين بعدها من



الطرفين بعد واحد ومثل ضعف الواسطة إن كانت عدة تلك الأعداد فردا مثل الأفراد على تواليها والأزواج على تواليها ومثل أن الأعداد إذا توالى على نسبة واحدة يكون أولها نصف ثانيها وثالثها نصف ثالثها الخ أو يكون أولها ثلث ثانيها وثالثها ثلث ثالثها الخ فان ضرب الطرفين أحدهما في الآخر كضرب كل عددين بعدهما من الطرفين بعد واحد أحدهما في الآخر ومثل ربع الواسطة إن كانت العدة فردا وذلك مثل أعداد زوج الزوج المتوالية من اثنين فأربعة فثمانية فستة عشر ومثل ما يحدث من الخواص العددية في وضع المثلثات العددية والمربعات والخمسات والمسدسات اذا وضعت متتالية في سطورها بأن يجمع من الواحد الى العدد الأخير فتكون مثلثة وتتوالى الى المثلثات هكذا في سطر تحت الأضلاع ثم تزيد على كل مثلث ثلث الضلع الذي قبله فتكون مربعة وتزيد على كل مربع مثلث الضلع الذي قبله فتكون خمسة وهم جرا وتتوالى الأشكال على توالي الأضلاع ويحدث جدول ذو طول وعرض في عرضه الأعداد على تواليها المثلثات على تواليها المربعات ثم الخمسات الخ وفي طوله كل عدد وأشكاله بالغاما بلغ وتحدث في جمعها وقسمتها بعضها على بعض طولا وعرضا خواص غريبة استقرت منها وتقررت في دواوينهم مسائلها وكذلك ما يحدث للزوج والفرد وزوج الزوج والفرد وزوج الزوج والفردان فن لكل منها خواص مختصة به تضمنها هذا الفن وليست في غيره وهذا الفن أول أجزاء التعاليم وأثبتها ويدخل في براهين الحساب وللحكام المتقدمين والمتأخرين فيه تأليف وأكثروا يدرجونه في التعاليم ولا يفرقونه بالتأليف فعل ذلك ابن سينا في كتاب الشفاء والنجاة وغيره من المتقدمين وأما المتأخرون فهو عندهم مهجور اذ هو غير متداول ومنفعته في البراهين لا في الحساب فهجروه لذلك بعد أن استخلصوا زبدته في البراهين الحسابية كإفعاله ابن البناء في كتاب وقع الحجاب والله سبحانه وتعالى أعلم **ومن فروع علم العدد صناعة الحساب** وهي صناعة عملية في حساب الأعداد بالضم والتفريق فالضم يكون في الأعداد بالأفراد وهو الجمع وبالتضعيف تضاعف عددا بآحاد عدد آخر وهذا هو الضرب والتفريق أيضا يكون في الأعداد اما بالآفراد مثل ازالة عدد من عدد ومعرفة الباقي وهو الطرح أو تفصيل عدد بأجزاء متساوية تكون عدتها محصلة وهو القسمة وسواء كان هذا الضم والتفريق في الصحيح من العدد أو الكسر ومعنى الكسر نسبة عدد الى عدد وتلك النسبة تسمى كسرا وكذلك يكون بالضم والتفريق في الجذور ومعناها العدد الذي يضرب في مثله فيكون المربع فان تلك الجذور أيضا يدخلها الضم والتفريق وهذه الصناعة حادثة أحتيج اليها للحساب في المعاملات وألف الناس فيها كثيرا وتداولوها في الأمصار بالتعليم للولدان ومن أحسن التعليم عندهم الابتداء بها لانها معارف متضحة وبراهين منتظمة فينشأ عنها في الغالب عقل مضى يدرب على الصواب وقد يقال من أخذ نفسه بتعليم الحساب أول أمره انه يغلب الصدق لما في الحساب من صحة الباني ومناقشة النفس فيصير ذلك خلقا ويتعود الصدق ويلزمه مذهباً ومن أحسن التأليف المبسوطه في هذا العهد بالمغرب كتاب الحصار الصغير ولا بن البناء المراكشي فيه تلخيص ضابط لقوانين أعماله مفيد ثم شرحه بكتاب سماه رفع

الحجاب وهو مستغلق على المبتدى بما فيه من البراهين الوثيقة المباني وهو كتاب جليل القدر أدر كنا  
 المشيخة تعظمه وهو كتاب جدير بذلك وأما جاء الاستغلق من طريق البرهان ببيان علوم التعاليم  
 لأن مسائله وأعماله واضحة كلها وأدق شرحها فأما هو إعطاء العلل في تلك الاعمال وفي ذلك  
 من العسر على الفهم ما لا يوجد في أعمال المسائل فتأمله والله يهدي بنوره من يشاء وهو القوى المتين  
 \* ومن فروع الجبر والمقابلة \* وهي صناعة يستخرج بها العدد المجهول من قبل العلوم المفروض إذا  
 كان بينهما نسبة تقتضي ذلك فاصطدحوا فيها على أن جعلوا للمجهولات مراتب من طريق التضعيف  
 بالضرب أولها العدد لأن به يتعين المطلوب المجهول باستخراجه من نسبة المجهول اليه وثانيها الشيء  
 لأن كل مجهول فهو من جهة إيهامه شيء وهو أيضا جذر لما يلزم من تضعيفه في المرتبة الثانية وثالثها المال  
 وهو أمر مبهم وما بعد ذلك فعلى نسبة الاس في المضروبين ثم يقع العمل المفروض في المسئلة فتخرج  
 إلى معادلة بين مختلفين أو أكثر من هذه الأجناس فيقابلون بعضها ببعض ويحبرون ما فيهما من الكسر  
 حتى يصير صحيحا ويحطون المراتب إلى أقل الاسوس إن أمكن حتى يصير إلى الثلاثة التي عليها مدار  
 الجبر عندهم وهي العدد والشيء والمال فإن كانت المعادلة بين واحد وواحد تعين فللمال والجذر زول  
 إيهامه بمعادلة العدد وتعين والمال وإن عادل الجذور ويتعين بعدها وإن كانت المعادلة بين واحد واثنين  
 أخرجه العمل الهندسي من طريق تفصيل الضرب في الاثنين وهي مهمة فيعينها ذلك الضرب المفصل  
 ولا يمكن المعادلة بين اثنين واثنين وأكثر ما انتهت المعادلة بينهم إلى ست مسائل لأن المعادلة بين عدد  
 وجذر ومال مفردة أو مركبة تجيء ستة وأول من كتب في هذا الفن أبو عبد الله الخوارزمي وبعده  
 أبو كامل شجاع بن أسلم وجاء الناس على أثره فيه وكتابه في مسائله الست من أحسن الكتب  
 الموضوع في شرحه كثير من أهل الأندلس فأجادوا ومن أحسن شروحاته كتاب القرشي وقد  
 بلغنا أن بعض أئمة التعاليم من أهل المشرق أنهى المعاملات إلى أكثر من هذه الستة أجناس وبلغها  
 إلى فوق العشرين واستخرج لها كلها أعمالا وأتبعه يرايين هندسية والله يزيد في الخلق ما يشاء  
 سبحانه وتعالى \* ومن فروع أيضا المعاملات \* وهو تصريف الحساب في معاملات المدن في  
 البياعات والمساحات والزكوات وسائر ما يعرض فيه العدم من المعاملات يصرف في ذلك صناعة الحساب  
 في المجهول والمعلوم والكسر والصحيح والجذور وغيرها والغرض من تكثير المسائل المفروضة  
 فيها حصول المراتب والدربة بتكرار العمل حتى ترسخ الملكة في صناعة الحساب ولأهل الصناعة  
 الحسابية من أهل الأندلس تأليف فيها متعددة من أشهرها معاملات الزهر أوى وابن السمح وأبي  
 مسلم بن خلدون من تلميذ مسلمة الجريطي وأمثالهم \* ومن فروع أيضا الفرائض \* وهي صناعة  
 حسابية في تصحيح السهام لذوى الفروض في الوراثة إذا تعددت وهلك بعض الوارثين  
 وانكسرت سهامه على ورثته أو زادت الفروض عند اجتماعها وتزاحم على المال كله أو كان في الفريضة  
 إقرار وإنكار من بعض الورثة فيحتاج في ذلك كله إلى عمل يبين به سهام الفريضة من كم تصح وسهام

الورثة من كل بطن مصححا حتى تكون حظوظ الوارثين من المال على نسبة سهامهم من جملة سهام  
الفريضة فيدخلها من صناعة الحساب جزء كبير من صحيحه وكسره وجذره ومعلومه ومجهوله وترتب  
على ترتيب أبواب الفرائض الفقهية ومسائلهما فتشتمل حينئذ هذه الصناعة وعلى جزء من الفقه وهو  
أحكام الوراثة من الفروض والعول والاقرار والانكار والوصايا والتدبير وغير ذلك من مسائلها  
وعلى جزء من الحساب وهو تصحيح السهمان باعتبار الحكم الفقهي وهي من أجل العلوم وقد يورد  
أهلها أحاديث نبوية تشهد بفضلها مثل الفرائض ثلث العلم وأنها أول ما يرفع من العلوم وغير ذلك  
وعندي أن ظواهر تلك الأحاديث كلها إنما هي في الفرائض العينية كما تقدم لأفرائض الوراثة فإنها أقل  
من أن تكون في كميتها ثلث العلم وأما الفرائض العينية فكثيرة وقد ألف الناس في هذا الفن قديما  
وحديثا وأوعبوا ومن أحسن التأليف فيه على مذهب مالك رحمه الله كتاب ابن ثابت ومختصر القاضي  
أبي القاسم الحوفي وكتاب ابن المنمر والجعدي والصردى وغيرهم لكن الفضل الحوفي فكتابه مقدم على  
جميعها وقد شرحه من شيوخنا أبو عبد الله سليمان الشطي كبير مشيخة فاس فأوضح وأوعب ولا مام  
الحرمين فيها تأليف على مذهب الشافعي تشهد باتساع باعه في العلوم ورسوخ قدمه وكذا للحنفية  
والحنابلة ومقامات الناس في العلوم مختلفة والله يهدي من يشاء بمغنه وكرمه لأرب سواه

### ١٥ ﴿ العلوم الهندسية ﴾

هذا العلم هو النظر في المقادير أما المتصلة كالخط والسطح والجسم وأما المنفصلة كالأعداد وفيما يعرض  
لهامن العوارض الذاتية مثل أن كل مثلث فزوياؤه مثل قائمتين ومثل أن كل خطين متوازيين لا يلتقيان  
في وجه ولو خرجا إلى غير نهاية ومثل أن كل خطين متقاطعين فالزوايتان المتقابلتان منهما متساويتان  
ومثل أن الأربعة مقادير التناسبة ضرب الأول منها في الثالث كضرب الثاني في الرابع وأمثال ذلك في  
الكتاب المترجم لليونانيين في هذه الصناعة كتاب أوقليدس ويسمى كتاب الأصول وكتاب الأركان  
وهو أبسط ما وضع فيها للمتعلمين وأول ما ترجم من كتاب اليونانيين في الملة أيام أبي جعفر المنصور  
ونسخته مختلفة باختلاف المترجمين فمنها الحنين بن إسحق ولثابت بن قرة وليوسف بن الججاج ويشتمل  
على خمس عشرة مقالة أربعة في السطوح وواحدة في الأقدار التناسبية وأخرى في نسب السطوح بعضها  
إلى بعض وثلاث في العدد والعاشر في المنطق والقوى على المنطقات ومعناه الجدور وخمس في المحسبات  
وقد اختصره الناس اختصارات كثيرة كما فعله ابن سينا في تعاليم الشفاء أفرد جزأ منها اختصاصه به وكذلك  
ابن الصلت في كتاب الاقتصار وغيرهم وشرحه آخرون شروحا كثيرة وهو مبدأ العلوم الهندسية  
باطلاق واعلم أن الهندسة تفيد صاحبها إضاءة في عقله واستقامة في فكره لأن براهينها كلها بينة  
الانتظام جليلة الترتيب لا يكاد الغلط يدخل أقيستها الترتيبها وانتظامها فيبعد الفكر عما رستما عن الخطأ  
وينشأ لصاحبها عقل على ذلك المهييع وقد زعموا أنه كان مكتوبا على باب أفلاطون من لم يكن مهندسا فلا



يدخلن منزلنا وكان شيوخنا رحمهم الله يقولون ممارسة علم الهندسة للفكر بمثابة الصابون للشوب الذي يغسل منه الأقدار وينقيه من الأوضار والأدران وإنما ذلك لما أشرنا إليه من ترتيبه وانتظامه ﴿ ومن فروع هذا الفن الهندسة المخصوصة بالأشكال الكرية والمخروطات ﴾ أما الأشكال الكرية ففيها كتابان من كتب اليونانيين ثاودوسيوس وميلاوش في سطوحها وقطوعها وكتاب ثاودوسيوس مقدم في التعليم على كتاب ميلاوش لتوقف كثير من براهيته عليه ولا بد منهما لمن يريد الخوض في علم الهيئة لأن براهيته متوقفة عليهما فالكلام في الهيئة كله كلام في الكرات عسائوية وما يعرض فيها من القطوع والدوائر بأسباب الحركات كان ذكره قد يتوقف إلى معرفة أحكام الأشكال الكرية سطوحها وقطوعها وأما المخروطات فهو من فروع الهندسة أيضا وهو علم ينظر فيما يقع في الأجسام المخروطية من الأشكال والقطوع ويبرهن على ما يعرض لذلك من العوارض يراها هندسية متوقفة على التعليم الأول وفائدتها تظهر في الصنائع العلمية التي موادها الأجسام مثل التجارة والبناء وكيف تصنع التماثيل الغريبة والهياكل النادرة وكيف يتحلى على جبالها الثقيل ونقل الهياكل بالهندام والميخال وأمثال ذلك وقد أفرد بعض المؤلفين في هذا الفن كتابا في الحيل العلمية يتضمن من الصناعات الغريبة والحيل المستظرفة كل عجيبة وربما استغلق على الفهم لصعوبة براهيته الهندسية وهو موجود فأكثر الناس ينسبونه إلى بنى ساكر والله تعالى أعلم ﴿ ومن فروع الهندسة المساحة ﴾ وهو فن يحتاج إليه في مسح الأرض ومعناه استخراج مقدار الأرض المعلومة بنسبة شبر أو ذراع أو غيرها أو نسبة أرض من أرض إذا قويست بمثل ذلك ويحتاج إلى ذلك في توظيف الخراج على المزارع والقدن وتساين الغرسة وفي قسمة الحوائط والأراضي بين الشركاء أو الورثة وأمثال ذلك وللناس فيها موضوعات حسنة وكثيرة والله الموفق للصواب بمنه وكرمه ﴿ المناظر من فروع الهندسة ﴾ وهو علم يتبين به أسباب الغلط في الإدراك البصرى بمعرفة كيفية وقوعها بناء على أن إدراك البصر يكون بمخروط شعاعى رأسه يقطعه الباصر وقاعدته المرئى ثم يقطع الغلط كثيرا في رؤية القريب كثيرا والبعيد صغيرا وكذا رؤية الأشباح الصغيرة تحت الماء ووراء الأجسام الشفافة كبيرة ورؤية النقطة النازلة من المطر خطا مستقيما والسلعة دائرة وأمثال ذلك فيتبين في هذا العلم أسباب ذلك وكيفياته بالبراهين الهندسية ويتبين به أيضا اختلاف المنظر في الأمرباختلاف العروض الذى ينبى عليه معرفة رؤية الأهلة وحصول الكسوفات وكثير من أمثال هذا وقد ألف في هذا الفن كثير من اليونانيين وأشهر من ألف فيه من الإسلاميين ابن الهيثم وغيره فيه أيضا تأليف وهو من هذه الرياضة وتفاريعها

### ﴿ علم الهيئة ﴾ ١٦

وهو علم ينظر في حركات الكواكب الثابتة والمتحركة والمتحركة ويستدل بكيفيات تلك الحركات على أشكال وأوضاع للأفلاك لزمت عنها هذه الحركات المحسوسة بطرق هندسية كما يبرهن على أن

مركز الأرض مابين مركز فلك الشمس بوجود حركة الاقبال والادبار وكما يستدل بالرجوع والاستقامة للكواكب على وجود أفلاك صغيرة حاملة لها متحركة داخل فلكها الأعظم وكما يبرهن على وجود الفلك الثامن بحركة الكواكب الثابتة وكما يبرهن على تعدد الأفلاك للكواكب الواحد بتعداد الميول له وأمثال ذلك وادراك الموجود من الحركات وكيفية وأجناسها إنما هو بالرصد فإنا إنما علمنا حركة الاقبال والادبار وكذا تركيب الأفلاك في طبقاتها وكذا الرجوع والاستقامة وأمثال ذلك وكان اليونانيون يعتنون بالرصد كثيرا ويتخذون له الآلات التي توضع ليرصد بها حركة الكواكب المعين وكانت تسمى عندهم ذات الحلق وصناعة عملها والبراهين عليه في مطابقة حركتها بحركة الفلك منقول بأيدي الناس وأما في الاسلام فلم تقع به عناية الا في القليل وكان في أيام المأمون شيء منه وضع الآلة المعروفة للرصد المسماة ذات الحلق وشرع في ذلك فم يتم ولم مات ذهب رسمه وأغفل واعتمد من بعده على الأرصاد القديمة وليست بمغنية لاختلاف الحركات باتصال الأقاب وان مطابقة حركة الآلة في الرصد بحركة الأفلاك والكواكب إنما هو بالتقريب ولا يعطى التحقيق فإذا طال الزمان ظهر تفاوت ذلك بالتقريب وهذه الهيئة صناعة شريفة وليست على ما يفهم في المشهور أنها تعطى صورة السموات وترتيب الأفلاك والكواكب بالحقيقة بل إنما تعطى أن هذه الصورة والهيئات للأفلاك لزمت عن هذه الحركات وأنت تعلم أنه لا يعد أن يكون الشيء الواحد لازما المختلفين وان قلنا ان الحركات لازمة فهو استدلال باللازم على وجود المزموم ولا يعطى الحقيقة بوجه على أنه علم جليل وهو أحد أركان التعاليم ومن أحسن التأليف فيه كتاب المجسطي منسوب لبطليموس وليس من ملوك اليونان الذين أسماؤهم ببطليموس على ما حققه شراح الكتاب وقد اختصره الأئمة من حكماء الاسلام كما فعله ابن سينا وأدرجه في تعاليم الشفاء ولخصه ابن رشد أيضا من حكماء الأندلس وابن السمع وابن الصلت في كتاب الاقتصار وابن الفرغاني هيئة ملخصة قرنها وحذف براهين الهندسية والله علم الانسان ما لم يعلم سبحانه لا إله إلا هو رب العالمين ﴿ ومن فروعه علم الأزياج ﴾ وهي صناعة حسابية على قوانين عديدة فيما يخص كل كوكب من طريق حركته وما أدى إليه برهان الهيئة وضعه من سرعة وبطء واستقامة ورجوع وغير ذلك يعرف به مواضع الكواكب في أفلاكها كالأرض وقت فرض من قبل حسابان حركاتها على تلك القوانين المستخرجة من كتب الهيئة وهذه الصناعة قوانين كالتقدمات والاصول لها في معرفة الشهور والأيام والتواريخ الماضية وأصول متفرقة من معرفة الأوج والحضيض والميول وأصناف الحركات واستخراج بعضها من بعض يضعونها في جداول مرتبة تسهلا على المتعلمين وتسمى الأزياج ويسمى استخراج مواضع الكواكب للوقت المفروض لهذه الصناعة تعديلا وتقويما للناس فيه تأليف كثيرة للمتقدمين والمتأخرين مثل البتاني (١) وابن الكمال وقد عول المتأخرون لهذا العهد بالمغرب على زيج منسوب لابن اسحق من منجمي تونس في أول المائة

(١) قوله البتاني بفتح الموحدة وتشديد المشاة كما ضبطه ابن خلكان في ترجمته قبيل آخر المحمد بن ام

السابعة ويزعمون أن ابن اسحق عول فيه على الرصد وأن يهوديا كان بصقلية ماهر في الهيئة والتعاليم وكان قد عني بالرصد وكان يعث إليه بما يقع في ذلك من أحوال الكواكب وحركاتها فكان أهل المغرب لذلك عنوا لوثاقه مبناه على ما يزعمون ولخصه ابن البناء في آخر سماه المنهاج فولع به الناس لما سهل من الأعمال فيه وإنما يحتاج إلى مواضع الكواكب من الفلك لتبني عليها الأحكام النجومية وهو معرفة الآثار التي تحدث عنها بأوضاعها في عالم الإنسان من الملك والدول والمواليد البشرية كما نبينه بعد ونوضح فيه أدلتهم أن شاء الله تعالى والله الموفق لما يحبه ويرضاه لا معبود سواه

١٧ ﴿ علم المنطق ﴾

وهو قوانين يعرف بها الصحيح من الفاسد في الحدود والمعرفة للماهيات والحجج المفيدة للتصديقات وذلك أن الأصل في الإدراك إنما هو المحسوسات بالحواس الخمس وجميع الحيوانات مشتركة في الإدراك من الناطق وغيره وإنما يتميز الإنسان عنها بإدراك الكليات وهي مجردة عن المحسوسات وذلك بأن يحصل في الخيال من الأشخاص المتفقة صورة منطبقة على جميع تلك الأشخاص المحسوسة وهي الكلية ثم ينظر الذهن بين تلك الأشخاص المتفقة وأشخاص أخرى توافقها في بعض فيحصل له صورة تنطبق أيضا عليهما باعتبار ما اتفقا فيه ولا يزال يرتقى في التجريد إلى الكل الذي لا يحده كليا آخر معه يوافق فيكون لأجل ذلك بسيطا وهذا مثل ما مجرد من أشخاص الإنسان صورة النوع المنطبقة عليها ثم ينظر بينه وبين الحيوان ويجرد صورة المنطبقة عليهما ثم بينهما وبين النبات إلى أن ينتهي إلى الجنس العالی وهو الجوهر فلا يجد كليا يوافق في شيء فيقف العقل هناك عن التجريد ثم أن الإنسان لما خلق الله الفكر الذي به يدرك العلوم والصنائع وكان العلم ما تصور الماهيات ويعني به إدراك ساذج من غير حكم معه واما تصديقا أي حكما بثبوت أمرا لا مرفصا يسعى الفكر في تحصيل المطلوبات اما بأن تجمع تلك الكليات بعضها إلى بعض على جهة التآليف فتحصل صورة في الذهن كلية منطبقة على أفراد في الخارج فتكون تلك الصورة الذهنية مفيدة لمعرفة ماهية تلك الأشخاص واما بأن يحكم بأمر على أمر فيثبت له ويكون ذلك تصديقا وغاياته في الحقيقة راجعة إلى التصور لأن فائدة ذلك إذا حصل إنما هي معرفة حقائق الأشياء التي هي مقتضى العلم وهذا السعي من الفكر قد يكون بطريق صحيح وقد يكون بطريق فاسد فاقتضى ذلك تمييز الطريق الذي يسعى به الفكر في تحصيل المطالب العلمية لتمييزها الصحيح من الفاسد فكان ذلك قانون المنطق وتكلم فيه المتقدمون أول ما تكلموا به جملا ومتمفقا ولم تهذب طرقة ولم تجمع مسائله حتى ظهر في يونان أرسطو وافهذب مباحثه ورتب مسائله وفصوله وجعله أول العلوم الحكيمة وفتحها ولذلك يسمى بالمعلم الأول وكتابه المخصوص بالمنطق يسمى النص وهو يشتمل على ثمانية كتب أربعة منها في صورة القياس وأربعة في مادته وذلك أن المطالب التصديقية على أنحاء فمنها ما يكون المطلوب فيه اليقين بطبعه ومنها ما يكون



المطلوب فيه الظن وهو على مراتب فينظر في القياس من حيث المطلوب الذي يفيد وما ينبغي أن تكون مقدماته بذلك الاعتبار ومن أي جنس يكون من العلم أو من الظن وقد ينظر في القياس لا باعتبار مطلوب مخصوص بل من جهة إنتاجه خاصة ويقال للنظر الأول أنه من حيث المادة ونعني به المادة المنتجة للمطلوب بخصوص من يقين أو ظن ويقال للنظر الثاني أنه من حيث الصورة وإنتاج القياس على الإطلاق فكانت لذلك كتب المنطق ثمانية الأول في الأجناس العالية التي ينتهي إليها تجريد المحسوسات وهي التي ليس فوقها جنس ويسمى كتاب المقولات والثاني في القضايا التصديقية وأصنافها ويسمى كتاب العبارة والثالث في القياس وصورة إنتاجه على الإطلاق ويسمى كتاب القياس وهذا آخر النظر من حيث الصورة ثم الرابع كتاب البرهان وهو النظر في القياس المنتج لليقين وكيف يجب أن تكون مقدماته يقينية وتختص بشروط أخرى لإفادة اليقين مذكورة فيه مثل كونها ذاتية وأولية وغير ذلك وفي هذا الكتاب الكلام في المعارف والحدود المطلوب فيها إنما هو اليقين لوجوب المطابقة بين الحدود والحدود لا تحتل غيرهما فلذلك اختصت عند المتقدمين بهذا الكتاب والخامس كتاب الجدل وهو القياس المفيد قطع المشاغب وإفحام الخصم وما يجب أن يستعمل فيه من المشهورات ويختص أيضاً من جهة إفادته لهذا الغرض بشروط أخرى من حيث إفادته لهذا الغرض وهي مذكورة هناك وفي هذا الكتاب يذكر المواضع التي يستنبط منها صاحب القياس قياسه وفيه عكوس القضايا والسادس كتاب السفسطة وهو القياس الذي يفيد خلاف الحق ويغالط به المناظر صاحبه وهو فاسد وهذا إنما كتب ليعرف به القياس المغالطي فيحذر منه والسابع كتاب الخطابة وهو القياس المفيد ترغيب الجمهور وحملهم على المراد منهم وما يجب أن يستعمل في ذلك من المقالات والثامن كتاب الشعر وهو القياس الذي يفيد التمثيل والتشبيه خاصة للإقبال على الشيء أو النفرة عنه وما يجب أن يستعمل فيه من القضايا التخيلية هذه هي كتب المنطق الثمانية عند المتقدمين ثم أن حكماء اليونانيين بعد أن تهذبت الصناعة ورتبت رأوا أنه لا بد من الكلام في الكليات الخمس المفيدة للتصور فاستدركوا فيها مقالة تختص بها مقدمة بين يدي الفن فصارت تسعا وترجمت كلها في الملة الإسلامية وكتبها وتداولها فلاسفة الإسلام بالشرح والتلخيص كما فعله الفارابي وابن سينا ثم ابن رشد من فلاسفة الأندلس ولا بن سينا كتاب الشفاء استوعب فيه علوم الفلسفة السبعة كلها ثم جاء المتأخرون بغير الاصطلاح المنطق وألحقوا بالنظر في الكليات الخمس ثمرته وهي الكلام في الحدود والرسوم نقلوها من كتاب البرهان وحذفوا كتاب المقولات لأن نظر المنطق فيه بالعرض لا بالذات وألحقوا في كتاب العبارة الكلام في العكس لأنه من توابع الكلام في القضايا ببعض الوجوه ثم تكلموا في القياس من حيث إنتاجه للمطالب على العموم لا بحسب مادة وحذفوا النظر فيه بحسب المادة وهي الكتب الخمسة البرهان والجدو الخطابة والشعر والسفسطة ووربما يلم بعضهم بالسير منها المأما وأغفلوها كأن لم تكن وهي المهم المعتمد في الفن ثم تكلموا فيها وضعوه من ذلك كلاماً مستبحراً ونظروا فيه من حيث أنه فن

برأسه لا من حيث أنه آلة للعلوم فطال الكلام فيه واتسع وأول من فعل ذلك الامام غفر الدين بن الخطيب ومن بعده أفضل الدين الخونجي وعلى كتبه معتمد المشاركة لهذا العهد وله في هذه الصناعة كتاب كشف الاسرار وهو طويل واختصر فيها مختصر الموجز وهو حسن في التعليم ثم مختصر الجمل في قد رأربعة أوراق أخذ بمجامع الفن وأصوله فتداوله المتعلمون لهذا العهد فينتفعون به وهجرت كتب المتقدمين وطرقهم كأن لم تكن وهي ممتلئة من ثمرة المنطق وفائدته كما قلناه والله الهادي للصواب

### ﴿ الطبيعيات ﴾ ١٨

وهو علم يبحث عن الجسم من جهة ما يلحقه من الحركة والسكون فينظر في الأجسام السماوية والعنصرية وما يتولد عنها من حيوان وانسان ونبات ومعدن وما يتكون في الأرض من العيون والزلازل وفي الجو من السحاب والبخار والرعد والبرق والصواعق وغير ذلك وفي مبدأ الحركة للأجسام وهو النفس على تنوعها في الانسان والحيوان والنبات وكتب أرسطوفيه موجودة بين أيدي الناس ترجمت مع ما ترجم من علوم الفلسفة أيام المأمون وألف الناس على حدودها وأوعب من ألف في ذلك ابن سينا في كتاب الشفاء جمع فيه العلوم السبعة للفلاسفة كما قدمنا ثم لخصه في كتاب النجاة وفي كتاب الاشارات وكأنه يخالف أرسطو في الكثير من مسائلها ويقول برأيه فيها وأما ابن رشد فلخص كتب ارسطو وشرحها متبعاله غير مخالفه وألف الناس في ذلك كثيرا لكن هذه هي المشهورة لهذا العهد والمعتبرة في الصناعة ولأهل المشرق عناية بكتاب الاشارات لابن سينا وللامام ابن الخطيب عليه شرح حسن وكذا الآمدى وشرحه أيضا نصير الدين الطوسي المعروف بخواجه من أهل المشرق وبحث مع الامام في كثير من مسائله فأوفى على أنظاره وبحوثه وفوق كل ذي علم عليم والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم

### ﴿ علم الطب ﴾ ١٩

ومن فروع الطبيعيات صناعة الطب وهي صناعة تنظر في بدن الانسان من حيث يمرض ويصح فيحاول صاحبها حفظ الصحة وبره المرض بالأدوية والأغذية بعد أن يتبين المرض الذي يخص كل عضو من أعضاء البدن وأسباب تلك الأمراض التي تنشأ عنها وما لكل مرض من الأدوية مستدلين على ذلك بأمزجة الأدوية وقواها على المرض بالعلامات المؤذنة بنضجه وقبوله الدواء أولا في السجية والفضلات والنبض محاذين لذلك قوة الطبيعة فانها المدبرة في حالتي الصحة والمرض وانما الطبيب يحاذيها ويعينها بعض الشيء بحسب ما تقتضيه طبيعة المادة والفصل والسن ويسمى العلم الجامع لهذا كله علم الطب وربما أفردوا بعض الأعضاء بالكلام وجعلوه علما خاصا كالعين وعللها وأكحها وكذلك ألحقوا بالفن من منافع الأعضاء ومعناها المنفعة التي لأجلها خلق كل عضو من أعضاء البدن الحيواني وإن لم يكن

ذلك من موضوع علم الطب الا أنهم جعلوه من لواحقه وتوابعه وامام هذه الصناعة التي ترجمت كتبه فيها من الاقدمين جالينوس يقال انه كان معاصر العيسى عليه السلام ويقال انه مات بصقلية في سبيل تغلب ومطروعة اغتراب وتأليفه فيها هي الامهات التي اقتدى بها جميع الأطباء بعده وكان في الاسلام في هذه الصناعة أئمة جاؤا من وراء الغاية مثل الرازي والمجوسى وابن سينا ومن أهل الاندلس أيضا كثير وأشهرهم ابن زهر وهو لهذا العهد في المدن الاسلامية كأنها نقصت لوقوف العمران وتناقصه وهي من الصنائع التي لا يستدعيها الحضارة والترّف كما نبينه بعد

﴿ فصل ﴾ وللبادية من أهل العمران طب ينونونه في غالب الأمر على تجربة قاصرة على بعض الأشخاص متوارثا عن مشايخ الحنّ وعجائزه وربما يصحّ منه البعض الا أنه ليس على قانون طبيعي ولا على موافقة المزاج وكان عند العرب من هذا الطب كثير وكان فيهم أطباء معروفون كالحرث بن كلدة وغيره والطبّ النقول في الشرعيات من هذا القبيل وليس من الوحي في شيء وانما هو أمر كان عاديا للعرب ووقع في ذكر أحوال النبي صلى الله عليه وسلم من نوع ذكر أحواله التي هي عادة وجيلة لا من جهة أن ذلك مشروع على ذلك النحوم من العمل فانه صلى الله عليه وسلم انما بعث ليعلّمنا الشرائع ولم يبعث لتعريف الطب ولا غيره من العاديات وقد وقع له في شأن تلقيح النخل ما وقع فقال أنتم أعلم بأمر ديننا كم فلا ينبغي أن يحمل شيء من الطب الذي وقع في الأحاديث الصحيحة المنقولة على أنه مشروع فليس هناك ما يدل عليه اللهم الا إذا استعمل على جهة التبرك والصدق العقد الايمانى فيكون له أثر عظيم في النفع وليس ذلك في الطب المزاجى وانما هو من آثار الكلمة الايمانية كما وقع في مداوات المبطلون بالعدل والله الهادى الى الصواب لارب سواه

## ٢٠ \* الفلاحة \*

هذه الصناعة من فروع الطبيعيات وهي النظر في النبات من حيث تنمية ونشؤه بالنّقي والعلاج وتعهده بمثل ذلك وكان للمتقدمين بها عناية كثيرة وكان النظر فيها عندهم عاما في النبات من جهة غرسه وتنميته ومن جهة خواصه وروحانيته ومشاكلته الروحانيات الكواكب والهيكل المستعمل ذلك كله في باب السحر فعظمت عنايتهم به لاجل ذلك وترجم من كتب اليونانيين كتاب الفلاحة النبطية منسوبة للعلماء النبط مشتملة من ذلك على علم كبير ولما نظر أهل الملّة فيها اشتمل عليه هذا الكتاب وكان باب السحر مسدودا والنظر فيه محظورا فاقصر امره على الكلام في النبات من جهة غرسه وعلاجه وما يعرض له في ذلك وحذفوا الكلام في الفن الآخر منه جملة واختصر ابن العوام كتاب الفلاحة النبطية على هذا المنهاج وبقي الفن الآخر منه مغفلا نقل منه مسلمة في كتبه السحرية أمهات من مسائله كما ذكره عند الكلام على السحر إن شاء الله تعالى وكتب المتأخرين في الفلاحة كثيرة ولا يعدون فيها الكلام في الغراس والعلاج وحفظ النبات من حوائجه وعوائقه وما يعرض في ذلك كله وهي موجودة



وهو علم ينظر في الوجود المطلق فأولا في الامور العامة للجسمانيات والروحانيات من الماهيات والوحدة والكثرة والوجوب والامكان وغير ذلك ثم ينظر في مبادئ الموجودات وأنها روحانيات ثم في كيفية صدور الموجودات عنها ومرتباتها في أحوال النفس بعدمفارقة الأجسام وعودها الى المبدأ وهو عندهم علم شريف يزعمون أنه يوقفهم على معرفة الوجود على ما هو عليه وأن ذلك عين السعادة في زعمهم وسيأتي الرد عليهم وهو تال للطبيعات في ترتيبهم ولذلك يسمونه علم ما وراء الطبيعة وكتب المعلم الاول فيه موجوده بين أيدي الناس ولخصه بن سينا في كتاب الشفاء والنجا وكذلك لخصها بن رشد من حكماء الاندلس ولما وضع المتأخرون في علوم القوم ودونوا فيها ورد عليهم الغزالي ما رد منها ثم خلط المتأخرون من المتكلمين مسائل علم الكلام بمسائل الفلسفة لعروضها في مباحثهم وتشابه موضوع علم الكلام بموضوع الالهيات ومسائله بمسائلها فصارت كأنها فن واحد ثم غيروا ترتيب الحكماء في مسائل الطبيعات والالهيات وخلطوها فنا واحدا قدموا الكلام في الامور العامة ثم اتبعوه بالجسمانيات وتوابعها ثم بالروحانيات وتوابعها الى آخر العلم كما فعله الامام بن الخطيب في المباحث الشرقية وجميع من بعده من علماء الكلام وصار علم الكلام مختلطا بمسائل الحكمة وكتبه محشوة بها كان الغرض من موضوعها ومسائلها احد والتبس ذلك على الناس وهو غير صواب لأن مسائل علم الكلام إنما هي عقائد متلقاة من الشريعة كما نقلها السلف من غير رجوع فيها الى العقل ولا تعويل عليه بمعنى انها لا تثبت إلا به فان العقل معزول عن الشرع وأنظاره وما تحدث فيه المتكلمون من اقامة الحجج فليس بحثا عن الحق فيها فالتمليل بالدليل بعد ان لم يكن معلوما هو شأن الفلسفة بل إنما هو التماس حجة عقلية تعضد عقائد الايمان ومذاهب السلف فيها وتدافع شبه أهل البدع عنها الذين زعموا أن مداركهم فيها عقلية وذلك بعد أن تفرض صحيحة بالأدلة العقلية كما تلقاها السلف واعتقدوها وكثير ما بين المقامين وذلك أن مدارك صاحب الشريعة أوسع لاتساع نطاقها عن مدارك الأنظار العقلية فهي فوقها ومحيط بها لاستمدادها من الأنوار الالهية فلا تدخل تحت قانون النظر الضعيف والمدارك المحاط بها فاذا هداها الشارع إلى مدرك فينبغي أن تقدمه على مداركنا وثق به دونها ولا ننظر في تصحيحه بمدارك العقل ولو عارضه بل نعتمد ما أمرنا به اعتقادا وعلما ونسكت عما لم نفهم من ذلك ونفوضه إلى الشارع ونعزل العقل عنه والمتكلمون اعادوا علم إلى ذلك كلام أهل الاحاد في معارضات العقائد السلفية بالبدع النظرية فاحتاجوا إلى الرد عليهم من جنس معارضتهم واستدعى ذلك الحجج النظرية ومحاذاة العقائد السلفية بها وأما النظر في مسائل الطبيعات والالهيات بالتصحيح والبطلان فليس من موضوع علم الكلام ولا من جنس أنظار المتكلمين فاعلم ذلك لتمييزه بين الفنين فانها مختلطان عند المتأخرين في الوضع والتأليف والحق مغايرة كل منهما لصاحبه بالموضوع والمسائل وإنما جاء الالتباس من اتحاد المطالب عند الاستدلال وصار احتجاج أهل

الكلام كأنه انشاء لطلب الاعتداد بالدليل وليس كذلك بل إنما هو رد على الملحدين والمطلوب مفروض  
الصدق معلومه وكذا جاء المتأخرون من غلاة المتصوفة المتكلمين بالمواجد أيضاً غلطوا مسائل الفنين  
بفهم وجعلوا الكلام واحداً فيها كلها مثل كلامهم في النبوات والاتحاد والحلول والوحدة وغير ذلك  
والمدارك في هذه الفنون الثلاثة متغايرة مختلفة وأبعدها من جنس الفنون والعلوم مدارك المتصوفة لأنهم  
يدعون فيها الوجدان ويفرون عن الدليل والوجدان بعيد عن المدارك العلمية وأبحاثها وتوابعها كما بيناه  
ونبينه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم والله أعلم بالصواب

## ٢٢ \* علوم السحر والطلسمات \*

هي علوم بكيفية استعدادات تقتدر النفوس البشرية بها على التأثيرات في عالم العناصر إما بغير معين أو  
بمعين من الأمور السماوية والأول هو السحر والثاني هو الطلسمات ولما كانت هذه العلوم مهجورة عند  
الشرايع لما فيها من الضرر ولما يشترط فيها من الوجهة إلى غير الله من كوكب أو غيره كانت كتبها كالمفقود  
بين الناس إلا ما وجد في كتب الأمم الأقدمين فيما قبل نبوة موسى عليه السلام مثل النبط والكلدانيين  
فإن جميع من تقدمه من الأنبياء لم يشرعوا الشرائع ولا جاؤا بالأحكام إنما كانت كتبهم مواظباً وتوحيداً  
لله وتذكيراً بالجنة والنار وكانت هذه العلوم في أهل بابل من السريانيين والكلدانيين وفي أهل مصر  
من القبط وغيرهم وكان لهم فيها التأليف والآثار ولم يترجم لنا من كتبهم فيها إلا القليل مثل الفلاحة النبطية  
من أوضاع أهل بابل فأخذ الناس منها هذا العلم وتفننوا فيه ووضعوا بعد ذلك الأوضاع مثل مصاحف  
الكواكب السبعة وكتاب طمطم الهندى في صور الدرج والكواكب وغيرهم ثم ظهر بالمشرق جابر بن  
حيان كبير السحرة في هذه الملة فتصفح كتب القوم واستخرج الصناعة وغاص على زبدتها واستخرجها  
ووضع فيها غيرها من التأليف وأكثر الكلام فيها وفي صناعة السيمياء لأنهم من توابعها لأن حالة  
الأجسام النوعية من صورة إلى أخرى إنما يكون بالقوة النفسية لا بالصناعة العلمية فهو من قبيل السحر  
كما ذكره في موضعه \* ثم جاء مسلمة بن أحمد المجريطى إمام أهل الأندلس في التعاليم والسحريات  
فلخص جميع تلك الكتب وهذبها وجمع طرقها في كتابه الذى سماه غاية الحكيم ولم يكتب أحد في هذا  
العلم بعده \* ولتقدم هنا مقدمة يتبين بها حقيقة السحر وذلك أن النفوس البشرية وإن كانت واحدة  
بالنوع فهي مختلفة بالخواص وهي أصناف كل صنف مختص بخاصية واحدة بالنوع لا توجد في الصنف  
الآخر وصارت تلك الخواص فطرة وجبلة لصنفها فنفس الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لها خاصية  
تستعدها للمعرفة الربانية ومخاطبة الملائكة عليهم السلام عن الله سبحانه وتعالى كما مروا ويتبع ذلك من  
التأثير في الأرواح واستجلاب روحانية الكواكب للتصرف فيها والتأثير بقوة نفسانية أو شيطانية  
فأما تأثير الأنبياء فمدد الهى وخاصية ربانية ونفوس الكهنة لها خاصية الاطلاع على المغيبات بقوى  
شيطانية وهكذا كل صنف مختص بخاصية لا توجد في الآخر والنفوس الساحرة على مراتب ثلاث يأتى

شرحها فأولها المؤثرة بالهمة فقط من غير آلة ولا معين وهذا هو الذي تسميه الفلاسفة السحر والثاني  
بمعين من مزاج الأفلاك أو العناصر أو خواص الأعداد ويسمونه الطلبات وهو أضعف رتبة من  
الأول والثالث تأثير القوى التخيلية يعتمد صاحب هذا التأثير على القوى التخيلية فيتصرف فيها بنوع من  
التصرف ويلقي فيها أنواعا من الخيالات والمحاكاة صوراً عما يقصده من ذلك ثم ينزلها إلى الحس من الرأين  
بقوة نفسه المؤثرة فيه فينظر الراؤن كأنها في الخارج وليس هناك شيء من ذلك كما يحكى عن بعضهم أنه  
يرى البساتين والأنهار والقصور وليس هناك شيء من ذلك ويسمى هذا عند الفلاسفة الشعوذة أو الشعبة  
هذا تفصيل مراتبه ثم هذه الخاصة تكون في الساحر بالقوة شأن القوى البشرية كلها وإنما تخرج إلى الفعل  
بالرياضة ورياضة السحر كلها إنما تكون بالتوجه إلى الأفلاك والكواكب والعوالم العلوية والشرطيات  
بأنواع التعظيم والعبادة والخضوع والتذلل فعلى لذلك وجهه إلى غير الله وسجود له والوجهة إلى غير الله  
كفر فلهذا كان السحر كفر أو الكفر من مواده وأسبابه كآيات ولهذا اختلف الفقهاء في قتل الساحر  
هل هو لكفره السابق على فعله أم لتصرفه بالفساد وما ينشأ عنه من الفساد في الآكوان والكل حاصل منه  
ولما كانت المرتبتان الأولى من السحر لها حقيقة في الخارج والمرتبة الأخيرة الثالثة لا حقيقة لها اختلف  
العلماء في السحر هل هو حقيقة أو إنما هو تخيل فالقائلون بأن له حقيقة نظروا إلى المرتبتين الأولى  
والقائلون بأن لا حقيقة له نظروا إلى المرتبة الثالثة الأخيرة فليس بينهم اختلاف في نفس الأمر بل إنما جاء من  
قبل اشتباه هذه المراتب والله أعلم \* واعلم أن وجود السحر لا مزية فيه بين العقلاء من أجل التأثير الذي  
ذكرناه وقد نطق به القرآن قال الله تعالى ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على  
الملكين يابلس هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولان إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منها  
ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله وسحر رسول الله صلى الله عليه وسلم  
حتى كان يخيل إليه أنه يفعل الشيء ولا يفعله وجعل سحره في مشط ومشاقة وجف طلعة ودفن في بئر  
ذروان فأمر الله عز وجل عليه في المعوذتين ومن شر النفاثات في العقد قالت عائشة رضي الله عنها فكان  
لا يقرأ على عقدة من تلك العقد التي سحر فيها إلا انحلت وأما وجود السحر في أهل بابل وهم الكلدانيون من  
النبط والسريانيين فكثير ونطق به القرآن وجاءت به الأخبار وكان للسحر في بابل ومصر أزمان بعثه  
موسي عليه السلام أسواق نافقة ولهذا كانت معجزة موسى من جنس ما يدعون ويتناغون فيه وبقي من  
آثار ذلك في البرابي بصعيد مصر شوهد الدالة على ذلك ورأينا بالعيان من يصور صورة الشخص المسحور  
بخواص أشياء مقابلة لما نواه وحاوله موجوداً بالمسحور وأمثال تلك المعاني من أسماء وصفات في التأليف  
والتمييز ثم يتكلم على تلك الصورة التي أقامها مقام الشخص المسحور عينا أو معنى ثم ينقش من ريقه بعد  
اجتماعه فيه بتكرير مخارج تلك الحروف من الكلام السوء ويعقد على ذلك المعنى في سبب أعداءه لذلك  
تفاؤلاً بالعقد والالزام وأخذ العهد على من أشرك به من الجن في نقشه وفي فعله استشعاراً للعزيمة بالعزم  
ولتلك البنية والأسماء السيئة روح خبيثة تخرج منه مع النفخ متعلقة بريقه الخارج من فيه بالنفث فتتزل



عنها أرواح خبيثة ويقع عن ذلك بالمسحور ما يحاوله الساحر وشاهدنا أيضا من المتحليين للسحر وعمله من نشير الى كساء أو جلد ويتكلم عليه في سره فاذا هو مقطوع متخرق ويشير الى بطون الغنم كذلك في مراعيها بالبعج فاذا أمعاؤها ساقطة من بطونها الى الأرض وسمعنا أن بأرض الهند لهذا العهد من يشير الى إنسان في تحت قلبه ويقع ميتا وينقب عن قلبه فلا يوجد في حشاه ويشير الى الرمانة وتفتح فلا يوجد من جوبها شيء وكذلك سمعنا أن بأرض السودان وأرض الترك من يسحر السحاب فيمطر الأرض الخصوصية وكذلك رأينا من عمل الطلسمات عجائب في الأعداد المتحابة وهي رك رفد أحد العديدين مائتان وعشرون والآخر مائتان وأربعة وثمانون ومعنى المتحابة أن أجزاء كل واحد التي فيه من نصف وثلاث وربع وسدس وخمس وأمثالها إذا جمع كان مساويا للعدد الآخر صاحبه فتسمى لأجل ذلك المتحابة وتقل أصحاب الطلسمات أن لتلك الأعداد أثرا في الألفة بين المتحابين واجتماعهما إذا وضع لهما مثالان أحدهما بطالع الزهرة وهي في بيتها أو شر فيها ناظرة الى القمر نظر مودة وقبول ويجعل طالع الثاني سابع الأول ويضع على أحد التمثالين أحد العديدين والآخر على الآخر ويقصد بالآخر أكثر الذي يراد اثنتا عشرة أعنى المحبوب ما أدري الآخر كثر كمية أو الآخر كثر أجزاء فيكون لذلك من التأليف العظيم بين المتحابين ما لا يكاد ينفك أحدهما عن الآخر قاله صاحب الغاية وغيره من أئمة هذا الشأن وشهدت له التجربة وكذا طابع الأسد يسمى أيضا طابع الحصى وهو أن يرسم في قلب هند أصبع صورة أسد شائلا ذنبه عاضا على حصة قد قسمها بنصفين وبين يديه صورة حية مناسبة من رجليه الى قبالة وجهه فافرة فاها الى فيه وعلى ظهره صورة عقرب تدب ويتحين برسمه حلول الشمس بالوجه الأول أو الثالث من الأسد بشرط صلاح النيرين وسلامتهما من النحوس فاذا وجد ذلك وعثر عليه طبع في ذلك الوقت في مقدار المثقال فادونه من الذهب ونمس بعد في الزعفران معلولا بماء الورد ورفع في خرقة حرير صفراء فانهم يزعمون أن لمسكه من العز على السلاطين في مباشرتهم وخدمتهم وتسخيرهم له مالا يعبر عنه وكذلك للسلاطين فيه من القوة والعز على من تحت أيديهم ذلك أيضا أهل هذا الشأن في الغاية وغيرها وشهدت له التجربة وكذلك وفق السدس المختص بالشمس ذكروا أنه وضع عند حلول الشمس في شرفها وسلامتها من النحوس وسلامة القمر بطالع ملوكي يعتبر فيه نظر صاحب العاشر لصاحب الطالع نظر مودة وقبول ويصلح فيه ما يكون في موالي الملوك من الأدلة الشريفة ويرفع في خرقة حرير صفراء بعد أن يغمس في الطيب فرغموا أن له أثرا في صحابة الملوك وخدمتهم ومعاشرتهم وأمثال ذلك كثير وكتاب الغاية لمسلمة ابن أحمد المجر يطى هو مدونة هذه الصناعة وفيه استيفاءها وكمال مسائلها وذكرنا أن الامام الفخر بن الخطيب وضع كتابا في ذلك وسماه بالسر المكتوم وأنه بالشرق يتداوله أهله ونحن لم نقف عليه والامام لم يكن من أئمة هذا الشأن فيما نظن ولعل الأئمة بخلاف ذلك وبالمغرب صنف من هؤلاء المتحليين لهذه الاعمال السحرية يعرفون بالعاجين وهم الذين ذكرت أولا أنهم يشيرون الى الكساء أو الجلد فيتخرق ويشيرون الى بطون الغنم بالبعج فتبعج ويسمى أحدهم لهذا العهد باسم البعاج لأن أكثر

ما ينتحل من السحر بعج الانعام يرهب بذلك أهلها يعطوه من فضلها وهم مستترون بذلك في الغاية خوفا على أنفسهم من الحكم لقيت منهم جماعة وشاهدت من أفعالهم هذه بذلك وأخبروني أن لهم وجهة ورياضة خاصة بدعوات كفرية واشراك الروحانيات الجن والكواكب سطرت فيها صحيفة عندهم تسمى الخزيرية يتدارسونها وأن هذه الرياضة والوجهة يصلون الى حصول هذه الأفعال لهم وأن التأثير الذي لهم انما هو فيما سوي الانسان الحر من المتاع والحيوان والرقيق ويعبرون عن ذلك بقولهم انما نفعل فيما تمشى فيه الدرام أي ما يملك ويبيع ويشترى من سائر الممتلكات هذا ما زعموا وسألت بعضهم فأخبروني به وأما أفعالهم فظاهرة موجودة وقفا على الكثير منها وعابتهما من غير رية في ذلك هذا شأن السحر والطلسمات وآثارها في العالم فاما الفلاسفة ففرقوا بين السحر والطلسمات بعد أن أثبتوا أنهم جميعا أثر للنفس الانسانية واستدلوا على وجود الأثر للنفس الانسانية بان لها آثارا في بدنها على غير المجري الطبيعي وأسبابه الجسمانية بل آثار عارضة من كفيات الأرواح تارة كالسخونة الحادثة عن الفرح والسرور ومن جهة التصورات النفسانية أخرى كالذي يقع من قبل النوم فان الماشي على حرف حائط أو على جبل منتصب اذا قوى عنده نوم السقوط سقط بلا شك ولهذا تجد كثير من الناس يعودون أنفسهم ذلك حتى يذهب عنهم هذا الوهم فتجدهم يشنون على حرف الحائط والجبل المنتصب ولا يخافون السقوط فثبت أن ذلك من آثار النفس الانسانية وتصورها للسقوط من أجل الوهم وإذا كان ذلك أثرا للنفس في بدنها من غير الاسباب الجسمانية الطبيعية فجائز أن يكون لها مثل هذا الأثر في غير بدنها اذ نسبتها الى الأبدان في ذلك النوع من التأثير واحدة لانها غير حالة في البدن ولا منطبعة فيه فثبت أنها مؤثرة في سائر الاجسام وأما التفرقة عندهم بين السحر والطلسمات فهو أن السحر لا يحتاج الساحر فيه الى معين وصاحب الطلسمات يستعين بروحانيات الكواكب وأسرار الأعداد وخواص الموجودات وأوضاع الفلك المؤثرة في عالم العناصر كما يقوله المنجمون ويقولون السحر اتحاد روح بروح والطلسم اتحاد روح بجسم ومعناه عندهم ربط الطبائع العلوية السماوية بالطبائع السفلية والطبائع العلوية هي روحانيات الكواكب ولذلك يستعين صاحبه في غالب الأمر بالنجامة والساحر عندهم غير مكتسب لسحره بل هو مفظور عندهم على تلك الجبلية المختصة بذلك النوع من التأثير والفرق عندهم بين المعجزة والسحر أن المعجزة قوة الهية تبعث في النفس ذلك التأثير فهو مؤيد بروح الله على فعله ذلك والساحر انما يفعل ذلك من عند نفسه وبقوته النفسانية وبامداد الشياطين في بعض الأحوال فينبغي الفرق في المعقولة والحقيقة والذات في نفس الأمر وانما نستدل نحن على التفرقة بالعلامات الظاهرة وهي وجود المعجزة لصاحب الخير وفي مقاصد الخير وللنفوس المتمخضة للخير والتحدي بها على دعوى النبوة والسحر انما يوجب جد لصاحب الشر وفي أفعال الشر في الغالب من التفريق بين الزوجين وضرر الأعداء وأمثال ذلك وللنفوس المتمخضة للشر هذا هو الفرق بينهما عند الحكماء الالهيين وقد يوجب جد لبعض المنصوفة وأصحاب الكرامات تأثيرا أيضا في أحوال العالم وليس معدودا من جنس السحر وانما هو بالامداد الالهي لان طريقتهم ونحلتهم من آثار النبوة وتوابعها

ولهم في المدد الالهي حظ على قدر حالهم وإيمانهم. وتمسكهم بكلمة الله وإذا اقتدر أحد منهم على أفعال الشر فلا يأتها لأنه متقيد فيما يأتيه ويذره للأمر الالهي فما لا يقع لهم فيه الاذن لا يأتونه بوجه ومن أتاه منهم فقد عدل عن طريق الحق وربما سلب حاله ولما كانت المعجزة بامداد روح الله والقوى الالهية فلذلك لا يعارضها شيء من السحر وانظر شأن سحرة فرعون مع موسى في معجزة العصا كيف تلقفت ما كانوا يأفكون وذهب سحرهم واضمححل كأن لم يكن وكذلك لما أنزل على النبي صلى الله عليه وسلم في المعوذتين ومن شر النفاثات في العقد قالت عائشة رضي الله عنها فكان لا يقرؤها على عقدة من العقد التي سحر فيها الا انحلت فالسحر لا يثبت مع اسم الله وذكره وقد نقل المؤرخون أن زركش كاويان وهي راية كسرى كان فيها الوفق المثني العدي منسوجا بالذهب في أوضاع فلكية رصدت لذلك الوفق ووجدت الراية يوم قتل رستم بالقادسية واقعة على الأرض بعد انتهزام أهل فارس وشتاتهم وهو فيما نزعهم أهل الطلسمات والافاق مخصوص بالغلب في الحروب وأن الراية التي يكون فيها أو معها لا تنهزم أصلاً إلا أن هذه عارضها المدد الالهي من إيمان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وتمسكهم بكلمة الله فأنحل معها كل عقد سحري ولم يثبت وبطل ما كانوا يعملون وأما الشريعة فلم تفرق بين السحر والطلسمات وجعلته كله باباً واحداً محظوراً إلا أن الأفعال إنما أباح لنا الشارع منها ما يهتدي ديننا الذي فيه صلاح آخرتنا وفي معاشنا الذي فيه صلاح ديننا وما لا يهتدي في شيء منها فإن كان فيه ضرر أو نوع ضرر كالسحر الحاصل ضرره بالوقوع ويلحق به الطلسمات لأن أثرهما واحد كالنجامة التي فيها نوع ضرر باعتقاد التأثير فتفسد العقيدة اليمانية برد الأمور إلى غير الله فيكون حينئذ ذلك الفعل محظوراً على نسبته في الضرر وإن لم يكن معها علينا ولا فيه ضرر فلا أقل من أن تركها قربة إلى الله فإن من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه فجعلت الشريعة باب السحر والطلسمات والشعوذة باباً واحداً ما فيها من الضرر وخسته بالخطر والتحريم وأما الفرق عندهم بين المعجزة والسحر فالنبي ذكره المتكلمون أنه راجع إلى التحدي وهو دعوى وقوع المعجزة على وفق ما ادعاه قائلوا والساحر مصروف عن مثل هذا التحدي فلا يقع منه ووقوع المعجزة على وفق دعوى الكاذب غير مقدور لأن دلالة المعجزة على الصدق عقلية لأن صفة نفسها التصديق فلو وقعت مع الكاذب باطلاً وأما الحكماء فالفرق بينهما عندهم كذا ذكرناه فرق ما بين الخير والشر في نهاية الطرفين فالساحر لا يصدر منه الخير ولا يستعمل في أسباب الخير وصاحب المعجزة لا يصدر منه الشر ولا يستعمل في أسباب الشر وكأنهما على طرفي النقيض في أصل فطرتهما والله يهدي من يشاء وهو القوي العزيز لا رب سواه

﴿فصل﴾ ومن قيل هذه التأثيرات النفسانية الاصابة بالعين وهو تأثير من نفس المعيان عند ما يستحسن بعينه مدركاً من الذوات أو الأحوال ويفرط في استحسانه وينشأ عن ذلك الاستحسان حينئذ أنه يروم معه سلب ذلك الشيء عن انصف به فيؤثر فساداً وهو جيلة فطرية أعني هذه الاصابة بالعين والفرق بينها وبين التأثيرات وإن كان منها ما لا يكتسب أن صدور هاراجع إلى اختيار فاعلمها



والفطرى منها قوة صدورها لانفس صدورها ولهذا قالوا القاتل بحر أو بالكرامة يقتل والقاتل بالعين لا يقتل وماذا لك الا لا نه ليس بما يريد ويقصده أو يتركه وإنما هو مجبور في صدوره عنه والله أعلم بما في الغيوب ومطلع على مافي السرائر

### ٢٣ \* علم أسرار الحروف \*

وهو المسمى لهذا العهد بالسيميا نقل وضعه من الطلسمات إليه في اصطلاح أهل التصرف من المتصوفة فاستعمل استعمال العام في الخاص وحدث هذا العلم في الملة بعد صدر منها وعند ظهور الغلاة من المتصوفة وجنوحهم إلى كشف حجاب الحس وظهور الخوارق على أيديهم والتصرفات في عالم العناصر وتدوين الكتب والاصطلاحات ومزاعمهم في تنزل الوجود عن الواحد وتربيه وزعموا أن الكمال الاسمائي مظاهره أرواح الافلاك والكواكب وأن طبائع الحروف وأسرارها سارية في الاسماء فهي سارية في الاء كوان على هذا النظام والاء كوان من لدن الابداع الاول تنتقل في أطواره وتعرب عن أسرارها فحدث لذلك علم أسرار الحروف وهو من تفاريع علم السيمياء لا يوقف على موضوعه ولا تحاط بالعدد مسائله تعددت فيه تأليف البونى وابن العربى وغيرهما ممن اتبع آثارها وحاصله عندهم وثمرته تصرف النفوس الربانية في عالم الطبيعة بالاسماء الحسنى والكلمات الالهية الناشئة عن الحروف المحيطة بالاسرار السارية في الاء كوان ثم اختلفوا في سر التصرف الذي في الحروف بما هو فمهم من جعله للمزاج الذي فيه وقسم الحروف بقسمة الطبائع الى أربعة أصناف كما للعناصر واختصت كل طبيعة بصنف من الحروف يقع التصرف في طبيعتها فعلا وانفعالا بذلك الصنف فتنوعت الحروف بقانون صناعي يسمونه التكسير الى نارية وهوائية ومائية وترابية على حسب تنوع العناصر فالاء للتراب والباء للهواء والجيم للماء والذال للتراب ثم ترجع كذلك على التوال من الحروف والعناصر الى أن تنفذ تعين لعنصر النار حروف سبعة الاء والهاء والطاء والميم والفاء والسين والذال وتعين لعنصر الهواء سبعة أيضا الباء والواو والياء والنون والضاد والتاء والظاء وتعين لعنصر الماء أيضا سبعة الجيم والزاي والكاف والصاد والقاف والثاء والغين وتعين لعنصر التراب أيضا سبعة الدال والحاء واللام والعين والراء والحاء والشين والحروف النارية لدفع الأمراض الباردة ولضعفة قوة الحرارة حيث تطلب مضاعفتها اما حسا أو حكما كما في تضعيف قوى المريح في الحروب والقتل والفتك والمائية أيضا لدفع الأمراض الحارة من حميات وغيرها ولتضعيف القوى الباردة - تطلب مضاعفتها حسا أو حكما كتضعيف قوى القمر وأمثال ذلك ومنهم من جعل

ترتيب طبائع الحروف عند المغاربة غير ترتيب المشاركة ومنهم من الغزالي كما أن الجمل عندهم مخالف في ستة أحرف فان الصاد عندهم بستين والصاد تسعين والسين المهمة بثلاثمائة والطاء بأسمائة والغين بتسعمائة والشين بألفاه قاله نصر المهوريني

سر التصرف الذي في الحروف للنسبة العددية فان حروف أبجد دالة على أعدادها المتعارفة ووضعا وطبعاً  
 فينهم من أجل تناسب الأعداد تناسب في نفسها أيضاً كما بين الباء والكاف والراء لئلا تلتها كلها على  
 الاثنين كل في مرتبته فالباء على اثنين في مرتبة الآحاد والكاف على اثنين في مرتبة العشرات والراء  
 على اثنين في مرتبة المئين وكذلك بينها وبين الدال والميم والتاء لدلالاتها على الأربعة وبين الأربعة  
 والاثنين نسبة الضعف وخرج للأسماء أوافق كما للأعداد يختص كل صنف من الحروف بصنف من  
 الأوافق الذي يناسبه من حيث عدد الشكل أو عدد الحروف وامتزج التصرف من السر الحرفي والسر  
 العددي لأجل التناسب الذي بينهما فأسر التناسب الذي بين هذه الحروف وأمزجة الطبائع أو بين  
 الحروف والأعداد فأمر عسر على الفهم إذ ليس من قبيل العلوم والقياسات وإنما مستند في الذوق  
 والكشف قال البوني لا نظن أن سر الحروف مما يتوصل إليه بالقياس العقلي وإنما هو بطريق المشاهدة  
 والتوفيق الإلهي وأما التصرف في عالم الطبيعة بهذه الحروف والأسماء المركبة فيها وتأثير الأكوان  
 عن ذلك فأمر لا ينكر لثبوته عن كثير منهم تواتراً وقد يظن أن تصرف هؤلاء وتصرف أصحاب  
 الطلسمات واحد وليس كذلك فان حقيقة الطلسم وتأثيره على ما حققه أهله أنه قوى روحانية من جوهر  
 القهر تفعل فيما له ركب فعل عليه وقهر بأسرار فلكية ونسب عديدة ونحورات جالبات لروحانية ذلك  
 الطلسم مشدودة فيه بالهمة فائدتها ربط الطبائع العلوية بالطبائع السفلية وهو عندهم كالحجارة المركبة  
 من هوائية وأرضية ومائية ونارية حاصلة في جملتها تحصيل وتصرف ما حصلت فيه إلى ذاتها وتقلبه  
 إلى صورتها وكذلك الأكسير للأجسام المعدنية كالحجارة تقلب المعدن الذي تسرى فيه إلى نفسها بالاحالة  
 ولذلك يقولون موضوع الكيمياء جسد في جسد لأن الأكسير أجزاءه كلها جسدانية ويقولون  
 موضوع الطلسم روح في جسد لأنه ربط الطبائع العلوية بالطبائع السفلية والطبائع السفلية جسد والطبائع  
 العلوية روحانية وتحقيق الفرق بين تصرف أهل الطلسمات وأهل الأسماء بعد أن تعلم أن التصرف في عالم  
 الطبيعة كله إنما هو للنفس الإنسانية والهمم البشرية لأن النفس الإنسانية محيطة بالطبيعة وحكمة عليها  
 بالذات إلا أن تصرف أهل الطلسمات إنما هو في استئزال روحانية الأفلاك وربطها بالصور أو بالنسب  
 العددية حتى يحصل من ذلك نوع مزاج يفعل الاحالة والقلب بطبيعته فعل الحجارة فيما حصلت فيه وتصرف  
 أصحاب الأسماء إنما هو بما حصل لهم بالمجاهدة والكشف من النور الإلهي والأمداد الرباني فيسخر الطبيعة  
 لذلك طائفة غير مستعصية ولا يحتاج إلى مدد من القوى الملكية ولا غيرها لأن مدده أعلى منها ويحتاج  
 أهل الطلسمات إلى قليل من الرياضة تفيد النفس قوة على استئزال روحانية الأفلاك وأهون بها وجهة  
 ورياضة بخلاف أهل الأسماء فان رياضتهم هي الرياضة الكبرى وليست لقصد التصرف في الأكوان إذ هو  
 حجاب وإنما التصرف حاصل لهم بالعرض كرامة من كرامات الله لهم قان خلاصاحب الأسماء عن معرفة  
 أسرار الله وحقائق المكوت الذي هو نتيجة المشاهدة والكشف واقتصر على مناسبات الأسماء  
 وطبائع الحروف والكلمات وتصرف بها من هذه الحيثية وهؤلاء هم أهل السيمياء في المشهور كان اذا

لا فرق بينه وبين صاحب الطلسمات بل صاحب الطلسمات أوثق منه لأنه يرجع إلى أصول طبيعية علمية وقوانين مرتبة وأما صاحب أسرار الأسماء إذا فاته الكشف الذي يطلع به على حقائق الكلمات وآثار المناسبات بفوات الخالص في الوجهة وليس له في العلوم الاصطلاحية قانون برهاني يعول عليه فيكون حاله أضعف رتبة وقديم ج صاحب الأسماء قوى الكلمات والأسماء بقوى الكواكب فيعين لذلك الأسماء الحسنى أو ما يرسم من أوقافها بل ولسائر الأسماء أوقافا تكون من حظوظ الكواكب الذي يناسب ذلك الاسم كما فعله البونى في كتابه الذى سماه الأسماء وهذه المناسبة عندهم هي من لدن الحضرة العمانية وهى برزخية الكمال الأسماء وإنما تنزل تفصيلها في الحقائق على ما هى عليه من المناسبة وإثبات هذه المناسبة عندهم إنما هو بحكم المشاهدة فإذا خلا صاحب الأسماء عن تلك المشاهدة وتلقى تلك المناسبة تقليدا كان عمله بمثابة عمل صاحب الطلسم بل هو أوثق منه كما قلناه وكذلك قديم ج أيضا صاحب الطلسمات عمله وقوى كواكبه بقوى الدعوات المؤلفة من الكلمات المخصوصة لمناسبة بين الكلمات والكواكب إلا أن مناسبة الكلمات عندهم ليست كما هى عند أصحاب الأسماء من الإطلاع في حال المشاهدة وإنما يرجع إلى ما اقتضته أصول طريقتهم السحرية من اقتسام الكواكب لجميع ما في عالم المكونات من جواهر وأعراض وذوات ومعان والحروف والأسماء من جملة ما فيه فلكل واحد من الكواكب قسم منها يخصه ويبنون على ذلك مباني غريبة منكورة من تقسيم سور القرآن وآيه على هذا النحو كما فعله مسامة الجريطي في الغاية والظاهر من حال البونى في أتماطه أنه اعتبر طريقتهم فان تلك الأتماط إذا تصفحتها وتصفحت الدعوات التى تضمنتها وتقسيمها على ساعات الكواكب السبعة ثم وقفت على الغاية وتصفحت قيامات الكواكب التى فيها وهى الدعوات التى تختص بكل كوكب يسمونها قيامات الكواكب أى الدعوة التى يقيم له بها شهادته ذلك إما بأنه من مادتها أو بان التناسب الذى كان في أصل الابداع وبرزخ العلم قضى بذلك كله وما أوتيت من العلم الا قليلا وليس كل ما حرمه الشارع من العلوم بمنكر الثبوت فقد ثبت أن السحر حرق مع حظره لكن حسبنا من العلم ما علمنا \* ومن فروع علم السيمياء عندهم استخراج الأجوبة من الأسئلة \* بارتباطات بين الكلمات حرفية يوهمون أنها أصل في معرفة ما يحاولون علمه من الكائنات الاستقبالية وانما هي شبه المعاينة والمسائل السائلة ولهم في ذلك كلام كثير من أدعية وأعجبه زائرة العالم السبقي وقد تقدم ذكرها وبنين هنا ما ذكروه في كيفية العمل بتلك الزائرة بدائرتها وجدولها المكتوب حولها ثم تكشف عن الحق فيها وأنها ليست من الغيب وانما هي مطابقة بين مسألة وجوابها في الافادة فقط وقد أشرنا الى ذلك من قبل وليس عندنا رواية يعول عليها في صحة هذه القصيدة الا أننا نحرينا أصح النسخ منها في ظاهر الأمر والله الموفق بمنه وهي هذه

يقول سبتي ومحمد ربه \* مصل على هاد الى الناس أرسلنا

محمد المبعوث خاتم الانبياء \* ويرضى عن الصجب ومن لم تلا



ألا هذه زايرة العالم الذي \* تراه بحكم وبالعقل قد حلا  
 فمن أجكم الوضع فيحكم جسمه \* ويدرك أحكاما تدبرها العلا  
 ومن أجكم الربط فيدرك قوة \* ويدرك للتقوى وللكل حلا  
 ومن أجكم التصريف يحكم سره \* ويعقل نفسه وصح له الولا  
 وفي عالم الامر تراه محققا \* وهذا مقام من بالأذكار كمالا  
 فهذه سرائر عليكم بكنمها \* أقما دوائر والحاء عدلا  
 فطاء لها عرش وفيه نقوشنا \* بنظم ونثر قدره مجدولا  
 ونسب دوائر كنسبة فلكتها \* وارسم كواكبا لادراجها العلا  
 وأخرج لائوتار وأرسم حروفها \* وكور بمثله على حد من خلا  
 أقم شكل زيرم وسويوته \* وحقق بها مهم ونورم حلا  
 وحصل علوما للطباع مهندسا \* وعما لموسيقى والأرباع مثلا  
 وسو لموسيقى وعلم حروفهم \* وعلم بالآلات حقق وحصلا  
 وسود دوائر ونسب حروفها \* وعلمها أطلق والاقليم جدولا  
 أمير لنا فهو نهاية دولة \* زناية آبت وحكم لها خلا  
 وقطر لاندلس فأين لهوهم \* وجاء بنوا نصر وظفرم تلا  
 ملوك وفرسان وأهل الحكمة \* فان شئت نصهم وقطرهم حلا  
 ومهدى توحيد بتونس حكمهم \* ملوك وبالشرق بالآفاق تلا  
 واقسم على القطر وكن متفقسدا \* فان شئت بالروم فبالحرف شكلا  
 ففنش وبرشون الراء حرفهم \* وافرنسهم دل وبالطاء كمالا  
 ملوك كناوة ودلوا لقافهم \* واعراب قومنا بترقيق أعمالا  
 فهندي جاشي وسند فهرمس \* وفرس ططاري وما بعدم طلا  
 ققيصرم حاء ويزدجردم \* لكاف وقبطهم بلامة طولا  
 وعباس كلهم شريف معظم \* ولا كن تركي بذال الفعل عطلا  
 فان شئت تدقيق الملوك وكلهم \* فخم بيوتا ثم نسب جدولا  
 على حكم قانون الحروف وعلمها \* وعلم طبائعها وكله مثلا  
 فمن علم العلوم يعلم علما \* ويعلم أسرار الوجود وأكمالا  
 فيرسخ علمه ويعرف ربه \* وعلم ملاحيم بحاميم فصلا  
 وحيث أتى اسم والعروض يشقه \* فحكم الحكيم فيه قطعاً ليقثلا  
 وتأتيك أحرف فسو لضربها \* وأحرف سيوية تأتيك فيصلا

۴۳ کے ا کے و ک ح و ا ہ عم لہ ر لاسع ک ط ا ال م ن ح ع ف و ل منافۃ

أيا طالباً للطب مع علم جابر \* وعالم مقدار المقادير بالولا  
إذا شئت علم الطب لا بدتبه \* لأحكام ميزان تصادف منها  
فيشفى عليكم والا كسير عكم \* وإمزاج وضعكم بتصحیح أنجلا

وشتت إيلوش ٢٥٦٥ \* ودهنه نجـــــــــــــــــلا  
لبـــــــــــــــــه رام برجيس \* وسبعــــــــــــــــة أكــــــــــــــــلا  
لتحليل أوجاع البوارد صححوا \* كذلك والتركيب حيث تنقلا

کدمنع مهم ۳۵۵ و هج ۶ صح لهای و ملح آ او هج وی سکره لال ح مهبت مهم ۶۶ ع ی

مرح ٢٠٢٤٢ ل ك عام

﴿مطاريح الشعاعات في مواليد الملوك وبنهم﴾

وعلم مطاريح الشعاعات مشكل \* وضلع قسيها بمنطقة جلا  
ولكن في حج مقام اماننا \* ويبدو اذا عرض الكواكب عدلا  
بدال مرا كزيين طول وعرضها \* فمن أدرك المعني علام فوضلا  
مواقع ترييع وسه مسقط \* لتسديسهم تثليث بيت الذي تلا  
يزاد لترييع وهذا قياسه \* يقينا وحنوه وبالعين أعمالا  
ومن نسبة الربعين ركب شعاعك \* بصاد وضعفه وترييعه أنجلا  
اختص ص ٨٤ س وي هذا العمل هنا للملوك والقانون مطرد عمله ولم ير أعجب منه  
مقامات الملوك المقام الاول المقام الثاني في مهبهم ص عر المقام الثالث ع والمقام الرابع للح المقام الخامس  
لاى المقام السادس ع ير المقام السابع ع  
خط الاتصال والانفصال ع اه ح ط ص ح لح  
خط الاتصال ١٨١ ح  
خط الانفصال ل ح ع و ع  
الوبر للجميع وتابع الجزر التام ٣٣٣٣٣٣٣٣ ص ١٠٠ ع ع ح  
الاتصال والانفصال ع  
الواجب التام في الاتصالات ع ٥ ح هم  
قائمة الاثوار ع ع  
الجزر الحبيب في العمل ص ١٠٠ هم ع  
إقامة السؤال عن الملوك ع ح اه لاخ لح ا  
مقام الاول انور ع ع ومقام بها ه ح لا

﴿الاتصال الروحاني والاعتقاد الرباني﴾

أيا طالب السر لتهيل ربه \* لدى أسبائه تصادف منهلا  
تطيعك أخبار الانام بقلهم \* كذلك ريسهم وفي الشمس أعمالا  
تري عامة الناس اليك تقيدوا \* وما قلته حقا وفي الغير أهمل  
طريقك هذا السيل والسبل الذي \* أقوله غيركم ونصركو أجتلي  
إذا شئت تحيا في الوجود مع التقى \* وديننا متينا أو تكن متوصلا



كذى النون والجنيد مع سر صنة \* وفي سر بسطام أراك مسر بلا  
 كذى النون والجنيد مع سر صنة \* وفي سر بسطام أراك مسر بلا  
 فبطشك تهليل وقوسك مطلع \* ويوم الخميس البدء والاحداثجلى  
 وفي جمعة أيضا بالاشياء مثله \* وفي اثنين للحسنى تكون مكملا  
 وفي طائه سر وفي هائه إذا \* أراك بهامع نسبة الكل أعطلا  
 وساعة سعد شزطهم فى نقوشها \* وعود ومصطكى بخور تحصلا  
 وتتلوا عليها آخر الحشر دعوة \* والاخلاص والسبع الثانى مرتلا  
 ﴿ اتصال أنوار الكواكب ﴾ بلعاني لاهى لاظغش لدسع قصح فوى  
 وفي يدك اليمنى حديد وخاتم \* وكل برأسك وفي دعوة فلا  
 وآية حشر فاجعل القلب وجهها \* واتلو اذا نام الانام ورتلا  
 هى السر فى الاكوان لاشئ غيرها \* هى الآية العظمى فحقق وحصلا  
 تكون بها قطبا اذا جدت خدمة \* وتذكر أسراراً من العالم العلا  
 سرى بها ناجى ومعروف قبله \* وباح بها الحلاج جهرا فأعقلا  
 وكان بها الشبلى يدأب دائما \* الى أن رقى فوق المريدين واعتلى  
 فصف من الادناس قلبك جاهدا \* ولازم لا زكار وصم وتنفلا  
 فما نال سر القوم الاعحقق \* علم باسرار العلوم محصلا  
 ع صح ص وسلم ع فى فى ك ملح ١١ ١٦ ملح — سحاح ٨ ٨ خ ١١ ح د ف  
 ك ص ر ا — ر م

﴿ مقامات المحبة وميل النفوس والمجاهدة والطاعة والعبادة وحب وتعشق  
 وفناء الفناء وتوجه ومراقبة وخلة دائمة ﴾

#### الانفعال الطبيعى

لبرجيس فى المحبة الوفق صرفوا \* بقزدير أونحاس الخلطأ كملا  
 وقيل بفضة صحىحا رأيتة \* فجعلك طالعا خطوطه ماعلا  
 توخ به زيادة النور للقمر \* وجعلك للقبول شمسه أصلا  
 ويومه والبخور عود لهندم \* ووقت لساعته ودعوته الا  
 ودعوته بغاية فهى أعملت \* وعن طسيان دعوة ولهاجلا  
 وقيل بدعوة حروف لوضعها \* بحر هواء أومطالب أهلا  
 فتتقش أحرفا بدال ولامها \* وذلك وفق للمربع حصلا

إذالم يكن يهوي هواك دلالتها \* فдал ليدو واوزينب معطلا  
 فحسن لبائه وبائهم إذا \* هواك وباقيهم قليلة جملا  
 ونقش مشا كل بشرط لوصعهم \* وما زدت أنسبه لفعلك عدلا  
 ومفتاح مريم ففعلهما سوا \* فيورى وبسطامى بسورتها تلا  
 وجعلك بالقصد وكن متفقدا \* أدلة وحشي لقبضة ميلا  
 فاعكس ييوتهما بالف ونيف \* فباطنها سروي سرها انجلا

﴿ فصل في المقامات للنهاية ﴾

لك الغيب صورة من العالم العلا \* وتوجد لها دارا وملبسها الحلا  
 ويوسف في الحسن وهذا شبيهه \* بنثر وترتيل حقيقة أنزلا  
 وفي يده طول وفي الغيب ناطق \* فيحكي الى عود يجاوب بلبلا  
 وقد جن بهلول بعشق جمالها \* وعند تحليها لبسطام أخذلا  
 ومات أجليه وأثر ب حبها \* جنيد وبصرى وللجسم أهملا  
 فتطلب في التهليل غايته ومن \* بأسمائه الحسنى بلا نسبة خلا  
 ومن صاحب الحسنى له الفوز بالمنى \* ويسهم بالزلى لدى جيرة العلا  
 وتخبر بالغيب إذا جدت خدمة \* تريك عجائبا بمن كان موثلا  
 فهذا هو الفوز وحسن تناله \* ومنها زيادات لتفسيرها تلا

﴿ الوصية والتختم والايمان والاسلام والتحريم والاهلية ﴾

فهذا قصيدنا وتسعون عده \* وما زاد خطبة وختما وجدولا  
 عجبت لآيات وتسعون عدها \* تولد أحيانا وما حصرها انجلا  
 فمن فهم السر فيفهم نفسه \* ويفهم تفسيراً مشابهاً أشكلا  
 حرام وشرعى لاظهار سرنا \* لناس وان خصوا وكان التأهلا  
 فان شئت أهلية فغلظ يمينهم \* وتفهم برحلة ودين تطولا  
 لعلك أن تنجو وسامع سرهم \* من القطم والافشاء قترأس بالعلا  
 فنجل لعباس لسره كاتم \* فنال سعادات وتابعه علا  
 وقام رسول الله في الناس خاطبا \* فمن يرأسن عرشا فذلك أكلا  
 وقد ركب الأرواح أجساد مظهر \* فألت لقتلهم بدق تطولا  
 الى العالم العلوى يفني فناؤه \* ويلبس أثواب الوجود على الولا  
 فقد تم نظمنا وصل الهنا \* وعلى خاتم الرسل صلاة بها العلا

وصلى الله العرش ذو المجد والعلا \* على سيد ساد الانام وكلا

محمد الهادي الشفيع امامنا \* وأصحابه أهل المكارم والعلا

٨ د الله نـ و ط ع لا

مرتبة ناسه عن الحله سرح اسع صم م ————— ههه تصحيح النيرين وتعديل

الكواكب عند كل تاريخ مطلوب ب س ر ك ل و و ه ا هـ لو طرح الاوتار الكلية

١ ٢ ٣ ٤ ٥ ٦ ٧ ٨ ٩ ١٠ ١١ ١٢ ح

الاول ثم ٨ عم ٣ عم ٥ عم ح عو ه عو ٨ عو ح ح عو ح عو عو عو صـ

كملت الزايرة

﴿ كيفية العمل في استخراج أجوبة المسائل من زايرة العام بحول الله

منقولاً عن لقيناه من القائمين عليها ﴾

السؤال له ثلثمائة وستون جواباً عدة الدرج وتختلف الاجوبة عن سؤال واحد في طالع مخصوص باختلاف الاسئلة المضافة الى حروف الاوتار وتناسب العمل من استخراج الحرف من بيت القصيد ( تنبيه ) تركيب حروف الاوتار والجدول على ثلاثة أصول حروف عربية تنقل على هيأتها وحروف برسم الغبار وهذه تبديل فمنها ما ينقل على هيئة متى لم تزد الادوار عن أربعة فان زادت عن أربعة نقلت الى المرتبة الثانية من مرتبة العشرات وكذلك لمرتبة المئين على حسب العمل كما سنبينه ومنها حروف برسم الزمام كذلك غير أن رسم الزمام يعطى نسبة ثانية فهي بمنزلة واحد ألف وبمنزلة عشرة ولها نسبة من خمسة بالعربي فاستحق البيت من الجدول أن توضع فيه ثلاث حروف في هذا الرسم وحرفان في الرسم فاختصر وامن الجدول بيوتاً خالية فمقي كانت أصول الاوتار زائدة على أربعة حسبت في العدد في طول الجدول وان لم تزد على أربعة لم يحسب الا العامر منها ﴿ والعمل في السؤال يفتقر الى سبعة أصول ﴾ عدة حروف الاوتار وحفظ ادوارها بعد طرحها اثني عشر اثني عشر وهي ثمانية ادوار في الكامل وستة في الناقص أبداً ومعرفة درج الطالع وسلطان البرج والدور الاكبر الاصل وهو واحد أبداً وما يخرج من اضافة الطالع للدور الاصل وما يخرج من ضرب الطالع والدور في سلطان البرج واطافة سلطان البرج للطالع والعمل جميعه ينتج عن ثلاثة ادوار مضروبة في أربعة تكون اثني عشر دوراً ونسبة هذه الثلاثة ادوار التي هي كل دور من أربعة نشأة ثلاثية كل نشأة لها ابتداء ثم انهاء تضرب ادوار ارباعية أيضاً ثلاثية ثم انها من ضرب ستة في اثنين فكان لها نشأة يظهر ذلك في العمل ويتبع هذه الاوتار الاثني عشر نتائج وهي في الاوتار اما أن تكون نتيجة أو أكثر الى ستة فأول ذلك تفرض سؤالاً عن الزايرة هل هي علم قديم أو محدث بطالع أول درجة من القوس أثناء حروف الاوتار ثم حروف السؤال فوضعنا حروف وترأس للقوس ونظيره من رأس الجوزاء وثالثه وترأس الدلو الى حد المركز وأضفنا اليه



حروف السؤال ويظرناعدتها وأقل ماتكون ثمانية وثمانين وأكثرماتكون ستة وتسعين وهى جملة الدور الصحيح فكانت فى سؤالنا ثلاثة وتسعين ويختصر السؤال ان زاد عن ستة وتسعين بان يسقط جميع أدواره الاثنى عشرية ويحفظ ما خرج منها ومابقى فكانت فى سؤالنا سبعة أدوار الباقى تسعة أثبتنا فى الحروف ما لم يبلغ الطالع اثنى عشرة درجة فان بلغها لم تثبت لها عدة ولا دور ثم تثبت أعدادها أيضا ان زاد الطالع عن أربعة وعشرين فى الوجه الثالث ثم تثبت الطالع وهو واحد وسلطان الطالع وهو أربعة والدور الاكثر وهو واحد وجمع ما بين الطالع والدور وهو اثنان فى هذا السؤال واضرب ما خرج منهما فى سلطان البرج يبلغ ثمانية وأضف السلطان للطالع فيكون خمسة فهذه سبعة أصول فما خرج من ضرب الطالع والدور الاكبر فى سلطان القوس مما لم يبلغ اثنى عشر فيه تدخل فى ضلع ثمانية من أسفل الجدول صاعدا وان زاد على اثنى عشر طرح أدوار وتدخل بالباقي فى ضلع ثمانية وتعلم على منتهى العدد والخمسة المستخرجة من السلطان والطالع يكون الطالع فى ضلع السطح المبسوط الاعلى من الجدول وتعد متواليات الخمسات أدوارا وتحفظها الى أن يقف العدد على حرف من أربعة وهى ألف أو باء أو جيم أو زاي فوقه العدد فى علمنا على حرف الألف وخلف ثلاثة أدوار فضر بنا ثلاثة فى ثلاثة كانت تسعة وهو عدد الدور الاول فأثبتناه وجمع ما بين الضلعين القائم والمبسوط يكن فى بيت ثمانية فى مقابلة البيوت العامة بالعدد من الجدول وان وقف فى مقابلة الخالى من بيوت الجدول على أحدها فلا يعتبر وتستمر على أدوارك وادخل بعدد ما فى الدور الاول وذلك تسعة فى صدر الجدول مما يلي البيت اجتماعيه وهى ثمانية ما ر الى جهة اليسار فوقه على حرف لام ألف ولا يخرج منها أبدا حرف مركب وإنما هو اذن حرف تاء أو بعائة برسم الزمان فعلم عليها بعد نقلها من بيت القصيد وجمع عدد الدور للسلطان يبلغ ثلاثة عشر ادخل بها فى حروف الأوتار وأثبت ما وقع عليه العدد وعلم عليه من بيت القصيد ومن هذا القانون تدرى كم تدور الحروف فى النظم الطبيعى وذلك أن تجمع حروف الدور الاول وهو تسعة لسلطان البرج وهو أربعة تبلغ ثلاثة عشر أضعفها بمثل تكون ستة وعشرين أسقط منها درج الطالع وهو واحد فى هذا السؤال الباقى خمسة وعشرون فعلى ذلك يكون نظم الحروف الاول ثم ثلاثة وعشرون مرتين ثم اثنان وعشرون مرتين على حسب هذا الطرح الى أن ينتهي للواحد من آخر البيت المنظوم ولا تقف على أربعة وعشرين لطرح ذلك الواحد أو لا ثم ضع الدور الثانى وأضف حروف الدور الاول الى ثمانية الخارجة من ضرب الطالع والدور فى السلطان تكن سبعة عشر الباقى خمسة فأضع فى ضلع ثمانية بخمسة من حيث انتهت فى الدور الاول وعلم عليه وادخل فى صدر الجدول بسبعة عشر ثم بخمسة ولا تعد الخالى والدور عشرين فوجدنا حرف تاء خمسمائة وإنما هو نون لأن دورنا فى مرتبة العشرات فكانت الخمسمائة بخمسين لأن دورها سبعة عشر فلم تكن سبعة عشر لكانت مئينا فأثبت نونا ثم ادخل بخمسة أيضا من أوله وانظر ما حاذي ذلك من السطح تجدوا احد فقر العدد واحد يقع على خمسة أضف لها واحد السطح تكن ستة أثبت واو علم عليها من بيت القصيد أربعة وأضفها للثمانية الخارجة من ضرب الطالع مع الدور فى السلطان تبلغ اثنى

عشر أضف لها الباقي من الدور الثاني وهو خمسة تبلغ سبعة عشر وهو ما للدور الثاني فدخلنا بسبعة عشر في حروف الأوتار فوق العدد على واحد أثبت الألف وعلم عليها من بيت القصيد وأسقط من حروف الأوتار ثلاثة حروف عدة الخارج من الدور الثاني وضع الدور الثالث وأضف خمسة إلى ثمانية تكن ثلاثة عشر الباقي واحد انقل الدور في ضلع ثمانية بواحد وادخل في بيت القصيد ثلاثة عشر وخذ ما وقع عليه العدد وهو ق وعلم عليه وادخل بثلاثة عشر في حروف الأوتار وأثبت ما خرج وهو سين وعلم عليه من بيت القصيد ثم ادخل بمائلي السين الخارجة بالباقي من دور ثلاثة عشر وهو واحد نفذ مايلي حرف سين من الأوتار فكان ب أثبتها وعلم عليها من بيت القصيد وهذا يقال له الدور المعطوف وميزانه صحيح وهو أن تضعف ثلاثة عشر بمثلها وتضيف إليها الواحد الباقي من الدور تبلغ سبعة وعشرين وهو حرف باء المستخرج من الأوتار من بيت القصيد وادخل في صدر الجدول بثلاثة عشر وانظر ما قبله من السطح واضعه بمثله وزد عليه الواحد الباقي من ثلاثة عشر فكان حرف جيم وكانت للجملة سبعة فذلك حرف زاي فأثبتناه وعلمنا عليه من بيت القصيد وميزانه أن تضعف السبعة بمثلها وزد عليها الواحد الباقي من ثلاثة عشر يكن خمسة عشر وهو الخامس عشر من بيت القصيد وهذا آخر أدوار الثلاثيات وضع الدور الرابع وله من العدد تسعة باضافة الباقي من الدور السابق فاضرب الطالع مع الدور في السلطان وهذا الدور آخر العمل في البيت الأول من الرباعيات فاضرب على حرفين من الأوتار واصعد بتسعة في ضلع ثمانية وادخله بتسعة من دور الحرف الذي أخذته آخر من بيت القصيد فالتاسع حرف راء فأثبتته وعلم عليه وادخل في صدر الجدول بتسعة وانظر ما قبلها من السطح يكون ج قهقر العدد واحدا يكون ألف وهو الثاني من حرف الراء من بيت القصيد فأثبتته وعلم عليه وعد بمائلي الثاني تسعة يكون ألف أيضا أثبتته وعلم عليه واضرب على حرف من الأوتار وأضعف تسعة بمثلها تبلغ ثمانية عشر أدخل بها في حرف الأوتار تقف على حرف راء وأثبتها وعلم عليها من بيت القصيد ثمانية وأربعين وأدخل بثمانية عشر في حروف الأوتار تقف على س أثبتها وعلم عليها اثنين وأضف اثنين إلى تسعة تكون أحد عشر أدخل في صدر الجدول بأحد عشر تقابلها من السطح ألف أثبتها وعلم عليها ستة وضع الدور الخامس وعدته سبعة عشر الباقي خمسة اصعد بخمسة في ضلع ثمانية واضرب على حرفين من الأوتار وأضعف خمسة بمثلها وأضفها إلى سبعة عشر عدد دورها الجملة سبعة وعشرون أدخل بها في حروف الأوتار تقف على ب أثبتها وعلم عليها اثنين وثلاثين واطرح من سبعة عشر اثنين التي هي في اس اثنين وثلاثين الباقي خمسة عشر أدخل بها في حروف الأوتار تقف على ق أثبتها وعلم عليها ستة وعشرين وادخل في صدر الجدول بست وعشرين تقف على اثنين بالغبار وذلك حرف ب وعلم عليه أربعة وخمسين واضرب على حرفين من الأوتار وضع الدور السادس وعدته ثلاثة عشر الباقي ومنه واحد فتبين اذذاك أن دور النظم من خمسة وعشرين فان الادوار خمسة وعشرون وسبعة عشر وخمسة وثلاثة عشر وواحد فاضرب خمسة في خمسة تكن خمسة وعشرين وهو الدور في نظم البيت

فأقل الدور في ضلع ثمانية بواحد ولكن لم يدخل في بيت القصيد بثلاثة عشر كما قدمناه لأنه دور ثان من نشأة تركيبية ثمانية بل أضفنا الأربعة التي من أربعة وخمسين الخارجية على حروف بيت القصيد إلى الواحد تكون خمسة تضيف خمسة إلى ثلاثة عشر التي للدور تبلغ ثمانية عشر أدخل بها في صدر الجدول وخذ ما قبلها من السطح وهو ألف أثبتته وعلم عليه من بيت القصيد اثني عشر واضرب على حرفين من الأوتار ومن هذا الجدول تنظر أحرف السؤال فما خرج منها زده مع بيت القصيد من آخره وعلم عليه من حروف السؤال ليكون داخل في العدد في بيت القصيد وكذلك تفعل بكل حرف حرف بعد ذلك مناسباً لحروف السؤال فما خرج منها زده إلى بيت القصيد من آخره وعلم عليه ثم أضف إلى ثمانية عشر ما علمته على حرف الألف من الآحاد فكان اثنين تبلغ الجملة عشرين أدخل بها في حروف الأوتار تقف على حرف راء أثبتته وعلم عليه من بيت القصيد ستة وتسعين وهو نهاية الدور في الحرف الوترى فاضرب على حرفين من الأوتار وضع الدور السابع وهو ابتداء المخترع ثان ينشأ من الاختراعين ولهذا الدور من العدد تسعة تضيف لها واحداً تكون عشرة للنشأة الثانية وهذا الواحد يزيد بعد إلى اثني عشر دوراً إذا كان من هذه النسبة أو تنقصه من الأصل تبلغ الجملة خمسة عشر فاصعد في ضلع ثمانية وتسعين وأدخل في صدر الجدول بعشرة تقف على خمسين وإتمامي خمسون نون مضاعفة بمثلها وتلك ق أثبتنا وعلم عليها من بيت القصيد اثنين وخمسين وأسقط من اثنين وخمسين اثنين وأسقط تسعة التي للدور الباقي واحداً وأربعون فادخل بها في حروف الأوتار تقف على واحد أثبتته وكذلك أدخل بها في بيت القصيد تجدد واحد فهذا ميزان هذه النشأة الثانية فعلم عليه من بيت القصيد علامتين علامة على الألف الأخير الميزاني وأخرى على الألف الأولى فقط والثانية أربعة وعشرون واضرب على حرفين من الأوتار وضع الدور الثامن وعدته سبعة عشر الباقي خمسة أدخل في ضلع ثمانية وخمسين وأدخل في بيت القصيد بخمسة تقف على عشرين بسبعين أثبتنا وعلم عليها وأدخل في الجدول بخمسة وخذ ما قبلها من السطح وذلك واحد أثبتته وعلم عليه من البيت ثمانية وأربعين وأسقط واحد من ثمانية وأربعين للألف الثاني وأضف إليها خمسة الدور الجملة اثنان وخمسون أدخل بها في صدر الجدول تقف على حرف ب غبارية وهي مرتبة مئينة لتزايد العدد فتكون مائتين وهي حرف راء أثبتنا وعلم عليها من القصيد أربعة وعشرين فانتقل الألف من ستة وتسعين إلى الابتداء وهو أربعة وعشرين فأضف إلى أربعة وعشرين خمسة الدور وأسقط واحداً تكون الجملة ثمانية وعشرين أدخل بالنصف منها في بيت القصيد تقف على ثمانية أثبت ٢ وعلم عليها وضع الدور التاسع وعدده ثلاثة عشر الباقي واحد أصعد في ضلع ثمانية بواحد وليست نسبة العمل هنا كنسبتها في الدور السادس لتضاعف العدد ولأنه من النشأة الثانية ولأنه أول الثلث من مربعات البروج وآخر الستة الرابعة من المثلثات فاضرب ثلاثة عشر التي للدور في أربعة التي هي مثلثات البروج السابقة الجملة اثنان وخمسون أدخل بها في صدر الجدول تقف على حرف اثنين غبارية وإتمامي مئنية لتجاوزها في العدد عن مرتبة الآحاد والعشرات فاثبتته



مائتين راء وعلم عليها من بيت القصيد ثمانية وأربعين وأضف إلى ثلاثة عشر الدور واحد الأس وأخل بأربعة عشر في بيت القصيد تبلغ ثمانية فعمل عليها ثمانية وعشرين واطرح من أربعة عشر سبعة يبقى سبعة اضرب على حرفين من الأوتار وادخل بسبعة تقف على حرف لام أثبتته وعلم عليه من البيت وضع الدور العاشرة وعدده تسعة وهذا ابتداء المثلثة الرابعة واصعد في ضلع ثمانية بتسعة تكون خلاء فاصعد بتسعة ثمانية تصير في السابع من الابتداء أضرب تسعة في أربعة لصعودنا بتسعين وإنما كانت تضرب في اثنين وادخل في الجدول ستة وثلاثين تقف على أربعة زمامية وهي عشرية فأخذناها أحادية لقلة الأدوار فأثبتت حروف دال واو أن أضفت إلى ستة وثلاثين واحد الأس كان حدها من بيت القصيد فعمل عليها ولو دخلت بالتسعة لا غير من غير ضرب في صدر الجدول لو وقف على ثمانية فاطرح من ثمانية أربعة الباقي أربعة وهو المقصود ولو دخلت في صدر الجدول بثمانية عشر التي هي تسعة في اثنين لو وقف على واحد زمامي وهو عشرة فاطرح منه اثنين تكرر التسعة الباقي ثمانية نصفها المطلوب ولو دخلت في صدر الجدول بسبعة وعشرين بصر بها في ثلاثة لو وقعت على عشرة زمامية والعمل واحد ثم ادخل بتسعة في بيت القصيد وأثبت ما خرج وهو ألف ثم اضرب تسعة في ثلاثة التي هي مركب تسعة للماضية وأسقط واحدا وادخل في صدر الجدول ستة وعشرين وأثبت ما خرج وهو مائتان بحرف راء وعلم عليه من بيت القصيد ستة وتسعين واضرب على حرفين من الأوتار وضع الدور الحادي عشر وله سبعة عشر الباقي خمسة أصعد في ضلع ثمانية بخمسة وتحسب ما تكرر عليه المشي في الدور الأول وادخل في صدر الجدول بخمسة تقف على خال فخذ ما قبله من السطح وهو واحد فادخل بواحد في بيت القصيد تكن سين أثبتته وعلم عليها أربعة ولو يكون الوقف في الجدول على بيت عامر لا تثبتا الواحد ثلاثة وأضعف سبعة عشر بمثلها وأسقط واحدا وأضعفها بمثلها وزدها أربعة وتبلغ سبعة وثلاثين أدخل بها في الأوتار تقف على ستة أثبتتها وعلم عليها وأضعف خمسة بمثلها وادخل في البيت تقف على لام أثبتتها وعلم عليها عشرين واضرب على حرفين من الأوتار وضع الدور الثاني عشر وله ثلاثة عشر الباقي واحد اصعد في ضلع ثمانية بواحد وهذا الدور آخر الأدوار وآخر الاختراعين وآخر المربعات الثلاثية وآخر المثلثات الرباعية والواحد في صدر الجدول يقع على ثمانين زمامية وإنما آحاد ثمانية وليس معنا من الأدوار إلا واحد فلوزاد عن أربعة من مربعات اثني عشر أو ثلاثة من مثلثات اثني عشر لكانت ح وإمما هي دفأثبتها وعلم عليها من بيت القصيد أربعة وسبعين ثم انظر ما ناسبها من السطح تكن خمسة أضعفها بمثلها الأس تبلغ عشرة أثبتت ي وعلم عليها وانظر في أي المراتب وقعت وجدناها في الرابعة دخلنا بسبعة في حروف الأوتار وهذا المدخل يسمى التوليد الحرفي فكانت ف أثبتتها وأضف إلى سبعة واحد الدور الجملة ثمانية أدخل بها في الأوتار تبلغ س أثبتتها وعلم عليها ثمانية واضرب ثمانية في ثلاثة الزائدة على عشرة الدور فاتها آخر مربعات الأدوار بالمثلثات تبلغ أربعة وعشرين أدخل بها في بيت القصيد وعلم على ما يخرج منها وهو مائتان وعلامتها ستة وتسعون وهو نهاية الدور الثاني في الأدوار الحرفية واضرب على حرفين من

الأوتار وضع النتيجة الأولى ولها تسعة وهذا العدد يناسب أبدأ الباقي من حروف الأوتار بعد طرحها أذوار وذلك تسعة فاضرب تسعة في ثلاثة التي هي زائدة على تسعين من حروف الأوتار وأضف لها واحدا الباقي من الدور الثاني عشر تبلغ ثمانية وعشرين فأدخل بها في حروف الأوتار تبلغ ألف أثبتته وعلم عليه ستة وتسعين وإن ضربت سبعة التي هي أذوار الحروف التسعين في أربعة وهي الثلاثة الزائدة على تسعين والواحد الباقي من الدور الثاني عشر كان كذلك واصلد في ضلع ثمانية بتسعة وادخل في الجدول بتسعة تبلغ اثنين زمامية واضرب تسعة فيما تناسب من السطح وذلك ثلاثة وأضف لذلك سبعة عددا الأوتار الحرفية واطرح واحد الباقي من دور اثني عشر تبلغ ثلاثة وثلاثين ادخل بها في البيت تبلغ خمسة فأثبتها وأضف تسعة بمثلها وادخل في صدر الجدول بثمانية عشر وخذ ما في السطح وهو واحد ادخل به في حروف الأوتار تبلغ م أثبتته وعلم عليه واضرب على حرفين من الأوتار وضع النتيجة الثانية ولها سبعة عشر الباقي خمسة فأصعد في ضلع ثمانية بخمسة واضرب خمسة في ثلاثة الزائدة على تسعين تبلغ خمسة عشر أضف لها واحدا الباقي من الدور الثاني عشر تكن تسعة وادخل بستة عشر في بيت القصيد تبلغ ت أثبتته وعلم عليه أربعة وستين وأضف إلى خمسة الثلاثة الزائدة على تسعين وزد واحد الباقي من الدور الثاني عشر تكن تسعة ادخل بها في صدر الجدول تبلغ ثلاثين زمامية وانظر ما في السطح نجد واحدا أثبتته وعلم عليه من بيت القصيدة وهو التاسع أيضا من البيت وادخل بتسعة في صدر الجدول تقف على ثلاثة وهي عشرات فائت لام وعلم عليه وضع النتيجة الثالثة وعددها ثلاثة عشر الباقي واحد فاقفل في ضلع ثمانية بواحد وأضف إلى ثلاثة عشر الثلاثة الزائدة على التسعين وواحد الباقي من الدور الثاني عشر تبلغ سبعة عشر وواحد النتيجة تكن ثمانية عشر داخل بها في حروف الأوتار تكن لا ما أثبتتها بهذا آخر العمل والمثال في هذا السؤال السابق أردنا أن نعلم أن هذه الزايرة علم عمدت أو قديم بطالع أول درجة من القوس أثبتنا حروف الأوتار ثم حروف السؤال ثم الأصول وهي عدة الحروف ثلاثة وتسعون أذوارها سبعة الباقي منها تسعة الطالع واحد سلطان القوس أربعة الدور الأبر واحد درج الطالع مع الدور اثنان ضرب الطالع مع الدور في السلطان ثمانية إضافة السلطان للطالع خمسة بيت القصيد

سؤال عظيم الخلق حزت فصن اذن \* غرائب شك ضبطه الحد مثلا

حروف الأوتار ص ط ه ر ت ك ه م ص ص و ن ب ه س ا ن ل م ن  
ص ع ف ص و ر س ك ل م ن س ع ف ض ق ر س ت ث خ د ظ  
غ ش ط ي ع ح ص ر و ح ر و ح ل ص ك ل م ن ص ا ب ج د ه  
و ز ح ط ي

\* حروف السؤال \* ا ل ز ا ي ر ج ت ع ل م م ح د ت ا م ق د ي  
م الدور الأول ٦ الدور الثاني ١٧ الباقي ٥ الدور الثالث ١٣ الباقي ١ الدور الرابع ٩

الدور الخامس ١٧ الباقي ٥ الدور السادس ١٣ الباقي ١ الدور السابع ٩ الدور الثامن ١٧ الباقي ٥ الدور التاسع ١٣ الباقي ١ الدور العاشر ١٣ الدور الحادي عشر ١٧ الباقي ٥ الدور الثاني عشر ١٣ الباقي ١ النتيجة الاولى ٩ النتيجة الثانية ١٧ الباقي ٥ النتيجة الثالثة ١٣ الباقي ١

هـ ع ح و ع ع في ا < ع

- |    |   |
|----|---|
| ١  | س |
| ٢  | و |
| ٣  | ا |
| ٤  | ل |
| ٥  | ع |
| ٦  | ظ |
| ٧  | ى |
| ٨  | م |
| ٩  | ١ |
| ١٠ | ل |
| ١١ | خ |
| ١٢ | ل |
| ١٣ | ق |
| ١٤ | ح |
| ١٥ | ز |
| ١٦ | ت |
| ١٧ | ف |
| ١٨ | ص |
| ١٩ | ن |
| ٢٠ | ١ |
| ٢١ | ذ |
| ٢٢ | ن |



٢٣	غ
٢٤	ر
٢٥	ا
٢٦	ى
٢٧	ب
٢٨	ش
٢٩	ك
٣٠	ض
٣١	ب
٣٢	ط
٣٣	هـ
٣٤	ا
٣٥	ل
٣٦	ح
٣٧	د
٣٨	م
٣٩	ث
٤٠	ل
٤١	ا

ف و ز ا و س ر و ا ل س ا ب ا ر ق ا ع ا ر ص ح ر ح ل د ا  
ر س ا ل د ي و س ر ا د م ن ا ل ل

دورها على خمسة وعشرين ثم على ثلاثة وعشرين مرتين ثم على واحد وعشرين مرتين إلى  
أن تنتهي إلى الواحد من آخر البيت وتنتقل الحروف جميعها والله أعلم ن ب ر  
و ح ر و ح ا ل و د س ا د ر ر س ر ه ا ل د ر ي س و ا ا ن س د  
ر و ا ب ل ا م ر ب و ا ل ع ل ل هذا آخر الكلام في استخراج الأجوبة من زيارجة  
العالم منظومة وللقوم طرائق أخرى من غير الزيارجة يستخرجون بها أجوبة المسائل غير منظومة  
وعندهم أن السر في استخراج الجواب منظوما من الزيارجة إنما هو مزجهم بيت مالك بن وهيب  
وهو \* سؤال عظيم الخلق البيت ولذلك يخرج الجواب على رويه وأما الطرق الأخرى فيخرج

الجواب غير منظوم فمن طرائقهم في استخراج الأجوبة ما نقله عن بعض المحققين منهم

﴿ فصل في الاطلاع على الأسرار الخفية من جهة الارتباطات الحرفية ﴾

اعلم أرشدنا الله وإياك أن هذه الحروف أصل الأسئلة في كل قضية وإنما تنتج الأجوبة على تجزئته بالكلية وهي ثلاثة وأربعون حرفاً كما ترى والله علام الغيوب **ا و ل ا غ ط س ا ل م خ ي د ل ز ق ت ا ر ذ ص ف ن غ ش ا ك ي ب م ض ب ح ط ل ج ه د ن ل ث ا** وقد نظمها بعض الفضلاء في بيت جعل فيه كل حرف مشدداً من حرفين وسماه القطب فقال

سؤال عظيم الخلق حزت فصن اذن \* غرائب شك ضبطه الجدم مثلاً

فاذا أردت استنتاج المسئلة فاحذف ما تكرر من حروفها واثبت ما فضل منه ثم احذف من الأصل وهو القطب لكل حرف فضل من المسئلة حرفاً مماثلة واثبت ما فضل منه ثم امزج الفضلين في سطر واحد تبدأ بالأول من فضله والثاني من فضل المسئلة وهكذا إلى أن يتم الفضلان أو ينفذ أحدهما قبل الآخر فتضع البقية على ترتيبها فإذا كان عدد الحروف الخارجة بعد المزج موافقاً لعدد حروف الأصل قبل الحذف فالعمل صحيح حينئذ تضيف إليها خمس نونات لتعدل بها الموازين الموسيقية وتكمل الحروف ثمانية وأربعين حرفاً تعمربها جدولاً مربعاً يكون آخر ما في السطر الأول أول ما في السطر الثاني وتنقل البقية على ما لها وهكذا إلى أن تتم عمارة الجدول ويعود السطر الأول بعينه وتنقل الحروف في القطر على نسبة الحركة ثم تخرج وتركل حرف بقسمة مربعة على أعظم جزء يوجد له وتضع الوتر مقابل الحرفه ثم تستخرج النسب العنصرية للحروف الجدولية وتعرف قوتها الطبيعية وموازينها الروحانية وغرائزها النفسانية وأسسها الأصلية من الجدول الموضوع لذلك وهذه صورته

ث  
ث  
ث  
ث

ثم تأخذ وتركل حرف بعد ضربه في أسوس أو تاد الفلك الأربعة واحذر ما يلي الأوتاد وكذلك السواقط لأن نسبتها مضطربة وهذا الخارج هو أول رتب السريان ثم تأخذ مجموع العناصر وتخط منها أسوس المولدات يبقى أس عالم الخلق بعد عروضة للمدد الكونية فتحمل عليه بعض المجدرات عن المواد وهي عناصر الأمداد يخرج أفق النفس الأوسط وتطرح أول رتب السريان من مجموع العناصر يبقى عالم التوسط وهذا مخصوص بعوالم الأكوان البسيطة لا المركبة ثم تضرب عالم التوسط في أفق النفس الأوسط يخرج الأفق الأعلى فتحمل عليه أول رتب السريان ثم تطرح من الرابع أول عناصر الأمداد الأصلية يبقى ثالث رتبة السريان فتضرب مجموع أجزاء العناصر الأربعة أبداً في رابع مرتبة السريان

يخرج أول عالم التفصيل والثاني في الثاني يخرج ثاني عالم التفصيل والثالث في الثالث يخرج ثالث عالم التفصيل والرابع في الرابع يخرج رابع عالم التفصيل فتجمع عوالم التفصيل وتحيط من عالم الكل تبقى العوالم المجردة فتقسم على الأفق الأعلى يخرج الجزء الأول ويقسم المنكسر على الأفق الأوسط يخرج الجزء الثاني وما انكسر فهو الثالث ويتعين الرابع هذا في الرابع وان شئت أكثر من الرابع فتستكثر من عوالم التفصيل ومن رتب السريان ومن الأفق بعد الحروف والله يرشدنا وإياك وكذلك اذا قسم عالم التجريد على أول رتب السريان خرج الجزء الأول من عالم التركيب وكذلك الى نهاية الرتبة الأخيرة من عالم الكون فافهم وتدبر والله المرشد المعين \* ومن طريقهم أيضا في استخراج الجواب قال بعض المحققين منهم اعلم أيذا الله وإياك بروح منه أن علم الحروف جليل يتوصل العالم به لما لا يتوصل بغيره من العلوم المتداولة بين العالم والعمل به شرائط تلزم وقد يستخرج العالم أسرار الخليفة وسرار الطبيعة فيطلع بذلك على نتيجه الفلسفة أعني السيمياء وأختها ويرفع له حجاب الجبهولات ويطلع بذلك على مكنون خبايا القلوب وقد شهدت جماعة بارض المغرب ممن اتصل بذلك فأظهر الغرائب وخرق العوائد وتصرف في الوجود بتأييد الله واعلم أن ملاك كل فضيلة الاجتهاد وحسن الملكة مع الصبر مفتاح كل خير كما أن الحرق والعجلة رأس الحرمان فاقول اذا أردت أن تعلم قوة كل حرف من حروف الفايي طوس أعني أيجد إلى آخر العدد وهذا أول مدخل من علم الحروف فانظر ما لذلك الحرف من الأعداد فتلك الدرجة التي هي مناسبة للحروف هي قوته في الجسمانيات ثم اضرب العدد في مثله تخرج لك قوته في الروحانيات وهي وتره وهذا في الحروف المنقوطة لا يتم بل يتم لغير المنقوطة لأن المنقوطة منها مراتب لمعان يأتي عليها البيان فيما بعد واعلم أن لكل شكل من أشكال الحروف شكلا في العالم العلوأ أعني الكرسي ومنها المتحرك والساكن والعلو والسفلى كما هو مرقوم في أما كنه من الجداول الموضوع في الزيارج واعلم أن قوى الحروف ثلاثة أقسام الأول وهو أقلها قوة يظهر بعد كتابتها فتكون كتابته لعالم روحاني مخصوص بذلك الحرف المرسوم فتخرج ذلك الحرف بقوة نفسانية وجمع همه كانت قوى الحروف مؤثرة في عالم الأجسام الثاني قوتها في الهيئة الفكرية وذلك ما يصدر عن تصريف الروحانيات لها فهي قوة في الروحانيات العلويات وقوة شكلية في عالم الجسمانيات الثالث وهو ما يجمع الباطن أعني القوة النفسانية على تكوينه فتكون قبل النطق به صورة في النفس وبعد النطق به صورة في الحروف وقوة في النطق وأما طبائعها فهي الطبيعيات المنسوبة لمتولدات في الحروف وهي الحرارة واليوسة والحرارة والرطوبة والبرودة واليوسة والبرودة والرطوبة فهذا سر العدد الياني والحرارة جامعة للهواء والنار وهما ا ه ط م ف ش ذ ج ز ك س ق ث ظ والبرودة جامعة للهواء والماء ب و ي ن ص ت ض د ح ل ع ر خ غ واليوسة جامعة للنار والارض ا ه ط م ف ش ذ ب و ي ن ص ت ض فهذه نسبة حروف الطبائع وتداخل أجزاء بعضها في بعض وتداخل أجزاء العالم فيها علويات وسفليات بأسباب الامهات الأول أعني الطبائع الأربع



المنفردة فتي أردت استدراج مجهول من مسألة ماحقق طالع السائل أو طالع مسئلته واستنطق بحروف أو تادها الأربعة الأول والرابع والسابع والعاشر مستوية مرتبة واستخرج أعداد القوي والأوتاد كاسنين واحمل وانسب واستنتج الجواب يخرج لك المطلوب اما بصريح اللفظ أو بالمعنى وكذلك في كل مسألة تقع لك بيانه إذا أردت أن تستخرج قوى حروف الطالع مع اسم السائل والحاجة فاجمع أعدادها بالجل الكبير فكان الطالع الحمل رابعة السرطان سابعه الميزان عاشره الجدي وهو أقوى هذه الأوتاد فاسقط من كل برج حرفي التعريف وانظر ما يخص كل برج من الأعداد المنطقة الموضوعه في دائرتها واحذف أجزاء الكسر في النسب الاستنطاقية كلها واثبت تحت كل حرف ما يخصه من ذلك ثم اعداد حروف العناصر الأربعة وما يخصها كالأول وارسم ذلك كله أحرفا ورتب الأوتاد والقوى والقرائن سطرا ممتزجاوا كسر واضرب ما يضرب لاستخراج الموازين واجمع واستنتج الجواب يخرج لك الضمير وجوابه مثاله افرض أن الطالع الحمل كما تقدم ترسم ح م ل فالحاء من العدد ثمانية لها النصف والرابع والثلث د ب ا الميم لها من العدد أربعون لها النصف والرابع والثلث والعشرون نصف العشر إذا أردت التدقيق م ك ي ه د ب اللام لها من العدد ثلاثون لها النصف والثلث والخمسة والستون والعشرون ك ي و ه ج وهكذا تفعل بسائر حروف المسئلة والاسم من كل لفظ يقع لك وأما استخراج الأوتاد فهو أن تقسم مربع كل حرف على أعظم جزء يوجد له مثاله حرف د له من الأعداد أربعة مربعها ستة عشر اقسمها على أعظم جزء يوجد لها وهو اثنان يخرج وتر الدال ثمانية ثم تضع كل وتر مقابلا لحرفه ثم تستخرج النسب العنصرية كما تقدم في شرح الاستنطاق ولها قاعدة تطرد في استخراجها من طبع الحرف وطبع البيت الذي يحل فيه من الجدول كما ذكر الشيخ لمن عرف الاصطلاح والله أعلم

### ﴿ فصل في الاستدلال على مافي الضمائر الخفية بالقوانين الحرفية ﴾

وذلك لو سأل سائل عن عليل لم يعرف مرضه ما علمته وما الموافق لبرئته منه فمر السائل أن يسمى ماشاء من الأشياء على اسم العلة المجهولة لتجعل ذلك الاسم قاعدة لك ثم استنطق الاسم مع اسم الطالع والعناصر والسائل واليوم والساعة ان أردت التدقيق في المسئلة والاقتصرت على الاسم الذي سماه السائل وفعلت به كانبين فأقول مثلا سمي السائل فرسا فاثبت الحروف الثلاثة مع أعدادها المنطقة بيانه ان للفاء من العدد ثمانين ولها م ك ي ح ب ثم الراء لها من العدد مائتان ق ن ك ي ثم السين لها من العدد ستون ولها م ل ك فالواو عدد تام له د ج ب والسين مثله ولها م ل ك فاذا بسطت حرف الاسماء وجدت عنصرين متساويين فاحكم لكثرهما حروفا بالغلبة على الآخر ثم احمل عدد حروف عناصر اسم المطلوب وحروفه دون بسط وكذلك اسم الطالب واحكم للاكثر والأقوى بالغلبة

## وصفة قوى استخراج العناصر

٣٧٢  
٣٧٢  
٣٧٢

فتكون الغلبة هنا للتراب وطبعه البرودة والبيوسة طبع السوداء فتحكم على المريض بالسوداء فإذا ألفت من حروف الاستنطاق كلاما على نسبة تقريبية خرج موضع الوجع في الحلق ويواقفه من الأدوية حقنة ومن الأثرية شراب الليمون هذا ماخرج من قوى أعداد حروف اسم فرس وهو مثال تقريبي مختصر وأما استخراج قوى العناصر من الاسماء العلمية فهو أن تسمى مثلاً محمد فترسم أحرفه مقطعة ثم تضع أسماء العناصر الأربعة على ترتيب الفلك يخرج لك ما في كل عنصر من الحروف والعدد ومثاله

نارى	ترابى	هوائى	مائى
ا ا ا	ب ب ب	ج ج ج ج ج ج ج	د د د د د د د
ه ه ه	و و و	ز ز ز ز ز ز ز	ح ح ح ح ح ح ح
ط ط ط	ي ي ي	ك ك ك ك ك ك ك	ل ل ل ل ل ل ل
م م م	ن ن ن	ص ص ص ص ص ص ص	ع ع ع ع ع ع ع
ف ف ف	ض ض ض	ق ق ق ق ق ق ق	ر ر ر ر ر ر ر
س س س	ت ت ت	ث ث ث ث ث ث ث	خ خ خ خ خ خ خ
ذ ذ ذ	ظ ظ ظ	غ غ غ غ غ غ غ	ش ش ش ش ش ش ش

فتحد أقوى هذه العناصر من هذا الاسم المذكور عنصر الماء لأن عدد حروفه عشرون حرفاً فجعلت له الغلبة على بقية عناصر الاسم المذكور وهكذا يفعل بجميع الاسماء حينئذ تضاف الى أوتارها وألوترو المنسوب للطالع في الزايرة أولوتر البيت المنسوب للملك ابن وهيب الذى جعله قاعدة لمزج الأسئلة وهو هذا

سؤال عظيم الخلق حزت فصن اذن \* غرائب شك ضبطه الجد مثلاً

وهو وتر مشهور لاستخراج المجهولات وعليه كان يعتمد ابن الرقام وأصحابه وهو عمل تام قائم بنفسه في المثالات الوضعية وصفة العمل بهذا الوتر المذكور أن ترسمه مقطعة مترجاً بالفاظ للسؤال على قانون صفة التفسير وعدة حروف هذا الوتر أعنى البيت ثلاثة وأربعون حرفاً لان كل حرف مشدد من حرفين ثم تحذف ما تكرر عند المزج من الحروف ومن الأصل لكل حرف فضل من المسئلة حرفاً يماثله وتثبت الفضلين سطرًا مترجاً بعضه ببعض الحروف الأول من فضلة القطب والثاني من فضلة السؤال

حتى يتم الفضلتان جميعا فتكون ثلاثة وأربعين فتضيف اليها خمس نونات ليكون ثمانية وأربعين لتعدل بها الموازين الموسيقية ثم تضع الفضة على ترتيبها فان كان عدد الحروف الخارجة بعد المزج يوافق العدد الاصل قبل الحذف فالعمل صحيح ثم عمر بما مزجت جدولا مربعات يكون آخر ما في السطر الاول أول ما في السطر الثاني وعلى هذا النسق حتى يعود السطر الاول بعينه وتتوالى الحروف في القطر على نسبة الحركة ثم تخرج وتر كل حرف كما تقدم وتضعه مقابلا لحرفه ثم تستخرج النسب العنصرية للحروف الجدولية لتعرف قوتها الطبيعية وموازينها الروحانية وغرائزها النفسانية وأسوسها الاصلية من الجدول الموضوع لذلك وصفة استخراج النسب العنصرية هو أن تنظر الحرف الاول من الجدول ما طبيعته وطبيعة البيت الذي حل فيه فان اتفقت خفن والافا ستخرج بين الحرفين نسبة ويتسع هذا القانون في جميع الحروف الجدولية وتحقيق ذلك سهل على من عرف قوانينه كما هو مقرر في دوائرها الموسيقية ثم تأخذ وتر كل حرف بعد ضربه في أسوس أو تاد الفلك الاربعة كما تقدم واحذر ما يلي لا وتاد وكذلك السواقي لأن نسبتها مضطربة وهذا الذي يخرج لك هو أول مراتب السريان ثم تأخذ مجموع العناصر وتخط منها أسوس المولدات يبقى أس عالم الخلق بعد عروضه للمدد الكونية فتحمل عليه بعض المجردات عن المواد وهي عناصر الامداد يخرج أفق النفس الاوسط وتطرح أول رتب السريان من مجموع العناصر يبقى عالم التوسط وهذا مخصوص بعوالم الاكوان البسيطة المركبة ثم تضرب عالم التوسط في أفق النفس الاوسط يخرج الافق الاعلى فتحمل عليه أول رتب السريان ثم تطرح من الرابع أول عناصر الامداد الاصلية يبقى ثالث رتبة السريان ثم تضرب مجموع أجزاء العناصر الاربعة أبدا في رابع رتب السريان يخرج أول عالم التفصيل والثاني في الثاني يخرج ثاني عالم التفصيل وكذلك الثالث والرابع فتجمع عوالم التفصيل وتخط من عالم الكل تبقى العوالم المجردة فتقسم على الافق الاعلى يخرج الجزء الاول ومن هنا يطرد العمل في التامة وله مقامات في كتب ابن وحشية والبونى وغيرهما وهذا التدبير يجري على القانون الطبيعي الحكمي في هذا الفن وغيره من فنون الحكمة الالهية وعليه مدار وضع الزيارج الحرفية والصنعة الالهية والنيرجات الفلسفية والله الملمهم وبه المستعان وعليه التكلان وحسبنا الله ونعم الوكيل

### ✽ علم الكيمياء ✽

وهو علم ينظر في المادة التي يتم بها كون والذهب والفضة بالصناعة ويشرح العمل الذي يوصل الى ذلك فيتصفحون المكنونات كلها بعد معرفة أمزجتها وقواها عليهم يعثرون على المادة المستعدة لذلك حتى من الفضلات الحيوانية كالعظام والريش والبيض والعذرات فضلا عن المعادن ثم يشرح الاعمال التي تخرج بها تلك المادة من القوة الى الفعل مثل حل الأجسام الى اجزائها الطبيعية بالتصعيد والتقطير وجمد الذائب منها بالتكليس وأمهاء الصلب بالفهر والصلابة وأمثال ذلك وفي زعمهم أنه يخرج بهذه الصناعة



كلها جسم طبيعي يسمونه الاكسير وأنه يلقى منه على الجسم المعدني المستعد لقبول صورة الذهب أو الفضة بالاستعداد القريب من الفعل مثل الرصاص والقصدير والنحاس بعد أن يحمي بالنار فيعود ذهابا برزا ويكون عن ذلك الاكسير اذا ألغزوا اصطلاحاتهم بالروح وعن الجسم الذي يلقى عليه بالجسد فشرح هذه الاصطلاحات وصورة هذا العمل الصناعي الذي يقرب هذه الاجساد المستعدة الى صورة الذهب والفضة هو علم الكيمياء وما زال الناس يؤلفون فيها قديما وحديثا ورميا يعزى الكلام فيها الى من ليس من أهلها وامام المدونين فيها جابر بن حيان حتى أنهم يخصونها به فيسمونها علم جابر وله فيها سبعون رسالة كلها شبيهة بالالغاز وزعموا أنه لا يفتح مقفلها الا من أحاط علما بجميع ما فيها والطرائق من حكماء المشرق المتأخرين له فيها دواوين ومناظرات مع أهلها وغيرهم من الحكماء وكتب فيها مسلة الجريطي من حكماء الاندلس كتابه الذي سماه رتبة الحكيم وجعله قرينا لكتابه الآخري في السحر والطلسمات الذي سماه غاية الحكيم وزعم أن هاتين الصناعتين هما تيجتان للحكمة وثمرتان للعلوم ومن لم يقف عليهما فهو فاقد ثمرة العلم والحكمة أجمع وكلامه في ذلك الكتاب وكلامهم أجمع في تأليفهم هي الغاز يتعذر فهمها على من لم يعان اصطلاحاتهم في ذلك \* ونحن نذكر سبب عدولهم الى هذه الرموز والالغاز ولا ين المغيرين من أئمة هذا الشأن كلمات شعرية على حروف المعجم من أبدع ما يجي في الشعر ملغوزة كلها العز الا حاجي والمعاينة فلا تكاد تفهم وقد ينسبون للغز الى رحمه الله بعض التأليف فيها وليس بصحيح لان الرجل لم تكن مداركه العالية لتقف عن خطأ ما يذهبون اليه حتى ينتحلوه وربما نسبوا بعض المذاهب والاقوال فيها لخالد بن يزيد بن معاوية ربيب مروان بن الحكم ومن العلوم البين أن خالدا من الجيل العربي والبدواة اليه أقرب فهو بعيد عن العلوم والصنائع بالجملة فكيف له بصناعة غريبة المنحى مبنية على معرفة طبائع المركبات وأمزجتها وكتب الناظرين في ذلك من الطبيعيات والطب لم تظهر بعد ولم تترجم اللهم الا أن يكون خالد بن يزيد آخر من أهل المدارك الصناعية تشبه باسمه فمكن \* وأنا أقل لك هنار رسالة أبي بكر بن بشر بن لا في السمع في هذه الصناعة وكلامهم تأليذ مسلة فيستدل من كلامه فيها على مذهب اليه في شأنها اذا أعطيته حقه من التأمل قال ابن بشر بن بعد صدر من الرسالة خارج عن الغرض والمقدمات التي لهذه الصناعة الكريمة قد ذكرها الاولون واقتصر جميعا أهل الفلسفة من معرفة تكوين المعادن وتخلق الا حجار والجواهر وطباع البقاع والامكان فمنعنا اشتهارها من ذكرها ولكن أبين لك من هذه الصنعة ما يحتاج اليه فنبدا بمعرفة فقد قالوا ينبغي لطلاب هذا العلم أن يعلموا أولا ثلاث خصال أو لها هل تكون والثانية من أي تكون والثالثة من أي كيف تكون فاذا عرف هذه الثلاثة وأحكمها فقد ظفر بمطلوبه وبلغ نهايته من هذا العلم فأما البحث عن وجودها والاستدلال عن تكونها فقد كفينا كه بما بعثنا به اليك من الاكسير وأما من أي شيء تكون قائما يريدون بذلك البحث عن الحجر الذي يمكنه العمل وان كان العمل موجودا من كل شيء بالقوة لانهم من الطبائع الأربعة منها تركيب ابتداء واليه ترجع انتهاء ولكن من الأشياء ما يكون فيه بالقوة ولا يكون بالفعل وذلك أن منها

ما يمكن تفصيلها ومنها ما لا يمكن تفصيلها فالتى يمكن تفصيلها تعالج وتدير وهى التى تخرج من القوة الى الفعل والتى لا يمكن تفصيلها لا تعالج ولا تدير لانها فيها بالقوة فقط وانما لم يمكن تفصيلها لاستغراق بعض طبائعها في بعض وفضل قوة الكبير منها على الصغير فينبغى لك وقلك الله أن تعرف أوفق الأحجار المنفصلة التى لا يمكن فيها العمل وجنسه وقوته وعمله وما يدبر من الحل والعقد والتنقية والتكليس والتنشيف والتقليب فان من لم يعرف هذه الأصول التى هى عماد هذه الصنعة لم ينجح ولم يظفر بخير أبدا وينبغى لك أن تعلم هل يمكن أن يستعان عليه بغيره أو يكتفى به وهل هو واحد في الابتداء أو شاركه غيره فصار في التدبير واحدا فسمى حجرا وينبغى لك أن تعلم كيفية عمله وكمية أوزانه وأزمانه وكيف تركيب الروح فيه ادخال النفس عليه وهل تقدر النار على تفصيلها منه بعد تركيبها فان لم تقدر فلائى علة وما السبب الموجب لذلك فن هذا هو المطلوب فافهم \* واعلم أن الفلاسفة كلها مدحت النفس وزعمت أنها المدبرة للجسد والحاملة له والدافعة عنه والفاعلة فيه وذلك أن الجسد إذا خرجت النفس منه مات وبرد فلم يقدر على الحركة والامتناع من غيره لانه لا حياة فيه ولا نور وإنما ذكرت الجسد والنفس لأن هذه الصفات شبيهة بجسد الانسان الذى تركيبه على الغذاء والعشاء وقوامه وتمامه بالنفس الحية النورية التى بها يفعل العظام والأشياء المتقابلة التى لا يقدر عليها غيرها بالقوة الحية التى فيها وإنما انفصل الانسان لاختلاف تركيب طبائعه ولو اتفقت طبائعه لسانمت من الاعراض والتضاد ولم تقدر النفس على الخروج من بدنه ولكن خالدا باقيا فسبحان مدبر الأشياء تعالى \* واعلم أن الطبائع التى يحدث عنها هذا العمل كيفية دافعة في الابتداء فيضية محتاجة الى الانتهاء وليس لها اذا صارت في هذا الحد أن تستحيل الى ما منه تركيب كما قلناه آتفا في الانسان لأن طبائع هذا الجوهر قد لزمت بعضها بعضا وصارت شيئا واحدا شبيها بالنفس في قوتها وفعلها وبالجسد في تركيبه ومجسته بعد أن كانت طبائع مفردة باعياها فباعبها من أفعال الطبائع أن القوة للضعيف الذى يقوى على تفصيل الأشياء وتركيبها وتماها فلذلك قلت قوى وضعيف وانما وقع التغير والفناء في التركيب الأول للاختلاف وعدم ذلك في الثانى للاتفاق وقد قال بعض الأولين التفصيل والتقطيع في هذا العمل حياة وبقاء والتركيب موت وفناء وهذا الكلام دقيق المعنى لأن الحكيم أراد بقوله حياة وبقاء خروجه من العدم الى الوجود لانه مادام على تركيبه الأول فهو فان لامحالة فاذا ركب التركيب الثانى عدم الفناء والتركيب الثانى لا يكون الا بعد التفصيل والتقطيع فاذا التفصيل والتقطيع في هذا العمل خاصة فاذا بقى الجسد المحلول انبسط فيه لعدم الصورة لانه قد صار في الجسد بمنزلة النفس التى لا صورة لها وذلك أنه لا ورن له فيه وسترى ذلك ان شاء الله تعالى وقد ينبغى لك أن تعلم أن اختلاط اللطيف باللطيف أهون من اختلاط الغليظ بالغليظ وانما أريد بذلك التشاكل في الأرواح والأجساد لأن الأشياء تتصل بأشكالها وذكرك لك ذلك لتعلم أن العمل أوفق وأيسر من الطبائع اللطائف الروحانية منها من الغليظة الجسمية وقد يتصور في العقل أن الأحجار أقوى وأصبر على النار من من الأرواح كما ترى الذهب والحديد والنحاس

أصبر على النار من الكبريت والزئبق وغيرهما من الأرواح فأقول إن الأجساد قد كانت أرواحاً في  
 بدنها فلما أصابها حر الكيات قلبها أجساداً لدرجة غليظة فلم تقدر النار على أكلها لافراط غلظها وتزجها  
 فاذا أفرطت النار عليها صيرتها أرواحاً كما كانت أول خلقها وأن تلك الأرواح اللطيفة إذا أصابتها النار  
 أبقت ولم تقدر على البقاء عليها فينبغي لك أن تعلم ما صير الأجساد في هذه الحالة وصير الأرواح في هذا  
 الحال فهو أجل ما تعرفه \* أقول إنما أبقت تلك الأرواح لاشتغالها ولطافتها وإنما اشتعلت لكثرة رطوبتها  
 ولأن النار إذا أحست بالرطوبة تعلقت بها لأنها هوائية تشاكل النار ولا تزال تغتذى بها إلى أن تنفد  
 وكذلك الأجساد إذا أحست بوصول النار إليها القلة تلزجها وغلظها وإنما صارت تلك الأجساد لا تشتعل  
 لأنها مركبة من أرض وماء صابر على النار فلطيفة متحد بكثيفة لطول الطبخ اللين المازج للأشياء وذلك  
 أن كل متلاش إنما يتلاشى بالنار لمفارقة لطيفة من كثيفه ودخول بعضه في بعض على غير التحليل والمواقفة  
 فصار ذلك الانضمام والتداخل مجاورة لا تمازج فسهل بذلك اقترانها كالماء والدهن ومأشبههما وإنما  
 وصفت ذلك لتستدل به على تركيب الطبائع وتقابلها فإذا علمت ذلك علماً شافياً فقد أخذت حظك منها  
 وينبغي لك أن تعلم أن الأخلاط التي هي طبائع هذه الصناعة موافقة لبعضها البعض مفصلة من جوهر واحد  
 يجمعها نظام واحد بتدبير واحد لا يدخل عليه غريب في الجزء منه ولا في الكل كما قال الفيلسوف إنك  
 إذا حكمت تدبير الطبائع وتأليفها ولم تدخل عليها غريباً فقد أحكمت ما أردت إحكامه وقوامه إذا الطبيعة  
 واحدة لا غريب فيها فمن أدخل عليها غريباً فقد زاع عنها ووقع في الخطأ \* واعلم أن هذه الطبيعة إذا حل  
 لها جسد من قرائنها على ما ينبغي في الحل حتى يشاكلها في الرقة واللاطفة انبسطت فيه وجرت معه حيثما جرى  
 لأن الأجساد ما دامت غليظة جافية لا تنبسط ولا تتزاوج وحل الأجساد لا يكون بغير الأرواح فافهم  
 هداك الله هذا القول واعلم هداك الله أن هذا الحل في جسد الحيوان هو الحق الذي لا يضمحل  
 ولا ينتقص وهو الذي يقرب الطبائع ويمسكها ويظهر لها ألواناً وأزهاراً عجيبة وليس كل جسد محل  
 خلاف هذا الحل التام لأنه مخالف للحياة وإنما حله بما يوافق ويدفع عنه حرق النار حتى يزول عن الغلظ  
 وتنقلب الطبائع عن حالاتها إلى ما لها أن تنقلب من اللطافة والغلظ فاذا بلغت الأجساد نهايتها من  
 التحليل والتلطيف ظهرت لها هنالك قوة تمسك وتغوص وتنقلب وتنفذ كل عمل لا يرى له مصداق  
 في أوله فلا خير فيه واعلم أن البارد من الطبائع هو بيبس الأشياء ويعقد رطوبتها والحر منها يظهر رطوبتها  
 ويعقد يبسها وإنما أفردت الحر والبرد لأنها فاعلان والرطوبة واليبس منفعلان وعلى انفعال كل واحد  
 منها صاحبه تحدث الأجسام وتكون وإن كان الحر أكثر فعلاً في ذلك من البرد لأن البرد ليس له نقل  
 الأشياء ولا تحريكها والحر هو علة الحركة ومتى ضعفت علة الكون وهو الحرارة لم يتم منها شيء  
 أبداً كما أنه إذا أفرطت الحرارة على شيء ولم يكن ثم برداً أحرقت وأهلكته فمن أجل هذه العلة  
 احتيج إلى البارد في هذه الأعمال ليقوى به كل ضد على ضده ويدفع عنه حر النار ولم يحذر الفلاسفة  
 أكثر شيء إلا من النيران المحرقة وأمرت بتطهير الطبائع والآنفاً وإخراج دنسها ورطوبتها



ونفى آفاتهما وأوساخها عنها على ذلك استقام رأيهم وتديبرهم فانما عملهم إنما هو مع النار أولا وإليها  
يصير آخرًا فلذلك قالوا إياكم والنيران المحرقات وإنما أرادوا بذلك نفي الآفات التي معها فتجمع على  
الجسد آفتين فتكون أسرع لهلاكه وكذلك كل شيء إنما يتلاشى ويفسد من ذاته لتضاد طبائعه  
واختلافه فيتوسط بين شيئين فلم يجد ما يقويه ويعينه إلا قهرته الآفة وأهلكته واعلم أن الحكماء كلها  
ذكرت تردد الأرواح على الأجساد من أن يكون ألزم إليها وأقوى على قتال النار إذا هي باشرتها عند الالفة  
أعنى بذلك النار العنصرية فاعلمه \* ولنقل الآن على الحجر الذي يمكن منه العمل على ما ذكرته الفلاسفة فقد  
اختلفوا فيه فمنهم من زعم أنه في الحيوان ومنهم من زعم أنه في النبات ومنهم من زعم أنه في المعادن ومنهم من  
زعم أنه في الجميع وهذه الدعاوى ليست بحاجة إلى استقصائها ومناظرة أهلها عليها لأن الكلام يطول  
جدا وقد قلت فيما تقدم أن العمل يكون في كل شيء بالقوة لأن الطبائع موجودة في كل شيء فهو كذلك  
فريد أن نعلم من أي شيء يكون العمل بالقوة والفعل فنقصد إلى ما قاله الحراني أن الصبغ كله أحد صبغين  
إما صبغ جسد كالزعفران في الثوب الأبيض حتى يحول فيه وهو مضمحل منتقص التركيب والصبغ الثاني  
تقليب الجوهر من جوهر نفسه إلى جوهر غيره ولو أنه كتقليب الشجر بل التراب إلى نفسه وقلب الحيوان  
والنبات إلى نفسه حتى يصير التراب نباتا والنبات حيوانا ولا يكون إلا بالروح الحي والكيان الفاعل الذي له  
توليد الأجرام وقلب الأعيان فإذا كان هذا هكذا فنقول أن العمل لا بد أن يكون إما في الحيوان وإما في  
النبات وبرهان ذلك أنهم ما مطبوعان على الغذاء وبه قوامهما وتامهما فأما النبات فليس فيه ما في الحيوان من  
اللطافة والقوة ولذلك قل خوض الحكماء فيه وأما الحيوان فهو آخر الاستحالات الثلاث ونهايتها وذلك  
أن المعدن يستحيل نباتا والنبات يستحيل حيوانا والحيوان لا يستحيل إلى شيء هو ألطف منه إلا أن ينعكس  
راجعا إلى الغلظ وأنه أيضا لا يوجد في العالم شيء يتعلق به الروح الحية غيره والروح ألطف ما في العالم ولم  
تتعلق الروح بالحيوان إلا بمشاكلته إياها فأما الروح التي في النبات فانما يسيرة فيها غلظ وكثافة وهي مع ذلك  
مستغرقة كامنة فيه لغلظها وغلظ جسد النبات فلم يقدر على الحركة لغلظها وغلظ روحه والروح المتحركة  
ألطف من الروح الكامنة كثير أو ذلك أن المتحركة لها قبول الغذاء والتنقل والتنفس وليس للكامنة غير  
قبول الغذاء وحده ولا تجرى إذا قيست بالروح الحية إلا كالأرض عند الماء كذلك النبات عند الحيوان  
فالعامل في الحيوان أعلى وأرفع وأهون وأيسر فينبغي للعاقل إذا عرف ذلك أن يجرب ما كان سهلا ويترك  
ما يخشى فيه عسره \* واعلم أن الحيوان عند الحكماء ينقسم أقساما من الأمهات التي هي الطبائع والحديثة  
التي هي المواليد وهذا معروف متيسر الفهم فلذلك قسمت الحكماء العناصر والمواليد أقساما حية وأقساما  
ميتة فجعلوا كل متحرك فاعلا حيا وكل ساكن مفعولا ميتا وقسموا ذلك في جميع الأشياء وفي الأجساد  
الدائبة وفي العقاقير المعدنية قسموا كل شيء يذوب في النار ويطير ويشعل حيا وما كان على خلاف  
ذلك سموه ميتا فأما الحيوان والنبات فسموا كل ما انفصل منها طبائع أربعا حيا وما لم ينفصل سموه ميتا  
ثم إنهم طلبوا جميع الأقسام الحية فلم يجدوا وفق هذه الصناعة مما ينفصل فصولا أربعة ظاهرة للعيان

ولم يجدوا غير الحجر الذي في الحيوان فبحثوا عن جنسه حتى عرفوه وأخذوه ودبروه فتكيف لهم منه الذي أرادوا وقد يتكيف مثل هذا في المعادن والنبات بعد جمع العقاقير وخلطها ثم تفصل بعد ذلك فأما النبات فمنه ما ينفصل ببعض هذه الفصول مثل الأسنان وأما المعادن ففيها أجساد وأرواح وأنفاس إذا مزجت ودبرت كان منها ما له تأثير وقد دبرنا كل ذلك فكان الحيوان منها أعلى وأرفع وتديره أسهل وأيسر فينبغي لك أن تعلم ما هو الحجر الموجود في الحيوان وطريق وجوده أننا نينا أن الحيوان أرفع المواليد وكذا ما تركب منه فهو ألطف منه كالنبات من الأرض وإنما كان النبات ألطف من الأرض لأنه إنما يكون من جوهره الصافي وجسده اللطيف فوجب له بذلك اللطافة والرقّة وكذا هذا الحجر الحيواني بمنزلة النبات في التراب وبالجملة فإنه ليس في الحيوان شيء ينفصل طبائع أربعة غيره فافهم هذا القول فإنه لا يكاد يخفى إلا على جاهل بين الجهالة ومن لا عقل له فقد أخبرتك ماهية هذا الحجر وأعلمتك جنسه وأنا بين لك وجوه تدبيره حتى يكمل الذي شرطناه على أنفسنا من الانصاف إن شاء الله سبحانه (التدبير على بركة الله) هذا الحجر الكريم فأودعه القرعة والانبیق وفصل طبائعه الأربعة التي هي النار والهواء والأرض والماء وهي الجسد والروح والنفس والصبغ فإذا عزلت الماء عن التراب والهواء عن النار فرفع كل واحد في إنائه على حدة وهذا ما يبطأ أسفل الاناء وهو الثقل فأغسله بالنار الحارة حتى تذهب عنه سواده ويحول غلظه وجفائه ويبيضه تبيضا عكما وطير عنه فضول الرطوبات المستحقة فيه يصير عند ذلك ماء أبيض لا ظلمة فيه ولا وسخ ولا تضاد ثم اعمد إلى تلك الطبائع الأولى الصاعدة منه فطهرها أيضا من السواد والتضاد وكرر عليها الغسل والتصعيد حتى تلتطف وترق وتصفو فإذا فعلت ذلك فقد فتح الله عليك فابدأ بالتركيب الذي عليه العمل وذلك أن التركيب لا يكون إلا بالتزويج والتعفين فأما التزويج فهو اختلاط اللطيف بالغليظ وأما التعفين فهو التمشية والسحق حتى يختلط ببعضه بعض ويصير شيئا واحدا لا اختلاف فيه ولا نقصان بمنزلة الامتزاج بالماء فعند ذلك يقوى الغليظ على امساك اللطيف وتقوى الروح على مقابلة النار وتضرب عليها وتقوى النفس على الغوص في الأجساد والديب فيها وإنما وجد ذلك بعد التركيب لأن الجسد المحلول لما ازدوج بالروح مازجه بجميع أجزائه ودخل بعضها في بعض لتشاكلها فصارت شيئا واحدا ووجب من ذلك أن يعرض للروح من الصلاح والفساد والبقاد والثبوت ما يعرض للجسد لموضع الامتزاج وكذلك النفس إذا امتزجت بها ودخلت فيها بخدمة التدبير اختلطت أجزاؤها بجميع أجزائه الآخرين أعني الروح والجسد وصارت هي وهما شيئا واحدا لا اختلاف فيه بمنزلة الجزء الكلي الذي سامت طبائعه واتفقت أجزاؤه فإذا ألقى هذا المركب الجسد المحلول وألح عليه النار وأظهر ما فيه من الرطوبة على وجهه ذاب في الجسد المحلول ومن شأن الرطوبة الاشتعال وتعلق النار بها فإذا أردت النار التعلق بها منعها من الاتحاد بالنفس مما زججه الماء لها فان النار لا تتحد بالدهن حتى يكون خالصا وكذلك الماء من شأنه النفور من النار فإذا ألححت عليه النار وأردت تطهيره حبسه الجسد اليابس الممازج له في جوفه فمنعه من الطيران فكان أن الجسد علة لأمساك الماء والماء علة لبقاء الدهن والدهن

علة لثبات الصبغ والصبغ علة لظهور الدهن واظهار الدهنية في الأشياء المظلمة التي لا نور لها ولا حياة فيها فهذا هو الجسد المستقيم وهكذا يكون العمل وهذه التصفية التي سألت عنها هي التي سمتها الحكماء بيضة وإياها يعنون لا بيضة الدجاج واعلم أن الحكماء لم تسمها بهذا الاسم لغير معنى بل أشبهتها ولقد سألت مسألة عن ذلك يوم ما وليس عنده غيري فقلت له أيها الحكيم الفاضل أخبرني لأي شيء سمت الحكماء مركب الحيوان بيضة اختياراً منهم لذلك أم لمعني دعاءهم إليه فقال بل لمعني غامض فقلت أيها الحكيم وما ظهر لهم من ذلك من المنفعة والاستدال على الصناعة حتى شبهوها وسموها بيضة فقال لشبهها وقرابتهما من المركب ففكر فيه فإنه سيظهر لك معناه فبقيت بين يديه مفكر لا أقدر على الوصول إلى معناه فلما رأي ما بي من الفكر وأن نفسي قد مضت فيها أخذ بعضدي وهزني هزة خفيفة وقال يا أبا بكر ذلك للنسبة التي بينها في كمية الألوان عند امتزاج الطبائع وتأليفها فلما قال ذلك انجلت عني الظلمة وأضاء لي نور قلبي وقوى عقلي على فهمه فهضت شاكر الله عليه لي منزلي وأقمت على ذلك شكلاً هندسياً يبرهن به على صحة مقاله مسألة وأنا واضع لك في هذا الكتاب مثال ذلك أن المركب إذا تم وكل كان نسبة ما فيه من طبيعة الهواء إلى ما في البيضة من طبيعة الهواء كنسبة ما في المركب من طبيعة النار إلى ما في البيضة من طبيعة النار وكذلك الطبعان الآخران الأرض والماء فأقول إن كل شيتين متناسبين على هذه الصفة فهما متشابهان ومثال ذلك أن تجعل لسطح البيضة هزوح فإذا أردنا ذلك فإنا نأخذ أقل طبائع المركب وهي طبيعة اليوسه ونضيف إليها مثلاً من طبيعة الرطوبة ونديرهما حتى تنشف طبيعة اليوسه طبيعة الرطوبة وتقبل قوتها وكان في هذا الكلام رمزاً ولكنه لا يخفى عليك ثم تحمل عليها جميعاً مثليهما من الروح وهو الماء فيكون الجميع ستة أمثال ثم تحمل على الجميع بعد التدبير مثلاً من طبيعة الهواء التي هي النفس وذلك ثلاثة أجزاء فيكون الجميع تسعة أمثال اليوسه بالقوة وتجعل تحت كل ضلعين من المركب الذي طبيعته محيطية بسطح المركب طبيعتين فتجعل أولاً الضلعين المحيطين بسطحه طبيعة الماء وطبيعة الهواء وهما ضلعاً أحدهما بسطح أبجد وكذلك الضلعان المحيطان بسطح البيضة اللذان هما الماء والهواء ضلعاً هزوح فأقول إن سطح أبجد يشبه سطح هزوح طبيعة الهواء التي تسمى نفساً وكذلك أبجد من سطح المركب والحكماء لم تسم شيئاً باسم شيء إلا لشبهه به والكلمات التي سألت عن شرحها الأرض المقدسة وهي المنعقدة من الطبائع العلوية والسفلية والنحاس هو الذي أخرج سواده وقطع حتى صار هباء ثم حمر بالزاج حتى صار نحاساً والمغنيسيا حجر م الذي تجمد فيه الأرواح وتخرج الطبيعة العلوية التي تسجن فيها الأرواح لتقابل عليها النار والفرفرة لون أحمر قان يحدثه الكيان والرصاص حجر له ثلاث قوى مختلفة الشخوص ولكنها متشابهة كلة ومتجانسة فالواحدة روحانية نيرة صافية وهي الفاعلة والثانية نفسانية وهي متحركة حساسة غير أنها أغلظ من الأولى ومركزها دون مركز الأولى والثالثة قوة أرضية حاسة قابضة منعكسة إلى مركز الأرض لتقلها وهي الماسكة الروحانية والنفسانية جميعاً والمحيط بها وأماسائر الباقية فمبتدعة ومخترعة الباس على الجاهل ومن عرف المقدمات استغنى عن غيرها فهذا جميع ما سألتني عنه وقد بعثت به إليك



مفسرا ونرجو بتوفيق الله أن تبلغ أملك والسلام انتهى كلام ابن بشرون وهو من كبار تلاميذ مسلمة المجريطي شيخ الأندلس في علوم الكيمياء والسيما والسحر في القرن الثالث وما بعده وأنت ترى كيف صرف ألفاظهم كلها في الصناعة إلى الرمز والالغاز التي لا تكاد تبين ولا تعرف وذلك دليل على أنها ليست بصناعة طبيعية \* والذي يجب أن يعتقدي أمر الكيمياء وهو الحق الذي يعضده الواقع أنها من جنس آثار النفوس الروحانية وتصرفها في عالم الطبيعة أمان نوع الكرامة إن كانت النفوس خيرة أو من نوع السحر إن كانت النفوس شريرة فاجرة فأما الكرامة فظاهرة وأما السحر فلا أن الساحر كما ثبت في مكان تحقيقه يقلب الأعيان المادية بقوة السحرية ولا بد له مع ذلك عندهم من مادة يقع فعله السحري فيها كتحليق بعض الحيوانات من مادة التراب أو الشجر والنبات وبالجملة من غير مادتها المخصوصة بها كإلقاء سحرة فرعون في الجبال والعصى وكما ينقل عن سحرة السودان والهنود في قاصيه الجنوب والترك في قاصية الشمال أنهم يسحرون الجو لا أمطار وغير ذلك \* ولما كانت هذه تخليقا للذهب في غير مادته الخاصة به كان من قبيل السحر والتكلمون فيه من أعلام الحكماء مثل جابر ومسلمة ومن كان قبلهم من حكماء الأمم إنما نحو هذا المنحى ولهذا كان كلامهم فيه ألعازر أحذرا عليها من انكار الشرائع على السحر وأنواعه لأن ذلك يرجع إلى الضئيلة بها كما هو رأي من لم يذهب إلى التحقيق في ذلك وانظر كيف سمي مسلمة كتابه في رتبة الحكيم وسمى كتابه في السحر والطاسمات غاية الحكيم إشارة إلى عموم موضوع الغاية وخصوص موضوع هذه لأن الغاية أعلى من الرتبة فكأن مسائل الرتبة بعض من مسائل الغاية وتشاركها في الموضوعات ومن كلامه في الفين يتبين ما قلناه ونحن نبين فيما بعد غلط من يزعم أن مدارك هذا الأمر بالصناعة الطبيعية والله العليم الخبير

## ٢٥ \* فصل في إبطال الفلسفة وفساد متعلها \*

هذا الفصل وما بعده مهم لأن هذه العلوم عارضة في العمران كثيرة في المدن وضررها في الدين كثير فوجب أن يصعد بشأنها ويكشف عن المعتقد الحق فيها وذلك أن قومنا من عقلاء النوع الإنساني زعموا أن الوجود كله الحسي منه وما وراء الحسي تدرك ذواته وأحواله بأسبابها وعللها بالانظار الفكرية والاقيسة العقلية وأن تصحيح "الادعاءات" من قبل النظر لا من جهة السمع فأنها بعض من مدارك العقل وهؤلاء يسمون فلاسفة جمع فيلسوف وهو بالسان اليوناني محب الحكمة فبحسب ذلك وشرواله وحوموا على إصابة الغرض منه ووضعوا قانونا يمتد به العقل في نظره إلى التمييز بين الحق والباطل وسموه بالمنطق ومحصل ذلك أن النظر الذي يفيد تمييز الحق من الباطل إنما هو للذهن في المعاني المترعة من الموجودات الشخصية فيجرد منها أولا صورا منطقية على جميع الأشخاص كما ينطبق الطابع على جميع النقوش التي ترسمها في طين أو شمع وهذه المجردة من المحسوسات تسمى العقولات الأولى ثم يجرد من تلك المعاني السكونية إذا كانت مشتركة مع معاني أخرى وقد تميزت عنها

في الدهن فتجرد<sup>١</sup> معاني أخرى وهي التي اشتركت بها ثم تجرد ثانياً ان شار كما غير هاو ثالثاً الى أن ينتهي التجريد إلى المعاني البسيطة الكلية المنطبقة على جميع المعاني والاشخاص ولا يكون منها تجريد بعد هذا وهي الاجناس العالية وهذه المجردات كلها من غير المحسوسات هي من حيث تأليف بعضها مع بعض لتحصيل العلوم منها تسمى العقولات الثواني فاذا نظر الفكر في هذه العقولات المجردة وطلب تصور الوجود كما هو فلا بد للذهن من اضافة بعضها إلى بعض ونقي بعضها عن بعض بالبرهان العقلي اليقيني ليحصل تصور الوجود تصوراً صحيحاً مطابقاً اذا كان ذلك بقانون صحيح كما مرو صنف التصديق الذي هو تلك الاضافة والحكم متقدم عندهم على صنف التصور في النهاية والتصور متقدم عليه في البداية والتعليم لان التصور التام عندهم غاية لطلب الادراك وإنما التصديق وسيلة له وما تسمعه في كتب المنطقيين من تقدم التصور وتوقف التصديق عليه فمعنى الشعور لا بمعنى العلم التام وهذا هو مذهب كبير مرسطو ثم يزعمون أن السعادة في ادراك الموجودات كلها ما في الحس بهذا النظر وتلك البراهين \* وحاصل مداركهم في الوجود على الجملة وما آلت إليه وهو الذي فرغوا عليه قضايا نظارهم أنهم عثروا أولاً على الجسم السفلي بحكم الشهود والحس ثم ترقى ادراكهم قليلاً فشعروا بوجود النفس من قبل الحركة والحس في الحيوانات ثم أحسوا من قوى النفس بسلطان العقل ووقف ادراكهم فقضوا على الجسم العالى السماوى بنحو من القضاء على أمر الذات الانسانية ووجب عندهم أن يكون للفلك نفس وعقل كما للانسان ثم أنهم اذ ذلك نهاية عدد الآحاد وهي العشر تسع مفصلة ذواتها جمل وواحد أول مفرد وهو العاشر ويزعمون أن السعادة في ادراك الوجود على هذا النحو من القضاء مع تهذيب النفس وتخليها بالفضائل وأن ذلك ممكن للانسان ولو لم يرد شرع لتمييزه بين الفضيلة والرذيلة من الافعال بمقتضى عقله ونظره وميله إلى المحمود منها واجتنابه للمذموم بفطرته وأن ذلك إذا حصل للنفس حصلت لها البهجة واللذة وأن الجبل بذلك هو الشقاء السرمدى وهذا عندهم هو معنى النعيم والعذاب في الآخرة إلى خبطهم في تفاصيل ذلك معروف من كلماتهم وأما هذه المذاهب التي حصل مسائلها ودون علمها وسطر حجاجها فيما بلغنا في هذه الأحقاب هو أرسطو المقدوني من أهل مقدونية من بلاد الروم من تلاميذ أفلاطون وهو معلم الاسكندر ويسمونه المعلم الأول على الاطلاق يعنون معلم صناعة المنطق إذ لم تكن قبله مهذبة وهو أول من رتب قانونها واستوفى مسائلها وأحسن بسطها ولقد أحسن في ذلك القانون ما شاء لو تكفل له بقصدهم في الالهيات ثم كان من بعده في الاسلام من أخذ بتلك المذاهب واتبع فيها رأيه حذو النعل بالنعل إلا في القليل وذلك أن كتب أولئك المتقدمين لما ترجمها الخلفاء من بنى العباس من اللسان اليونانى إلى اللسان العربى تصفحها كثير من أهل الملة وأخذ من مذاهبهم من أضله الله من متحلى العلوم وجادلوا عنها واختلفوا في مسائل من تفاريعها وكان من أشهرهم أبو نصر الفارابى في المائة الرابعة لعهد سيف الدولة وأبو علي بن سينا في المائة الخامسة لعهد نظام الملك من بنى بويه بأصبهان وغيرهما واعلم أن هذا رأى الذي ذهبوا إليه باطل بجميع وجوهه فأما إسنادهم الموجودات كلها إلى العقل الأول واكتفاؤهم

به في الترقى إلى الواجب فهو قصور عما وراء ذلك من رتب خلق الله فالوجود أوسع نطاقاً من ذلك ويخلق  
 ما لا تعلمون وكانهم في إقتصارهم على إثبات العقل فقط والغفلة عما وراءه بمثابة الطبيعيين المقتصرين على إثبات  
 الأجسام خاصة المعرضين عن النقل والعقل المعتقدين أنه ليس وراء الجسم في حكمة الله شيء وأما البراهين  
 التي يزعمونها على مدعياتهم في الموجودات ويعرضونها على معيار المنطق وقانونه فهي قاصرة وغير وافية  
 بالغرض أما ما كان منها في الموجودات الجسمانية ويسمونه العلم الطبيعي فوجه قصوره أن المطابقة بين تلك  
 النتائج الذهنية التي تستخرج بالحدود والأتقية كما في زعمهم وبين ما في الخارج غير يقيني لأن تلك أحكام  
 ذهنية كلية عامة والموجودات الخارجية متشخصة بموادها ولعل في المواد ما يمنع من مطابقة الذهني الكلي  
 للخارجي الشخصي اللهم إلا ما يشهد له الحس من ذلك فدليلة شهوده لا تلك البراهين فأين اليقين الذي  
 يحدونه فيها وما يكون تصرف الذهن أيضاً في العقولات الأولى المطابقة للشخصيات بالصور الحالية لافي  
 العقولات الثواني التي تجردها في الرتبة الثانية فيكون الحكم حينئذ يقينياً بمثابة المحسوسات إذ العقولات  
 الأولى أقرب إلى مطابقة الخارج لكمال الانطباق فيها قسم لهم حينئذ دعاوهم في ذلك إلا أنه ينبغي لنا  
 الاعراض عن النظر فيها إذ هو من ترك المسلم لا يعنيه فإن مسائل الطبيعيات لا يهمننا في ديننا ولا معاشنا  
 فوجب علينا تركها وأما ما كان منها في الموجودات التي وراء الحس وهي الروحانيات ويسمونه العلم الإلهي  
 وعلم ما بعد الطبيعة فإن ذواتها مجهولة وأساسها لا يمكن التوصل إليها ولا البرهان عليها لأن تجرده للعقولات  
 من الموجودات الخارجية الشخصية إنما هو ممكن فيها هو مدرك لنا ونحن لا ندرك الذوات الروحانية حتى  
 نجردها من ماهيات أخرى بحجاب الحس بيننا وبينها فلا يتأتى لنا برهان عليها ولا مدرك لنا في إثبات وجودها  
 على الجملة إلا ما نجد بين جنيننا من أمر النفس الانسانية وأحوال مداركها وخصوصاً الرؤيا التي هي  
 وجدانية لكل أحد وما وراء ذلك من حقيقتها وصفاتها فأمر غامض لا سبيل إلى الوقوف عليه وقد صرح  
 بذلك محققوهم حيث ذهبوا إلى أن ما لا مادة له لا يمكن البرهان عليه لأن مقدمات البرهان من شرطها أن  
 تكون ذاتية وقال كبيرهم أفلاطون أن الالهيات لا يوصل فيها إلى يقين وإنما يقال فيها بالخلق والاولى  
 يعني الظن وإذا كنا إنما نحصل بعد التعب والنصب على الظن فقط فيكفينا الظن الذي كان أولاً فأى  
 فائدة لهذه العلوم والاشتغال بها ونحن إنما عنايتنا بتحصيل اليقين فيما وراء الحس من الموجودات  
 وهذه غاية الأفكار الانسانية عندهم وأما قولهم أن السعادة في إدراك الموجودات على ما هي عليه بتلك  
 البراهين فقول مزيف مردود وتفسيره أن الانسان مركب من جزأين أحدهما جسماني والآخر روحاني  
 متمزج به لكل واحد من الجزأين مدارك مختصة به والمدرك فيهما واحد وهو الجزء الروحاني يدرك  
 تارة مدارك روحانية وتارة جسمانية إلا أن المدارك الروحانية يدركها بذاته بغير واسطة والمدارك  
 الجسمانية بواسطة آلات الجسم من الدماغ والحواس وكل مدرك فله ابتهاج بما يدركه واعتبره بحال الصبي  
 في أول مداركه الجسمانية التي هي بواسطة كيف يتبرج بما يصره من الضوء وبما يسمعه من الأصوات فلا  
 شك أن الابتهاج بالادراك الذي للنفس من ذاتها بغير واسطة يكون أشد وألذ فالنفس الروحانية إذا



شعرت بادراكها الذي لها من ذاتها بغير واسطة حصل لها ابتهاج ولذة لا يعبر عنها وهذا الادراك لا يحصل  
 بنظر ولا علم وإنما يحصل بكشف حجاب الحس ونسيان المدارك الجسمانية بالجملة والمتصوفة كثير ما يعنون  
 بحصول هذا الادراك للنفس حصول هذه البهجة فيحاولون بالرياضة امانة القوى الجسمانية ومداركها  
 حتى الفسك من الدماغ ليحصل للنفس إدراكها الذي لها من ذاتها عند زوال الشواغب والموانع الجسمانية  
 فيحصل لهم بهجة ولذة لا يعبر عنها وهذا الذي زعموه بتقدير صحته مسلم لهم وهو مع ذلك غير واف بقصودهم  
 فأما قولهم أن البراهين والأدلة العقلية محصلة لهذا النوع من الادراك والابتهاج عنه فباطل كما رأيت  
 إذ البراهين والأدلة من جملة المدارك الجسمانية لأنها بالقوى الدماغية من الخيال والفكر والذكرون نحن  
 أول شيء نغنى به في تحصيل هذا الادراك امانة هذه القوى الدماغية كلها لا ممانعة له قاذحة فيه وتجد  
 الماهر منهم كفا على كتاب الشفاء والاشارات والنجاء وتلاخيص ابن رشد للفص من تأليف أرسطو  
 وغيره يعثر أوراقها ويتوثق من براهينها ويلتمس هذا القسط من السعادة فيها ولا يعلم أنه يستكثر  
 بذلك من الموانع عنها ومستند في ذلك ما ينقلونه عن أرسطو والفارابي وابن سينا أن من حصل له ادراك  
 العقل "فعال" واتصل به في حياته فقد حصل حظه من هذه السعادة والعقل الفعال عندهم عبارة عن أول  
 رتبة ينكشف عنها الحس من رتب الروحانيات ويحملون الاتصال بالعقل الفعال على الادراك العلمى وقد  
 رأيت فساد وإتباعي أرسطو وأصحابه بذلك الاتصال والادراك إدراك النفس الذي لها من ذاتها  
 وبغير واسطة وهو لا يحصل إلا بكشف حجاب الحس وأما قولهم أن البهجة الناشئة عن هذا الادراك  
 هي عين السعادة الموعود بها فباطل أيضا لأننا اثبتين لنا بما قرأه أن وراء الحس مدركا آخر للنفس من  
 غير واسطة وأنها تبتجج بادراكها ذلك ابتهاجا شديدا وذلك لا يعين لنا أنه عين السعادة الاخرى ولا بد  
 بل هي من جملة الملائد التي لتلك السعادة وأما قولهم أن السعادة في إدراك هذه الموجودات على ما هي  
 عليه فقول باطل مبني على ما كنا قدمناه في أصل التوحيد من الأوهام والاغلاط في أن الوجود عند  
 كل مدرك منحصر في مداركه وبيننا فساد ذلك وأن الوجود أوسع من أن يحاط به أو يستوفي  
 ادراكه بجملةته روحانيا أو جسمانيا والذي يحصل من جميع ما قررناه من مذاههم أن الجزء الروحاني إذا  
 فارق القوى الجسمانية أدرك ادراكا ذاتيا مختصا بصنف من المدارك وهي الموجودات التي أحاط بها علمنا  
 وليس بعام الادراك في الموجودات كلها اذ لم تنحصر وأنه يبتجج من ذلك النحو من الادراك ابتهاجا شديدا  
 كما يبتجج الصبي بمداركه الحسية في أول نشوه ومن لنا بعد ذلك بادراك جميع الموجودات أو بحصول  
 السعادة التي وعدنا بها الشارع ان لم نعمل لها هيئات هيئات لما توعدون وأما قولهم ان الانسان مستقل  
 بتهديب نفسه واصلاحها بما لبسه المحمود من الخلق ومجانبة المذموم فأمر مبني على أن ابتهاج النفس  
 بادراكها الذي لها من ذاتها هو عين السعادة الموعود بها لأن الرذائل عاتقة للنفس عن تمام ادراكها ذلك  
 بما يحصل لها من الملكات الجسمانية وألوانها وقدينا أن أثر السعادة والشقاوة من وراء الادراكات  
 الجسمانية والروحانية فهذا التهديب الذي توصلوا إلى معرفته إنما نفعه في البهجة الناشئة عن الادراك

الروحاني فقط الذي هو على مقاييس وقوانين وأما ماوراء ذلك من السعادة التي وعدنا بها الشارع على امتثال ما أمر به من الأعمال والأخلاق فأمر لا يحيط به مدارك المدركين وقد تنبه لذلك زعيمهم ابن سينا فقال في كتاب المبدأ والمعاد ما معناه أن المعاد الروحاني وأحواله هو مما يتوصل إليه بالبراهين العقلية والمقاييس لأنه على نسبة طبيعية مخفوفة ووتيرة واحدة فلنا في البراهين عليه سعة وأما المعاد الجسماني وأحواله فلا يمكن ادراكه بالبرهان لأنه ليس على نسبة واحدة وقد بسطته لنا الشريعة الحقة الحمديدية فلينظر فيها ولنرجع في أحواله إليها فهذا العلم رأيته غير وافي بمقاصد المتيقنات حوموا عليها مع ما فيه من مخالفة الشرائع وظواهرها وليس له فيما علمنا الاثمة واحدة وهي شحذ الذهن في ترتيب الأدلة والحجاج لتحصيل ملكة الجودة والصواب في البراهين وذلك أن نظم المقاييس وتركيبها على وجه الاحكام والاتقان هو كشرطه في صناعتهم المنطقية وقولهم بذلك في علومهم الطبيعية وهم كثير ما يستعملونها في علومهم الحكيمة من الطبيعيات والتعاليم وما بعدهما فيستولي الناظر فيها بكرة استعمال البراهين بشروطها على ملكة الاتقان والصواب في الحجاج والاستدلالات لأنها وإن كانت غير وافية بمقصودهم فهي أصح ما علمناه من قوانين الاظهار هذه هي ثمرة هذه الصناعة مع الاطلاع على مذاهب أهل العلم وآرائهم ومضارها ما علمت فليكن الناظر فيها متحرزا جهده من معاطبها وليكن نظر من ينظر فيها بعد الامتلاء من الشرعيات والاطلاع على التفسير والفقه ولا يكن أحد عليها وهو خلو من علوم الملة فقل أن نسلم لذلك من معاطبها والله الموفق للصواب وللحق والهادي إليه وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

## ٢٦ ﴿ فصل في ابطال صناعة النجوم وضعف مداركها وفساد غايتها ﴾

هذه الصناعة يزعم أصحابها أنهم يعرفون بها الكائنات في عالم العناصر قبل حدوثها من قبل معرفة قوى الكواكب وتأثيرها في المولدات العنصرية مفردة ومجموعة فتكون لذلك أوضاع الافلاك والكواكب دالة على ما سيحدث من نوع نوع من أنواع الكائنات الكلية والشخصية فالمتقدمون منهم يرون أن معرفة قوى الكواكب وتأثيراتها بالتجربة وهو أمر تقصر الاعمار كلها واجتمعت عن تحصيله إذ التجربة إنما تحصل في المرات المتعددة بالتكرار ليحصل عنها العلم أو الظن وأدوار الكواكب منها ما هو طويل الزمن فيحتاج تكرره إلى آماذ وأحقاب متطاولة يتقاصر عنها ما هو طويل من أعمار العالم وربما ذهب ضعفه منهم إلى أن معرفة قوى الكواكب وتأثيراتها كانت بالوحى وهو رأى قائل وقد كفونا مؤنة ابطاله ومن أوضح الأدلة فيه أن تعلم أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أبعد الناس عن الصنائع وأنهم لا يعترضون للأخبار عن الغيب إلا أن يكون عن الله فكيف يدعون استنباطه بالصناعة ويشيرون بذلك لتابعيهم من الخلق وأما بطليموس ومن تبعه من المتأخرين فيرون أن دلالة الكواكب على ذلك دلالة طبيعية من قبل مزاج يحصل للكواكب في الكائنات العنصرية قال لأن فعل النيران وأثرها في العنصرية ظاهرا لا يسع أحدا جرده مثل فعل الشمس في تبدل الفصول وأمزجتها ونضج الثمار

والزرع وغير ذلك وفعل القمر في الرطوبات والماء وانضاج المواد 'مفنة وفواكه القثاء وسائر أفعاله ثم قال ولنا فيما بعدهما من الكواكب طريقان الأولي التقليد لمن نقل ذلك عنه من أئمة الصناعة إلا أنه غير مقنع للنفس الثانية الحدس والتجربة بقياس كل واحد منهما إلى النير الأعظم الذي عرفنا طبيعته وأثره معرفة ظاهرة فننظر هل يزيد ذلك الكوكب عند القرار في قوته ومزاجه فنعرف موافقته له في الطبيعة أو ينقص عنها فنعرف مضادته ثم إذا عرفنا قواها مفردة عرفناها مركبة وذلك عند تناظرها بأشكال التثليث والتربيع وغيرها ومعرفة ذلك من قبل طبائع البروج بالقياس أيضا إلى النير الأعظم وإذا عرفنا قوى الكواكب كلها فهي مؤثرة في الهواء وذلك ظاهر والمزاج الذي يحصل منها للهواء يحصل لما تحته من المولدات وتتخلق به النطف والبزير فتصير حال البدن المتكون عنها والنفس المتعلقة به الفائضة عليه المكتسبة لما لها منه ولما يتبع النفس والبدن من الأحوال لأن كفيات البزرة والنطفة كفيات لما يتولد عنها وينشأ منها قال وهو مع ذلك ظني وليس من اليقين في شيء وليس هو أيضا من القضاء الإلهي يعني القدر إنما هو من جملة الأسباب الطبيعية للكائن والقضاء الإلهي سابق على كل شيء هذا محصل كلام بطليموس وأصحابه وهو منصوص في كتابه الأربع وغيره ومنه يتبين ضعف مدرك هذه الصناعة وذلك أن العلم الكائن أو الظن به إنما يحصل عن العلم بجملة أسبابه من الفاعل والقابل والصورة والغاية على ما تبين في موضعه والقوى النجومية على ما قررناه إنما هي فاعلة فقط والجزء العنصري هو القابل ثم إن القوى النجومية ليست هي الفاعل بحملتها بل هناك قوى أخرى فاعلة معها في الجزء المادي مثل قوة التوليد للأب والنوع التي في النطفة وقوى الخاصة التي تميز بها صنف من النوع وغير ذلك فالقوى النجومية إذا حصل كمالها وحصل العلم فيها إنما هي فاعل واحد من جملة الأسباب الفاعلة للكائن ثم أنه يشترط مع العلم بقوى النجوم وتأثيراتها مزيد حدس وتخمين وحينئذ يحصل عنده الظن بوقوع الكائن والحدس والتخمين قوة للناظر في فكره وليس من علل الكائن ولا من رل الصناعة فإذا فقد هذا الحدس والتخمين رجعت أدراجها عن الظن إلى الشك هذا إذا حصل العلم بالقوى النجومية على سداده ولم تعترضه آفة وهذا معوز لما فيه من معرفة حسابات الكواكب في سيرها لتعرف به أوضاعها ولما أن اختصاص كل كوكب بقوة لا دليل عليه ومدرك بطليموس في إثبات القوى للكواكب الخمسة بقياسها إلى الشمس مدرك ضعيف لأن قوة الشمس غالبية لجميع القوى من الكواكب ومستولية عليها فقل أن يشعر بالزيادة فيها أو النقصان منها عند المقارنة كما قال وهذه كلها قاذحة في تعريف الكائنات الواقعة في عالم العناصر بهذه الصناعة ثم أن تأثير الكواكب فيما تحتها باطل إذ قد تبين في باب التوحيد أن لا فاعل إلا الله بطريق استدلالى كآيته واحتج له أهل علم الكلام بما هو غنى عن البيان من أن اسناد الأسباب والمسببات مجهول الكيفية والعقل متهم على ما يقضى به فيما يظهر بآدى الرأي من التأثير فلعل استنادها على غير صورة التأثير المتعارف



والقدرة الالهية رابطة بينهما كما ربطت جميع الكائنات علوا وسفلا سيما وشرع يرد الحوادث كلها الى قدرة الله تعالى ويرأى مما سوى ذلك والنبوات أيضا منكرة لشأن النجوم وتأثيراتها واستقراء الشرعيات شاهد بذلك في مثل قوله إن الشمس والقمر لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته وفي قوله أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر بي فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكواكب وأما من قال مطرنا بنوء كذا فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب الحديث الصحيح فقد بان لك بطلان هذه الصناعة من طريق الشرع وضعف مداركها مع ذلك من طريق العقل مع ما لها من المضار في العمران الانساني بما تبعث في عقائد العوام من الفساد إذا اتفق الصدق من أحكامها في بعض الاحايين اتفاقا لا يرجع الى تعليل ولا تحقيق فيلج بذلك من لا معرفته ولا يظن اطراد الصدق في سائر أحكامها وليس كذلك فيقع في رد الأشياء الى غير خالقها ثم ما ينشأ عنها كثيرا في الدول من توقع النواطع وما يبعث عليه ذلك التوقع من تطاول الأعداء والمتربصين بالدولة الى الفتك والثورة وقد شاهدنا من ذلك كثيرا فينبغي أن تحظر هذه الصناعة على جميع أهل العمران لما ينشأ عنها من المضار في الدين والدول ولا يقدح في ذلك كون وجودها طبيعيا للبشر بمقتضى مداركهم وعلومهم فالتبر والشر طبيعتان موجودتان في العالم لا يمكن نزعهما وانما يتعلق التكليف بأسباب حصولهما فينتعين السعي في اكتساب الخير بأسبابه ودفع أسباب الشر والمضار هذا هو الواجب على من عرف مفاصل هذا العلم ومضاره وليعلم من ذلك أنها وإن كانت صحيحة في نفسها فلا يمكن أحدا من أهل الملة تحصيل علمها ولا ملكتها بل ان نظرها ناظر وظن الاطاعة بها فهو في غاية القصور في نفس الامر فان الشريعة لما حذرت النظر فيها فقد الاجتماع من أهل العمران لقراءتها والتحقيق لتعليمها وصار المولع بها من الناس وهم الأقل وأقل من الأقل انما يطالع كتبها ومقالاتها في كسريته مستترا عن الناس وتحت ربة الجمهور مع تشعب الصناعة وكثرة فروعها واعتياصها على الفهم فكيف يحصل منها على طائل ونحن نجد الفقه الذي عم نفعه دينا ودنيا وسهلت ما أخذه من الكتاب والسنة وعكف الجمهور على قراءته وتعليمه ثم بعد التحقيق والتجميع وطول المداولة وكثرة المجالس وتعدد ما يحدق فيه الواحد بعد الواحد في الأعصار والأجيال فكيف يعلم مهجور للشيعة مضروب دونه سد الحظر والتحریم مكتوم عن الجمهور صعب المآخذ محتاج بعد الممارسة والتحصيل لأصوله وفروعه الى مزيد حدس وتخمين يكتفان به من الناظر فأين التحصيل والحدق فيه مع هذه كلها ومدعي ذلك من الناس مردود على عقبه ولا شاهد له يقوم بذلك اغرابة الفتن بين أهل الملة وقلة حملته فاعتبر ذلك يتبين لك صحة ما ذهبنا اليه والله أعلم بالغيب فلا يظهر على غيبه أحدا \* ومما وقع في هذا المعنى لبعض أصحابنا من أهل العصر عند ما غلب العرب عساكر السلطان أبي الحسن وحاصروه بالقيروان وكثر جفاف الفريقين الأولياء والأعداء وقال في ذلك أبو القاسم الرحوي من شعراء أهل تونس

أستغفر الله كل حين \* قد ذهب العيش والهناء

أصبح في تونس وأمسى \* والصبح لله والمساء  
الخوف والجوع والمنايا \* يحدثها الهرج والوباء  
والناس في مرية وحرب \* وما عسى ينفع المراء  
فأحمدي يرى عليا \* حل به الهلك والتواء  
وآخر قال سوف يأتي \* به اليكم صبا رخاء  
والله من فوق ذا وهذا \* يقضى لعبديه ما يشاء  
ياراصد الخنس الجوارى \* ما فعلت هذه السماء  
مطلتمونا وقد زعمتم \* أنكم اليوم أملياء  
مر خميس على خميس \* وجاء سبت وأربعاء  
ونصف شهر وعشر ثان \* وثالث ضمه القضاء  
ولا نرى غير زور قول \* أذاك جهل أم ازدراء  
أنا الى الله قد علمنا \* أن ليس يستدفع القضاء  
رضيت بالله لى الها \* حسبكم البدر أو ذكاء  
ماهذه الانجم السوارى \* إلا عباد يد أو امام  
يقضى عليها وليس تقضى \* وما لها فى الورى اقتضاء  
ضلت عقول ترى قديما \* ماشأنه الجرم والفناء  
وحكمت فى الوجود طبعاً \* يحدثه الماء والهواء  
لم ترحلوا ازاء مر \* تغذوها تربة وماء  
الله ربى ولست أدري \* ما الجوهر الفرد والخلاء  
ولا الهوى الذى تنادى \* مالى عن صورة عراء  
ولا وجود ولا انعدام \* ولا ثبوت ولا انتفاء  
لست أدري ما الكسب الا \* ما جلب البيع والشراء  
وإنما مذهبي ودينى \* ما كان والناس أولياء  
اذ لا فصول ولا أصول \* ولا جدال ولا ارتياء  
ماتبع الصدر واقتفينا \* يا حبذا كان الاقتفاء  
كانوا كما يعلمون منهم \* ولم يكن ذلك الهذاء  
يا أشعري الزمان انى \* أشعرنى الصيف والشتاء  
أنا أجزى الشر شراً \* والخير عن مثله جزاء  
وانى ان أكن مطيعاً \* فرب أعصى ولى رجاء

وانى تحت حكم بار \* أطاعه العرش والثناء  
ليس باسطاركم ولكن \* أتاحه الحكم والقضاء  
لو حدث الا شعري عمن \* له الى رأيه انتهاء  
لقال أخبرهم بانى \* مما يقولونه براء

٢٧ \* فصل في انكار ثمرة الكيمياء واستحالة وجودها وما ينشأ من المفاسد عن انتحالها \*

اعلم أن كثير من العاجزين عن معاشهم تحملهم المطامع على انتحال هذه الصنائع ويرون أنها أحد مذاهب المعاش ووجوهه وأن اقتناء المال منها أيسر وأسهل على مبتغيه فيرتكبون فيها من المتاعب والمشاق ومعاناة الصعاب وعسف الحكام وخسارة الأموال في النفقات زيادة على النيل من غرضه والعطب آخر إذا ظهر على خيعة وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا وإنما أطمعهم في ذلك رؤية أن المعادن تستحيل وينقلب بعضها إلى بعض للمادة المشتركة فيحاولون بالعلاج صيرورة الفضة ذهباً والنحاس فضة ويحسبون أنهم من مكنات عالم الطبيعة ولهم في علاج ذلك طرق مختلفة لا اختلاف مذاهبهم في التدبير وصورته وفي المادة الموضوعة عندهم للعلاج المسماة عندهم بالحجر المكرم هل هي العذرة أو الدم أو الشعر أو البيض أو كذا أو كذا مما سوى ذلك لجملة التدبير عندهم بعد تعيين المادة أن تمهي بالفهر على حجر صلد أملس وتسقى أثناء أمائها بالماء بعد أن يضاف إليها من العقاقير والأدوية ما يناسب القصد منها ويؤثر في انقلابها إلى المعدن المطلوب ثم تحفف بالشمس من بعد السقي أو تطبخ بالنار أو تصعد أو تكلس لاستخراج مائها أو ترابها فإذا رضى بذلك كله من علاجها وتم تدبيره على ما اقتضته أصول صنعتها حصل من ذلك كله تراب أو مائع يسمونه الأكسير ويؤمنون أنه إذا ألقى على الفضة الحماة بالنار عادت ذهباً أو النحاس الحمى بالنار عادت فضة على حسب ما قصد به في عمله فيزعم المحققون منهم أن ذلك الأكسير مادة مركبة من العناصر الأربعة حصل فيها بذلك العلاج الخاص والتدبير مزاج ذوقوى طبيعية تصرف ما حصلت فيه إليها وتقلبه إلى صورتها ومزاجها وتثبت فيه ما حصل فيها من الكيفيات والقوى كالخبرة للخبز تقلب العجين إلى ذاتها وتعمل فيه ما حصل لها من الانفشاش والهشاشة ليحسن هضمه في المعدة ويستحيل سريعاً إلى الغذاء وكذا أكسير الذهب والفضة فما يحصل فيه من المعادن يصرفه إليها ويقلبه إلى صورتها وهذا يحصل زعمهم على الجملة فتجدد ما كفين على هذا العلاج يتغنون الرزق والمعاش فيه ويتناقلون أحكامه وقواعده من كتب الأئمة الصناعة من قبلهم يتداولونها بينهم ويتناظرون في فهم لغوزها وكشف أسرارها أذهبي في الأثر كثر تشبه المعجمي كتأليف جابر بن حيان في رسائله السبعين ومسئلة الجريطي في كتابه رتبة الحكم والطغرائي والمغربي في قصائده العريقة في اجادة النظم وأمثالها ولا يحلون من بعدهم هذا كله بطائل منها \* فأوصت يوم ما شيخنا أبا البركات التلغيني كبير مشيخة الاندلس في مثل ذلك ووقفته على بعض التأليف فيها فتصفحها طويلاً ثم رده إلى وقال لي وأنا الضامن له أن لا يعود

لا تترك

P. Kruss's  
Fahit  
Hajjran

There is not a trace of this  
in any good sense



إلى بيته الإباحية / ثم منهم من يقتصر في ذلك على الدلسة فقط أما الظاهرة كتمويه الفضة بالذهب أو النحاس بالفضة أو خلطها على نسبة جزء أو جزأين أو ثلاثة أو الحفية كالقواء الشبه بين المعادن بالصناعة مثل تبويض النحاس وتليينه بالزوق <sup>بالمصعد</sup> فيجىء جسمها معدنيا شبيها بالفضة <sup>بمناشيد</sup> ليخفى إلا على النقاد الماهرة فيقدر أصحاب هذه الدلس مع دلتهم هذه سكة يسربونها في الناس ويطعونها بطابع السلطان تمويهها على الجمهور بالخلاص وهو لاء أخس الناس حرقة وأسوأهم عاقبة لتلبسهم بسرقة أموال الناس فإن صاحب هذه الدلسة إنما هو يدفع نحاسا في الفضة وفضة في الذهب ليستخلصها لنفسه فهو سارق أو أثر من السارق أو معظم هذا الصنف لدينا بالمغرب من طلبة البربر المتنذين بأطراف البقاع ومساكن الأغمار يأوون إلى مساجد البادية ويموهون على الأغنياء منهم بأن بأيديهم صناعة الذهب والفضة والنفوس مولعة بحبها والاستهلاك في طلبها فيحصلون من ذلك على معاش ثم يبقى ذلك عندهم تحت الخوف والرقبة إلى أن يظهر العجز وتقع الفضيحة فيفرون إلى موضع آخر ويستجدون حالا أخرى في استهواء بعض أهل الدنيا بأطعامهم فيما لديهم لا يزالون كذلك في ابتغاء معاشهم وهذا الصنف لا كلام معهم لأنهم بلغوا الغاية في الجهل والرداءة والاحتراف بالسرقه ولا حاسم لعلمهم الاشتداد بالحكام عليهم وتناولهم من حيث كانوا وقطع أيديهم متى ظهروا على شأنهم لأن فيه افساد للسكة التي تعم بها البلوى وهي متمول الناس كافة والسلطان مكلف باصلاحها والاحتياط عليها والاشتداد على مفسديها وأما من انتحل هذه الصناعة ولم يرض بحال الدلسة بل استكف عنها وزه نفسه عن افساد سكة المسلمين ونقودهم وإنما يطلب احالة الفضة للذهب والرصاص والنحاس والقزدير إلى الفضة بذلك النحو من العلاج وبالأكسير الحاصل عنده قلنا مع هؤلاء متكلم وبحث في مداركهم لذلك مع أننا نعلم أن أحدا من أهل العلم لم له هذا الغرض أو حصل منه على بغية إنما تذهب أعمارهم في التدبير والفهر والصلاية والتصعيد والتكليس واعتيام الأخطار بجمع العقاقير والبحث عنها ويتناقلون في ذلك حكايات وقعت لغيرهم ممن تم له الغرض منها أو وقف على الوصول يقنعون باستماعها والمفاوضة فيها ولا يستريون في تصديقها شأن الكلفين المغرمين بوساوس الأخبار فيما يكلفون به فإذا سئلوا عن تحقيق ذلك بالمعاينة أنكروه وقالوا إنما سمعنا ولم نره هكذا شأنهم في كل عصر وجيل \* واعلم أن انتحال هذه الصنعة قديم في العالم وقد تكلم الناس فيها من المتقدمين والتأخرين فلننقل مذاهبهم في ذلك ثم تلوه بما يظهر فيها من التحقيق الذي عليه الأمر في نفسه فنقول ان مبني الكلام في هذه الصناعة عند الحكماء على حال المعادن السبعة المنطوقة وهي الذهب والفضة والرصاص والقزدير والنحاس والحديد والخرصيني هل هي مختلفات بالفصول وكلها أنواع قائمة بأنفسها أو أنها مختلفة بنحو من الكيفيات وهي كلها أصناف لنوع واحد فالذي ذهب إليه أبو نصر الفارابي وتابعه عليه حكماء الأندلس أنها نوع واحد وأن اختلافها إنما هو بالكيفيات من الرطوبة واليبوسة واللين والصلابة والالوان من الصفرة والبياض والسواد

وهي كلها أصناف لذلك النوع الواحد والذي ذهب اليه ابن سينا وتابعه عليه حكماء المشرق أنها مختلفة بالفصول وأنها أنواع متباينة كل واحد منها قائم بنفسه متحقق بحقيقته له فصل وجنس شأن سائر الأنواع وبني أبو نصر الفارابي على مذهبه في اتفاقها بالنوع امكان انقلاب بعضها الى بعض لا مكان تبدل الاعراض حيث ذو علاجها بالصنعة فمن هذا الوجه كانت صناعة الكيمياء عنده بممكنة سهلة المأخذ وبني أبو علي ابن سينا على مذهبه في اختلافها بالنوع انكار هذه الصنعة واستحالة وجودها بناء على أن الفصل لا سبيل بالصناعة اليه وإنما خلقه خالق الأشياء ومقدرها وهو الله عز وجل والفصول مجبولة الحقائق رؤسا بالتصور فكيف يحاول انقلابها بالصنعة وغلطة الطغرائي من أكابرها هذه الصناعة في هذا القول ورد عليه بأن التدبير والعلاج ليس في تخليق الفصل وابداعه وإنما هو في اعداد المادة لقبوله خاصة والفصل يأتي من بعد الاعداد من لدن خالقه وبارئه كما يفيض النور على الأجسام بالصل والامعاء ولا حاجة بنا في ذلك الى تصوره ومعرفة قال وإذا كنا قد عثرنا على تخليق بعض الحيوانات مع الجهل بفصولها مثل العقرب من التراب والتبن ومثل الحيات المتكونة من الشعر ومثل ما ذكره أصحاب الفلاحة من تكوين النحل إذا فقدت من عجائيل البقر وتكوين القصب من قرون ذوات الظلف وتصيير سكرها بحشو القرون بالعسل بين يدي ذلك الفلاح للقرون فما المانع اذا من العثور على مثل ذلك في الذهب والفضة فتتخذ مادة تضيفها للتدبير بعد أن يكون فيها استعداد أول لقبول صورة الذهب والفضة ثم تحاولها بالعلاج الى أن يتم فيها الاستعداد لقبول فصلها انتهى كلام الطغرائي بعينه وهذا الذي ذكره في الرد على ابن سينا صحيح لكن لنا في الرد على أهل هذه الصناعة مأخذ آخر يتبين منه استحالة وجودها وبطلان مزعمهم أجيب لا الطغرائي ولا ابن سينا وذلك أن حاصل علاجهم أنهم بعد الوقوف على المادة المستعدة بالاستعداد الأول يجعلونها موضوعا ويحاذون في تدبيرها وعلاجات تدبير الطبيعة في الجسم المعدني حتى إحالته ذهباً أو فضة ويضاعفون القوى الفاعلة والمنفصلة لئلا يتم في زمان أقصر لأنه تبين في موضعه أن مضاعفة قوة الفاعل تنقص من زمن فعله وتبين أن الذهب إنما يتم كونه في معدنه بعد ألف وثمانين من السنين دورة الشمس الكبرى فإذا تضاعفت القوى والكيفيات في العلاج كان زمن كونه أقصر من ذلك ضرورة على ما قلناه أو يتحرون بعلاجهم ذلك حصول صورة مزاجية لتلك المادة تصيرها كالحجارة فتفعل في الجسم المعالج الأفاعيل المطلوبة في حالته وذلك هو الاكسير على ما تقدم وأعلم أن كل متكون من المولدات العنصرية فلا بد فيه من اجتماع العناصر الأربعة على نسبة متفاوتة إذ لو كانت متكافئة في النسبة لما تم امتزاجها فلا بد من الجزء الغالب على الكل ولا بد في كل تمزج من المولدات من حرارة غريزية هي الفاعلة لكونه الحافظة لصورتها ثم كل متكون في زمان فلا بد من اختلاف أطواره وانتقاله في زمن التكوين من طور الى طور حتى ينتهي إلى غايته وانظر شأن الانسان في طور النطفة ثم العلقة ثم المصغة ثم التصوير ثم الجنين ثم المولود ثم الرضيع ثم إلى نهايته ونسب الأجزاء في كل طور تختلف في مقاديرها وكيفياتها والآل كان الطور بعينه الأول هو الآخر وكذا الحرارة الغريزية في كل طور مخالفة لها في الطور الآخر

*Generatio per se non est (spontaneous generatio)*

*sperm, count as blood, lump of flesh, form, fetus, child, moulting, naturax*

فالنظر الى الذهب ما يكون له في معدنه من الاطوار منذ ألف سنة وثمانين وما ينتقل فيه من الأحوال  
فيحتاج صاحب الكيمياء الى أن يساوق فعل الطبيعة في المعدن ويحاذيه بتدبيره وعلاجه الى أن يتم ومن  
شرط الصناعة أبدأ تصور ما يقصد اليه بالصنعة فمن الأمثال السائرة للحكام أول العمل آخر الفكرة وآخر  
الفكرة أول العمل فلا بد من تصور هذه الحالات للذهب في أحواله المتعددة ونسبها المتفاوتة في كل  
طور واختلاف الحال الغريزي عند اختلافها ومقدار الزمان في كل طور وما ينوب عنه من مقدار القوى  
المضاعفة ويقوم مقامه حتى يحاذي بذلك كله فعل الطبيعة في المعدن أو تبدل بعض المواد صورة مزاجية  
تكون كصورة الخمرة للخبز وتعمل في هذه المادة المناسبة لقواها ومقاديرها وهذه كلها إنما يخلصرها  
العلم المحيط والعلوم البشرية قاصرة عن ذلك وإنما حال من يدعى حصوله على الذهب بهذه الصنعة بمثابة  
من يدعى بالصنعة تخليق إنسان من المني ونحن إذا سلمنا له الاحاطة بأجزائه ونسبته وأطواره وكيفية  
تخليقه في رحمه وعلم ذلك علما محصلا بتفاصيله حتى لا يشذ منه شيء عن علمه سلمنا له تخليق هذا الإنسان  
وأني له ذلك \* ولتقرب هذا البرهان بالاختصار ليسهل فهمه فنقول حاصل صناعة الكيمياء وما  
يدعونه بهذا التدبير أنه مساوقة الطبيعة المعدنية بالفعل الصناعي ومحاذاتها به الى أن يتم كون الجسم  
المعدني أو تخليق مادة بقوى وأفعال وصورة مراحية تفعل في الجسم فعلا طبيعيا فتصيره وتقلبه الى  
صورتهما أو الفعل الصناعي مسبوق بتصورات أحوال الطبيعة المعدنية التي يقصد مساوقتها أو محاذاتها  
أو فعل المادة ذات القوى فيها تصور مفصلا واحدة بعد أخرى وتلك الأحوال لانهاية لها والعلم البشري  
عاجز عن الاحاطة بما دونها وهو بمثابة من يقصد تخليق إنسان أو حيوان أو نبات أو هذا عصل هذا  
البرهان وهو أوثق ماعلمته وليست الاستحالة فيه من جهة الفصول كما رأيت ولا من الطبيعة إنما هو من  
تعذر الاحاطة وقصور البشر عنها وما ذكره ابن سينا بمنزل عن ذلك وله وجه آخر في الاستحالة من  
جهة غايته وذلك أن حكمة الله في الحجرين وندورهما أنهما قيم لم يكسب الناس وتمعوا لاتهم فلو حصل  
عليهما بالصنعة لبطلت حكمة الله في ذلك وكثر وجودهما حتى لا يحصل أحد من اقتنائهما على شيء وله وجه  
آخر من الاستحالة أيضا وهو أن الطبيعة لا تترك أقرب من الطرق في أفعالها وترتكب الأعوص  
والأبعد فلو كان هذا الطريق الصناعي الذي يزعمون أنه صحيح وأنه أقرب من طريق الطبيعة في  
معدنها وأقل زمانا لما تركته الطبيعة إلى طريقها الذي سلكته في كون الفضة والذهب وتخليقها وأما  
تشبيه الطغرائي هذا التدبير بما عثر عليه من مفردات لأمثاله في الطبيعة كالعقرب والنحل والحية  
وتخليقها فأمر صحيح في هذه أدى اليه العثور كما زعم وأما الكيمياء فلم ينتقل عن أحد من أهل العلم أنه  
عثر عليها ولا على طريقها وما زال منتحلوها يخطون فيها خبط عشواء إلى هلم جرا ولا يطفرون الا  
بالحكايات الكاذبة ولو صح ذلك لأحد منهم لحفظه عنه أولاده أو تلميذه وأصحابه وتوقل في الأصدقاء  
وضمن تصديقه صحة العمل بعده إلى أن ينتشر ويبلغ إلينا أو إلى غيرنا وأما قولهم أن الأكسير بمثابة  
الخمرة وأنه مركب يحيل ما يحصل فيه ويقلبه إلى ذلك فاعلم أن الخمرة إنما تقلب العجين وتعدده للضم وهو



فساد في المواسهل يقع بأيسر شيء من الأفعال والطبائع والمطلوب بالا كسير قلب المعادن الى ما هو  
أشرف منه وأعلى فهو تكوين وصلاح والتكوين أصعب من الفساد فلا يقاس الا كسير بالخير ولو تحقيق  
الامر في ذلك أن الكيمياء إن صح وجودها كما زعم الحكماء المتكلمون فيها مثل جابر بن حيان  
ومسلمة بن أحمد الجريطي وأمثالهم فليست من باب الصنائع الطبيعية ولا تتم بأمر صناعي وليس  
كلامهم فيها من منجى الطبيعيات إنما هو من منجى كلامهم في الأمور السحرية وسائر الخوارق وما  
كان من ذلك للحلاج وغيره وقد ذكر مسلمة في كتاب الغاية ما يشبه ذلك وكلامه فيها في كتاب رتبة  
الحكيم من هذا المنجى وهذا كلام جابر في رسائله ونحو كلامهم فيه معروف ولا حاجة بنا الى شرحه  
وبالجملة فأمرها عندهم من كليات المواد الخارجة عن حكم الصنائع فكما لا يتدبر بأمته الخشب والحيوان  
في يوم أو شهر خشبا أو حيوانا فيما عدا مجرى خلقه كذلك لا يتدبر ذهب من مادة الذهب في يوم ولا شهر  
ولا يتغير طريق عادته الأبارق فادماوراء عالم الطبائع وعمل الصنائع فكذلك من طلب الكيمياء طلبا  
صناعيا ضيغ ماله وعمله ويقال لهذا التدبير الصناعي التدبير العقيم لأن نيلها إن كان صحيحا فهو واقع  
مما وراء الطبائع والصنائع فهو كالمشي على الماء وامتطاء الهواء والنفوذ في كثايف الأجساد ونحو ذلك  
من كرامات الأولياء الخارقة للعادة أو مثل تخليق الطير ونحوها من معجزات الأنبياء قل تعالى وإذا  
خلق من الطين كهيئة الطير باذني فتنفخ فيها فتكون طيرا باذني وعلى ذلك فسبيل تيسيرها مختلف  
بحسب حال من يؤتاها فربما أوتيتها الصالح ويؤتيها غيره فتكون عنده معارة وربما أوتيتها الصالح ولا  
يملك إتيانها فلا تتم في يد غيره ومن هذا الباب يكون عملها سحريا فقد تبين أنها إنما تقع بتأثيرات  
النفوس وخوارق العادة <sup>في يوم أو شهر</sup> أو كرامة أو سحر ولهذا كان كلام الحكماء كلهم فيها الغال لا يظفر  
بحقيقته الا من خاض لجة من علم السحر وأطلع على تصرفات النفس في عالم الطبيعة وأمور خرق العادة  
غير منحصرة ولا يقصد أحد إلى تحصيلها والله بما يعملون محيط أو أكثر ما يحمل على التماس هذه الصناعة  
واتحاليها هو كما قلناه العجز عن الطرق الطبيعية للعاش وابتغاؤه من غير وجوه الطبيعة كالزراعة  
والتجارة والصناعة فيستصعب العاجز ابتغاؤه من هذه ويروم الحصول على الكثير من المال دفعة  
بوجوه غير طبيعية من الكيمياء وغيرها أو أكثر من يعني بذلك الفقراء من أهل العمران حتى في  
الحكماء المتكلمين في انكارها واستحالتها فان ابن سينا القائل باستحالتها كان عليه الوزراء فكان من  
أهل الغنى والثروة والفارابي القائل بإمكانها كان من أهل الفقر الذين يعوزهم أدنى بلغة من المعاش  
وأاسبابه وهذه تهمة ظاهرة في أنظار النفوس المولعة بطرقها واتحاليها والله الرزاق ذو القوة  
المتين لا رب سواه

## ٢٨ ﴿ فصل في أن كثرة التأليف في العلوم عاقبة عن التحصيل ﴾

( أعلم ) أنه مما أضر بالناس في تحصيل العلم والوقوف على غايته كثرة التأليف واختلاف الاصطلاحات

مستحسن  
بش  
Sahib

في التعليم وتعد طرقها ثم مطالبة المتعلم والتلميذ باستحضار ذلك وحينئذ يسلم له منصب التحصيل فيحتاج المتعلم إلى حفظها كلها أو أكثرها ومراعاة طرقها ولا يني عمره بما كتب في صناعة واحدة إذا تجرد لها فيقع القصور ولا بد دون رتبة التحصيل ويمثل ذلك من شأن الفقه في المذهب المالكي بكتاب المدونة  
مثلا وما كتب عليها من الشروحات الفقهية مثل كتاب ابن يونس واللخمي وابن بشير والتنبيهات والمقدمات والبيان والتحصيل على العتبية وكذلك كتاب ابن الحاجب وما كتب عليه ثم أنه يحتاج إلى تمييز الطريقة القيروانية من القرطبية والبغدادية والمصرية وطرق التأخرين عنهم والاحاطة بذلك كله وحينئذ يسلم له منصب الفتاوى كلها متكررة والمعنى واحد والمتعلم مطالب باستحضار جميعها وتمييز ما بينها والعمر ينقضي في واحد منها ولو اقتصر المعلمون بالتعليم على المسائل المذهبية فقط لكان الأمر بدون ذلك بكثير كان التعليم سهلا وما أخذه قريبا ولكنه دائر لا يرتفع لاستقرار العوائد عليه فصارت كالطبيعة التي لا يمكن نقلها ولا تحويلها ويمثل أيضا علم العربية من كتاب سيدييه وجميع ما كتب عليه وطرق البصريين والكوفيين والبغداديين والأندلسيين من بعدهم وطرق المتقدمين والتأخرين مثل ابن الحاجب وابن مالك وجميع ما كتب في ذلك وكيف يطالب به المتعلم وينقضي عمره دونه ولا يطمع أحد في الغاية منه إلا في القليل النادر مثل ما وصل إلينا بالمغرب لهذا العهد من تأليف رجل من أهل صناعة العربية من أهل مصر يعرف بابن هشام ظهر من كلامه فيها أنه استولى على غاية من ملكة تلك الصناعة لم تحصل إلا لسيدييه وابن جني وأهل طبقة ما لعظم ملكته وما أحاط به من أصول ذلك الفن وتفاريعه وحسن تصرفه فيه ودل ذلك على أن الفضل ليس منحصر في المتقدمين سيامع ما قدمناه من كثرة الشواغب بتعدد المذاهب والطرق والتأليف ولكن فضل الله يؤتيه من يشاء وهذا نادر من نواذر الوجود والافالظاهر أن المتعلم ولو قطع عمره في هذا كله فلا يني له بتحصيل علم العربية مثلا الذي هو آله من الآلات ووسيلة فكيف يكون في المقصود الذي هو الثمرة ولكن الله يهدي من يشاء

## ٢٩ ﴿فصل في أن كثرة الاختصارات المؤلفة في العلوم مخلة بالتعليم﴾

ذهب كثير من المتأخرين إلى اختصار الطرق والأنحاء في العلوم يولعون بها ويدنون منها برناجها مختصرا في كل علم يشتمل على حصر مسائله وأدلتها باختصار في الألفاظ وحشو القليل منها بالمعاني الكثيرة من ذلك الفن وصار ذلك مخلا بالبلاغة وعسرا على الفهم وربما عمدوا إلى الكتب الأمهات المطولة في الفنون للتفسير والبيان فاختصروها وتقريباً للحفظ كما فعله ابن الحاجب في الفقه وأصول الفقه وابن مالك في العربية والخونجي في المنطق وأمثالهم وهو فساد في التعليم وفيه إخلال بالتحصيل وذلك لأن فيه تخليطا على المبتدى بالقاء الغايات من العلم عليه وهو لم يستعد لقبولها بعد وهو من سوء التعليم كما سيأتي ثم فيه مع ذلك شغل كبير على المتعلم بتتبع ألفاظ الاختصار العويصة للفهم يتزاحم المعاني عليها

وصعوبة استخراج المسائل من بينها لأن ألفاظ المختصرات تجدها لاجل ذلك صعبة عويصة فينقطع في فهمها حظ صالح من لوقت ثم بعد ذلك فالملكة الحاصلة من التعليم في تلك المختصرات اذا تم على سداده ولم تعقبه آفة فهي ملكة قاصرة عن الملكات التي تحصل من الموضوعات البسيطة المطولة بكثرة ما يقع في تلك من التكرار والاحالة المفيد لحصول الملكة النامة واذا اقتصر على التكرار قصرت الملكة لقلته كشأن هذه الموضوعات المختصرة فقصدوا الى تسهيل الحفظ على المتعلمين فأركبوا صعبا يقطعهم عن تحصيل الملكات النافعة وتمكنها ومن يهدي الله فلا مضل له ومن يضل فلا هادي له والله سبحانه وتعالى أعلم

### ٣٠ \* فصل في وجه الصواب في تعليم العلوم وطريق إفادته \*

(إعلم) أن تلقين العلوم للمتعلمين إما يكون مفيدا اذا كان على التدريج شيئا فشيئا وقليلًا قليلًا يلقى عليه أو لامسائل من كل باب من الفن هي أصول ذلك الباب ويقرب له في شرحها على سبيل الاجمال ويراعى في ذلك قوة عقله واستعداده لقبول ما يرد عليه حتى ينتهي الى آخر الفن وعند ذلك يحصل له ملكة في ذلك العلم إلا أنها جزئية وضعيفة وغايتها أنها هيأته لفهم الفن وتحصيل مسائله ثم يرجع به الى الفن ثانية فيرفعه في التلقين عن تلك الرتبة الى أعلى منها ويستوفي الشرح والبيان ويخرج عن الاجمال ويذكر له ما هنالك من الخلاف ووجهه الى أن ينتهي الى آخر الفن فتجود ملكته ثم يرجع به وقد شد فلا يترك عويضا ولا مهما ولا مغلقا إلا وضح وفتح له مقفله فيخلص من الفن وقد استولى على ملكته هذا وجه التعليم المفيد وهو كما رأيت إنما يحصل في ثلاث تكرارات وقد يحصل للبعض في أقل من ذلك بحسب ما يخلق له ويتيسر عليه وقد شاهدنا كثيرا من المعلمين لهذا العهد الذي أدر كنا يجهلون طرق التعليم وإفادته ويحضرون المتعلم في أول تعليمه المسائل المقفلة من العلم ويطلبونه باحضار ذهنه في حلها ويحسبون ذلك مرانا على التعليم وصوابا فيه ويكلفونه رعى ذلك وتحصيله ويخلطون عليه بما يلقون له من غايات الفنون في مبادئها وقبل أن يستعد لفهمها فان قبول العلم والاستعدادات لفهمه تنشأ تدريجا ويكون المتعلم أول الأمر عاجزا عن الفهم بالجملة إلا في الأقل وعلى سبيل التقريب والاجمال وبالأمثال الحسية ثم لا يزال الاستعداد فيه يتدرج قليلا قليلا بمخالفة مسائل ذلك الفن وتكرارها عليه والانتقال فيها من التقريب الى الاستيعاب الذي فوقه حتى تتم الملكة في الاستعداد ثم في التحصيل ويحيط هو بمسائل الفن واذا ألقيت عليه الغايات في البدايات وهو حينئذ عاجز عن الفهم والوعى وبعيد عن الاستعداد له كل ذهنه عنها وحسب ذلك من صعوبة العلم في نفسه فتكاسل عنه وانحرف عن قبوله وتمادى في هجرانه وإنما أتى ذلك من سوء التعليم ولا ينبغي للمعلم أن يزيد متعلمه على فهم كتابه الذي أكتب على التعلم منه بحسب طاقته وعلى نسبة قبوله للتعليم مبتدئا كان أو منتهيا ولا يخلط مسائل الكتاب بغيرها حتى يعيه من أوله الى آخره ويحصل أغراضه ويستولى منه على ملكة



بها ينفذ في غيره لأن المتعلم إذا حصل ملكة ما في علم من العلوم استعدادها للقبول ما بقي وحصل له نشاط في طلب المزيد والنهوض إلى ما فوق حتى يستولى على غايات العلم وإذا خلط عليه الأمر عجز عن الفهم وأدركه الكلال وانطمس فكره ويئس من التحصيل وهجر العلم والتعليم والله يهدي من يشاء وكذلك ينبغي لك أن لا تطول على المتعلم في الفن الواحد بتفريق المجالس وتقطيع ما بينها لانه ذريعة إلى النسيان وانقطاع مسال الفن بعضها من بعض فيعسر حصول الملكة بتفريقها وإذا كانت أوائل العلم وأواخره حاضرة عند الفكر مجابة للنسيان كانت الملكة أيسر حصولا وأحكم ارتباطا وأقرب صبغة لأن الملكات إنما تحصل بتتابع الفعل وتكراره وإذا تنوسي الفعل تنوسيت الملكة الناشئة عنه والله علمكم ما لم تكونوا تعلمون ومن المذاهب الجميلة والطرق الواجبة في التعلم أن لا يخلط على المتعلم علمان معا فإنه حينئذ قل أن يظفر بواحد منهما ما فيه من تقسيم البال وانصرافه عن كل واحد منهما إلى تفهم الآخر فيستغلطان معا ويستصعبان ويعود منهما بالخشية وإذا تفرغ الفكر لتعليم ما هو بسيله مقتصر عليه فربما كان ذلك أجدر بتحصيله والله سبحانه وتعالى الموفق للصواب

( فصل ) واعلم أيها المتعلم أني أخفك بفائدة في تعلمك فإن تلقيتها بالقبول وأمسكتها بيد الصناعة ظفرت بكنز عظيم وذخيرة شريفة وأقدم لك مقدمة تعينك في فهمها وذلك أن الفكر الانساني طبيعة مخصوصة فطرها الله كما فطر سائر مبتدعاته وهو وجدان حركة للنفس في البطن الأوسط من الدماغ تارة يكون مبتدأ للأفعال الانسانية على نظام وترتيب وتارة يكون مبتدأ العلم ما لم يكن حاصلًا بأن يتوجه إلى المطلوب وقد تصور طرفيه ويروم نفيه أو إثباته فيلوح له الوسط الذي يجمع بينهما أسرع من لمح البصر ان كان واحدا وينتقل إلى تحصيل آخر ان كان متعددا ويصير إلى الظفر بمطلوبه هذا شأن هذه الطبيعة الفكرية التي تميز بها البشر من بين سائر الحيوانات ثم الصناعة المنطقية هي كيفية فعل هذه الطبيعة الفكرية النظرية تصفه لتعلم سداده من خطئه لأنها وإن كان الصواب لها ذاتيا إلا أنه قد يعرض لها الخطأ في الأقل من تصور الطرفين على غير صورتها من اشتباه الهيات في نظم القضايا وترتيبها للنتائج فتعين المنطق للتخلص من ورطة هذا الفساد إذا عرض للمنطق إذا أمر صناعي مساوق للطبيعة الفكرية ومنطبق على صورة فعلها ولكونه أمرا صناعيا استغني عنه في الأثر كثر ولذلك تجد كثيرا من خول النظر في الحليقة يحصلون على المطالب في العلوم بدون صناعة المنطق ولا سيما مع صدق النية والتعرض لرحمة الله فإن ذلك أعظم معنى ويسلكون بالطبيعة الفكرية على سدادها فيفضي بالطبع إلى حصول الوسط والعلم بالمطلوب كما فطرها الله عليه ثم من دون هذا الأمر الصناعي الذي هو المنطق مقدمة أخرى من التعلم وهي معرفة الألفاظ ودلالاتها على المعاني الذهنية تردها من مشافهة الرسوم بالكتاب ومشافهة اللسان بالخطاب فلا بد أيها المتعلم من مجاوزتك هذه الحجب كلها إلى الفكر في مطلوبك فأولا دلالة الكتابة المرسومة على الألفاظ المقولة وهي أخفها ثم دلالة الألفاظ المقولة على المعاني المطلوبة ثم القوانين في ترتيب المعاني للاستدلال في قواها المعروفة في صناعة المنطق ثم تلك المعاني

مجردة في الفكر اشراك يقتض بها المطلوب بالطبيعة الفكرية بالتعرض لرحمة الله وليس كل أحد يتجاوز هذه المراتب بسرعة ولا يقطع هذه الحجب في التعليم بسهولة بل ربما وقف الذهن في حجب الألفاظ بالمناقشات أو عثر في اشراك الأدلة بشغب الجدال والشبهات وقعد عن تحصيل المطلوب ولم يكديتخلص من تلك الغمرة إلا قليل ممن هداه الله فإذا ابتليت بمثل ذلك وعرض لك ارتباك في فهمك أو تشغيب بالشبهات في ذهنك فاطرح ذلك وانتبذ حجب الألفاظ وعوائق الشبهات في وأترك الأمر الصناعي جملة وأخلص إلى فضاء الفكر الطبيعي الذي فطرت عليه وسرح نظرك فيه وفرغ ذهنك فيه للغوص على مرامك منه واضعاً لها حيث وضعها كابر النظر قبلك مستعرضاً للفتح من الله كما فتح عليهم من ذهنهم من رحمته وعلمهم ما لم يكونوا يعلمون فإذا فعلت ذلك أشرفت عليك أنوار الفتح من الله بالظفر بمطلوبك وحصل الامام الوسط الذي جعله الله من مقتضيات هذا الفكر وفطره عليه كما قلناه وحينئذ فارجع به إلى قوالب الأدلة وصورها فأفرغه فيها ووفه حقه من القانون الصناعي ثم اكسه صور الألفاظ وأبرزه إلى عالم الخطاب والمشاهدة وثيق العرى صحيح البنيان \* وأما ان وقعت عند المناقشة والشبهة في الأدلة الصناعية وتمحيص صوابها من خطئها وهذه أمور صناعية وصعبة تستوي جهاتها المتعددة وتشابهها لجل الوضع والاصطلاح فلا تتميز جهة الحق منها إذ جهة الحق إنما تستبين إذا كانت بالطبع فيستمر ما حصل من الشك والارتباب وتسدل الحجب على المطلوب وتقع بالناظر عن تحصيله وهذا شأن الأَكْثَرين من الناظر والمتأخرين سيما من سبقت له عجمة في لسانه فربطت على ذهنه ومن حصل له شغب بالقانون المنطقي تعصب له فاعتقد أنه الذريعة إلى إدراك الحق بالطبع فيقع في الحيرة بين شبه الأدلة وشكوكها ولا يكاد يخلص منها والذريعة إلى إدراك الحق بالطبع إنما هو الفكر الطبيعي كما قلناه إذا جرد عن جميع الأوهام وتعرض الناظر فيه إلى رحمة الله تعالى وأما المنطق فأنما هو واصف لفعل هذا الفكر فيساوقه لذلك في الأَكْثَر فاعتبر ذلك واستمطر رحمة الله تعالى متى أعوزك فهم المسائل تشرق عليك أنواره بالألهام إلى الصواب والله الهادي إلى رحمته وما العلم إلا من عند الله

### ٣١ ﴿ فصل في أن العلوم الإلهية لا توسع فيها إلا نظار ولا تفرع المسائل ﴾

( إعلم ) أن العلوم المتعارفة بين أهل العمران على صنفين علوم مقصودة بالذات كالشرعيات من التفسير والحديث والفقه وعلم الكلام والطبيعات والالهييات من الفلسفة وعلوم هي آلية وسيلة لهذه العلوم كالعربية والحساب وغيرهما للشرعيات وكل منطلق للفلسفة وربما كان آلة لعلم الكلام ولاصول الفقه على طريقة المتأخرين فأما العلوم التي هي مقاصد فلا حرج في توسعة الكلام فيها وتفرع المسائل واستكشاف الأدلة والألفاظ فإن ذلك يزيد طالها تمكينا في ملكته وإيضاحا لمعانيها المقصودة وأما العلوم التي هي آلة لغيرها مثل العربية والمنطق وأمثالها فلا ينبغي أن ينظر فيها إلا من حيث هي آلة لذلك الغير

فقط ولا يوسع فيها الكلام ولا تفرع المسائل لأن ذلك مخرب <sup>١</sup> عن المقصود اذ المقصود منها ما هي آله لا غير فكما خرجت عن ذلك خرجت عن المقصود وصار الاشتغال بها لغوا مع ما فيه من صعوبة الحصول على ملكتها بطولها وكثرة فروعها وربما يكون ذلك عائقا عن تحصيل العلوم المقصودة بالذات لطول وسائلها مع أن شأنها أهم والعمر يقصر عن تحصيل الجميع على هذه الصورة فيكون الاشتغال بهذه العلوم الآلية تضيقا للعمر وشغلا بما لا يعني وهذا كما فعل المتأخرون في صناعة النحو وصناعة المنطق وأصول الفقه لأنهم أوسعوا دائرة الكلام فيها وأكثروا من التفاريع والاستدلالات بما أخرجها عن كونها آلة وصيرها من المقاصد وربما يقع فيها أنظار لا حاجة بها في العلوم المقصودة فهي من نوع اللغو وهي أيضا مضرة بالتعلمين على الإطلاق لأن المتعلمين اهتمامهم بالعلوم المقصودة أكثر من اهتمامهم بوسائلها فإذا قطعوا العمر في تحصيل الوسائل فمق يظفرون بالمقاصد فلهذا يجب على المعلمين لهذه العلوم الآلية أن لا يستبحروا في شأنها وينبها المتعلم على الغرض منها ويقفوا به عنده فمن زرعته هتمته بعد ذلك إلى شيء من التوغل فليرق له ماشاء من المراقى صعبا أو سهلا وكل ميسر لما خلق له

### ٣٢ ﴿ فصل في تعليم الولدان واختلاف مذاهب الأمصار الإسلامية في طرقه ﴾

( اعلم ) أن تعليم الولدان للقرآن شعار من شعار الدين أخذ به أهل الملة ودرجوا عليه في جميع أمصارهم لما يسبق فيه إلى القلوب من رسوخ الأيمان وعمائد من آيات القرآن وبعض متون الأحاديث وصار القرآن أصل التعليم الذي يبنى عليه ما يحصل بعض من الملكات وسبب ذلك أن تعليم الصغار أشد رسوخا وهو أصل لما بعده لأن السابق الأول للقلوب كالأساس للملكات وعلى حسب الأساس وأساليبه يكون حال ما يبنى عليه واختلفت طرقهم في تعليم القرآن للولدان باختلافهم باعتبار ما ينشأ عن ذلك التعليم من الملكات فأما أهل المغرب فمذهبهم في الولدان الاقتصاد على تعليم القرآن فقط وأخذهم أثناء المدارس بالرسم ومسائله واختلف حملة القرآن فيه لا يخلطون ذلك بسواه في شيء من مجالس تعليمهم لا من حديث ولا من فقه ولا من شعر ولا من كلام العرب إلى أن يحدق فيه أو ينقطع عنه فيكون انقطاعه في الغالب انقطاعا عن العلم بالجملة وهذا مذهب أهل الأمصار بالمغرب ومن تبعهم من قرى البربر أم المغرب في ولدانهم إلى أن يجاوز واحد البلوغ إلى الشبيبة وكذا في الكبار إذا راجع مدارس القرآن بعد طائفة من عمره فهم لذلك أقوم على رسم القرآن وحفظه من سوامم أمأهل الأندلس فمذهبهم تعليم القرآن والكتاب من حيث هو وهذا هو الذي يراعيه في التعليم لأنه لما كان القرآن أصل ذلك وأمه ومنبع الدين والعلوم جعلوه أصلا في التعليم فلا يقتصرون لذلك عليه فقط بل يخلطون في تعليمهم للولدان رواية الشعر في الغالب والترسل وأخذهم بقوانين العربية وحفظها وتجويد الخط والكتاب ولا تختص عنايتهم في التعليم بالقرآن دون هذه بل عنايتهم فيه بالخط أكثر من جميعها إلى أن يخرج الولد من عمر البلوغ إلى الشبيبة وقد شدنا بعض الشيء في العربية والشعر والبصر بها وبرز



في الخط والكتاب وتعلق بأذيال العلم على الجملة لو كان فيها سند لتعليم العلوم لكنهم ينقطعون عند ذلك لا يقطع سند التعليم في آفاقهم ولا يحصل بأيديهم الا ما حصل من ذلك التعليم الأول وفيه كفاية لمن أرشده الله تعالى واستعداد إذا وجد المعلم وأما أهل أفريقية فيخلطون في تعليمهم للولدان القرآن بالحديث في الغالب ومدارسه قوانين العلوم وتلقين بعض مسائلها الا أن عنايتهم بالقرآن واستظهار الولدان آياه ووقوفهم على اختلاف رواياته وقراءته أكثر مما سواه وعنايتهم بالخط تبع لذلك وبالجملة فطريقهم في تعليم القرآن أقرب إلى طريقة أهل الأندلس لأن سند طريقهم في ذلك متصل بمشيخة الأندلس الذين أجازوا عند تغلب النصارى على شرق الأندلس واستقروا بتونس وعندهم أخذوا ولدانهم بعد ذلك وأما أهل المشرق فيخلطون في التعليم كذلك على ما يلغنا ولا أدري بم عنايتهم منها والذي ينقل لنا أن عنايتهم بدراسة القرآن وصحف العلم وقوانينه في زمن الشبية ولا يخلطون بتعليم الخط بل لتعليم الخط عندم قانون ومعلمون له على انفراد كما تتعلم سائر الصنائع ولا يتداولونها في مكاتب الصبيان وإذا كتبوا لهم الألواح فيخط قاصر عن الاجادة ومن أراد تعلم الخط فعلى قدر ما يسنح له بعد ذلك من الهمة في طلبه ويتغيه من أهل صنعته فأما أهل أفريقية والمغرب فأقدم الاقتصار على القرآن القصور عن ملكة الانسان جملة وذلك أن القرآن لا ينشأ عنه في الغالب ملكة لما أن البشر مصروفون عن الاتيان بمثله فهم مصروفون لذلك عن الاستعمال على أساليبه والاحتذاء بها وليس لهم ملكة في غير أساليبه فلا يحصل لصاحبه ملكة في اللسان العربي وحظه الجود في العبارات وقلة التصرف في الكلام وربما كان أهل أفريقية في ذلك أخف من أهل المغرب لما يخلطون في تعليمهم القرآن بعبارات العلوم في قوانينها كما قلناه فيقتدرون على شيء من التصرف ومحاذاة المثل بالمثل الا أن ملكتهم في ذلك قاصرة عن البلاغة لما أن أكثر محفوظهم عبارات العلوم النازلة عن البلاغة كما سيأتي في فصله وأما أهل الأندلس فأقدم التفنن في التعليم وكثرة رواية الشعر والترسل ومدارسه العربية من أول العمر حصول ملكة صاروا بها أعرف في اللسان العربي وقصروا في سائر العلوم لعدم عن مدارس القرآن والحديث الذي هو أصل العلوم وأساسها فكانوا لذلك أهل خط وأدب بارع أو مقصر على حسب ما يكون التعليم الثاني من بعد تعليم الصبا ولقد ذهب القاضي أبو بكر بن العربي في كتاب رحلته إلى طريقة غريبة في وجه التعليم وأعاد في ذلك وأبدى وقدم تعليم العربية والشعر على سائر العلوم كما هو مذهب أهل الأندلس قال لأن الشعر ديوان العرب ويدعو إلى تقديمه وتعليم العربية في التعليم ضرورة فساد اللغة ثم ينتقل منه إلى الحساب فيتمرن فيه حتى يرى القوانين ثم ينتقل إلى درس القرآن فإنه يتيسر عليه بهذه المقدمة ثم قال ويأغفلة أهل بلادنا في أن يؤخذ الصبي بكتاب الله في أول أمره يقرأ ما لا يفهم وينصب في أمر غيره أم عليه ثم قال ينظر في أصول الدين ثم أصول الفقه ثم الجدل ثم الحديث وعلومه ونهى مع ذلك أن يخلط في التعليم علما الا أن يكون المتعلم قابلا لذلك بجودة الفهم والنشاط هذا ما أشار إليه القاضي أبو بكر رحمه الله وهو لعمرى مذهب حسن الا أن العوائد لا تساعد عليه وهي أملك بالاحوال ووجه ما اختصت به

العوائد من تقدم دراسة القرآن ايثار التبرك والثواب وخشية ما يعرض للولد في جنون الصبا من الآفات والتقواطع عن العلم فيفوته القرآن لأنه مادام في الحجر منقاد للحكم فاذا تجاوز البلوغ وانحل من ربة القهر فربما عصفت به رياح الشبية فألقته بساحل البطالة فيغتصمون في زمان الحجر وربة الحكم تحصيل القرآن لئلا يذهب خلوا منه ولو حصل اليقين باستمراره في طلب العلم وقبوله التعليم لكان هذا المذهب الذي ذكره القاضي أولى مأخذه أهل المغرب والشرق ولكن الله يحكم ما شاء لا معقب لحكمه سبحانه

### ٣٣ ﴿ فصل في أن الشدة على المتعلمين مضره بهم ﴾

ودلك أن ارهاق الجسد في التعليم مضر بالمتعلم سيما في أصاغر الولد لأنه من سوء الملكة ومن كان مرباه بالعسف والقهر من المتعلمين أو المالك أو الخدم سطا به القهر وضيق على النفس في انبساطها وذهب بنشاطها ودعا الى الكسل وحمل على الكذب والخبث وهو التظاهر بغير ما في ضميره خوفا من انبساط الأيدي بالفهر عليه وعمله المكر والخديعة لذلك وصارت له هذه عادة وخلقا وفسدت معاني الانسانية التي له من حيث الاجتماع والتمرن وهي الحمية المدافعة عن نفسه ومزله وصار عيالا على غيره في ذلك بل وكسبت النفس عن اكتساب الفضائل والخلق الجميل فانقبضت عن غايتها ومدى انسايتها فارتكس وعاد في أسفل السافلين وهكذا وقع لكل أمة حصلت في قبضة القهر ونال منها العسف واعتبره في كل من يملك أمره عليه ولا تكون الملكة الكافلة له رفيقة به تجد ذلك فيهم استقراء وانظره في اليهود وما حصل بذلك فيهم من خلق السوء حتى أنهم يوصفون في كل أفق وعصر بالخرج ومعناه في الاصطلاح المشهور الخباث والكيد وسببه ما قلناه فينبغي للمعلم في متعلمه والوالد في ولده أن لا يستبدوا عليهم في التأديب وقد قال أبو محمد بن أبي زيد في كتابه الذي ألفه في حكم المعلمين والمتعلمين لا ينبغي لمؤدب الصبيان أن يزيد في ضربهم إذا احتاجوا اليه على ثلاثة أسواط شيئا ومن كلام عمر رضي الله عنه من لم يؤدبه الشرع لأدبه الله حرصا على صون النفوس عن مذلة التأديب وعلمنا بأن المقدار الذي عينه الشرع لذلك أملك له فانه أعلم بمصلحته ومن أحسن مذاهب التعليم ما تقدم به الرشيد لمعلم ولده محمد الأمين فقال يا أحمران أمير المؤمنين قد دفع اليك مهجة نفسه وثمره قلبه فصير يدك عليه مبسوطة وطاعته لك واجبة فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين أقرئه القرآن وعرفه الأخبار وروه الأشعار وعلمه السنن وبصره بمواقع الكلام وبدئه وامنعه من الضحك الا في أوقته وخذ به تعظيم مشايخ بني هاشم اذا دخلوا عليه ورفع مجالس القواد اذا حضر واجلسه ولا تمرن بك ساعة الا وانت مغتم فائدة تفيدها بها من غير أن تحزنه فتमित ذهنه ولا تمنع في مسامحته فيستحلى الفراغ ويألفه وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة فان أباهما فعليك بالشدة والغلظة اه

### ٣٤ ﴿ فصل في أن الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعلم ﴾

والسبب في ذلك أن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما ينتحلون به من المذاهب والفضائل تارة

علماء وتارة محاكات وتلقينا بالمباشرة الآن حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشد استحكاماً وأقوى رسوخاً فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها والاصطلاحات أيضاً في تعليم العلوم مخلطة على المتعلم حتى لقد يظن كثير منهم أنها جزء من العلم ولا يدفع عنه ذلك إلا مباشرته لاختلاف الطرق فيهما من المعلمين فلقاء أهل العلوم وتعدد المشايخ يفيد تمييز الاصطلاحات بما يراه من اختلاف طرقهم فيها فيجد العلم عنها ويعلم أنها أنحاء لتعليم وطرق توصيل وتنهض قواه إلى الرسوخ والاستحكام في الملكات ويصحح معارفه ويميزها عن سواها مع تقوية ملكته بالمباشرة والتلقين وكثرتهم من المشيخة عند تعددهم وتنوعهم وهذا لمن يسر الله عليه طرق العلم والهداية فالرحلة لا بد منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال بقاء المشايخ ومباشرة الرجال والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم

### ٣٥ \* فصل في أن العلماء من بين البشر أبعد عن السياسة ومذاهبها \*

والسبب في ذلك أنهم معتادون النظر الفكري والغوص على المعاني وارتفاعها من المحسوسات وتجريدها في الذهن أموراً كلية عامة ليحكم عليها بأمر العموم لا بخصوص مادة ولا شخص ولا جيل ولا أمة ولا صنف من الناس ويطبقون من بعد ذلك الكلي على الخارجيات وأيضاً يقيسون الأمور على أشباهها وأمثالها بما اعتادوه من القياس الفقهي فلا تزال أحكامهم وأنظارهم كلها في الذهن ولا تصير إلى المطابقة إلا بعد الفراغ من البحث والنظر ولا تصير بالجملة إلى مطابقة وإنما يفرع ما في الخارج عما في الذهن من ذلك كالأحكام الشرعية فانها فروع عما في المحفوظ من أدلة الكتاب والسنة فتطلب مطابقة ما في الخارج لها عكس الأنظار في العلوم العقلية التي تطلب في صحتها مطابقتها لما في الخارج فهم متعودون في سائر أنظاظهم الأمور الذهنية والأنظار الفكرية لا يعرفون سواها والسياسة يحتاج صاحبها إلى مراعاة ما في الخارج وما يلحقها من الأحوال ويتبعها فانها خفية ولعل أن يكون فيها ما يمنع من إلحاقها بشبه أو مثال وينافي الكلي الذي يحاول تطبيقه عليها ولا يقاس شيء من أحوال العمران على الآخر إذ كما اشتبه في أمر واحد فلعلهما اختلفا في أمور فتكون العلماء لأجل ما تعودوه من تعميم الأحكام وقياس الأمور بعضها على بعض إذ انظروا في السياسة أفرغوا ذلك في قالب أنظارهم ونوع استدلالهم فيقعون في الغلط كثيراً ولا يؤمن عليهم ويلحق بهم أهل الذكاء والكيس من أهل العمران لأنهم ينزعون بثقوب أذهانهم إلى مثل شأن الفقهاء من الغوص على المعاني والقياس والمحاكاة فيقعون في الغلط والعامي السليم الطبع المتوسط الكيس لقصور فكره عن ذلك وعدم اعتياده إياه يقتصر لكل مادة على حكمها وفي كل صنف من الأحوال والأشخاص على ما اختص به ولا يتعدي الحكم بقياس ولا تعميم ولا يفارق في أكثر نظره المواد المحسوسة ولا يجاوزها في ذهنه كالسباح لا يفارق البر عند الموج قال الشاعر



فلا توغلن اذا ما سبحت \* فان السلامة في الساحل

فيكون مأمونا من النظر في سياسته مستقيم النظر في معاملة أبناء جنسه فيحسن معاشه وتندفع آفاته ومضاره باستقامة نظره وفوق كل ذي علم عليم ومن هنا يتبين أن صناعة المنطق غير مأمونة الغلط لكثرة ما فيها من الانزعاج وبعدها عن المحسوسات فانها تنظر في المعقولات الثواني ولعل المواد فيها ما يمنع تلك الأحكام وينافها عند مراعاة التطبيق اليقيني وأما النظر في المعقولات الأولى وهي التي تجريدها قريب فليس كذلك لأنها خيالية وصور المحسوسات حافظة مؤذنة بتصديق انطباقه والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

### ٣٦ \* فصل في أن حملة العلم في الاسلام أكثرهم العجم \*

من الغريب الواقع أن حملة العلم في الملة الاسلامية أكثرهم العجم لامن العلوم السريعة ولامن العلوم العقلية الا في القليل النادر وان كان منهم العربي في نسبته فهو عجمي في لغته ومرباه ومشيعته مع أن الملة عربية وصاحب شريعته عربي والسبب في ذلك أن الملة في أولها لم يكن فيها علم ولا صناعة لمقتضى أحوال السداجة والبداءة وإنما أحكام الشريعة التي هي أوامر الله ونواهيه كان الرجال ينقلونها في صدورهم وقد عرفوا مأخذها من الكتاب والسنة بما تلقوه من صاحب الشرع وأصحابه والقوم يومئذ عرب لم يعرفوا أمر التعليم والتأليف والتدوين ولا دفعوا اليه ولا دعيتهم اليه - حاجة وجرى الأمر على ذلك زمن الصحابة والتابعين وكانوا يسمون المختصين بحمل ذلك ونقله القراء أي الذين يقرؤون الكتاب وليسوا أميين لان الأمية يومئذ صفة عامة في الصحابة بما كانوا عربا فقليل لحملة القرآن يومئذ قراء إشارة الى هذا فهم قراء الكتاب والله السنة المأثورة عن الله لا أنهم لم يعرفوا الأحكام الشرعية إلا منه ومن الحديث الذي هو في غالبه ما أورده تفسيره وشرح قال صلى الله عليه وسلم تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وستنقوا فلما بعد النقل من لدن دولة الرشيد فما بعد احتياج الى وضع التفاسير القرآنية وتقييد الحديث مخافة ضياعه ثم احتياج الى معرفة الأسانيد وتعديل الناقلين للتمييز بين الصحيح من الأسانيد وما دونه ثم كثرت استخراج أحكام الوقعات من الكتاب والسنة وفسد مع ذلك اللسان فاحتيج الى وضع القوانين النحوية وصارت العلوم الشرعية كلها ملكات في الاستنباطات والاستخراج والتنظير والقياس واحتاجت الى علوم أخرى وهي وسائلها من معرفة قوانين العربية وقوانين ذلك الاستنباط والقياس والذبح عن العقائد الايمانية بالأدلة لكثرة البدع والاحاد فصارت هذه العلوم كلها علوما ذات ملكات محتاجة الى التعليم فاندرجت في جملة الصنائع وقد كنا قدمنا أن الصنائع من متحل الحضرة وأن العرب أبعد الناس عنها فصارت العلوم لذلك حضرية وبعدها عن العرب وعن سوقها والحضر لذلك العهد العجم أو من في معناهم من الموالي وأهل الحواضر الذين هم يومئذ تبع للعجم في الحضارة وأحوالها من الصنائع والحرف لا أنهم أقوم

على ذلك للحضارة الراسخة فيهم منذ دولة الفرس فكان صاحب صناعة النحو سيويه والفارسي من بعده والزجاج من بعدهما وكلهم عجم في أنسابهم وإنما روي في اللسان العربي فاكثبوه بالمربي ومخالطة العرب وصيروهم قوانين وفنالم من بعدهم وكذا حملة الحديث الذين حفظوه عن أهل الاسلام أكثرهم عجم أو مستعجمون باللغة والمربي وكان علماء أصول الفقه كلهم عجم كما يعرف وكذا حملة علم الكلام وكذا أكثر المفسرين ولم يقيم بحفظ العلم وتبدينه إلا الأعاجم وظهر مصداق قوله صلى الله عليه وسلم لو تعلق العلم بأكناف السماء لناله قوم من أهل فارس وأما العرب الذين أدركوا هذه الحضارة وسوقها وخرجوا اليها عن البداوة فشغلهم الرياسة في الدولة العباسية وما دفعوا اليه من القيام بالملك عن القيام بالعلم والنظر فيه فانهم كانوا أهل الدولة وحاميتها وأولى سياستهم ما يلحقهم من الأئمة عن انتحال العلم حينئذ بما صار من جملة الصنائع والرؤساء أبدا يستنكفون عن الصنائع والمهن وما يجر اليها ودفعوا ذلك الى من قام به من العجم والمولدين وماز الواريون لهم حق القيام به فانه دينهم وعلومهم ولا يختصرون حملتها كل الاحتقار حتى اذا خرج الأمر من العرب جملة وصار للعجم صارت العلوم الشرعية غريبة النسبة عند أهل الملك تمام عليه من البعد عن نسبتها وامتن حملتها بما يرون أنهم بعداء عنهم مشغولين بما لا يعني ولا يمدى عنهم في الملك والسياسة كما ذكرناه في نقل المراتب الدينية فهذا الذي قررناه هو السبب في أن حملة الشريعة أو علمتهم من العجم وأما العلوم العقلية أيضا فلم تظهر في الملة الا بعد أن تميز حملة العلم ومؤلفوه واستقر العلم كله صناعة فاختصت بالعجم وتركها العرب وانصرفوا عن انتحالها فلم يحملها الا العربون من العجم شأن الصنائع كما قلناه أولا فلم يزل ذلك في الأئمة ما دامت الحضارة في العجم وبلادهم من العراق وخراسان وما وراء النهر فلما خربت تلك الأئمة وصار ذهبت منها الحضارة التي هي سر الله في حصول العلم والصنائع ذهب العلم من العجم جملة لما شملهم من البداوة واختص العلم بالأئمة ما صار الموفرة الحضارة ولا أوفر اليوم في الحضارة من مصر فهي أم العالم وإيوان الاسلام وينبوع العلم والصنائع وبقي بعض الحضارة في ما وراء النهر لما هناك من الحضارة بالدولة التي فيها فلم يزل ذلك حصص من العلوم والصنائع لا تتكرر وقد دلنا على ذلك كلام بعض علماءهم في تأليف وصلت اليها الى هذه البلاد وهو سعد الدين انتفازي وأما غيره من العجم فلم تر لهم من بعد الامام ابن الخطيب ونصير الدين بن الطوسي كلاما يعول على نهايته في الاصابة فاعتبر ذلك وتأمله تر عجبا في أحوال الخليفة والله خلق ما يشاء لا اله الا هو وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير وحسبنا الله ونعم الوكيل والحمد لله

أركانها أربعة وهي اللغة والنحو والبيان والأدب ومعرفتها ضرورية على أهل الشريعة اذا ما أخذوا الأحكام الشرعية كلها من الكتاب والسنة وهي بلغة العرب ونقلتها من الصحابة والتابعين عرب

وشرح مشكلاتها من لغاتهم فلا بد من معرفة العلوم المتعلقة بهذا اللسان لمن أراد علم الشريعة وتفاوتت في التأكيذ بتفاوت مراتبها في التوفيق بمقصود الكلام حسبما يتبين في الكلام عليها فإنا والذي يتحصل أن الأئمة المتقدم منها هو النحو اذ به يتبين أصول المقاصد بالدلالة فيعرف الفاعل من المفعول والمبتدي من الخبر ولولا له لجل أصل الافادة وكان من حق علم اللغة التقدم لولا أن أكثر الأئمة وضع باقية في موضوعاتها لم تتغير بخلاف الاعراب الداو على الاسناد والمسند والمسند اليه فانه تغير بالجملة ولم يبق له أثر فلذلك كان علم النحو أم من اللغة اذ في جهله الاخلال بالتفام جملة وليست كذلك اللغة والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

### ✽ علم النحو ✽

اعلم أن اللغة في المتعارف هي عبارة المتكلم عن مقصوده وتلك العبارة فعل لسانی فلا بد أن تصير ملكة متقررة في العضو الفاعل لها وهو اللسان في كل أمة بحسب اصطلاحاتهم وكانت الملكة الحاصلة للعرب من ذلك أحسن الملكات وأوضحها إبانة عن المقاصد لدلالة غير الكلمات فيها على كثير من المعاني مثل الحركات التي تعين الفاعل من المفعول والمجرور أعني المضاف ومثل الحروف التي تفضي بالأفعال الى الدوات من غير تكلف ألفاظ أخرى وليس يوجد ذلك إلا في لغة العرب وأما غيرها من اللغات فكل معني أو حال لا بد له من ألفاظ تخصه بالدلالة ولذلك نجد كلام العجم في مخاطباتهم أطول مما تقدره بكلام العرب وهذا هو معني قوله صلى الله عليه وسلم أوتيت جوامع الكلم واختصر لي الكلام اختصارا فصار لا حروف في لغاتهم والحركات والهيآت أي الأوضاع اعتبار في الدلالة عن المقصود غير متكلفين فيه لصناعة يستفيدون ذلك منها إتمام ملكة في ألسنتهم يأخذها الآخرون الأول كما تأخذ صبياننا لهذا العهد لغاتنا فلما جاء الاسلام وفارقوا الحجاز لطلب الملك الذي كان في أيدي الأئمة والدول وخالطوا العجم تغيرت تلك الملكة بما ألقى اليها السمع من المخالفات التي للمتعرين والسمع أبو الملكات اللسانية ففسدت بما ألقى اليها مما يغيرها لجنوحها اليه باعتياد السمع وخشى أهل العلوم منهم أن تفسد تلك الملكة رأسا ويطول العهد بها فينغلق القرآن والحديث على الفهوم فاستنبطوا من مجاري كلامهم قوانين لتلك الملكة مطردة شبه الكليات والقواعد يقيسون عليها سائر أنواع الكلام ويلحقون الاشباه بالاشباه مثل أن الفاعل مرفوع والمفعول منصوب والمبتدأ مرفوع ثم رأوا تغيير الدلالة بتغير حركات هذه الكلمات فاصطلحوا على تسميته إعرابا وتسمية الموجب لذلك التغير عاملا وأمثال ذلك وصارت كلها اصطلاحات خاصة بهم فقيدها بالكتاب وجعلوها صناعة لهم مخصوصة واصطلحوا على تسميتها بعلم النحو وأول من كتب فيها أبو الاسود الدؤلي من بني كنانة ويقال بإشارة على رضى الله عنه لا نهر أي تغير الملكة فأشار عليه بحفظها ففزع إلى ضبطها بالقوانين الحاضرة المستقرأة ثم كتب فيها الناس من بعده إلى أن انتهت إلى الخليل ابن أحمد الفراهيدي أيام الرشيد أخرج ما كان الناس اليها الذهاب تلك الملكة من من العرب فهدب الصناعة وكل أبو ابها وأخذها عنه سيويوه فكمل تفاريعها واستكثر من أدلتها وشواهدا ووضع فيها كتابه



المشهور الذي صار اماما لكل ما كتب فيها من بعده ثم وضع أبو علي الفارسي وأبو القاسم راجح كتباً مختصرة للمتعلمين يحدون فيها حذو الامام في كتابه ثم طال الكلام في هذه الصناعة وحدث الخلاف بين أهلها في الكوفة والبصرة المصريين القدمين للعرب وكثرت الأدلة والحجج بينهم وتباينت الطرق في التعليم وكثر الاختلاف في اعراب كثير من آي القرآن باختلافهم في تلك القواعد وطال ذلك على المتعلمين وجاء المتأخرون بمذاهبهم في الاختصار فاختصروا كثير من ذلك الطول مع استيعابهم لجميع ما نقل كما فعله ابن مالك في كتاب التسهيل وأمثاله أو اقتصارهم على المبادئ للمتعلمين كما فعله الزمخشري في المفصل وابن الحاجب في المقدمة له وربما نظمو ذلك نظماً مثل ابن مالك في الأرجوزتين الكبرى والصغرى وابن معطى في الأرجوزة الألفية وبالجملة فالتأليف في هذا الفن أكثر من أن تحصى أو يحاط بها وطرق التعليم فيها مختلفة فطريقة المتقدمين مغايرة لطريقة المتأخرين والصكوفيون والبصريون والبغداديون والاندلسيون مختلفة طرقهم كذلك وقد كادت هذه الصناعة أن تؤذن بالذهاب لما رأينا من النقص في سائر العلوم والصنائع يتناقص العمران ووصل إلينا بالمغرب لهذه العصور ديوان من مصر منسوب إلى جمال الدين ابن هشام من علماءها استوفى فيه أحكام الأعراب مجمل ومفصلة وتكلم على الحروف والمفردات والجل وحذف ما في الصناعة من المتكرر في أكثر أبوابها وسماه بالمغني في الأعراب وأشار إلى نكت إعراب القرآن كلها وضمها بأبواب وفصول وقواعد انتظمت سائرها فوقفنا منه على علم جم يشهد بعاقبته في هذه الصناعة ووفور بضاعته منها وكأنه ينحو في طريقته منحاه أهل الموصل الذين اقتفوا أثر ابن جني واتبعوا مصطلح تعليمه فأتى من ذلك بشئ عجيب دال على قوة ملكته وإطلاعه والله يزيد في الخلق ما يشاء

### ﴿ علم اللغة ﴾

هذا العلم هو بيان الموضوعات اللغوية وذلك أننا فسدت ملكة اللسان العربي في الحركات المسماة عند أهل النحو بالأعراب واستنبطت القوانين لحفظها كما قلناه ثم استمر ذلك الفساد بلا بسة العجم ومخالطتهم حتى تأدى الفساد إلى موضوعات الألفاظ فاستعمل كثير من كلام العرب في غير موضوعه عند ميلهم مع هجنة التعرّيبين في اصطلاحاتهم المخالفة لصريح العربية فاحتيج إلى حفظ الموضوعات اللغوية بالكتاب والتدوين خشية الدروس وما ينشأ عنه من الجهل بالقرآن والحديث فشمركثير من أئمة اللسان لذلك وأملوا فيه الدواوين وكان سابق الحلبة في ذلك الخليل بن أحمد الفراهيدي ألف فيها كتاب العين فصر فيه مركبات حروف المعجم كلها من الثنائي والثلاثي والرابعي والخماسي وهو غاية ما ينتهي إليه التركيب في اللسان العربي وتأتي له حصر ذلك بوجوه عديدة حاصرة وذلك أن جملة الكلمات الثنائية تخرج من جميع الأعداد على التوالي من واحد إلى سبعة وعشرين وهو دون نهاية حروف المعجم بواحد لأن الحرف الواحد منها يؤخذ مع كل واحد

من السبعة والعشرين فتكون سبعة وعشرين كلمة ثنائية ثم يؤخذ الثاني مع الستة والعشرين كذلك ثم الثالث والرابع ثم يؤخذ السابع والعشرون مع الثامن والعشرين فيكون واحدا فتكون كلها أعدادا على توالي العدد من واحد الى سبعة وعشرين فتجمع كما هي بالعمل المعروف عند أهل الحساب ثم تضاعف لأجل قلب الشئ لأن التقديم والتأخير بين الحروف معتبر في التركيب فيكون الخارج جملة الثنائيات وتخرج الثلاثيات من ضرب عدد الثنائيات فيما يجمع من واحد الى ستة وعشرين لأن كل ثنائيي تريد عليها حرفا فتكون ثلاثية فتكون الثنائية بمنزلة الحرف الواحد مع كل واحد من الحروف الباقية وهي ستة وعشرون حرفا بعد الثنائية فتجمع من واحد الى ستة وعشرين على توالي العدد ويضرب فيه جملة الثنائيات ثم يضرب الخارج في ستة جملة مقلوبات الكلمة الثلاثية فيخرج مجموع تراكيبها من حروف المعجم وكذلك في الرباعي والخماسي فانحصرت له التراكيب بهذا الوجه ورتب أبوابه على حروف المعجم بالترتيب المتعارف واعتمد فيه ترتيب الخارج فبدأ بحروف الحلق ثم ما بعده من حروف الحنك ثم الأضراس ثم الشفة وجعل حروف العلة آخرها هي الحروف الهوائية وبدأ من حروف الحلق بالعين لأنه الأقصي منها فلذلك سمي كتابه بالعين لأن المتقدمين كانوا يذهبون في تسمية دواوينهم الى مثل هذا وهو تسميته بأول ما يقع فيه من الكلمات والألفاظ ثم بين المهمل منها من المستعمل وكان المهمل في الرباعي والخماسي أكثر لقلة استعمال العرب له لثقله ولحق به الثنائي لقلة دورانه وكان الاستعمال في الثلاثي أغلب فكانت أوضاعه أكثر لدورانه وضمن الخليل ذلك كله في كتاب العين واستوعبه أحسن استيعاب وأوعاه وجاء أبو بكر الزبيدي وكتب لهشام المؤيد بالاندلس في المائة الرابعة فاخصره مع المحافظة على الاستيعاب وحذف منه المهمل كله وكثيرا من شواهد المستعمل ولخصه للحفظ أحسن تلخيص وألف الجوهري من المشاركة كتاب الصحاح على الترتيب المتعارف لحروف المعجم فجعل البداءة منها بالهمزة وجعل الترجمة بالحروف على الحرف الأخير من الكلمة لا يضطرار الناس في الألف أكثر الى أواخر الكلام وحصر اللغة اقتداء بحصر الخليل ثم ألف فيها من الأندلسيين ابن سيدة من أهل دانية في دولة على مجاهد كتاب المحتكم على ذلك المنحى من الاستيعاب وعلى نحو ترتيب كتاب العين وزاد فيه التعرض لاشتقاقات الكلام وتصاريحها فجاء من أحسن الدواوين ولخصه محمد بن أبي الحسين صاحب المستنصر من ملوك الدولة الحفصية بتونس وقلب ترتيبه الى ترتيب كتاب الصحاح في اعتبار أواخر الكلام وبناء التراجم عليها فكانت أواخرهم وسليلى أبوة هذه أصول كتب اللغة فيما علمناه وهناك مختصرات أخرى مختصة بصنف من الكلام ومستوعبة لبعض الأبواب أولها الآن وجه الحصر فيها حتى ووجه الحصر في تلك جلي من قبل التراكيب كما رأيت ومن الكتب الموضوعات أيضا في اللغة كتاب الرنخشي في المجاز بين فيه كل ما تحوزت به العرب من الألفاظ وما تحوزت به من المدلولات وهو كتاب شريف بالافادة ثم لما كانت العرب تضع الشئ على العموم ثم تستعمل في الامور الخاصة ألفاظا أخرى خاصة بها ففرق ذلك عندنا بين الوضع والاستعمال واحتاج إلى فقه في اللغة

عزيز المأخذ كما وضع الأبيض بالوضع العام لكل ما فيه بياض ثم اختص ما فيه بياض من الخيل بالأشهب ومن الإنسان بالأزهر ومن الغنم بالأملح حتى صار استعمال الأبيض في هذه كلها لحنًا وخروجًا عن لسان العرب واختص بالتأليف في هذا المنحى الثعالبي وأفرده في كتاب له سماه فقه اللغة وهو من أكد ما يأخذ به اللغوي نفسه أن يحرف استعمال العرب عن مواضعه فليس معرفة الوضع الأول بكاف في التركيب حتى يشهد له استعمال العرب لذلك وأكثر ما يحتاج إلى ذلك الأديب في فني نظمته وثره حذرا من أن يكثر لحنه في الموضوعات اللغوية في مفرداتها وتراكيبها وهو أشد من اللحن في الأعراب وأخش وكذلك ألف بعض المتأخرين في الألفاظ المشتركة وتكفل بحصرها وإن لم تبلغ إلى النهاية في ذلك فهو مستوعب للأكثر وأما المختصرات الموجودة في هذا الفن المخصوصة بالمتداول من اللغة الكثير الاستعمال تسهيلات لحفظها على الطالب فكثيرة مثل الألفاظ لابن السكيت والفصيحة لشعرب وغيرهما وبعضها أقل لغة من بعض لاختلاف نظرهم في الأم على الطالب للحفظ والله الخلاق العليم لارب سواء

### علم البيان

هذا العلم حادث في الملة بعد علم العربية واللغة وهو من العلوم اللسانية لأنه متعلق بالألفاظ وما تفيدته ويقصد بها الدلالة عليه من المعاني وذلك أن الأمور التي يقصد المتكلم بها إفادة السامع من كلامه هي إما تصور مفردات تسند ويسند إليها ويفضى بعضها إلى بعض والدالة على هذه هي المفردات من الأسماء والأفعال والحروف وأما تمييز المسندات من المسند إليها والأزمنة ويدل عليها بتغيير الحركات وهو الأعراب وأبنية الكلمات وهذه كلها هي صناعة النحو ويبقى من الأمور المكتنفة بالواقعات المحتاجة للدلالة أحوال المتخاطبين أو الفاعلين وما يقتضيه حال الفعل وهو محتاج إلى الدلالة عليه لانه من تمام الافادة إذا حصلت للمتكلم فقد بلغ غاية الافادة في كلامه وإذا لم يشتمل على شيء منها فليس من جنس كلام العرب فإن كلامهم واسع ولكل مقام عندهم مقال يختص به بعد كمال الأعراب والابابة ألا ترى أن قولهم زيد جاءني مغاير لقولهم جاءني زيد من قبل أن المتقدم منهما هو الاسم عند المتكلم فمن قال جاءني زيد أفاد أن اهتمامه بالمجيء قبل الشخص المسند اليه ومن قال زيد جاءني أفاد أن اهتمامه بالشخص قبل المجيء المسند وكذا التعبير عن أجزاء الجملة بما يناسب المقام من موصول أو مبهم أو معرفة وكذا تأكيد الاسناد على الجملة كقولهم زيد قائم وإن زيد قائم وأن زيد قائم متغايرة كلها في الأدلة وإن استوت من طريق الأعراب فإن الأول العاري عن التأكيدها فيفيد الخالي ذهن والثاني المؤكد بأن يفيد التردد والثالث يفيد التكرار فهي مختلفة وكذلك تقول جاءني الرجل ثم تقول مكانه بعينه جاءني رجل إذا قصدت بذلك التأكيد تعظيمه وأنه رجل لا يعادله أحد من الرجال ثم الجملة الاسنادية تكون خبرية وهي التي لها خارج تطابقه أو لا وإنشائية وهي التي لا خارج لها كالطلب وأنواعه ثم قديعين ترك العاطف بين الجملتين إذا كان للثانية محل من الأعراب فينزل بذلك منزلة التابع المفرد نعتا وتوكيدا وبدلا بلا عطف أو يتعين العطف إذ لم يكن للثانية محل



من الاعراب ثم يقتضى المحل الاطباب والايحار فيورد الكلام عليهما ثم قديدل باللفظ ولا يريد منطوقه  
ويريد لازمه ان كان مفردا كما تقول زيدا أسد فلا تريد حقيقة الاسد المنطوقة وإنما تريد شجاعته  
اللازمة وتسندها الى زيد وتسمى هذه استعارة وقد تريد باللفظ المركب الدلالة على ملزومه كما تقول  
زيد كثير الرماد وتريد به ما لم ذلك عنه من الجود وقرى الضيف لأن كثرة الرماد ناشئة عنهما فهي دالة  
عليهما وهذه كلها دالة رائدة على دلالة الألفاظ المفرد والمركب وإنما هي هيات وأحوال لواقعات جعلت  
للدلالة عليها أحوال وهيات في الألفاظ كل بحسب ما يقتضيه مقامه فشمثمل هذا العلم المسمى بالبيان على  
البحث عن هذه الدلالات التي للهيات والأحوال والمقامات وجعل على ثلاثة أصناف الصنف الأول  
يبحث فيه عن هذه الهيات والأحوال التي تطابق باللفظ جميع مقتضيات الحال ويسمى علم البلاغة  
والصنف الثاني يبحث فيه عن الدلالة على اللازم اللفظي وملزومه وهي الاستعارة والكتابة كقلناه  
ويسمى علم البيان وألحقوا بهما صنفا آخر وهو النظر في تزيين الكلام وتحسينه بنوع من التتميق اما  
بسجع يفصله أو تجنيس يشابه بين ألفاظه أو ترصيع يقع أوزانه أو تورية عن المعنى المقصود باهمامه  
أخفى منه لا شتر الك اللفظ بينهما وأمثال ذلك ويسمى عندهم علم البديع وأطلق على الأصناف الثلاثة عند  
المحدثين اسم البيان وهو اسم الصنف الثاني لأن الأقدمين أول ما تكلموا فيه ثم تلاحت مسائل الفن  
واحدة بعد أخرى وكتب فيها جعفر بن يحيى والجاحظ وقدامة وأمثالهم املاآت غير وافية فيها ثم نزل  
مسائل الفن تكمل شيئا فشيئا إلى أن محض السكاكي زبدته وهذب مسائله ورتب أبوابه على نحو ما ذكرناه  
آفان من الترتيب وألف كتابه المسمى بالمفتاح في النحو والتصريف والبيان فجعل هذا الفن من بعض  
أجزائه وأخذ المتأخرون من كتابه وخصوا منه أمهات هي المتداولة لهذا العهد كما فعله السكاكي في  
كتاب التبيان وابن مالك في كتاب المصباح وجلال الدين القزويني في كتاب الايضاح والتلخيص وهو  
أصغر حجم من الايضاح والعناية بهذا العهد عند أهل المشرق في الشرح والتعليم منه أكثر من غيره  
وبالجملة فللمشاركة على هذا الفن أقوم من المغاربة وسببه والله أعلم أنه كمال في العلوم اللسانية والصنائع  
الكمالية توجد في العمران والمشرق أو فر عمرانا من المغرب كما ذكرناه أو نقول لعناية العجم وهو  
معظم أهل المشرق كتفسير الزمخشري وهو كله مبني على هذا الفن وهو أصله وإنما اختص أهل المغرب  
من أصنافه علم البديع خاصة وجعلوه من جملة علوم الأدب الشعرية وفرعوا له ألقابا وعددوا أبوابا  
ونوعوا أنواعا وزعموا أنهم أحصوا هامن لسان العرب وإنما حملهم على ذلك الولوع بتزيين الألفاظ وان  
علم البديع سهل المأخذ وصعب عليهم ما خذ البلاغة والبيان لدقة أنظارهما وغموض معانيها فتجافوا  
عنهما ومن ألف في البديع من أهل افريقية ابن رشيق وكتاب العمدة له مشهور وجرى كثير من أهل  
افريقية والأندلس على منحاه واعلم أن ثمرة هذا الفن انما هي في فهم الأعجاز من القرآن لأن أعجازه  
في وفاء الدلالة منه بجميع مقتضيات الأحوال منطوقة ومفهومة وهي أعلى مراتب الكلام مع الكمال  
فيما يختص بالألفاظ في انتقائها وجودة رصفها وتركيها وهذا هو الأعجاز الذي تقصر الأفهام عن دركه

وانما يدرك بعض الشيء منه من كان له ذوق بمخالطة اللسان العربي وحصول ملكته فيدرك من اعجازه على قدر ذوقه فلهذا كانت مدارك العرب الذين سمعوه من مبلغه أعلى مقام في ذلك لانهم فرسان الكلام وجهابذته والذوق عندهم موجود بأوفر ما يكون وأصح وأحوج ما يكون الى هذا الفن المفسرون وأكثر تفاسير المتقدمين غفل عنه حتى ظهر جارا لله الزمخشري ووضع كتابه في التفسير وتتبع آي القرآن بأحكام هذا الفن بما يبدى البعض من اعجازه فانفرد بهذا الفضل على جميع التفاسير لولا أنه يؤيد عقائد أهل البدع عند اقتباسها من القرآن بوجوه البلاغة ولاجل هذا يتحاماها كثير من أهل السنة مع وفور بضاعته من البلاغة فمن أحكم عقائد السنة وشارك في هذا الفن بعض المشاركة حتى يقتدر على الرد عليه من جنس كلامه أو يعلم أنه بدعة فيعرض عنها ولا تضرب في معتقده فانه يتعين عليه النظر في هذا الكتاب للظفر بشيء من الانحياز مع السلامة من البدع والاهواء والله الهادي من يشاء الى سواء السبيل

### ﴿ علم الأدب ﴾

هذا العلم لا موضوع له ينظر في إثبات عوارضه أو نفيها وإنما المقصود منه عند أهل اللسان تمرته وهي الاجادة في في المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم فيجمعون لذلك من كلام العرب ما عساه تحصل به الملكة من شعر على الطبقة وسجع متساو في الاجادة ومساائل من اللغة والنحو مبثوثة أثناء ذلك متفرقة يستقرى منها الناظر في الغالب معظم قوانين العربية مع ذكر بعض من آيات العرب يفهم به ما وقع في أشعارهم منها وكذلك ذكر المهم من الانساب الشهيرة والأخبار العامة والمقصود بذلك كله أن لا ينحى على الناظر فيه شيء من كلام العرب وأساليبهم ومناحي بلاغتهم إذ تصفحه لانه لا تحصل الملكة من حفظه إلا بعد فهمه فيحتاج الى تقديم جميع ما يتوقف عليه فهمه ثم انهم إذا أرادوا احدها هذا الفن قالوا الأدب هو حفظ أشعار العرب وأخبارهم والأخذ من كل علم بطرف يريدون من علوم اللسان أو العلوم الشرعية من حيث متونها فقط وهي القرآن والحديث إذ لا مدخل لغير ذلك من العلوم في كلام العرب إلا ما ذهب اليه المتأخرون عند كلفهم بصناعة البديع من التورية في أشعارهم وترسلهم بالاصطلاحات المعلمية فاحتاج صاحب هذا الفن حينئذ الى معرفة اصطلاحات العلوم ليكون قائما على فهمها وسمعا من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول هذا الفن وأركانه أربعة دواوين وهي أدب الكاتب لابن قتيبة وكتاب الكامل للمبرد وكتاب البيان والتبيين للجاحظ وكتاب النوادر لأبي علي القالي البغدادي وما سوى هذه الأربعة فتبع لها وفروع عنها وكتب المحدثين في ذلك كثيرة وكان الغناء في الصدر الأول من أجزاء هذا الفن لما هو تابع للشعر إذ الغناء إنما هو تلحينه وكان الكتاب والفضلاء من الخواص في الدولة العباسية يأخذون أنفسهم به حرصا على تحصيل أساليب الشعر وفنونه فلم يكن انتحاله قادحافي العدالة والمروءة وقد ألف القاضي أبو الفرج الأصبهاني وهو ما هو كتابه في الأغاني جمع فيه أخبار العرب وأشعارهم وأنسابهم وأيامهم ودولهم وجعل مبناه على الغناء في المائة صوت التي اختارها المغنون

لرشد فاستوعب فيه ذلك أتم استيعاب وأوفاه ولعمري أنه ديوان العرب وجامع أشتات المحاسن التي سلفت لهم في كل فن من فنون الشعر والتاريخ والغناء وسائر الأحوال ولا يعدل به كتاب في ذلك فيما نعلمه وهو الغاية التي يسموها الأديب ويقف عندها وأنى لها بها ونحن الآن نرجع بالتحقيق على الأجمال فيما تكلمنا عليه من علوم اللسان والله الهادي للصواب

### ٣٨ \* فصل في أن اللغة ملكة صناعية \*

( اعلم ) أن اللغات كلها ملكات شبيهة بالصناعة اذهى ملكات في اللسان للعبارة عن المعاني وجودتها وقصورها بحسب تمام الملكة أو نقصانها وليس ذلك بالنظر إلى المفردات وإنما هو بالنظر إلى التراكيب فإذا حصلت الملكة التامة في تركيب الألفاظ المفردة للتعبير بها عن المعاني المقصودة ومراعاة التأليف الذي يطبق الكلام على مقتضى الحال بلغ المتكلم حينئذ الغاية من إفادة مقصوده للسامع وهذا هو معنى البلاغة والملكات لا تحصل إلا بتكرار الأفعال لأن الفعل يقع أولاً وتعود منه للذات صفة ثم تتكرر فتكون خلا ومعى الحال أنها صفة غير راسخة ثم يزيد التكرار فتكون ملكة أي صفة راسخة فالتكلم من العرب حين كانت ملكة اللغة العربية موجودة فيهم يسمع كلام أهل جيله وأساليبهم في مخاطبتهم وكيفية تعبيرهم عن مقاصدهم كما يسمع الصبي استعمال المفردات في معانيها فيلقنها أولاً ثم يسمع التراكيب بعدها فيلقنها كذلك ثم لا يزال سماعهم لذلك يتجدد في كل لحظة ومن كل متكلم واستعماله يشكر إلى أن يصير ذلك ملكة وصفة راسخة ويكون كأحدهم هكذا تصير الألسن واللغات من جيل إلى جيل وتعلمها العجم والأطفال وهذا هو معنى ما نقوله العامة من أن اللغة للعرب بالطبع أي بالملكة الأولى التي أخذت عنهم ولم يأخذوها عن غيرهم ثم أنه لما فسدت هذه الملكة لمضر بمخالطتهم الأعاجم وسبب فسادها أن الناشئ من الحيل صار يسمع في العبارة عن المقاصد كيفيات أخرى غير الكيفيات التي كانت للعرب فيعبر بها عن مقصوده لكثرة المخالطين للعرب من غيرهم ويسمع كيفيات العرب أيضاً فاختلط عليه الأمر وأخذ من هذه وهذه فاستحدث ملكة وكانت ناقصة عن الأولى وهذا معنى فساد اللسان العربي ولهذا كانت لغة قريش أفصح اللغات العربية وأصحها لعدم عن بلاد العجم من جميع جهاتهم ثم من اكتنفهم من ثقيف وهذيل وخزاعة وبنى كنانة وغطفان وبنى أسد وبنى تميم وأما من بعد عنهم من ربيعة ولخم وجذام وغسان وإياد وقضاعة وعرب اليمن المجاورين لآهم الفرس والروم والحبشة فلم تكن لغتهم تامة الملكة بمخالطة الأعاجم وعلى نسبة بعدم من قريش كان الاحتجاج بلغاتهم في الصحة والفساد عند أهل الصناعة العربية والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

### ٣٩ \* فصل في أن لغة العرب لهذا العهد لغة مستقلة مغايرة للغة مضر وحمر \*

وذلك أنا نجد في بيان المقاصد والوفاء بالدلالة على سنن اللسان المضرى ولم يفقد منها إلا دلالة الحركات على تعيين الفاعل من المفعول فاعتاضوا عنها بالتقديم والتأخير وقرأ أن تدل على خصوصيات المقاصد



إلا أن البيان والبلاغة في اللسان المضري أكثر وأعرف لأن الألفاظ بأعيانها دالة على المعاني بأعيانها ويبقى ما تقتضيه الأحوال ويسمى بساط الحال محتاجا إلى ما يدل عليه وكل معنى لا بد وأن تكفه أحوال تخصه فيجب أن تعتبر تلك الأحوال في تأدية المقصود لأنها صفاته وتلك الأحوال في جميع الألسن أكثر ما يدل عليها بألفاظ تخصها بالوضع وأما في اللسان العربي فأنما يدل عليها بأحوال وكيفيات في تراكيب الألفاظ وتأليفها من تقديم أو تأخير أو حذف أو حركات إعراب وقيدل عليها بالحروف غير المستقلة ولذلك تفاوتت طبقات الكلام في اللسان العربي بحسب تفاوت الدلالة على تلك الكيفيات كما قدمناه فكان الكلام العربي لذلك أوجز وأقل الفاظا وعبارة من جميع الألسن وهذا معني قوله صلى الله عليه وسلم أوتيت جوامع الكلم واختصر لي الكلام اختصارا واعتبر ذلك بما يحكي عن عيسى بن عمر وقد قال له بعض النحاة إني أجدي كلام العرب تكرارا في قولهم زيد قائم وإن زيد قائم وإن زيد قائم والمعني واحد فقال له إن معانيها مختلفة فالأول لفادة الحالى الذهن من قيام زيد والثاني لمن سمعه فأنكره والثالث لمن عرف بالأصرار على إنكاره فاختلفت الدلالة باختلاف الأحوال وما زالت هذه البلاغة والبيان ذيدن العرب ومذهبهم لهذا العهد ولا تلتفت في ذلك إلى خرفشة النحاة أهل صناعة الاعراب القاصرة مداركهم عن التحقيق حيث يزعمون أن البلاغة لهذا العهد ذهبت وأن اللسان العربي فسد اعتبارا بما وقع أو آخر الكلم من فساد الاعراب الذي يتدارسون قوانينه وهي مقالة دسها التشيع في طباعهم وألقاها القصور في افتدتهم والافحن نجد اليوم الكثير من ألفاظ العرب لم تزل في موضوعاتها الأولى والتعبير عن المقاصد والتعاون فيه بتفاوت الإبانة موجود في كلامهم لهذا العهد وأساليب اللسان وفنونه من النظم والنثر موجودة في مخاطبتهم وفيهم الخطيب المصقع في محافلهم وعجامعهم والشاعر المفلق على أساليب لغتهم والذوق الصحيح والطبع السليم شاهدان بذلك ولم يفقد من أحوال اللسان المدون الحركات الاعراب في أو آخر الكلم فقط الذي لزم في لسان مضر طريقة واحدة ومبيعا معروفا وهو الاعراب وهو بعض من أحكام اللسان وانما وقعت العناية بلسان مضر لما فسد بمخالطتهم الأعاجم حين استولوا على ممالك العراق والشام ومصر والمغرب وصارت ملكته على غير الصورة التي كانت أولا فاقبل لغة أخرى وكان القرآن متزلا به والحديث النبوي منقول بلاغته وهما أصل الدين والملة فحشى تناسبها وانغلاق الأفهام عنها بفقدان اللسان الذي تنزلا به فاحتيج إلى تدوين أحكامه ووضع مقاييسه واستنباط قوانينه وصار علما ذا فصول وأبواب ومقدمات ومسائل سماه أهلها بعلم النحو وصناعة العربية فأصبح فنا محفوظا وعلم مكتوبا وسما إلى فهم كتاب الله وسنة رسوله وأما ولعلنا لو اعتنينا بهذا اللسان العربي لهذا العهد واستقرينا أحكامه نعتاض عن الحركات الاعرابية في دلالتها بأمور أخرى موجودة فيه فتكون لها قوانين تخصها ولعلها تكون في أو آخره على غير المنهاج الأول في لغة مضر فليست اللغات وملكاتها بما ناول قد كان اللسان المضري مع اللسان الحميري بهذه المثابة وتغيرت عند مضر كثير من موضوعات اللسان الحميري وتصاريف كلماته تشهد بذلك الانتقال الموجودة

لدينا خلافا لمن يحمله القصور على أنها لغة واحدة ويلتمس أجزاء اللغة الحميرية على مقاييس اللغة المضرية وقوانينها كما يزعم بعضهم في اشتقاق القيل في اللسان الحميري أنه من القول وكثير من أشباه هذا وليس ذلك بصحيح ولغة حمير لغة أخرى مغايرة للغة مضر في الكثير من أوضاعها وتصاريفها وحركات إعرابها كما هي لغة العرب لعهدنا مع لغة مضر إلا أن العناية بلسان مضر من أجل الشريعة كما قلناه حمل ذلك على الاستنباط والاستقراء وليس عندنا لهذا العهد ما يحملنا على مثل ذلك ويدعوننا إليه وما وقع في لغة هذا الجيل العربي لهذا العهد حيث كانوا من الأقطار شأنهم في النطق بالقاف فانهم لا ينطقون بها من مخرج القاف عند أهل الأمصار كما هو مذكور في كتب العربية أنه من أقصى اللسان وما فوقه من الحنك الأعلى وما ينطقون بها أيضا من مخرج الكاف وإن كان أسفل من موضع القاف وما يليه من الحنك الأعلى كما هي بل يحيون بها متوسطة بين الكاف والقاف وهو موجود للجميل أجمع حيث كانوا من غرب أو شرق حتى صار ذلك علامة عليهم من بين الأئمة والجيال ومختصاتهم لا يشار إليهم فيها غيرهم حتى أن من يريد التعرّب والانتساب إلى الجيل والدخول فيه يحاكيهم في النطق بها وعندهم أنها تميز العربي الصريح من الدخيل في العروية والحضري بالنطق بهذه القاف ويظهر بذلك أنها لغة مضر بعينها فإن هذا الجيل الباقيين معظمهم ورؤساؤهم شرقا وغربا في ولد منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان من سليم بن منصور ومن بني عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور ومن لهذا العهد أكثر الأئمة في المعمور وأغلبهم وهم من أعقاب مضر وسائر الجيل منهم في النطق بهذه القاف أسوة وهذه اللغة لم يبتدعها هذا الجيل بل هي متوارثة فيهم متعاقبة ويظهر من ذلك أنها لغة مضر الأولى ولعلها لغة النبي صلى الله عليه وسلم بعينها وقد ادعى ذلك فقهاء أهل البيت وزعموا أن من قرأ في أم القرآن أهدنا الصراط المستقيم بغير القاف التي لهذا الجيل فقد لحن وأفسد صلاته ولم أدر من أين جاء هذا فإن لغة أهل الأمصار أيضا لم يستحدثوها وإنما نقلوها من لدن سلفهم وكان أكثرهم من مضر لما نزلوا الأمصار من لدن الفتح وأهل الجيل أيضا لم يستحدثوها إلا أنهم أبعد من مخالطة الأعاجم من أهل الأمصار فهذا يرجع فيما يوجد من اللغة لديهم أنه من لغة سلفهم هذا مع اتفاق أهل الجيل كلهم شرقا وغربا في النطق بها وإنها الخاصة التي يميز بها العربي من الهجين والحضري فتفهم ذلك والله الهادي المبين

#### ٤٠ ﴿ فصل في أن لغة أهل الحضرو الأمصار لغة قائمة بنفسها مخالفة للغة مضر ﴾

اعلم أن عرف التخاطب في الأمصار بين الحضري ليس بلغة مضر القديمة ولا بلغة أهل الجيل بل هي لغة أخرى قائمة بنفسها بعيدة عن لغة مضر وعن لغة هذا الجيل العربي الذي لعهدنا وهي عن لغة مضر أبعد فأما أنها لغة قائمة بنفسها فهو ظاهر يشهد له ما فيها من التباين الذي يعد عند صناعة أهل النحو لحنا وهي مع ذلك تختلف باختلاف الأمصار في اصطلاحاتهم فلغة أهل المشرق مباينة بعض الشيء للغة أهل المغرب وكذا أهل الأندلس معها وكل منهم متوصل بلغته إلى تأدية مقصوده والابتناء عما في نفسه وهذا معنى

اللسان واللغة وققدان الاعراب ليس بضائر لهم كما قلناه في لغة العرب لهذا العهد وأما أنها أبعد عن اللسان  
 لأول من لغة هذا الجيل فلائن البعد عن اللسان إنما هو بمخالطة العجمة فمن خالط العجم أكثر كانت لغته  
 عن ذلك اللسان الأصلي أبعد لأن الملكة إنما تحصل بالتعليم كما قلناه وهذه ملكة مترجمة من الملكة  
 الأولى التي كانت للعرب ومن الملكة الثانية التي للعجم فعلي مقدار ما يسمعون من العجمة ويربون  
 عليه يبعدون عن الملكة الأولى واعتبر ذلك في أمصار أفريقية والمغرب والأندلس والمشرق أما  
 إفريقية والمغرب فخالطت العرب فيها البرابرة من العجم بوفور عمرانها بهم ولم يكديخلوا عنهم مصر  
 ولا جيل فغلبت العجمة فيها على اللسان العربي الذي كان لهم وصارت لغة أخرى مترجمة والعجمة فيها  
 أغلب لما ذكرناه فهي عن اللسان الأول أبعد وكذا المشرق لما غلب العرب على أممه من فارس والترك  
 فخالطوهم وتداولت بينهم في لغاتهم الأولى ككرة والفلاحين والسبي الذين اتخذوهم خولا ودايات وأظارا  
 ومراضع ففسدت لغتهم بفساد الملكة حتى انقلبت لغة أخرى وكذا أهل الأندلس مع عجم الجلالة  
 والافرنجة وصار أهل الأمصار كلهم من هذه الأقاليم أهل لغة أخرى مخصوصة بهم تخالف لغة مضر  
 ويخالف أيضا بعضها بعضا كما نذكره وكأنها لغة أخرى لاستحكام ملكتها في أجيالهم والله يخلق ما  
 يشاء ويقدر

#### ٤١ ﴿ فصل في تعليم اللسان المضري ﴾

(إعلم) أن ملكة اللسان المضري لهذا العهد قد ذهبت وفسدت ولغة أهل الجيل كلهم مغيرة للغة مضر التي  
 نزل بها القرآن وإنما هي لغة أخرى من امتزاج العجمة بها كما قدمناه الآن اللغات لما كانت ملكات كما مر  
 كان تعلمها ممكنًا شأن سائر الملكات ووجه التعليم لمن يتتبع هذه الملكة ويروم تحصيلها أن يأخذ نفسه  
 بحفظ كلامهم القديم الجاري على أساليبهم من القرآن والحديث وكلام السلف ومخاطبات خول العرب  
 في أسجاعهم وأشعارهم وكمات المولدين أيضا في سائر فنونهم حتى يتنزل لكثر حفظه كلامهم من المنظوم  
 والمنثور منزلة من نشأ بينهم ولقن العبارة عن المقاصد منهم ثم يتصرف بعد ذلك في التعبير عما في ضميره على  
 حسب عباراتهم وتأليف كلماتهم وما وعاه وحفظه من أساليبهم وترتيب ألفاظهم فتحصل له هذه الملكة  
 بهذا الحفظ والاستعمال ويزداد بكثرتهما رسوخا وقوة ويحتاج مع ذلك إلى سلامة الطبع والتفهم  
 الحسن لمنزاع العرب وأساليبهم في التراكييب ومراعاة التطبيق بينها وبين مقتضيات الأحوال والذوق  
 يشهد بذلك وهو بنشأ ما بين هذه الملكة والطبع السليم فيهما كما نذكره على قدر الحفظ وكونه كثرة الاستعمال  
 تكون جودة القول المصنوع نظما ونثرا ومن حصل على هذه الملكات فقد حصل على لغة مضر وهو الناقد  
 البصير بالبلاغة فيها وهكذا ينبغي أن يكون تعلمها والله يهدي من يشاء بفضلها وكرمه

#### ٤٢ ﴿ فصل في أن ملكة هذا اللسان غير صناعة العربية ومستغنية عنها في التعليم ﴾

والسبب في ذلك أن الصناعة العربية إنما هي معرفة قوانين هذه الملكة ومقاييسها خاصة فهو علم بكيفية



لأنفس كيفية فليست نفس الملكة وإنما هي بمثابة من يعرف صناعة من الصنائع علماً ولا يحكمها عملاً مثل أن يقول بصير بالخطاطة غير محكم لملكها في التعبير عن بعض أنواعها الخطاطة هي أن يدخل الخطيط في خرت الابرة ثم يغرزها في لقي الثوب مجتمعين ويخرجها من الجانب الآخر بمقدار كذا ثم يردّها إلى حيث ابتدأت ويخرجها قدام منفذها الأول بمطرح ما بين الثقبين الأولين ثم يتأدى على ذلك إلى آخر العمل ويعطى صورة الحبك والتثبيت والتفتيح وسائر أنواع الخطاطة وأعمالها وهو إذا طوّل أن يعمل ذلك بيده لا يحكم منه شيئاً وكذا الواسل عالم بالنجارة عن تفصيل الحشب فيقول هو أن تضع المنشار على رأس الحشبة وتمسك بطرفه وآخر قبالتك ممسك بطرفه الآخر وتتعاقبانه بينكما وأطرافه المضرسة المحددة تقطع ما مرّت عليه ذاهبة وجائية إلى أن ينتهي إلى آخر الحشبة وهو لو طوّل بهذا العمل أو شيء منه لم يحكمه وهكذا العلم بقوانين الإعراب مع هذه الملكة في نفسها فإن العلم بقوانين الإعراب إنما هو علم بكيفية العمل وليس هو نفس العمل ولذلك نجد كثيراً من جهابذة النجاة والمهرة في صناعة العربية المحيطين علماً بتلك القوانين إذا سئل في كتابة سطرين إلى أخيه أو ذى مودته أو شكوى ظلامه أو قصد من قصوده أخطأ فيها عن الصواب وأكثر من اللحن ولم يجد تأليف الكلام لذلك والعبارة عن المقصود على أساليب اللسان العربي وكذا نجد كثيراً من يحسن هذه الملكة ويحيد الفنين من المنظوم والمشور وهو لا يحسن إعراب الفاعل من المفعول ولا المرفوع من المجرور ولا شيئاً من قوانين صناعة العربية فمن هذا تعلم أن تلك الملكة هي غير صناعة العربية وأنهما مستغنية عنها بالجملة وقد نجد بعض المهرة في صناعة الإعراب بصير أبحال هذه الملكة وهو قليل وإنفاق وأكثر ما يقع للمخالطين لكتاب سيوييه فإنه لم يقتصر على قوانين الإعراب فقط بل ملأ كتابه من أمثال العرب وشواهد أشعارهم وعباراتهم فكان فيه جزء صالح من تعليم هذه الملكة فتجد العاكف عليه والمحصل له قد حصل على حظ من كلام العرب واندرج في محفظة في أما كنه ومفاصل حاجاته وتنبيهه لشأن الملكة فاستوفى تعليمها فكان أبلغ في الاستفادة من هؤلاء المخالطين لكتاب سيوييه من يغفل عن التفطن لهذا فيحصل على علم اللسان صناعة ولا يحصل عليه ملكة وأما المخالطون لكتب المتأخرين العارية عن ذلك إلا من القوانين النحوية مجردة عن أشعار العرب وكلامهم فقلما يشعرون لذلك بامر هذه الملكة أو ينتبهون لشأنها فتجدهم يحسبون أنهم قد حصلوا على رتبة في لسان العرب وهم أبعد الناس عنه وأهل صناعة العربية بالاندلس ومعلومها أقرب إلى تحصيل هذه الملكة لتعليمها من سواهم لقيامهم فيها على شواهد العرب وأمثالهم والتفقه في الكثير من التراكيب في مجالس تعليمهم فيسبى إلى المبتدى كثير من الملكة أثناء التعليم فتقطع النفس لها وتستعد إلى تحصيلها وقبولها وأما من أهل المغرب وإفريقية وغيرهم فأجروا صناعة العربية مجرى العلوم بحثوا وقطعوا النظر عن التفقه في تراكيب كلام العرب إلا أن أعربوا شأها وأورجحوها مذهباً من جهة الاقتضاء الذهني لامن جهة محامل اللسان وتراكيبه فأصبحت صناعة العربية كأنها من جملة قوانين المنطق العقلية أو الجدول وبعدت عن مناحي اللسان وملكته وما ذلك إلا لعدو لهم عن البحث في شواهد

اللسان وتراكيه وتميز أساليبه وغفلتهم عن المران في ذلك لمتعلم فهو أحسن ما تفيد به الملكة في اللسان وتلك القوانين إنما هي وسائل للتعليم لكنهم أجروها على غير ما قصد بها وأصاروها علما بحتا وبعدوا عن ثمرتها وتعلم مما قررناه في هذا الباب أن حصول ملكة اللسان العربي إنما هو بكثرة الحفظ من كلام العرب حتى يرسم في خياله المنوال الذي نسخوا عليه تراكيهم فينسخ هو عليه ويتنزل بذلك منزلة من نشأ معهم وخالط عباراتهم في كلامهم حتى حصلت له الملكة المستقرة في العبارة عن المقاصد على نحو كلامهم والله مقدر الاثموز كلها والله أعلم بالغيب

#### ٤٢ \* فصل في تفسير الذوق في مضطجع أهل البيان وتحقيق معناه

وبيان أنه لا يحصل غالبا للمستعمر بين من العجم \*

(اعلم) أن لفظة الذوق يتداولها المعتنون بفنون البيان ومعناها حصول ملكة البلاغة للسان وقدر تفسير البلاغة وأنها مطابقة الكلام للمعنى من جميع وجوهه بخواص تقع لالتراكيب في إفادة ذلك فالتكلم بلسان العرب والبليغ فيه يتحرى الهيئة المفيدة لذلك على أساليب العرب وأنحاء مخاطباتهم وينظم الكلام على ذلك الوجه جهده فاذا انضمت مقاماته بمخالطة كلام العرب حصلت له الملكة في نظم الكلام على ذلك الوجه وسهل عليه أمر التركيب حتى لا يكاد ينحويه غير منحنى البلاغة التي للعرب وإن سمع تركيبا غير جار على ذلك المنحنى مجهونا عنه سمعه بأدنى فكر بل وبغير فكر إلا بما استفاده من حصول هذه الملكة فإن الملكات إذا استقرت ورسخت في محالها ظهرت كأنها طبيعة وجبلة لذلك المحل ولذلك يظن كثير من المغفلين ممن لم يعرف شأن الملكات أن الصواب للعرب في لغتهم اعرابا وبلاغة أمر طبيعي ويقول كانت العرب تنطق بالطبع وليس كذلك وإنما هي ملكة لسانية في نظم الكلام تمكنت ورسخت فظهرت في بادئ الرأي أنها جبلة وطبع وهذه الملكة كما تقدم إنما تحصل بممارسة كلام العرب وتكرره على السمع والتفطن لخواص تراكيه وليست تحصل بعرفة القوانين العلمية في ذلك التي استنبطها أهل صناعة اللسان فإن هذه القوانين إنما تفيد علما بذلك اللسان ولا تفيد حصول الملكة بالفعل في محلها وقدر ذلك وإذا تقرر ذلك فملكة البلاغة في اللسان تهدي البليغ إلى وجود النظم وحسن التركيب الموافق لتراكيب العرب في لغتهم ونظم كلامهم ولورام صاحب هذه الملكة حيدا عن هذه السبيل المعينة والتراكيب المخصوصة لما قدر عليه ولا وافقه عليه لسانه لأنه لا يعتاده ولا تهديه إليه ملكته الراسخة عنده وإذا عرض عليه الكلام حائدا عن أسلوب العرب وبلاغتهم في نظم كلامهم أعرض عنه ومجه وعلم أنه ليس من كلام العرب الذين مارس كلامهم وما يعجز عن الاحتجاج لذلك كما تصنع أهل القوانين النحوية والبيانية فإن ذلك استدلال بما حصل من القوانين المفادة بالاستقرار وهذا أمر وجداني حاصل بممارسة كلام العرب حتى يصير كواحد منهم ومثاله لو فرضنا صبيا من صبيانهم نشأ ورثى في جيلهم فإنه يتعلم لغتهم ويحكم شأن الأعراب والبلاغة فيها حتى يستولى على غايتها وليس من العلم القانوني في شيء وإنما هو بحصول هذه الملكة في لسانه ونطقه وكذلك تحصل هذه الملكة لمن بعد ذلك الجيل بحفظ كلامهم وأشعارهم وخطبهم

والداومة على ذلك بحيث يحصل الملكة وبصير كواحد ممن نشأ في جيلهم ويرى بين أجيالهم والقوانين بعزل عن هذا واستعير لهذه الملكة عندما ترسخ وتستقر اسم الذوق الذي اصطلاح عليه أهل صناعة البيان وإنما هو موضوع لادراك الطعوم لكن لما كان محل هذه الملكة في اللسان من حيث النطق بالكلام كما هو محل لادراك الطعوم استعير لها اسمه وأضاف فهو وجداني للسان كما أن الطعوم محسوسة له فقيل له ذوق وإذا تبين لك ذلك علمت منه أن الأعاجم الداخلين في اللسان العربي الطارئين عليه المضطرين إلى المنطق به لمخالطة أهله كالفرس والروم والترك بالشرق وكالبربر بالمغرب فإنه لا يحصل لهم هذا الذوق لقصور حظهم في هذه الملكة التي قررنا أمرها لأن قصارهم بعد طائفة من العمر وسبق ملكة أخرى إلى اللسان وهي لغاتهم أن يعتنوا بما يتدواله أهل مصر بينهم في المحاوراة من مفرد ومركب لما يضطرون إليه من ذلك وهذه الملكة قد ذهبت لأهل الأمصار وبعثوا عنها كما تقدم وإنما لهم في ذلك ملكة أخرى وليست هي ملكة اللسان المطلوبة ومن عرف تلك الملكة من القوانين المسطرة في الكتب فليس من تحصيل الملكة في شيء وإنما حصل أحكامها كما عرفت بالممارسة والاعتیاد والتكرار لكلام العرب فان عرض لك ما تسمعه من أن سيويوه والفارسي وانزغشري وأمثالهم من فرسان الكلام كانوا أعجاء مع حصول هذه الملكة لهم فاعلم أن أولئك القوم الذين تسمع عنهم إنما كانوا أعجاء في نسبهم فقط وأما المربي والنشأة فكانت بين أهل هذه الملكة من العرب ومن تعلمها منهم فاستولوا بذلك من الكلام على غاية الإثراء وكأنهم في أول نشأتهم من العرب الذين نشأوا في أجيالهم حتى أدركوا كنه اللغة وصاروا من أهلها فهم وان كانوا عجفاء بالنسب فليسوا بأعجاء في اللغة والكلام لأنهم أدركوا الملة في عفتوانها واللغة في شبابها ولم تذهب آثار الملكة ولا من أهل الأمصار ثم عكفوا على الممارسة والمدايسة لكلام العرب حتى استولوا على غايته واليوم الواحد من العجم إذا خالط أهل اللسان العربي بالأمصار فأول ما يجد تلك الملكة المقصودة من اللسان العربي تمتحية الآثار ويخدم ملكتهم الخاصة بهم ملكة أخرى مخالفة لملكته اللسان العربي ثم إذا فرضنا أنه أقبل على الممارسة لكلام العرب وأشعارهم بالمدايسة والحفظ يستفيد تحصيلها فقل أن يحصل له قدمناه من أن الملكة إذا سبقتها ملكة أخرى في المحل فلا تحصل إلا ناقصة مخدوشة وان فرضنا عجميا في النسب سلم من مخالطة اللسان العجمي بالكلية وذهب إلى تعلم هذه الملكة بالمدايسة فربما يحصل له ذلك لكنه من الدور بحيث لا يخفى عليك بما تقرر وربما يدعى كثير ممن ينظر في هذه القوانين البيانية حصول هذا الذوق له بها وهو غلط أو مغالطة وإنما حصلت له الملكة ان حصلت في تلك القوانين البيانية وليست من ملكة العبارة في شيء والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم

٤٤ ﴿ فصل في أن أهل الأمصار على الإطلاق قاصرون في تحصيل هذه الملكة اللسانية

التي تستفاد بالتعليم ومن كان منهم أبعد عن اللسان العربي كان حصولها له أصعب وأعسر ﴾

والسبب في ذلك ما يسبق إلى المتعلم من حصول ملكة منافية للملكة المطلوبة بما سبق إليه من اللسان



الحضري الذي أفادته العجمة حتى نزل بها اللسان عن ملكته الأولى الى ملكة أخرى هي لغة الحضري لهذا العهد ولهذا نجد المعلمين يذهبون الى المسابقة بتعليم اللسان للولدان وتعتقد النحاة أن هذه المسابقة بصناعتهم وليس كذلك وإنما هي بتعليم هذه الملكة بمخالطة اللسان وكلام العرب نعم صناعة النحو أقرب الى مخالطة ذلك وما كان من لغات أهل الأمصار أعرق في العجمة وأبعد عن لسان مضر قصر بصاحبه عن تعلم اللغة المضرية وحصول ملكتها لتمكن المنافة حينئذ واعتبر ذلك في أهل الأمصار فأهل أفريقية والمغرب لما كانوا أعرق في العجمة وأبعد عن اللسان الأول كان لهم قصور تام في تحصيل ملكته بالتعليم ولقد نقل ابن الرقيق أن بعض كتاب التقيروان كتب الى صاحب له يأخى ومن لا عدمت فقد أعلمني أبو سعيد كلاما أنك كنت ذكرت أنك تكون مع الذين تأتي وعاقنا اليوم فميتيأ لنا الخروج وأما أهل المنزل الكلاب من أمر الشين فقد كذبوا هذا باطلا ليس من هذا حرفا واحدا وكتاني اليك وأنا مشتاق اليك ان شاء الله وهكذا كانت ملكتهم في اللسان المضري شبيه ما ذكرنا وكذلك أشعارهم كانت بعيدة عن الملكة نازلة عن الطبقة ولم نزل كذلك لهذا العهد ولهذا ما كان بأفريقية من مشاهير الشعراء الا ابن رشيق وابن شرف وأكثر ما يكون فيها الشعراء طارئين عليها ولم نزل طبقتهم في البلاغة حتى الآن مائلة الى القصور وأهل الأندلس أقرب منهم الى تحصيل هذه الملكة بكثرة معاناتهم وامتلأهم من المحفوظات اللغوية نظما ونثرا وكان فيهم ابن حيان المؤرخ امام أهل الصناعة في هذه الملكة ورفع الراية لهم فيها وابن عبدربه والقسطلي وأمثالهم من شعراء ملوك الطوائف لما زخرت فيها بحار اللسان والأدب وتداول ذلك فيهم مئين من السنين حتى كان الانقضاء والجلأ أيام تغلب النصرانية وشغلوا عن ذلك تعلم ذلك وتناقص العمران فتناقص ذلك شأن الصنائع كلها فقصرت الملكة فيهم عن شأنها حتى بلغت الحضيض وكان من آخرهم صالح ابن شريف ومالك ابن المرحل من تلميذ الطبقة الاشبيليين بسبته وكتاب دولة ابن الأحمر في أولها وألقت الأندلس أفلاذ كبدها من أهل تلك الملكة بالجلأ الى العدو لعدو الاشبيلية الى سبته ومن شرق الأندلس الى أفريقية ولم يلبثوا الى أن انقرضوا وانقطع سند تعليمهم في هذه الصناعة لعسر قبول العدو لها وصعوبتها عليهم بعوج ألسنتهم ورسوخهم في العجمة البربرية وهي منافية لما قلناه ثم عادت الملكة من بعد ذلك الى الأندلس كما كانت ونجم بها ابن بشرين وابن جابر وابن الجياب وطبقتهم ثم ابراهيم الساحلي الطريحي وطبقته ووقفام ابن الخطيب من بعدهم الهالك لهذا العهد شهيدا بسعاية أعدائه وكان له في اللسان ملكة لا تدرك واتبع أثره تلميذه بعده وبالجمل فشان هذه الملكة بالأندلس أكثر وتعليمها أيسر وأسهل بتمام عليه لهذا العهد كما قدمناه من معاناة علم اللسان ومحافظة عليهم عليها وعلى علوم الأدب وسند تعليمها ولأن أهل اللسان العجمي الذين تفسد ملكتهم إنعام طارئون عليهم وليست عجمتهم أصلا للغة أهل الأندلس والبربر في هذه العدو هم أهلها ولسانهم لسانها الا في الأمصار فقط وهم فيها منغمسون في بحر عجمتهم ورطاتهم البربرية فيصعب عليهم تحصيل الملكة اللسانية بالتعليم بخلاف أهل الأندلس

واعتبر ذلك بحال أهل المشرق لعهد الدولة الأموية والعباسية فكان شأنهم شأن أهل الأندلس في تمام هذه المملكة وإجاداتها بعد ذلك العهد عن الأعاجم ومغالطتهم إلا في القليل فكان أمر هذه المملكة في ذلك العهد أقوم وكان خول الشعراء والكتاب أو فرتوتوف العرب وأبنائهم بالمشرق وانظر ما شتم عليه كتاب الأغاني من نظمهم وشرم فان ذلك الكتاب هو كتاب العرب وديوانهم وفيه لغتهم وأخبارهم وأيامهم وملتهم العربية وسيرتهم وآثار خلفائهم وملوكهم وأشعارهم وغناؤهم وسائر مغانيهم فلا كتاب أوعب منه لأحوال العرب وبقي أمر هذه المملكة مستحكما في المشرق في الدولتين وربما كانت فيهم أبلغ ممن سواهم ممن كان في الجاهلية كما ذكره بعد حتى تلاشى أمر العرب ودرست لغتهم وفسد كلامهم وانقضى أمرهم ودولتهم وصار الأمر للأعاجم والملك في أيديهم والتغلب لهم وذلك في دولة الديلم والسلجوقية وخالفوا أهل الأمصار والحوضر حتى بعدوا عن اللسان العربي وملكته وصار متعلميهم مقصرين عن تحصيلها وعلى ذلك نجد لسانهم لهذا العهد في فني المنظوم والمنثور وان كانوا مكثرين منه والله يخلق ما يشاء ويختار والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق لأرب سواه

#### ٤٥ ﴿ فصل في انقسام الكلام إلى فني النظم والنثر ﴾

(اعلم) أن لسان العرب وكلامهم على فنين في الشعر المنظوم وهو الكلام الموزون المقفى ومعناه الذي تكون أوزانه كلها على روي واحد وهو القافية وفي النثر وهو الكلام غير الموزون وكل واحد من الفنين يشتمل على فنون ومذاهب في الكلام فاما الشعر فمعه المدح والهجاء والرثاء وأما النثر فمعه السجع الذي يؤتى به قطعاً ويلتزم في كل كلمتين منه قافية واحدة يسمى سجعا ومنه المرسل وهو الذي يطلق فيه الكلام اطلاقاً ولا يقطع أجزاء بل يرسل ارسالاً من غير تقييد بقافية ولا غيرها ويستعمل في الخطب والدعاء وترغيب الجمهور وترهيبهم وأما القرآن وان كان من المنثور الا أنه خارج عن الوصفين وليس يسمى برسلاً مطلقاً ولا مسجعا بل تفصيل آيات ينتهي إلى مقاطع يشهد الذوق بانتهاء الكلام عندها ثم يعاد الكلام في الآية الأخرى بعدها ويثنى من غير التزام حرف يكون سجعا ولا قافية وهو معنى قوله تعالى الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تفشعر منه جلود الذين يخشون ربهم وقال قد فصلنا الآيات ويسمى آخر الآيات منها فواصل اذ ليست أسجعا ولا التزام فيها ما يلتزم في السجع ولا هي أيضا قواف وأطلق اسم المثاني على آيات القرآن كلها على العموم لما ذكرناه واختصت بأسم القرآن للغلبة فيها كالنجم للثريا ولهذا سميت السبع المثاني وانظر هذا مع مقاله المفسرون في تحليل تسميتها بالمثاني يشهد لك الحق برجحان ما قلناه واعلم أن لكل واحد من هذه الفنون أساليب تختص به عند أهله ولا تصلح للفن الآخر ولا تستعمل فيه مثل النسيب المختص بالشعر والحمد والدعاء المختص بالخطب والدعاء المختص بالمخاطبات وأمثال ذلك وقد استعمل المتأخرون أساليب الشعر وموازينه في المنثور

من كثرة الأسجاع والتزام التقفية وتقديم النسيب بين يدي الأغراض وصار هذا المنشور اذا تأملته من باب الشعر وفنه ولم يفرقا الا في الوزن واستمر المتأخرون من الكتاب على هذه الطريقة واستعملوها في المحاطبات السلطانية وقصروا الاستعمال في المنشور كله على هذا الفن الذي ارتضوه وخلطوا الأساليب فيه وهجروا المرسل وتناسوه وخصوصا أهل المشرق وصارت المحاطبات السلطانية لهذا العهد عند الكتاب الغفل جارية على هذا الأسلوب الذي أشرنا اليه وهو غير صواب من جهة البلاغة لما يلاحظ في تطبيق الكلام على مقتضى الحال من أحوال المخاطب والمخاطب وهذا الفن المنشور الملقى أدخل المتأخرون فيه أساليب الشعر فوجب أن تنزه المحاطبات السلطانية عنه اذا سلب الشعر تنافيا للوزنية وخلط الجذب للزل والاطناب في الأوصاف وضرب الأمثال وكثرة التشبيهات والاستعارات حيث لا تدعو ضرورة الى ذلك في الخطاب والتزام التقفية أيضا من اللوزعة والترتين وجلال الملك والسلطان وخطاب الجمهور عن الملوك بالترغيب والترهيب ينافي ذلك وبيانهم والمحمود في المحاطبات السلطانية الترسل وهو إطلاق الكلام وإرساله من غير تسجيع إلا في الأقل النادر وحيث ترسله الملكة إرسال من غير تكلف له ثم إعطاء الكلام حقه في مطابقته لمقتضى الحال فان المقامات مختلفة ولكل مقام أسلوب يخصه من إطناب أو إيجاز أو حذف أو إثبات أو تصريح أو إشارة أو كناية واستعارة وأما اجراء المحاطبات السلطانية على هذا النحو الذي هو على أساليب الشعر فمذموم وما حمل عليه أهل العصر الاستيلاء العجمة على ألسنتهم وقصورهم لذلك عن إعطاء الكلام حقه في مطابقته لمقتضى الحال فعجزوا عن الكلام المرسل لبعده أمد في البلاغة وانفساح خطوبه ولعمري هذا المسجع يلفقون به نقصهم من تطبيق الكلام على المقصود ومقتضى الحال فيه ويخبرونه بذلك القدر من التزيين بالأسجاع والألقاب البديعية ويغفلونه عما سوى ذلك وأكثر من أخذ بهذا الفن وبالغ فيه في سائر أنحاء كلامهم كتاب المشرق وشعراؤه لهذا العهد حتى أنهم ليخلون بالأعراب في الكلمات والتصريف إذا دخلت لهم في تجنيس أو مطابقة لا يجتمعان معا فيرجحون ذلك الصنف من التجنيس ويدعون الأعراب ويفسدون بنية الكلمة عساها تصادف التجنيس فتأمل ذلك بما قدمناه لك تقف على صحة ما ذكرناه والله الموفق للصواب بعنه وكرمه والله تعالى أعلم

#### ٤٦ ﴿ فصل في أنه لا تنفق الاجادة في في المنظوم والمنثور معا الا لالاق ﴾

والسبب في ذلك أنه كما بيناه ملكة في اللسان فاذا تسبقت الى عمله ملكة أخرى قصرت بالحمل عن تمام الملكة اللاحقة لأن تمام الملكات وحصولها الطباع التي على الفطرة الأولى أسهل وأيسر واذ تقدمتها ملكة أخرى كانت منازعة لها في المادة القابلة وعائقة عن سرعة القبول فوقت المنافة وتعذر لتمام في الملكة وهذا موجود في الملكات الصناعية كلها على الإطلاق وقد برهننا عليه في موضعه بنحو من هذا البرهان فاعتبر مثله في اللغات فانها ملكات اللسان وهي بمنزلة الصناعة وانظر من تقدم له شيء من



العجبة كيف يكون قاصرا في اللسان العربي أبدا فلا أعجمي الذي سبقت له اللغة الفارسية لا يستولى على ملكة اللسان العربي ولا يزال قاصرا فيه ولو تعلمه وعلمه وكذا البربري والرومي والافرنجي قل أن نجد أحدا منهم محكما لملكاة اللسان العربي وما ذلك إلا لما سبق إلى ألسنتهم من ملكاة اللسان الآخر حتى أن طالب العلم من أهل هذه الألسن إذا طلبه بين أهل اللسان العربي جاء مقصرا في معارفه عن الغاية والتحصيل وما أتى إلا من قبل اللسان وقد تقدم لك من قبل أن الألسن واللغات شبيهة بالصنائع وقد تقدم لك أن الصنائع وملكاتها لا تزدهم وإن من سبقت له إجادة في صناعة فقل أن يجيد أخرى أو يستولى فيها على الغاية والله خلقكم وما تعملون

#### ٤٧ \* فصل في صناعة الشعر ووجه تعلمه \*

هذا الفن من فنون كلام العرب وهو المسمى بالشعر عندهم ويوجد في سائر اللغات إلا أنا الآن إنما نتكلم في الشعر الذي للعرب فإن أمكن أن تجد فيه أهل الألسن الأخرى مقصودهم من كلامهم وإلا فكل لسان أحكام في البلاغة تخصه وهو في لسان العرب غريب النزعة عزيز المنحى إذ هو كلام مفصل قطعاً قطعاً متساوية في الوزن متحدة في الحرف الأخير من كل قطعة وتسمى كل قطعة من هذه القطعات عندهم بيتاً ويسمى الحرف الأخير الذي تتفق فيه روياء وقافية ويسمى جملة الكلام إلى آخره قصيدة وكلمة وينفرد كل بيت منه بإفادته في تراكيبه حتى كأنه كلام وحده مستقل عما قبله وما بعده وإذا أفرد كان تاماً في بابه في مدح أو تشبيب أو رثاء فيحرص الشاعر على إعطاء ذلك البيت ما يستقل في إفادته ثم يستأنف في البيت الآخر كلاماً آخر كذلك ويستطرد للخروج من فن إلى فن ومن مقصود إلى مقصود بأن يوطئ المقصود الأول ومعانيه إلى أن يناسب المقصود الثاني ويبعد الكلام عن التناثر كما يستطرد من التشبيب إلى المدح ومن وصف البيداء والطلول إلى وصف الركاب أو الخيل أو الطيف ومن وصف الممدوح إلى وصف قومه وعساكره ومن التفجع والعزاء في الرثاء إلى التثأر وأمثال ذلك ويراعى فيه إتفاق القصيدة كلها في الوزن الواحد حذراً من أن يتساهل الطبع في الخروج من وزن إلى وزن يقاربه فقديح في ذلك من أجل المقاربة على كثير من الناس ولهذا الموازين شروط وأحكام تضمنها علم العروض وليس كل وزن يتفق في الطبع استعملته العرب في هذا الفن وإنما هي أوزان مخصوصة تسميها أهل تلك الصناعة البحور وقد حصروها في خمسة عشر بحراً بمعنى أنهم لم يجدوا للعرب في غيرها من الموازين الطبيعية نظماً واعلم أن فن الشعر من بين الكلام كان شريفاً عند العرب ولذلك جعلوه ديوان علومهم وأخبارهم وشاهد صوابهم وخطئهم وأصلا يرجعون إليه في الكثير من علومهم وحكمهم وكانت ملكته مستحكمة فيهم شأن الملكات كلها والملكات اللسانية كلها إنما اكتسب بالصناعة والارتياض في كلامهم حتى يحصل شبه في تلك الملكة والشعر من بين فنون الكلام صعب المأخذ على من يريد اكتساب ملكته بالصناعة من

المتأخرين لاستقلال كل بيت منه بأنه كلام تام في مقصوده ويصلح أن ينفرد دون ماسواه فيحتاج من أجل ذلك الى نوع تلطف في تلك الملكة حتى يفرغ الكلام الشعري في قوالبه التي عرفت له في ذلك المنحى من شعر العرب ويبرزه مستقلاً بنفسه ثم يأتي بيت آخر كذلك ثم بيت ويستكمل الفنون الوافية بمقصوده ثم يناسب بين البيوت في موالاتها بعضاً مع بعض بحسب اختلاف الفنون التي في القصيدة ولصعوبة منحاه وغرابة فنه كان محالاً للقراء في استجادة أساليبه وشحذ الأفكار في تنزيل الكلام في قوالبه ولا يكفي فيه ملكة الكلام العربي على الإطلاق بل يحتاج بخصوصه الى تلطف ومحاولة في رعاية الأساليب التي اختصه العرب بها واستعمالها ولندكر هنا سلوك الأسلوب عند أهل هذه الصناعة وما يريدون بها في إطلاقهم فاعلم أنها عبارة عندهم عن المنوال الذي ينسخ فيه التراكيب أو القالب الذي يفرغ فيه ولا يرجع الى الكلام باعتبار افادته أصل المعنى الذي هو وظيفة الاعراب ولا باعتبار افادته كمال المعنى من خواص التراكيب الذي هو وظيفة البلاغة والبيان ولا باعتبار الوزن كما استعمله العرب فيه الذي هو وظيفة العروض فهذه العلوم الثلاثة خارجة عن هذه الصناعة الشعرية وإنما يرجع الى صورة ذهنية للتراكيب المنتظمة كلية باعتبار انطباقها على تركيب خاص وتلك الصورة ينزعها الذهن من أعيان التراكيب وأشخاصها ويصيرها في الخيال كالقالب أو المنوال ثم ينتقى التراكيب الصحيحة عند العرب باعتبار الاعراب والبيان فيرصها فيرصا كما يفعل البناء في القالب أو النسيج في المنوال حتى يتسع القالب بحصول التراكيب الوافية بمقصود الكلام ويقع على الصورة الصحيحة باعتبار ملكة اللسان العربي فيه فإن لكل فن من الكلام أساليب تختص به وتوجد فيه على أنحاء مختلفة فسؤال الطول في الشعر يكون بخطاب الطول كقوله \* يادارمية فالعلياء فالسند \* ويكون باستدعاء الصحب للوقوف والسؤال كقوله \* قفانساء الدار التي خف أهلها \* أو باستدعاء الصحب على الطلل كقوله \* قفانك من ذكرى حبيب ومنزل \* أو بالاستفهام عن الجواب لمخاطب غير معين كقوله \* ألم تسأل فتخبرك الرسوم \* ومثل تحية الطول بالأمر المخاطب غير معين بتحياتها كقوله \* حي الديار بجانب الغزل \* أو بالدعاء لها بالسقيا كقوله

أسقى طولهم أجش هذيم \* وغدت عليهم نضرة ونعيم

أو سؤال السقيا لها من البرق كقوله

يا برق طالع منزلاً بالبرق \* واحد السحاب لها حذاء الاينق

أو مثل التفجع في الجزع باستدعاء البكاء كقوله

كذا فليجل الخطب وليقنع الأمر \* وليس لعين لم يفيض مأوها عذر

وباستعظام الحادث كقوله \* أرأيت من حملوا على الأعواد \* أو بالتسجيل على الأكوان بالمصيبة

لفقده كقوله

منابت الشعب لاحام ولا راعي \* مضى الردى بطويل الرمح والباع

أوبالانكار على من لم يتفجع له من الجمادات كقول الخارجية  
أيا شجر الخابور مالك مورقا \* كأنك لم تجزع على ابن طريف  
أوبتهنة فريقه بالراحة من ثقل وطأته كقوله

ألقى الرماح ربيعة بن زار \* أودى الردى بفريقك المغوار

وأمثال ذلك كثير في سائر فنون الكلام ومذاهبه وتنتظم التراكيب فيه بالجل وغير الجل انشائية  
وخبرية اسمية وفعلية متفقة وغير متفقة مفصلة وموصولة على ما هو شأن التراكيب في الكلام العربي في  
مكان كل كلمة من الأخرى يعرفك فيه ما تستفيدة بالارتياض في أشعار العرب من القالب الكلى المجرد  
في الذهن من التراكيب المعينة التي ينطبق ذلك القالب على جميعها فان مؤلف الكلام هو كالبناء أو النسيج  
والصورة الذهنية للمنطقة كالقالب الذي يبنى فيه أو المنوال الذي ينسج عليه فان خرج عن القالب في  
بنائه أو عن المنوال في نسجه كان فاسدا ولا تقولن أن معرفة قوانين البلاغة كافية في ذلك لأننا نقول قوانين  
البلاغة إنما هي قواعد علمية قياسية تفيد جواز استعمال التراكيب على هيئتها الخاصة بالقياس وهو قياس  
علمي صحيح مطرد كما هو قياس القوانين الاعرابية وهذه الأساليب التي نحن نقرر هالست من القياس  
في شيء إنما هي هيئة ترسخ في النفس من تتبع التراكيب في شعر العرب لجريانها على اللسان حتى تستحكم  
صورها فيستفيد بها العمل على مثالها والاحتذاء بها في كل تركيب من الشعر كما قدمنا ذلك في الكلام  
باطلاق وان القوانين العلمية من العربية والبيان لا تفيد تعليمه بوجه وليس كل ما يصح في قياس كلام  
العرب وقوانينه العلمية استعملوه وإنما المستعمل عندهم من ذلك أنحاء معروفة يطلع عليها الحافظون  
لكلامهم تدرج صورتها تحت تلك القوانين القياسية فاذا نظر في شعر العرب على هذا النحو  
وبهذه الأساليب الذهنية التي تصير كالقوالب كان نظر في المستعمل من تراكيبهم لا فيما يقتضيه القياس  
ولهذا قلنا ان المحصل لهذه القوالب في الذهن إنما هو حفظ أشعار العرب وكلامهم وهذه  
القوالب كما تكون في المنظوم تكون في المنثور فان العرب استعملوا كلامهم في كلا الفنين  
وجاؤا به مفصلا في النوعين في الشعر بالقطع الموزونة والقوافي المقيدة واستقلال الكلام في كل قطعة  
وفي المنثور يعتبرون الموازنة والتشابه بين القطع غالبا وقد يقيدونه بالأسجاع وقد يرسلونه وكل  
واحدة من هذه معروفة في لسان العرب والمستعمل منها عندم هو الذي يبنى مؤلف الكلام عليه  
تأليفه ولا يعرفه الا من حفظ كلامهم حتى يتجر في ذهنه من القوالب المعينة الشخصية قالب كلى مطلق  
يحدو حذوه في التأليف كما يحدو البناء على القالب والنساج على المنوال فلماذا كان من تأليف الكلام  
منفردا عن نظر النحوي والبيان والعروضي نعم أن مراعات قوانين هذه العلوم شرط فيه لا يتم بدونها  
فاذا تحصلت هذه الصفات كلها في الكلام اختص بنوع من النظر لطيف في هذه القوالب التي يسمونها  
أساليب ولا يفيد إلا حفظ كلام العرب نظما وثرأ اذا تقرر معنى الاسلوب ما هو فلنذكر بعده حذا  
أورسما للشعر به تفهم حقيقته على صعوبة هذا الغرض فان لم تقف عليه لا حذمن المتقدمين فيمارأينا وقول



العروضيين في حد أنه الكلام الموزون المقفى ليس بمثل هذا الشعر الذي نحن بصددده ولا رسم له وصناعتهم انما تنظر في الشعر باعتبار ما فيه من الاعراب والبلاغة والوزن والقوالب الخاصة فلا جرم أن حدم ذلك لا يصلح له عندنا فلا بد من تعريف يعطينا حقيقة من هذه الحيثية فنقول الشعر هو الكلام البليغ المبني على الاستعارة والأوصاف المفصل بأجزاء متفقة في الوزن والروي مستقل كل جزء منها في غرضه ومقصده عما قبله وبعده الجارى على أساليب العرب المخصوصة به فقولنا الكلام البليغ جنس وقولنا المبني على الاستعارة والأوصاف فصل عما يخلو من هذه فانه في الغالب ليس بشعر وقولنا المفصل بأجزاء متفقة الوزن والروي فصل له عن الكلام المنشور الذي ليس بشعر عند الكل وقولنا مستقل كل جزء منها في غرضه ومقصده عما قبله وبعده بيان للحقيقة لأن الشعر لا تكون آياته الا كذلك ولم يفصل به شيء وقولنا الجارى على الأساليب المخصوصة به فصل له عما لم يجز منه على أساليب العرب المعروفة فانه حينئذ لا يكون شعرا انما هو كلام منظوم لأن الشعر له أساليب تخصه لا تكون لامشهور وكذا أساليب المنشور لا تكور للشعر فما كان من الكلام منظوما وليس على تلك الأساليب فلا يكون شعرا وبهذا الاعتبار كان الكثير ممن لقيناه من شيوخنا في هذه الصناعة الادبية يرون أن نظم المتنبي والمعري ليس هو من الشعر في شيء لانهما لم يجزبا على أساليب العرب عند من يرى أن الشعر لا يوجد لغيرهم وأما من يرى أنه يوجد للعرب وغيرهم من الامم فلا يحتاج الى ذلك ويقول مكانه الجارى على الأساليب المخصوصة واذ قد فرغنا من الكلام على حقيقة الشعر فلنرجع الى الكلام في كيفية عمله فنقول \* إعلم أن لعمل الشعر وأحكام صناعته شروطا أولها الحفظ من جنسه أى من جنس شعر العرب حتى تنشأ في النفس ملكة ينسج على منوالها ويتخير المحفوظ من الخرائق الكثير الأساليب وهذا المحفوظ المختار أقل ما يكفي فيه شعر شاعر من الفحول الاسلاميين مثل ابن أبي ربيعة وكثير وذى الرمة وجريروا بن نواس وحبيب والبحترى والرضي وأبي فراس وأكثره شعر كتاب الاغانى لانه جمع شعر أهل الطبقة الاسلامية كله والمختار من شعر الجاهلية ومن كان خاليا من المحفوظ فنظمه قاصر رديء ولا يعطيه الرونق والحلاوة الا كثرة المحفوظ فمن قل حفظه أو عدم لم يكن له شعرا وانما هو نظم ساقط واجتناب الشعر أولى بمن لم يكن له محفوظ ثم بعد الامتلاء من الحفظ وشحن القريحة للنسج على المنوال يقبل على النظم وبالا كثر منه تستحكم ملكته وتزسخ وربما يقال ان من شرطه نسيان ذلك المحفوظ لتمحي رسومه الحرفية الظاهرة اذ هي صادرة عن استعمالها بعينها فاذا نسيها وقد تكيفت النفس بها انتقش الاسلوب فيها كأنه منوال يأخذ بالنسخ عليه بأمثالها من كلمات أخرى ضرورة ثم لا بد له من الخلوة واستجادة المكان المنظور فيه من المياه والأزهار وكذا المسموع لاستئذ القريحة باستجاءها وتنشيطها بملاذ السرور ثم مع هذا كله فشرطه أن يكون على جمام ونشاط فذلك أجمع له وأنشط للقريحة أن تأتي بمثل ذلك المنوال الذي في حفظه قالوا وخير الاوقات لذلك أوقات البكر عند الهبوب من النوم وفراغ المعدة ونشاط الفكر وفي هؤلاء الجمام وربما

قالوا أن من بواعثه العشق والانتشاء ذكر ذلك ابن رشيق في كتاب العمدة وهو الكتاب الذي انقرد بهذه الصناعة وإعطاء حقها ولم يكتب فيها أحد قبله ولا بعده مثله قالوا فإن استصعب عليه بعد هذا كله فليتركه الى وقت آخر ولا يكره نفسه عليه وليكن بناء البيت على القافية من أول صوغه ونسجه ويبنى الكلام عليها الى آخره لانه إن غفل عن بناء البيت على القافية صعب عليه وضعها في محلها فربما تجيء نافرة قلقلة واذا سمح الخاطر بالبيت ولم يناسب الذي عنده فليتركه الى موضعه الا ليق به فان كل بيت مستقل بنفسه ولم تبق الا المناسبة فليتخير فيها كما يشاء وليراجع شعره بعد الخلاص منه بالتنقيح والنقد ولا يرض به على الترك إذا لم يبلغ الاجادة فان الانسان مفتون بشعره إذ هو نبات شعره واختراع قريحته ولا يستعمل فيه من الكلام الا الاوضح من التراكيب والخالص من الضرورات اللسانية فليجرحها فانها تنزل بالكلام عن طبقة البلاغة وقد حذر أئمة اللسان عن المولد ارتكاب الضرورة إذ هو في سعة منها بالعدول عنها الى الطريقة المثلى من الملكة ويحتمل أيضا المعقد من التراكيب جهده وإنما يقصد منها ما كانت معانيه تسابق ألفاظه الى الفهم وكذلك كثرة المعاني في البيت الواحد فان فيه نوع تعقيد على الفهم وإنما المختار منه ما كانت ألفاظه طبقا على معانيه أو وفي فان كانت المعاني كثيرة كان حشوا واستعمل الدهن بالغوص عليها فنع الذوق عن استيفاء مدركه من البلاغة ولا يكون الشعر سهلا الا إذا كانت معانيه تسابق ألفاظه الى الدهن ولهذا كان شيوخنا رحمهم الله يعيرون شعر المتنبي والمعري بعدم النسج على الأساليب العربية كما مر فكان شعرهما كلاما منظوما نازلا عن طبقة الشعر والحاكم بذلك هو الذوق وليجنب الشاعر أيضا الحوشى من الألفاظ والمقصر وكذلك السوق المبتذل بالتداول بالاستعمال فانه ينزل بالكلام عن طبقة البلاغة أيضا فيصير مبتذلا ويقرب من عدم الافادة كقولهم النار حارة والسماء فوقنا وبتقدير ما يقرب من طبقة عدم الافادة يبعد عن رتبة البلاغة إذ هما طرفان ولهذا كان الشعر في الربانيات والنبويات قليل الاجادة في الغالب ولا يحذق فيه الا الفحول وفي القليل على العشر لأن معانيها متداولة بين الجمهور فتصير مبتذلة لذلك وإذا تعذر الشعر بعدهذا كله فليراوده ويعاوده في القريحة فان القريحة مثل الضرع يدر بالامتراء ويحف بالترك والاهمال وبالجملة فهذه الصناعة وتعلمها مستوفى في كتاب العمدة لابن رشيق وقد ذكرنا منها ما حضرنا بحسب الجهد ومن أراد استيفاء ذلك فعليه بذلك الكتاب ففيه البغية من ذلك وهذه نبذة كافية والله المعين وقد نظم الناس في أمر هذه الصناعة الشعرية ما يجب فيها ومن أحسن ما قيل في ذلك وأظنه لابن رشيق

لعن الله صنعة الشعر ماذا \* من صنوف الجهال منه لقينا  
يؤثرون الغريب منه على ما \* كان سهلا للسامعين مينا  
ويرون المحال معنى صحيحا \* وخيس الكلام شيئا ثمينا  
يجهلون الصواب منه ولا يد \* رن للجهل أنهم يجهلون

فهم عند من سوانا يلامو \* ن وفي الحق عندنا يعذرونا  
 إنما الشعر ما يناسب في النظ \* م وإن كان في الصفات فنونا  
 فأنى بعضه يشاكل بعضا \* وأقامت له الصدور المتونا  
 كل معنى أتاك منه على ما \* تتمنى ولم يكن أو يكونا  
 فتناهى من البيان الى أن \* كاد حسنا يبين لناظرينا  
 فكأن الالفاظ منه وجوه \* والمعاني ركن فيها عيونا  
 إن مافى المرام حسب الأمانى \* يتحلى بحسنه المنشدونا  
 فإذا مامدحت بالشعر حرا \* رمت فيه مذاهب المشتينا  
 فجعلت النسب سهلا قريبا \* وجعلت الديح صدقا مبينا  
 وتعلت ما يهجن في السم \* مع وان كان لفظه موزونا  
 وإذا ما عرضته بهجاء \* عبت فيه مذاهب المرقينا  
 فجعلت التصريح منه دواء \* وجعلت التعريض داء دينا  
 وإذا ما بكيت فيه على العاد \* ين يوما للبين والظاعينا  
 حلت دون الأسمى وذلت ما كا \* ن من الدمع في العيون مصونا  
 ثم إن كنت عاتبا جئت بالوء \* د وعيدا وبالصعوب لينا  
 فتركت الذى عتبت عليه \* حذرا آمنا عزيزا مهينا  
 وأصح القريض ما قارب النظ \* م وإن كان واضحا مستبينا  
 فإذا قيل أطمع الناس طرا \* وإذا ريم أعجز المعجزينا  
 ومن ذلك أيضا قول بعضهم

الشعر ما قومت ربع صدوره \* وشددت بالتهذيب أس متونه  
 ورأيت بالأطناش شعب صدوعه \* وفتحت بالايحاز عور عيونه  
 وجمعت بين قريه وبعيده \* وجمعت بين محم ومعيه  
 وإذا مدحت به جوادا ماجدا \* وقضيته بالشكر حق ديونه  
 أصفيته بتفتش ورضيته \* وخصصته بخطيره وثمينه  
 فيكون جزلا في مساق صنوفه \* ويكون سهلا في إنفاق فنونه  
 وإذا بكيت به الديار وأهلها \* أجريت للمحزون ماء شؤونه  
 وإذا أردت كناية عن رية \* باينت بين ظهوره وبطونه  
 فجعلت سامعه يشوب شكوكه \* بثبوت وظنونه يقينه



٤٨ \* فصل في أن صناعة النظم والنثر إنما هي في الألفاظ لا في المعاني \*

(إعلم) أن صناعة الكلام نظماً ونثراً إنما هي في الألفاظ لا في المعاني وإنما المعاني تبع لها وهي أصل فالصانع الذي يحاول ملكة الكلام في النظم والنثر إنما يحاول لها في الألفاظ بحفظ أمثالها من كلام العرب ليكثر استعماله وجريه على لسانه حتى تستقر له الملكة في لسان مضر ويتخلص من العجمة التي ربي عليها في جيله ويفرض نفسه مثل وليد ينشأ في جيل العرب ويلقن لغتهم كما يلقنها الصبي حتى يصير كأنه واحد منهم في لسانهم وذلك أنا قد منا أن للسان ملكة من الملكات في النطق يحاول تحصيلها بتكرارها على اللسان حتى تحصل والذي في اللسان والنطق إنما هو الألفاظ وأما المعاني فهي في الضمائر وأيضاً فالمعاني موجودة عند كل واحد وفي طوع كل فكر منها ما يشاء ويرضى فلا تحتاج إلى صناعة وتأليف الكلام للعبارة عنها هو المحتاج للصناعة كما قلناه وهو بمثابة القوالب للمعاني فكما أن الأواني التي يعترف بها الماء من البحر منها آنية الذهب والفضة والصدف والزجاج والخزف والماء واحد في نفسه وتختلف الجودة في الأواني المملوأة بالماء باختلاف جنسها باختلاف الماء كذلك جودة اللغة وبلاغتها في الاستعمال تختلف باختلاف طبقات الكلام في تأليفه باعتبار تطبيقه على المقاصد والمعاني واحدة في نفسها وإنما الجاهل بتأليف الكلام وأساليبه على مقتضى ملكة اللسان إذا حاول العبارة عن مقصوده ولم يحسن بمثابة المقعد الذي يروم النهوض ولا يستطيعه لفقده القدرة عليه والله يعلمكم ما لم تكونوا تعلمون

٤٩ \* فصل في أن حصول هذه الملكة بكثرة الحفظ وجودتها بجودة المحفوظ \*

قد قدمنا أنه لا بد من كثرة الحفظ لمن يروم تعلم اللسان العربي وعلى قدر جودة المحفوظ وطبقته في جنسه وكثرته من قلته تكون جودة الملكة الحاصلة عند الحافظ فمن كان محفوظه شعر حبيب أو العتاني أو ابن المعتز أو ابن هانيء أو الشريف الرضي أو رسائل ابن المقفع أو سهل بن هارون أو ابن الزيات أو البديع أو الصابي تكون ملكته أجود وأعلى مقاماً ورتبة في البلاغة ممن يحفظ شعر ابن سهل من المتأخرين أو ابن النبية أو ترسل البيهقي أو للعقاد الأصماني لزول طبقة هؤلاء عن أولئك يظهر ذلك للبصير الناقد صاحب الذوق وعلى مقدار جودة المحفوظ أو المسموع تكون جودة الاستعمال من بعده ثم إجادة الملكة من بعدهما فإرتقاء المحفوظ في طبقته من الكلام ترتقى الملكة الحاصلة لأن الطبع إنما ينسخ على منوالها وتنمو قوى الملكة بتغذيتها وذلك أن النفس وإن كانت في جبلتها واحدة بالنوع فهي تختلف في البشر بالقوة والضعف في الإدراكات واختلافها إنما هو باختلاف ما يرد عليها من الإدراكات والملكات والألوان التي تكفيها من خارج فهذه يتم وجودها وتخرج من القوة إلى الفعل صورتها والملكات التي تحصل لها إنما تحصل على التدريج كما قدمناه فالملكة الشعرية تنشأ بحفظ الشعر وملكة الكتابة بحفظ الأسجاع والترسيل والعمية بمخالطة العلوم والإدراكات والأبحاث والألفاظ والفقهية بمخالطة الفقه وتنظير المسائل وتفريعها وتخرج الفروع على الأصول والتصوفية الربانية بالعبادات والأذكار وتعطيل الحواس الظاهرة بالخلوة والانفراد عن الخلق ما استطاع حتى تحصل

لهملكة الرجوع الى حسه الباطن وروحه وينقلب ربانيا وكذا سائرهما وللنفس في كل واحد منها لون تتكيف به وعلى حسب ما نشأت الملكة عليه من جودة أو رداءة تكون تلك الملكة في نفسها فملكة البلاغة العالية الطبقة في جنسها انما تحصل بحفظ العالي في طبقته من الكلام ولهذا كان الفقهاء وأهل العلوم كلهم قاصرين في البلاغة وما ذلك الا لما يسبق الى محفوظهم ويمتلى به من القوانين العلمية والعبارات الفقهية الخارجة عن أسلوب البلاغة والنازلة عن الطبقة لأن العبارة عن القوانين والعلوم لاحظ لها في البلاغة فاذا سبق ذلك المحفوظ الى الفكر وكثر وتلونت به النفس جاءت الملكة الناشئة عنه في غاية القصور وانحرفت عبارته عن أساليب العرب في كلامهم وهكذا نجد شعر الفقهاء والنحاة والمتكلمين والنظار وغيرهم ممن لم يمتلىء من حفظ النقي الحر من كلام العرب أخبرني صاحبنا الفاضل أبو القاسم بن رضوان كاتب العلامة بالدولة المرينية قال ذا كرت يوما صاحبنا أبا العباس بن شعيب كاتب السلطان أبي الحسن وكان المقدم في البصر باللسان لعبداه فانشدته مطلع قصيدة ابن النحوى ولم أنسبها له وهو هذا

لم أدر حين وقفت بالاطلال \* ما الفرق بين جديدها والبالى

فقال لي على البديهة هذا شعر فقيه فقلت له ومن أين لك ذلك قال من قوله ما الفرق اذهى من عبارات الفقهاء وليست من أساليب كلام العرب فقلت له لله أبوك أنه ابن النحوى وأما الكتاب والشعراء فليسوا كذلك لتخيرهم في محفوظهم ومخالطهم كلام العرب وأساليبهم في الترسيل وانتقائهم له الجيد من الكلام \* ذا كرت يوما صاحبنا أبا عبد الله بن الخطيب وزير الملوك بالاندلس من بني الأحمر وكان الصدر المقدم في الشعر والكتابة فقلت له أجد استصعابا على في نظم الشعر متى رمت مع بصرى به وحفظي للجيد من الكلام من القرآن والحديث وفنون من الكلام العرب وان كان محفوظي قليلا وإنما أتيت والله أعلم من قبل ما حصل في حفظي من الأشعار العلمية والقوانين التأليفية فاني حفظت قصيدتي الشاطبي الكبرى والصغرى في القراآت وتدارست كتابي ابن الحاجب في الفقه والاصول وجمل الخونجي في المنطق وبعض كتاب التسهيل وكثير من قوانين التعليم في المجالس فامتلاء محفوظي من ذلك وخدش وجه الملكة التي استعدت لها بالمحفوظ الجيد من القرآن والحديث وكلام العرب فعاق القريحة عن بلوغها فنظر إلى ساعة معجبا ثم قال لله أنت وهل يقول هذا إلا مثلك ويظهر لك من هذا الفصل وما تقر فيه سر آخر وهو إعطاء السبب في أن كلام الاسلاميين من العرب أعلى طبقة في البلاغة وأذواقها من كلام الجاهلية في منشورهم ومنظومهم فانجد شعر حسان بن ثابت وعمر بن أبي ربيعة والخطيب وجريز والفرزدق ونصيب وغيلان ذي الرمة والأحوص وبشار ثم كلام السلف من العرب في الدولة الأموية وصدر من الدولة العباسية في خطبهم وترسلهم ومحاوراتهم للملوك أرفع طبقة في البلاغة من شعر النابغة وعنترة وابن كثوم وزهير وعلمقة بن عبدة وطرفة بن العبد ومن كلام الجاهلية في منشورهم ومحاوراتهم والطبع السليم والدوق الصحيح شاهدان بذلك للنقاد البصير

بالبلاغة والسبب في ذلك أن هؤلاء الذين أدركوا الاسلام سمعوا الطبقة العالية من الكلام في القرآن والحديث اللذين يحيز البشر عن الايمان بمثلهما لكونها ولجت في قلوبهم ونشأت على أساليبها نفوسهم فنهضت طباعهم وارتقت ملكاتهم في البلاغة على ملكات من قبلهم من أهل الجاهلية ممن لم يسمع هذه الطبقة ولا نشأ عليها فكان كلامهم في نظمهم ونثرهم أحسن ديباجة وأصق رونقا من أولئك وأرصف مبني وأعدل تثقيفا بما استفادوه من الكلام العالي وتأمل ذلك يشهد لك به ذوقك ان كنت من أهل الذوق والتبصر بالبلاغة ولقد سألت يوما شيخنا الشريف أبا القاسم قاضي غرناطة لعهدنا وكان شيخ هذه الصناعة أخذ بسبته عن جماعة من مشيختها من تلاميذ الشلوين واستبحر في علم اللسان وجاء من وراء الغاية فيه فسألته يوما مابال العرب الاسلاميين أعلى طبقة في البلاغة من الجاهليين ولم يكن ليستنكر ذلك بذوقه فسكت طويلا ثم قل لي والله ما أدري قفلت أعرض عليك شيئا ظهر لي في ذلك ولعله السبب فيه وذكرت له هذا الذي كتبت فسكت معجبا ثم قال لي يا فقيه هذا كلام من حقه أن يكتب بالذهب وكان من بعدها يؤثر على ويصيح في مجالس التعليم الى قولي ويشهد لي بالنباهة في العاوم والله خلق الانسان وعلمه البيان

#### ٥٠ ﴿ فصل في ترفع أهل المراتب عن اتحال الشعر ﴾

( إعلم ) أن الشعر كان ديوانا للعرب في علومهم وأخبارهم وحكمهم وكان رؤساء العرب منافسين فيه وكانوا يقفون بسوق عكاظ لانشاده وعرض كل واحد منهم ديباجته على خول الشأن وأهل البصر لتمييز حوله حتى انتهوا الى المناغاة في تعليق أشعارهم تاركان البيت الحرام موضع حجهم وبيت إبراهيم كما فعل امرؤ القيس بن حجر والنابعة الديباني وزهير بن أبي سلمى وعنترة بن شداد وطرفة بن العبد وعلقمة بن عبدة والاعشى من أصحاب المعلقات السبع وغيرهم فانه انما كان يتوصل الى تعليق الشعر بها من كان له قدرة على ذلك بقومه وعصبيته ومكانه في مضر على ما قيل في سبب تسميتها بالمعلقات ثم انصرف العرب عن ذلك أول الاسلام بما شغلهم من أمور الدين والنبوة والوحي وما أدهشهم من أسلوب القرآن ونظمه فأخرسوا عن ذلك وسكتوا عن الخوض في النظم والنثر زمانا ثم استقر ذلك وأونس الرشد من الملة ولم ينزل الوحي في تحريم الشعر وحظره وسمعه النبي صلى الله عليه وسلم وأثاب عليه فرجعوا حينئذ الى دينهم منه وكان لعمر بن أبي ربيعة كبير قريش لذلك العهد مقامات فيه عالية وطبقة مرتفعة وكان كثيرا ما يعرض شعره على ابن عباس فيقف لاستماعه معجبا به ثم جاء من بعد ذلك الملك والدولة العزيزة وتقرّب اليهم العرب بأشعارهم يمتدحونهم بها ويحيزهم الخلفاء بأعظم الجوائز على نسبة الجودة في أشعارهم ومكانهم من قومهم ويحرضون على استهداء أشعارهم يطلعون منها على الآثار والأخبار واللغة وشرف اللسان والعرب يطالبون وليدهم بحفظها ولم يزل هذا الشأن أيام بني أمية وصدر من دولة بني العباس وانظر ما نقله صاحب العقد في مسامرة الرشيد للأصمعي في باب الشعر والشعراء تجدد



ما كان عليه الرشيد من المعرفة والرسوم فيه والعناية بانتحاله والتبصر بحيد الكلام ورديته وكثرة محفوظته منه ثم جاء خلق من بعدهم لم يكن اللسان لسانهم من أجل العجمة وتقصيرها باللسان وإنما تعلموه صناعة ثم مدحوا بأشعارهم أمراء العجم الذين ليس اللسان لهم طالبين معروفهم فقط لاسوى ذلك من الأغراض كما فعله حبيب والبحري والمتنبى وابن هانيء ومن بعدهم إلى هلم جرا فصار غرض الشعري الغالب إنما هو الكذب والاستجداء لذهاب المنافع التي كانت فيه للأولين كاذكرناه آنفاً وأنف منه لذلك أهل الهمم والمراتب من المتأخرين وتغير الحال وأصبح تعاطيه هجنة في الرياسة ومذمة لأهل المناصب الكبيرة والله مقلب الليل والنهار

### ٥١ \* فصل في أشعار العرب وأهل الأمصار لهذا العهد \*

(اعلم) أن الشعر لا يختص باللسان العربي فقط بل هو موجود في كل لغة سواء كانت عربية أو عجمية وقد كان في الفرس شعراء وفي يونان كذلك وذكر منهم أرسطو في كتاب المنطق وأميروس الشاعر وأثنى عليه وكان في حمير أيضاً شعراء متقدمون ولما فسد لسان مضر ولغتهم التي دونت مقاييسها وقوانين اعرابها وفسدت اللغات من بعد بحسب ما خالطها ومازجها من العجمة فكانت تحيل العرب بأنفسهم لغة خالفت لغة سلفهم من مضر في الاعراب جملة وفي كثير من الموضوعات اللغوية وبناء الكلمات وكذلك الحضرة أهل الأمصار نشأت فيهم لغة أخرى خالفت لسان مضر في الاعراب وأكثر الأوضاع والتعاريف وخالفت أيضاً لغة الحيل من العرب لهذا العهد واختلفت هي في نفسها بحسب اصطلاحات أهل الآفاق فلا أهل الشرق وأمصاره لغة غير لغة أهل المغرب وأمصاره وتخالفتها أيضاً لغة أهل الأندلس وأمصاره ثم لما كان الشعر موجوداً بالطبع في أهل كل لسان لأن الموازين على نسبة واحدة في أعداد المتحركات والسواكن وتقابلها موجودة في طباع البشر فلم يجر الشعر بفقدان لغة واحدة وهي لغة مضر الذين كانوا أخولة وفرسان ميدانه حسبما اشتهر بين أهل الخليفة بل كل جيل وأهل كل لغة من العرب المستعجمين والحضر أهل الأمصار يتعاطون منه ما يطاوعهم في انتحاله ورصف بنائه على مبيع كلامهم فاما العرب أهل هذا الجيل المستعجمون عن لغة سلفهم من مضر فيقرضون الشعر لهذا العهد في سائر الأعارض على ما كان عليه سلفهم المستعربون ويأتون منه بالمطولات مشتملة على مذاهب الشعر وأغراضه من النسيب والمدح والثناء والهجاء ويستطردون في الخروج من فن إلى فن في الكلام وربما هجموا على المقصود لأول كلامهم وأكثر ابتدائهم في قصائدهم باسم الشاعر ثم بعد ذلك ينسبون فأهل أمصار المغرب من العرب يسمون هذه القصائد بالأصمعيات نسبة إلى الأصمعي رواية العرب في أشعارهم وأهل المشرق من العرب يسمون هذا النوع من الشعر بالبدوي وربما يلحنون فيه ألحاناً بسيطة لا على طريقة الصناعة الموسيقية ثم يغنون به ويسمون الغناء به باسم الحوران نسبة إلى حوران من أطراف العراق والشام وهي من منازل العرب البادية ومساكنهم إلى هذا العهد ولهم فن آخر كثير التداول في نظمهم

يحيئون به معصبا على أربعة أجزاء يخالف آخرها الثلاثة في رواية ويلتزمون القافية الاربعة في كل بيت إلى آخر القصيدة شبيها بالمربع والخمس الذي أحدثه المتأخرون من المولدين وهؤلاء العرب في هذا الشعر بلاغة فائقة وفيهم الفحول والمتأخرون والكثير من المتحلين للعلوم لهذا العهد وخصوصا علم اللسان يستنكر هذه الفنون التي لهم إذا سمعها أو عجز نظمهم إذا أنشدوا ويعتقد أن ذوقه إيماناً عنها لاستهجانها وفقدان الاعراب منها وهذا إنما أتى من فقدان الملكة في لغتهم فلو حصلت له ملكة من ملكاتهم لشهد له طبعه وذوقه ببلوغها إن كان سليماً من الآفات في فطرته ونظيره والافالاعراب لا مدخل له في البلاغة إنما البلاغة مطابقة الكلام لمقصود ومقتضى الحال من الوجود فيه سواء كان الرفع والاعلى الفاعل والنصب والاعلى المفعول أو بالعكس وإنما يدل على ذلك قرائن الكلام كما هو لغتهم هذه فالدلالة بحسب ما يصطلح إليه أهل الملكة فإذا عرف اصطلاح في ملكة واشتهر صحت الدلالة وإذا طابت تلك الدلالة المقصود ومقتضى الحال صحت البلاغة ولا عبرة بقوانين النحاة في ذلك وأساليب الشعر وفنونه موجودة في أشعارهم هذه ما عدا حركات الاعراب في أواخر الكلم فإن غالب كلماتهم موقوفة الآخر ويتميز عندهم الفاعل من المفعول والمبتدأ من الخبر بقرائن الكلام لا بحركات الاعراب فمن أشعارهم على لسان الشريف بن هاشم يكي الجازية بنت سرحان ويذكر ظعنهما مع قومها إلى المغرب

قال الشريف بن هاشم على	تري كبدى حرى شكت من زفيرها
يعزل لأعلام أين مارأت خاطرى	يرد أعلام البدو يلقى عصيرها
وماذا شكاة الروح مما طرى لها	عذاب ودائع تلف الله خيرها
بحسن قطاع عامرى ضميرها	طوى وهند جافى ذكيرها
وعادت كما خواره فى يد غاسل	على مثل شوك الطلح عقدوا يسيرها
تجادوها اثنين والنزع بينهم	على شول لعه والمعافى جريرها
وباتت دموع العين ذارفات لشأنها	شبيه دوار السوانى يديرها
تدارك منها الجهم حذرا ورادها	مروان يحمي مستركباً من صيرها
لصب من القيعان من جانب الصفا	عيون ولحان البرق فى غدِيرها
هاأيقنى منى سنا بليت غدوة	بغداد ناحت منى حتى فقيرها
ونادى المنادى بالرحيل وشدوا	وعرج غاربها على مستعيرها
وشد لها الأدم دياب ابن غانم	على يد ماضى وليد مقرب ميرها
وقال لهم حسن ابن سرحان غربوا	وسوقوا النجوع إن كان تاهوا نعيمها
ويدلص وسنه سها بالتسامح	وباليمين لا تجحدوا فى صغيرها
غدرنى زمان السفح من عابس الوغى	وما كان يرمى من حمير وميرها
غدرنى وهو زعما صديق وصاحى	وناليه مامن درى ما يديرها

ورجع يقول لهم بلاد ابن هاشم \* خير البلاد العطشة ماخيرها  
 حرام على باب بغداد وأرضها \* داخل ولا عائد له من بعيرها  
 فصدق دري من بلاد ابن هاشم \* على الشمس أو حول الغطامن هجيرها  
 وباتت نيران العذارى قوادح \* فجروا بجرحان فيروا أسيرها  
 ( ومن قولهم في رثاء أمير زنادة أبي سعدى البقري مقارنهم بأفريقية وأرض الزاب ورثاؤهم  
 له على جهة التهنئة )

تقول فتاة الحى سعدى وهاضها \* لها في ظعون الباكين عويل  
 أيا سائلى عن قبر الزناتى خليفة \* خذ النعت متى لا تكون هويل  
 تراه العالى الواردات وفوقه \* من الربط عيساوى بناء طويل  
 وله يميل الغور من سائر النقا \* به الواد شرقا واليراع دليل  
 أيا لهف كبدي على الزناتى خليفة \* قد كان لآعقاب الجياد سليل  
 قتيل فتى الهيجا دياب بن غانم \* جراحه كأفواه المزاد تسيل  
 ياجارنا مات الزناتى خليفة \* لا ترحل الا أن يريد رحيل  
 وبالأمس رحلتك ثلاثين مرة \* وعشرا وستا في النهار قليل  
 ( ومن قولهم على لسان الشريف بن هاشم يذكر عتابا وقع بينه وبين ماضى بن مقرب )  
 تبدى لى ماضى الجياد وقال لى \* أيا شكر ما احشائى عليك رضاش  
 أيا شكر عدى مابق ود يبتنا \* ورانا عريب عربا لابسين تماش  
 نحن عدينا فصادفوا ما قضى لنا \* كما صادفت طعم الزناد طشاش  
 باعدنا يا شكر عدى لبري سلامة \* لنجد ومن عمر بلاده عاش  
 إن كانت بنت سيدهم بأرضهم \* هى العرب ما ردن لهن طياش  
 ( ومن قولهم في ذكر رحلتهم إلى الغرب وغلبهم زنادة عليه )

وأى جميل ضاع لى في ابن هاشم \* وأى جميل ضاع قبلى جميلها  
 أنا كنت أنا وياه فى زهو يبتنا \* عنانى لحجه ما عنانى دليلها  
 وعدت كأنى شارب من مدامة \* من الحمر قهوة ما قدر من يميلها  
 أو مثل شمطا مات مضيون كبدها \* غريبا وهى مدوخة عن قبيلها  
 أتاها زمان السوء حتى ادوخت \* وهى بين عرب غافلا عن زيلها  
 وكذلك أنا لما لحاني من الوحى \* شاكي بكبد باديا من عيلها  
 أمرت قوحي بالرحيل وبكروا \* وقووا وشداد الحيوايا جميلها  
 قعدنا سبعة أيام محبوس نجعنا \* والبسو ما ترفع عمود يميلها



تظل على إحداث الثنايا سوارى \* يضل الحر فوق التصاوي نصيلها  
( ومن شعر سلطان بن مظفر بن يحيى من الزواودة أحد بطون رباح وأهل الرياسة فيهم  
يقولها وهو معتقل بالمهدية في سجن الأمير أبي زكريا بن أبي حفص أول ملوك أفريقيا من الموحدين )

يقول وفي نوح الدجا بعد ذهبة \* حرام على أجفان عيني منامها  
أيامن لقي حالف الوجد والاسى \* وروحا هيامى طال مافي سقامها  
حجازية بدوية عربية \* عداوية ولها بعيدا مرأماها  
مولعة بالبدو لاتألف القرى \* سواعا بل الوعسا بوالى خيامها  
عمان ومشتها بها كل سرية \* محونة بها ولهى صحيح غرامها  
ومرباعها عشب الأراضى من الحيا \* لو أني من الحور الحلايا حسامها  
تسوق بسوق العين مما تداركت \* عليها من السحب السوارى غمامها  
وماذا بكت يالما وماذا تبلحطت \* عيون عذارى المزن عذابا حمامها  
كأن عروس البكر لاحت ثيابها \* عليها ومن نور الاقحاحي حزامها  
فلاة ودهنا واتساع ومنة \* ومرعى سوى مافي مراعى نعامها  
ومشروبها من مخض ألبان شولها \* عليهم ومن لحم الجوارى طعامها  
تعاتب على الأبواب والموقف الذى \* يشيب الفتى مما يقاسى زحامها  
سقى الله ذا الوادى المشجر بالحيا \* وبلا ويحيى مابلي من زمامها  
فكافأتها بالود منى وليتنى \* ظفرت بأيام مضت فى ركامها  
ليالى أقواس الصبا فى سوا عدى \* إذا قت لا تخطى من أيدي سهامها  
وفرسى عديدا تحت سرجي مسافة \* زمان الصبا سرجا ويدي لحامها  
وكم من رداح أسهرتني ولم أرى \* من الخلق أبهى من نظام ابتسامها  
وكم غيرها من كاعب مرحجة \* مطرزة الأجفان باهى وشامها  
وصفقت من وجدى عليها طريحة \* بكفى ولم ينسى جذاها ذمامها  
ونار بخطب الوجد توهج فى الحشا \* وتوجج لا يطفأ من الماء ضرامها  
أيامن وعدتى الوعد هذا الى متى \* فني العمر فى دار عمانى ظلامها  
ولاكن رأيت الشمس تكسف ساعة \* ويفمى عليها ثم يبرى غمامها  
بنود ورايات من السعد أقبلت \* إلينا بعون الله يهفو علامها  
أرى فى الفلا بالعين أظعان غزوتى \* ورمعى على كتنى وسيرى أمامها  
يجرعا عتاق النوق من عود شامت \* أحب بلاد الله عندي حشامها  
إلى منزل بالجعفرية للذي \* مقيم بها مالد عندي مقامها

وتلقى سراة من هلال بن عامر يزيل الصدا والغل عني سلامها  
 بهم تضرب الأمثال شرقا ومغربا إذا قاتلوا قوما سريع انهزامها  
 عليهم ومن هو في حمام تحية من الدهر ماغنى بقبه حمامها  
 فدع ذا ولا تأسف على سالف مضى تري الدنيا مادامت لا أحد دوامها  
 (ومن أشعار المتأخرين منهم قول خالد بن حمزة بن عمر شيخ الكعوب من أولاد أبي الليل يعاتب  
 أقتلهم أولاد مهلهل ويحيب شاعرهم شبل بن مسكيانة بن مهلهل عن أبيات غر عليهم فيها بقوله)

يقول وذا قول المصاب الذي نشأ قوارع قيعان يعانى صعبها  
 يريح بها حادى المصاب إذا اتقى فنونا من إنشاد القوافى غرابها  
 محبرة مختارة من نشادنا تحدى بها تام لوشا ملتهاها  
 مغرلة عن ناقد فى غضونها بحكمة القيعان دابى ودابها  
 وهىض تذكرى لها ياذوى الندى قوارع من شبل وهذى جوابها  
 أشبل جنينا من جباك طرائفا فراح يريح المومنين الغنا بها  
 غفرت ولم تقصر ولا أنت عادى سوي قلت فى جمهورها ما أعابها  
 لقولك فى أم المتين بن حمزة وحامى حماها عاديا فى حرابها  
 أما تعلم أنه قاما بعد مالى رصاص بنى يحيى وعلاق دابها  
 شهابا من أهل الأمر ياشبل خارق وهل رأيت من جاللوغى واصطلى بها  
 شواهد طفاها أضمرت بعد طيفه وأثنا طفاها حاسر الأهاها  
 وأضرم بعد الطيفتين التى صحت ناعسا الى بيت النى يفتدى بها  
 كما كان هو يطلب على ذاتجنت رجال بنى كعب الذى يتقى بها

ومنها فى العتاب

وليدا تعاتبثوا أنا أغنى لائى عنيت بعلاق الثنا واغتصابها  
 على ونا ندفع بها كل مبضع بالأسياف نتناش العدا من رقابها  
 فان كانت الأملاك بغت عرايس علينا بأطراف القنا اختصابها  
 ولا تقرها الأرهاف ودبل وزرق السبايا والمطايا ركابها  
 بنى عمنا ما نرتضى الذل علة تسير كالسنة الحناش إنسلامها  
 وهى علما بأن المنايا قفيلها بلا شك والدنيا سريع انقلابها

ومنها وصف الظعائن

بظعن قطوع اليد لا تختشى العدا فتوق بحربات مخوف جنبها  
 ترى العين فيها قل لشبل عرائف وكل مهات محتظها ربابها

ترى أهلها غب الصباح يفلها بكل حلوب الجوف ماسد بابها  
لها كل يوم في الأرامى قتائل - ورا الفاجر المزوج غنوا صباها  
ومن قولهم في الأمثال الحكيمة

وطلبك في الممنوع منك سفاهة وصدك عن صد عنك صواب  
إذا رأيت ناسا يغلقوا عنك بابهم ظهور المطايا يفتح الله باب  
ومن قول شبل يذكر انتساب الكعوب الى برج

فشايب وشباب من أولاد برج جميع البرايا تشتكي من ضهادها  
ومن قوله يعاتب إخوانه في موالة شيخ الموحدين أبي محمد بن تافرا كين المستبد بحجابة السلطان  
بتونس على سلطانها مكفولة أبي إسحق بن السلطان أبي يحيى وذلك فيما قرب من عصرنا

يقول بلا جهل فقي الجود خالد مقالة قوال وقال صواب  
مقالة حيران بذهن ولم يكن هريجا ولا فيما يقول ذهاب  
تهجيت معنا بها لا حاجة ولا هرج ينقاد منه معاب  
ولبت بها كبدى وهى نعم صاحبه حزينة فكر والحزين يصاب  
تفوهت بادى شرحها عن مأرب جرت من رجال فى القبيل قراب  
بني كعب أدنى الاقرنين لدننا بنى عم منهم شايب وشباب  
جرى عند فتح الوطن منا لبعضهم مصافات ود واتساع جناب  
وبعضهم ملنا له عن خصيمة كما يعلموا قولى يقينه صواب  
وبعضهموا مرهوب من بعض ملكنا جزاء وفى جو الضمير كتاب  
وبعضهموا جانا جريحا تسمحت خواطر منا للنزىل وهاب  
وبعضهموا نظار فينا بسوة تقهنا حتى ما عانا به ساب  
رجع ينتهي مما سفهنا قبيحة مرارا وفى بعض المزارع يهاب  
وبعضهموا شاكي من أوغاد قادر غلق عنه فى أحكام السقائف باب  
فصمناه عنه واقتضى منه مورد على كره مولى البالى ودياب  
ونحن على دافى المد انطلب العلا لهم ما حططن للفجور نقاب  
وحزنا حمى وطن بترسيس بعدما نفقنا عليها سبقا ورقاب  
ومهد من الأملاك ما كان خارجا على أحكام والى أمرها له ناب  
يردع قروم من قروم قبيلنا بنى كعب لاؤها الغريم وطاب  
جرينابهم عن كل تأليف فى العدا وقنا لهم عن كل قيد متاب  
الى أن عاد من لا كان فيهم بهمة ربيها وخيراته عليه نصاب  
وركبوا السبايا المثلثات من أهلها ولبسوا من أنواع الحرير ثياب



وساقوا المطايا بالنسر إلا نسوا له  
وكسبوا من أصناف السعادة ذخائر  
وعادوا نظير البرمكيين قبل دا  
وكانوا لنا درعا لكل مهمة  
خلوا الدار في جنح الظلام ولا اتقوا  
كسوا الحى جلباب البهم لستره  
كذلك منهم حابس ماذرى النبا  
يظن ظنونا ليس نحن بأهلها  
حظا هو ومن وأناه في سو ظنة  
فوا عروقي إن الفقى بو محمد  
وبرحت الأوغد منه وبخسبوا  
جروا يطلبوا تحت السحاب شرائع  
وهولو عطى ما كان للرأى عرف  
وان نحن ما نسأملوا عنه راحة  
وان ماوطا ترسيس بضياف وسعها  
وانه منها عن قريب مفاصل  
وعن فائنات الطرف يمس غوانح  
يتيه اذا تاهوا ويصبوا اذا صبوا  
يضلوه من عدم اليقين وربما  
بهم حاز له ذمه وطوع أوامر  
حرام على ابن نافرا كين مامضى  
وان كان له عقل رجيع وفطنة  
وأما البدا لا بد لها من فياعل  
يحمى بها سوق علينا سلاعه  
ويسى غلام طالب ربح ملكنا  
أيا واكلىن الحبن تبعوا إدامه  
ومن شعر علي بن عمر بن ابراهيم من رؤساء بني عامر لهذا العهد أحد بطون زغبة يعاتب بني عمه  
المتطاولين إلى رياسته

مجرة كالدر في يد صانع  
أباحها منها فيه أسباب مامضى  
غدا منه لام الحى حين وانشطت  
إذا كان في سلك الحرير نظام  
وشاء تبارك والضعون تسام  
عصاها ولا صبنا عليه حكاه

ولكن ضميري يوم بان به الينا  
 وإلا كأبراص التهامي قوادح  
 وإلا لكان القلب في يد قابض  
 لما قلت سها من شقا الين رارني  
 أياربوع كان بالأئس عامر  
 وغيد تداني للخطا في ملاعب  
 ونعم يشوق الناظرين التحامها  
 وعروود باسمها ليدعوا لسر بها  
 واليوم ما فيها سوى اليوم حولها  
 وقفنا بها طورا غوبلا نسلها  
 ولاصح لي منها سوى وحش خاطري  
 ومن بعد ذا تدي لمنسور بو على  
 وقولوا له يابو الوف كلح رأيكم  
 زواخر ماتنقاس بالعود إنما  
 ولاقسموا فيها قياسا يدلكم  
 وعانوا على هلكاتكم في ورودها  
 أيا عزوة ركبوا اضلالة ولاهم  
 الاعنام لو ترى كيف رأبهم  
 خلوا القنا ييغون في مرقب العلا  
 وحق النبي والبيت وأركانه العلى  
 لبر الليلي فيه ان طالت الحيا  
 ولايرها تبقى البوادي عوا كف  
 وكل مسافة كالسدياه عابر  
 وكل كميت يكتعص عض نابه  
 وتحمل بنا الأرض العقيمة مدة  
 بالأبطال والقود الهجان وبالقنا  
 تجحدني وأنا عقيد تقودها  
 ونحن كأضراس الموافق بنجعم  
 متى كان يوم القحط يأمر أبو على  
 كذلك بوحمو إلى اليسر ابعته  
 واخل رجالا لا يرى الضيم جارم

تبرم على شوك القتاد برام  
 وبين عواج الكانفات ضرام  
 أنام بمنشار القطيع غشام  
 إذا كان ينادى بالفرار وخام  
 يحيي وحله والقطين لمام  
 دجى الليل فيهم ساهر ونيام  
 لما ما بدا من مبرق وكظام  
 وإطلاق من سرب المهاونعام  
 ينوح على إطلال لها وخيام  
 بعين سخيها والدموع سجام  
 وسقمى من أسباب عرفت أوهام  
 سلام ومن بعد السلام سلام  
 دختم بخورا غمقات دعام  
 لها سيلان على الفضا وأكام  
 وليس البحور الظاميات تعام  
 من الناس عدمان العقول لئام  
 قرار ولا دنيا لهم دوام  
 مثل صراب ما لهم تمام  
 مواضع ما هيا لهم بمقام  
 ومن زارها في كل دهر وعام  
 يذوقون من خمط الكساع مدام  
 يكل رديني مطرب وحسام  
 عليها من أولاد الكرام غلام  
 يظل يصارع في العنان لجام  
 وتولدنا من كل ضيق كظام  
 لها وقت وجنات البدور زحام  
 وفي سن رمي للحروب علام  
 حتى يقاضوا من ديون غرام  
 يلقي سعايا صايرين قدام  
 واخل الجياد العاليات تسام  
 ولا يجمعوا بدهى العدو زمام

إلا يقيموها وعقد بؤسهم      وهم عنذر عنه دائما ودوام  
وكم نارطعنها على البدو سابق      ما بين صحاحيح وبين حمام  
فتى نار قطار الصوى يومنا على      لنا أرض ترك للظاعنين زمام  
وكم ذابحيوها أثرها من غنيمة      حليف الثنا قشاع كل غيام  
وإن جاء خافوه الملوك ووسعوا      غدا طبعه يجدى عليه قيام  
عليكم سلام الله من لسن فام      ماغت الورقا وناح حمام  
ومن شعر عرب نمر بنواحي خوران لامرأة قتل زوجها فبعثت إلى أحلافه من قيس تغريهم بطلب  
ناره تقول

تقولى فتاة الحى أم سلامه      بعين أراع الله من لارثى لها  
تبنت بطون الليل ما تألف الكرى      موجعة كأن الشقا فى مجالها  
على ما جرى فى دارها وبو عيالها      بلحظة عين اليبين غير حالها  
فقدنا شهاب الدين يا قيس كـكم      وامتوا عن أخذ الذار ماذا مقالها  
أناقلت إذا ورد الكتاب يسرنى      ويرد من نيران قلبى ذبالها  
أياحين تسريح الذوائب والاحى      ويبيض العذارى ما حمتوا رجالها

### ﴿ الموشحات والأزجال للأندلس ﴾

وأما أهل الأندلس فلما كثر الشعر فى قطرهم وتهذبت مناحيه وفنونه وبلغ التتميق فيه الغاية  
استحدث المتأخرون منهم فنا منه سموه بالموشح ينظمونه أسماطاً أسماطاً وأغصانا أغصانا يكثرون منها  
ومن أعاريضها المختلفة ويسمون المتعدد منها بيتا واحدا ويلتزمون عند قوافى تلك الأغصان وأوزانها  
متتاليات فيما بعد إلى آخر القطعة وأكثر ما تنتهى عندهم إلى سبعة أبيات ويشتمل كل بيت على أغصان  
عددها بحسب الأغراض والمذاهب وينسبون فيها ويمدحون كما يفعل فى القصائد وتجاروا فى ذلك إلى  
الغاية واستظرفه الناس جملة الخاصة والكافة لسهولة تناوله وقرب طريقه وكان المخترع لها بجزيرة  
الأندلس مقدم بن معافر الفربرى من شعراء الأمير عبد الله بن محمد المروانى وأخذ ذلك عنه أبو عبد  
الله أحمد بن عبدربه صاحب كتاب العقد ولم يظهر لهما مع المتأخرين ذكر وكسدت موشحاتهما فكان  
أول من برع فى هذا الشأن عبادة القزاز شاعر المعتصم بن صمادح صاحب المريعة وقد ذكر الأعلام  
البطليوسى أنه سمع أبا بكر بن زهير يقول كل الوشاحين عيال على عبادة القزاز فيما اتفق له من قوله

بدرتم شمس ضحي \* غصن تقامسك شم \* ما أتم ما أوضحا

ما أورقا ما أتم \* لا جرم من لحا \* قد عشقا قد حرم

وزعموا أنه لم يسبق عبادة وشاح من معاصريه الذين كانوا فى زمن الطوائف \* وجاء مصليا خلفه  
منهم ابن أرفع رأسه شاعر المأمون بن ذى النون صاحب طليطلة قلوا وقد أحسن فى ابتدائه فى  
موشحته التى طارت له حيث يقول

العود قد ترنم \* بأبدع تلحين      وسقت المذائب \* رياض البساتين



وفي انتهائه حيث يقول

تخطر ولا تسلم \* عساك المأمون مروع الصكتائب \* يحيى بن ذى النون  
ثم جاءت الحلبة التي كانت في دولة الملتشين فظهرت لهم البدائع وسابق فرسان حلبتهم الأعمى  
الطليطلي ثم يحيى بن بقرى وللطليطلي من الموشحات المهدبة قوله  
كيف السبيل إلى \* صبرى وفي المعالم أشجان والركب في وسط الفلا \* بالخر والنواعم قدبان  
وذكر غير واحد من المشايخ أن أهل هذا الشأن بالاندلس يذكرون أن جماعة من الوشاحين  
اجتمعوا في مجلس بأشبيلية وكان كل واحد منهم اصطنع موشحة وتأنق فيها فتقدم الأعمى الطليطلي  
للأنشاد فلما افتتح موشحته المشهورة بقوله

ضاحك عن جمان \* سافر عن در ضاق عنه الزمان \* وحواء صدرى  
صرف ابن بقرى موشحته وتبعه الباكون وذكر الأعمى البطليوسى أنه سمع ابن زهير يقول ما حدثت  
قط وشاحا على قول إلا ابن بقرى حين وقع له

أما ترى أحمد \* في مجده العالى لا يلحق أطلعه الغرب \* فأرنا مثله يامشرق  
وكان في عصرهما من الموشحين المطبوعين أبو بكر الأبيض وكان في عصرهما أيضا الحكيم أبو بكر  
ابن باجه صاحب التلاحين المعروفة ومن الحكايات المشهورة أنه حضر مجلس مخدومه ابن تيفلويت صاحب  
سرقسطة فألقى على بعض قيناته موشحته

جرر الذيل أيما جر وصل الشكر منك بالشكر  
فطرب الممدوح لذلك فلما ختمها بقوله

عقد الله راية النصر لأمير العلا أبى بكر

فلما طرقت ذلك التلاحين سمع ابن تيفلويت صاح واطرباه وشق ثيابه وقال ما أحسن ما بدأت وما ختمت  
وحلف بالإيمان المغلظة لا يعشى ابن باجة إلى داره الأعلى الذهب تخاف الحكيم سوء العاقبة فاحتال بأن جعل  
ذهبا في نعله ومشى عليه وذكر أبو الخطاب ابن زهير أنه جرى في مجلس أبى بكر بن زهير ذكر أبى بكر  
الأبيض الوشاح المتقدم الذكر فعرض منه بعض الحاضرين فقال كيف تغض ممن يقول

مالدى شرب راح على رياض الأقاح لولا هضم الوشاح

إذا أتى في الصباح أو في الأصيل أغشى يقول

مالشمسول لطمت خدي وللشمس مال

هبت فمالى غصن اعتدال ضمه بردى

مما أباد القلوبا يعشى لنا مستريا بالحظه رذنوبا

ويلمأه الشنبيا برد غليل صب عليل

لا يستحيل فيه عن عهدى ولا يزال

في كل حال يرجو الوصال وهو في الصد

واشتهر بعد هؤلاء في صدر دولة الموحدين محمد بن أبى الفضل ابن شرف الدين قال الحسن بن دويده رأيت

حاتم بن سعيد على هذا الافتتاح شمس قربت بدرا راح ونديم

وابن بهرودس الذي له ياليلة الوصل والسعود بالله عودى

وابن موهل الذي له ما العيد في حلة وطاق وشم وطيب

وإنما العيد في النلاق مع الحبيب

وأبو اسحاق الرويني قال بن سعيد سمعت أبا الحسن بن سهل بن مالك يقول أنه دخل على بن زهير وقد أسن  
وعليه ذى البادية إذا كان يسكن بحصن أسيه فلم يعرفه فجلس حيث انتهى به المجلس وجرت المحاضرة  
فأنشد لنفسه موشحة وقع فيها

كحل الدجى يجرى من مقلة الفجر على الصباح

ومعصم النهر في حلال خضر من البطاح

فتحرك ابن زهير وقال أنت تقول هذا قال اختر قال ومن تكون فعرفه فقال ارتفع فوالله ما عرفتك قال ابن  
سعيد وسابق الحلبة التي أدركت هؤلاء أبو بكر بن زهير وقد شرقت موشحاه وغربت قال وسمعت أبا  
الحسن سهل بن مالك يقول قيل لابن زهير لو قيل لك ما أبدع وأرفع ما وقع لك في التوشيح قل كنت أقول

ما المـسـوـله من سكره لا يفيق ياله سكران

من غير خمر مالك كئيب المشوق يندب الأوطان

هل تستعاد أيامنا بالخليج وليالينا

أو نستفاد من النسيم الأريخ مسك دارينا

وادي يكاد حسن المكان الهيج أن يخبينا

ونهر ظله دوح عليه أنيق مورك فينان

والماء يجري وعالم وغريق من جنى الرمان

واشتهر بعده ابن حيون الذي له من الرجل المشهور قوله

تفوق بينهم كل حين بما سبب من يد وعين

علقت مليح علمت رامى فليس يخل ساع من قتال

وينشد في القصيد ويعمل بنى العينين منامى ما يعمل فينا بنى النبال

واشتهر معها يومئذ بغرناطه المهر بن الفرس قال بن سعيد

ولما سمع ابن زهير قوله

لله ما كان من يوم بهيج بنهر حمص على تلك المروج

ثم اعطفنا على فم الخليج نفص مسك الختام

عن عسجد والدمام ورد الأصيل يطويه كف الظلام

قال ابن زهير كنا نحن عنده هذا الرداء وكان معه في بلده مطرف أخبر ابن سعيد عن والده أن مطرفا هذا

دخل على ابن الفرس فقام له وأكرمه فقال لا تفعل فقال ابن الفرس كيف لا أقوم لمن يقول

قلوب مصائب \* بألحاظ تصيب \* فقل كيف يبقى بلا وجد

وبعد هذا ابن جرمون بمرسية \* ذكر ابن الراسين أن يحيى الخزرجي دخل عليه في مجلسه فأشده  
موشحة لنفسه فقال له ابن جرمون لا يكون الموشح بموشح حتى يكون عاريا عن التكلف قال  
على مثل ماذا قال على مثل قولي

ياهاجرى هل الى الوصال منك سبيل  
أو هل تري عن هو الكسالى قلب العليل  
وأبو الحسن سهل بن مالك بغرناطة قال ابن سعيد كان والدى يعجب بقوله  
إن سيل الصباح فى الشرف عاد بحرا فى أجمع الأفق  
فتداعت نوابد الورق أتراها خافت من الغرق  
فبكت سحرة على الورق.

واشتهر بأشيلية لذلك العهد أبو الحسن بن الفضل قال ابن سعيد عن والده سمعت سهل بن مالك يقول  
يا ابن الفضل لك على الوشاحين الفضل بقولك

واحسرتا لزمان مضى \* عشية بان الهوى وانقضى  
وأفردت بالرغم لا بالرضى \* وبت على جمرات الغضى  
أعانق بالفكر تلك الطلول \* وألثم بالوهم تلك الرسوم  
قال وسمعت أبا بكر بن الصابون ينشد الأستاذ أبا الحسن الزجاج موشحاته غير مأمرة فأسمعه  
يقول له لله درك الا فى قوله

قسما بالهوى لندى حجر \* ماليل المشوق من فجر  
خمد الصبح ليس يطرد \* ماليلي فيما أظن غد  
صح بالليل أنك الأبد \* أوقطعت قوادم النسر  
فنجوم السماء لا تسرى

ومن موشحات ابن صابون قوله

ما حال صب ذى ضنى واكتئاب \* أمرضه يا ويلتاه الطبيب  
عامله محبوبه باجتئاب \* ثم اقتدى فيه الكرى بالحبيب  
جفا جفونى النوم لكنى \* لم أبكه الا لفقد الخيال  
وذا الوصال اليوم قد غرنى \* منه كما شاء وساء الوصال  
فلست باللائم من صدنى \* بصورة الحق أو بالمثال  
واشتهر بين أهل العدو ابن خلف الخزاري صاحب الموشحة المشهورة  
يد الاصباح قد قدحت \* زناد الانوار  
فى مجامر الزهر

وابن هزر البجائى وله من موشحة

تغر الزمان موافق \* حياك منه باقسام



ومن محاسن الموشحات للمتأخرين موشحة ابن سهل شاعر أشبيلية وسبته من بعدها فمنها قوله

هل درى ظبي الحمى أن قد حمى \* قلب صب حله عن مكنس  
فهو في نار وضيق مثل ما \* لعبت ريح الصبا بالقبس

قد نسج على منواله فيها صاحبنا الوزير أبو عبد الله بن الخطيب شاعر الأندلس والمغرب لعصره وقد  
مر ذكره فقال

جاد الغيث إذا الغيث هما \* يازمان الوصل بالأندلس  
لم يكن وصلك إلا حلما \* في الكرى أو خلسة المختلس  
أذ يقول الدهر أسباب المنى \* تنقل الخطو على ماطرسم  
زمر بين فرادى وثني \* مثل ما يدعوا لوفود الموسم  
والحيا قد جلت الروض سنا \* فسنا الأزهار فيه تبسم  
وروى النعمان عن ماء السما \* كيف يروى مالك عن أنس  
فكساه الحسن ثوبا معلما \* يزدهى منه بأبهى ملبس  
في ليال كتمت سر الهوى \* بالدجى لولا شמוש القدر  
مال نجم الكاس فيها وهوى \* مستقيم السير سعد الأسد  
وطر ما فيه من عيب سوى \* أنه مر كملح البصر  
حين لد النوم منا أو كما \* هجم الصبح نجوم الحرس  
غارت الشهب بنا أو ربما \* أثرت فينا عيون النرجس  
أى شيء لأمري قد خلصا \* فيكون الروض قد كن فيه  
تنهب الأزهار فيه الفرصا \* أمنت من مكره ما تنقيه  
فاذا الماء تناحى والحصا \* وخلا كل خليل بأخيه  
تبصر الورد غيورا بدما \* يكتسى من غيظه ما يكتسى  
وترى الآس ليبا فهما \* يسرق الدمع بأدنى فرس  
يا أهيل الحمى من واد الغضى \* وبقلي مسكن أتم به  
ضاق عن وحدي بكم رحب الفضا \* لا أبالي شرقه من غربه  
فأعيدوا عهد أنس قد مضى \* تنقذوا عائذكم من كربه  
واتقوا الله وأحيوا مغرما \* يتلاشى نفسا في نفس  
حبس القلب عليكم كرما \* أقترضون خراب الحبس  
وبقلي فيكموا مقرب \* بأحاديث المنى وهو بعيد  
قمر أطلع منه المغرب \* شقوة المغرى به وهو سعيد  
قد تساوى محسن ومذنب \* في هواه بين وعد ووعد  
ساحر المقلّة معسول اللمى \* جال في النفس مجال النفس

سدد السهم وسمى ورمى      بفؤادى تهبة المفترس  
ان يكن جار وخاب الأمل      وفؤاد الصب بالشوق يذوب  
فهو للنفس حبيب أول      ليس في الحب لمحبوب ذنوب  
أمره معتمل ممتثل      في ضلوع قد براها وقلوب  
حكم اللحظ بها فاحتكما      لم يراقب في ضعاف الأنفس  
ينصف المظالم ممن ظلما      ويجازى البر منها والمسى  
مالقبي كلما هبت صبا      عاده عيد من الشوق جديد  
كان في اللوح له مكتبا      قوله ان عذابي لشديد  
جلب الهم له والوصبا      فهو للأشجان في جهد جهيد  
لاعج في أضلعي قد أضرما      فهي نار في هشيم اليبس  
لم تدع من مهجتي الا الذما      كبقاء الصبح بعد الغلس  
سامي يا نفس في حكم القضا      واعمري الوقت برجي ومتاب  
واتركي ذكرى زمان قد مضى      بين عتي قد تقضت وعتاب  
واصر في القول الى المولى الرضى      ملهم التوفيق في أم الكتاب  
الكريم المنتهى والمتمى      أسد السرح وبدر المجلس  
ينزل النصر عليه مثل ما      ما ينزل الوحي بروح القدس

وأما المشاركة فالتكلف ظاهر على ما عانوه من الموشحات ومن أحسن ما وقع لهم في ذلك موشحة  
ابن سنا الملك المصرى اشتهرت شرقا وغربا وأولها

يا حبيبي ارفع حجاب النور \* عن العبد  
تنظر السك على الكافور \* في جلتار  
كللى ياسحب تيجان الربى بالحلى \* واجعلي سوارها منعطف الجدول

ولما شاع فن التوشيح في أهل الأندلس وأخذ به الجمهور لسلاسته وتنميق كلامه وترصيع أجزائه  
نسجت العامة من أهل الأمصار على منواله ونظموا في طريقته بلغتهم الحضرية من غير أن يلتزموا فيها  
إعرابا واستحدثوه فنا سموه بالزجل والتزموا النظم فيه على مناحيمهم إلى هذا العهد فجاء فيه بالغرائب  
واتسع فيه للبلاغة مجال بحسب لغتهم المستعجمة \* وأول من أبدع في هذه الطريقة الزجلية أبو بكر بن  
قرمان وإن كانت قلت قبله بالأندلس لكن لم يظهر حلاها ولا انسبكت معانيها واشتهرت رشاقتها  
الافى زمانه وكان لعهد الملمين وهو إمام الزجالين على الاطلاق قال ابن سعيدي رأيت أزجاله مروية  
بغداد أكثر مما رأيتها بحواضر المغرب قل وسمعت أبا الحسن بن حيدر الاشيلي امام الزجالين في عصرنا  
يقول ما وقع لأحد من أئمة هذا الشأن مثل ما وقع لابن قرمان شيخ الصناعة وقد خرج إلى منزله مع  
بعض أصحابه فجلسوا تحت عريش وأمامهم بمثال أسد من رخام يصب الماء من فيه على صفائح من الحجر  
مدرجة فقال وعريش قد قام على دكان \* بحال رواق

وأسد قد ابتلع ثعبان \* في غلظ ساق  
وفتح فيه بحال انسان \* فيه الفواق  
وانطلق يجرى على الصفاح \* ولقي الصباح

وكان ابن قرمان مع انه قرطبي الدار كثيرا ما يتردد إلى أشبيلية ويبيت بنهرها فاتفق ان اجتمع ذات  
يوم جماعة من أعلام هذا الشأن وقدر كبروا في النهر للزهوة ومعهم غلام جميل الصورة من سروات  
أهل البلد ويوتهم وكانوا مجتمعين في زورق للصيد فنظموا في وصف الحال وبدأ منهم عيسى البليدي فقال

يطمع بالخلاص قلبي وقد فاتو \* وقد ضموا عشقوا بسهاؤ  
تراه قد حصل مسكين حملا تو \* فقلق ولذلك أمر عظيم صابا تو  
توحش الجفون الكحل اذا عاتو \* وذيك الجفون الكحل إبلاتو  
ثم قال أبو عمرو بن الزاهر الأشبيلي

نشب والهوى من لحي فيه ينشب \* ترى ايش كان دعاه يشق ويتعذب  
مع العشق قام في مالو يلعب \* وخلق كثير من ذا اللعب ماتو  
ثم قال أبو الحسن المقرئ الداني

نهار مليح تعجبنى أوصافو \* شراب وملاح من حولي طافوا  
والمعلمين يقولوا بصفصافو \* والنورى أحر بمقالاتو  
ثم قل أبو بكر ابن مرتين

الحق يريد حديث تعالى عاد \* في الواد الحمير والمنزه والصاد  
تشبه حيتان ذلك الذي يصطاد \* قلوب النورى في شبكات  
ثم قال أبو بكر ابن قرمان ذا سمر كما موارمها \* ترى النور يرشق لديك الحياها  
وليس مراد وأن يقع فيها \* إلا أن يقبل يديدا تو  
وكان في عصرهم بشرق الأندلس حلف الأسود وله محاسن من الزجل منها قوله  
قد كنت مشبوب واختشيت الشيب \* وردني ذا العشب لأمر صعب  
يقول فيه حين تنظر الخد الشريف البهي \* تنهى في الحمرة الى ما تنهى  
يا طالب الكيمياء في عيني هي \* تنظر بها الفضة ترجع ذهب

وجاءت بعدم حلبة كان سابقها مدغيس وقعت له العجائب في هذه الطريقة فمن قوله في زجله المشهور  
ورذاذ دق ينزل \* وشعاع الشمس يضرب \* فترى الواحد يفضض  
وترى الآخر يذهب \* والنبات يشرب ويسكر \* والغصون ترقص وتطرب  
وتريد تجي إلينا \* ثم تستحي وتهرب  
ومن محاسن أزجاله قوله

لاح الضياء والنجوم حيارى \* ققم بنا نزع الكسل  
شربت ممزوجا من قراعا \* أحلى هي عندي من العسل



يامن يامن كما تقلد قدك الله بما تقول  
يقول بأن الذنوب مولد وأنه يفسد العقول  
لا أرض الحجاز يكون لك أرشد اش ماساقتك لدى الفضول  
مرأب للحج والزيار ودعى في الشرب منهمل  
من ليس له قدرة ولا استطاعا النبة أبلغ من العمل  
وظهر بعده هؤلاء باشيلية ابن جحدر الذي فضل على الرجالين في فتح منورة بالزجل الذي أوله هذا  
من عاند التوحيد بالسيف يحق أنا بري ممن يعاند الحق  
قال ابن سعيد لقيته ولقيت تلميذه المجمع صاحب الزجل المشهور الذي أوله  
ياليتني أن رأيت حبيبي أفيل أذنو بالرسيل  
ليس آخذ عنق العريل وأسرق فم الحميلا  
ثم جاء من بعدهم أبو الحسن سهل بن مالك امام الأدب ثم من بعدهم لهذه العصور صاحبنا الوزير أبو  
عبدالله بن الخطيب امام النظم والنثر في الملة الاسلامية من غير مدافع فمن محاسنه في هذه الطريقة  
أمزج الا كواس واملا لي تجدد ما خلق المال الا أن يبدد  
ومن قوله على طريقة الصوفية وينحو منحى المشتري منهم  
بين طلوع وزول \* اختلطت العرول ومضى من لم يكن \* وبقي من لم يزول  
ومن محاسنه أيضا قوله في ذلك المعنى

البعد عنك يابني \* أعظم مصابي وحين حصل لي قربك \* نسيت قرايبي  
وكان لعصر الوزير بن الخطيب بالأندلس محمد بن عبد العظيم من أهل وادي آش وكان اماما في  
هذه الطريقة وله من زجل يعارض به مدغيس في قوله \* لاح الضيا والنجوم حيارى \* بقوله  
حل المجون يا أهل الشطارا مذ حلت الشمس بالحمل  
جددوا كل يوم خلاعا لاتجعلوا اسمها يمل  
اليها يتخلعوا في سبيل على خضورة ذاك النبات  
وصل بغداد واجتياز النيل أحسن عندي من ذيك الجيات  
وطاقتها أصلح من أربعين ميل ان مرت الريح عليه وجات  
لم يلتق الغبار أمارا ولا بمقدار ما يكتحل  
وكيف ولا فيه موضع رفاعا الا ويسرح فيه النحل

وهذه الطريقة الزجلية لهذا العهد في العامة بالأندلس من الشعر وفيها نظمهم حتى أنهم لينظمون  
بها في سائر البحور الخمسة عشر لكن بلغتهم العامة ويسمون الشعر الزجلي مثل قول شاعرهم :-

لى دهر يعشيق جفونك وسنين وأنت لاشفقة ولا قلب يلين  
حتى تري قلبي من أجلك كيف رجع صنعة السكة ما بين الحدادين  
الدموع ترشرش والنار تلتهب والمطارق من شمال ومن يمين

خلق الله النصاري للغزو وأنت تغزو في قلوب العاشقين  
 وكان من المحيدين لهذه الطريقة لأول هذه المائة الأديب أبو عبد الله الألويسي وله من قصيدة  
 يمدح فيها السلطان ابن الأحمر

طل الصباح قم يا نديمي نشربوا	ونضحكو من بعد ما نظربوا
سبيكة الفجر أحلت شققا	في مليق الليل قوم قلبوا
ترى غبار خالص أبيض تقى	فضه هو لكن الشفق ذهبوا
وسقوا سكتوا عند البشر	نور الجفون من نورها تكسبوا
فهو النهار يا صاحبي للعاش	عيش الفقى فيه بالله ما أطبوا
والليل نصا للقبل والعناق	على صرير الوصل يتقبلوا
جاد الزمان من بعد ما كان بخيل	واش كملتته من يريه عقربوا
كأجرع مر وفيما قد مضى	يشرب سواه ويأكل طيبوا
قال الرقيب يا أديبا لاش ذ	في الشرب والعشق ترى تنجبوا
وتعجبوا عذالى من ذا الخبر	قلب يا قوم محما تتعجبوا
يعشق مليح الارقيق الطباع	علاش تكفروا بالله أوتكتبوا
ليس يريح الحس الاشاعر أديب	يفض بكرو ويدع ثيبوا
أما الكاس فحرام نعم حرام	على الذى ما يدري كيف يشربوا
وبد الذى يحسب حسابه ولم	يقدر بحسن ألفاظ أن يحلبوا
وأهل العقل والفكر والمجون	يعفر ذنوبهم لهذا إن أذنبوا
ظى بهى فيها يطنى الجر	وقلبي فى جمر الغضى يلهبوا
غزال بهى ينظر قلب الأسود	وما لهم قبل النظر يذهبوا
ثم يحيمهم إذا ابتسم يضحكو	ويفرحوا من بعد ما يندبوا
فويم كالحاتم وثغر تقى	خطيب الأمة للقبل يخطبوا
جوهر ومرجان أى عقد يافلان	قد صفقه الناظم ولم يتقبوا
وشارب أخضر يريد لاش يريد	من شبهه بالمسك قد عيبوا
يسبل دلال مثل جناح الغراب	ليالى هجري منه يستغربوا
على بدن أبيض بلون الحليب	ماقط راعى الغنم يحلبوا
وزوج هندات ما علمت قبلها	ديك الصلايا ربت ما أصلبوا
تحت السكع كن منها خضر رقيق	من رقتو يخفى اذا تطلبوا
أرق هو من ديني فيما تقول	جديد عتبك حق ما أكذبوا
أى دين بقى لى معاك وأى عقل	من يتبعك من ذا وذا تسلبوا

تحمل أرداف ثقال كالرقب  
ان لم ينفس غدر أو ينشع  
يصير اليك المكان حين تجي  
محاسنك مثل خصال الأمير  
عماد الأمصار وفصيح العرب  
يحمل العلم انفراد والعمل  
ففي الصدور بالرمح ما أطعنه  
من السماء يحسد في أربع صفات  
الشمس نور والفجر همتو  
يركب جواد الجود ويطلق عنان  
من خلعتو يلبس كل يوم بطيب  
نعمتو تظهر على كل من يحبه  
قد أظهر الحق وكان في حجاب  
وقد بنى بالسر ركن التقى  
تخاف حين تلقاه كما ترجيه  
يلقى الحروب ضاحك وهو عابسه  
إذا جبد سيفه ما بين الردود  
وهو سمي المصطفى وآله  
تراه خليفة أمير المؤمنين  
لدى الامارة تخضع الرؤوس  
بيته ببق بدور الزمان  
وفي المعالي والشرف يبعدوا  
والله يقيهم ما دار الفلك  
وما تغنى ذا القصيد في عروض  
حين ينظر العاشق وحين يرقبو  
في طرف ديسا والبشر تطلبو  
وحين تغيب ترجع في عيني تبو  
أو الرمل من هو الذي يحسبو  
من فصاحة لفظه يتقربو  
ومع بديع الشعراً ما أكتبو  
وفي الرقاب بالسيف ما أضربو  
فمن يعدد قلبي أو يحسبو  
والغيث جود والنجوم منصبو  
الأغنيا والجند حين يركبو  
منه بناب المعالي تطيبو  
قاصد ووارد قط ما خيبو  
لاش يقدر الباطل بعد ما يحجبو  
من بعد ما كان الزمان خربو  
فمع سماحة وجهه ما أسيبو  
غلاب هو لاشي في الدنيا يغلبو  
فليس شيء يغني من يضربو  
للسلطنة اختاروا واستنخبو  
يقود جيوشو ويزين موكبو  
نعم وفي تقيل يديه يرغبو  
يطلعوا في المسجد لا يغربو  
وفي التواضع والحيا يقربو  
وشرقت شمسهم ولاح كوكبو  
يا شمس خدر مالها مغربو

ثم استحدث أهل الأمصار بالمغرب فنا آخر من الشعر في أعاريض مزدوجة كالמושح نظموا فيه بلغتهم  
الحضرية أيضاً وسموه عروض البلد وكان أول من استحدثه فيهم رجل من أهل الأندلس نزل بفاس يعرف  
بأبن عمير فنظم قطعة على طريقة الموشح ولم يخرج فيها عن مذاهب الأعراب مطلقاً

أبكاني بشاطي النهر نوح الحمام \* على البستان في الغصن قريب الصباح  
وكف السحر يحو امداد الظلام \* وماء الندى يجري بشعر الأفتاح  
باكرت الرياض والطل فيها افتراق \* سر الجواهر في نحو الجوار



ودمع النواعر ينهرق انهرق \* محاكي ثعابين حلقت بالثار  
لو وبالغصون خلخال على كل ساق \* ودار الجميع بالروض دور السوار  
وأيدى الندى تمزق جيوب السكام \* ويحمل نسيم المسك عنها رياح  
وعاج الصبا يطلى بمسك الغمام \* وجر النسيم ديلوا عليها وفاح  
رأيت الحمام بين الورق في القضيبي \* قد ابتلت ارياشو بقطر الندى  
تنوح مثل ذاك المستهام الغريب \* قد التفت من توبو الحديد في ردا  
ولكن بما أحمر وساقوا خضيب \* ينظم سلوك جوهر ويتقلدا  
جلس بين الأغصان جلسة المستهام \* جناحا توسد والتوى في جناح  
وصار يشكي ما في الفؤاد من غرام \* منها ضم منقاره لصدرة وصاح  
فقلت يا حمام أحرمت غنى الهجوع \* أراك ما تزال تبكي بدمع سفوح  
قال لي بكيت حتى صفت لي الدموع \* بلاد مع نبق طون حياتي تنوح  
على فرخ طار لي لم يكن له رجوع \* ألفت البكا والحزن من عهد نوح  
كذا هو الفاء كذا هو الزمام \* انظر جفون صارت بحال الجراح  
وأنتم من بسكي مسك اذا تم عام \* يقول عناني ذا البكا والنواح  
قلت يا حمام لو خضت بحر الضنى \* كنت تبكي وترثي لي بدمع هنون  
ولو كان بقلبك ما بقلبي أنا \* ما كان يصير تحتك فروع الغصون  
اليوم أقاسى الهجر كم من سنا \* حتى لاسيل جملة تراني العيون  
ومما كسا جسمي التحول والسقام \* خفاني نحو لي عن عيون اللواح  
لو جتني المنايا كان يموت في المقام \* ومن مات بعد يا قوم لقد استراح  
قال لي لورقدت لأوراق الرياض \* من خوفي عليه ود النفوس للفؤاد  
وتخضبت من دمعى وذاك البياض طوق العبد في عنق ليوم التناد

أما طرف منقارى حديثوا استفاض بأطراف البلد والجسم صار في الرماد فاستحسنه أهل فاس  
وولعوا به ونظموا على طريقته وتركوا الأعراب الذي ليس من شأنهم وكثر سماعه بينهم واستفحل  
فيه كثير منهم ونوعوه أصنافا إلى المزدوج والكارى والملعبة والغزل واختلفت أسماؤها باختلاف  
ازدواجها وملاحظاتهم فيها فمن المزدوج ما قاله ابن شجاع من قولهم وهو من أهل تازا

المال زينة الدنيا وعز النفوس	يهي وجوها ليس هي باهيا
فها كل من هو كثير الفلوس	ولوه الكلام والرتبة العاليا
يكبر من كثر ماله ولو كان صغير	ويصغر عزيز القوم اذا يقتصر
من ذا ينطق صدرى ومن ذا يصير	يكاد ينفقع لولا الرجوع للقدر

حق يلتجى من هو في قوم كبير  
لدا ينبغي بحزن على ذى العكوس  
اللى صارت الأذنان أمام الرؤوس  
ضعف الناس على ذا وفسد الزمان  
اللى صار فلان يصيح بوفلان  
عشنا والسلام حق رأيا عيان  
كبار النفوس جدا أضعاف الأسوس  
بروا أنهم والناس بروهم تيوس

ومن مذاهم قول ابن شجاع منهم في بعض مزدوجاته

تعب من تبع قلوب ملاح ذا الزمان  
مامهم مديح عاهد إلا وخان  
بهوا على العناق وينمعوا  
وان واصلوا من حينهم يقطعوا  
مليح كان هو يتو وشت قلبي معو  
ومهدت لو من وسط قلبي مكان  
وهون عليك ما يعتريك من هوان  
حكمتو على واراضيت بو أمير  
يرجع مثل درحولى بوجه الغدير  
وتعلمت من ساعا بسبق الضمير  
ويحتل في مطلوبو ولو ان كان  
ويمشى سوقو ولو كان بأصهان

حتى أتى على آخرها وكان منهم على ابن المؤذن سلمان وكان لهذه العصور القريية من فحولهم بزرهون من ضواحي مكناسة رجل يعرف بالكفيف أبداع في مذاهب هذا الفن ومن أحسن ماعق له بمحفوظي قوله في رحلة السلطان أبي الحسن وبنى مريل الى افريقية يصف هزيمتهم بالقروان ويعز بهم عنها ويؤنسهم بما وقع لغيرهم بعد أن عيهم على غزاتهم الى أفريقية في ملعبة من فنون هذه الطريقة يقول في مفتتحها وهو من أبداع مذاهب البلاغة في الأشعار بالمفصّل الكلام وافتتاحه ويسمى براعة الاستهلال

سبحان مالك خواطر الأمرا \* ونواصيا في كل حين وزمان  
ان طعناه عطفهم لنا قسرا \* وان عصيناه عاقب بكل هوان

الى أن يقول في السؤال عن جيوش المغرب بعد التخلص

كن مرعى قل ولا تكن راعى \* فالراعى عن رعيته مسؤول

واستفتح بالصلاة على الداعى  
 على الخلفاء الراشدين والاتباع  
 أحجاجا تحللو الصحرا  
 عسكر فاس المنير الغرا  
 أحجاج بالنبي الذى زرتهم  
 عن جيش الغرب حين يسألهم  
 ومن كان بالعطايا يزودكم  
 قام قل للسد صادف الجزرا  
 ويزف كدوم وتهب فى الغيرا  
 لو كان ما بين تونس الغربا  
 مبنى من شرقها إلى غربا  
 لابد الطير أن تجيب نبا  
 ما أعوضها من أمور وما يرى  
 لجرت بالدم وانصدع حجرا  
 أدر لى بعقلك الفحاص  
 ان كان تعلم حمام ولا رفاص  
 تظهر عند المهيمن القصاص  
 الاقوم عاريين فلا ستر  
 ما يدريوا كيف يصوروا كسرا  
 أمولايأبو الحسن خطينا الباب  
 فقنا كنا على الجريد والزاب  
 ما بلغك من عمر فتى الخطاب  
 ملك الشام والحجاز وناج كسرى  
 رد ولدت لو كره ذكرى  
 هذا الفاروق مردى الأعوان  
 وبقت حمى إلى زمن عثمان  
 لمن دخلت غنائمها الديوان  
 وافترق الناس على ثلاثة أمرا  
 إذا كان ذا فى مدة البرا  
 للاسلام والرضا السني الكمول  
 واذا كر بعدهم إذا تحب وقول  
 ودوا سرح البلاد مع سكان  
 وين سارت بوعزائم السلطان  
 وقطعتم لو كلا كل البيدا  
 المتلوف فى افريقيا السودا  
 ويدع بربة الحجاز رغدا  
 ويعجز شوط بعد ما يخفان  
 أى مازاد عراهم شبحان  
 وبلاد الغرب سد السكندر  
 طبقا بجديدا وثانيا بصفر  
 أويأتى الريح عنهم بفرد خبر  
 لو تقرأ كل يوم على الديوان  
 وهوت الحراب وخافت العزلان  
 وتفكر لى بخاطرك جمعا  
 عن السلطان شهر وقبلة سبعا  
 وعلامات تنشر على الصمعا  
 مجهولين لامكان ولا إمكان  
 وكيف دخلوا مدينة القيروان  
 قضية سيرنا إلى تونس  
 واشلك فى أعراب أفريقيا القويس  
 العاروق فاتح القرى المولس  
 وفتح من افريقيا وكان  
 ونقل فيها تفرق الاخوان  
 صرح فى افريقيا بدأ التصريح  
 وفتحها ابن الزبير عن تصحيح  
 مات عثمان وانقلب علينا الريح  
 وبقي ماهو للسكوت عنوان  
 اش نعمل فى أواخر الازمان



وأنتحلت الخضر في مكناساته \* وفي تاريخ كائنا وكيوانا  
 نذكر في صحفها أعيان \* شق وسطيح وابن مرانا  
 ان مرين اذا انكف برابانا \* لجدا وتونس قد سقط بنيانا  
 قد ذكرنا ما قل سيد الوزرا \* عيسى ابن الحسن الرفيع الشأن  
 قل لي رأيت وأنا بذنا أدري \* لكن إدعاء القدر حميت الاعيان  
 ويقول لك مدهى المرييا \* من حصرة فاس إلى عرب دياب  
 أراد النولى بموت ابن بحى \* سلطان تونس وصاحب الأبواب  
 ثم أخذ في رحيل السلطان وجيوشه إلى آخر رحلته ومنتعنى أمره مع اعراب أفريقية وأتى فيها بكل  
 غريبة من لا بداع وأما أهل تونس فاستحدثوا في الملعبه أيسا على لغتهم الحضرية إلا أن أكثره  
 رديء ولم يعلق بمحتوئي منه شيء لرداءه وكان لعادته بغداد أيضا فن من الشعر يسمونه المواليات  
 وتحنه فنون كثيرة يسمون منها القوما وكان منهم مردود منه في بيتين ويسمونه دو بت على الاختلافات  
 المعتبرة عندهم في كل واحد منها وغلبها مردود حنه من أربعة أعضان وتبعهم في ذلك أهل مصر القاهرة وأتوا  
 فيها بالغرائب وتبحروا فيها في أساليب البلاء بمقتضى لغتهم الحضرية فبوا بالعجائب ومن أعجب ما علق  
 بحفظي منه قول شاعرهم

هذا حرى حى طربا \* والدمى تتضح \* وقتلى بأخيا \* فى الملا عرح  
 قلوا وناحد بشول \* قلت ذا فبصح

ولغيره

طرقت باب الحبا قلت من الطارق \* فقلت مفتون لانا هب ولا سارق  
 تبسمت لاح لى من ثغرها برفق \* رجعت حيران فى بحر ادمعى غارق

ولغيره

عهدي بها وهى لا تامن على البين \* وان شكوت الهوى قلت فدنك العين  
 لمن تعني لها عبرى غليم زين \* ذكرنها العهد قلت لك على دين  
 ولغيره فى وصف الحشيش

دى خم صرف التى عهدي بها باقى \* تغنى عن الخمر والخمار والساق  
 قحبا ومن قحبها تعمل على احراقى \* حببتها فى الحشى ظلمت من أحداق

ولغيره

يامن وصالو لأطفال المحبة \* كم توجع القلب بالهجران أوه أح  
 أودعت قلبى حوحو والتصبر يح \* كل الورى كنخ فى عيني وشخصك دح

ولغيره

ناديتها ومشبي قد طواني طى \* جودى على بقبله في الهوى يامى  
قالت وقدلى كوت داخل فؤادي كي \* ماهكذا القطن يحشي فم من هو حى

ولغيره

رآنى أبتسم سبقت سحب أدمعى برقه \* ماط اللثام تبدى بدر فى شرقه  
أسبل دجى الشعرتاه القلب فى طرقة \* رجع هداانا بنحيط الصبح من فرقه

ولغيره

يا حادى العيس ازجر بالمطايا زجر \* وقف على منزل أجلبى قبيل الفجر  
وصيح فى حيمهم يامن يريد الأجر \* ينهض يصلى على ميت قتيل الهجر

ولغيره

عيني التى كنت أرها كم بها باتت \* ترعى النجوم وبالتشديد اقتاتت  
وأسهم البين صابتنى ولا فاتت \* وساوتى عظم الله أجركم ماتت

ولغيره

هويت فى قنطرتم ياملاح الحكر \* غزال يبلى الاسود الضاريا بالفكر  
غصن إذا ما اثنتى يسى البنات البكر \* وان تهلل فما للبدر عند وذر

ومن الذى يسمونه دويت

قد أقسم من أحبه بالبارى \* أن يبعث طيفه مع الأشجار

يانار أشواق به فاتقدى \* ليلا عساه يهتدى بالنار

واعلم أن الأذواق فى معرفة البلاغة كلها إنما يحصل لمن خالط تلك اللغة وكثر استعماله لها ومخاطبته بين  
أجيالها حتى يحصل ملكتها كما قلناه فى اللغة العربية فلا الأندلسى بالبلاغة التى فى شعر أهل المغرب ولا  
المغربى بالبلاغة التى فى شعر أهل الأندلس والشرق ولا المشرق بالبلاغة التى فى شعر أهل الأندلس  
والغرب لأن اللسان الحضرى وتراكيبه مختلفة فيهم وكل واحد منهم مدرك للبلاغة لغته وذائق عاين الشعر  
من أهل جلده وفى خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم آيات وقد كدنا أن نخرج عن  
الغرض وعزمنا أن نقبض العنان عن القول فى هذا الكتاب الأول الذى هو طبيعة العمران وما يعرض فيه  
وقد استوفينا من مسائله ما حسبناه كفاية ولعل من يأتى بعدنا ممن يؤيده الله بفكر صحيح وعلم مبين يغوص  
من مسائله على أكثر مما كتبنا فليس على مستنبط الفن أحصاء مسائله وإنما عليه تعيين موضع العلم وتنويع  
فصوله وما يتكلم فيه والمتأخرون يلحقون المسائل من بعده شيا فشيا إلى أن يكمل والله يعلم وأتم لا تعلمون  
قال مؤلف الكتاب عفا الله عنه أتممت هذا الجزء الأول بالوضع والتأليف قبل التنقيح والتهذيب فى  
مدة خمسة أشهر آخرها منتصف عام تسعة وتسعين وسبعائة ثم نقحته بعد ذلك وهذبتة والحقت به  
تواريخ الأئم كما ذكرنا فى أوله وشرطته وما العلم الامن عند الله العزيز الحكيم

﴿ فهرست مقدمة ابن خلدون ﴾

صحيفة	صحيفة	صحيفة
٦ المقدمة في فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والاماع لما يفرض للمؤرخين من المغالط والاوهام وذكر شيء من اسبابها	٥٨ المقدمة الثالثة في الممتدل من الاقاليم والمنحرف وتاثير الهواء في ألوان البشر والكثير من أحوالهم	٨٨ فصل في أن اهل البدو اقرب الى الشجاعة من اهل الحضر
٢٦ الكتاب الاول في طبيعة العمران في الخلقة وما يمرض فيها من البدو والحضر والتقلب والكسب والمعاش والصنائع والعلوم ونحوها وما لذلك من العلل والاسباب ( وفيه ستة فصول كبار )	٦١ المقدمة الرابعة في أثر الهواء في أخلاق البشر	٨٩ فصل في أن معاناة اهل الحضر للاحكام مفسدة للبأس فيهم ذاهبة بالمنفعة منهم
٣٠ الفصل الاول من الكتاب الاول في العمران البشري على الجملة وفيه مقدمات	٦٢ المقدمة الخامسة في اختلاف أحوال العمران في الخصب والجوع وما ينشأ عن ذلك من الآثار في ابدان البشر وأخلاقهم	٩٠ فصل في أن سكنى البدو لا يكون الا للقبائل اهل العصبة
٣٠ المقدمة الاولى في أن الاجتماع الانسانى ضرورى	٦٥ المقدمة السادسة في أصناف المدركين للغيب من البشر بالفطرة أو بالرياضة ويتقدمه الكلام في الوحي والرؤيا	٩١ فصل في أن العصبية انما تكون من الالتحام بالنسب او ما في معناه
٣٣ المقدمة الثانية في قسط العمران من الارض والاشارة الى بعض ما فيه من الاشجار والانهار والاقاليم	٦٨ حقيقة النبوة والكهانة والرؤيا وشان العرافين وغير ذلك من مدارك الغيب	٩٢ فصل في أن العريج من النسب انما يوجد للمتوحشين في القفر من العرب ومن في مضام
٣٥ تكملة لهذه المقدمة الثانية في أن الريح الشمالى من الارض أكثر عمرا من الريح الجنوبى وذكر السبب في ذلك	٨٥ الفصل الثانى من الكتاب الاول في العمران البدوي والاعم الوحشية والقبائل وما يعرض في ذلك من الاحوال وفيه اصول وتعميدات	٩٢ فصل في اختلاط الانساب كيف يقع
٣٧ تفصيل الكلام على هذه الجغرافيا	٨٥ فصل في أن أجيال البدو والحضر طبيعية	٩٣ فصل في أن الرياسة لاتزال في نصابها المخصوص من اهل العصبية
٣٨ الاقليم الاول	٨٦ فصل في أن جيل العرب في الخلقة طبعى	٩٣ فصل في أن الرياسة على اهل العصبية لاتكون في غير نسبهم
٤١ الاقليم الثانى	٨٧ فصل في أن البدو أقدم من الحضر وسابق عليه وأن البادية أصل العمران والامصار مدد لها	٩٥ فصل في أن البيت والشرف بالاصالة والحقيقة لاهل العصبية ويكون لغيرهم بالحجاز والشبه
٤٢ الاقليم الثالث	٨٧ فصل في أن أهل البدو أقرب الى الخير من أهل الحضر	٩٦ فصل في أن البيت والشرف للموالى وأهل الاصطناع انما هو بمواليهم لا بانسابهم
٤٧ الاقليم الرابع		٩٦ فصل في أن نهاية الحسب في العقب الواحدة أربعة آيات فصل في أن الامم الوحشية
٥١ الاقليم الخامس		
٥٥ الاقليم السادس		
٥٧ الاقليم السابع		



صحيفة	صحيفة	صحيفة
١١٥ فصل في ان الاوطان الكثيرة القنائ والعصائب قل ان تستحكم فيها دولة	الامم عن سياسة الملك ١٠٨ فصل في ان الدوايد من القنائ والعصائب مغلوبون لاهن الا بمصار	أقدر على التغلب ممن سواها ٩٨ فصل في ان الغاية التي تحري اليها العصبية هي الملك
١١٧ فصل في ان من طيبة الملك الانفراد بالجد	١٠٨ الفصل الثالث من الكتاب الاول في الدولة العامة والملك والحلافة والبراق	٩٩ فصل في ان من عوائق الملك حصول الترف والغماس القليل في السيم
١١٧ فصل في ان من طيبة الملك الترف	السمطانية وما يمرض في ذلك كله من الاحوال وفيه قواعد ومنهات	١٠٠ فصل في ان من عوائق حصول الملك القليل والابقاد الى سواهم
١١٨ فصل في ان من طيبة ملك الدعة والسكون	١٠٨ فصل في ان الملك والدولة العامة انما يحصل القليل والعصبية	١٠١ فصل في ان من علامات الملك تنافس الخلال الحميدة وبالعكس
١١٨ فصل في ان اذا استحكمت طبيعة الملك من الانفراد بالجد وحصول الترف والدعة اوقات الدولة على الهم	١٠٩ فصل في ان اذا استقرت الدولة وتمهدت فقد تستقيم عن العصبية	١٠٢ فصل في ان هذا كانت الامة وحشة كان ملكها اوسع
١١٩ فصل في ان الدولة لما اعمار طبيعية كمال الاشخاص	١١٠ فصل في ان قد يحدث بعض اهل النساب للملكي دولة تستعي عن العصبية	١٠٣ فصل في ان الملك اذا ذهب عن بعض الشعوب من امة فلا بد من عوده الى شعب آخر منها اذ ادمت لهم العصبية
١٢١ فصل في ان قال الدولة من البداوة الى الحضارة	١١١ فصل في ان الدولة العامة الاستيلاء العظيمة الملك اصلها الدين اما من نبوة او دعوة حق	١٠٤ فصل في ان المغلوب مولع ابدا بالاقبدا بالغالب في شعاره وزيه ونجاءه وسائر احواله وعوائده
١٢٢ فصل في ان الترف يريد الدولة في اواباقه الى قوتها	١١١ فصل في ان الدعوة الدينية تزيد الدولة في اسلها قوة على قوة العصبية التي كانت لها من عدها	١٠٤ فصل في ان الامة اذا غلبت وصارت في ملك غيرها أسرع اليها الداء
١٢٣ فصل في ان طوار الدولة واختلاف ادوارها وخلق اهلها باختلاف الاطوار	١١٢ فصل في ان الدعوة الدينية من غير عصبية لا تنجح	١٠٥ فصل في ان العرب لا يغلبون الا على البسائط
١٢٤ فصل في ان آثار الدولة كلها على استقامتها في اصلها	١١٣ فصل في ان كل دولة لها حصة من الممالك والاطوار لا تزيد عليها	١٠٥ فصل في ان العرب اذا تغلبوا على اوطان أسرع اليها الخراب
١٢٨ فصل في ان نظار صاحب الدولة على قومه وأهل عصبيته بالموالي والمصطنعين	١١٤ فصل في ان عظم الدولة واتساع نطاقها وطول امدها على نسبة القائمين بها في القوة والكثرة	١٠٦ فصل في ان العرب لا يحصل لهم الملك الا عصبية دينية من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجمعة
١٢٩ فصل في ان الموالي والمصطنعين في الدول		١٠٧ فصل في ان العرب اجمع
١٣٠ فصل في ان يمرض في الدول من حجر السلطان والاستعداد عليه		
١٣١ فصل في ان المتغلبين على السلطان لا يشاركونه في اللقب الخاص بالملك		
١٣٢ فصل في حقيقة الملك وأصنافه		

صفحة	صفحة	صفحة
٢٠١ فصل في أن نقص المعطاء من السلطان نقص في الجباية	١٩٠ فصل في الحروب ومذاهب الأئمة في ترتيبها	١٣٢ فصل في أن أرهاق الخدم مصر بالملك ومفسد له في الأكثر
٢٠١ فصل في أن الظلم مؤذن بخراب العمران	١٩١ فصل ومن مذاهب أهل الكبر والفر في الحروب درب	١٣٣ فصل في معنى الخلافة والإمامة
٢٠٣ فصل ومن أشد الظلمات أعظمها في فساد العمران تكليف الأعمال وتسخير الرعايا بغير حق	١٩٢ فصل ولما ذكرناه من ضرب المصنف وراء العداكر وتناكده في قتال الكبر والفر صدر ملوك أعزب ويخدون طائفة من الأفرنج في حنهم الخ	١٣٤ فصل في اختلاف الإمامة في حكم هذا المصنف وشروطه
٢٠٣ فصل وأعظم من ذلك في الظلم وفساد العمران والدولة السط على أمور الناس شراء ما يناسبهم بخس الائتمار	١٩٢ فصل وما أن أئمة الترك لهذا العهد فإلهم مدانة البهائم	١٣٨ فصل في مذاهب الشيعة في حكم الإمامة
٢٠٤ فصل في الحجاب كيف يقع في الدول وأنه يعظم عند أهرم	١٩٣ فصل وكان من مذاهب الأول في حروبهم حذر الخنادق على معسكرهم	١٤٢ فصل في انقلاب الخلافة إلى الملك
٢٠٥ فصل في انقسام الدولة لواحدة بسوانين	١٩٥ فصل ويخلق معنى القنب في الحروب	١٤٧ فصل في معنى البهيم
٢٠٦ فصل في أن الهرم إذا برز بالدولة لا يرتفع	١٩٦ فصل في الجباية وسبب قتلها وكثرة في الحروب	١٤٧ فصل في ولاية العهد
٢٠٧ فصل في كيفية طروق التدخل للدولة	١٩٧ فصل في ضرب المكوس أواخر الدولة	١٥٣ فصل في الخطط الدينية لجلالة
٢٠٩ فصل في حدوث الدولة وتجددها كيف يقع	١٩٧ فصل في أن الزخازنة من السادات مصر بالزخازنة مفسدة للجباية	١٥٩ فصل في المنصب مع المؤمنين وأنه من سمات الخلافة وهو محدث مندع بالخلافة
٢١٠ فصل في أن الدولة المستجدة إنما تسبولى على الدولة المستقرة بالمطاول لا بالمناخزة	١٩٩ فصل في أن ثورة السلطان وحاشيته إنما تكون في وسط الدولة	١٦١ فصل في شرح اسم البابا والبطريرك في الملة النصرانية واسم السكوهن عند اليهود
٢١٢ فصل في وفور العمران آخر الدولة وما يقع فيها من كثرة الموتان والمجاعات	٢٠٠ فصل ولما يوقع أهل الدولة من أمثال هذه المعاطب صار السكته منهم يتزعون إلى الفرار عن الرتب والخلص من رتبة السلطان الخ	١٦٤ فصل في مراتب الملك والساخطان وألقابهما
٢١٢ فصل في أن العمران البشري لا بدله من سياسة ينتظم بها أمره		١٧٠ ديوان الأعمال والجبايات
٢١٨ فصل في أمر الفطمي وما		١٧٢ ديوان الرسائل والكتابة
		١٧٦ قيادة الأساطين (وهي سفائن الحرب)
		١٨٠ فصل في النذوت بين مراتب السيف والقيم في الدول
		١٨٠ فصل في شارح الملك والسلطان الخاصة به
		١٨٢ الفصل في المير والنعت والكبرى
		١٨٢ السكة
		١٨٥ الخاتم
		١٨٦ الطراز
		١٨٧ الساطط على السياج
		١٨٨ المقصورة للصلاة وللدعاء

صحيفة	صحيفة	صحيفة
يذهب اليه الناس في شانه وكشف الفطاء عن ذلك ٢٣١ فصل في ابتداء الدول والأئمة وفيه الكلام على اللاحم والكشف عن مسمى الجفر ٢٤١ - الفصل الرابع من الكتاب الأول في البلدان والأوصاف وسائر العمران وما يمرض في ذلك من الأحوال وفيه سوابق ولواحق ٢٤١ فصل في أن الدول أقدم من المدن والأوصاف وانها انما توجد ثانية عن الملك ٢٤٢ فصل في أن الملك يدعو الي نزول الأوصاف ٢٤٢ فصل في أن المدن العظيمة والها كل المرتفعة انما يشيدها الملك الكثير ٢٤٣ فصل في أن الها كل العظيمة جدا لا تستقل بيناتها الدولة الواحدة ٢٤٤ فصل فيما يجب مراعاته في أوضاع المدن وما يحدث اذا غفل عن تلك المراعاة ٢٤٥ فصل ومما يراعى في البلاد الساحلية التي على البحران تكون في جبل أو تكون بين أمة من الأئمة الخ ٢٤٦ فصل في المساجد والبيوت العظيمة في العالم ٢٥٠ فصل في أن المدن والأوصاف بأفريقية والمغرب قليلة ٢٥١ فصل في أن المباني والمصانع في الملة الإسلامية قليلة بالنسبة الى قدرتها والى من كان	قبلها من الدول ٢٥٢ فصل في أن المباني التي كانت تختطها العرب تسرع اليها الخراب الا في الأقل ٢٥٢ فصل في مبادئ الخراب في الأوصاف ٢٥٣ فصل في أن تفاضل الأوصاف والمدن في كثرة الرفه لاهلها وقاق الأسواق انما هو في تفاضل عمراتها في الكثرة والقلة ٢٥٥ فصل في أعمار المدن ٢٥٦ فصل في قصور أهل البادية عن سكنى المصر الكثير العمران ٢٥٧ فصل في أن الاقطار في اختلاف أحوالها بالرفه والفقر مثل الأوصاف ٢٥٨ فصل تأثر المقار والضيايح في الأوصاف وفوائدها ومستفلاتها ٢٥٩ فصل في حاجات المتولين من أهل الأوصاف الى الجهاد والمدافعة ٢٥٩ فصل في أن الحضارة في الأوصاف من قبل الدول وانها ترسخ باتصال الدولة ورسوخها ٢٦١ فصل في أن الحضارة غاية العمران ونهاية لعمره وانها مؤذنة بفساده ٢٦٣ فصل في أن الأوصاف التي تكون كراعى للملك تخرب بخراب الدولة وانتقاضها ٢٦٥ فصل في اختصاص بعض الأوصاف ببعض الصنائع	دون بعض ٢٦٥ فصل في وجود العصبية في الأوصاف وتقلب بعضهم على بعض ٢٦٦ فصل في لغات أهل الأوصاف ٢٦٧ الفصل الخامس من الكتاب الأول في المعاش ووجوهه من الكسب والصنائع وما يعرض في ذلك كله من الأحوال وفيه مسائل ٢٦٧ فصل في حقيقة الرزق والكسب وشرحهما وان الكسب هو قيمة الأعمال البشرية ٢٦٩ فصل في وجوه المعاش وأصنافه ومذاهبه ٢٦٩ فصل في أن الخدمة ليست من المعاش الطبيعي ٢٧٠ فصل في أن ابتغاء الأموال من الدقائق والكنوز ليس بمعاش طبيعي ٢٧٣ فصل في أن الجاه مفيد للعالم ٢٧٤ فصل في أن السعادة والكسب انما يحصل غالبا لأهل الخضوع والتعلق وان هذا الخلق من أسباب السعادة ٢٧٦ فصل في أن القائمين بأمور الدين من القضاء والفتيا والتدريس والامامة والخطابة والاذان ونحو ذلك لا تعظم ثروتهم في الغالب ٢٧٧ فصل في أن الفلاح من معاش المستضعفين وأهل العافية من البدو



صحيفة	صحيفة	صحيفة
الجدل والخلافات	٢٨٥ فصل في صناعة الفلاحة	٢٧٧ فصل في معنى التجارة
٢٢١ علم الكلام	٢٨٥ فصل في صناعة البناء	ومذاهبها واصنافها
٢٢٨ علم التصوف	٢٨٨ فصل في صناعة التجارة	٢٧٧ فصل في أي اصناف الناس
٢٣٣ تعبير الرؤيا	٢٨٩ فصل في صناعة الحياكة	يحترف بالتجارة وأيهم بنيتي
٢٣٥ العلوم العقلية واصنافها	والخياطة	له اجتناب حرفها
٢٣٧ العلوم العددية	٢٨٩ فصل في صناعة التوليد	٢٧٨ فصل في ان خلق التجارة
٢٣٨ ومن فروع علم العدد	٢٩١ فصل في صناعة الطب وانها	نازلة عن خلق الاشراف
صناعة الحساب	محتاج اليها في الحواضر	والملوك
٢٣٩ ومن فروعها الجبر والمقابلة	والامصار دون البادية	٢٧٨ فصل في نقل التاجر للسلع
٢٣٩ ومن فروعها ايضا المعاملات	٢٩٣ فصل في أن الخط والكتابة	٢٧٩ فصل في الاحتكار
٢٣٩ ومن فروعها أيضا الفرائض	من عداد الصنائع الانسانية	٢٧٩ فصل في أن رخص الاسعار
٢٤٠ العلوم الهندسية	٢٩٦ فصل في صناعة الوراق	مضر بالمحترفين بالرخص
٢٤١ ومن فروع هذا الفن الهندسة	٢٩٧ فصل في صناعة الفناء	٢٨٠ فصل في أن خلق التجارة نازلة
الخصوصة بالاشكال الكرية	٣٠٠ فصل في ان الصنائع تكسب	عن خلق الرؤساء وبعبدة
والمخروطات	صاحبها عقلا وخصوصا	من المرواة
٢٤١ ومن فروع الهندسة المساحة	الكتابة والحساب	٢٨١ فصل في أن الصنائع لا بد
٢٤١ المناظر من فروع الهندسة	٣٠١ الفصل السادس من الكتاب	لها من الملم
٢٤١ علم الهيئة	الاول في العلوم واصنافها	٢٨١ فصل في أن الصنائع انما
٢٤٢ ومن فروع علم الازياج	والتعليم وطرقه وسائر وجوهه	تكمل بكمال العمران
٢٤٣ علم المنطق	وما يعرض في ذلك كله وفيه	المصري وكثرته
٢٤٥ علم الطبيعات	من الاحوال مقدمة وتواحق	٢٨٢ فصل في أن رسوخ الصنائع
٢٤٥ علم الطب	٣٠١ فصل في ان العلم والتعليم	في الامصار انما هو رسوخ
٢٤٦ فصل وللبادية من أهل العمران	طبيعي في العمران البشري	الحضارة وطول أمدتها
طب ينونه في غالب الامر	٣٠٢ فصل في ان التعليم للعلم	٢٨٣ فصل في ان الصنائع انما
على تجربة قاصرة على بعض	من جملة الصنائع	تستجد وتكثر اذا كثر
الاشخاص الخ	٣٠٤ فصل في ان العلوم انما	طالبها
٢٤٦ الفلاحة	تكثر حيث يكثر العمران	٢٨٣ فصل في أن الامصار اذا
٢٤٧ علم الالهيات	وتعظم الحضارة	قاربت الخراب انتقصت منها
٢٤٨ علوم السحر والطلسمات	٣٠٥ فصل في اصناف العلوم	الصنائع
٢٥٢ فصل ومن قبيل هذه التأثيرات	الواقعة في العمران لهذا العهد	٢٨٣ فصل في ان العرب ابد
النفسانية الاصابة بالعين	٣٠٦ علوم القرآن من التفسير	الناس عن الصنائع
٢٥٣ علم اسرار الحروف	والقرآت	٢٨٤ فصل في ان من حصلت له
٢٥٥ ومن فروع علم السيمياء عند	٣٠٩ علوم الحديث	ملكة في صناعة قتل أن
استخراج الاجوبة من الاسئلة	٣١٢ علم الفقه وما يتبعه من الفرائض	يجيد بعدها ملكة اخرى
٢٥٧ الكلام على استخراج نسبة	٣١٦ علم الفرائض	٢٨٥ فصل في الاشارة الى امهات
الاوزان وكيفياتها ومقادير	٣١٧ اصول الفقه وما يتعلق به من	الصنائع

صحيفة	صحيفة	صحيفة
فائدة بنفسها مخالفة للغة مضر	واسم جالة وجودها وما ينشأ	المقابل منها وقوة الدرجة
٤١٢ فصل في تعليم اللسان المصري	من لغاتها عن اسمائها	المنمزة بالنسبة الى موضع
٤١٣ فصل في ان ملكة هذا اللسان	٣٩٢ فصل في ان كثرة النطق	المعنى من امر ارجطيا لغوهم
غير صالحة العربية وما تميز عنها	في العلوم عثقة عن التعصيل	طب او صناعة الكيمياء
في التعليم	٣٩٣ فصل في ان كثرة الادب	٣٥٧ الطب الروحاني
٤١٤ فصل في تفسير الالف في مصطلح	المؤلف في العلوم مجتبه بالتعليم	٣٥٨ مضاريج الشعاع في
اهل البيان وتحقيق معناه	٣٩٤ فصل في وجاهة ابوت تعليم	مواليد الملوك وبهم
وسان انه لا يحصل غالبا	العلوم وطريق الفقه	٣٥٨ الاعمال الروحاني ولا يقيد
المعبرين من المعجم	٣٩٥ فصل وعنه اسماء علم الخ	الرائي
٤١٥ فصل في ان اهل الامصار هلي	٣٩٦ فصل في ان العلوم الانبياء لا توسع	٣٥٩ اتصال انوار الكرام ك
لا طائفة قادرون في تعصيل	في الاطار لا مخرج المسائل	٣٥٩ مقامات الخفة ومن لفوس
هذه الملكة اللسانية الى استفاد	٣٩٧ فصل في تعليم اولاد و اختلاف	والجاهة في الصناعة والساد
تعليمهم ومن كان منهم مدعي	مدى الامصار لاسلامه في	وحب ونشق وماء العسل
اللسان العربي كان حصو لها	طريقه	وتوجه ومراقبة وحلها في
اسباب واعتبر	٣٩٩ فصل في ان الذنوع على المعلمين	٣٦٠ فصل في المقامات والنهاية
٤١٧ فصل في اقسام الكمال في	مصره به	٣٦٠ الوصية والخم والاثان
النظم والشر	٣٩٩ فصل في ان الرحمة في ص العلوم	والاسلام والبحر والاهانة
٤١٨ فصل في ان لا يتفق لاحدة	ولما لم يخبر في تعليم	٣٦١ كيفية العلم في استخراج
في غير المنطوق والمنثور معا	٤٠٠ فصل في ان العلماء من ب الشرح	اجوبه المسائل من ربح
الافان	احد عن السياسة ومدى بها	العلم بحول التمهيد لا عن
٤١٩ فصل في صناعة الشعر ووجه	٤٠١ فصل في ان حلة العرب في الاسلام	تقباه من القاتين عليها
تعليمه	اكثرهم المعجم	٣٦٩ فصل في الاطلاع على الاسرار
٤٢٥ فصل في صناعة النظم والشر	٤٠٢ فصل في علوم اللسان العربي	الخفية من جهة الارنابات
انما هي في الالفاظ لا المعاني	٤٠٣ علم النحو	الحرفية
٤٢٥ فصل في ان حصول هذه الملكة	٤٠٤ علم الامة	٣٧١ فصل في الاستدلال على
بكثرة الحفظ وجودها بحودة	٤٠٦ علم البيان	ما في الضمائر الخفية باقوا بين
المحفوظ	٤٠٨ علم الادب	٣٧٣ علم الكيمياء
٤٢٧ فصل في ترفع اهل المراتب	٤٠٩ فصل في ان اللغة ملكة صناعية	٣٨٠ فصل في ابطال الفلسفة وفساد
عن الاتحال	٤١٠ فصل في ان لغة العرب لهذا العهد	منتجها
٤٢٨ فصل في اشعار العرب واهل	لغة مستقلة مقايضة لغة مضر	٣٨٤ فصل في ابطال صناعة النجوم
الامصار لهذا العهد (وفيه	وحبر	وضعف مداركها وفساد قايها
اشعار الهلالية والزناقية)	٤١١ فصل في ان لغة الحضرة والامصار	٣٨٧ فصل في انكار نعمة الكيمياء
٤٢٦ الموشحات والازجال للاندلس		















